أبناء سومر

THE SONS OF SUMMER

د . شاكر الحاج مخلف

باحث مختص في تاريخ العراق القديم والمعاصر



أبناء سومر

The Sons Of Summer

أبنـاء سومـر

The Sons Of Summer

الدكتور
شاكر الحاج مخلف

الطبعة الأولى
2019 م - 1440 هـ



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2018/4/1736)

956.3

مخلف، شاكر الحاج

أبناء سومر/ شاكر الحاج مخلف.- عمان: دار دجلة للنشر والتوزيع، 2018

( ) ص.

ر.أ: (2018/4/1736)

الواصفات: / تاريخ العراق // السومريون // العراق

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



المملكة الأردنية الهاشمية

عمان – شارع الملك حسين – مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171 – الأردن

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

www.dardjlah.com

978-9957-71-911-1 : *ISBN*

الإهداء

إلى إنانا – و – حيان ....



الفهرس

الفصل الثاني: الديانة في سومر وما بعدها

الفصل الثالث: من بداية التكوين إلى الطوفان

الفصل الرابع: وصف قدرة الآلهة ومهماتها

المقدمة

اصـبحت الحضـارة السـومرية موضـع الاهـتمام لـدى العلـماء وفـرق التنقيـب الاركيولوجي الكونية التي وفدت الى العراق، والمعلومات التي نشرت تكاد تكـون شـحيحة جدا مقارنة بما نشر عن حضارتي بابل وآشور، ولقد راجعت أغلب الكتب والمنشورات التـي وضعت عن تلك الحضارة فوجدتها غير كافية للتعريف بالحضارة السومرية وذاك الشـعب المتفرد المتميـز في البحـث والانجـاز، محـاولتي هـذه هـي اسـتمرار للبحـث في الحضـارات القديمة التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين وتضاف الى الكتب المهمة التي اصدرتها من قبل مثل الاسطورة السومرية وكتاب الحضارة التي سبقت حضارة الاغريق والرومـان وغيرهـا – هذه الدراسة تتكون من عدة اجـزاء – الآن تمكنـا مـن نشر الجـزء الاول ونـترك الخطـوات الآخرى للمستقبل القريب إذا توفرت لنا الفرصة – والـلـه من وراء القصد...!

الفصل الأول

تفاصيل أساسية
لوحدة الحضارة الكونية القديمة



الفصل الأول

تفاصيل أساسية

لوحدة الحضارة الكونية القديمة



بـدأت الحضـارة الكونيـة في العديـد مـن المواقـع القديمـة، وكانـت أكثرهـا تواصـلا واستمرارا تلك المواقع التي نشأت بالقرب من الأنهار الكبيرة مثل " الدجلة والفرات والنيـل وبردى والليطاني " كما هي الحال في الصين والهند أيضا ومواقع أخرى، كانت تفاصـيل تلـك الحضارات غير معلومة ولكن بعد التنقيب في الكثير من المواقع رفع الستار عـن معلومـات مهمة عنها، عرفت البشرية تفاصيل تلك الحضارات المدهشة في الشرق الأوسط والأدنى وفي بلاد حوض النيل والأغريق واليونان، تلك الحضارات القديمة تركت أثرها في تكوين حضـارة

العالم الحديث، لب الحضارة الكونية ظهر في منطقة الشرق الأوسط – المنطقة التي يقال عنها " سوراقيا "- العراق سوريا – ثمة وحدة التكوين لهذه الحضارة العظيمة مادتها الإنسان والأرض والصلات المتشابكة، وتم من خلال عوامل الحروب والتجارة نقل ثقافة وحضارة سوراقيا إلى دول العالم القديم ومنها – الفرعونية واليونانية والرومانية وحضارة فالي وحضارة الصين وغيرها من المواقع، كما نقلت نتائج تلك الحضارة إلى أوروبا الغربية في مرحلة بداية العصور الوسطى، ظلت تلك الحضارة شامخة تبحر نحوها العيون والعقول وتتواصل في تكوينها عمليات البحث والدراسة رغم الغزوات والحروب البربرية والاستلاب الأستعماري، ساهم علم الآثار في وضع تسلسل زمني لتلك الحضارة من خلال المواقع المكتشفة في العراق وسوريا، ووصلت معلومات متكاملة من خلال عمليات التنقيب عن المراحل المبكرة في تاريخ الحضارة القديمة جدا في كلا الموقعين من تكوين سوراقيا، صار لدى العالم الجديد صورة واضحة عن مرحلة ما قبل التاريخ وما بعدها وفواصل تكوين الحضارة ومنجزاتها العلمية الابحار في سجلات لآلاف السنين ليس سهلا على الإطلاق وليس مرحلة بسيطة، وبنتيجة تراكم المعلومات الموثقة ظهرت الصورة الثقافية – الحضارية – كاملة – العثور على نماذج من الآثار وسجلات مكتوبة وموثقة من خلال ألواح الطين والنحت والفخار وتكوينات المعابد والقصور والقلاع والمدن، تلك كانت جهود كبيرة اطلعت بها حكومات ومؤسسات وجامعات وأفراد، تلك الرحلة العلمية لم تكن سهلة أبدا، حتى فترة قريبة من القرن الماضي لم تكن ملامح تلك الحضارة كاملة والصورة عن العالم القديم لم تكن واضحة، وكلما استمر التنقيب تستمر جذوة التواصل مع العالم القديم، كل لوح او رقيم يتم العثور عليه وإخراجه من مدافن العالم القديم يقدم إضافة او يعدل في مفردات سجل الحضارة..

النماذج الأولى..

من أهم الآثار التي قدمت التصور المصنوعات اليدوية وهي نتاج فن وثقافة وكتابة صورية ذات نقوش لها دلالات، كما ساهمت الهياكل البشرية والمعمارية على وضع إضافات مهمة لسجل حضارة العالم القديم، بين موقع وآخر يجد فروق واضحة في المفردات الحضارية، صارت بعد بداية مرحلة التنقيب والبحث وجود قاعدة للمعلومات عن حضارة بلاد ميزابوتاميا وما جاورها من مواقع حضارية وهي كثيرة منذ بداية القرن الماضي تواصلت المسيرة في البحث ونشر الوثائق عن أجيال ومراحل متداخلة، عرفنا شكل القرية والمدينة والمملكة والعمران والحروب والكتابة والجيوش وعن اهم التدوين والبيئة والانهار والكهوف التي استوطنها الإنسان القديم قبل تشكيل التجمعات الأولى والآلات الحجرية وكيف بدأت الثورة الزراعية وعن المعتقدات الدينية وعلوم التنجيم والسحر والعرافة والاحتفالات وطقوس الجنس والموت والكتابة والفنون والآدب والمدارس وطرق التعليم - وأمور أخرى عن العلاقات الديبلوماسية بين الممالك والتجارة والتبادل السلعي والمخاوف والبحث عن الخلود والملاحم والأساطير والشعائر والاناشيد، من خلال التكنولوجيا الحديثة تم سبر أغوار الكثير من الطلاسم المتعلقة بالعالم القديم وحضارته ومخلفات سجلاته الموثقة على ألواح الطين وصفحات البردي، بيقين تام تم كشف فضاء خمسة آلآف سنة مضت، كانت تلك ثقافة جيولوجية تتشابك مع العلم المثيولوجي الباهر، هذا الكتاب يشير ويوضح ويستخدم المتوفر من المعلومات والوثائق التي تم اكتشافها في مواقع التنقيب، كل المراجع والمصادر التي كتبت في القرن الماضي وبداية الحالي ستكون اسانيد لما يرد في صفحات الكتاب سوراقيا وحدة الحضارة، والكتابة تبدأ من العصور الحجرية مرورا بتواريخ الملوك والأباطرة والمدن التي كانت مؤثرة في الحرب والحضارة، في سومر وبابل وآشور

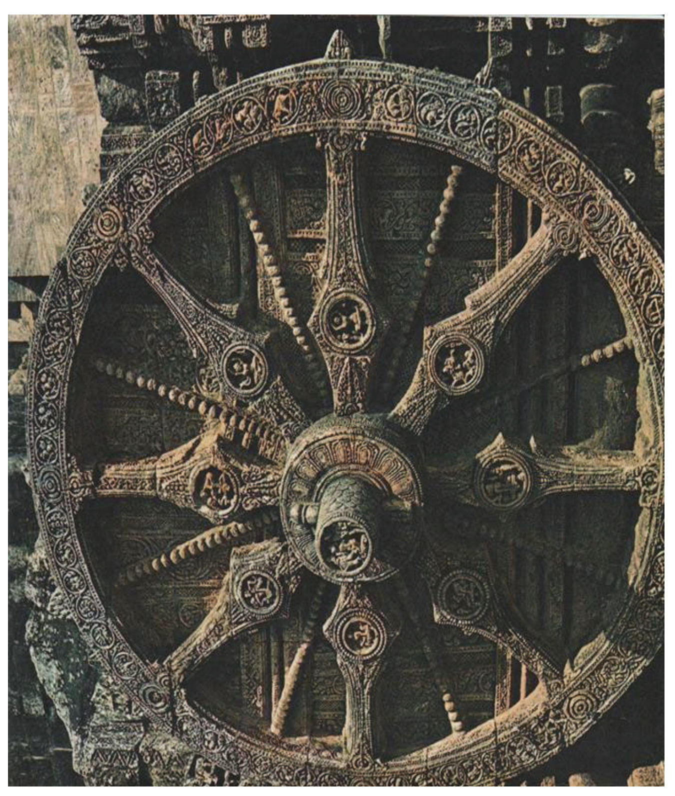
وماري وإيبلا ومدن كنعان والفينيقيون والفراعنـة وروما وشرق المتوسـط وفـالي في الهند، والمهم هنا التركيز عـلى وحـدة الحضـارة في أرض متصـلة ولشـعوب لهـا ذات الخصائص، في ذلك العالم البدائي البعيد كانت ثمة وحدة متشكلة دون قرارات أممية او مشاريع خارجية، العالم القديم فضاء واسع ومعقد للغايـة اكتسـب أهميتـه مـن لحظة اختراع الكتابة والتسجيل الموثق للأحداث التي تراكمت بعد لحظـة التـدوين الأولى، بعض المصادر تحدثت عن عمر افتراضي عددا من ملايين السنين التي سـبقت مرحلة الدخول الى بوابة الحضارة والكتابة، الحجارة القديمة المفخورة وضـعت ذلـك التدوين الافتراضي قبل الميلاد، ميزت مظاهر الحياة البدائية وجـود أدوات مصـنوعة من الحجر استخدمت في الطهي والطبخ والقتال، ولكن في المرحلـة مـا بـين العـامين 5600- 7000 قبل الميلاد حدثت ثورة جلبت التغيير الواسع من قبيل الزراعة وبداية التجمع في تكوينات او مستعمرات أو قـرى بدائيـة، وأيضـا في منـاطق الشرق الأدنى وخاصة في بلاد ما بين النهـرين اشـارت الابحـاث والدراسـات الى اسـتخدام النحـاس للمــرة الأولى مــا بــين عــامي 5600 –3500 قبــل المــيلاد وجــدت عينــات مــن أدوات صنعت مـن البرونـز أو مـن سـبائك نحاسـية، تلـك كانـت البدايـة في العلـم وترويض بعض مصادر الطبيعة، قبل حوالي مليونا سنة الأرض كانـت مكانـا مختلفـا عما عليه الآن، في تلك المرحلة كان الجليـد يغطـي معظـم شـمال أوروبـا والمنـاطق الصحراوية وخاصة في الشرق الآوسط كانت منـاطق الأمطـار الـوفيرة، درس العلـماء تطور المراحل والشروط لاستمرار شروط حيـاة وتكـاثر الحيوانـات وتـدجينها كـذلك مراحل تطور الإنسان البدائي الأول وتحدثت بعض الفرضيات عن كونه القـرد الـذي تطور حسب اكتشافات إنسان النياندرتال، وظلـت الدراسـات تتـوالى حـول العائلـة الأعلى للقرود الرجولية، ووجد ان ذلـك الكـائن في مرحلـة الـعصر الحجـري القـديم والمستندة الى مرحلة قبل نصـف مليـون سـنة قبـل المـيلاد، وكيـف تطـورت الحيـاة

واستخدام الأدوات والتكيف مع البيئة وتطويعها لصالحه، استنادا الى وجود بقايا مـن تلـك الآثار في عمليات التنقيب في كهوف ومواقع عديدة، ظلت اكتشافات إنسان جـاوه مصـدرا للكثير من المعلومات والتقارير العلمية وتلـك المرتبطـة بالآركيولوجيـا، تمكـن العلـماء مـن تقديم الفروق في تكوين الهيكل الجسدي وكيف صنعوا الآلات المتناسبة مع القوة والجسد والتفكير والنشـاط، كـان النمـوذج قـادرا عـلى اسـتعمال أدواتـه ويمتلـك التفكـير المناسـب لتطويع البيئة والحفاظ على حياتـه وتـوفير الفرصـة المناسـبة لاسـتمرارها، وكـان مـن أبـرز نشاطه اكتشاف النار والعمل في الصيد وبعض الزراعـة والمظـاهر الأولى في البنـاء ومغـادرة الكهوف، العديد من العلماء اعتقدوا بشكل قاطع ان تطور النموذج البشري مـر بتغيـيرات كثيرة وخضع لتطور وتغييرات بيئية حتى وصل النموذج الـبشري الحـديث وتلـك الابحـاث والدراسات تتواصل والفرضيات كثيرة، الرجل النياندرتالي اكـدت الابحـاث ان بيئتـه غطـت أرض أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا وآسـيا، فـرع مـن تلـك العائلـة الكونيـة طـور ثقافـة اعتبرت متطورة على اسلافه، مثـل اسـتعماله الأدوات التـي صـنعها مـن الحجـر والخشـب بشكل ماهر وله مردود في استمرار الحياة، وبعد تراجع المرحلة الجليدية صارت حياته أكثر تطورا، من خلال النموذج الجديـد في الاقتصـاد والزراعـة والوضـع الثقـافي وملامحـه الأولى المرتبطة بتكوين العائلة القرية الزراعة وتطويع العامل البيئي حيث الخروج من الملاجـيء المؤقتة الى الفضاءات الاوسع بعيدا عن الكهوف..

مرحلة لاحقة أكثر تطورا

في المرحلة تلك ظهر الاختصـاص في العمـل والتصـور الجديـد في التفكـير والرؤيا للحياة، من اللوحات القديمة التي تعبر عن تلك المرحلة النساء يجمعـن الطعام – الحبوب – والرجل يتصدى للصيد، تلك وجـدت عـلى جـدران إحـدى

الكهوف في فرنسا وأخرى في كهوف اسبانيا، ولوحات أخرى تجسيدا للحيوانات المؤثرة في حياة الإنسان القديم ومنها الثور – الرنة – الوعول – الحصان، وكذلك حيوانات أخرى رسمت بتفصيل دقيق، كما وجدت لوحات تتحدث عن الخصوبة لدى النساء والجنس والأجساد العارية والحلي على تلك الاجساد في احتفالات كبيرة وأخرى على مستوى العائلة الصغيرة، تزامن مع ذلك اكتشاف الدين والشعيرة الدينية، بعض الرسوم قدمت فكرة عن التخيّل والإيمان كان الرأي الأول تلمس ما يحيط بالرجل الأول الذي اهتدى إلى الشعيرة الدينية وفق الاعتقاد المبسط مثل الإيمان بصخرة كبيرة أو شجرة معمرة أو جدول ماء أو بفتاة أو كهل.



تلك الاعتقادات الأولى أعطت المفهوم الخاص بالروحانية – وتكوين بذرة الشعيرة الدينية وتلمس تطويرها لراحة الروح والعقل، كان اعتقاد الإنسان الأول أن ثمة أهمية وتقديس لبعض الأشياء الموجودة ولذلك فكر بإعادة إنتاجها كما هي الحال في الأشجار والحيوان وتجديد النسل، كما اعتبر القوة البدنية حالة مقدسة ونظر بتقديس للطبيعة لأنها منحته تلك القوة التي مكنته من الصيد والاستثمار الطبيعي لمجمل الظواهر من حوله..

التوثيق من خلال الرسوم

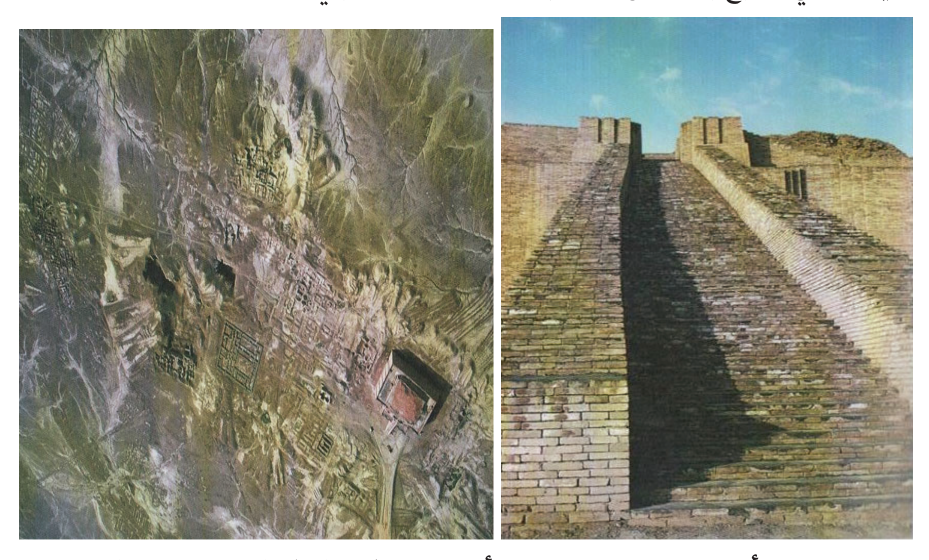
في رسومه الأولى التعبيرية الرمزية رسم الأنثى على شكل زهرة، وجد العلماء ان تلك الرسوم هي حالة كتابة قصص واعتراض يمثل حالة دينية غير ملموسة جسدها في بعض الحالات بالرسم او بصنع التماثيل، المرحلة التي جاءت بعد ذلك قدمت الكثير من التغيير لوجود الإنسان القديم، وترصد التقارير عبر الوثائق المستلة من التنقيب ان الإنسان القديم احس بوجود بيئة مختلفة هي أكثر دفئا من البيئة المحيطة بالكهوف في المناطق الجليدية فانسحب إليها وبدأت أنذاك مرحلة اهم في وجوده، تعامل مع بيئات متعددة مختلفة وعمل على التكييف معها، شكل بيئته الخاصة وابتكر الأدوات المساندة لاستمرار الحياة، اعتبر العلماء ان تلك المرحلة هي بداية التدجين الحيواني والزراعة البدائية في تلك الفترة، كما تمكن من اكتشاف النباتات البرية مثل الشعير والحنطة التي كانت متوفرة في منطقة الشرق الأدنى وبلاد ميزابوتاميا بشكل خاص وعمل على زراعتها من خلال تجريب يتناسب مع الفصول البيئية، بنى الإنسان القديم الأكواخ وعمل للوصول الى السهل الرسوبي وتعقب من خلال الدراسة الاعشاب والأشجار والحيوانات، حصد النباتات البرية وجمع الحبوب وصنفها

ومن ثم زرعها، وبحث عن الأمن وتمكن من تدجين الكلب ليكون حارسه الشخصي وأيضا المرافق في عملية الصيد، تلك اعتبرت ثورة وقد حدثت بين العامين 7000 – 6500 قبل الميلاد، تطور العامل الأقتصادي وحصل التغيير الإجتماعي، وصار للرجل منهاج يتمثل بوجود نشاطات واسعة ومختلفة، وترى بعض الأبحاث أنه جعل من العنزة التي تعيش على الأعشاب البرية كانت هي الحيوان الأول الذي فكر بتدجينه، ثم تلى ذلك الخراف والخنازير ثم بقية أنواع الماشية، وبدأت الفكرة المهمة التي اعتمدها بعدم السكن في المغارات والكهوف بل عمد الى بناء الأكواخ المتفرقة ثم طور الفكرة لتجميع الاكواخ لتكون القرى في نموذجها الأول، وتكونت التجمعات الكبرى كانت تلك التجمعات في البداية عبارة عن مئة الى مئتان من الأكواخ، ثم ارتفع العدد الى ألف كوخ وبدأ عصر المدن على ضوء تلك الزيادة العددية، وصار التفكير في العامل الصناعي من خلال تكوين ورش أوليه لغزل الصوف، دخل مرحلة النسيج من خلال تكوينات بسيطة، وصار التبادل التجاري في أول حالاته اعطاء الملابس الجاهزة مقابل كميات من الصوف والجلود، وتم اكتشاف مادة الزجاج والاحجار البركانية، كلاهما استخدم بشكل صناعي، تلك النماذج الأولى عثر على عينات منها في " جرمو –"jarmo" من المواقع المهمة في بلاد ما بين النهرين وكذلك في أريحا في فلسطين، كماوجدت فيها أنواع من الفخاريات، سلال من الخشب وتماثيل من احجار صلدة، كانت تلك الاختراعات ظهرت في الألفية السادسة قبل الميلاد، كما تم الاهتداء الى المادة البلاستيكية والتي كانت متوفرة جدا، في بداية الفكرة كان يعمد الى تجفيف الاجسام من خلال الشمس، لكن حصل ان ألقت إحدى النساء قطعة من الطين في موقد النار فحصل اكتشاف شوي الطين وجعله مفخورا..

الفخار – الخطوة الأولى ومابعدها

نتج عامل آخر دفعه للتفكير بفعل ذلك وصار الناتج الفخاري اهم علامة في تلك الحضارة، تلك القطع يمكن ان تكسر ولكنها لا تتحطم بشكل تام، استعمل الألون والنقوش لتزيين تلك الفخاريات، عثر على تلك الأنواع في تل حسونة " hassuna" في بلاد مابين النهرين – المنطقة الشمالية، في بداية الألفية الخامسة تم استخدام النحاس في الأدوات المنزلية وفي مقابض الأسلحة، اي في الفترة ما بين العامين3500 – 5600 الحجارة والنحاس أضافا عاملا مهما للتجارة والتبادل في الأسواق والقرى، في اعقاب تلك المرحلة حصلت زيادة مهمة في نسبة السكان، وظهرت اسهامات ثقافية وتطور اقتصادي وتنمية اجتماعية، وهكذا ازدهرت المراكز البارزة وصارت على شكل مستوطنات كبيرة في العام 5000 قبل الميلاد في منطقة الفرات ودجلة، بعد تدجين الحيوانات تم صنع دائرة العجلة ونجح استخدامها في المواصلات والنقل، اصبح قطع المسافات البعيدة ممكنا، كانت تلك من أعلى المراحل الصناعية المبتكرة في بلاد ما بين النهرين الجنوبية في مابين العامين 3750 – 4250 كما ظهر التطور في فن المعمار وخاصة في المعابد الموجودة كشواهد مهمة في المدن البارزة مثل " أوروك - ايسن - لارسا وأور - أريدو - لجش " العامل الديني منح الإنسان الرافديني حالة الاستقرار، وصارت شذرات الدين تعم المجتمع وتعاظمت الحالة الدينية بشكل مبسط ودون تعقيد كانت تمثل حالة روحية، ومنها نتجت الدعوة للإخصاب والنماء، مثلت هدفا ساميا لتواصل الحياة والتكاثر البشري، كانت تلك الأهداف أعلى من الدين مع أنها مشتقة منه، كما هي الحال في الطقوس السومرية المسماة – طقوس الجنس المقدس – كما توصل الإنسان السومري في اختراعه للدين لسبر أغوار الكون والطبيعة والسيطرة عليها، خلق عدة ألهة لكل

منهم وظائف ومناهج وقوة عمل وتغيير، صارت قوى الكون معروفة والإنسان السومري يحركها كما يريد وينشر معلوماتها ووصاياها، كان الدين ومايتفرع عنه حالة شخصية ترتبط بما اراد الإنسان السومري، تلك المرحلة كانت تمثل حالة تطور ثقافي وبوابة وعي كبير لترتيب العالم البيئي المحيط، انتقلت الفكرة لاحقا لصنع الإسطورة وكان ظهورها نتيجة تفكير وعمل متواصل لعدة قرون في بيئة بلاد ما بين النهرين، تلك جهود تخصصت في حالة التخمين الفلسفي والعلمي والعقلي وتمثل منظورا بيئيا وتلك حالة إنجاز لإنسان بلاد ما بين الرافدين، تشكل بموجبها نخبة ثقافية راقية – الاسطورة الرافدية كانت حالة تفكير شخصي مشبع بالحقائق الواقعية ولها منظور مستقبلي.



موقع أور الحضاري صورة من الأقمار الاصطناعية وكالة ناسا الفضائية

– وكذلك معبد الزقورة أور

وأشار الرمز مثلا إلى " الأله شمش " أو " أوتو shamash- utu- " كذلك ألهة للأرض وللبحار وللهواء، في بداية الأمر عملت معابد يديرها الكهنة ولكن

بمرور الوقت تزايدت الحاجة الى الدين فظهر مسمى المعبد الكبير وارتبط ذلك بتقاليد خاصة، وفي مدن عديدة ولكل إله مهماته التي يحققها، وصار للكهنة سيطرتهم وقوتهم ويحسب لهم الحساب من قبل الحاكم، وبسبب منزلتهم الخاصة والتي تؤكد أنهم وسطاء بين الإنسان والآلهة صار الكهنة هم الأقوى في المجتمع، احتفظ الإنسان القديم بفرز الأصوات وخاصة للحيوانات في طريقة الاتصال معها من خلال المناداة، في تلك الفترة المبكرة كانت اللغة الصوتية والصورية لها مفردات تنبع من الافعال وتساهم في تشكيل جمل الكلام، ولكن تطور فن الكتابة وعلومها قدم الثراء الكبير، الحضارة الكونية المبكرة كانت في وادي الرافدين وفي موقع آخر بعد قرن من الزمان في وادي النيل ثم انتقلت الى فالي ومواقع أخرى عديدة منها بلاد الرومان والأغريق، عندما استقرت المجموعات البشرية وبدأت بتطوير مجتمعاتها استندت بشكل رئيسي على الزراعة، في السهل الرسوبي من بلاد ميزابوتاميا وجدوا التربة الخصبة والمناخ الملائم، في وقت مبكر تواجد السومريون الى الجزء الجنوبي ليصنعوا قاعدة لمعظم الحضارة التي ازدهرت هناك، شكلت فيما بعد قاعدة لكل الحضارات التي ظهرت فيما بعد، ثم جاءت الحضارة الخاصة بالمملكة الآكدية، المنطقة المحصورة بين النهرين شهدت الكثير من الحروب والغزوات من قبل الأقوام القادمة من مناطق أخرى قريبة أو بعيدة، كان من أهم أهداف الغزو لتلك الأقوام السيطرة على منجزات الحضارة ونقلها لشعوبهم..

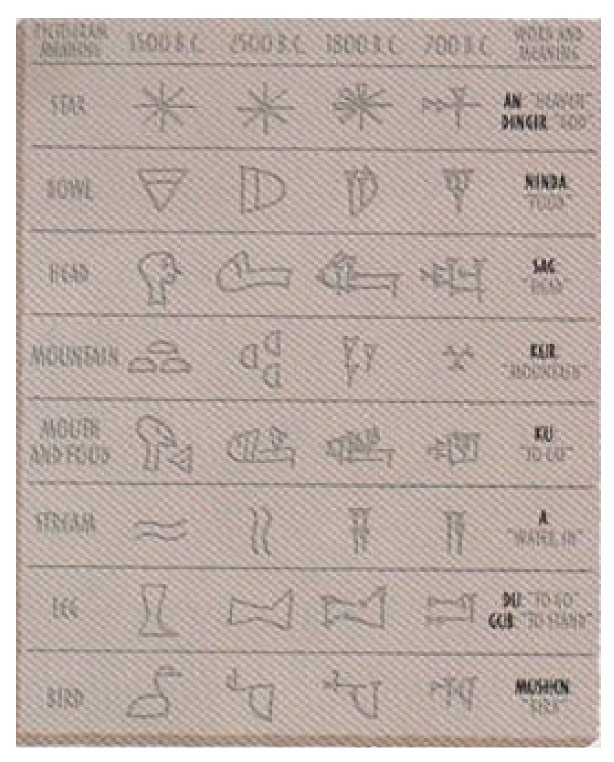
عصر الكتابة والتدوين



الهلال الخصيب هو الاسم الذي يطلق على مجموعة الدول او المدن التي تحيط بجانب من ساحل البحر البيض المتوسط من جهة الغرب، الصحراء العربية الى الجنوب، والجبال التركية إلى الشمال وفي ابعد نقطة من الشرق جبال زغاروس – zagros- في منطقة عيلام، في الاوقات القديمة كانت الأرض المحصورة بين نهري الدجلة والفرات خصبة وصالحة للزراعة، والناس فيها عموما كانت مهنتهم الزراعة ولنجاح خطواتهم صاروا يبحثون عن أراض جديدة يتم اصلاحها، الوديان ومناطق الأنهار زودتهم بالخبرة المطلوبة لهذا بدءوا

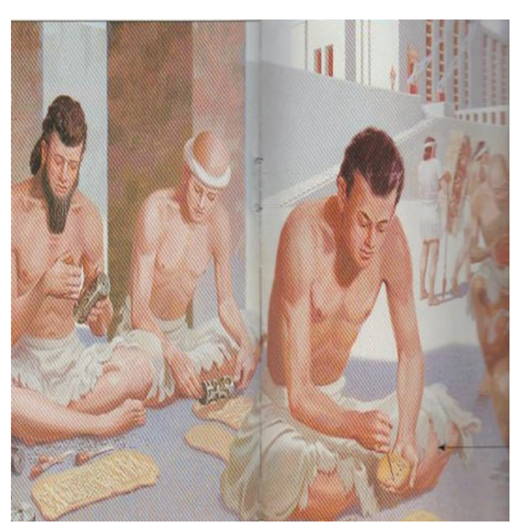
باستصلاح الأرض البور، أرض ميزابوتاميا كما سماها اليونانيون كانت بمثابة منجما للذهب، هي أرض تمتد بين نهرين عظيمين، صنعا عند حالات الفيضان المتكررة طبقة من الغرين جعلت مع مرور الزمن تلك الأرض صالحة للزراعة، من مهمات الغرين تثبيت التربة وتحويل القسم الصحراوي الى أرض صالحة، مع الاقرار بوجود مشاكل كانت تنتج من خلال الفيضانات المتكررة، مع هبوب عواصف عنيفة كما كانت هناك مشاكل واجهت الإنسان في تلك المرحلة في المناطق الأكثر خصوبة، يخلف الفيضان الكبير مناطق مستنقعية يندر استعمالها زراعيا أو إصلاحها وهي تفقد في كل الأحوال خصوبتها وتخرج من مجموع الرقعة الزراعية، وكان لزاما على المشتغلون بالفلاحة صرف تلك المياه وتحويلها الى مناطق أخرى، وانتظار جفافها ثم العمل على زراعتها وتلك كانت من العمليات الشاقة جدا..تلك المشاكل المبكرة القت بظلالها على حياة السكان في منطقة جنوب بلاد ما بين النهرين – السومريون ومن بعدهم مملكة أكد كلاهما عمل على شق القنوات ووضع نظام للري تلك الشبكة كانت هي مصدر الثروة حتى حطمها الغزو التركي في فترات حكم البلاد في الفترة الحديثة، موقع بلاد سومر والخيرات الكثيرة والثراء المطلق لذاك السهل الشبيه بالجنة جعل الاقوام الهمجية من جبال زغروس ومناطق الشمال الشرقي تشن غزوات متواصلة للسيطرة عليه، كانت الحضارة التي ظهرت في المدن السومرية " تل العبيد – ايريك – اوروك- الوركاء – اور " تزيد حفيظة المدن المجاورة في العام 3200 قبل الميلاد كانت البلاد السومرية تدخل مرحلة الحضارة الكبيرة، عندما توصل شعب سومر قبل غيرهم الى اختراع علم وفن الكتابة، وتزامن مع ذلك استخدام طرق مبتكرة لتوظيف النحاس، قرن من الزمن في تواصل مع هموم الإبداع السومري الذي حقق تأثير عميق على حضارة بلاد ما بين النهرين وما جاورها..

التعبير الصوري وعامل الاكتشاف



العمليات التطويرية لفن الكتابة من التعبير الصوري " pictogram" تلك الرموز تطورت فيما بعد من خلال اختراع ذخيرة فنية وعلمية ارتبطت بالتعبير بتحرير الافعال والكلمات من الصورة الى الكتابة فقد كانت البداية مثلا للتعبير عن حالة رجل ينام ان تتم رسم صورة الرجل وهو نائم ليقدم لنا فكرة ان الرجل نائم ولكن هذه اختفت عن البداية باستخدام الأبجدية، كانت الكتابة السومرية بالخط المسماري هي اوسع وأقوى الاتصالات البشرية في ذلك الزمن البعيد، في العام 3100 تطور علم الكتابة من خلال الخط المسماري المترافق مع التعبير الصوتي، وتم استخدام الألواح الطينية للكتابة، والاهتداء الى وضع تلك الألواح في التنور كي تظل لفترة طويلة، ولابد من الإشارة الى ان البيوت في

المدن السومرية صار بنائها بعد مرحلة الكتابة بالطابوق المشوي، أو المجفف بالشمس، كانت قطع الحجارة الصلدة نادرة في أرض سومر، الى جانب تشييد النظام المذهل للري لتصريف المياه وغسل الملوحة عن مناطق شاسعة واستغلال الثروة الحيوانية في الأهوار والمستنقعات، وأيضا بناء العديد من المدن وفق اسلوب معماري جديد، كانت كل مدينة من تلك المدن تستوعب الكثير من السكان، ولها استقلالية عن المدن الأخرى، ولها طرق اتصال وهي محمية بواسطة خندق مائي وأسوار عالية، وظهر في تلك المدن تصنيف للسكان حسب المهنة، المزارعين – النجارين – الخزافين – والجند – ورجال الحكومة – وعمال الأسواق اي التجار – والكهنة – وكانت التجارة في الأسواق تتم وفق نظام المقايضة، حصلت زيادة كبيرة في عدد السكان في المدن المذكورة أعلاه، كذلك توسعت المدن وزاد عددها في المنطقة المحصورة بين النهرين وشهدت الحياة حالة منظورة من التطور وفق قواعد دينية وثقافية وإنتاجية، وصارت تلك الأرض وما صنعت بمثابة القاعدة القوية للحضارات اللاحقة في بلاد ميزابوتاميا ومواقع بشرية أخرى، استمرت الخطوات في اكتشاف فواصل التقنية.



التـي بـدأت ثورتهـا مـع صـنع العجلـة، ومـا ترتـب عـلى اسـتعمالها في النقـل والمواصلات والحرب، واستخدام الحمير والبغال والحصان لجرهـا، ومـن ثـم تطويرهـا وفق تصاميم مختلفة، وفق العديد من الاختراعات ارتفعت مكانة أور واوروك ولارسا واريدو ولجش والوركاء، قدر العلماء ان نسبة السكان زادت في تلك الفترة من حـوالي 15000 الى 250000 في الفترة التي تبـدأ مـن العـام 2800 قبـل المـيلاد، وعـلى صـعيد الحكم ظهرت حكومات ملكيـة طـورت مفـاهيم الدولـة ووضـعت القـوانين ونفـذت المشاريع المهمة وتصدت للكثـير مـن الغـزوات، وهكـذا توسـعت إمبراطوريـة سـومر بشكل تـدريجي وفي خطـوات محسـوبة بدقـة، عـلى اعتـاب تلـك التطـورات ظهـرت حكومات المدن، ولكن ظلت دائمـا مهـددة مـن قبـل المـدن المجـاورة وبشـكل خـاص الأقوام الهمجية، بسبب انها ذات أرض لسهل متصل مفتـوح ودائمـا يغـري بالسـيطرة عليه، وخاض شعب سومر الحروب الوقائية دفاعـا عـن وجـوده وحضـارته، وتحولـت سومر والمدن التي انتظمت معها إلى إمبراطوريـة توسـعت وصـارت تملـك القـوة ثـم سقطت، ولكن فترتها التاريخية تؤكد أنها صنعت وحدة حضارية مهمة أنتقل تأثيرهـا الى المدن المجاورة، وطبقا لدراسـات وأبحـاث العلـماء ان الشـعب السـومري لم يكـن يعرف حالة التصنيف او التفرقة وكانت القوانين والشرائع تؤكـد بشـكل حاسـم عـلى المساواة والمحافظة على المال العام ومحاسبة من يرتكب الفساد والسرقة، وكانت لهم اول جمعيــة بــاشروا مــن خلالهــا انتخــاب الحــاكم او الــزعيم – مارســوا الحالــة الارستقراطية وكانوا قد سبقوا المدن والممالك الاخرى البعيدة والقريبة، تقريبا قلصت فلسفة الحكم من ظاهرة العبودية في سومر، كان عـدد العبيـد صـغير جـدا واغلـبهم من مخلفات الحروب – الاسرى -، القاعدة الدينيـة التـي كانـت تهتـدي مـن خلالهـا الحكومة وفرت المناخ المناسب لمواجهة التقلب في العلاقات السياسية والسيطرة عـلى

المخاوف والشكوك والتحاور مع رموز الحكم في الممالك المجاورة بهدف تحقيق السلام والأمن وتثبيت حالة العلاقات الجيدة، وتشكلت السلطة الدينية من الكهنة وفق درجات في الأهمية، وانطلقت تعاليم الكهنة من ان كل شيء موجود فوق الأرض له نموذج مشابه في العالم الآخر وهو مقدس ولد عند لحظة الخلق، كل دولة او مدينة كان لها ممثلها المقدس الساكن في السماء، وكل مؤسسة تبتدع فن الحضارة هي تستمد وجودها من رمز مقدس، وقلدت الجمعية الانتخابية المبكرة للمواطنين تمثيل حالة اجتماع الآلهة في تقرير حالة ما، وبمرور الوقت تلك التقاليد تطورت وصارت لها اسس معروفة، وبجانب علوم الفلك والسحر اقروا نظام الملكية الخاصة، وتحدثوا عن وجود آلهة متعددة لكل واحد مهمته ووظيفته وسيطرته.



واعتقدوا ان تلك الآلهة تتابعهم وتراقب تصرفاتهم بشكل مناسب، كانت السمة الدينية للحياة ضرورية، كهنة الآلهة كانوا يتدخلون في مصير الحكم والبشر، في سومر كانت إدعاأتهم بالعلاقة المباشرة مع الإلهة السومرية قد أعطتهم سلطة قوية، وقد كانوا منطقيين جدا امام الحاكم والشعب، كانت فلسفتهم تقول ان الآله يمتلك المدينة وماعليها من خيرات وبشر، ولهذا هم الوسطاء بين شعب سومر والأله وهم مسئولون عن كل الأراضي واعتبروها ملكية خاصة للآله وهي بحكم المستأجرة منه، وهكذا كانت مؤسسة الدين في سومر هي الأقوى، وبما ان وارداتهم تأتي من الزراعة جعلوا القرارات المهمة في سومر وغيرها من المدن تتعلق بتطوير الزراعة، والتجارة وتجهيزات الحرب المفروضة، كانت المعابد بمثابة المخازن الكبيرة للناتج الزراعي والتجاري وفيها تبلورت فكرة الكتابة لتدوين ماتملك المعابد وتسجيل هبات الفلاحين، في منتصف الالفية الثالثة تطلبت شروط الحرب واتفاقيات السلام قيادة قوية، في تلك الفترة أغلب المدن كانت في حالة حرب فيما بينها من خلال نزاعات كما كانت هناك تهديدات بالغزو من مدن خارج حدود سومر، في تلك الفترة ظهرت مدن سومر القوية وكانت الانتصارات تسند من قبل المعبد الى بصيرة وقوة الألهة، وكل آله يسيطر على مدينة من مدن سومر يختار ممثله من البشر لحكم المدينة، كان ثمة ترتيب وتنسيق غير معلن بين الكاهن وحاكم المدينة، والآله الموجود في السماء، هكذا رتبت اصول الديانة وبشكل مقنع، الحاكم او الملك له الموقع السلطوي والديني في المدينة، وتأكيد موقع الكاهن بما يمثل قوة دينية محلية لها أهميتها، من اللافت للنظر ان الحاكم او الملك كان يحتفظ بعلاقة متميزة مع المتدينين والعلمانيين والهدف من تلك الصلة كسبهم في حالة حصول الحرب – هذا يؤكد وجود مجاميع من ابناء سومر لا يؤمنون بالآلهة، كما ان الملك كان له

مجلس الطواريء المكرس لتمثيل كل الفئات، وبعد العام 2700 قبل الميلاد، أصبحت تلك المؤسسة وراثية، ونلمس من تفاصيل الألواح السومرية ثراء الحياة الأجتماعية وكذلك التطور الاقتصادي والتجاري في دول المدن، إلى جانب الملك صنف من المساعدين النبلاء المحاربين أصحاب الحكمة والفروسية، حياتهم مرهونة بالقصر الملكي والمعبد وقراراتهما المصيرية، وطبقة اكثر قربا من القصر والمعبد هي طبقة المهندسين المعماريين، ويعود لهم الفضل الكبير في هندسة وبناء المعابد والمدن والبيوت وهو الفيصل بين البيوت الغنية والفقيرة السيئة، البيوت التي تنسب لهم عملية بنائها صنعت من الطابوق المجفف بالشمس او المفخور بالأفران، وهو مميز في العمران لقوة مقاومته للرطوبة والتغييرات المناخية، ذاك أدى الى ظهور افران وطبقة من العمال اصحاب الاختصاص..

طبقات المجتمع ودورها

لابد أيضا الحديث عن طبقة أخرى مهمة جدا ولها الثقل الكبير في مدن سومر – تلك هي طبقة التجار التي شكلت طبقة تأتي بعد طبقة النبلاء، ومن ثم يأتي خليط من الشعب يعمل في مهن مختلفة ولكن لا تمييز او عنصرية تجدها بين تلك الفئات، التجارة في سومر اصبحت واسعة الانتشار وجلبت القوة الاقتصادية المذهلة، حققت حالة من الرخاء والاكتفاء المادي، واهتمت تلك التجارة بمساندة العامل الحضاري من خلال استيراد المعادن المهمة لتطوير الصناعة والأحجار التي جلبت من الجبال الموجودة بالشرق أو من مصر، وارسلت ناتج من بلاد سومر الحبوب والتمور والجلود وصناعات اخرى يدوية، كما تطورت الحالة الثقافية الحضارية وشملت الرسوم والنحت والتدوين والكتابة بما يثير الجانب الفلسفي والوجداني، في العام 2750-2650 قبل الميلاد شهد استخدام الألواح السومرية بشكل واسع وكذلك الاختام التي

حصلت على رواج واسع الأنتشار كذلك طريقة دفن الموتى وخاصة الملوك بشكل لم تعهده سومر من قبل، تكرر ذلك في القبور الملكية المصرية فيما بعد، شملت طقوس دفن الموتى وفق هذا الترتيب الطبقة الحاكمة والنبلاء وكبار التجار ورجال الدين، ومن المفيد الإشارة الى تطور التدوين والكتابة من خلال نظام السجلات والطباعة وحفظ الألواح وفق ترتيب وطرق مبتكرة وتبويب، ومنها وثائق سرية تتعلق بالحكومة والمعابد والعلاقات الدولية، تلك وضعت في ألواح من الطين وربطت وتم ختمها، ولغرض الحفظ ومنع التلف من الوصول الى تلك الألواح تم فخرها داخل الأفران، نظام الأواح والأختام جعل المعاملات التجارية وحفظ المعلومات متيسرا لدي الشعب السومري، كما ان الحكم لم يشهد في مراحل كثيرة ضمن مدن سومر أي معارضة تذكر، وقد هيمنت مدينة lagash على الوضع السياسي والحكم من خلال مدّ سيطرتها بفعل الغزو والحرب على العديد من مدن ميزابوتاميا ومناطق أخرى كانت الحكومة في kish لها قرارها في ادارة تلك المدن وفي الحرب أيضا، ولكن تلك الهيمنة لم تستمر طويلا، في منتصف الألفية الثالثة نجحت دولة لجش في فتح المدن الأخرى والسيطرة عليها وخاصة في فترة حكم الملك " urukagina" الذي حاول إصلاح الأمور في تلك الفترة وصلت لجش الى ذروتها، لكن مملكة umma المجاورة الى لجش والتي كان يحكمها الملك Ingalzaggesi قام بالغزو واصبحت معظم أرض لجش تحت سيطرته المطلقة ووضع بذلك حدا لهيمنة الملك المنافس.



akkadian

هم من الأقوام السامية سكنوا الجزء الشمالي المجاور لسومر، وكانوا يعرفوا بالأكديون، ايضا ساهموا في تطور حضارة بلاد ميزابوتاميا المبكرة، في زمن الثلث الأخير من الألفية الثالثة، كانت لديهم القدرة على ان يسيطروا على كامل أرض بلاد ما بين النهرين، يُعد الملك sargonالأمبراطور العظيم الأول الذي اعلن نفسه الحاكم الوحيد لمنطقة الشرق الأدنى ولم يعترف بوجود أي منافس له، اعتبرت انجازاته من الاعمال الأسطورية جدا جدا بحيث ترك تأثيره الكبير على الحكام الذين جاءوا من بعده حتى وجدنا ظهور ملك آشوري يحمل اسمه " سرجون الثاني "، سرجون الآكدي تمكن بحكمته وقوته ان يهزم الملك لوكيزي ويسيطر بشكل تام على بلاد سومر، طور نظام الحكم وبنى جيشا قويا وتمكن من تحقيق العديد من الفتوحات وصلت سيطرته حتى ضفاف البحر

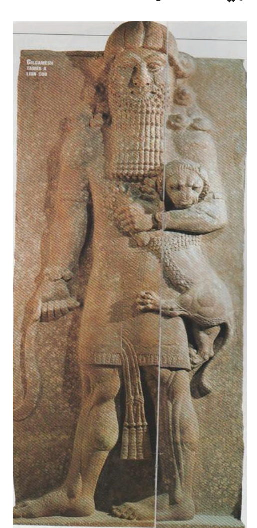
الأبيض المتوسط، اسس الشكل الأساسي للدولة المدنية مع احتفاظه بالفعل العسكري وكتب باللغة المسمارية السومرية نماذج للثقافة والعلوم والفنون، وأمر باستخدام اللغة الآكدية في المناطق التابعة لسيطرته وظلت الإمبراطورية في صعود عندما خلفه حفيده الملك naram لكن في أغلب أوقات بلاد ميزابوتاميا يكون تدمير البناء ونهاية الحكم من خلال الغزوات والاحتلال الأجنبي..

لجش ومدن أخرى

رغم كل الظروف الصعبة التي مرت ظلت لجش مدينة مزدهرة تجاريا وظهر من ملوكها العظام " gudea" الذي حكم في العام 2100 قبل الميلاد، في تلك الفترة استعاد السومريون موقعهم العالي، وهيمنت حكومة أور على القرار السياسي والعسكري تحت قيادة " أور نمو " من حكام السلالة الثالثة التي حمت المدينة في العام 2150 قبل الميلاد، وكان ذلك الملك قادرا على تأسيس مدينة عظيمة ومدّ سيطرته بشكل مطلق على معظم اجزاء ميزابوتاميا، حاكما حازما وكفوء نشر القانون والعدل ودخل في حروب عديدة وفي العام 2000 قبل الميلاد تمكن المحتلون الجدد – العموريون- من مهاجمة دولته من جهة الغرب، في تفاصيل الحضارة المبكرة التي تأسست في وادي ما بين النهرين، سيطرت الثقافة السومرية لفترة من الزمن ثم امتزجت الثقافتين السومرية – الأكدية وظهر التجانس وفي الحالتين كانت الكتابة المسمارية هي وسيلة الفعل والتدوين، وربما انتقلت بعض المفردات الى اللغة اللاتينية الحديثة، كانت اللغة السومرية هي وعاء الثقافة والأدب والدين والتشريع بها تفتح الحياة وبها تقال الصلوات على الأموات، وضع الدين السومري علاقة وهمية بين الإنسان والآلهة وتخيل منطقي للتكوين والخلق في بداية التخيل المشروع أطلق السؤال العظيم عن لحظة الخلق والتكوين، ورسم صورة مدهشة للمجمع الآلهي وللمؤسسات المرتبطة به

وتحدث عن فكرة العقاب والثواب ثم تمكن بشكل رائع لفتح المخيلة البشرية نحو بوابة الأساطير والملحمة، استخدمها لتوضيح اسئلة درامية قوية عن الخلق والبحث عن الخلود والعدالة، صنف ووحد الأساطير والقصص الملحمية وجعل المخيلة البشرية في حالة اندهاش وتفكير، كل ذلك حصل في فترة مبكرة على الكون كله، كان الإله الأعلى للكون هو لاهوت السماء ورئيس مجلس الآلهة هكذا تم رسم مكانته، وتحدث عن الإله " ENLIL" اله الهواء والعواصف وبسبب سيطرته وقوة عنفه المتواصلة في فصل الشتاء والخريف الخوف من غضبه دفع الناس الى لبس الأغطية للرأس والاختباء، يعتبر هو الإله الأقوى وله منزلة إله الحرب، إله القوة الطبيعية وصف بها "NINHURSAG" وقيل أنه إله الأرض، كما وصف " ENKI" إله الماء بينما حملت " INANNA" صفة إلهة الخصب والنماء – إلهة السماء والأرض، بعض تلك الإلهة حكمت بشكل مطلق بعض المدن واعتبرت إلهتهم الخاصة، على سبيل المثال، سيطر الإله " ENLIL" على مدينة " NIPPUR" التي تعتبر الموقع والمركز الديني الأكثر أهمية – حتى أثناء سيادة " أور " المطلقة، كما أمتلكت الإلهة " INANNA" مدينة " URUK" اعتقدوا ان تلك الإلهة منذ خلقها كانت موظفة لخدمتهم، واعتبرت بمثابة نسخ من الفيض السماوي، كان الشعب السومري ينظر لتلك الرموز بشعور خليط من البهجة والتفاؤول وتحقق له الآمان، خلال لحظة زمنية يستطيع الإله " ENLIL" ان يحطم المدينة ويسلط الموت على سكانها من خلال فيضانه، في الحقيقة تم ذكر فيضان واحد في التاريخ المبكر لبلاد ما بين النهرين وكان مؤلما وقاسيا جدا وتفاصيل ماجرى ذكرت في الأساطير التي كتبت عن الفيضان وطغيان نهري الدجلة والفرات، كانت سومر تعيش كل عام مهرجانا كبيرا من اشهر السنة الجديدة يرتبط بالخصوبة والنماء هو التقديس للالهة إنانـاinanna التي

تهبط الى العالم الاسفل في بحث يشاركها ذلك الفعل قرينها dumuziديموزي وتلك من اهم الأساطير السومرية ولها طقس خاص " أنظر كتابي الصادر عن دار الشؤون الثقافية " اينانا ملكة الأرض والفردوس – اسطورة بلاد ما بين النهرين – سلسلة الكتب المترجمة الصادر عام 2008 " الآلهة في سومر سيطروا على مشهد الحياة ووجهوا الأمور بما يناسب تعبير المعبد والكهنة كما أرسلوا رسالة واضحة وتفصيلية وجوهرية للأجيال القادمة وكذلك للحضارات التي استرشدت بتعاليم وتوجيه الحضارة لترتيب الحياة نحو الأفضل، هذا وضع قاعدة لنشوءعلم يختص بالاساطير شكل أدبا راقيا تناول التصور الذي يحث على البطولة والخير والنماء والبحث عن الخلود، وتعلقت تلك الأساطير برسم ابطالها من الملوك والأبطال الذين ظهروا في سومر خلال حقب زمنية مختلفة، كتبت تلك القصص وفق منهج ملحمي وكان بداية كتابتها في فترة السلالة الثالثة، وكانت الى جانب اسطورة " إنانا، الأكثر شهرة قصة جلجامش بطل أوروك، تلك الملحمة ذات نهج إنساني في البحث عن الخلود لاستمرار حياة الإنسان وتحقيق هزيمة للموت.



عثر علماء التنقيب عن نسخة من تلك الملحمة العظيمة التي تقرأها شعوب الكون باهتمام واعتزاز، هي تتواجد حاليا في مكتبات العالم باعتبارها من أهم ما انتجه العقل البشري، نموذج من أدب وفكر بلاد ما بين النهرين العظيمة، ولأهميتها طلب الملك الآشوري العظيم " اشور بانيبال من الشباب قراءتها وحفظ تفاصيلها واعتبارها اعظم ما انتجته حضارة سومر، ورغم تبدل الازمنة لكن تلك الملحمة ظلت حاضرة في خيال الأجيال، وكانت حادثة مهمة لحظة العثور على نسخة متكاملة منها وظلت القصة ذاتها لم تتغير وهي تحكي عن الملك جلجامش الذي يفشل في استعادة صديقه من الموت ويبحث له ولبقية البشر عن نبات الخلود، وظلت قصة موت enkido هي الفعل الاساس في موضوع الملحمة والسبب الذي تحرك من خلاله جلجامش بفعل إنساني كبير يتجاوز عودة الصديق بل تمحورت في ابقاء البشر بعيدا عن خطفهم من قبل الموت الرهيب الكريه كما تصفه الملحمة، ومازالت الملحمة تحث البشر على اكتشاف وسيلة للخلود، بعد 6000 سنة فكر سومر هو المسيطر والإنساني، الأسطورة والملحمة كانتا متحالفتان مع مفاهيم الدين، وشكلتا الوسيلة لنشر الأفكار العلمية والتعليمات التي يريد المعبد إيصالها إلى المجتمع، وفهم القوة الطبيعية الخفية وتوضيح فعل الآلهة وماتريد من البشر، كما ظهر التأكيد المبكر نحو المظاهر الخفية او ما وراء الطبيعة في مجال التنجيم وعلوم الفلك واكتشاف علم الرياضيات ومن حلال تلك الجهود تم الوصول الى التقسيم القمري والشمسي والاهتداء الى تثبيت مواعيد الأعياد الدينية وترتيب التصنيف الاساسي للسنين والأشهر والأسابيع وتسمية الأيام والأشهر وعددها كما تم تحديد الأعياد الدينية وكذلك ترتيب حساب السنوات وكما ارادت الإلهة، وهذا الإنجاز ظل يمثل التراث الكوني وهو مسجل باسم شعب سومر العظيم وما يزال

العالم يستعمله دون تغيير، كما خلقت الحضارة السومرية أسس الفن المعماري من اختراع الدائرة وبقية الأشكال الهندسية ومن ابرز ذلك الفن المعماري بناء الزقورة وهي مكرسة للعبادة وتكرر شكلها في دول عديدة وبشكل متكرر...

نماذج مبتكرة



كانت الذاكرة السومرية قد اختزنت الماضي وحاولت صنع الشكل المحاكي للجبال التي سكنها الاجداد فكان شكل الزقورة، ارصفة مرفوعة وبناء سامي يرتفع نحو قبة السماء يقترب من فضاء الآلهة، ذاك الجبل الصناعي الزقورة له غاية كرسها السومريون يستدق في الشكل وله مهبط يصل منه الدعاء وينزل عليه الآله، سلالم قوية مباركة تصعد نحو الرب، كان العابد والكاهن في نقطة هي الأقرب إلى الآلهة، تم تصميم ذاك الصرح العظيم من طابوق ارض سومر المفخور المقدس، وقد وجد الفن مكانه السامي عمل على تزيين الحيطان بالصور والفسيفساء، تلك الجهود الراقية النابعة من فكر وحضارة راقية استخدم في بعض الحالات الذهب والبرونز وبشكل ومضامين جيدة جدا، وكانت الاعمال

والجهود المبذولة في ذاك الاتجاه في تجسيد أحداث دينية وتاريخية، لقد التزم الفن السومري بهذه الخاصية، كانت التماثيل السومرية لها وجود رمزي مدهش، مثل تلك التماثيل التي تجسد الشعب السومري وهو يتعبد ويصلي، تجد الشخص المجسد واسع العينين وعلى ملامحه الطاعة والخوف من الرب، تلك المهارة الفنية في التجسيد ورسم دواخل النفس البشرية، كذلك تجد تلك الرسوم على الأختام من خلال الحفر على الحجارة القاسية المستوردة من اماكن أخرى، قطع مستطيلة ومربعة ودائرية وبدقة متناهية لتأكيد الفن الذي يخدم القضية الدينية ومفاهيم الحكم..

الماضي الهائل الحاضر والمفقود

رغم الخراب الكبير الذي لحق بالحضارة الرافدية لكنها سيطرت على العقول من خلال الصورة الإسطورية وما انتجته من عالم اساطير مدهشة وجميلة وذات مضامين إنسانية نسجت بوعي واقعي وبلغت أوسع مدى في الكون، من بقايا الأبراج المحطمة والتماثيل المكسورة واخرى ظل نصفها مرتبط بقاعدته، تماثيل من سجل الحروب والانتصارات وسلاسل الأسرى وأخرى في رحاب التعبد أو نشر القوانين، ومن الخيال الرومانسي الذي يحاكي وصول الصوت والجسد إلى السماء وإطلاع الإله عليها، وتلك النقوش فوق الطين التي سجلت الحوادث الضخمة والابتهالات والاساطير وفسرت الأحلام وبدايات المعرفة والاختراع المتواصل، من ذلك الماضي الهائل صاحب التأثير الكبير على التاريخ العالمي وحاضر البشرية، الحضارة في بلاد مابين النهرين وسوريا ووادي النيل والاغريق والرومان وفالي وبقاع أخرى وضعت الثقل الكبير على شعوبها الحاضرة، فهي تعمل للوصول الى ذلك المستوى الرفيع – هي تحاول – وتدرك أنها قد لا تتمكن من تسجيل ذات الإنجازات والمكانة، تلك الشعوب ورثة

سومر وبابل واشور اهرامات مصر وايبلا وماري أو جاريت وتروي وجريت وبيبلوس وصور ونينوى وطيبة وروما وقرطاجنة، شواهد كثيرة تروي الحالة الحضارية التي كانت مثل معابد الزقورة والجنائن المعلقة والثيران المجنحة والمسارح والاهرامات والأعمدة المحطمة، في اليونان وبلاد الفراعنة لم تشهد مواقع الحضارة إلا القليل من التدمير والخراب، من الظواهر المتواصلة في سجل البشرية العبادة والتعاليم الدينية والتعلم والفنون، اشباح من سومر وبابل تحركت في أرض وصحراء بلاد ما بين النهرين صعودا نحو الجبال وهبوطا حيث دلمون والماء يمتد دون حدود، طارد عقول الرجال احساس يشع بالدفء من وهج تلك الحضارات الثلاثة المتعاقبة والتي ولدت من البئر الأولى لتل العبيد، الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية تحرس بشعاع القوة والعظمة سياج الدولة الآشورية باب الملوك، الإمبراطورية الآشورية اختفت ولكنها موجودة في تراثنا العالمي الحضاري، رغم الخراب، من خلال كشوف العلماء هي تتحدث بعدة لغات كونية، مفردات تلك الحضارة وتكويناتها وما تبقى منها – ألواح ومدن وهياكل وتماثيل ولوحات على جدران القصور ومعابد، حكام صنعوا من البطولة وصنعوا الملاحم المذهلة مثل " سنحاريب – سرجون – نبوخذنصر - كل واحد منهم تجده حاضرا في تلك الثيران المجنحة، ليس هناك ما يقابل هذه الحضارة ومنجزاتها في حضارة اليونان التي جاءت فيما بعد، عندما نتوغل في عالم الأساطير ونفهم الرموز والشخوص نعرف بدقة كم من الأشباح طاردت وما تزال تطارد تلك الصحارى والسهول والجبال وتختبيء في مياه الأهوار المقدسة، حكايات هي اغرب من الخيال ولكنها عاشت وفرضت تفاصيلها، عرفناها عن كتب في فترة الطفولة ثم في مرحلة التعلم وما جاء بعدها من زمن توسعت الفكرة والرؤيا عنها.



عوالم ساحرة تمتد وتتداخل وبطلها الإنسان الرافديني، لا تتكرر الافعال او المنجزات في أرض تبحث عقولها عن المختلف والجديد والمدهش، تجد الممتع والجزء الذي يفيض بالسرور معروض من حيطان وقلاع وقصور وتماثيل سومر وبابل ونينوى وبيترا وتدمر وبعلبك، تلك هي وحدة الحضارة العظيمة، مشاهد تمتع العيون وتروي فصول اغرب من الخيال ولكنها كتبت بحروف الحقيقة الصادقة، استحضار سومر مثلا يحتاج خيالا وبعض المعرفة، صراحة الآن ليس سوى أطلال وبعض تلال تخفي في طياتها كنوز الظلام، ومن مذكرات المنقب السير a.h.layard الذي بحث مع فريقه من العمال في منطقة نينوى، قبل اكثر

من قرن حصل على الامتياز في التنقيب وعندما فكر قرر ان ما يبحث عنه يستوجب عبور الفرات وكان يرى ان الخرائب التي يبحث عنها ليست بالبعيدة عن موكبه، في تلك الفترة كانت هناك نتائج للتنقيب قد ظهرت في سوريا وآسيا الصغرى، وجد أعمدة رشيقة ترتفع فوق أرض مزروعة بالآس والدفلى وتحيط بها شجيرات البلوط الأخضر، المدرج الصخري المرتب الجميل خطواته تنحدر بشكل جميل، وتشرف ظلاله على بحيرة تبدو لمن يتأملها انها خليج أزرق غامق، ذاك العمق الرئيسي من الأرض والمتمتع بغزارة المساحة الخضراء، لفت انتباهه ذاك التل الصلد الذي يرتفع من قلب السهل المحروق، جزء من ذلك التل تمت تعريته بفعل المطر وبعض القرى حفرت من ترابه، ذاك الفعل وتعرية الرياح كشفت اسراره، وظهرت تلك الآثار الرائعة وكان " لايارد " قد خمن وجود كنوز الحضارة الآشورية في هذا المكان، وحصل ذاك الكشف العظيم نماذج من آثار رائعة، شعر الجميع من هيئات دبلوماسية أجنبية وقائد الحملة وعماله بالنصر الكبير، لقد تم إيجاد الأرض المفقودة المدفونة والتي تحمل في مدفنها أهم كنوز الكون، من بين تراب الخراب الصامت نهضت بقعة من العراق القديم المدهش، ولكن الذي حصل فتح قبر الحضارة السري ولفه غياب آخر حيث تسلطت عليه القوى الأجنبية في تلك المرحلة الاستعمارية الكالحة، فرح لم يدم طويلا، نقلت القطع المهمة لتصبح في مضيف الدول الأجنبية، بل الأصح انها نُهبت قسرا وعيون أهل العراق مغمضة أو مفتوحة والحزن لف القلوب، وتسابق الوافدون يحفروا في أكثر من موقع، حملات يقودها اللوردات والنبلاء ورجال التاريخ، والجامعات والقناصل والتجار وقطاع الطرق وفرق السياحة، الكل يريد الحصول على قطع الحجارة التاريخية في سلال النخاسة، وبدأت الإعلانات تغزو شوارع المدن الساقطة " هاقد جاءت حجارة العراق المسبية "..



السرور نصب مشاعلة المتوهجة في تلك المدن بينما كـان العـراق يرتشـف الفجيعـة وتغـرق مدنـه في الظـلام واليـأس، ظهـرت الجـدران والهياكـل والاعمـدة ومقـاطع رؤوس التماثيل، فن مدهش يروي قصة حضارة سادت ثم اندثرت، حاول رجـال التنقيـب تحـاشي تدمير بعض تلك الاثار، وجدوا على رؤوس بعض الاعمدة الرخاميـة صـور نحـت تشـوهت بعض الوجوه او قطعت بعض الاوصال، المنقبون الجيدون عملوا دون ان يتركوا الكثير مـن التلف، وكان بعض العلماء يحرصوا بشكل غير اعتيادي على الحصول لنتائج جيدة بعضـهم كان يقدر الماضي ويبحث عن وثيقة تعضد منهجه الدراسي، يدرك بشكل كبير حالة التقدير

للماضي، وجدوا إلى جانب الصخر المنحوت الكتابة والشعروالنثر والرسوم الجدارية والاختام، يرافقهم صوت البوم الناعق على تلك الاطلال كمن يحذرهم ويتوعدهم، وبين تلك الاطلال الشبح الأسود ينتقل بين الاعمدة وبقايا الجدران، والنباتات تخرج من بين الشقوق وتفرد اشواكها تقاتل كي لا يلحق الضرر بذاك المكان، عالم معقد وغريب كان هناك يحيط بتلك المدافن التي فتحت بشكل قسري، الوافدون من أقاصي الكون شعروا بالسعادة، كان ذاك العالم الذي يحيط به الخراب هو الكنز والمكافأة الكبيرة، احاط بهم الذهول وهم يقفون أمام رأس الملك العظيم المنحوت إلى جدار هائل صنع من الطابوق المفخور، كأنه في لحظة حياة ينظر أمامه ويرسل أوامره في المدى الممتد لسيطرته، في العام 1770 كتب احد الذين نقبوا – توماس واتيلي – لم أرى اي اختلاف بين عالم قديم وعالم جديد، ربما ارى ان القديم قد وضع بصمته وانزوى، بينما الجديد يجتهد ويسعى وقد يترك او لا يترك، رغم كل الظروف لم يضرب الخراب تلك المواقع بقوة، بل ظلت تلك البقاع في مواقع الحضارة القديمة تحيط بها الطبيعة بحنان وتحفظها، واتذكر ان الذي عثر على مدينة " تروي – TROY-" وكان تاجرا أراد أن يستثمر تلك الأرض تجاريا، قال: " أنا أكثر سرورا لرؤية تروي ابنة اثينا تعود مثل المدن الاخرى التي عادت من العالم الآخر، صحيح انها تمثل العالم القديم ولكن أي عالم جميل كان ذلك، رغم ان بعض الجمال مكسور ألا أن التصور له يذهلنا تماما، هذا العالم القديم الحاضر الآن نعتز به ونحتفي فهو مثل قصيدة مكتوبة بسبائك الذهب وقد عثرنا عليها " وبينما كان البعض يضحك من تلك الرغبة التي تنم عن تحية العالم القديم وتصف الذي اكتشف مجرد قطع من الخراب لا يستحق كل تلك الضجة الكبيرة، ولكن الحقيقة ان القضية ليست في الكلمات وما يقال بل بتلك التفاصيل وما تقود إليه من معلومات مذهلة تعيد

رسم الكثير من النتائج عن عالم قديم ثري بكل شيء، يدهشنا كيف انجز تلك الحضارة وما التقنية التي استخدمها، هل عمل بشكل مرتب واكثر همة من العالم الحالي، هذه المعلومات التي تتحدث عن سومر وحدة الحضارة - هي بمثابة نزهة تذهب نحو العالم القديم تبحر في معلومات مؤكدة ومهمة، التوثيق القوي من خلال المصادر وما افرزته الدراسات، من التراث المحطم او السليم خرجت المعلومات التي تقول وترسم الحضارة التي نشأت في بلاد ما بين النهرين، وعن الأسباب التي جعلت الكثير من الكتب والجامعات تنظر الى ذاك العالم نظرة احترام وتقدير وتنجز الكثير من الكتب والابحاث عن تفاصيل الذي كان، البحث في سجل وحدة الحضارة من خلال التوثيق السليم، ينهض ذاك التراث المحطم دون ان تستهجنه العقول والأبصار له احترام الكون ومنه تخرج الدراسات والأبحاث والكتب والأفلام وكل المواد السمعبصرية المدهشة، الكثير من العلماء وفرق التنقيب حصلت على اكثر من فرصة لمشاهدة تلك الأطلال ومواقع الخراب، البعض نقب وبحث لمدة عشر سنوات في ظروف مناخية صعبة، وسجل انطباعاته والمعلومات التي حصل عليها اصبحت في اروقة الجامعات وعلى مقاعد الدراسة، كانت القوة والإصرار تنطلق من فكرة تغيير الخراب واستعادة فضاء ذلك العالم القديم بكل ما لديه من ثراء وجمال، بعض المواقع التي تم فيها البحث والتنقيب تغيرت او تعرضت للنهب بفعل فاعل، وتلك النتيجة ضغطت على عمليات البحث وجعلت الطواقم والعلماء والجامعات تعدل في خطط التنقيب او تلغي بقية برامجها، وهناك فرق او اطقم من الجامعات واصلت عملية البحث وصلوا إلى اغلب المواقع منقبون في عقولهم احتمالات كثيرة عن العالم القديم، حفروا أزالوا غطاء النبات عن الأرض المقصودة، وعندما بنوا صوامع مؤقتة لهم ولمن يرافقهم ازدهرت الجهود وتتابعت وصار في

حكم المؤكد ان تظهر المعابد وبقايا القصور والاعمدة والتماثيل وغيرها، وكانت العواصم والجامعات ومراكز البحث تنتظر النتائج، ظهرت مناطق جديدة من المدن القديمة المدفونة، ظهرت من خلال الحفريات أجزاء من بقايا الخراب جوانب من القلاع، حيطان من المعابد، اسيجة مربعة وأخرى دائرية، صالات ومقرات للحكم، وبين إعداد تقارير العلماء وفي الفترة القصيرة النتائج تُعدل وتأخذ طريقها إلى الإعلان والنشر، نعم حدثت تغييرات كبيرة في الخراب الذي طال أغلب المواقع التاريخية التابعة للعالم القديم، بعض العلماء توقفوا عندما التبست عليهم الصورة أو حصلوا على نتائج مغايرة، بينما فئة من العلماء أختاروا التأمل ومواصلة البحث قبل إعلان النتائج، وإعادة ترتيب فواصل الزمن والمراحل واستمرار البحث، ووضع التصور لاستكمال الصورة وفق نتائج هي الأقرب الى التخمين، ومن خلال تصور رد الفعل الإنساني، كانت تلك المحاولات تتكرر وهي ليست نوعا من التسلية بل هو عمل شاق، في مذكرات العالم هنري جيمس وهو يثبت فواصل من تجربته على مدى عدة سنوات، يقول ربما تبدو ملاحظاتي وأفكاري التي سجلتها عن مرحلة عملي في البحث عن تفاصيل من العالم القديم، أنها مجرد أفكار مغالية أو تخرج من تفكير يضخم النتائج وأنا اكتب عن عالم يبدو مدمرا في الكثير من الحالات، ولكن المقارنة بين العالم المطمور والعالم الواضح للعيان والذي يبدو أكثر تخريبا بفعل الحروب والكوارث والتلوث والفقر والفساد والعدوانية، تخريب العامل الإنساني والذي هو أكبر بكثير من خرب القصور والمعابد والبيوت التي تشكل خريطة المدن القديمة، " ويضيف في مذكراته " أنا حاولت التعامل مع كل أنواع الخراب المنسوبة للعالم القديم على أنها تكوين واقعي لامهرب منه، مثل المسارح المدورة وأعمدتها والقنوات والأقواس والحمامات والجسور، الحديث عن كل

جزء من الذي ذكرته يمكن ان يملأ العديد من الكتب أو فصول من الأبحاث - فصول طويلة ومداخلات قد لا تنتهي، البعض يريد ان نصل الى النتائج بشكل سريع بينما نحن نريد النتائج المنطقية، الفصول التي تكشف المعلومات وتربطها بالظروف الموضوعية، الإبحار في عالم تلك المدن والقصور التي دفنت في ارض العراء، منها الذي تم اكتشافة او الذي ينتظر، تلك حصيلة لابد من التمهل للوصول اليها وفق الوعي والتقصي، ثمة حقيقة لابد من التوقف عندها وهي ان اضخم المدن الآشورية..



مدن تنهض من بين الخراب

المهمة دفنت بفعل التغييرات الجيولوجية وتعاقب الزمن تحت الأرض منذ حصول الدمار الهائل لتلك المدن بفعل الحرب التي واجهتها في القرن السابع قبل الميلاد، بعد الخراب الذي لحق بتلك المدن بشكل تدريجي، حيث غطى الدمار والحرائق العديد من الأميال التي كانت ضمن خريطة الموقع الفعلي لعاصمة الإمبراطورية، كان الخراب يرتبط بزحف جيش القائد " سيروس " الذي زحف بقواته الكبيرة خلال القرن الخامس قبل الميلاد، مع قلة المعلومات المتوفرة عن تلك الحملة العسكرية، في فترة القرن التاسع عشر، أصدر الملك سايروس في القرن السادس قبل الميلاد وبعد غزوه لبابل عام 539 ق.م وثيقةً عُرِفت بمدونة سايروس. وقد أُعلِن في المدونة والتي أُكتشِفت عام 1878 وتم الاعتراف بها "كأول وثيقة لحقوق الإنسان"، أُعلِن فيها السماح لمواطني الامبراطورية بمزاولة تقاليد شعائرهم الدينية بحرية إلى جانب إلغاء العبودية، السهل العظيم للمدينة وخاصة الضواحي والحدائق والمنتزهات التي في واقع تكوين المدينة كانت تمتد على طول شواطيء نهر دجلة وتنتهي حدودها في قلب الصحراء، عند تكوين تلال عديدة متناثرة في عدة اتجاهات، والتي تبدو وحيدة موحشة يلفها عدم الاهتمام، تلك كانت فيها حواضر الزمن القديم من جدران وقصور وأسوار من أجزاء المدن التي كانت تمثل قلب الحضارة الآشورية، ليس هناك الكثير من التفاصيل في رواية " لايارد " حول تاريخ كشفه عن تلك الآثار المهمة التي حققها في " نينوى و النمرود " لا ينكر أنه كان واسع الخيال وجريء في محاولته، هو كعالم آثار أنجز عملا مهما، عندما اختار موقع البحث من خلال تحديد أحد التلال في خريطة بلاد ما بين النهرين وحقق اكتشافا غير محدود، جدران وقصور وقاعات وتماثيل عالم مذهل بلا حدود، تمكن أن يضع العالم الحديث في قلب الإمبراطورية

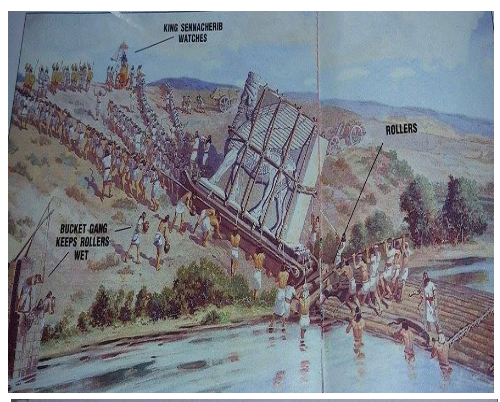
الآشورية، وضع يده على كنز ثمين تمثل في الهياكل البشرية مثل " الآلهـة، هياكـل محـاربون، تماثيل ملوك، حيوانات في صور جدارية وتماثيل، زهور، أختام، مصوغات، نماذج مختلفـة مـن النسور، رجال برؤوس حيوانات وثيران برؤوس بشرية، ثيران مجنحة، أسود برأسين، كـل تلـك تجدها في سجل الحضارة التي اكتشفها مثبتة في القصور والساحات المهمة، العـالم " لايـارد " في لحظة الاكتشاف اجتاحه السرور العظيم، ظل يتأمل اكتشافه لعدة ساعات، للوهلة الأولى اعتقد أنه امام صف من تماثيل الملوك والأمراء هيئات من النبلاء رفيعي المقام، كانت اشـعة الشـمس تـنعكس عـلى الوجـوه التاريخيـة والوجـوه الحيـة للـذين يحملـوا اجهـزة البحـث والتنقيب تغطيها الدهشة الكبيرة، اختفى من عين " لايارد " والذين معه فاصل الزمن انتقل الجميع إلى تلك المرحلة البعيدة، بينما العيون تدقق في النقوش القليلة البـارزة عـلى هياكـل الأسود والثيران المجنحة والملوك، كان السباق مع الزمن يتواصـل، اعتقـد " لايـارد " انـه أمـام تماثيل بحجم تمثال " أبو الهول " وفي تفاصيل العمل المستمر كان لايارد والذين معه يرقصون ويهللون مندفعون بحماسة الاكتشاف التي تقود إلى تفاصيل أخرى، كان كل يـوم يمـر يقـدم صورة أقرب ألى عمق التاريخ الحضاري، الاكتشـاف الجديـد حـتما وضـع جميـع المعلومـات السابقة في بودقة التغيير، كانت فترات العمل كثيرة ومتواصلة وفترات الراحة قليلـة أو تكـاد تتداخل مع فترة البحث والتنقيب، بدأت تظهر أجزاء أخرى مهمة مـن حضـارة بـلاد آشـور، حيوانات، وحوش، اشـجار، اعمـدة ضـخمة، جـداريات مقدسـة، قطـع مـن الحجـر الضـخم منقوش عليها مشاهد من الطقوس الدينية أو المغامرة الجادة في الحب والحياة من تلك التي كان يشار إليها في الكثير من الألواح المكتشفة، إشارات عميقة إلى حفلات الصـيد، والمراسـيم الدينية حيث وجدت لوحات كاملة تمثل الكـاهن والملـك وهـما يتصـدران تلـك النشـاطات

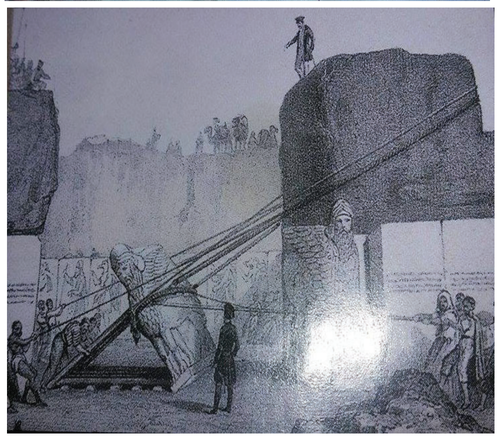
وكيف وضعت تلك الحيوانات الهائلة المجنحة لتحرس الحياة والإمبراطورية وترعب الأعداء، البدو من العرب من القرى القريبة من موقع التنقيب من الذين كانوا يعملوا مع " لايارد " أظهروا أعظم الأهتمام بتلك التماثيل، شعروا أنهم أمام مشهد في غاية الغرابة، انتابهم مزيجا من الغرابة والخوف والرهبة، حتى أنهم شكوا في المشهد الموجود امامهم كما لو أن الأرض انشقت عن اصنام مرعبة تثير الخوف والدهشة كما لو أنها جاءت من عالم منحوس مسكون بالعفاريت والشياطين.



كانوا ينظرون الى هيئات رجال مخصيون كما لو ان اللـه غضب عليهم في زمن ما وجعلهم في هذه الصورة من الحجر الصلد، نظروا كثيرا الى الفتيات الجميلات، بعضهم كسر حاجز الخوف واندفع يداعب وجوه التماثيل، قبلوا

بعضها وربتوا على خدود بعضها وداعبوا مؤخرات النساء، لف الجميع فرح غامر لا حـدود له، مكافأة مالية مجزية دفعها " لايارد " للعمال تكريما لجهودهم، عمّ الفـرح الكبـير ومـن جديد أندفع العمال كالمجانين إلى أعماق الخنادق وصاروا يحفـروا بهمـة عاليـة وكـأنهم في حرب كبيرة، لم يوقف همتهم الحر الصيفي القاسي، نزعوا ملابسهم وصاحوا صيحة الحـرب التي تعودوها من قبائلهم، كانت همتهم الكبيرة تفتح ابواب القبر الآشـوري وصـار للـزمن اليومي قيمته وهو يفرز النتائج المدهشة، نينوى الذي انتشر فيها خبر التنقيب ومـا حصـل في تلك المنطقة، حيث اندفع بعض أهلها ليشاهدوا الاكتشاف بين حالـة البهجـة وضـخامة الدهشة، بعضهم بكى على تلك الحضارة العظيمة التـي كانـت مدفونـة تحـت تـراب أرض نينوى دون أن يعلم أحدا بها، إحدى الطالبات كتبت رسالة لأخيهـا الـذي يـدرس في الهنـد علوم الآثار قالت " أبي يقول لا شيء جديد في اعمال التنقيـب – ولكـنهم عـثروا عـلى أحـد ثيران آشور المجنحة " كان عدد الزوار للموقع يتكاثر كل يوم، مـن اسـاتذة ورجـال عسـكر وعلماء آثار جاءوا من دول بعيدة، فتح " لايارد " الكتـب التـي تحـوي الخـرائط المعماريـة المتوقعة لقصور ومملكة آشور كما تخيلها علماء الآثار في بريطانيا وفرنسا، ومع مرور الأيام في العمل المتواصل ضمن خارطة الموقع صـارت الاكتشـافات تتـوالى وتكشـف عـن حقـائق جديدة وصار ظهور العالم الآشوري من تحت الأرض حقيقة قائمة وصارت المعلومات تـنشر عن الجديد المكتشف والمرتبط بمعلومات قديمة عن حضارة آشور كما توقعها علماء الآثار..





" الصورة الأولى نصب التمثال في زمن الملك الآشوري - الصورة الثانية اكتشاف التمثال وطريقة نقله "

رحلات لزيارة الأطلال والبحث فيها

عام بعد آخر بعد ذلك صارت وجهة الكثير من المسافرين لزيارة تلك التلال والوقوف لتأمل الآثار المكتشفة، كان البعض لا يصدق مايرى - مدن متعددة وقصور الأمبراطورية ومعابدها تنهض من تحت التراب، انتهت الحيرة عندما وقفوا في رحبة المدن والمعابد والقصور، عندها بدأت التقارير تنشر في

أوروبا وخاصة بريطانيا وفرنسا حيث نقلت بعض التماثيل لتستقر في متحف اللوفر، أغلب جامعات العالم تحثت بسرور تام في ندواتها عن فضاء مملكة آشور كانت صور التماثيل الكبيرة تنشر في الصحف والمجلات، تجولت وفود عديدة في قصر النمرود وبقية المواقع وكانت الحفر الكبيرة شاخصة وهي تدل على استمرار البحث والتنقيب، الثور المجنح أصبح من المخلوقات الآشورية المحبوبة عالميا، كما لابد الإشارة والتأكيد على أن في بلاد ما بين النهرين ثلاث حلقات متصلة تربط بين ثلاث إمبراطوريات مهمة ظهرت في فجر التاريخ وأنجزت الكثير من الرموز والإنجازات الحضارية المهمة، في مرحلة البحث والتنقيب في بداية القرن الماضي او قبل ذلك التاريخ تم الكشف عن مواقع مهمة في سجل الحضارات الثلاثة، مثل " معبد الآلهة في نيبور - نفر وأوروك والوركاء ولجش وبابل ولارسا ومواقع أخرى " الزقورة - ومعابد نيبور والقصور التابعة للحضارة السومرية والآكدية والبابلية ومنها أيضا الجنائن المعلقة وجميع آثار بابل، وصفت الجنائن المعلقة بأنها من عجائب الدنيا السبعة، وكذلك ورد في العديد من الكتب والتقارير الحديث عن برج بابل ومسلة الملك حمورابي، وظهرت من خلال النشر صور شارع الموكب في بداية آثار بابل، والذي يعود بنائه للفترة من القرن السابع قبل الميلاد، من مرحلة حكم " نبوبلاسر وأبنه - نبوخذ نصر "، وفترة الملك " سنحاريب " الذي عمل بقواته الكبيرة على تحطيم المدينة القديمة، غزوات عديدة تعرضت لها المدينة الآشورية من قبل حكام بابل والفرس، ولكنها ظلت تمتلك حضورها التاريخي والمعرفي والحضارية مع أنها كانت كومة من حطام في قلب الصحراء، وكانت قد انجزت من يحرسها بعد الخراب والموت، الثيران المجنحة الموجودة على أبواب القصور الملكية الفخمة كما هي الحال في قصر " خورسباد " ، عثر على نسخ عديدة من منحوتات كبيرة تمثل اسود متوحشة، وثيران مذهلة،

وأجنحة نسور كاسرة، والملك العظيم الملتحي وهو يرسل نظراته القوية، والطيور التي تفرد اجنحتها وجمال ريشها، والتيجان والقلائد والصولجان والمظاهر الحربية فوق صهوات الخيول أو العربات الملكية أو الحربية، تلك كانت من مظاهر القوة التي وجدت لحماية الملك والدولة والمدينة، تحد اي تمثال قد صنع ليكون حجمه أطول مرتين من حجم الإنسان العادي وذاك يشير إلى إرتفاع القوة الآشورية وعظمتها، كانت تلك من التعليمات المهمة التي يجب ان يلتزم بها النحات الفنان في زمن الدولة الآشورية، كما هي الحال في نموذج الملك سرجون الثاني في مدينة " خروسباد " وأيضا في نموذج تمثال الملك " سنحاريب " الذي نفذ في مدينة نينوى في القرن الثامن قبل الميلاد.



صورة الملك الآشوري آشور بانيبال في عربته الملكية..

وإذا أردت معرفة تطور ذاك الفن القديم في العراق أنظر إلى الصورة كما تظهر ترسم القوة والمجد وقيادة الحرب نقشت الفكرة على الحجر الصلد من قبل أمهر النحاتين في نينوى، والصورة تمثل حالة رمزية رسمية، الملك آشور بانيبال

يقف في عربته المزينة مع السائق ويوجد مرافق يحمل المظلة فوق رأس الملك في يده اليسرى وكذلك القوس في اليد اليمنى والملك يده مرفوعة نحو جماهير الشعب يؤدي التحية الرسمية، الحصانان في الصورة وكما تبدو مقدمة العربة بشكل واضح ومجسد جدا، ومكان وقوف الملك مزين بنقوش تزيد من البهرجة للعربة الملكية، ذيول الحصانين رسمت بشكل مذهل ورائع ودقيق أمام العربة يقف الحراس الملكيين، والمشهد بشكل كامل على جزء من شاطيء نهر دجلة، وعموما اللوحة تمثل حالة احتفال النصر والعدو قد هزم وهو مسجل هزيمته تحت حوافر خيول عربة الملك العظيم، كما تجد آثار الفن المدهش على حيطان جدران مدينة بابل، من الجدران وصولا إلى الباب الرئيسية الى وسط مدينة بابل تؤكد في النماذج الفنية ذات الزينة المدهشة كالباب الكبيرة التي تدفع الدهشة والرهبة في النفوس والعيون إلى صفوف متناوبة من التنينات والثيران وإشارات مقدسة ترمز إلى الآلهة " أدد – مردوك – adad- marduk " وتم بروزتها من خلال خلفية ذات لون أزرق ممزوجة بإحجار اللازورد، نرى التنينات لها لون أبيض وقرونها نافرة متحفزة للقتال بينما خرج لسانها وظهرت المخالب باللون الأصفر لون الثيران اسمر غامق، كما لونت الحوافر باللون الأخضر وكذلك القرون والجلد تم تلوينه باللون الأزرق، البابليون في مهارة عمرانهم قد غطوا تلك الحيطان وكان علماء الآثار قد توصلوا الى إكتشاف تلك الآثار الفنية وإعادة بعثها في الزمن الحاضر، انتقلت التأثيرات الفنية والفكرية إلى قصور وبنايات المملكة الفارسية، حيث وجدت تماثيل للجنود الفرس وهم يقفون بشكل ثابت عند بوابات القصور الملكية، وهم يحملون الرماح الطويلة وهم من الذين يرتدون الملابس الحربية – بمعنى أنهم جاهزون للاشتباك دفاعا عن الملك والقصر، كما وجدت تماثيل لحيوانات تربض عند أبواب القصور بهدف فرض

الحماية وإضافة الجمالية للعمران، وإبراز عضلاتها ومخالبها وإيضا وضع الثيران الكبيرة عند الأبواب كما كان في الفترة الآشورية، كانت تلك ترمز الى النصر الكبير على الشر، أيضا تعرضت تلك الآثار الى التخريب والاندثار.



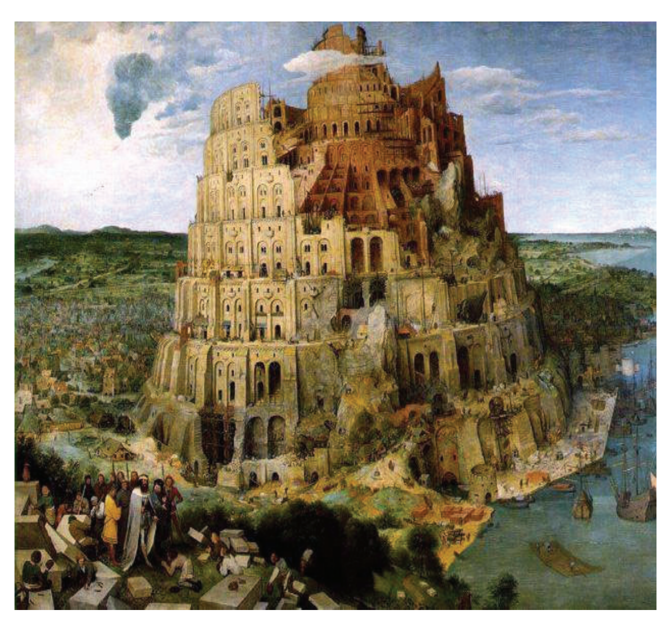
" تنين مزجج وباللون الازرق اللازوردي – وصورة اخرى جدار من بابل وعليه التنانين التي تحرسه "

خطط لعمليات البحث والتنقيب

وعمليات البحث والتنقيب مستمرة، ظهر منها في العصر الحديث مثلا الآعمدة الطويلة المهيبة الشكل وهي ضمن تكوين مدن ضخمة، هكذا انتقلت مفردات الحضارة والثقافة والفنون من بلاد ما بين النهرين الى الدول المجاورة، حتى تماثيل الملوك تمت محاكاتها وعمل ما يماثلها تجد تمثال للملك الفارسي " داريوس " يشابه الى حد بعيد تماثيل ملوك سومر او بابل او آشور، مع إضافات بسيطة على التكوين مثل صناديق للذهب والفضة عند أقدام الملك، ونقش على واجهة التمثال " داريوس ملك الملوك أو ملك دول العالم " هنا استعارة لقول

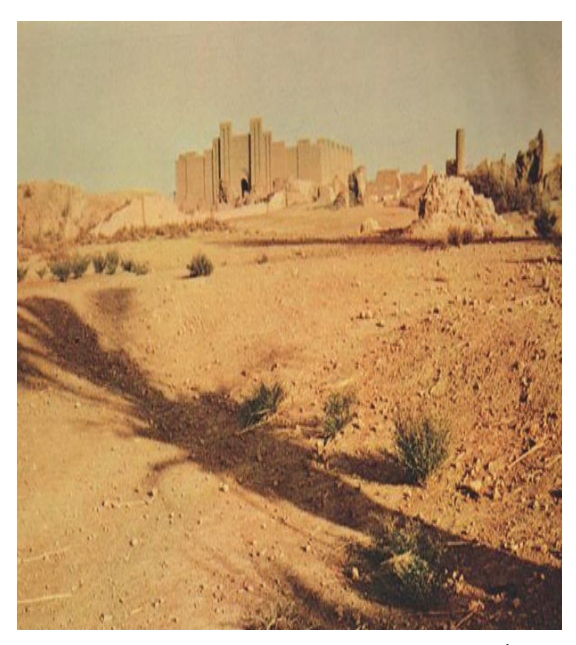
الملك السومري " ملك الجهات الأربعة " ملك الفرس قد مدّ سيطرته من بلاد الفرس الى بلاد ما بين النهرين الى الهند وبلاد الرومان وقد نقشت عبارة تقول ان الآلهة التي منحتي الصولجان وفتحت لي البلدان هي التي تحمي قصري ومملكتي، أو تلك اللوحة التي لايشك أي باحث بوجود ما يماثلها في الفن الآشوري وهي تمثل الملك الفارسي " داريوس " في دائرة الضوء بينما يقف من خلفه حارسين ملتحين وكل منهما حمل بيده رمحا، التمثال وضع بين الأعمدة الكبيرة، هناك إشارات مثبتة أيضا تتعلق بالفتح العسكري الذي حققه "الأسكندر المقدوني " ودخول تلك القصور في العام 330 قبل الميلاد وقد ذكر المؤرخ "diodorus siculus" ويرد في فصل من مذكراته عن تلك الحقبة قوله ان الفاتح الكبير استخدم أكثر من 3000 جمل وبغل لنقل كنوز ملك الفرس وكانت من أعظم الكنوز في التاريخ وتم نقلها الى عاصمة القائد الفاتح..

ظهور بابل



" برج بابل – لوحة متخيلة لوصف تاريخي "

الملك داريوس الذي هرب في المعركة الفاصلة مع الأسكندر المقدوني ترك المدينة التي كانت تمثل عاصمة الحكم ومن وصف أحد التماثيل وكما ورد في كتاب المؤرخ اليوناني نجد التأثيرات الكبيرة لصورة لوحة تمثل الملك الآشوري - آشور بانيبال - نجد تمثال ملك الفرس صنعت على النحو التالي يده اليسرى تؤدي التحية وفي عمق اللوحة تمثال للآلهة وكان ذلك في مقدمة المكان المخصص لضريح مفترض الذي احيط باجنحة على شكل مخلوقات منحوتة، داريوس خسر المعركة وهرب نحو الجبال البعيدة الوعرة، واكتفى القائد الفاتح بالسيطرة وتدمير كل آثار المملكة، كانت قصور ملك الفرس قد تضمنت لوحاتها وتماثيلها ما يشابه الذي كان في سومر وبابل وآشور كما كان ذلك مشابها في المعابد التي اقيمت في بلاد فارس، ثمة إشارات وردت في كتاب " هيرودوت " تتحدث عن دخول القائد الفاتح " الإسكندر المقدوني " الكبير 356-323 قبل الميلاد هو ملك مقدونيا وفاتح معظم بلدان آسيا الغربية، عندما وطأت أقدامه تراب بابل ركع وقبل ذاك التراب، توفى فيها ودفن في 13 حزيران من عام 323 قبل الميلاد وهو في سن 32 عاما.



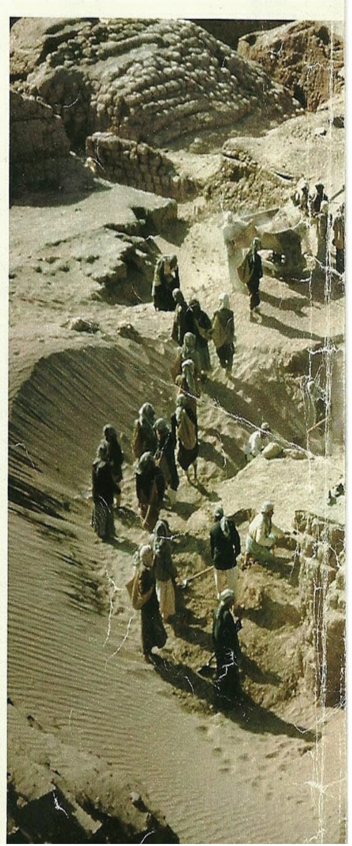
" بابل في أول صورة عند ظهورها من تحت التراب واكتشافها "

قائد الفتح وجميع قواته وجدوا انفسهم في مدينة بابل المقدسة وقفـوا بخشـوع أمام الأطلال وعبروا عن احترامهم لأرض بابل وتعاملوا بالود مع سكانها كما أمر القائد " المقدوني " بتعمير المدينة وإعادة تجميلها وصـيانة معابـدها وفـتح الطـرق بينهـا وبـين المدن الأخرى. كما منع قواته من الإساءة لسكانها وأمر جنوده بالزواج مـن نسـاء بابـل وأن السماء والرب يبارك كل زواج سيتم عقده، من خلال تواجد القوات الكبيرة في بابل حصلت المدينة على شهرة كبيرة عند عودت تلك القوات حيث نقل اغلـبهم انطبـاعتهم وذكرياتهم في بابل وصار اغلب سكان روما يفكر بالحج إليها، في بداية العصر المسـيحي جاء الى بابل عشرات الآلاف من السياح، كان الكثير منهم سمعوا وقرأو عن بابل وكانت عبارة عـن اطـلال غـير ظـاهرة، المدينـة مـدمرة وغائبـة عـن المشـهد المطلـوب، عبـارة عن صـحراء وبعـض الـتلال ولكنهـا " بابـل "، وفي عـودتهم دونـوا أنهـم لم يجـدوا بابـل

العظيمة المقدسة وطالبوا بالبحث عنها، وصفوا الخراب الكبير وقالوا أنهم وقفوا أمام كومة من الأطلال غير المفهومة، جبل من الحطام المشوش وثمة كتلة مشيدة ولكنها تبدو عبارة عن مرتفعات، استند بعضهم لمعرفة المكان على ماذكره المؤرخ العربي " ابن حوقل " الذي ترجمة كتبه عندهم ومنها كتاب له وصف فيه موقع مدينة " بابل " حيث قال أنها في مكان حدده وقال أيضا هي تبدو مثل قرية صغيرة، جاء ذلك في تدوين يعود إليه، وصف بعض شوارعها وقال أنها تمتد مساحة 30 ميلا، انها مثل كتلة مشيدة بالطابوق ولا توجد إشارة ألى بنايات واضحة او عالية أو كبيرة، ولكنه ومعه أخرين تحدثوا عن شكل برج بابل وفق خيال مذهل وقد اعتمد بعضهم الى إشارات وردت عن بابل في " التوراة "، كل الكتابات التي دونت وضعت الصورة عن مدينة الإمبراطورية البابلية، جبل من التكوين المدهش كما في الصورة، وكان من الصعوبة بشيْ ان يتم البحث عن ذاك الجبل الذي يعتبر مفتاح فهم ومعرفة المدينة، كان البحث في كل الأزمنة يدور حول المدينة المفخورة والعظيمة ذات المجد المذهل، لابد ان يتم البحث عالميا عن الموقع المقصود، وظلت الوفود تصل إلى بابل في أزمنة مختلفة فهي أرض مقدسة كان البحث عن ذهب غالي مدفون في تراب أرض ما بين النهرين، وكان الترويج لها كما ذكرت في كتاب التوراة حيث دعا " أرميا " ظلت عقلية زوار بابل مشوشة فهي لم تصل الى المكان المطلوب حيث المدينة المقدسة مدفونة تحت التراب، الشاعر المشهور " جون هيوز " نشر قصيدة يستفسر فيها أين بابل..؟، ذاك السؤال الدرامي الكبير دفع علماء الآثار بشكل جدي من خلال مهمات متتابعة للبحث والتقصي وتحديد المكان من بين الخراب الموجود في المكان، وصارت المهمة تتلخص بتحديد التلال ومعرفة مكان بابل بدقة، على أية حال صار الكثير ممن يأتون لحج بابل يطلقون الأماني لاكتشاف المكان، بدأ

البحث بلهفة ممزوجة بين مفهوم الحضارة والإشارة الدينية، أخيرا تكلفت بعثة من العلماء الألمان بالبحث عن مدينة " بابل " قبل بداية القرن الماضي استمر البحث 50 سنة بالتتابع بعثات علماء الآثار توافدت على المكان ولديها تحديد واضح للموقع، في الموقع كان السكان ينقلوا منه الطابوق المفخور منذ 2000 سنة، تمت المتابعة والحفر حتى تمكنت احدى البعثات من الوصول الى احد جدران مدينة " نبوخذ نصر " العظيمة " بابل "، المدينة التي حطمت على يد القائد الآشوري " سنحاريب – sennacherib" أثر ذاك الهجوم لم يبق شيئا من قصور الملك " نبوبلاصر – nebuchadnezzar"، ثم تم الكشف عن المعابد، الحيطان الخاصة بالمدينة، الباب الرئيسي، أرصفة الشوارع من وإلى المدينة، شارع الموكب والجدران المزينة بالرسوم، الحصن العظيم، الطريق المقدس، كان كشفه يُعد بمثابة حادثة مهمة وسعيدة لجهود فريق التنقيب، هو برهان عن صحة ودقة التخمينات وأهمية الخرائط التي استخدمت في رسم الموقع المدفون تحت التراب، بعد ذلك زار الموقع عدد من الزوار الذين عاملوا المكان بقدسية عالية، ثم جاءت فرق تنقيب أخرى لتواصل البحث وتستكمل المسيرة في كشف تفاصيل المدينة والتي كان علماء الآثار يؤكدون أن الكثير مدفون تحت التراب كانت كتل هائلة من التراب تدفن تفاصيل المدينة البابلية، استمر عمل فرق التنقيب بالتتابع، تم الكشف عن باب عشتار وظهرت كتل كبيرة من الطين المفخور مكسورة، وحيطان مبنية بالطابوق المفخور وفق اشكال هندسية واجزاء من شوارع مرصوقة بالطابوق ومطلية بالقار الأسود، وخاصة شارع الموكب العظيم، وفق تفاصيل فوضى العمل والتنقيب، استمر توافد الزوار واعتبر العالم المعاصر نتائج التنقيب بمثابة جائزة كبيرة للحضارة البشرية، وفود من علماء الآثار والجامعات وصلوا لمطابقة الخرائط والتصورات مع المدينة المكتشفة حديثا.







" صور تمثل عمليات البحث والتنقيب في موقع بابل "

وجدوا الصحراء تتموج وتمتد دون نهاية وهذه المدينة الآثارية كنقطة في بحر، وهي تقترب بمسافة ليست كبيرة من شاطيء نهر الفرات، حيث تكثر غابات النخيل بكثافة، كانت مياه نهر الفرات لها دوراً مهماً في الحياة والنماء وفي جمالية الجنائن المعلقة التي اعتبرت من عجائب الدنيا السبعة عندما أنشئت قبل 3000 عام، بابل كانت المدينة الأعظم في الكون، وأرتبطت بوجودها أحداث حصلت في فترة حكم الإمبراطوريتين " البابلية والآشورية " لها محطات مضيئة ورومانسية مع وجود إنجاز علمي وأدبي بالرغم من استمرار حالة الحرب

والفتوحات، الذين جاءوا لزيارة أرض بابل كانوا يفكروا بـأنهم سـيرون بـرج بابـل المشـهور وقد خرج من بين الخراب والـتراب، ولكـنهم وجـدوا في انتظـارهم خرائـب المـدن القديمـة ومنها بالذات بابل، وقفوا يتأملوا أطلال المدينة التي خرجت من بـين مـدافن الأرض وهـي مدمرة ولكن لها ملامح تؤكد أنها فعلا بابل التـي كتـب عنهـا الشـاعر " بـيرون - byron " أجمل قصائده:

بعض الملحدين،

الذين لا يعرفون،

لأنهم لا يستطيعوا اكتشاف البقعة ذاتها،

تلك بابل نفسها،

أمسك " ريتش " المحترم ببعض طابوقها المقدس،

وكتب مذكرتان عنها منذ عهد قريب،

وتلك المعلومات أصبحت في محور الذاكرة،

نهضت بابل المقدسة..

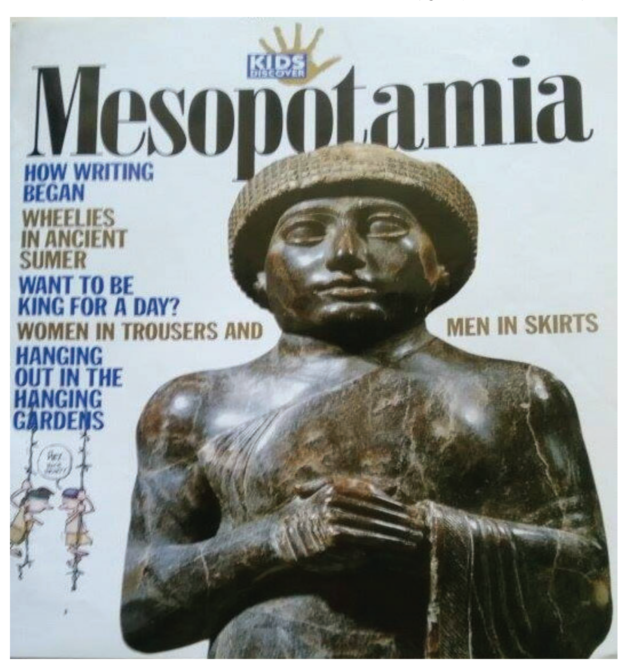
بداية جادة وجديدة

هكذا بدأت حملات البحث المتعافبة عن الآثار في بـلاد مـا بـين النهـرين وبـلاد أخـرى، وفـق تزايـد الطموحـات السياسـية والحربيـة في منطقـة الشرق الأوسط والأدنى وخاصة في العراق، تلك الحملات اعتمـدت عـلى كتـب وفتـاوى دينية وخرائط وضعت للحرب والسيطرة، أنطلقت فرق البحث من خلال تمويل تم رصده لتلك العمليات المتتابعـة، شـملت التوجـه لأغلـب أرض الإمبراطوريـة العثمانية الساقطة المتوارية نحو عالم التغييب، اجتمعت العوامل السياسية مـع

خرائط النفوذ الاستعماري الجديد وكان التسابق والصراع يدور بين ثلاثة دول في الوصول إلى مواقع الحضارات القديمة وهي " أنكلترا – فرنسا – ألمانيا " ثم ألتحقت بتلك الدول " أمريكا وجامعاتها "، والسبب الجوهري وراء ذلك ان يكون لكل من تلك الدول مركزا مهما للسيطرة والتحكم على أجزاء من تلك المساحات بما يمثل قاعدة انطلاق لاحتلال دول او مدن جديدة، فرق التنقيب ومن عمل معهم لم تكن لديهم معلومات تفصيلية عن المواقع او المناطق وعن السكان، أغلبهم كان يجهل معلومات تفصيلية واضحة باستثناء الخرائط والاحتمالات عن المواقع الحضارية أو وجودها، كانت بلاد مابين النهرين – mesopotamia- تبدو للجميع غامضة، يمتلك الجميع معلومات بسيطة للغاية تتعلق ببعض التلال العظيمة والاعتقاد المؤكد أنها تحتوي على خرائب المدن الحضارية القديمة، إثنان من تلك المواقع التي تحمست للعمل فيها فرق التنقيب عرفت بشكل تقليدي وسميت " بابل – نينوى " وكلاهما من العواصم الكبيرة والمهمة وتمثلان حضارتين عظيمتين للإمبراطوريتين " البابلية – الآشورية "، وقد اعتمد على ورود ذكرهما وخاصة بابل في " التوراة " التي كتبت في بابل، وكذلك في الكتب الكثيرة حيث ورد ذكرهما وتحديد الموقع بشكل قريب، بابل من ثلاثية الحضارة الرافدية وهي الأقرب في كتب الديانة اليهودية وخاصة فيما يتعلق بالسبي اليهودي ووجود اليهود في أرضها أسرى، وهكذا صارت تفد إلى الموقعين وبشكل مستمر البعثات عن التنقيب والبحث الاركيولوجي ولم تكن سومر في خرائط البحث والتنقيب والمعلومات عنها تكاد تكون معدومة، نينوى وبابل استمر إليها وصول الاشخاص والمجموعات من المغامرين الذين لهم مطامح عديدة ومنها العثور على الآثار ونقلها وبيعها والربح كذلك العثور على المسكوكات الذهبية، القسم الأغلب يأتي من دول أوروبا ودول أخرى

ويعتمدون على الآدلاء من أبناء نينوى وبابل، نشرت في كتابي " الحضارة التي سبقت حضارة الأغريق والرومان " جانب من مذكرات الكاتب المغامر " أوبري – aubbrey" الذي ظهر في القرن السابع عشر وهو يتحدث عن عودة العقيد " كافنديش " إلى اليونان من سفرو ذهب خلالها إلى بابل بعد ان وجد التأييد والحماسة على إنجاز ذلك من الحاكم ولكي يرى بابل المقدسة – babylon– ولكي يحقق ذلك أنخرط المذكور بالزحف مع قوات الجيش التركي، وبعد وصوله الى خط الحدود العراقية عثر على إثنان من المسافرين من أبناء نينوى وصل معهما الى مواقع في المدينة غير واضحة، لكنه عاد ببعض الآثار البسيطة والتي تتضمن كتابات البعض منها تمت ترجمة مضمونه مما زاد في رغبة مجموعات أخرى لتكرار المحاولة، و تسجل الأحداث وخاصة في العام 1808 تقلد الشاب البريطاني منصب رئيس بعثة المصالح البريطانية وهو الذي ذكره الشاعر بيرون في قصيدته " س- ج – ريتش " الذي قدم المساعدة ودعم جهود البحث والتنقيب عن الآثار، ولهذا الغرض شكل فريقا برئاسته وكان اغلبهم من المهتمين بالبحث والتنقيب عن الآثار وبينهم اساتذة من الجامعات البريطانية، قادهم في رحلة استكشاف إلى موقع بابل، تعهد بدعم تلك الجهود ومتابعتها ثم كتب النتائج في مذكرتين نشرهما في صحف أوروبا خلال السنوات 1813- 1818، أيضا عمل على دعم الجهود في موقع نينوى وقد تم نقل الآثار التي تم العثور عليها لتستقر في المتحف البريطاني، بعد موت القنصل ريتش في بلاد فارس، تواصلت الجهود في البحث والتنقيب في بابل ونينوى nineveh- قامت الجهات الحكومية في أوروبا بنشر إعلانات تشجع الذين يريدون الذهاب من اجل مواصلة البحث والتنقيب في بلاد ما بين النهرين، وضعت شروط لمن يروم التقدم من اجل التنقيب ان يكون ذي معرفة وإطلاع على سجل حضارة بلاد ما بين النهرين،

وثبت الإعلان ان تلك الأسباب تأتي خدمة لبقاء آثار العالم القديم بعيدا عن العمل الارتجالي وعدم الدراية وحصول التخريب والعبث والدمار حيث تمثل آثار بلاد ما بين النهرين مهمة للغاية وتخص البشرية.



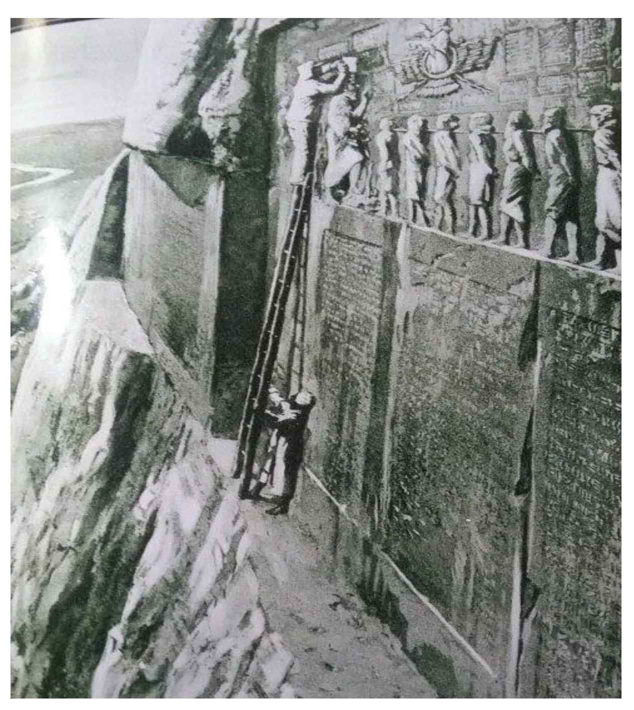
ميزابوتاميا كما في الصورة لمجلة صدرت في عدة أعداد..!

وظلت الجهات الأكاديمية والعلمية وأيضا المجمعات الكنسية تواصل الدعوة وتحث على المشاركة ودعم عملية البحث والتنقيب وتنشر المعلومات المتوفرة عن بلاد ما بين النهرين، في العام 1840 – 1842 برز تقدم كبير عندما أسست الحكومة الفرنسية قنصلية لها في السنجق الثاني من العراق وأكبر المدن – الموصل – نينوى – تم اختيار الموقع عبر نهر دجلة في منطقة " كويسنجق " وفي موقع قديم من " بعد 2003 بدأت الجهات الرسمية في الولايات المتحدة إعداد الأطفال لمرحلة قادمة ولمعرفة تفصيلية بحضارة بلاد مابين النهرين.....

تفاصيل احداثيات مدينة الموصل، وتم تعيين أول قنصل لها وهو " بول أميل بوتا – paul emile botta" الذي وصف في ارشيف العمل الدبلوماسي الفرنسي بأنه كان مسئولا مجربا في المجال القنصلي إلى جانب تمتعه بالخبرة والمؤهل الإضافي، من وجهة نظر حكومته كانت مهمته تتمثل في رؤية وامتلاك سجل لتطور المصالح الفرنسية بما يوازي التطور الذي حققته المصالح البريطانية في العراق، وهذا ما يؤكد حالة التنافس التي كانت قائمة لمدّ السيطرة على بلاد ما بين النهرين، إلى جانب مهماته الديبلوماسية اهتم " بوتا " بسجل تاريخ الحضارات القديمة، كان المجتمع الفرنسي معجبا بشكل كبير بالمعلومات التي نشرت عن بحوث وتجربة القنصل البريطاني " ريتش "، اتخذ عهدا بتقديم المساعدة والدعم لأية جهود تهدف للعمل على البحث والتنقيب في محيط عمله في " نينوى "، الذي حصل بعد ذلك ان سجل العمليات في البحث والتنقيب لم تكن بالعمق الكافي هي لم تكشف عن نتائج جيدة أو مفيدة، ولكن في شهر مارس من العام 1843 حمل المفاجأة الكبيرة عندما أمر القنصل " بوتا " بتحويل البحث والحفر إلى موقع آخر مختلف في منطقة " خورسباد – khorsabad" حيث الموقع الجديد يبعد عن الموقع القديم مسافة 10 أميال، باتجاه المنطقة الشرقية الشمالية، بعد جهود عمل متواصل ومن خلال عدة آدلاء محليين تحققت نتائج مهمة وذلك عندما تمكن البحث والتنقيب الكشف عن جدران صخرية تقطع ألواح مغطاة بالرسوم الواضحة ومن خلال نقوش قليلة البروز، على أثر ذلك بعث برسالة مهمة ومفصلة الى الحكومة الفرنسية ابلغها بالنتائج التي تحققت وبدورها الحكومة شعرت بالارتياح وأقرت زيادة الدعم المالي كي يستمر وفريقه باستكمال البحث والتنقيب وإرسال النماذج إلى فرنسا، من الجدير بالذكر ان فرق التنقيب التي عملت في العراق عثرت على مجموعة كبيرة من الآثار، منها السجلات والوثائق

المدونة مثل – سجلات الملوك والأمراء وكذلك ما يتعلق بتفاصيل المعارك الحربية وممتلكات المعابد وشرائع القوانين والأساطير المهمة مثل إينانا ألهة السماء والأرض وملحمة الطوفان وجلجامش وإبتهالات المعذب الصالح التي وجدث على هيئة ألواح طينية مفخورة إلى جانب المسلات- أعمدة مصنوعة من الحجر – الذي نقشت على الوجه البارز منه الكتابة والإشارات المطلوب تدوينها، كذلك عثر على مجموعة كثيرة من الأواني ومفردات الزينة وآلآت الموسيقى ومعدات الحرب ومحاكاة في تجسيد الحيوانات والبيئة والخوارق وتخليد الآلهة والأبطال والملوك كذلك الأختام الأسطوانية وفن العمارة وكذلك توثيق المعاملات التجارية على ألواح الطين المفخور تلك من أبرز ما تركته حضارة ما بين النهرين، في ذات الفترة كانت انكلترا قد طورت جهودها للقيام بلعب دور جديد في ذات الإتحاه الذي سلكته فرنسا من خلال جهود محامي شاب مغامر يمتلك مؤهلات تتمثل في اطلاع غير محدود على علم الاركيولوجيا هو " هنري أوستن لايارد – **henry austen layard**" كانت رحلته الى سيلان لمزاولة مهنة المحاماة هناك لكنه شعر بالإعجاب برومانسية الشرق وتفاصيل التاريخ وعندما وصل إلى بلاد فارس – إيران وجد له عملا مع جهاز المخابرات البريطانية، وبعد فترة انتظم في مهمة التنقيب والبحث عن الآثار وقرر السفر الى بلاد ما بين النهرين لوجود معلومات كثيرة لديه عن الحضارة والتاريخ فيها، وصل الى نينوى ووقع اختياره على احدى التلال الضخمة والذي يحمل اسم " نمرود – **nimrud**" وهو يبعد عن مركز مدينة الموصل " نينوى " مسافة 10 أميال باتجاه الجنوب، وعندما قرر البداية في التنقيب كان المتحف البريطاني يعاني من شحة وجود العينات والمكتشفات الآثارية الخاصة بحضارة وادي بلاد ما بين النهرين، في بداية عمله باشر في الحفر ثلاثة أقدام مربعة من المكان المتبقي في أطلال المدينة

القديمة " نينوى " في تلك الفترة كانت بابل قد توقفت فيها محاولات اي جهود في التنقيب، استطاع لايارد ان يعدل نتائج ابحاثه بسرعة كبيرة، وكانت النتيجة عثوره على الحجارة ذات الألواح الثمينة من التي سميت فيما بعد ب " الثيران المجنحة " كانت ثيران عظيمة تم صنعها قديما من مادة " الكلس " وتبدو بشكلها المدهش العظيم وقد أطلقت أجنحتها للريح وهي تقف في أرتفاعها البالغ أربعة عشر قدما كما عثر في تلك المحاولة على العديد من القطع ذات النقوش وهي مشيدة على هيئة أعمدة أو او تاد مصنوعة من الحجارة القوية، سجلت تلك الاكتشافات دخول مرحلة جديدة تضاف الى جهود الباحث " بوتا " وقدمت الكثير من الاضافات عن معالم حضارة بلاد ما بين النهرين، في مرحلة لاحقة عمل " لايارد " على تجميع معلوماته وبحوثه التي حصل عليها واعتبرها مهمة للغاية وعمل على نشرها وذلك في العام 1849، بعد ذلك صار هو الأكثر شهرة وأفكاره هي المعتمد عليها كمراجع وحقائق، وجاء بعد ذلك الحدث الأكثر أهمية في مجال معرفة وفك رموز حضارة العالم القديم عندما تمكن العلماء من إيجاد طريقة لمعرفة نقوش موجودة برأس الوتد العالي، وكانوا قد بدءوا العمل على ذلك منذ أواخر القرن الثامن عشر، وكان من بين أولئك العلماء عالم دنماركي هو " ايدن كريستين نيبور " حيث لاحظ في مدينة " سوسة " وجود نقوش وكتابة على الكتل الصخرية الكبيرة الحجم والمدهش في تلك الكتابة أنها كتبت بثلاث لغات مختلفة، في تلك الكتابة كانت تستعمل إشارة واحدة لكل كلمة كاملة، أو إشارة لكل مقطع أو صوت هام، ومن الواضح ان تلك اللغات كانت تستعمل إشارات كلمة كاملة، يصل عدد تلك الإشارات إلى الآلاف، بينما النظام الأبجدي بالتأكيد يصل إلى خمسون إشارة مختلفة، والكتابة المقطعية تسقط في مكان ما.



" صورة نادرة جدا لعملية فك رموز اللغات القديمة التي وجدت منقوشة بثلاث لغات على واجهة الجبل ومن تلك اللغات السومرية - أنظر الطريقة الصعبة التي استخدمها العالم وخطورة المجازفة "

ملاحظة تقود الى فتح كبير

لاحظ نيبور أن أحد أشكال الكتابة تبدو بصورة حسنة وهي تحتوي خمسون إشارة مختلفة واستنتج بشكل صحيح ان ذلك يجب أن يكون هو الأبجدية الكاملة، لم يتوقف البحث عند هذه المرحلة بل تبعتها جهود عالم ألماني شاب هو " ج - أف - جروتيفند " الذي تلقف ذاك الأكتشاف وأندفع يعمل على فك رموز تلك المخطوطات، وفي العام 1802 ظهر في الورق ما يميز ويحلل تلك اللغة وبشكل صحيح، وجاء من خلال تفسيره وبوضوح تام ان الرموز تمثل اللغة

الفارسية القديمة، وظلت جهوده تتواصل في فك رموز تلك الواجهة المكتوبة بـثلاث لغـات، وفي العام 1840 حصل تطور آخر مهم للغاية عندما اخترق أحد ضباط شركة الهند الشرقية والمدعو " هنري كويسويسكي راولسـون " وكـان مهـتما باللغـات القديمـة ويعمـل في فـرع الاستخبارات مستشارا في بلاد فارس.



"وثيقة مكتوبة بالخط المسماري على حجر(1125-1100) ق. م تسجل ما قرره حاكم سيلاند ينانا- شوم- ادينا بإعطاء خمسة أغوار من أرض ذرة في إيدينا جنوب بابل لشخص يدعى السيد كولا "

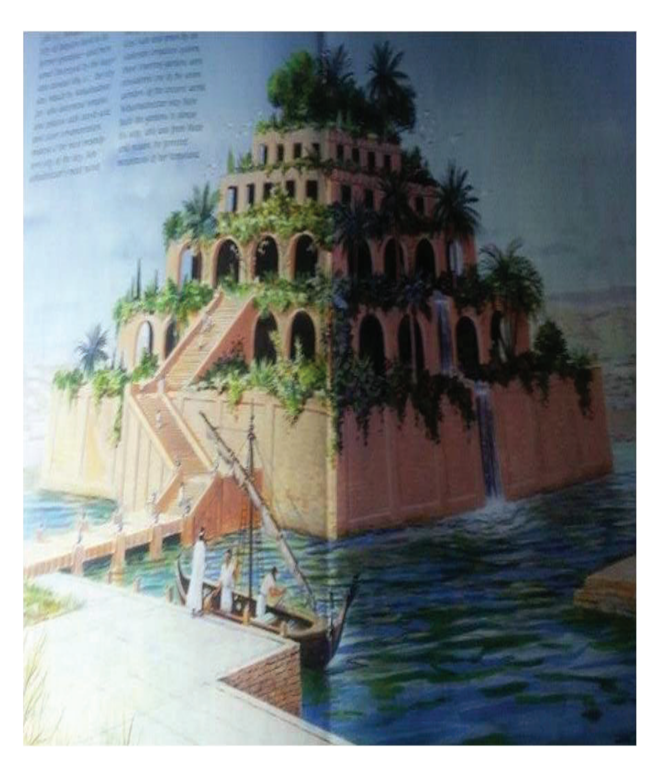
صرف وقته الاحتياطي لنقل النقوش الأكثر أهمية واستمر ذلك لفترة طويلة من الزمن دون نتائج حاسمة، ولكنه في نهاية المطاف عثر في المخطوطات الثلاثة المكتوبة على الصخر في صفحة الجبل الكبير العالي الواقع في منطقة ليست بعيدة عن كرمنشاه - الكتابة كانت مدونة بالخط المسماري بنص واحد ولكن بثلاثة لغات هي " الفارسية القديمة - العيلامية - البابلية "، أعطى ذلك النور المطلوب لترجمة النقش الأطول عمرا والأكثر أهمية في ترجمة وتفسير الكتابات حيث توصل العالم جروتيفند في العام1846 لنشر بحثه الهام ومن خلال المعلومات الواردة فيه تمكن العلماء وبعثات التنقيب من فك رموز الكتابة المسمارية التي كانت متداولة في الكتابة في بلاد ما بين النهرين، والتي استخدمتها عدة شعوب وممالك مجاورة منها مملكة الفرس القديمة والتي كانت موجودة في الفترة السومرية والآكدية والبابلية، من خلال ذلك الحدث تم جسر فجوة الظلام الحضارية، ايضا استطاع العلماء من خلال ذلك الإنجاز فك رموز اللغة البابلية، من تلك التي وجدت مكتوبة على الطابوق البابلي، ذاك الإكتشاف أعطى المعنى الكامل للرموز والإشارات - الأسماء - الحوادث الحربية، وبذلك تمكن العلماء لاحقا من ترجمة جميع الكتابات المتعلقة بالفترة السومرية والآكدية والبابلية وأيضا الآشورية، عندما تم فك وترجمة النصوص الطويلة والتي قدمت معلومات غاية في الأهمية، عن تفاصيل وأحداث وقعت في العالم القديم من بلاد ما بين النهرين، وخاصة ضمن فترة الإمبراطوريتين الرئيسيتين في المنطقة التي كانت موجودة في الألف الأول والثاني قبل الميلاد ونعني بذلك بلاد بابل وآشور، وقد تطابقت معظم الأبحاث الجديدة مع منطوق النصوص الدينية التي وردت في " العهد القديم "- في تلك الفترة تم توظيف المعلومات الدينية المتعلقة بحضارة بلاد ما بين النهرين لخدمة أهداف التنقيب والبحث واستكشاف الحضارة القديمة، في

تلك المرحلة تردد صدى تلك المعلومات الجديدة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأمريكا، وعندما حل العام 1852 تكونت مكتبة رئيسية للألواح والـرقم الطينيـة التـي تـم العثـور عليهـا في مدينة نينوى بشكل خاص، حيث صار العلماء في حالة عمل متواصل بعد تمكنهم مـن فـك رموز الخط المسماري وتمكنوا بيسر من قراءة الوثـائق والنصـوص والكتابـات المدونـة عـلى التماثيـل و المعابـد، في تلـك المرحلـة حـل فهـم ادق واعمـق وأوضـح للكتابـات المدونـة باستخدام اللغة المسمارية، وقد ثبت العلماء علميا الحقيقـة التاليـة " أن اللغـة السـومرية تتصف بأن لها وعاء حضاري كبير ومهم، حيث كانت لغة طبقات المجتمع المختلفة وكذلك للـدين والسياسـة والأدب والعلـوم، لغـة شـاملة لكـل النـاس، ولمختلـف مهـمات الحيـاة ومفرداتها، هي اللبنة الأولى في سلم الحضارة البشرية التي نشأت في بـلاد مـا بـين النهـرين القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، أصبح الآن الوضع مختلفا تماما، نحـن نسـتطيع قـراءة تلك الألواح بسهولة ووضوح للمعنى، لاحقا وجدت مجموعـات أخـرى كثـيرة مـن الألـواح والرقم الطينية وشمت القرن العشرين بلقب – مفتاح اكتشاف عصر سومر والمدن الآخرى القديمة وأيضا انجز علماء تلك الفترة قراءة مفردات حضـارة بـلاد مـا بـين النهـرين بشـكل واضح وأيضا تمكنوا من الكشف عـن المفـاهيم والأفكـار المهمـة التـي كانـت تهـدف إليهـا وسجلتها بدقة تلك المرحلة التي وصلت إليها عملية البحث والتنقيب الاركيولوجي صـارت تمثل قاعدة اساسية تنطلق مـن خلالهـا الأفكـار لرسـم صـورة الحضـارة التـي كانـت قائمـة وكذلك البناء الاجتماعي وفلسفة الحكم والتشريع الذي بزغ عـلى أرضـها قبـل 3000 عـام قبل الميلاد في تلك المرحلة تمكن علم البحث الآركيولـوجي مـن كشـف الخلفيـة التاريخيـة لحضارة " سومر "..

الاسكندر المقدوني في بابل المقدسة

عندما وقف الإسكندر المقدومي على تراب أرض بابل التي اعتبرها في خطبته عاصمة إمبراطوريته في الشرق، نظر إلى إرتفاع الجدران الهائلة لبرج بابل والجنائن المعلقة أو قصور الملك البابلي والمعابد العظيمة البناء القريبة منها، كانت تلك الشواهد تشكل الأثر المجيد لمدينة بابل المقدسة، كانت اقدامه تقف على حافة شارع الموكب المبلط بالطابوق الملون وتلك الجدران الرائعة ذات الرسوم المعبرة عن القوة والحضارة والفن، قالوا له ان بوابة عشتار كانت تمثل بوابة النصر التي يمر من تحتها موكب الملك العظيم المنتصر " نبوخذنصر " وهي تتألق تحت الشمس من بعيد كانت ترتفع بابل نحو كبد السماء، الحجاج الذين وفدوا فيما بعد لم يجدوا المدينتين، كانوا يدورون حول تلال وهم يحاولوا استحضار التاريخ والأحداث والمواقع وتفاصيل الحضارة والحرب، في تلك المواقع التي مرّ عليها أكثر من 20 قرنا من الزمان وأكثر، البعض منهم كان يعتقد ان آيات في كتب الديانة توعدت الدمار لتلك المدن وخاصة بابل ولكن تلك الأراء ليست صحيحة وليست مهمة والسبب ان بابل التي وصفوها بأنها غرقت بالرذيلة والشر وكانت إرادة الرب وقوله الفصل ضدها، كان البعض منهم على العكس يشده الحب ورغبة المعرفة ويتصور كيف كانت تفاصيل المدن وكيف كانت الحياة فيها، الحقيقة المهمة جدا في رأي الإنسان المعاصر جميع المدن القديمة شملها الخراب ودفنتها رياح النسيان، وليس بابل أو آشور فقط اللتان طالهما الخراب، وعندما بدأت عمليات التنقيب وظهرتا من بين الأطلال أبتهج العالم شرقا وغربا وأطلق كلمات الرضا وحزم الحقائب بهدف الحج إليها وللدراسة والتوثيق، الملك البابلي الذي مدّ سطوته إلى أرض الجنوب وحطم إمبراطورية آشور وجعلها مجرد خرائب وجفت فيها الحياة وماتت روعتها وصارت متصلة

بصحراء كبيرة، سكنها طائر الغاق ومثيله الـواق، دفـن الـتراب المـتراكم العتبـات والأبـواب، وظلت تدور فقط الأصوات المخيفة بين الاطلال وتمر من فتحات النوافذ، تلك المدينة التـي كانت مبتهجة سكنها الصمت والموت، ظلت مهملة، المدينة التي فاخرت كل المدن وقالـت للكون أنا مدينة لا تضاهيها مدينة أخرى، أنا الأحلى والأرقى بوابة الحضارة، لكنها في نهايـة المطاف صارت جزءا من الخراب، مكانا تضطجع فيه الوحوش كل من يقف على ترابها يهـز يده أسفا..!، الشعوب التي وقعت تحت السيطرة الاستعمارية في القرن الماضي لم تكن تملك قضية تقرير عمليات البحث والتنقيب عن حضارتها، القوى المسـيطرة اطلقـت برامجهـا في البحث والتنقيب دون حدود، سجلت الوثائق تنقيبها وبحثها استخرجت الآثار وخاصة من المواقع الموجودة في بلاد ما بين النهرين، الأجيال الحالية تقف اليوم بحزن وهي تهز الأيدي حسرة وكمـدا عنـدما تجـد تـراث بلادهـا محجـوز في المتـاحف الأجنبيـة، تصـف التقـارير والمقالات والابحاث الذي جرى بأنه عمليات سرقة، بابل من تلك المواقع التي وصفت عـلى أنها الكأس الذهبية التي تمسك بها يد الـرب وهـي التـي جعلـت كـل الأرض المجـاورة لهـا تسكر من الجمال والسحر والمعرفة والعذوبة لما تحتويه أرضها وقصورها، عندما فتح غطاء المدافن البابلية، كانت عبارة عـن أكـوام مـن الركـام، مسـاكن للتنينـات والوحـوش ورمـوز الخراب، كانت عيون الباحث تصاب بالدهشة وتشعر بالرعب، مدينة كانت حديث الكون هي في لحظة اكتشافها دون بشر الرعي يلف أجزائها الصحراء تكاد تبتلع وجودهـا، اسراب من البوم والغربان والجرذان والزواحف فقط هؤلاء سكان بابـل، الآلهـة التـي كـان سـكان بابل يقدموا لها القرابين ويرتلوا التراتيل في معابد بابل الفخمـة ن مسـح المـوت أو الـدمار كل تلك الصور التي كانت رائعة..



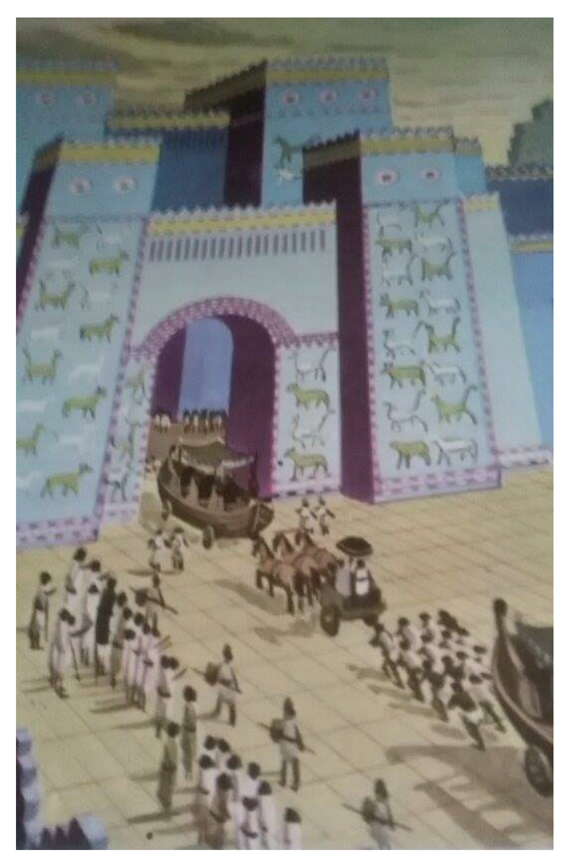
" الجنائن المعلقة في بابل "

أنبياء اليهود واحبارهم مـن الـذين عاشـوا عـلى أرض بابـل سـجلوا المعلومـات عـن حدود ومواقع في المدينة وعـن المعابـد وتـدوين فصـول التـوراة ذاك السـجل التفصـيلي لم يتكرر في نينـوى، بـل انفـردت بابـل بتفاصـيله، لعبـت الصـحافة والكتـب والأبحـاث التـي نشرت في القرن الثامن عشر ومـا تبعـه دورا كبـيرا في التـذكير بمدينـة بابـل ومايوجـد بـين جدرانها وفوق أرضها من سجلات دينية لليهود، هكـذا تحولـت إلى مـزار وموقـع بحـث في خرائبها، عن نسخ مهمة كتبت في بابل لكتاب التوراة أو وثائق عن حيـاة وتفاصـيل تخـص الأنبياء -العبريون - الذي كـانوا في بابـل، المقـالات التـي نشرت ركـزت عـلى تصـوير حجـم الخراب الذي لحـق في البنـاء وخاصـة الجـداريات والتماثيـل والردهـات وأعمـدة القصـور

والمعابد، التخريب البشع حصل نتيجة الحروب والغزوات وأيضا بفعل تقادم الزمن وكيف اهمل ذلك الموقع الذي كان يزدهر بالحضارة والعلوم والفنون، الذين وصلوا الى الموقع بهدف الزيارة او التنقيب والبحث صوروا تلك الصروح التي ظهرت من تحت التراب " كانت الجنائن المعلقة أعجوبة العالم " وجدوا الناس تمر أقدامهم فوقها ولا أحد يعرف شيئا عنها، كل ما يذكر عنها انها مدينة شريرة هكذا روّج عنها احبار اليهود وأيضا كتبوا عن هجوم سنحاريب عليها، ولكن بعد ان نجحت أعمال التنقيب قالوا في مقالاتهم " بابل " جديرة أن تظهر أمام الكون، بدت متألقة وتذكر الكون شرقا وغربا دورها وأهميتها في العالم القديم فهي مهمة أكثر من المدن الأخرى التي كانت سائدة في عصر وجودها، هيرودوت يصف تفاصيل مشاهدته لها في رحلته ويكتب عن الجدران - المعبد العظيم - البنايات الكبيرة المدهشة - القصور العالية - الأعمدة الرخامية - النافورات التي تعمل بنظام غريب تلقائي - البساتين الغناء الممتدة كواحة - النواعير التي ترفع المياه من نهر الفرات - السيقان الجميلة التي ترقص على مدرجات مسارحها - الأسواق الكبيرة المكتظة بكل بضائع الكون - المزارع التي تتدلى من اشجارها الثمار مثل الخوخ والتفاح والرطب اللذيذ، ان حدائق بابل تُعد إحدى العجائب السبع في العالم القديم، بينما تشير المعلومات التي نشرت عن الحضارات القديمة على مدينة بابل تعتبر هي عاصمة حضارة الإمبراطورية الثانية في بلاد ما بين النهرين، وقبل حلول القرن الماضي لم يكن يعرف عنها الكثير من المعلومات، وفي حقيقة الأمر بدأت بواكير البحث عن بابل في العام 1899، من خلال بعثة من علماء الآثار المدربين والعديد من العمال من أبناء بابل وما جاورها، وقد باشروا أعمال الحفر والتنقيب في منطقة قريبة من نهر الفرات بالاستناد إلى ما ورد في التوراة ومذكرات أحبار اليهود من الذين عادوا

من السبي البابلي إلى أرض " اورشليم – القدس " ومن تقاريرهم التي صدرت بعد العثور على الموقع الآتي – تقع الجنائن المعلقة في الجانب الشمالي من القصر الجنوبي، وهي على شكل بناية ذات تكوين معماري يختلف عن الذي ساد في المعمار السومري والبابلي، تم بنائها على شكل مستطيل له أضلاع قياساتها " 42 م طولا، 30 م عرضا " وينخفض التكوين في مستواه عن مستوى أرضية القصر الملكي، ويبدو في تكوينه العام يتألف من عدة حجرات صغيرة الحجم معدل حجم الحجرة الواحدة 3 امتار طولا، 2 متر عرضا – وهي مؤلفة من صفين وتقع على ممر ضيق كما توجد ممرات أخرى، وعثر في إحدى الحجرات في وسط المكان على بئركبير ذات ثلاث حفر الواحدة بجنب الأخرى، وتم تفسير ذلك بأن الماء كان يرفع بواسطة دولاب لسقي الجنائن المعلقة، اعتبر العلماء ان الموقع يخص الجنائن الغريبة التي اشتهرت بها بابل بين الأمم، وعثر على لوح يفسر قضية بنائها على أساس ان الملك البابلي " نبوخذنصر " شيدها اكراما لزوجته التي أتى بها من بلاد فارس " اميتس " ووصف العلماء الجنائن على أنها عبارة عن سطوح اقيمت فوق عقادات تلك الحجرات التي وجدت في أثناء التنقيبات حيث كانت الأشجار والأوراد تغرس فوق تلك السطوح المغطاة بالتربة، يصف احد الرومان الذين قاموا بزيارة مدينة بابل " المؤرخ " سترابو " وكانت الإمبراطورية في أوج عظمتها في العام 565 قبل الميلاد، إذ كتب يقول " كان المسافر إذا ما اقترب من بابل عن طريق السهل، تقع عيناه أول ما تقع على السقف الذهبي لبرج ضخم يتلألأ تحت أشعة الشمس، ثم تظهر اسوار المدينة العظيمة تدريجيا وهي ترتفع بشكل رأسي من بطن السهل، فتطوق المدينة التي يقدر محيطها 12 ميلا، لقد كانت تلك الأسوار من العرض بحيث يمكن قيادة مركبة ذات عجلتين يجرها أربعة جياد فوق سطحها، ومن خلف الأسوار كانت المدينة الداخلية، وكان يشق

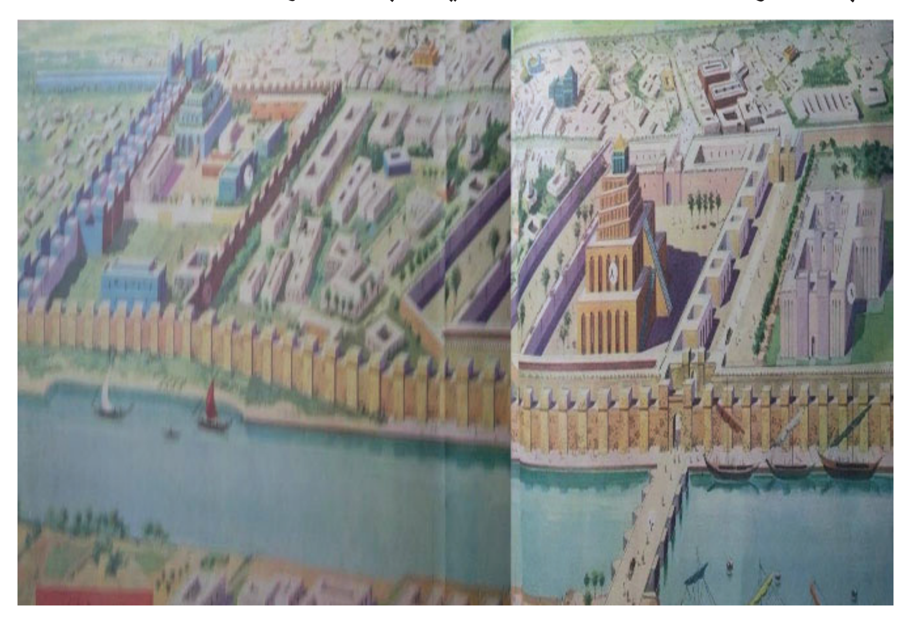
مدينة بابل من الجنوب شارع الموكب أو طريق المنتصر نبوخذنصر، في كل عام كان يقام في بابل مهرجان – العام الجديد، احتفالا بزواج الآله " مردوخ " وهو من الآلهة المعروفة والمهمة في بابل ويوصف بأنه الآله المانح للخصوبة والنماء، يسكب على الأرض بركاته فتغدو التربة خصبة تعطي المنتوج الوفير، مثل القمح والرطب والعنب والزيتون، الملك والكاهن في مقدمة الشعب وتمر العربات الرسمية في الشارع وصولا إلى نهر الفرات وهناك قوارب أيضا تقوم بالاستعراض وهي مزدانة بالذهب واللازورد، كل فئات الشعب تمر على امتداد شارع الموكب الذي كان يرتفع نحو 40 قدما فوق مستوى السهل المحيط به، وكان يكسوه بلاد من الرخام كل واحدة بحجم ثلاث أقدام مربعة وكان الشارع بعرض 75 قدما، تحيط به من الجانبين أسوار عالية أقيمت قواعدها على اطلال مدن راسخة قديمة في العهد، وكانت الاسوار قد تمت كسوتها بالقرميد المزجج بألوان زاهية براقة، مثل اللون الأزرق الزاهي وكانت محلاة بافريز رسمت عليه صور أسود وتنانين والمقصود بها حراسة المدينة والقصر وتخويف الغرباء وإبعاد شرهم عن المدينة، وعلى الجانب السفلي من كل بلاطة رصفت بها الأرض نقشت هذه العبارة " أنا نبوخذ نصر ملك بابل، أنني رصفت طريق بابل بالأحجار من أجل موكب الإله الكبير – مردوخ – ياآلهي العظيم أمنحنا جميعا الحياة الأبدية، وكان شارع الموكب الجميل يمر من خلال بوابة عشتار ذات المدخل المزدوج وحيث تنتصب الأبراج الهائلة وهذا المدخل المزدوج الضخم الرائع التكوين. كان مكسوا بطبقة ملساء زرقاء من احجار اللازورد البراقة المزدانة بتسعة صفوف من التنانين والثيران يبلغ مجموعها 575 وبعض هذه الاشكال الحيوانية على البوابة الرئيسية ما يزال قائما في موضعها الأصلي.



" الموكب العام يمر من خلال بوابة عشتار الكبرى التي يخترقها شارع الموكب "

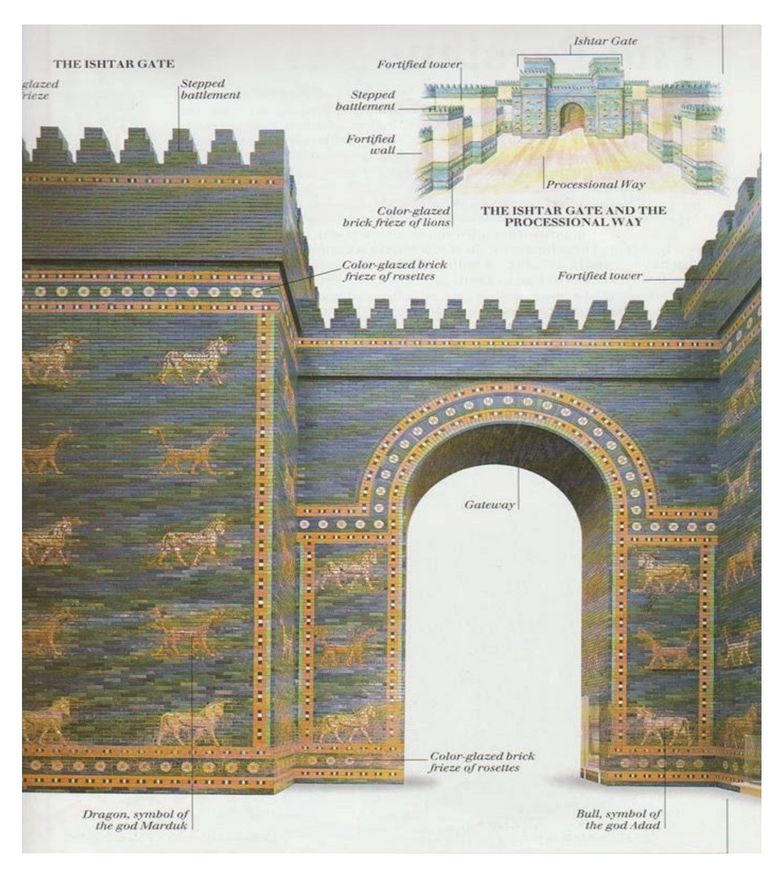
كما ظل حجم كبير من البناء ما يزال شاهدا على عظمة وجمال بوابة المدينة، وبعد المرور من بوابة شارع الموكب يجد المسافر نفسه داخل المدينة ويرى فيها القصور الفخمة والمعابد المهيبة المذهلة يحف يها اسيجة عالية كما كانت شوارع للمدينة اصطفت على جانبيها قصور وبنايات وأسواق ودوائر للحكومة ومعابد وقد غطى سقوفها القرميد الأصفر وليس لها نوافذ مطلة على الشوارع، وأرضيتها مبنية بالقرميد، ولها مورد مائي يأتي من ينابيع دائرية، وهنا أيضا يوجد قصر " نبوخذ نصر " المتميز بساحاته الواسعة، وقاعة العرش الفسيحة العظيمة في

بنائها، وعشرات من الغرف الصغيرة، وتحف به أسوار عالية انتشرت فوقها الأبراج، ثم يـرى معبد الإله " ننماخ " الذي تم كسوته بالقرميـد ذي الطـلاء الأبـيض الـذي كـان يـبرق مثـل بريق الرخام عندما تسـقط عـلى سـطحه اشـعة الشـمس، وقصر ملـكي آخـر مـن القرميـد الأصفر اللامع المزخرف بالمينا الزرقـاء وأرضـياته مـن الحجـر الأبـيض والأسـود، لـه مـدخل تحرسه أسود ضخمة منقوشة، وكانت الجنـائن المعلقـة هـي أروع هـذه المشـاهد جميعـا، ويرى بعض علماء الآثار ان تسمية الجنـائن المعلقـة مضـللة، أن الأصـح ان يقـال الجنـائن الممتدة على شكل مصاطب مدرجة فوق أبواب مقنطـرة وكانـت تلـك المصـاطب مزروعـة بشكل هندسي مذهل وجميل باشجار مختلفة مثل " السنديان والبلوط الأخضر والصـنوبر والدلب والاقحوان والصفصاف والدردار والنخيل والبرتقال والرمان.



" مدينة بابل ويبدو نهر الفرات يقسم المدينة قسمين و يعبره جسر واسع ويرى بوابة شارع الموكب "

وكان البنيان كله يرتفع 75 قدما، توجد به سلالم تصعد من مدرج إلى مدرج وكان يظل بليلا منعشا طيلة أيام السنة بالمياه، تضخ إليه من ينبوع أدنى من مستوى سطح الأرض، يقال ان الملك " نبوخذ نصر " قد بنى هذه الحدائق لزوجته الملكة " اميهيا " وهي أميرة من ميديا لكيلا توحشها روابي بلادها إذا اقامت في أرض بابل المنبسطة، وعلى مقربة من وسط المدينة كان يقوم البرج المدرج العظيم، سقفه من الذهب ويُعد هو أعلى بناء في مدينة بابل، وكان يطلق عليه اسم معبد الإله مردوخ أو " أي - تيمين - انج - كي "، وهناك أراء تربط بينه وبين برج بابل الذي ورد ذكره في كتاب " العهد القديم "، ولا يتفق الكثير من علماء الآثار مع هذه الفرضية، يؤكدون ان برج بابل كان قد شيد في مكان آخر من أرض " بيس نمرود "، وثمة اسطورة بابلية تروي ان الإله " مردوخ " أمر والد الملك نبوخذ نصر _ المسمى نبوبلاسر - ببناء البرج وطلب ان تكون قواعده راسخة في الأرض بينما تصل قمته إلى السماء، وفي تكوين سياجه الضخم المربع، تم بناء مساكن للكهنة، ومئات من الغرف المخصصة لضيافة الغرباء من زائري المكان المقدس، وكذلك مكان مخصص للخزائن الني تحتوي على الأموال والتي تقوم على حراستها أسوار متينة تدعمها الأبراج - خزائن تحتوي على الثراء الكبير، حيث كانت معابد بابل طائلة الثراء، إذ كانت تقتني الممتلكات وتعمل بمثابة المصارف للمواطنين الذين كانوا يدفعون لها الرسوم المتحققة عليهم نظير مرور زمن مثبت بعقد، بل أكثر من ذلك كانت تزود الملوك بالمال لتمويل وتجهيز الحروب التي تقع، خزائنها المليئة بالذهب والفضة كانت تجذب الغزاة الأجانب ولهذا صممت لحراستها أسوار عالية متينة تدعمها الأبراج.



" بوابة عشتار – مدينة بابل "

كان البرج نفسه يبلغ ارتفاعه 300 قدم ويزيد رفعا كلما أرتفع الى القمة في سلسلة من المدرجات وكانت سلالمه الثلاثية تؤدي إلى الأماكن المقدسة المخصصة لكبار آلهة بابل، في مراحل الحفر والتنقيب في مدينة بابل عند بداية القرن العشرين وجد العلماء وفرق التنقيب ان اغلب الطابوق والقرميد تمت سرقته من قبل السكان المحليون، وقد منعت السلطات أنذاك عمليات سرقة الحجر والطابوق والقرميد، إلى الجنوب من البرج كان يقوم معبد كبير آخر للآله

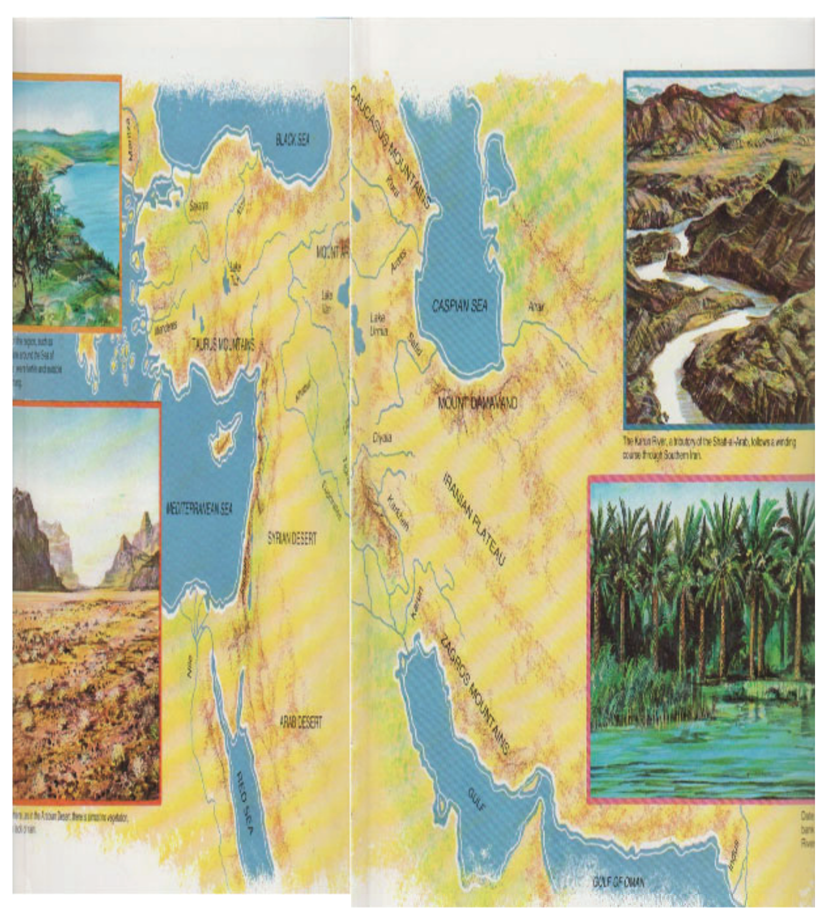
مردوخ ويضم تمثالا مقدسا للإله وعلى مسافة قصيرة إلى الشرق من شارع الموكب، كان يقوم معبد أصغر للإلهة عشتار التي ورد اسمها " عشتوريتي "، كان شارع الموكب يدور حول الجدار الطويل الشرقي لسياج المعبد، ثم ينعطف غربا ويعبر نهر الفرات عن طريق جسر حجري ضخم، يمتد بعد ذلك إلى الأحياء الغربية في المدينة، وفيما وراء أسوار المدينة كانت تمتد حقول الحنطة والكروم والبساتين والنخيل، ولكنها في مرحلة التنقيب كانت عبارة عن صحراء قاحلة لا نبات فيها أبدا، المكان الذي يخص مدينة بابل ظل معروفا لفترة طويلة من الزمن ومثبتة معلومات عنها في كتاب التوراة وفي كتب الرومان والاغريق، عرفها الفرس بشكل جيد وكذلك وصلت اليها قوات الاسكندر المقدوني واتخذها عاصمة له في الشرق الاوسط، وكثير من المسافرين كانوا يمرون عليها ويتحدثوا عن قداستها وأهميتها، وجدت كميات كبيرة من القرميد على شكل أكداس دفنها طمي نهر الفرات بسبب تكرر الفيضان، ويعتبر بداية القرن التاسع عشر هو بداية التنقيب في بابل والبعثات الأجنبية التي عملت في الحفر والتنقيب كانت من فرنسا وبريطانيا أيضا، وقد حظيت بابل بالاهتمام الاكبر من نينوى، كما قامت بعثة المانية يقودها العالم " كولديوي " بالتنقيب في بابل، غير ان هذه المهمة الضخمة أوقفت جهودها في العام 1914 بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، في تلك الفترة كان قد تمّ الكشف عن المخطط الكامل لمدينة بابل وأمكن تحديد مواضع الأسوار المحصنة والبوابات وشارع الموكب وأغلب المباني الرئيسية للمدينة..

سومر ماقبلها ومابعدها

في أغلب المساحة التي تتكون منها خارطة الأرض العربية الحالية تبدو الصحراء هي الغالبة حيث تمتد بشكل ساشع اغلب تلك المساحات تنتظر هطول

الأمطار ليتم فيها الإنبات والزراعة، في الغالب لاتوجد نباتات في أقسام كبيرة منها، منطقة الشرق الأوسط ليست لها تضاريس متفردة بل ان المشهد يتكرر في العديد من بلدانها، صحارى وجبال ووديان وأرض زراعية وكذلك وجود غدران وبساتين وأنهار، وفق تلك الحقائق يعتبر عالم مناخ مختلف، قاس احيانا يصل الى حالة القحط وذي ثراء أحيانا، ونجد ان المدن القديمة التي وصلت إلينا الصورة عنها من خلال وثائق التاريخ قد تكونت بالقرب من مصادر المياه المتعددة الاشكال، نجد ان الإنسان القديم قد عمد إلى مدّ العلاقات والتواصل بين تلك الحواضر التي يغلب على طابعها التشابه والتماثل، تراها وكأنها منطقة واحدة ذات خصائص متعددة في لبيئة والجغرافيا وعوامل أخرى كثيرة، هي تمثل في تكوينها حلقة الوصل المهمة بين ثلاث قارات كبيرة ومهمة هي: " أوروبا – أفريقيا – آسيا " وتوجد ضمن تضاريسها المتميزة " الجبال – الهضاب – الوديان – الأرض الخصبةالمزروعة – الأنهار – البساتين والصحراء القاحلة " في مواقع عديدة تجد الجبال العالية والمدهشة وتجد الغدران والجنان كما هي الحال في واقعية إطلاق تسمية " جنة عدن "على جزء من أرض العراق، وكما أطلق لقب " الوادي " على الأرض المحصورة بين دجلة والفرات، في المشهد البيئي والجغرافي تجد الجبال في إرتفاعاتها تمتد ضمن سلاسل تخترق أرض العراق الشمالية وهي تبدأ من جبل آرارات في تركيا نحو جبال إيران، وتجد ان سلاسل جبال زغروس تمثل الحدود الطبيعية بين العراق وإيران وتمتد على طول المنطقة المقابلة للخليج العربي من ناحية الساحل الشرقي، والمناخ في هذه المناطق تعتبر فصول الشتاء فيه قاسية جدا ببرودتها وفصول الصيف قاسية أيضا في حرارتها وجفافها وندرة سقوط الأمطار وتصاعد العواصف الترابية، كما توجد طرق تجارية لها ممرات معروفة بين المدن القديمة، الزراعة في بعض تلك الأراضي مع ندرة مصادر المياه

تعاني من صعوبة النجاح، وإذا أنتقلنا إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط نجد فيها الجبال العالية وهي مغطاة بالنباتات والغابات المثمرة وأيضا غير المثمرة وفيها السهول والوديان الساحلية التي تجد لها مساحات أحيانا بين الجبال والوديان، كما توجد بعض الأنهار الصغيرة والسهول أحيانا تلامس الشواطيء وهي مصدر الثروة الطبيعية، في لبنان مثلا الأرض في الغالب لها غطاء نباتي منتج وشمس مشرقة وكميات من المياه تمر عبر أنهار أوقنوات والغابات لها كثافة ملحوظة، بينما نجد في سوريا ثمة تضاريس مختلفة نوعا ما تبرز فيها التلال ذات الارتفاعات المتلفة وكذلك الجبال والصحراء أيضا وكذلك بوجود نهر الفرات العظيم الذي يروي جانبا كبيرا من تلك الأرض إلى جانب نهر بردى، في منطقة المشرق العربي " سوريا –فلسطين – لبنان- الأردن " ثمة نتاج زراعي مميز ومهم وله قيمة كبيرة هو " الزيتون " إلى جانب الحمضيات وعصير النبيذ، الطبيعة في تلك الأجزاء تبدو منتجة وذات غطاء نباتي يتواصل على مدار العام، في كل الفصول نجد ثمة أراضي زراعية كبيرة تزهو بنتاجها والحياة فيها تزدهر، فيها تبدو السهولة والرخاء والإنتاج – جنة عدن – هي بشكل حقيقي وكما وصفت بين نهري دجلة والفرات في منطقة الجنوب وتوصف بلاد مابين النهرين " ميزابوتاميا "- حسب التسمية اليونانية وهي الأرض المحصورة بين نهري دجلة والفرات – التي وصفت في " التوراة " بأنها " جنة عدن " وبالرغم من مناخها الجاف جدا حيث هي جزء من تكوين الجزء الجنوبي من ارض العراق، تمكن الإنسان السومري القديم من شق الإنهار والقنوات لكي يغير خريطة وتكوين الأرض وجعل الغطاء النباتي يزحف على مساحة الصحراء الكبيرة، في تلك التضاريس الصعبة زحفت مياه دجلة والفرات وروافدهما – مثل – الزاب الأكبر والأصغر وديالى والكارون وغيرها.



" خريطة تبين التضاريس الطبيعية المتنوعة في العالم العربي "

نحو تلك الأرض وأحدثت فيها التغيير المطلوب، كما ان الخابور الذي يمرّ في أرض العـراق ثم يواصل مسيرته نحو أرض سوريا هو الآخر أحدث التغيـير الكبـير في المنـاطق التـي يمـرّ عليها وجعلها غنية بما تنتج وربطه في وحدة أبدية بين الناس والأرض وجعل إيقاعات الحيـاة متناغمـة مع الخير والنماء ويسرّ الحياة دائما، في بلاد " ميزابوتاميا " - بلاد ما بين النهـرين كانـت المعضـلة الكبيرة التي واجهت استمرار الحياة تتمثل في طريقة مدّ وإيصال مياه النهرين" دجلة والفـرات "

إلى الأماكن البعيدة عن ضفاف الأنهار وتغيير وضع الأراضي الجافة، كذلك تم التفكير بطريقة للسيطرة على مياه الفيضان في النهرين التي تحدث بعد ذوبـان الجليـد مـن المناطق الجبلية، حيث كانت فيضانات نهر دجلة بشكل خاص تتكرر في كل عام مـما يؤدي إلى إغراق مساحات شاسعة من تكوين السـهل الرسـوبي - الزراعـي بمـا يلحـق الضرر الفـادح بالإنتـاج ويتسـبب في حصـول المجاعـات والقحـط، وهكـذا نجـد ان الإنسان الأول في وادي الرافـدين تعامـل مـع تلـك المشـكلة بدراسـة وتصـور صـحيح عندما عمل على بناء وشق قنوات للسيطرة على الميـاه وتنظـيم أمـور الـري للزراعـة وأحيا بذلك الأرض البوار البعيدة عن الشواطيء، كانت تلك خطوة مهمـة في تطـوير الفعل الحضاري وإزدهار الحياة وفق الحقـائق الحضـارية الثابتـة ان الأنهـار لعبـت دورا مهما في تثبيت وتطوير الحضارة كما في مواقع عالمية كثيرة ومنها الأقرب لبلاد ما بين الرافدين، في موضوع الفيضانات التي كانت تحدث في بلاد ما بين النهـرين يجـب ان اتوقف عند بعض الحقائق المهمة، إذا صح القول المـأثور للفيلسـوف الإغريقـي - هيرودوتس - بأن مصر هبة النيل، فأن بلاد العـراق هبـة النهـرين " دجلـة والفـرات وروافـدهما " وقـد خصـهما العراقيـون القـدماء بالتقـديس والتعظـيم وفي أسـاطير الخليقة يأتي ذكرهما بأنهما ينبعان من عين " تيامـة " وهـي الآلهـة التـي كـان يرمـز لها بعنصر الماء المـالح - أي البحـر - كـما عـد الفـرات ودجلـة مـن الأنهـار الأربعـة التي تنبع من الجنة كما ورد في سفر التكوين 2: 10 - 14، كل شيء على وجه الأرض يطفـو في الميـاه، يشـكل الطوفـان موضـوعا رئيسـيا شـائعا في آداب حضـارة وادي الرافدين ونذكر على سبيل المثال - ملحمة جلجامش التي يعتبر الطوفان جزءا مهـما منها، يذهب العالم - أحمد سوسه - في مقارنة أكثر دقة عن الفروق بين حوضي أنهار بلاد مابين النهرين ومصر وعلى النحو التـالي كـما ورد في عـدة كتـب أصـدرها ومنهـا

بشكل خاص " فيضانات بغداد في التاريخ " وأيضا " تطور الري في العراق " فيضان النيل في مصر يستند إلى حالة من الانتظام وهو في الغالب لا يتصف بالعنف والتدمير والخراب كما يحصل من فيضان نهري وادي الرافدين وخاصة فيضان نهر دجلة، موسم فيضان النيل في الغالب يحصل ما بين شهر حزيران إلى نهاية شهر تشرين الأول وهو يلائم تماما الدورة الزراعية، بينما نجد موسم فيضان الرافدين عكس الدورة الزراعية إذ أنه يحصل على ما هو معروف في وقت متأخر بالنسبة إلى الزراعة الشتوية، فلا يستفاد من فيضانهما، بل أن هذا الفيضان كثيرا ما سبب تدمير الغلات الزراعية وتشح المياه، ويرى العالم " د. طه باقر في كتاب تاريخ الحضارات القديمة " أن كلا الحضارتين تمثلان حضارتا ري، بيد أن نظام الري في حضارة وادي الرافدين أصعب تنظيما وضبطا وأكثر مشاكل، بحيث لا يسع المتتبع لتاريخ هذه الحضارة إلا أن يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهرين هما من أشد أنهار الدنيا عنفا، في وادي الرافدين يتطلب الفيضان جهودا جبارة وسيطرة كبيرة غاية في الدقة والمتابعة، للحد من عنفوان النهرين – دجلة والفرات – والاستفادة من ارتفاع مناسيب المياه لتخزينها لفترات " شحة المياه " أو لأغراض أخرى تدخل في مجال التقنية الزراعية، ارتفاع مناسيب المياه في حوض النهرين يبدأ أوائل الخريف ثم يتواصل نحو الذروة – الارتفاع الحاد – ليشكل حالة انفجار هائل يسمى الفيضان - " الطوفان " أن نهر – دجلة – عادة يبلغ منسوب المياه فيه ذروته القصوى في شهري مارس – أبريل، بينما يحدث ذات الأمر في الفرات بعد شهر تقريبا من حصوله في نهر دجلة، ذلك يؤدي إلى تجاوز الضفاف وتحطيم السدود وبالتالي يلحق استعمال تلك المياه في مجال الري الزراعي، ذلك العامل الخطير جعل المستوطنات البشرية الأولى تبدو فاقدة الثقة، باستثناء الرافد الأكبر الذي

يصب فيه والذي يحمل اسم " نهر ديالى THE DIYALA – وهو النهر الأقل رعبا وخطرا، ولذلك نجد أن أكثر المستوطنات البشرية المبكرة التي تواجدت في بلاد مابين النهرين وخاصة في المنطقة الجنوبية قد ركزت وجودها واستمرار حياتها ونشاطها الزراعي على طول امتداد مجرى حوض الفرات، ويعتبر نهر ديالى " THE DIYALA " من أهم وأطول روافد نهر دجلة، حيث يبلغ طوله بحدود 450 كيلو مترا وتقع منابعه الأساسية في الجبال والمرتفعات الإيرانية، كما تغذيه فروع وروافد كثيرة، من أشهرها " رافدان كبيران هما – الأول سيروان والثاني نهر تانجرو " كما تصب فيه فروع أخرى منها " قوراتو – الوند " النهر الأخير تقع عليه مدينة خانقين، وفرع أحر يسمى – نارين – يصب في نهر ديالى عند حواضر قرية السعدية، كما يصب نهر ديالى الكبير بدجلة أسفل مدينة " سلمان باك – المدائن " التاريخية، وذلك بنحو 20 كيلومترا وباتحاده مع النهر الخالد – دجلة – يتكون مثلث من الأراضي الزراعية الخصبة تمتد حتى سهل الكوت - واسط، على العكس من ذلك نجد تجربة تطويع واستغلال " دلتا النيل " في مصر أيام حكم الفراعنة والسيطرة على مياه الفيضان في مصر المستوطنات البشرية قد كبرت وتوسعت على امتداد طول نهر النيل، حصل ذلك قبل 5000 سنة قبل الميلاد وعند مجيء الألفية الرابعة نمت تلك التجمعات البشرية وصارت على شكل حواضر المدن الكبيرة، كل طرف من أولئك الحكام الذين حكموا تلك الولايات والمدن فرض سيطرته لمعالجة حالة الفيضان وتقليل أخطارها ضمن حدود مملكته أو تكوين المدينة التي يحكمها، كما امتازت تلك المرحلة بالاتصالات الممتازة على امتداد حوض النيل، أتصف ذلك بضيق المنطقة الصالحة للسكن وسعة المناطق الزراعية كما تم فرز مناطق أخرى تؤمن الإمدادات الخلفية للجيش في حالة الحرب أو مطاردة العناصر المنشقة عن

سياسات الحكام في الولايات المجاورة والبعيدة، بما يؤمن حالات التقدم والتراجع في سياقات المعارك الحربية..



" لوحة جدارية من ارشيف الحضارة الفرعونية "

التجارب المبكرة

كانت تلك تحربة مبكرة رائعة ومهمة استفادت منها الكثير من الحضارات الكونية الأخرى، كانت بلاد ما بين النهرين تفتقر كثيرا إلى المصادر الطبيعية لإنجاز خطط التحول المطلوب، وجدت بعض الأنواع من المعادن والخشب من الحجم الصغير، والتربة كانت خصبة صالحة للزراعة بمثابة الثروة الكبيرة الدائمة والتي يجب استغلالها وتغيير نمط الحياة من خلالها، قنوات الري المفرط ودون

وضع المعايير البيئية والخطط الزراعية الصحيحة ادت الى تخريب تلك التربة الغنية وظلت المشكلة الكبيرة تتمثل في معالجة التصريف الكافي والصحيحة للأملاح العميقة الموجودة في التربة، كانت التربة بسبب تلك الاملاح " السباخ " تبدو عقيمة جدا، علاوة على ذلك كانت مهنة الزراعة في أرض الجنوب من بلاد ما بين النهرين تتطلب الجهد الكبير، كما أن مرور الزمن وبفعل هبوب العواصف الترابية الرملية القادمة من الجهات الصحراوية أيضا ساهم في تعطيل طاقة تلك البلاد وطمر الكثير من القنوات ومجاري المياه وأيضا أضر بمساحات من تلك الأراضي الزراعية، مع ان الفيضانات كانت تسيطر على مصير تلك الأراضي، الآن الوضع تغير كثيرا حيث صارت إمكانية السيطرة بفعل السدود وقنوات التصريف وعمل البحيرات الإصطناعية والطبيعية إضافة إلى المساحة الشاسعة للأهوار والمستنقعات القصبية، وتلك المناطق البعيدة عن ضفاف الأنهار، كلها كانت عبارة عن صحراء عظيمة تزحف بشكل مستمر نحو المناطق التي يتم تعميرها واستصلاحها وزراعتها، تلك الصحارى يسكنها البدو من القبائل المترحلة الباحثة عن الزرع والماء، وتحقيق حالة الاستقرار المؤقت، في الجزء الجنوبي من تلك المنطقة تمتد سهول تنحدر من الشواطيء نحو مساحات بعيدة عنها، كما لو كانت تتبع امتداد المياه الممتدة من النهر نحو البعيد، فروع الأنهار الكبيرة والصغيرة تلتقي من جديد لتكون " دلتا " على شكل أهوار ومستنقعات وفيها تكوينات بشرية استقرت في تلك البيئة منذ آلاف السنين، تلك المستوطنات هي البرهان الواضح والأكيد على ان الإنسان القديم – خاصة " السومريون " أمتلكوا القدرة على التكيف مع بيئات معقدة قاسية..



" بعض مظاهر الحياة في المجتمعات البدائية "

بدأت مرحلة التنقيب والاكتشافات في عدة مواقع كانت على شكل كهوف في الجبال أو مستوطنات بشرية في المناطق التي كانت مأهولة ضمن المرحلة الأولى من تكوين الحضارة الكونية، في "حاسير وشطل هيوك وزاوي شيمي شانيدار وغالجيدار " وجدت فيها نماذج من تحف تعود الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم جاءت التقارير التي نشرتها الهيئات العلمية من الرومان التي أكدت العثور على تماثيل صغيرة الحجم عليها نقوش صورية تشبه الكتابة التي استعملت في بلاد ما بين النهرين وقدم العلماء الاركيولوجيين تفسيرا يقول ان تلك النماذج قد تكون وصلت من خلال التبادل التجاري، الكشف الأول سجل ضمن التاريخ الواقع بين الاعوام 1956 -1957 -1960 ويرجع اصل

الحدث إلى بعثة امريكية برئاسة العالم " لالف لوتسكي " عندما تم التنقيب من قبل تلك البعثة في مواقع منها كهوف تقع شمال العراق مثل " جرمو – زرزي – " هزارد ميرد وتم العثور فيها على مقابر تضم رفات الإنسان الأول " النياندرتال " وبشكل خاص في كهف " شانيدار" كما وجدت أنواع من الأدوات التي كان يستخدمها الصيادون وعمال الزراعة، من الأدوات التي تم العثور عليها نماذج من فؤوس حجرية حادة مصقولة بشكل جيد، ومطاحن ورحى لطحن الحبوب مصنوعة من الحجر وأيضا مناجل بدائية مصنوعة من الحجر ولها مقابض من عظام الحيوانات، أيضا تم التنقيب في موقع آخر من المنطقة المسماة " زاوي شيمي شانيدار عام 1951-1961" ويرجع تاريخ الموقع إلى نهاية الألف الثامن قبل الميلاد، أيضا عثرعلى فؤوس حجرية على هيئة القلب، والكثير من الخرز الملون وأبر الخياطة المصنوعة من العظام والقطع الحجرية وأنواع من أدوات تنقية الحبوب وفصلها عن القشور قبل طحنها وعصي مدببة تستعمل لحفر الأرض، كما اكتشف في موقع آخر شمال العراق قرب " برده بلكا عام 1949 " على انواع مشابهة من تلك الأدوات، أيضا وجدت في الاماكن الموجودة في منخفض " ابو دبس والرزازة غرب مدينة كربلاء ومنطقة بحر النجف وتم العثور في الموقعين على ادوات حجرية من نوع المقاشط التي تعود الى العصر الحجري القديم، يعتبر " كهف شانيدر " اكبر المواقع في منطقة شمال العراق، نقب فيه العالم – رالف سوليكي من جامعة مشيغان الامريكية – حيث تم العثور على بقايا عظام انسان نياندرتال وبقايا عظام عدة انواع من الحيوانات مثل الثيران والغنم والماعز واصداف السلاحف، كما اكتشفت بعض الادوات الحجرية في كهف زرزي الواقع في السليمانية من قبل الباحثة " كارود " كذلك في موقع آخر هو كهف " بالي كورا" القريب من منطقة جمجمال وكهوف كيوانيان في منطقة راوندوز كما

عثر على كهف مهم اطلق عليه اسم باولي - كورا، كما اهتم التنقيب في قرى مثل زاوي جمي وكريم شهر وملفعات وكردي جاي، وجدت الكثير من الادوات المشابهة فيما بعد في مواقع تنقيب في اريحا من ارض فلسطين وايضا في موقع جتل هيوك من ارض تركيا، وتظل نتائج التنقيب في شمال العراق في " جرمو " مثلا مهمة للغاية في دراسة الكثير من الظواهر عن تلك المرحلة وخاصة في شكل العمران - بناء البيوت والتمهيد لتكوين التجمعات البشرية - تكوين القرية - تم تشييد البيوت المستطيلة المتجاورة والادوات التي اكتشفت تشير الى تطور في شكل التطور المادي والوعي ايضا بالمحيط البيئي وابتكار ما يناسبه، مثل العثور في الموقع على الملاعق المصنوعة من العظام والابر العظمية للخياطة وتدل اقراص المغازل الصوانية على معرفة بالغزل والحياكة مثل غزل الصوف والقنب وادوات الطبخ المصنوعة من الحجر والقلائد ذوات الخرز المصنوعة من الحجارة او من الطين والاساور المصنوعة من حجر المرمر ومن الصدف والمحار كما عثر على تماثيل تمثل الهة للعبادة على شكل نسوة بدينات حبالى من النوع الذي اطلق عليه اسم " الألهة الأم " والتي ترمز لقوى الخصب والإنجاب وقوى الطبيعة المولدة الغامضة، كل عائلة في قرية جرمو كانت تنتج قوتها بنفسها وتصنع ما تحتاج من أدوات، ثم جاء التوصل الى كشف موقع اثري اسمه "ثامر خان " يقع إلى الشمال من بلدة مندلي في العام 1966 وفيه مظاهر متطورة جدا عن الذي تم العثور عليه في قرية " جرمو "، كانت واجبات المرأة تنحصر في المساعدة بالزراعة الحقلية ايضا طحن الحبوب وتهيئة الخبز والطعام وصنع الملابس عن طريق الغزل والحياكة وتربية وتدجين الحيوانات، بينما كان دور الرجل يتميز بصنع ادوات الزراعة والاسلحة الحجرية وحماية قطعة الزراعة وتوفير مياه الري، في اعقاب تلك المرحلة حصل تطور مهم على الصعيد الاجتماعي من خلال ازدهار

العامل الاقتصادي الانتاجي حيث نشوء الملكية الفردية وتشكل بدايات المجتمع الزراعي المنتج واحتكاك الفرد مع الجماعات المنتجة والتعاون معها وتطور فكرة الصيد وظهور عامل المقايضة التجارة في البيع والشراء، حققت الزراعة شرط التحرر الفردي من الجوع وصار الفائض الانتاجي يمر الى المفهوم التجاري، في الاقسام الشمالية من ارض بلاد مابين النهرين كانت الزراعة تعتمد على سقوط الامطار لتحقيق الارواء، وكانت الحقول مساحتها صغيرة، الزراعة تطلبت معرفة أوقات تغيير المناخ ولهذا اهتدى الإنسان الى تحديد المواسم الزراعية وتعين الفصول ووضع اسماء لبعض الظواهر الفلكية وتسمية الكواكب وتحديد اماكنها، كما سجلت بعض الكتب اشارات الى وجود ديانة لدى انسان العصر الحجري بعد الظواهر الطبيعية اهتدى الى اتخاذ أول آله يعبده وكانت له صلة قوية بعملية الخصب والنماء..

الآلهة المبكرة وعبادتها

اول آلهة كانت تماثل امرأة بدينة كبيرة الاثداء وجدت نماذج من تماثيل لها في عدة مواقع من المستوطنات البشرية القديمة وخاصة في موقع " جرمو " وفق هذه الفكرة اهتدى الإنسان البدائي الى مفهوم مبسط عن الدين كانت تلك التماثيل تحاكي شكل العضو الذكري وقد ربط الفكرة بقضية الانتاج الزراعي، هذه النماذج تكررت في اكثر من موقع من مواقع داخل بلاد مابين النهرين ومواقع اخرى في مناطق من الشرق الادنى " سوريا – فلسطين – تركيا "، الزراعة ايضا ساهمت بتكوين الشكل البدائي للقرية او الشكل الأول لتكوين البداوة، انتقلت مفاهيم الزراعة وانواع المحاصيل من بلاد مابين النهرين الى مواقع اخرى في بلدان مجاورة قريبة واخرى بعيدة مثل الصين، نجاح الانسان البدائي في عدد من الخطوات والتجارب جعل إمكانية التطور متحققة وتسير بوتيرة قوية واكيدة

حيث تشكل مجتمع القرية وصولا الى المرحلة التي سبقت ظهور شعب سـومر في المنطقـة الجنوبية من بلاد ما بين النهرين والتي مرت بعدة ادوار مهمة كانت تتلخص بحصول عدة تطورات حضارية تميزت بشكل نتاجها الصناعي وتطور العلاقات بـين القـرى التـي ازدادت وتوسعت وكانت بمثابـة البدايـة لظهـور شـكل المدينـة، واتسـاع مسـاحة الحقـول وبدايـة استيطان الأراضي الخصبة في المناطق السهلية.



وتطور الشكل البدائي للصناعات البسيطة مثل الفخاريات وقبل تشكل ظهور شعب سومر كانت عدة اطوار منها:

- حسونة
- حلف
- العبيد
- الوركاء..

في مجال مايسمى بالتجاور الثقافي في المنطقة الموصوفة بمنطقة الشرق الأوسط نجد ان تأثير الجغرافيا كان وما يزال واضحا في تفاصيل الحدث التاريخي ومجمل الاحداث التي وقعت في المراحل الزمنية المتعاقبة والتي سجلت في أماكن وجود تلك الشعوب التي سكنت المنطقة التي يمتد فضائها من شواطيء البحر الأبيض المتوسط وصولا إلى حدود الهضبة الإيرانية عند جبال " زغروس " تلك الحدود تشكل ما يسمى بتكوين منطقة الشرق الأوسط القديمة التاريخية، وهي كما أسلفت تتكون تضاريسها الحغرافية من الصحارى والغابات وتلك من العوامل التي شكلت تهديدا لاستمرار وجود المناخ المناسب وجعلت العيش في بعض الفصول يبدو صعبا، ومن جوانب أخرى كانت بيئة المنطقة تؤدي إلى خلق تحديات كثيرة منها " وجود منطقة قاحلة وأخرى شبه قاحلةوأخرى جافة ومناطق لها مناخ بيئي يشبه الحالة الاستوائية "، ولهذا نجد التأثير للجفاف قد ضرب الكثير من المناطق بينما توجد كميات من المياه في مناطق أخرى، وهناك مشاكل كثيرة تمنع قيام التوازن بين الإنسان والطبيعة وهي تجعل الفكر السائد لدى الكثير من العلماء والمؤسسات البيئية تنطلق من فكرة التوافق لتحقيق التوازن البيئي لكن الأنشطة غير المحسوبة والتي تنفذ في ذلك التكوين يؤدي بالدرجة الأولى إلى

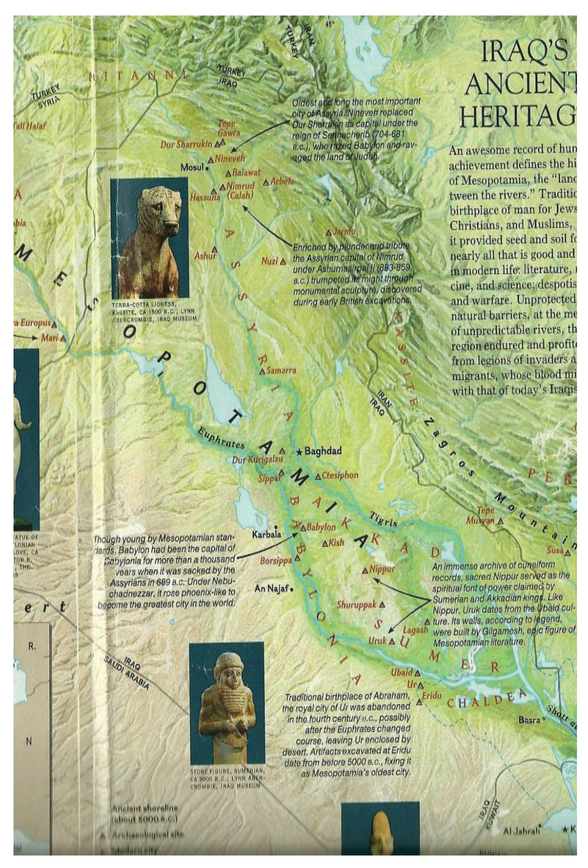
التخفيف من قيمة وسلامة الأرض وإنتاجيتها وتدمير طبيعة التربة، كما يوجد الكثير من اعتماد تلك الأجزاء في وجودها واستمرار الحياة فيها على مقدار هطول الأمطار وحفر الينابيع والآبار، كما سجلت بعض الدراسات العلمية البيئية عدم وجود خطط راشدة لاستخدام المياه بشكل علمي وإقامة مشاريع تستفيد من الأنهار وجميع مصادر المياه الموجودة، هذه العوامل تشكل تأثيرا عميقا في البنى البيئية، كما ان المغامرات العسكرية تسببت في التأثير والتدمير الكبير على البيئة وتكوين التاريخ، كما أثرت المعتقدات الدينية على توجيه البشر وتدخلت في صناعة المستقبل، التاريخ الذي صنع في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام يؤدي حتما إلى دراسة الخريطة الآثارية لانها بمثابة السجل الصحيح، تظل أرض بلاد ما بين النهرين في صميم هذا المفهوم وبما أننا لا نملك المعلومات المتكاملة حول الحالة القديمة في سجل الحضارة لكن رؤية الحالة الجغرافية يمكن تثبيت الكثير من المعلومات الصحيحة التي أوخذت من الرؤيا البيئية المرادفة للوقائع التاريخية وفق تعديلات طفيفية جاءت من خلال قراءة وتحليل الألواح للحضارة السومرية وما تبعها من أحداث أو حضارات أخرى، كما يمكن أن نرصد حاليا التغيير البيئي الذي حصل في العراق، يمثل تأثير شامل ومؤثر، عند المقارنة بين مرحلة الحضارات القديمة والمعاصرة، مثلا في بلاد ما بين النهرين وحسب وقائع دقيقة مأخوذة من سجل الحضارات القديمة، تقول المصادر التاريخية – كانت الأرض خصبة وللأنهار مسارات مختلفة وأيضا التغييرات البيئية التي حصلت في الجبال والسهول والوديان، وتبعا لذلك الحياة تتغير والظاهرة البيئية هي الأخرى في حالة تغير مستمر..



" من الآثار التي تنتمي للفترة الآشورية "

في محيط تلك التفاصيل نقرأ التحولات في " سومر – آكد – بابل – آشور " ومواقع كثيرة مهمة مجاورة، تلك الشعوب مجتمعة عملت من خلال وجودها ودخلت سجل التاريخ القديم بشكل مؤثر ولها إشارات مهمة، ثمة اجناس حاولت وعملت على تضييق الفجوة التي صنعتها الخلافات السياسية وأيضا محاصرة التناقضات الدينية ولكن الملاحظة الواقعية على تلك التكوينات أنها

فشلت في تحقيق الوحدة الجغرافية " وحدة التراب – وحدة الحضارة " رغم أنهم عملوا على صنع أسس للوحدة الثقافية المهمة جدا والملفتة للنظر والتي هي الآن مثار الإعجاب الكوني، رغم أنها تعود إلى ما قبل ثلاثة آلآف سنة، تلك الحضارة حققت التأثير الكبير في واقع كامل الشرق الأدنى، ظهرت على الخريطة الجغرافية مدن مهمة وعظيمة مثل " أور – نفر – آكد – بابل – نينوى –" كلها تقع على مسار نهري الدجلة والفرات، وظلت ضمن حدود خريطة العراق الحالي، ولعل من أهم الحضارات التي ظهرت بعد الحضارة السومرية " الأم " الحضارة البابلية اختلفت الأسباب وقد يرد ذكر الكثير منها في هذا الكتاب، لقد حصل الأغريق على الكثير من الموروث العلمي والثقافي الذي أنجزته حضارة بلاد ما بين النهرين، ولكن الجزء الهام والكبير الأعمق والمنتمية الى تلك الحضارات ومدلولاتها الرمزية والتي ما يزال الكثير منها مجهولا او مدفونا تحت التراب في باطن الأرض التي شهدت ظهور تلك المواقع، الكون كله يتطلع حاليا إلى جهود الجهات العلمية وخبراء البحث والتنقيب من الآثاريين أبناء الأرض أو من الجهات الأجنبية، أهل تلك البلاد في بعض الازمنة اداروا ظهورهم لنسيان تفاصيل الماضي مع أنه عظيم ومزدهر وعبيره لا ينتهي، تلك المدن المهمة التي وشمت الماضي وكانت لها وضع الكواكب الزاهرة، سجل لملوك عظماء وكذلك آلهة عديدة أثرت في حياة الإنسان وثقافته ورؤيته للمستقبل.



" خريطة توضح مدن الحضارة القديمة والرافدين في أرض العراق "

لم يظهر سوى القليل عن تلك الحضارة، بعض الأبحاث والدراسات التي نشرت كانت غير دقيقة من تلك التي تناولت تلك الحضارات وفصولها، التي طمرت في الأرض وصارت تحت رحمة الرمال والسيول التي اوجدتها الفيضانات والأمطار الغزيرة وأيضا العبث والتدمير ، ورغم كل ذلك ظهرت ذات يوم أطلال بابل ونينوى وآشور ومواقع أخرى، وخضعت آثارها لدراسة وتقييم وسعت المواقع العلمية والثقافية لتطوير حالة العمل على نشر الكثير من المعلومات المهمة، لذا أصبحت تفاصيل الماضي ممكن أن يتناولها الإنسان المعاصر

في القراءة الفردية وعلى مقاعد الدراسة، أتوقف عند قـول هـيرودوت عنـدما قـال قولـه المشهور " مصرهبة النيـل "، كـما نظـر ذات النظـرة ومعـه علـماء أن " ميزابوتاميـا هبـة النهرين التوأم " والحقيقة تقول انه منذ زمن بعيد النهـرين يلقيـان بكميـات كبـيرة مـن الطمي – الغرين – في المنطقة الوسطى والجنوبية من أرض بلاد ما بين النهرين وعلى أثر ذلك تكونت المنطقـة الرسـوبية – ظهـرت مسـاحة شاسـعة مـن الأراضي لا مثيـل لهـا في الخصب والإنتاج الزراعي، تصل حدود المرتفعات الإيرانية، في العام 2003 اي بعد احتلال العراق ظهر ان الكثير من تلك الأراضي كانت جرداء لا نبات يها وقد صار التصحر يزحف عليها والبعض منها خضع للتدمير بفعل الحرب أو خضع للتعرية وزيادة نسبة الأمـلاح " السباخ "، أيضا الدراسات حددت ان الصحراء تمتد من ضـفاف النيـل وصـولا إلى حافـات البحر الأبيض المتوسط إلى شواطيء الخليج العربي وهذا الوصف مثبت في أغلـب الكتـب الدراسية التي تهتم بالجغرافيـا وأيضـا التـي تعـتم بالمثيولوجيـا، في العـام 1952 صـدرت تقارير تؤكد ان نهري " دجلة والفرات " قد تغير مجـراهما عـدة مـرات بسـبب ترسـبات الطمـي الـذي كـان يترسـب في قـاعيهما وذلـك يـؤدي إلى تغيـير مسـارهما ولهـذا كانـت تظهر لهما شواطيء جديـدة، وتبعـا لـذلك التحـول أيضـا تتغـير خـرائط ووجـود المـدن، حقيقة الأمر أجريت الكثير من الدراسات في القـرن المـاضي وخاصـة في فـترة السـبعينات وما بعدها أكدت ان التغييرات لا تشمل ترسبات الطمـي – الغـرين – وحـدها بـل هـي سلسلة مـن عمليـات جيولوجيـة تعرضـت لهـا المنطقـة حققـت ذلـك التغيـيرفي العـراق ومنطقة الخليج بشكل عـام، ذلـك يؤكـد ان التغيـيرات الحاصـلة مـثلا حاليـا في مسـتوى مياه الخليج العربي ناتجة من شحة وقلة منسوب المياه في النهـرين يـؤثر عـلى اسـتمرار وجود الخليج حيث إنخفاض مستوى المياه والتغيـير في بيئـة الأحيـاء البحريـة واسـتمرار

الملاحة فيه، معظم العلماء الذين درسوا تلك الظواهر أكدوا مثلا ان الخليج العربي وقبل 16000 سنة قبل التاريخ كان بمثابة وادي سحيق هائل مملوء بالمياه بينما أصبح في الفترة التي حددت 3000- 4000 سنة قبل الميلاد ان مستوى المياه فيه كان عبارة عن ثلاثة أمتار فوق المستوى الحالي وكانت بدايته تقع قرب مدينة " أريدو " وليس في نهاية حدود البصرة الحالية، وهناك تقارير علمية جيولوجية تقول أن الآدلة الآثرية في الفترة 500 سنة قبل الميلاد تؤكد ان البحر كانت بدايته تقع في منتصف الطريق بين مدينة أور والبصرة الحالية ويستندوا بذلك إلى الألواح التي ترجمة لإسطورة " إنانا " حيث يرد فيها وصف البحر والحديث عن مدينة أور:



قال " إنكي ": إيزموند ؛ زورق دار السلام المقدس، أين هو الآن..؟،

قال " إيزموند: زورق دار السلام المقدس في الميناء الأول بعيداً عن أريدو،

قال " إنكي ": أذهب إليه وخذ معك تنانين " الإينكوم "،

دعهم يُعيدونَ زورق دار السَّلام المقدس إلى أريدو ! "،

وصل إيزموند إلى مكان الزورق وتكلم مع إنانا، قال: "

" مَلَكَتي، قد أَرْسَلَني أبيكَ إليكَ،

كلمات الأب إنكي هي كلمات الدولة،

كلمات إنكي لا يمكن التمرد عليها، قالت إنانا:

"ماذا قَالَ أبي؟ ماذا أَضَافَ إنكي؟ ماهي كلماته التي لايمكن التمرد عليها،

قال إيزموند: " لقد قَالَ ملكي:

' دع إنانا توَاصِلُ طريقها إلى أوروك،

أَحْضِرْ زورق دار السَّلام المقدس والنواميس إلى أريدو،

صرخت إنانا وبكت:

" لقد اِسْتَبْدَلَ أبي كلمته التي أعطانيها ! "

لقد اِنْتَهَكَ الضمانه-ونكث بوعده!، بكت وقالت، لقد خدعني عندما قال،

خدعني عندما صرح أمام الجميع، " باسم قدرتي، باسم هيكلي المقدس،

وبخدعة أخرى أرسلك إليّ " نادراً ما قالت إنانا مثل هذا الكلام،

عندما أنهت إنانا كلامها أمسكت تنـانين الإينكـوم المشـعرة المتوحشـة بـزورق دار السلام،

نادت إنانا خادمتها نينشوبور وقالت: " كنت في الزمن الماضي ملكة الشرق؛

الآن أنتَ الخادِمة المخلصة لمَزَار أوروك المقدّس،

لم يَلْمِسْ ماء يدكَ، لم يَلْمِسْ ماء قدمك،

" شوجال " أعطاني نصيحة حكيمة،

يا مُحَارِبِي وساعدي التي تحارب بجانبي،

تعالي أنقذي زورق دار السلام والنواميس المقدسة،

شقت نينشوبور الهواء بذراعها،

وأَطْلَقَتْ صرخة هزت بها الأرض،

ثم قذفت التنانين المشعرة الوحشية الإينكوم واعادتها إلى أريدو،

عند ذاك نادى " إنكي " خادمه المسمى " إيزموند " مرة ثانية، وقال:

" شوجال " تابعي ومعيني " إيزموند "، قال شوجال باحترام جـم، : هاأنـذا واقـف أمامك مستعد لخدمتك، قال " إنكي " أين زورق دار السَّلام الآن؟ "

قال " إيزموند: زورق دار السلام المقدس في الميناء الثاني بعيداً عن أريدو،

أذهب وخذ معك خمسين من عمالقة الأورو،

دعهم يُعيدون زورق دار السلام،

أمسكت عمالقة الأورو الخمسين زورق دار السلام،

لكن " ننشوبور " أنقذت الزورق من أيديهم،

أعادته إلى إنانا،

عند ذلك نادى " إنكي " خادمه " إيزموند " للمرة الثالثة، قال إنكي:

" شوجال " تابعي ومعيني " إيزموند "،

قال شوجال باحترام جم، : هاأنذا واقف أمامك مستعد لخدمتك،

قال " إنكي " أين زورق دار السَّلام الآن؟ "،

قال " إيزموند " لقد دخل الزورق محطة دولما الآن، قال " إنكي ":

أسرع خذ معك خمسين من الوحوش المفترسة،

دعهم يُعيدون زورق دار السلام إلى أريدو،

أمسكت الوحوش المفترسة زورق دار السلام المقدس،

لكن " ننشوبور " أنقذت الزورق من أيديهم.....!

عوامل مختلفة بين الفرات ودجلة

بالتأكيد هناك عوامل كثيرة تدخل في حدوث تلك التغييرات التـي حصـلت عبر تلك الفترة الزمنية البعيدة، البعض منها تم الكشف عنـه والـبعض الآخـر مـا يزال مجهولا، والتغيير في اصل الدراسات التي تم نشرها محليـا وعالميـا تعـود الى كميات جسيمة من الطمى والغرين يطرحها الرافدان العظيمان دجلة والفـرات، تلك الترسبات بالاضافة لتغيير مجرى النهرين كانت تسـبب الترسـبات في قيعانهـا

الى ارتفاع مستوى قاعي النهرين عن مستوى السهل الرسوبي، وذلك يؤدي الى الخلل في تصريف المياه الداخلي نحو المزارع وازدياد خطر حدوث الفيضان وايضا تكون الجزر الرملية في مجاري النهرين وتقليل سعة جداول الري، ومن النتائج الخطيرة للترسبات قضية تبديل الأنهار لمجاريها في فترات زمنية كما اسلفت سابقا الامر الذي تسبب في هجرة المدن القديمة المعروفة والانتقال الى استيطان في مدن جديدة تنشأ على ضفاف الأنهار الجديدة، وفي سجل المتابعة للتغيير الذي رافق مجرى نهري الدجلة والفرات نجد ان الدراسات الجغرافية تؤكد التالي: " أنهما يشقان مسيرهما في الأراضي العراقية من تلك التي تتكون من مناطق كلسية وصخرية باتجاه السهل الرسوبي في الجنوب، حيث يختلط واديا النهرين بذلك ليكونا السهل الغريني الواسع الذي يطلق عليه تسمية " الدلتا الغرينية الطبيعية "، ابتداءا من ذلك المكان يتم انحدارهما باتجاه الجنوب في حركة اكثر هدوءا وبطء واضح وفق مسيرة متعرجة وإنحدار يتسم بالهبوط وفي تلك المرحلة يرفع مستوى قاعيهما من خلال الترسبات فيرتفع مستواهما وبذلك تفيض مياههما، وتبعا لذلك تتكون الأهوار في المناطق المنخفضة وأيضا البحيرات، هذه من الملامح المرصودة والمثبتتة عن التغييرات في حركة مجرى النهرين، وبسبب وجود فروع عديدة لهما في تكوين السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسية إلى الإندثار بسبب تلك الترسبات الكثيرة فأن المجاري الأصلية كثيرا ما يتم ان ينتقل المجرى الكبير للنهر إلى أحد الفروع ويتم توسع المجرى ويصبح هذا الفرع عمود النهر، كما حصل لنهر الفرات عندما صار مجراه الاصلي من خلال احد فروعه وذلك حسب الخرائط الجغرافية التي تعود للعام1820 وهو الفرع المسمى نهر الهندية وجف النهر الاصلي المسمى نهر الحلة مما دعا الى انشاء سدة الهندية وذلك عام 1911-1913 كما ان الدراسات

تشير الى ان نهر الفرات قد بدل مجراه في ازمان قديمة، كانت الخريطة القديمة مثلا تشير الى ان نهر الفرات بعد ان يجتاز مسافات الصحراء الممتدة في سوريا والعراق يمر بالمدن " نفر- الوركاء – لارسا- ايسن – أور " وذات الحال تعرض لها نهر دجلة، كما تبدو مشكلة املاح الارض في القسم الجنوبي من ارض بلاد مابين النهرين ضارة للغاية وهي ناجمة عن تدهور وتخلف نظام الري وعدم التحديث والمتابعة، وهذا أدى الى تصاعد الكميات التي تطرحها الأنهار يضاف إلى ذلك ان التربة يكثر فيها التبخر وإنعدام أجهزة البزل والتصريف والذي يجب ان يكون متوافقا مع أنظمة الري المخصصة لذلك، ان أزمة املاح التربة تزداد منذ العام 2600 قبل الميلاد وتلك الاسباب اوجدت التغيير في الخرائط والاماكن التي تقع عليها المدن وتسببت في قلة الناتج الزراعي، وهناك وثائق إدارية خاصة بالزراعة في منطقة " لجش " السومرية من أواخر عصر فجر السلالات تشير إلى ظهور الملوحة وتناقص الناتج الزراعي ثم انتشرت وزادت في زمن " بلاد آكاد " مابين 1200-600 قبل الميلاد، وكانت الملوحة لدى العراقيين القدماء من الآفات والعقوبات التي تحل بالبشر جزاء شرورهم وآثامهم، فكان تسليط الملوحة من جانب الآلهة على البشر من الطرق التي اتبعت في أفنائهم بالإضافة إلى إحلال الطوفان وما نتج عنه.

أنهار العراق والتأثير البيئي والحضاري

اوجدت أنهار العراق الكبيرة وفروعها التأثيرات الكبيرة في المجال البيئي ونجاح الزراعة وكذلك في صنع الفعل الحضاري، ومن الحقائق الناصعة ان نشوء حضارة وادي الرافدين وأزدهارها أرتبط اقوى ارتباط بوجود النهرين العظيمين " دجلة والفرات وفروعهما الكثيرة "، ويرد ذكرهما في أساطير الخليقة ويشار إليهما على أنهما ينبعان من عين " تيامة " وهي الآلهة التي كانت تمثل عنصر الماء

المالح أي البحر، ومن قبيل ذلك عدّ الفرات ودجلة من الإنهار التي تنبع من الجنة كما جاء في سفر التكوين "2:10-14 " ويرد ذكر الفرات في ترتيلة دينية حيث يخاطب بأنه خالق الأشياء، وأن الآلهة لما حفرته جعلت الخيرات تعم على ضفافه وشيد في أعماقه الآله " أيا " معبده وان مياهه تبريء المرضى وتطهر الأدران، وهو القاضي الحكم بين الناس، وهذا له ما يماثله في شريعة حمورابي حيث" في المادة الثانية " يتم الحكم على المتهم بالسحر بالنهر لإظهار جرمه وبراءته، شاع ان تسمية النهرين سومرية أو هي مأخوذة من تراث أقوام سبقوا السومريين من الذين استوطنوا السهل الرسوبي، وقد ورد اسمهما في مجموعة من العلامات المسمارية وتلفظ على هيئة " بورانن" ويعني بالعربية الرافد او الفرع والفرات بالعربية الماء العذب، بينما ورد اسم دجلة بهيئة " ادكنا " ومنها وردت التسمية العبرانية " حداقل "، والنهر في مفاهيمهم خلق عندما ملأه أنكي بمنيّه، حين منحه هدية العرس محملا بالخصب مياهه المتلألئة، وهناك ابتهالات عديدة تشيد بعظمة النهر له القوة والخلق والنماء واستمرار الحياة، وثمة نص يشير إلى انه وضع في أزمنة التكوين الأولى إذ منحه كل من أيا ومردوك:

أيها النهر العظيم،

ياخالق الخير،

مبارك بخطوات الآلهة التي حفرت مجراك،

وعلى ضفافك ازدهر كل شيء،

الرخاء والعمل والحياة،

في أعماقك يتلألىء قصر الملك المحبوب،

بركة الآلهة منحتك العنفوان والحركة والبريق،

الخوف والموت في خطوات طوفانك الذي لا يقهر،

الآلهين " إيا ومردوك " وضعا الحكمة لديك،

وأنت خير من يحكم في مصائر البشر..

من الحقائق الثابتة بخصوص أنهار العراق أن مصادر المياه التي تعطيها الأهمية عبر كل الأزمنة، باستثناء " نهر العظيم " تقع خارج أراضي العراق، مثلا ان الفرات ودجلة والعديد من روافدهما من مناطق بعيدة وشاسعة تمتد بين أراضي تقع في بلاد الشام وسلسلة جبال طوروس داخل الأراضي التركية، وأيضا منطقة جبال " أرارات " وفي منطقة الشرق تأتي المياه من منطقة جبال " زاغروس " ونصف مساحة حوض النهرين تقع داخل أراضي العراق والباقي خارج حدوده، يتوزع قسم غير قليل من المساحة في الأراضي التركية والسورية وبعض الروافد في الأراضي الإيرانية، ثم يلتقي النهران الكبيرين بعد قطع مسافة كبيرة خارج وداخل ارض العراق في منطقة " كرمة علي "، وتقدر الإحصائيات ان كمية حصة العراق من المياه التي تمر في مجرى النهرين داخل العراق كبيرة، وقد حملت السنوات الأخيرة مشاكل مع الدول المجاورة من خلال إنشاء سدود تتحكم في كميات المياه التي تمر الى الأراضي العراقية، وهي مشاكل فنية ويمكن التفاوض بشأنها وتسوية الخلافات الناجمة عنها، وتؤكد المصادر التاريخية ان المستوطنات البشرية قد تركزت في العصور القديمة على ضفاف نهر الفرات على العكس من واقع الاستيطان على ضفاف نهر دجلة الذي حدث في وقت متأخر عن مرحلة الاستيطان حول مجرى الفرات، والسبب يعود الى ان نهر الفرات اقل عنفا واكثر هدوءا وحالات فيضانه تكون هي الأخرى أقل مما يحصل في دجلة

المندفع الطاغي، المنخفضات التي تتواجد محاذية لضفاف الفرات مثل " الحبانية – هور ابو دبس " الأثر في تخفيف شدة فيضان الفرات، ويرى بعض الآثاريين او خبراء الجيولوجيا ان سكان العراق القدماء قد انتبهوا الى تلك المنخفضات الطبيعية وسخروها لتكون بمثابة خزانات كبيرة للمياه الفائضة واعادة استخدامها في فترة قلة المياه في النهر وخاصة في فترة اشهر الصيف، كما توجد خاصية أخرى يتمتع بها نهر الفرات في مسيره عن نهر دجلة وهي ان السهل الرسوبي يبدأ في الارتفاع عند منطقة " الفلوجة " ويكون انحداره بشكل تدريجي شرقا وهو يتجه نحو نهر دجلة، والعراقيون القدماء انتبهوا لهذه الخاصية الطبيعية فأفادوا منها وذلك بشق مشاريع ري كبرى ومهمة من نهر الفرات نحو نهر دجلة، ونجد ان اغلب مشاريع الري الحديثة استفادت من افكار السكان القدماء..

منبع الفرات ودجلة والتأثير على المدن القديمة

ينبع الفرات من منطقة جبلية تحيط بمنطقة الأناضول وهي تمتد من الشرق والغرب ويتألف تكوين النهر من فرعين كبيرين هما " فرات صو " الذي يجري في منطقة " أرض روم " والفرع الثاني هو " مراد صو " الذي ينبع من منطقة في إحدى الهضاب الأرمينية، ثم يلتقي الفرعان في منطقة تقع في بلدة " كيبان مئدني " ليكونا النهر الكبير " الفرات " ويكون طول الفرات قبل اللقاء لهذين الفرعين 2848 كيلومترا ونحو 2320 من بعد التقائهما، وبعد اتحاد الفرعين " فرات صو – مراد صو " يبدأ نهر الفرات بالتوسع حيث تصب فيه الكثير من الأنهار والروافد القادمة من المناطق الجبلية والوديان، ويواصل مسيرته باتجاه الجنوب الغربي، حتى يصل الى سهل مدينة " ميلطية " عندها يلتقي به رافد مهم هو " طوخماصو " على بعد نحو 120 من جنوب منطقة " كيبان " ويستمر مجرى نهر الفرات الرئيسي بالسير نحو الجنوب الشرقي، ويدخل في مناطق معقدة التضاريس تجعله كثير

التعرجات والألتواءات، ثـم يقطـع الحـدود التركيـة – السـورية عنـد مدينـة " جـرابلس " المسماة " كركميش " قديما، بعد مدينة جرابلس بمسـافة 20 كيلـومترا يلتقـي النهـر برافـد آخر مهم هو " الصاجور "، ثم يتجه مجرى النهر وكأنه ذاهـب بالاتجـاه الـذي يـؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط من جـرابلس بالاتجـاه غربـا ويقـترب مـن حافـات البحـر الأبـيض المتوسط بحيث تكون المسافة بينهما 100 ميل فقط لكنه يغير مجـراه ويتجـه شرقـا نحـو السهول في الأراضي السورية ثم يدخل جزيرة بلاد ما بـين النهـرين، مـن المـدن التاريخيـة التي يمرّ بها مدينة سمباط القديمة او المسماة في كتب الرحالة العرب " قلعة الطين "، ثـم يتجه مجراه مرة أخرى وكأنه ذاهب نحو البحر الأبيض المتوسـط وتكـون المسـافة بيـنهما 200 كيلو مترا ثم يعود ليغير اتجاهه نحو الشرق عند مدينة تاريخية قديمة تدعى " إيمـار "، وهو في مجراه العظيم يمر على المدن القديمة ومنها، يصب نهر البليخ والخـابور في نهـر الفرات في الجانب الشرقي ويروي أقليم " اديسـا " القـديم، ويمـر بمدينـة الرقـة المعروفـة تاريخيـا والواقعـة عـلى الجانـب الشرقـي وكانـت تسـمى بالمصـادر التاريخيـة القديمـة " نفيفوريم " والى الجنوب من هذه المدينة يلتقي البـاليخ بـالفرات ثـم يمـر بمدينـة " ديـر الزور " والى الجنوب منها بمسـافة 45 كيلـو مـترا يصـب فيـه رافـده المسـمى " الخـابور " بالقرب مـن المدينـة المسـماة " قرقيسـية " وقـد ورد اسـم الخـابور في الألـواح السـومرية باسم " خابوراس " أو خابورو" ويعتبر نهر الخابور مـن أكـبر وأطـول روافـد نهـر الفـرات، حيث يبلغ طوله تقريبا 245 كيلومترا من ينابيعه في المنطقـة الجبليـة " مـاردين – وطـور عابدين " وتغذيه عدة روافد وأنهار من أشهرها نهر " الهرماس " وهو الفرع الشرقي مـن نهر الخابور الذي يمر بمدينة " نصيبين " وتل بـراك، وتـذكر كتـب الرحالـة العـرب وصـفها لنهر " الخابور " على أنه يأخذ مياهه من نهر " الهرمـاس " حيـث توجـد لـه عـدة منـابع بالقرب من مدينة " سـكير العبـاس " وتوجـد هنـاك بقايـا سـدود قديمـة تعـود للفـترات

التاريخية السابقة، وأن الثرثار يأخذ مياهه أيضا من نهر " الهرماس " وبعد ان يمر الثرثار بجبال سنجار ويتجاوزها وتصب فيه جداول تتكون من عدة عيون يمر بعد ذلك في مدينة " الحضر " التاريخية ثم يستمر في مجراه حتى يصب في نهر دجلة بالقرب من مدينة " تكريت " ثم يصب في منطقة " الثرثار ويتكون بذلك بحيرة عظيمة تغذيها مياه النهرين، المنطقة التي يجري فيها نهر الفرات ورافداه البليخ والخابور هي المنطقة التي يطلق عليها المؤرخين العرب اسم " الجزيرة " واغلب أراضيها خصبة وصالحة للزراعة وتتوفر لها بكميات كافية من مياه الأنهار والجداول والعيون وكذلك تسقط فيها كميات كبيرة من الأمطار وظلت طوال الفترات التاريخية تعيش حالة إزدهار وقد وجدت فيها تلول كثيرة يعتقد أنها تضم آثار أقوام غابرة، كما كان يمرّ منها عدة طرق مهمة للمواصلات والتجارة وهي قديمة وترتبط بفترات تاريخية تعود للفترة السومرية وتربط بين وادي الرافدين بسورية وصولا إلى موانيء البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأناضول، يمر نهر الفرات في مسيره بعدة مدن تاريخية كانت مؤثرة مثل " دورايوربوس " ومدينة " البوكمال " وبالقرب من المدينة التي شهدت مملكة " ماري " الشهيرة عند " تل الحريري " وبعد ان يجتاز مدينة البوكمال يدخل الأراضي العراقية عند قرية " حصيبة " - مركز قضاء القائم وتوجد بين " حصيبة - القائم " بقايا أثرية واسعة تقع على الضفة الغربية ويطلق عليها " تل الجابرية " واغلب الظن ان تلك المنطقة تعود للفترة الآشورية وتسمى " خندانا " ثم يصل مدينة " عانة " التي تقع على ضفته اليمنى، وثم مدينة " راوه " التي تقع على الضفة الشرقية، ويوصف مجرى النهر من مدينة " عانة - إلى مدينة هيت " بأن حوضه تكثر فيه الصخور والجزر الصغيرة وتوصف مدينة عانة في الزمن القديم بأنها كانت بمثابة واحدة من المراكز المهمة للساميين الاموريين.



" خارطة تبين المدن القديمة الموجودة على ضفاف الرافدين "

بينما نجد ان نهر الفرات عند دخوله حدود السهل الرسوبي يمر في المدن التالية، حيث يقترب من نهر دجلة قرب مدينة " الفلوجة " ثم يمر بمدينة " المسيب " وبعد اجتيازها بقليل يتفرغ إلى فرعين الفرع الشرقي يسمى " نهر الحلة " والفرع الغربي ويسمى " نهر الهندية "، كان نهر الفرات بين الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد يمر مجراه بمدن تاريخية كبيرة وصغيرة تروي فروعه الكثير من القرى

والمزارع الكثيرة في السهل الرسوبي ومن بين تلك المدن القديمة الشهيرة " سبار – كوثي – بابل- كيش – شروباك – الوركاء – أور

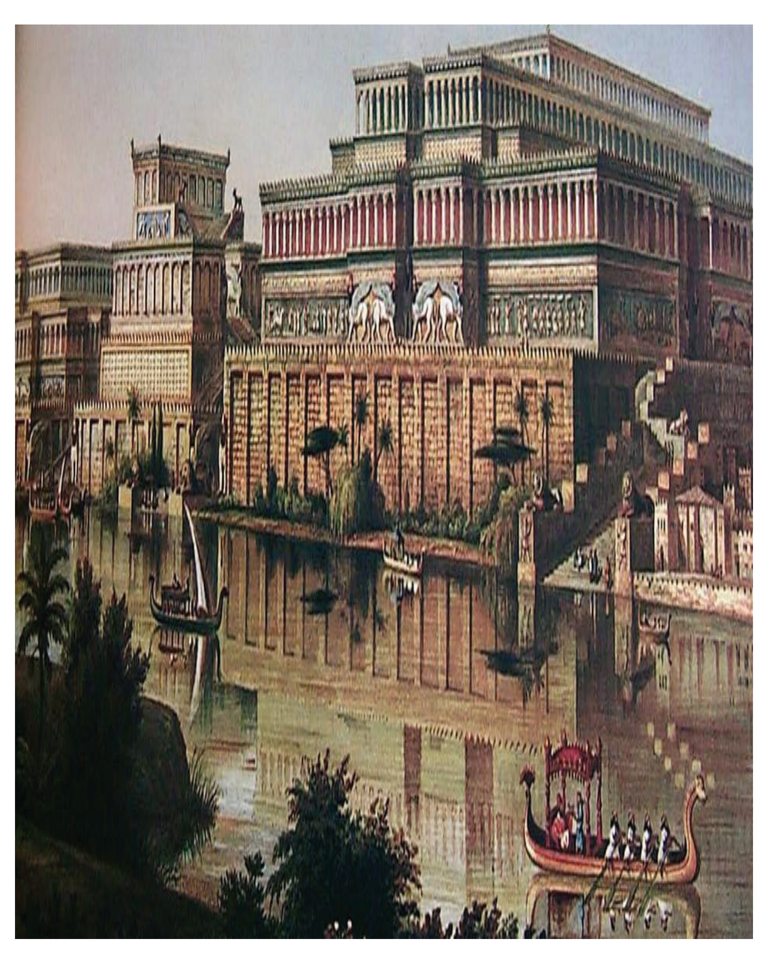
وجد المنقبون في مدينة أور القديمة وفي الموضع المسمى " دقدقة " شمال شرقي زقورة المدينة بقايا مشروع سد قديم ومعالم رصيف ميناء بحري ويرجح بعض الباحثين ان " هور كبيرا " هو " هور الحمار " ويقع قرب مدينة أور وأن مدينة أور تربط بلاد ما بين النهرين بالبحر، وقد وردت إشارات ومعلومات في الألواح تفيد بإتصال أور وأريدو بالبحر، وبخصوص نهر دجلة تتكون منابعه في المرتفعات الواقعة جنوبي شرق تركيا، وتتكون المجاري العليا لدجلة من مجموعة الروافد والانهار الصغيرة المجموعة الأولى تأتي من " بحيرة وان " والمجموعة الثانية تأتي من " بحيرة كولجك " ومن خلال توحد هذه الفروع يتكون المجرى الرئيسي الذي يأخذ بالانحدار بالاتجاه الجنوبي الشرقي ويقطع مسافة قصيرة ليدخل الأراضي العراقية قرب بلدة فيشخابور ويبلغ طول النهر داخل الأراضي العراقية 1418 وتصب فيه عدة روافد مهمة منها " الزاب الصغير والكبير والعظيم ونهر ديالى ونهر الوند " وتقع المدن التاريخية التالية على مجرى النهر مثل " كالخ – النمرود وآشور القديمة في نينوى واشنونا وديالى المسماة " ترناه "، ومدينة سامراء التي تكثر فيها الآثار القديمة مثل تل حلف وفي بغداد توجد الكثير من المواقع الآثرية التي تعود للفترات السومرية والبابلية وكذلك الفترة العباسية وفي المنطقة الجنوبية بين الكوت والعمارة توجد عدة مدن قديمة منها " ايسن ولارسا "، ومن العلامات الثابتة في المشهد الزراعي ان النخيل الذي تشتهر بلاد ما بين النهرين بوجوده بكثرة ينمو على طول الإنهار والقنوات وعلى ضوء الفكرة المدونة في أحد الألواح السومرية وكما يصف أحد الفلاحين المشهد " اقدام النخيل مغروسة بالماء ورؤسها في بؤرة الشمس "، وبخصوص التهرين العظيمين

الآن يلتقيان في منطقة القرنة شمال البصرة بحدود 100 كيلومتر ويكونان شط العرب عند منطقة القرنة ولكن في العصور القديمة لم يكن هناك شط العرب لأن دجلة والفرات يصبان في البحر وكانت مدينة أور ميناء بحري، وثيقة سومرية مهمة كشف النقاب عنها مؤخرا مكتوبة على لوح سومري مثبت عليها تعليمات تخص الزراعة، اللوح السومري كتب عام 1700 قبل الميلاد، تعليمات فلاح كهل لأبنه كي يباشر العمل في الحقل بدلا عنه، يقول له:" اسقي الزرع بالمياه باعتدال، لا تسرف او تكرر إلا بحسبان وعندما يحين العطش، عليك ان تلبس حذاءك وتهيأ الثيران للحراثة، ثم قم بحذر ووعي ودقة باستخدام الفأس لتخليص الأرض من العروق السامة، لاتباشر الحرث والبذار في وقت واحد بل أربط الخشبة المثبت عليها المحراث الى الثيران، اهتم بالعربة التي تقود المحراث، اقلب التربة اثناء الحراثة بعمق قدمين ثم اغرق الحقل بالماء ثلاث أو اربع مرات ولا تنس تسميد الأرض بالروث الجاهز لكي تساعد الأرض لتكون أكثر خصوبة "، نقل المؤرخ اليوناني " سترابو " عن الرحالة " هيرودوت " منطقة أقصى جنوب العراق في الفترة 2400 قبل الميلاد كان ناتج محصول الذرة فيها يعادل ثلاثة اضعاف ناتج محصول القمح ورجال الدين يتركوا المعابد ويعملوا بحماسة كبيرة مع الفلاحين ولهم حقول خاصة بهم، وفي النصوص القديمة التي تتحدث عن فترة الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد سومر بساتين النخيل عظيمة متراصة منتجة ولا فواصل بينها والتمور طعام السكان الأول والأساس ومطلوب بسبب سعراته الحرارية العالية ويعتبر هو الأفضل والمتوفر دائما وسهولة الوصول إليه، السكان في تلك الفترة كانوا ينشطوا في تربية الأبقار والجاموس والأغنام والماعز والخنازير ويمنع حركتها في المناطق المزروعة، عناية الحكومة والسكان لا تنقطع وتتواصل بشكل يومي مراقبة مجاري الأنهار والقنوات وترميم السدود

للبحيرات والعمل على تطوير صناعة المراكب والسـفن والـزوارق وتطـوير قوافـل التجارة في البحر وصيد الأسماك والتي تتوفر بشـكل كبـير في بيئـة المياه النهريـة والبحريـة، تنـتج البسـاتين إلى جانـب التمـور مجموعـة كبـيرة مـن الفواكـه والخضروات من بينها العنب والرمان والتين، وإلى جانـب زراعـة الـذرة والحنطـة والشعير ثمة إهتمام بزراعة اللفت والقرنبيط والخيـار والجـرجير والبصـل والثـوم والبطاطا والخس، تلك الخضـار تـزرع في المسـاحات الموجـودة بـين النخيـل أو في مساحات خاصة، ولعل من المعلومات المهمة التي دونتها الألواح مـا يشـير إلى ان سكان بلاد ما بين النهرين كانت تتمتـع بـالثراء الزراعـي وكـذلك تتصـف بـالوفرة الإنتاجية في جميع المحاصيل ولم تعرف المجاعة أبدا وهي تُعـد أفضـل حـالا مـن المناطق المجاورة مثل سـوريا وإيـران وآسـيا الصـغرى، المجاعـات في بـلاد مـا بـين النهرين كانت تحصل بسبب الحروب والكوارث الكبيرة القاسية مثل الفيضـانات، اهم ما يميز الحياة في السهل الرسوبي تلك البيئة المحصـورة بـين النهـرين، مـع ان بلاد الرافدين يتنوع فيهـا المنـاخ وتتنـوع أيضـا فيهـا التضـاريس الجغرافيـة مثـل الصحراء والسهوب والمناطق الجبلية وشبه الجبلية وأيضـا الاهـوار والمسـتنقعات، ونجد ان تلك التضاريس لها اتصال وامتداد مع بيئة الدول المتجاورة مثلا الجبـال تمتد مع جبـال إيـران وتركيـا والصـحارى تمتـد مـن غـرب الفـرات وحتـى وسـط السعودية تتكون مناطق صحراوية عظيمة ومذهلـة وأرض منبسـطة تتصـل مـع الهضبة السورية، تلك الطبيعة تبدو كما لو أنها قطعة واحدة، تمكن سـكان وادي الرافـدين مـن التغلـب عـلى الصـحارى وتحقيـق الزحـف واستصـلاح الصـحراء وذلك منذ الفترة السومرية وإزداد ذلـك في المرحلـة التـي سـبقت ظهـور الإسـلام وتعاظم ذلك النجـاح في المجـال الزراعـي خـلال مرحلـة الإمبراطوريـة العباسـية، سـجلت فصـول تـاريخ العـراق القـديم تفاصـيل صراع متواصـل بـين مجتمعـات

تطورت وصارت لديها حضارة ومنجزات وبين أقوام متخلفة غوغائية معادية للحضارة تقودها قبائل قادمة من الصحراء الغربية ومن حافات جبال زغروس كانت في هجماتها ترى وترصد الظروف المتغيرة وتدرك بعين الحسد حالة الرخاء من موجودات المدن بساتين وغدران وبناء وبيوت ثابتة وقنوات ري ومؤسسات للحكومة ومعابد تلك من الاسباب التي كانت تعرض المدن السومرية البابلية الاشورية لهجمات متواصلة من قبل القبائل المتخلفة، ظلت مساحات كثيرة من الأرض التي تمتد على الضفة اليسرى من نهر دجلة في مناطق يطلق عليها حاليا اسم " الفرات الأوسط " والتي كانت حال البعض منها كئيبا يسود فيها التخلف دائما حالة وديانها والقسم الأعظم من أراضيها يلفها القحط والبوار، وتتكاثر فيها البحيرات المالحة ومناطق يسودها السباخ وتتوسع رقعة الأرض غير الصالحة للزراعة، كما يضرب مناطق أخرى الجفاف وتكثر فيها أيضا النفايات، وتجد ان أغلب الطرق التي كانت ذات يوم غابر بمثابة طرقا تجارية تربط بين الاقاليم المجاورة، وبفعل تدهور نظام الري القديم الذي خضعت له القنوات والجداول تراجع كثيرا الإنتاج الزراعي فيها، حيث صارت مصادر الري تتمثل بالآبار والينابيع ومياه الأمطار وتصاعدت كثافة الأعشاب والنباتات الضارة في مناطق شاسعة، بينما ظلت المنطقة المحصورة بين وادي دجلة وسهول شمال سوريا بمثابة الممر الطبيعي للسهل الخصيب وانتشرت في تلك المساحة الشاسعة المدن الصغيرة والقرى المتباعدة التي وجدت ظروفا جيدة لمواصلة عملية الزراعة وتربية الأبقار والأغنام والخيول والجمال، كان مشهد المدن القديمة في بلاد ما بين النهرين يتواصل وفق تقاليد متوارثة، كانت المناطق التي يندر فيها وجود الأنهار وشبكات الري للإستفادة من مياه النهرين " دجلة والفرات " تعتمد في الزراعة والري على هطول الأمطار الذي يتراوح معدله ما بين 30-60 سنتمترا وفي

جبال كردستان يزداد سنويا هطول الثلوج ويبلغ ارتفاع الجبال في ذلك القسم من أرض العراق الى 2500 مترا، بينما يبلغ أرتفاع جبال زغروس التي تفصل بين العراق وإيران نحو 3500 مترا والتي يأتي منها كميات كبيرة من المياه عند ذوبان الثلوج تحملها الأنهار القادمة من تلك المنطقة نحو نهر دجلة والفرات ومن أهمها كما ذكرت سابقا " الزاب الكبير والصغير والعظيم والخابور والبليخ " دخول تلك الأنهار إلى الأراضي التي تشكل خريطة بلاد ما بين النهرين أوجدتها قضية إنخفاض الأرض ووجود وديان ومضائق متعرجة، تلك الأنهار تزود النهرين العظيمين بكميات كبيرة من المياه خلال فصل الربيع والصيف مما يسبب في بعض السنين حصول فيضانات كبيرة، المعروف ان مناخ بلاد ما بين النهرين بارد في الشتاء وحار جاف في الصيف ويكاد يكون موسم الربيع قصيرا، التلال التي تفصل بين تكوين الجبال والسهل الرسوبي تبدو عارية من النباتات والأشجار وفي بعض المناطق نجد ثمة مروج أو غابات صغيرة أو أشجار السنديان والصنوبر، وتمتد في المناطق المكشوفة في الشمال والجنوب والوسط حقول كبيرة واسعة للقمح والشعير وأشجار للفاكهة والخضروات وتنمو أشجار العنب مثلا في المساحات بين البساتين في مناطق الوسط، ان تلك الزراعة المختلفة في الأساليب وتعيد المشهد الناجح لسكان الكهوف في قرارهم الخروج من فجوة الظلام ومباشرة الزراعة في المناطق المفتوحة المجاورة والقريبة لتلك الكهوف، تلك الخطوة التي شهدها العصر الحجري وما بعده حققت المشهد الجميل في منطقة الشرق الأدنى، عندما تنظر إلى الأرض التي شهدت ظهور الإمبراطورية الآشورية تجد أنك في حضرة منطقة جذابة زراعية بامتياز من خلال إنتاجها تمكن الشعب الآشوري ان يلعب دورا حضاريا مهما في بلاد ما بين النهرين.



" جانب من المدينة الآشورية على ضفة نهر دجلة "

حاولت تلك القوة المدهشة بجانب تكوين الجيش والإندفاع في تطوير أساليب الزراعة في المساحات المتوفرة ثم في الأراضي التي سيطرت عليها من خلال الفتح في الحـروب العديـدة، كان الأغلب من أيام تلك الإمبراطورية استنزف في الحـروب والـدفاع عـن حـدود الإمبراطوريـة في آتون صراعات متواصلة حول مناطق ومدن وأراض متنازع عليهـا مـع الإمبراطوريـة البابليـة وأيضـا ضـد الأقـوام الهمجيـة مـن سـكان المرتفعـات ومنـاطق الأقـوام البدويـة القادمـة مـن

الصحراء البعيدة من جهة الغرب بهدف السيطرة على المدن والحصول على الثروة، في الطرف الآخر من تكوين أرض بلاد ما بين النهرين تقع تضاريس مختلفة هي مناطق " الأهوار والمستنقعات القصبية " وهي تغطي مساحة كبيرة من أرض الجنوب حيث يمتد السهل الرسوبي المحصور بين نهري " دجلة والفرات "، تلك الأهوار القديمة الوجود تشكل منطقة خاصة تختلف بشكل كبير عن بقية تضاريس بلاد الرافدين، تتصف بأنها تتكون من بحيرات ضحلة وممرات مائية ضيقة ومتعرجة وفيها تكثر الأدغال والقصب والبردي وتتشكل أيضا بيئات أخرى مائية ويُربى فيها الجاموس والخنازير البرية والطيور المختلفة، يشهد مناخها إرتفاعا في درجات الحرارة ويكثر في محيطها البعوض والحشرات وتعتبر من أغرب المناطق الموجودة في العالم ولا يماثلها إلا نموذج صغير في الولايات المتحدة ضمن ولاية فلوريدا، واغلب النصوص السومرية تتحدث عنها وتصف روعتها وأهميتها وتربطها بالآله " أنكي ":

أنكي، الثور الهائج المتوحش، رأى نينكورا،

قال لخادمه الصياد - ايسمود - أنظر يا ايسمود تلك امرأة هبطت من سقف السماء، أنظر كيف تتحرك اقدامها عندحافات مياه - اريدو - ما اشهى تلك المرأة، اقدام لذيذة وخصر يفتت القلب، اقدام رطبة يا ايسمود، طرية،

سيدي - قال ايسمود معترضا بخوف -

ماذا ياايسمود..؟ اسمع... كل ذرة في جسدي تشتعل شهوة ورغبة كبيرة تطوح بيّ،

سيدي، مرة اخرى قال ايسمود معترضا بخوف اكبر -

ماذا ياايسمود..؟

العين قد اتسعت وصارت اكبر من حجم الهور، والقلب يدق،

ايسمود..!

ماذا ياسيدي، قال ايسمود

قال انكي: لمَّ لا اجامع تلك الفتاة السماوية،

الفاتنة، الساحرة، هي شمس سومر،

ايسمود...!

ماذا ياسيدي، قال ايسمود

لماذا تلتزم الصمت، أنت دليلي المدلل وكاتم اسراري،

لماذا تلتزم الصمت،

تلك الفتاة هي قمر سومر، انصحني،

تكلم...

ايسمود....!

اطبقت السماء على الأرض، وساد اهوار " ايريك " صمت ثقيل، انكي ينتظر الرد،

وايسمود يبحث عن جواب، فكر مضطربا

ثم قال:

- كما ترغب ياسيدي، كما تهوى ياسيدي.. ليكن ماتريد - جامعها - هي أجمل نساء " ايريك "، تلك فتاة فاتنة تسمى " نينكورا "..

نظر " أنـكي " نحـو " خادمـه ايسـمود "، كـان مبلبـل العقـل والبصـيرة، حـاول ان يستوعب ما سمع، من بين الاضلاع ثمة صوت يفرّ، من بين الاضلاع ثمة وهج يمرّ،

" ايسمود " توقف عن الكلام برهة ثم اضاف " - من أجل أن تشـع رغبـة سـيدي، مليكي، أنكي العظيم، سوف انفخ بقوة الريـاح المناسـبة الهادئـة، ريـاح العشـق والنجـوى بنغماتها الشاعرية، تلك ياسيدي تلائم حاجة الغرام والمضاجعة،

تصاعدت الرغبة ووضع " أنكي " رجليه في قـارب القصـب، ثـم نقلهـا بخفـة كبـيرة فوق سطح الأرض اليابسة، خطوات، وخطوات، بعد ذلـك احتـوى بـين الـذراعين جسـد " نينكورا " وضعها فوق أعواد البردي، ثم جامعها، أنذاك ابتدأت عجلة الزمن وانفـتح أفـق الكون، صارت الرياح تدور في الجهات الأربع، والمياه تتدفق،

ايسمود...

ماذا ياسيدي، قال ايسمود،

رد أنكي: أنظر كل شيء من حولنا يدور

... يدور

... يدوووووووووووور...

من المـدهش أيضـا ان سـكان الأهـوار - السـكان الاصـليين لـبلاد مـا بـين النهرين، حافظوا إلى حد كبير على أسلوب حياتهم منـذ أيـام السـومريين ولحـد الآن، ثبتت بعض المصادر أن عمر تلك الأهوار أكثر من خمسة آلاف سـنة ومـن

وجهة نظر علماء الآثار تلك المناطق ما زالت تحوي آثارا مهمة جدا من العصور القديمة ونادرة تتعلق بالفترة السومرية وما قبلها، مثلا سكان الأهوار لم يستخدموا الحجر والطابوق ويسرقوه من تكوين تلك المدن الآثرية القديمة والمواقع التابعة للحضارة القديمة، بيوتهم وسط المياه قائمة تتكون من الأكواخ التي يستخدم في بنائها القصب والبردي، اغلب المواقع الآثرية مازالت مدفونة في الأرض المجاورة لتلك الأهوار ويفكر العلماء حاليا باستخدام طرق وتقنيات حديثة لاستكشاف تلك المناطق المدفونة وغير المكتشفة لحد الآن، في النظر الى الخريطة القديمة والتي تثبت علامات تاريخ المدن والحضارات القديمة نجد ان بلاد مايسمى بالهلال الخصيب الذي يمتد من حوض بلاد ما بين النهرين وصولا إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ويحتوي هذا التكوين من بين التضاريس الصعبة - الصحراء العربية السورية الكبيرة وهي تتصل مع ارض الحجاز ونجد وأيضا داخل ارض بلاد مابين النهرين، وهي قليلة الإنتاج الزراعي وكذلك تتصف بندرة الكثافة السكانية، وحقيقة الأمر أن المنطقة المركزية من أرض الشرق الأوسط واسعة جدا وهي ذات تضاريس معقدة وصعبة ولكن الإنسان القديم تمكن من تطويعها وجعلها تنتظم في مجال الإنتاج المحدود، الصحارى في سوريا مثلا تقطع مساحاتها الواحات المتفرقة والتي ظهرت في تلك المناطق الكثير من المدن المهمة مثل العاصمة " دمشق - تدمر - أريحا " وفي إيران " اصفهان " وفي العراق " بغداد "، ثيتت وقائع التنقيب بعض الحقائق عن تلك المحطات القديمة عندما اكتشفت بعثة آثارية منطقة " جرمو " في العراق " منجل - آلة تستعمل في حصاد الزرع " ذاك المنجل كانت له مقابض وأنصال تقدم فكرة عن استعمالات مختلفة، كما تم اكتشاف " مدقة "، وظهر ان المنجل هو من الأدوات الزراعية المبكرة التي كانت تستخدم في إنجاز عمل الحقول عندما تنمو سيقان الحنطة والشعير

والنباتات البرية الأخرى، تلك المحاصيل كان السكان القدماء يستخدموا تلك الأدوات وخاصة المنجل المصنوع من الخشب والحجر الصلد لحصد النباتات ذات السيقان النحيفة المحملة بالحيوب والتي زرعت من قبل الزارعين، ومايزال المنجل يستعمل في الحصاد لحد الآن في القرى الزراعية العديدة وفي بلدان كثيرة وخاصة ضمن حوض بلاد الرافدين، بعد الحصاد أبتكر الإنسان القديم فكرة إقامة الصوامع أو أماكن تجميع الحبوب لتخزينها والإستفادة منها في الطعام أو التجارة بها في الأسواق هكذا تطورت الأسس الأولى لمفهوم الزراعة في المجتمعات القديمة، وعلى أثر ذلك النجاح الزراعي تطورت وتشكلت المجتمعات أو المستوطنات الدائمة الأولى التي ظهرت لاحقا ثم تكاثرت بشكل تصاعدي، من نواتج الزراعة تعلمت المجتمعات القديمة كيفية حماية الناتج الزراعي من الحبوب الثمينة، والعمل على إزالة النباتات الضارة من الحقل، وأيضا كيفية الإحتفاظ ببذور أفضل لزراعتها في الموسم القادم، بهذه الطريقة واستنادا إلى تلك التجارب ولدت الثورة الزراعية في بيئة المستوطنات البشرية الأولى أي قبل 10000 سنة قبل الميلاد، في تلك الفترة البعيدة أو ما سبقها وجد الإنسان القديم الطريق إلى الزراعة والصيد وتمكن من خلالها تأمين الغذاء بشكل صارم وجعل مصدر الحياة متوفرا، ساهمت تلك الخطوات في إنجاح الثورة الزراعية في خطواتها الأولى من خلال جهود تلك المجتمعات التي ابتكرت وتعلمت من تلك التجارب وطورتها ثم نشرتها وجعلت في سجل أرشيفها الكوني ملاحظات أو خطوات عن كيفية التعاون والحفاظ على البيئة وأيضا السيطرة عليها وتعديل بعض مظاهرها مثل توجيه المياه وتدجين الحيوانات واستخدامها في أمور الزراعة والطعام والمواصلات، بتلك المظاهر شكل الإنسان القديم الصورة الواضحة عن دورة البيئة والحياة واستمرار وجود الموارد المهمة لاستمرار الحياة، في المناطق

الجبلية مثلا في العراق وسوريا وخاصة السفوح المعشوشبة فيها شكل الإنسان القديم فرقا خاصة للصيد، كانت كل مجموعة منها تتكون من عشرون الى ثلاثون شخصا الناتج من عملية الصيد يتم الاحتفاظ به لاستخدامه في فصل آخر من خلال التجفيف وذاك يشمل بالدرجة الأولى لحوم الحيوانات والأسماك وكذلك شمل التجفيف الثمار والحبوب البرية إضافة الى الطرائد مثل الغزلان البرية والطيور، وبهدف إنجاح عمليات الصيد تطلب الأمر الهجرات المتكررة والتجول عبر الأراضي الواسعة، في المغامرة التي قادتها الأقوام التي سكنت فلسطين عندما توجهوا لاحتلال أراضي في المناطق الشرقية من النيل الى الفرات بين 9000 – 7000 قبل الميلاد هذه الفترة مازالت غير معروفة تفاصيلها.



"مدينة تدمر الآثرية في سوريا من شواهد الحضارة العظيمة "

ولكن كشفت التنقيبات عن ثقافة إقامة الملاجيء وفيها بقايا مواقد محطمة وبقايا حجارة مخططة وحفر صغيرة، يعتقد أنها عملت كصناديق لتخزين الحبوب من تلك التي تمّ جمعها من البراري المحيطة بتلك الكهوف، تلك الحبوب هي من التي تمت زراعتها فيما بعد، ثم صارت من الحبوب التي تم تداولها وزراعتها على مستوى واسع وصارت تلك الصناديق من مجالات التخزين التي بوجودها انتهت مرحلة الذهاب والبحث في أماكن بعيدة، تلك العمليات ساهمت بإكتشاف الزراعة ووضع سياقات بها، وبذلك ارتفعت خطوات خطوات أهمية القرية وصار لها دورا مهما بفعل نجاح العامل الزراعي، صار الإنسان في تلك المجتمعات الرعوية الأولى دائم البحث عن النباتات البرية وتصنيفها وزراعتها في مساحات مخصصة للزراعة بهدف التجريب والاستفادة وصارت تنمو وتقدم الاكتفاء الذاتي، الإنسان البدائي تعلم من تلك التجارب كيف يفرز ما يناسب الزراعة وفق النظام البيئي المناسب، وفي مرحلة النجاح صار الحصاد مؤكدا، دخلت مرحلة جمع وتبويب تلك الحبوب وترتيب منهج زراعتها حسب الفصول، هذه المراحل التي جعلت المنهج الزراعي يتخذ اسلوب التنويع، ولهذا اهتمت القرى البدائية الكثيرة بتعلم المفاهيم الجديدة في الزراعة وتدوين المعلومات الخاصة بزراعة تلك الحبوب التي صارت تشكل المصدر الأول للغذاء، كانت تلك القرى البدائية عبارة عن كهوف في الجبال تم استبدالها فيما بعد وحسب خطوات التطور الحضري الى قرى تتكون من بيوت حقيقية لها مواصفات تتناسب مع البيئة كانت ضمن اشكال مستطيلة تراعي بعض المطالب الحياتية، تم أيضا بناء أغلب تلك البيوت من طابوق غير مفخور مصنوع من الطين المخلوط ببقايا القش الزراعي والمعجون بالأيدي والأرجل، ظهرت تلك البيوت خلال الفترة8000 قبل الميلاد، في القرية السوريةmURRYBET

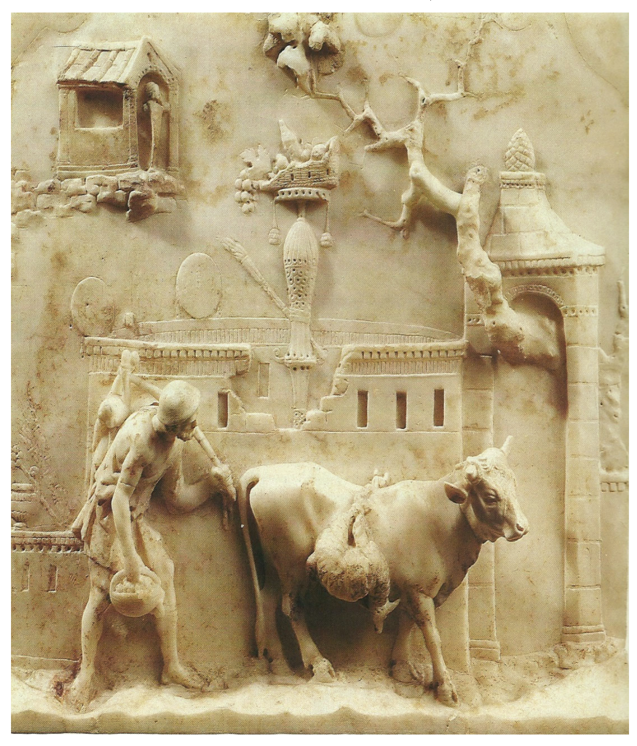
تصميم البيت كان دائريا ومصنوع السياج من الخشب والسقف والحيطان من الطين والاحجار والقش المخلوط بالطين وفي الداخل وجدت آثار موقد ومكان للنوم ومكان لتخزين الحبوب وأيضا مكان لسكن العنزات والأغنام والدواجن، ويقدم ذلك فكرة عن ان الإنسان في تلك المرحلة قد تمكن من تدجين الحيوانات التي كانت تعيش بالقرب منهم وهي ضرورية جدا، حصل ذلك في تلك القرى قبل حوالي 7000 سنة قبل الميلاد، كانت القرى تتكون من البشر والحيوانات التي تساعدهم في الزراعة وأمور الحياة الأخرى..

الأبتكارات ومظاهر الصناعة البدائية

سجلت بعض الدراسات ان من مشاكل ظهور التجمعات الكبيرة صعوبة حل المشاكل والخلافات على عكس الذي كان يحصل بالنسبة للتجمعات الصغيرة وخاصة في حالات المنازعات التي تنشأ بين الأفراد، القرى الكبيرة بعد تلك المنازعات تنقسم إلى مجموعات أصغر وتذهب راحلة لتختار أماكن أخرى للإقامة عليها ومواصلة حياتها وخاصة في مجال الزراعة بعد فترة، شهد العام 7000 قبل الميلاد بداية ظهور قرى خارج المناطق المأهولة حيث تتواجد المزارع العشوائية للنباتات البرية، من ذاك الواقع بدأت محاولات الإنبات والزراعة وخاصة لحبوب الحنطة والشعير وضمن بيئات جديدة، خلال بضعة قرون كانت هذه هي طريقة الحياة الجديدة قد نشرت في كافة أنحاء المناطق الخصبة للشرق الأدنى، وفق ذاك التطور وفي تلك المرحلة بجانب إتقان الزراعة وتبويب الحبوب وانواع البذار البري، تعلم الإنسان القديم كيف يتقن أولويات فن العمارة وبناء المساكن والقرى، مثلا كان المهندس البناء الماهر يضع شروط للبناء تتمثل في اختيار موقع دخول الشمس إلى باحة البيت وتضمين البناء شبابيك للتهوية والإضاءة واستخدام طرق صنع الطابوق المفخور من خلال خلطة أبتكرها كي

تصمد طويلا أمام العوامل البيئية القاسية مثل الأمطار والرياح والغبار، من تلك المسيرة تحولت القرية وفق التطور الحضاري إلى بلدات صغيرة ثم الى مدن كبيرة خلال فترات بعيدة سبقت الميلاد بفعل تنمية وتطوير المناطق الخصبة زراعيا وخاصة في منطقة " ميزابوتاميا وسوريا " حيث توسعت الزراعة وتكونت الطبقة الزراعية ضمن ملكية خاصة أوأرض تتبع سلطة المعبد أو الحكومة أو من خلال استئجار الأرض، وفق قوانين أو شروط رغم عدم إلمام الكثير من المزارعين أنذاك بشروط استخدام الكتابة، كان السهل السوري وكذلك وادي ما بين النهرين العظيمين وفيهما يتوفر الشرط المساعد للإنبات ونجاح الزراعة في ظهور أولى المظاهر الصناعية المرتبطة بالتطور المعرفي وبتصنيع وسائل مساعدة في العمل الحقلي الزراعي كما فتحت الباب واسعا للفعل الثقافي، في الفترة الآكدية التي حلت ببلاد ما بين النهرين ارتفعت راية الثقافة من خلال إنجازات عديدة استندت الى اكتشاف قوانين الكتابة السومرية وتم وضع قواعد صحيحة في مجالات الأدب والفنون والشعائر الدينية والقانون والعلوم، كان المجتمع بشكل عام يساهم في تلك النشاطات ويعززها ويدفع بعجلة التطور إلى الأمام، كما ان المعابد هي الأخرى قدمت دعما مباشرا في تلك المجالات المختلفة، كل ذلك ساهم في تطور القرية لتصبح النموذج الجديد للمدينة الحديثة في العالم القديم، ذاك العامل انعكس على حالة الثراء التي بات ينعم بها الفرد في المدن القديمة، كما عزز ذلك الاختراعات التي ابتكرت لاحقا والتجارب وتعزيز نمو المدن والمجتمعات فيها من خلال ظهور أساليب التنظيم والعمران وتأسيس مراكز الحكم والقيادة، كانت تلك الخطوات بمثابة المفتاح للأنتقال إلى عصور متطورة وثقافات أكثر حداثة، أن فجر التأسيس الحضاري والثقافي والعمراني وحالة التمييز للفعل البشري المتمدن حيث بدأت في تلك المرحلة تكوين فكرة " وحدة

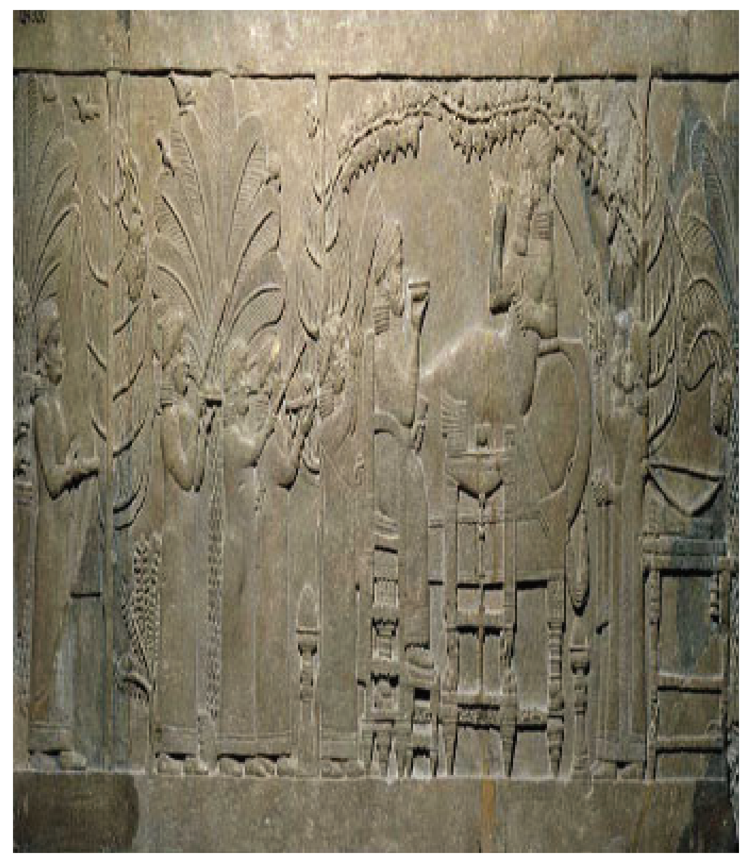
الحضارة "، أنتقل بعد ذلك التأثير إلى التكوين الفرعوني وأيضا الروماني ومواقع حضارية كونية أخرى في فترة تمتد إلى 7000 سنة قبل الميلاد، كانت مظاهر الصناعة تتمحور حول تهيئة وتحقيق أولى متطلبات الحياة، لذا ظهر إهتمام الإنسان في تلك المرحلة بصناعة أدوات الطهي من الطين المفخور أو استخدام أغصان الأشجار القوية أو نحت الحجارة لإيجاد ما يضاهي قدور وأواني الطبخ الحالية أو الملاعق والسكاكين أو أواني التخزين للطعام أو تجفيف الخضار واللحوم.



كذلك معدات الزراعة مثل المحراث والعجلة أو الأختام والألواح ومن ثم تطورت الأبتكارات لصناعة الزوارق ومعدات الحرب للجيوش وأيضا الأسلحة وصولا إلى سفن التجارة وأساطيل البحر الحربية، معظم تلك الصناعات كانت

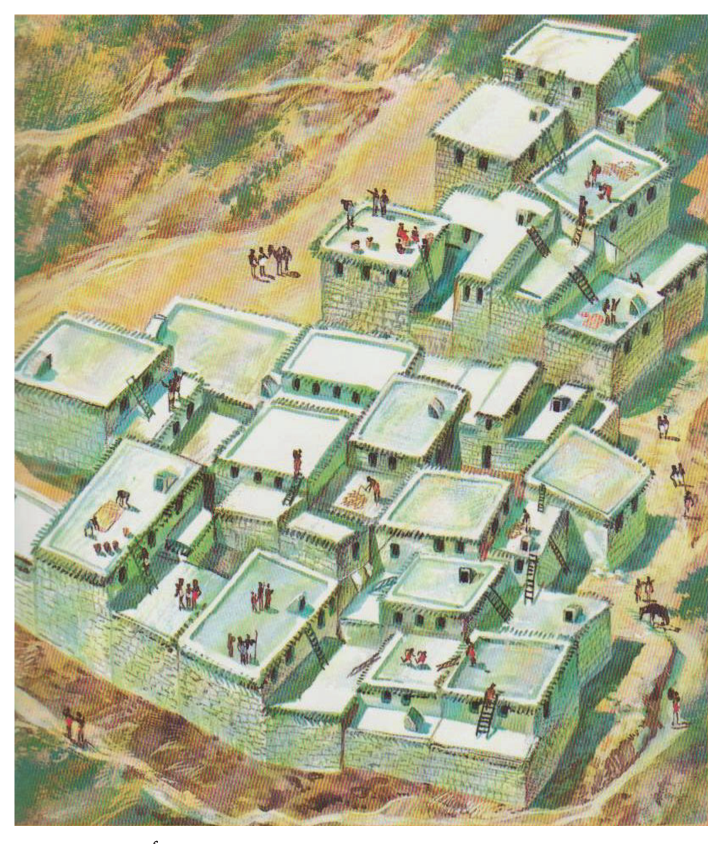
تنجز بالعمل اليدوي الفردي أو الجمعي لم تكن هناك مصانع كما هي الحال في الزمن المعاصر أو وجود معدات تقنية، في مجال صناعة أواني الطبخ مثلا كانت الأشكال التي يتم أعدادها من الطين توضع في أفران خاصة لها درجة حرارة عالية ومنها يستخرج الشكل المعد للإستخدام، البعض منها كما كشفت التنقيبات كانت مزينة بالرسوم او النقوش بألوان، في كل فترة من تلك الفترات التي تلت البدايات كانت تلك الأواني تتخذ أشكالا متطورة أكثر من سابقاتها في شكلها وألوانها وأحجامها، النماذج التي عثر عليها في مواقع مختلفة من المدن القديمة كشفت عن حالة من التطور الفني والثقافي وأيضا التقني، ميزت تلك النماذج بشكل واضح فيها مستوى التفكير العلمي العقلي، وكذلك بداية ظهور التفكير التجاري والوعي بمتطلبات المجتمع الاستهلاكي أنذاك، ربما ان كميات كبيرة كانت تصنع لغرض التبادل التجاري، من تلك الآثار في هذا المجال النماذج التي عثر عليها في موقع " تل حسونة " بالقرب من مدينة " سامراء " وتعود تلك الآثار الى فترة سبقت 6000 سنة قبل الميلاد، كما عثر على نماذج مشابهة في موقع " شطل هيوك –catal huyuk " في تركيا، وهي تعود لفترة 6000 سنة قبل الميلاد تقريبا، حيث وجدت لوحات أو رسوم أونقوش على الحيطان في بعض الكهوف أو أماكن السكن، مثلت تلك الرسوم رؤوس ثيران منحوتة في حيطان تم بنائها من الجبس وهي تشير إلى مجتمع زراعي له أشكال صناعية بسيطة، وهكذا نجد ان بدايات التطور استندت على الزراعة ورافقتها خطوات تدجين الحيوانات البرية ومباشرة المظاهر الأولى لظهور الصناعة والنظر بجدية للدخول إلى تلمس خطوات الحياة الأقتصادية من خلال الناتج الزراعي والمنتوج الصناعي الأول، تمكن الإنسان الكوني البدائي من تطويع البيئة لصالحه – وكما ذكرت – في مجال استثمار النباتات البرية وتطوير زراعتها وتدجين قسم كبير من

حيوانات البيئة البرية واستخدام بعضها في معاضدة الزراعة وتطوير شؤون الحياة الأخرى.



كما نجح الإنسان القديم في السيطرة على أستثمار المياه والسيطرة عليها وعلى أخطار الفيضانات ومدّ رقعة الزراعة وإصلاح الكثير من الأراضي البور، كما تم إيصال المياه إلى أراضي بعيدة عن شواطيء الأنهار " دجلة والفرات " في مناطق كبيرة من أرض سوريا والعراق، الحياة في الكهوف والأنتقال إلى تكوين القرية، تلك كانت هي البداية في التشكيل الحضاري تلك الإنتقالة ساهمت كثيرا في رفع منهاج التطور الحضاري والثقافي والعلمي والصناعي التجاري، تلك

فتحت المجال لظهور المـدن في تلـك الرقعـة المتوحـدة، بعـض القـرى في منـاطق مـن أرض العراق وسوريا كما كشفت عنهـا التنقيبـات كانـت تتخـذ في بنائهـا الشـكل الـدائري وقـد أحيطـت بحيطـان دائريـة تمثـل اسـوار للتحصـين والحمايـة وذاك يـؤشر الى حالـة وجـود صراعات مسلحة بين بعض تلك القرى ويؤكد ان حالة الحـرب والاسـتيلاء كانـت جـزء مـن حرب تدور بشكل مستمر أحيانا لتحقيق السيطرة أو المغانم، ولكن أيضا كانت ثمـة ألـواح عثر عليها في مدافن " سومر " أكدت ان حالة السلام كانـت شـائعة تقريبـا، في تلـك القـرى التي تتكون من بيوت بنيت من الطين لها عدة غرف تتجمع حول فناء مفتوح وفي الغالـب الحيطان الداخلية تم تزيينها بالصور والنقوش أو الكتابات المسمارية، في مدينـة " أريحـا " مثلا اكتشف علماء الآثار جماجم بشرية من تلك التـي أزيلـت مـن الأجسـاد، وكانـت قـد فقدت الفك الأوطأ، تلك الجماجم كانت تعود الى 7000 قبل الميلاد، وهي تمثل قطـاع عـام من الناس في تلك المجتمعـات، تتحـدث الأبحـاث مـثلا عـن قريـة " شـيطل هيـوك catal huyuk " التي تم بنائها من قبل الإنسان القديم فوق أرض هضبة الأناضول وكشفت فيهـا عمليات التنقيب عن وجود طبقات تكونت فوق الموقـع الـذي يعـود تاريخـه إلى مـا قبـل 7000 سنة قبل الميلاد، توصف القريـة عـلى أنهـا مقسـمة إلى أربـاع متميـزة كـل منهـا لـه ساحته الخاصة، كانت البيوت في مستويات مختلفة وظهر كل بيت ملتصق بالبيت المجاور ولها شرفات تظهر من بناء سطح كل بيت، ربطت من خلال سلالم خشبية، البنايات الكبيرة كانت تتوسط الساحات المتروكة على الأغلب هي مخصصة للعبادة كما وجدت لوحات مـا تزال تزين الجدران تتعلق بأمور وتعاليم العبادة أنذاك.



مثلا كشفت إحدى اللوحات الفنية عن تكوين يمثل فكرة أسطورية تتضمن رؤوس ثيران منحوتة على الجدران وتعقبها مشاهد تدور في أرض ممتدة، ربما ذلك يشير إلى دور الثيران في عملية الإنتاج الزراعي، تلك دفنت تحت جدران البيوت وهي ذات أبعاد حقيقية مصنوعة من الحجارة والطين كما وجدت تماثيل تشير إلى الآلهة "hacilar " ربما هي تسجل نوعا من المعتقدات الدينية، تلك التماثيل لها مردودها فهي تحشد الإنسان القديم حول أهداف وأفكار مثل العقاب والنماء والخصب وتقدم وصايا لتنظيم الحياة في الوسط العائلي والقروي والمجتمعات الأوسع، تلك الطقوس كانت تشد اهتمام السكان في تلك المجتمعات وهي بمثابة دليل وعي وتنظيم مبكر وقد تم الاهتداء إليها من

خلال الحاجة أو الرغبة في الحصول على الأطمئنان في القضية الصناعية، تشير مصادر الى استخدام النحاس لآول مرة في العام 5000 سنة قبل الميلاد، استعمل كمادة خام دخلت في بداية الأمر في تصنيع الأواني والأدوات الصغيرة، حدث فجر ذلك التصنيع وفق حالة نقاء واختيار للموضوعات وطرق الاستخدام، كانت تلك العمليات تتم من خلال تذويب النحاس في أفران خاصة ويسكب ويصنع وفق الحاجة أو الطلب، وهكذا كانت بداية مزج النحاس كمادة استخدمت في الخزف والمصنوعات النحاسية من تلك النماذج التي تعود إلى فترة ما قبل 6000 سنة قبل الميلاد والتي عثر عليها في موقع " تل حسونة " وتعود تلك النماذج إلى الفترة السومرية بطبيعة الحال، كانت قد تم تصنيعها في أفران أعدت لاستخدام فخر الطين المخصص لكتابة الألواح السومرية، العمال المهرة الأوائل الذين أطلعوا على مهنة الحدادة والصهر والتعدين وعمل النماذج الفنية المختلفة، مع مرور الزمن وتراكم الإنجاز صارت لديهم الخبرة في تصنيع منتجاتهم وأيضا أبتكروا النماذج الجميلة التي استخدمت في المطبخ والطعام مثل القدور النحاسية والأواني والسكاكين وأشياء أخرى، تلك الإنجازات المبكرة الأولى شكلت قفزة كبيرة لدى المستوطنات الزراعية الصغيرة وطبعت حضارة المدن الأولى بطابع حضاري مميز جمع بين الفن والتصنيع، تدل نتائج عمليات البحث في المواقع الحضارية داخل حدود العراق وسوريا عن تشابه النماذج وتوحد الأفكار والتواصل في الإبداع وتكامل مواصفات الإنجاز الحضاري وكذلك الإستخدام الواسع لتصنيع الدمى التي تحاكي البشر والتي عثر عليها في موقع ضمن منطقة " أور " وجه بشري منحوت ومستخدم في ذلك النحت النحاس بما يقرب من تكوين لوحة ذات منظور فني تم تزيينها بقطع النحاس، كما تم تطعيم أنواع من الخزف في تلك الفترة بمادة النحاس، كما تم العثور على

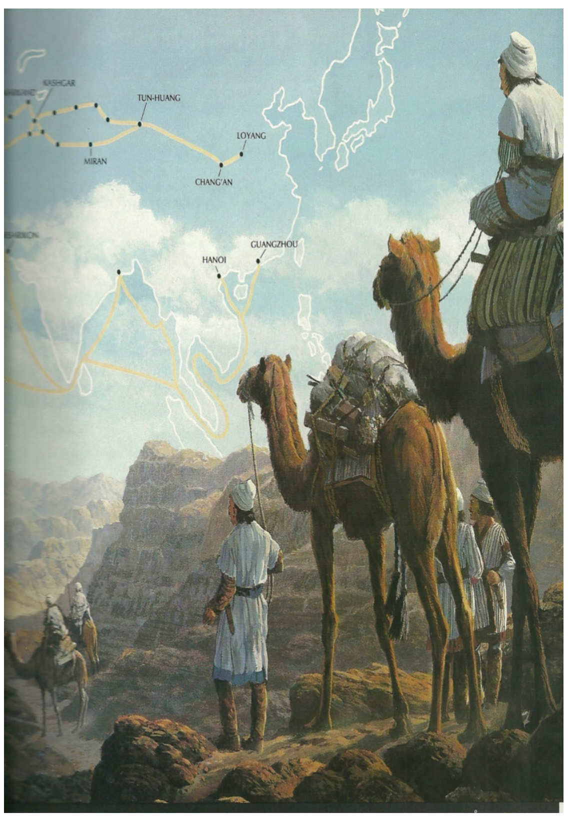
لوحات فيها أشكال الناس في مقطع من حقل وهم يذرون حبوب الحنطة لعزلها عن قشورها خلال رميها الى الاعلى ليفصلها الهواء وتقع فوق حصران محاكة من سعف النخيل كما يبدو في الخلفية قطيع من الخنازير وهو يعود من الحقول البعيدة..

التواصل الحضاري والثقافي والتجاري

لابد من تثبيت حقيقة تؤكد وجود اختلافات ثقافية وحضارية بين الإمبراطوريات الثلاثة التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين، ووجود تناقضات قادت في فواصل زمنية إلى حروب كما هي الحال بين الإمبراطوريتين البابلية – الآشورية، كان شعب " سومر " يعلم تماما ان بحيرة " النفط " موجودة تحت أقدامه – وأنا الباحث الأول في العالم كله – أثبت هذه الملاحظة، لقد تمكن ذاك الشعب من الأهتداء إلى إحدى مكونات النفط وأيضا نجح في استخدامه بشكل متميز، وأقصد " القار – الزفت " تمكن من استخراجه ومزجه مع مكونات أخرى واستخدمه في مجالات عديدة ليس فقط في مجال العمارة والبناء وتغليف جدران الحمامات ةخزانات حفظ المياه الكبيرة وطلاء القوارب والمراكب والسفن – وكانت تصدر الى بقاع بعيدة وقريبة من العالم ولكن الاستعمال الاذكى له كانت في مجال تبليط الطرق التجارية والداخلية، بلاد ما بين النهرين غنية بالكثير من الثروات وهي تملك المخزون الكبير منها وبشكل خاص " القار " المادة المشتقة من النفط كما ثبتت تلك الحقيقة الألواح السومرية وكذلك اهتداء سكانها إلى استخدام الطين – نوعية خاصة – في الكتابة والتدوين ومن خلال شوي ذاك الطين تم حفظ المعلومات السياسية والقانونية والشؤون الاجتماعية والثقافية وجعلها خالدة بعيدا عن الإندثار من خلال تلك الأقراص – الألواح – الثمينة التي اهتدى من خلالها العالم الى فهم تفاصيل اساسية في حضارة وادي الرافدين

وفهم ما ترمز إليه تلك المعلومات المثبتة في الألواح، كانت إمبراطورية سومر عندما دخلت مرحلة البناء والتوسع في العمران قد ادركت حاجتها الماسة إلى مواد يجب استيرادها من خارج البلاد، في مقدمتها الأحجار والأخشاب والمعادن والنحاس، النحاس والحديد مثلا قد تم اكتشافهما في مناطق غرب إيران والقوقاز وإذر بيجان وأرمينيا، ولكن تلك البلدان كانت بعيدة وتطلب الأمر إقامة طرق للقوافل نحوها، ثم تم البحث عن أماكن بديلة تتوفر فيها تلك المواد منها المدن الفينيقية والأناضول ومصر، ظل استيراد الأحجار الكريمة مستمرا من منطقة " ماجان " في إيران، بينما كان يتم نقل الأخشاب من جبال زغروس وجبال الآرز في لبنان التي كانت تنقل عبر البحر، التجارة مع بلاد سومر كانت تسلك شبكة واسعة من الطرق التجارية كما توجد شبكة واسعة من الطرق تربط مختلف أجزاء بلاد ما بين النهرين ببعضها ومع مركز سومر، بينما بالنسبة للتجارة الخارجية كانت الطرق الأهم هي تلك التي تسلك طرق الملاحة النهرية باستخدام نهري " دجلة والفرات " التي تسير من الشمال للجنوب وبالعكس، كما كانت التجارة تستخدم المجاري المائية بين القرى والمدن، تعتبر مزايا تلك الطرق سهولة الحركة فيها على عكس العقبات التي توجد في الطرق البرية في فصل الشتاء عندما تسقط الأمطار الغزيرة تصبح غير سالكة بفعل تكون الوحول والمستنقعات ويتعذر استخدامها من قبل الحيوانات مثل الخيول والجمال والبغال التي كانت تجر العربات المحملة بالاثقال والبضائع، من تلك الطرق المهمة التي تنطلق خارج وادي الرافدين – الطريق المتجه غربا بإتجاه سوريا ومنها إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، هذه الطرق كانت تمتاز ببساطتها وأيضا بطولها فهي تجتاز مساحات شاسعة من الصحارى ولكنها كانت معبدة بشكل جيد وهي تنطلق من بوابات المدن المهمة مثل سومر – أور – سيبار – ماري – ابو كمال –

دير الزور– تدمر - حمص ويتشعب الى عـدة طـرق فرعيـة كلهـا تنتهـي في حضـن مـوانيء البحر المتوسط.



في بعض المواقع للطريق توجد مضافات توفر المياه والاعلاف والمبيت، ومن نينوى ينطلق طريق آخر يخترق منطقة الجزيرة من الشرق إلى العرب مارا بالعديـد مـن المـدن والمسـتوطنات مثل المدينـة المسـماة " كوزانـا – تـل حلـف الآن – وحـران - ثـم يعـبر نهـر الفـرات وصـولا الى مدينة " كركميش – جرابلس حاليا " ثـم يصـل إلى مدينـة " مسـكنة " ثـم الى مدينـة حلـب أو بالقرب منها وينتهي الطريق عنـد نهـر العـاصي ثـم يتشـعب الى عـدة طـرق تـؤدي إلى الأجـزاء الوسطى من أرض سوريا وصولا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، ومـن فروعـه المهمـة الفـرع

الذي يتجه نحو حافات الشمال الغربي ويتجه الى منطقة " كليكية " وأيضا الأجزاء الأخرى من المملكة الحثية المقصود " أرض الأناضول "، بالإضافة الى ذلك يوجد طريق آخر مهم ينطلق مدينة " نينوى – الموصل حاليا " يتجه إلى أرمينيا بمحاذاة نهر دجلة وصولا إلى ديار بكر، ثم يواصل مخترقا الجبال وصولا إلى مدينة طوروس وهو يجتاز مناطق جبلية ووديان سحيقة وعرة، تلك الطرق كانت تكثر فيها هجمات القبائل الهمجية على القوافل، ثبت العلماء حقيقة واحدة ومهمة تكشف حالة الاتصال القديمة لبلاد ما بين النهرين مع العالم المحيط بالإمبراطورية وتلخص القول بأن الطرق وحالة التواصل مع غرب الإمبراطورية كان أفضل وأقل خطرا، لانبساط الأرض ووجود المضافات والصحراء وامتداد نهر الفرات أحيانا، على عكس الطريق الذاهب نحو منطقة الشرق الذي يمر بمناطق جبلية وعرة وفيها أخطار كثيرة منها الهجمات التي تقوم بها القبائل الهمجية والقراصنة، حيث يمر الطريق وهو يجتاز جبال زغروس، وصولا لاختراق الحدود الشرقية والشمالية الشرقية المتاخمة لحدود وادي الرافدين، في اجتياز تلك المناطق تتواجد القبائل الجبلية التي تعيش في تلك الجبال داخل مغارات او ضمن تجمعات في سفوح الجبال، من تلك الممرات التي كانت تستخدمها القبائل " طريق ينطلق من منطقة – راوندوز- عند " رايات " وسلوك الممر الموجود في المنطقة " حلبجة " وهي منطقة جبلية تقع شرقي السليمانية وممر أخر يأتي من منطقة " خانقين " القريبة من السلاسل الجبلية، الممران الأولان أي " ممر رايات وحلبجة " يؤديان أيضا ألى المنطقة القريبة من بحيرة " أورومية " وأذربيجان، ويوجد ممر آخر عند قلعة ديزة، وهو الطريق الذي تذكر المصادر التاريخية أن الملك الآشوري " سرجون الثاني " الذي حكم من العام 721- 705 قبل الميلاد كان قد استخدمه في إحدى حملاته الحربية الشهيرة التي قام بها لإخضاع بلاد " أرمينية - وأذربيجان "، وأيضا

يوجد طريق ينطلق من مدينة " خانقين " يذهب باتجاه مدينتي " كرمنشاه وهمذان – في إيران ".



كما يوجد طريق آخر مشهور يربط بلاد سومر بالمناطق الشرقية في مملكة " عيلام – الاحواز – عربستان – حاليا "، هذا الطريق ينطلق من منطقة " بدرة وجصان " ويمر بالقرب من سفوح جبال زغروس وصولا إلى منطقة " سوسة " التي كانت عاصمة بلاد عيلام، هذا الطريق رغم ابتعاده عن السلاسل الجبلية الوعرة الا انه يعتبر طريقا خطر أو حربيا نظر لحالة الخلاف والعداء المستمرة بين بلاد سومر وعيلام وكثيرا ما استخدمته الجيوش السومرية لتنفيذ الحملات الحربية ضد مملكة عيلام، وهناك طرق اخرى فرعية منها الطرق النهرية عبر الأهوار وأيضا الاتصالات بواسطة طرق تربط مملكة عيلام بالعمارة والكوت والبصرة، أو سلوك نهر الكرخة أو الكارون أو نهر العظيم من ديالى، أيضا هناك الطرق البحرية والنهرية وهي لا تقل أهمية عن الطرق البرية لاسيما الطرق البحرية

التي تنطلق من ميناء أور البحري نحو الهند والأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية عبر الخليج الذي كان السومريون يطلقون عليه لقب البحر الأسفل، وهو المنفذ البحري الوحيد، تثبت النصوص المسمارية معلومات تتحدث عن مرحلة 2500 سنة قبل الميلاد، عن وجود علاقات تجارية وسياسية بين سومر وجميع المدن المنتشرة على سواحل الخليج، ومن أشعر تلك المدن التي ذكرتها الألواح السومرية عُمان – دلمون – فالي – الحبشة – وادي السند، عثر في العديد من تلك المناطق على قطع من العملة السومرية والاختام والألواح وبعض التماثيل، الألواح كانت تحمل نماذج من الكتابات السومرية التي تتعلق بالعبادات والاناشيد الدينية، كذلك وثائق لمعاملات تجارية – بيع وشراء – خاصة في مناطق السواحل الخليجية لمنطقة الجزيرة العربية وفالي في الهند التي كانت بينها وبين سومر صلات تجارية تأسست في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، في السنوات الأخيرة من القرن الماضي عثر في المناطق المذكورة على الكثير من الآثار " في فالي – فيلكا – دلمون – عُمان – المنطقة الشرقية من السعودية – قطر – الامارات " وهذا يؤكد وجود العلاقات التجارية والثقافية والتواجد من قبل سلطة ميزابوتاميا، وكذلك تم العثور على تلك الآثار في شرق إيران وباكستان يعود تاريخها للألف الخامس قبل الميلاد، تلك الآثار كشفت عن ثقافات محلية مشابهة وقد اهتمت الى حد كبير في محاكاة نظام الألواح والتماثيل، في فترات لاحقة كانت المراكب والسفن تبحر من الموانيء السومرية وهي تنقل الجنود أيضا لتعزيز الحملات الحربية لتحقيق الغزو أو السيطرة حيث كانت الحروب متواصلة، في جانب الصلات الديبلوماسية كانت سومر توجه السفراء الذين يتم اعتمادهم إلى الدول والممالك لتثبيت العلاقات مع الإمبراطورية السومرية، في عام 2200 قبل الميلاد نجد إشارة تؤكد ان الإمبراطورية السومرية القوية سعت

لتكون مدينة دلمون – البحرين حاليا – مينائها، كما مدت سيطرتها على منطقة " ماجان – عُمان " وأثرت في مناطق أخرى اقتصاديا وسياسيا – كانت الحضارة السومرية توفر المناخ الإيجابي لتطور ونشوء الحضارة في مناطق أخرى من تلك التي مدت سيطرتها عليها وتخلق لها الظروف المشابهة ونقل تجاربها مع أنها لاتفرض تقاليدها أو أفكارها المتزمنة على الشعوب التي صارت خاضعة لها – وهذا عكس تقاليد الاستعمار السائد حاليا، ان وجود النهرين العظيمين " دجلة والفرات " وفروع عديدة أخرى عملت على تكوين " الوادي الخصيب " المنتج الثري جدا مع ان أخطار في مجال الفيضانات كبيرة وقاسية للغاية الا انها تمثل رمزا وعاملا أكيدا في الرخاء من خلال نجاح وتطور الزراعة على نطاق واسع وكذلك الدخول الى بوابة التصنيع من خلال استخدام التجارة في نقل الأخشاب والصخور والمعادن الآخرى مثل الحديد والنحاس، ورغم إحاطة البلاد بالصحاري الشاسعة الممتدة شرقا وغربا إلا ان سومر تمكن شعبها بذكاء وقوة من ترويض تلك المناطق وتحقيق أفكار الحضارة والتطور بالرغم من صعوبة عبور التضاريس الجغرافية واستحالة مدّ طرق المواصلات وصولا إلى البحر الأبيض المتوسط الذي كان هدفا ستراتيجيا لشعب سومر واتخاذه بوابة واسعة إلى العالم البعيد، ذلك يعني ضمن تلك المرحلة قطع مسافة تتجاوز خمس مئات الأميال نحو مناطق في أرض نجد – السعودية حاليا ومناطق في إيران، يعتبر السهل الرسوبي متفردا بتضاريسه عما يحيط به من جبال وصحارى ومناطق شبه جبلية، ان الرخاء الذي ساد في إمبراطورية " سومر " أنعكس بشكل مباشر على عوامل بناء الحضارة وأثر كثيرا في سجل وتطور الحضارات اللاحقة مثل " الفرعونية – البابلية - الآشورية – الإغريقية " ان جهود كبيرة بذلت من قبل الشعب السومري لترويض الطبيعة القاسية وتغيير نمط الحياة في المدن والممالك

المجاورة القريبة وتلك البعيدة، ومن فصول ذاك الكفاح المتواصل تكونت صورة الحضارة التي لا يمكن ان ندخل لنقلب سجلات الحضارات اللاحقة دون ان نجد الارتباط بها ومحاولة تقليدها ومجاراة انجازها وبذلك ندرك حجم التأثير في تلك الحضارات التي تكونت شرقا وغربا...!

الثقافة السومرية وقوة التأثير

المتتبع لتاريخ حضارة " بلاد ما بين النهرين " يجد نشوء ثقافة سبقت ظهور سومر تعود إلى فترة العبيد وتلك مرحلة مرت بعدة حالات عدة خلال قرون من الزمن المتداخل واستمرت لمدة طويلة في التجديد والابتكار منذ بدايتها ولغاية العام 2000 قبل الميلاد.



The walls of Habuba-Kabira (Syria). The great Urukian cities were surrounded by walls that
rriers between a secure society and a hostile world. *Above:* The temple of Tell Uqair, like
ant sites, had a great, richly decorated building built on top of a high terrace. These were either
e houses of community leaders.

RUK CULTURE: THE BIRTH OF CITIES

ture of Uruk-Gemdet Nasr (see map was thriving by 3000 B.C. It was om the Obeidian culture of southern nia. The most ancient periods of re, ancient and middle Uruk, are rstood, but the signs of social change dy apparent. Painted pottery gave v undecorated forms. Perhaps paint- considered a waste of time in an ncreasingly concerned with produc- nore probably, the disappearance of cial values was accompanied by the nce of those patterns that were their Burial customs also changed. Prac- h had been standard before were replaced by more varied customs, and burial objects began to reflect the social status of the dead. Unfortunately, these bits of evidence are scarce. Even when information available from the earliest periods is compared with evidence from later periods (such as Uruk and Gemdet Nasr), the causes of such changes remain uncertain.

The Aristocracy

In this epoch, southern Mesopotamia was broken into small kingdoms, each with at least one city of great size. These cities were protected by walls and governed by aristocratic dynasties. Rich and powerful, this elite class lived in luxury, commissioning finely crafted precious objects from artisans and organizing great banquets. The remains of such occasions have been found in heaps of crude clay pottery, mass-produced for the banquet. This aristocratic group also built

The Alphabet

This ancient clay tablet is from Gemdet Nasr. An increasingly complex economy called for a system of record-keeping. The people of Uruk invented a writing system. Simple sales records from about 3000 B.C. are the earliest evidence of this alphabet. Although the workers who made the records understood them, the script has not been deciphered. The writing system was not able to record all the details of the spoken language. Some of the signs scratched into the clay with a stylus are drawings of recognizable objects. Others are figures that undoubtedly are symbolic.

ظهرت حضارة سومر واتخذت أشكالها والأعمدة التي صنعت منهـا، تلـك القواعـد والأسس جعلتها ترتفع وتستمر بشـكل قـوي ومـؤثر في جميـع المنـاطق المجـاورة لسـومر، ظلت تلك الثقافة فاعلة في كافة الأنحاء التابعة لسومر وصـولا إلى الألفيـة الخامسـة قبـل الميلاد، ولكن سجل تلك الحضـارة في الواقـع لم يكشـف الكثـير عنـه لحـد الآن ماعـدا ذاك المرتبط بمراحله الأخيرة، وصلت تأثيرات حضارة تـل العبيـد إلى أرض سـوريا شـمالا، ولكـن تلك تكونت في الأنحاء الجنوبية من سومر وأرض مابين النهرين كانـت هـي الأكـثر ابـداعا وتأثيرا وبقاءا، منذ التحريات التي حصلت بـين العـامين 1927-1927 في العـراق – منطقـة أور التاريخية – لم تنشر او تحصل اكتشافات جديـدة في المنطقـة التـي تحمـل اسـم " تـل العبيد – والمعنى يدل على تصغير مسمى عبد " التنقيبات أنـذاك كشـفت عـن نوعـا مـن الفخار الملون وهو يعتبر النمـوذج الاقـدم الـذي يـدل عـلى حضـارة ناتجـة عـن اسـتيطان مجموعات بشرية في تلك المنطقـة مـن السـهل الرسـوبي في جنـوب العـراق، حيـث أطلـق العلماء حسب التصنيف الحضاري للأدوار التي مرت بها الحضارة اسم " دور تـل العبيـد " نسبة الى تل يوجد في تلك المنطقة، وفي العام اللاحق اقصد 1927 اكتشفت بعثة التنقيـب المشار إليها أنواع أخرى من الفخار تطابقت مع نمـاذج مشـابهة لهـا تـم العثـور عليهـا في مناطق أخرى من أرض بلاد ما بين النهرين، أيضـا نشرت الجهـات التـي تشرف عـلى عمـل فرق التنقيـب في العـراق بـين العـامين 1946 – 1949 في منطقـة " أبـو شـهرين "- أريـدو القديمة حيث وجدت أنواعا جديدة من الفخار في تلك المنطقة اعتـبرت هـي الأقـدم وقـد سبق ان عثرت فرقة تنقيب ألمانية في نفـس المنطقـة أثنـاء التنقيـب بـين العـامين 1935 – 1937 في مدينة الوركاء وقـد اطلقـت البعثـة عـلى الـنماذج الفخاريـة التـي عـثرت عليهـا واطلقت عليها الفخار الفخار المستخرج من موقع " قلعة حاج محمد " وهو الموقع الـذي يقع على ضفة نهـر الفـرات كـما اكتشـفت في العـام 1960 فخـار مشـابه في موقـع " راس

العمية – بالقرب من كيش " وبموجب تلك الاكتشافات حدد علماء الآثار الأدوار التي مرت بها الحضارة في " تل العبيد بأربعة أدوار وسميت " طور أريدو وطور حاج محمد ودور العبيد القديم ثم دور العبيد المتأخر، وهي انتقالات حضارية بين العصر الحجري إلى العصر المعدني الوسيط وصولا ألى عصر الوركاء، كان الموقف الحضاري الذي حققته " أريدو – ابو شهرين " توصف المدينة على أنها رملية وهي امتداد للصحراء المتصلة بصحراء نجد، فيها بقايا مهمة من الحضارة السومرية مثل حدودها القديمة من خلال مرتفعات تغطيها الرمال كما يوجد جزء من بقايا برج يشار إليه بأنه الزقورة القديمة، شيد بالحجر المفخور في العام 2100 ضمن عصر سلالة أور الثالثة وجدت اختام على الطابوق تحمل أسماء ملوك تلك السلالة، تعتبر مدينة أريدو موقعا دينيا في العالم القديم فهي مركز عبادة الآله " أنكي – أله الحكمة والمعرفة وفي الآداب والأساطير السومرية يشار إليه أيضا بأنه أله المياه:

فقط- أنكي الذكي،
وقف أمام ألأم " نينتو،
سكب الماء من قضيبه في الأنهار،
جعل المجاري كلها تغرق بالفيض،
و عندما سخن رحم الأرض،
انبعث القصب والبردي،
صار لها غطاءا يسترها،
وبدأت دورة الزمن..

في مواقع عديدة تواصل نشوء الحضارة وظهرت مدن مثل " لجش – الوركاء " وغيرها، تلك المواقع الحضارية انطفأت وتدهور وضع الحضارة فيها، حيث تصاعدت وتيرة الهجمات العدائية من المواقع المجاورة وخاصة من مملكة " عيلام " حيث كانت في تنافس مع الحالة الأصلية تلك للحصول عليها أو سرقتها أو تدميرها أو تقليدها، كانت تربة بلاد الرافدين القسم الجنوبي خصبة لنمو وتطور تلك الثقافات وأيضا لتواصل المنجز الحضاري، ثمة حقيقة واضحة ان حضارة " تل العبيد " توسعت شرقا وغربا في المناطق المجاورة وهي قد انطلقت من الأصول الصحيحة التي نشأت في الأرض المحصورة بين النهرين العظيمين" دجلة والفرات " وصار التطور الحضاري يدور داخل الموقع الحضاري الكوني الأول ومن علامات تلك الحضارة وفعلها ترويض الأرض والمياه والبيئة والإنبات والدخول في مراحل التطور الحضاري والثقافي وفق رؤيا محسوبة بدقة وبشكل مؤثر، كان من أول تلك الخطوات فرز ووضع أرشيف لزراعة الحبوب البرية التي اهتدى الى اكتشافها عملا مهما لدخول العصر الزراعي الذي تطلب توظيف العقل والبحث عن المعرفة وتطوير حلقات الثقافة والفن، معظم تلك العوامل ساهمت بوضع خطوات الإنسان السومري في الإتجاه الصحيح حيث وجد من الضروري الإهتداء إلى تخزين طعامه وتمكن من إيجاد طريقة لتخزين الحبوب الفائضة عن إنتاجه الزراعي الموسمي للاستفادة منها في الفصول الأخرى التي تكون الزراعة فيها غير مجدية وخاصة في فصل الشتاء، على أية حال لم يعثر في التنقيبات على معلومات تفيد أو تشير إلى تقنيات تم استخدامها من قبل شعب سومر في الزراعة، اغلب المعلومات ترتبط بطرق الزراعة البدائية، ولكن ثمة الواح مكتوبة بالخط المسماري تشير إلى استعمال الحيوانات المدجنة في مجال الزراعة والحراثة وتلك كانت مهمة خصوصا الخنازير والخيول والثيران

والبغال والأبقار، هو في العالب استخدم كل الحيوانات التي تمكن من تدجينها مثلا في منطقة الشمال العراقي الجبلية استخدم العنز الجبلي والبغال والخراف، تذكر الألواح التي تم ترجمتها إن الإنسان السومري تمكن من تطوير أنظمة لصيد الأسماك والطيور في منطقة السهل الرسوبي حيث الأهوار.



كما تمكنوا بشكل عبقري من إيجاد طريقة مضمونة لحفظ سجلاتهم وثقافتهم وشرائعهم وكل ماكان يحيط حياتهم من خلال استخدام الطين والكتابة عليه ومن ثم وضعه في الأفران، وجدوا ان الطين هو أفضل مادة وهبتها الطبيعة لهم للكتابة، كما كان هو الأفضل أيضا في مجال البناء، و تقاسمه المشهد مع أعواد القصب وجذوع النخيل والسعف، كما استخدم أيضا في تصنيع أدوات أخرى تستعمل في مجالات الحياة الأخرى العادية، كانت تنجز وفق أشكال هندسية، مثلا في مجال صيد الأسماك في الأنهار والمستنقعات كانوا يستخدمون " الفالة " أو ما يسمى لدى بعض الشعوب حاليا برمح صيد السمك، كذلك

أدوات تم تصنيعها للزراعة والحصاد، كما استخدموا الخرز الملونة في ملابسهم وأيضا للزينة وهي تصنع من الطين أو الحجر، ومن الطين أيضا قاموا بصناعة التماثيل منها للديكورات المنزلية وللعبادة توضع في المعابد وقصور الملوك، من اجل ذلك كانوا يتحركون في رحلات بحث عن مواد لا توجد لديهم بهدف نقلها من مواطنها واستخدامها صناعيا أو لتشييد العمارة أو لتحسين البيئة وتلك غالبا تكون موادا نادرة جدا في بلاد سومر، كان نقلها يتطلب القوافل أو السفن..

بيوت سكان سومر

كل قرى " تل العبيد " التي اكتشفت خلال التنقيب والبحث الآثاري على أرض بلاد ما بين النهرين، في المدن المركزية لسومر أو في المناطق الشمالية، كل قرية تضمنت تشكيلات معمارية، كشفت عن عدد محدود من المساكن المستقلة، وكل مسكن يشبه المسكن الآخر، أي أن التصميم في البناء يتكرر والتصميم يبدو كبيرا بما فيه الكفاية لكي يتحمل سكن عدد عشرة أشخاص وذلك على نقيض البيوت التي شيدت في مناطق الجنوب أقصد في أريدو ومواقع أخرى، وكانت كما سبق الإشارة ان تلك البيوت ذات حيطان تزينها الرسوم والنقوش والتماثيل، وقد ظل استخدام تلك البيوت قائما لغاية ربع قرن من السنوات، كما كان الحال في بناء وتصميم المعابد، البقايا الوحيدة التي وصلت إلى العصر الحديث هي صور أو نماذج تكشف عن حالة الطقس الديني حيث وجدت بعض التماثيل الصغيرة لاشكال حيوانية وبشرية، تلك تخبرنا عن مراسيم الدفن وذاك عزز موضوع الثقافة وكشف صورة الطقس المتعلق بالموت والدفن والصلوات، كان أغلب البالغين في الأعمار قد دفنوا في قبور بالقرب من بيوتهم، كما وجد داخل بيوت " تل العبيد " خاصة البيوت التي وجدت في مناطق " hamrin" كانت

فكرة البناء تقوم تنفيذ مخطط البناء حيث البيت يتكون من ثلاثة أقسام متميـزة، القسـم الأول خصص ليكون بمثابة مكانا للطبخ، ثم مكان مخصص للنساء – وكانـت تُطـلي بـاللون الوردي والأخضر، كما كان ثمة مدخل للبيت يؤدي إلى الغرف المرتبطة بهـا ويشـكل إتصـالا بالسقف، وهناك غرفة مخصصة للخدم، بينما الغرفة المركزية الكبـيرة لها موقـد نـار كبـير يستعمل للتدفئة أيام البرد، كما يوجد خـارج هـذه الغرفـة الكبـيرة- غرفـة قلـب البيـت – وهي منطقة تستعمل للترحيـب بالضـيوف وتتصـل بـالممر مـع بقيـة أجـزاء البيـت وهـي منطقة اجتماع لكل فرد من العائلة حيث يتم فيهـا مناقشـة النشـاطات اليوميـة أو إتخـاذ النشاطات اليومية أو إتخاذ النشاطات في الأيام القادمة، حيطـان البيـوت في مدينـة أوروك ومدن أخرى في سوريا كانت متشابهة وقد أخذ بالاعتبار عند تشييدها توفير جانب الرعاية والأمان والدفاع عن هجوم الأعداء، كما كانت مباني المعابد التي كانت تشييد بشكل فخـم ويتم تزيينها بالرسـوم والنقـوش وتكـون عـلى أرض مرتفعـة وحولهـا تكـون بيـوت زعـماء الجاليات أو المناطق كما هي الحال في معبد " telluqair "..

ولادة المدن في سومر

من مرحلة أوروك- جمدت نصر – نجد ان خريطة ظهور المدن القديمة قد إزدهرت وفق مفاهيم العمران القديم اي قبل حوالي 3000 سنة قبل الميلاد وفيهـا تـأثيرات ثقافـة " العبيديون " من مناطق جنوب ما بين الرافدين، تلك الفترات القديمة من تلـك المـدن التـي وشمت تاريخ تلك الأمكنة على الخريطة القديمة كانت تلك الفترات القديمة قد حملـت في طياتها التعبير عن التغيير الحضاري الكبير في كل جوانب الثقافة والمعرفة ومنها طبعـا بنـاء وتخطيط المدن تلك قـادت بـالضرورة إلى تغيـير اجتماعـي معـرفي حضـاري، ومـن ذاك مـا تحدثت عنه في مجال الكتابة والفخـار والتصـنيع والزراعـة واسـتخدام الخطـوط والرسـوم

والألوان في إنتاج الفخاريات، كان يصرف عليها الكثير من الوقت لانها عبارة عن نتاج يدوي – بصري – بعيدا عن التجميع الصناعي حيث لم تكن هناك مصانع تنتج تلك المصنوعات، من المحتمل ان تلك المصنوعات اليدوية قد صرف من أجلها اهتمام كبير ولكنها وضعت أنماط للخبرة وجعلتها مع تقادم الزمن تكبر وتجعل الإنتاج يسير إلى وضع أفضل، تخلصت تلك الصناعة من محاولات التجريب ووصلت إلى حالة وضع أسس وتقاليد، أن ذاك المجتمع القديم كان في حالة تحول وتقدم إلى الأمام وحالة التجريب ظلت متواصلة، نجد في ترجمة الألواح المتعلقة بسجل الموتى في سومر القديمة والتي كانت تجري وفق معايير ومقاييس تستبدل القديم وتختار تقاليد مستدثة وفيها جانب من الأختلاف مع ان دفن الموتى يظل حالة واحدة وفعل يفضي إلى دفن الأجساد، ولكنهم اعتمدوا في ذلك المركز والحالة الاجتماعية، لم تترك الألواح السومرية إلا القليل من المعلومات حول ذلك، لقد توفرت بعض الوثائق عن الفترة التي سبقت فترة " أوروك – جمدت نصر " ولكن أسباب التغييرات لم تكن واضحة، ربما تكشف التنقيبات في الزمن القادم عن تلك الأسباب..

الظهور الارستقراطي

تطورت بلاد مابين النهرين في تلك الفترة وتمكنت من اقتحام ممالك صغيرة والعمل على ضمها وتوحيدها – كانت تلك لها أقل التقديرات المتوفرة لتصبح مدينة واحدة عظيمة وجدت في الألواح الكثير من الإشارات حولها، تلك المدن كانت محمية بجدران متينة وبحراسات كثيفة ولها قوات منتظمة، تعاقب على حكمها سلالات ارستقراطية من الملوك، كلهم تميزوا بالحكمة والقوة وبحسن الإدارة كذلك مواصلة الفتوحات – منح إنسان سومر كل الفرص للإبداع والعمل وتحقيق رفاهية الحياة.

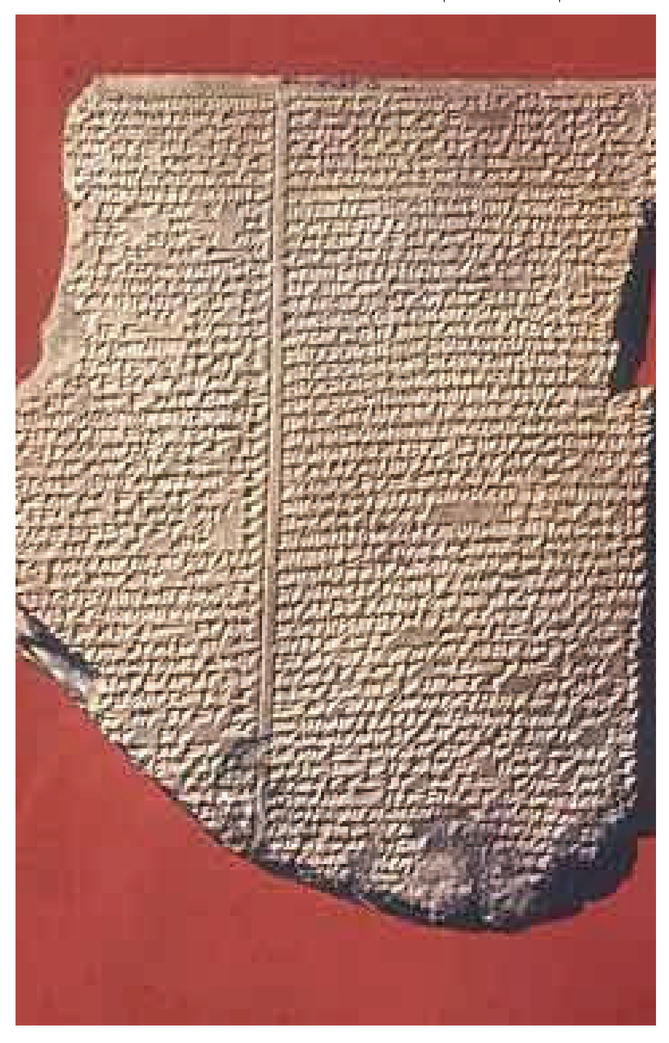


هذا الصنف من الملوك والحكام عاش حياة مرفهة، له اجساد قوية من الجند والحراس تتابعه وتقدم له الحماية وله منظومة من المستشارين والاتباع والصناع وقد تم تخليد بعضهم من خلال التماثيل رائعة ثمينة مصنوعة من افخر المواد، كانت قصورهم تشهد الحفلات العامرة وفيها مطارحات ومباريات للشعر وللعرض المسرحي، رسوم وتجسيد لهذه المناسبات وجدت في أكوام من الفخاريات الطينية النادرة الثمينة – كانت تلك النماذج هي من نتاج حالة التصور الارستقراطي..

صنع الأبجدية

الألواح السومرية كشفت بعض أسرار الكتابة ووضع تفاصيل الأبجدية في سومر حيث كانت الحاجة تدعو إلى تنظيم الأقتصاد المعقد جدا، ومن أجل وضع طريقة مبتكرة للتنظيم والترتيب ثم الاهتداء إلى نظام يتم من خلاله تسجيل شعب سومر وإحصاء ممتلكاتهم ولهذا تم إيجاد نظام الكتابة المسمارية، اعتمد في الأساس على تسجيل المبيعات البسيطة أو الممتلكات – ذلك الحدث الهام قد

حصل قبل 3000 سنة قبل الميلاد، وهو يقود إلى الدليل الأول على ظهور الأبجدية التي استخدمت في الكتابة والتدوين والحساب والترقيم، في بداية تلك الخطوات واجه العمال الذين استخدموه بعض الصعوبات كانت ثمة مشاكل تعترض عملهم في التدوين بتلك السجلات وكان تدوينهم غير مفهوم المعنى منه.



بعض تلك المخطوطات البدائية لم يتمكن علـماء الآثـار مـن فـك رموزهـا، والسبب كما عللته بعض الكتب التي نشرها علماء الاثار يقـول ان نظـام الكتابـة في بداية خطواته لم يكن قادرا على تسجيل كل مفاهيم اللغة المنطوقـة، الـبعض من تلك الالواح الطينية تمكنت من تدوين كل الاشارات من خـلال الـنقش عـلى الطين المفخور، بحروف او رسوم او دلالات، تلك كانـت تقـدم الحالـة السـهلة في موضوع التمييز، كانت تلك الإشارات والأرقام تمثـل في واقـع الأمـر أفكـارا رمزيـة دون شك توصل اليها علم الكتابة في بداياته، تمكن علـماء السـومريات مـن فـك رموزها وسبر أغوار الفكرة والمعنـى، كـما تـم الاهتـداء إلى معـاني كاملـة واضـحة مثيتتة على وجوه الاختاك السومرية تلك التي تم كتابتهـا وتصـنيعها قبـل 3000 عام قبل التاريخ، كانت تلك الألواح تقدم إيضاحات متكاملة تمت كتابتهـا بـإقلام صنعت من القصب القوي وتبدو الكتابة على تلك الألواح كما لو أنهـا تمـت مـن خلال استعمال مسمار، صنع أهل أوروك بيوتهم الجميلـة مـن القصـب وسـعف النخيل وهي تشبه الاكواخ الموجودة حاليا في مناطق الأهوار وتقدم فكـرة تكـرار ذاك الموروث المعماري البيئي، فوق إلى يسار تكوين المدينـة حيـث توجـد قاعـة المعبد الكبير الحيطان وبقايا التكوين لتلـك البنايـة الهائلـة الكبـيرة التـي زينـت بأشكال من الطين المفخور أو الحجارة الملونة وقد رتبت من خلال انماط هندسية متميزة، ومن تلك اللوحات الكبيرة المهمة والتي تكشـف عـن وجـود رؤيـا فنيـة مذهلة، تلك لوحة تمثل صيد الأسود والتي تعـود إلى الفـترة 4000 سـنة مـا قبـل الميلاد، كما ان التنقيبات كشفت أيضا المسـاكن الفـاخرة التـي شـيدت في مدينـة أوروك وهي متواصلة بشكل مدمج مع المعابد، تلـك القصـور إيضـا لهـا فنـاءات تنسجم مع البيئة وقد زينت برسوم ونقوش وعبارات تمثل إضـافات تـتماشى مـع فكرة ورغبة الطبقة الإرستقراطية التي سيطرت على كل نواحي الحياة وخاصة في

المجال الزراعي والتجاري، تلك الطبقة من أجل رخائها وتطور ملكيتها عملت على شق القنوات واستصلاح الأراضي البور وتحقيق اصلاح مساحات شاسعة من خلال عملية " البزل " أي غسل الأرض الزراعية من الأملاح العالقة بها، ثم جلب العمال والعبيد لحراثة الأرض، كما أنهم امتلكوا كل الوسائل المباشرة للتجارة البحرية والبرية بإتجاه المدن الكونية البعيدة والقريبة وجلب المواد الأولية الى مدن الجنوب السومري، كانت الكثير من المستعمرات مرتبطة بقرارهم السيادي، كانت وحدة الأرض والحضارة بين مدن سومر ومدن سوريا إلى اتجاه الشمال، كما بنوا القلاع لحراسة طرق التجارة الرئيسية، أيضا سيطروا على كل أنظمة التوزيع خصوصا في مجال السلع الكمالية...

هناك عدة إشارات رافقت قصة المرور البشري من العصر الجليدي إلى تكوين فناء القرى الصغيرة المتواضعة ثم الإنتقال إلى المدن الكبيرة نسبيا والتي وصفت بذات التحضر الأكثر، كما حصل في نهاية المطاف في مدينة مثل سومر القديمة قبل الميلاد وهي تشكل المنطقة المحصورة بين النهرين " الفرات ودجلة " من تكوين السهل الرسوبي المنخفض في تضاريسه، ذلك تم توضيحه في كتب الحضارة رغم أن المؤكد وجود معلومات مهمة وتفاصيل تتعلق بتلك الحضارة ما زالت غائبة ولم تخرج إلى العلن وربما مع تواصل البحث والتنقيب تكتمل تلك المعلومات من خلال استخدام أجهزة حديثة في البحث والرصد لمواقع الحضارة المعروفة، تلك التي لم تكشف بعد، هذه الأماني مرتبطة بدقة تنفيذ الخطط وتوفر الإمكانيات رغم ان عمليات البحث والتنقيب التي حدثت منذ بداية القرن الماضي قدمت لنا المعلومات المهمة عن المدن والتاريخ المدفون تحت التراب، تركت سنوات البحث عن الحضارة السومرية نتائج مختلفة وأيضا أراء غير متفقة، من تلك الآراء المتناقضة في كتب علماء الآثار المتعلق بتحديد آصل وكيفية ظهور

شعب سومر، البعض منهم دون العديد من الفرضيات كما تحـدثوا عـن غمـوض صاحب ظهورهم وأيضا أختلفوا في تحديد المكان الذي جاءوا منه، الـبعض مـنهم طرح السؤال الدرامي قائلا " هل تم استيرادهم إلى تلـك الأرض ومعهـم سـجلات حضارتهم..؟ " وقبل سنوات طـرح افـتراض في الولايـات المتحـدة وبريطانيـا عـلى اساس انهم هبطوا من الفضاء وبنوا الحضارة في سومر ثم صعدوا الى السماء مرة أخرى..!، ولكن تلك الفرضيات لا تصمد عندما يـحضر البحـث والتعليـل العلمـي ويـتم تحليـل نتـائج الاكتشـافات الأولى والأخـيرة، والـبعض مـن العلـماء الـذين يعارضون تلك الأفكار يقولون بأنها أفكار خاطئة ولايخلو تصديرها من هـدف او قصد مبيت خاصة في مسـألة نسـب ذلـك الشـعب إلى المجهـول وتـارة إلى بقـاع مجـاورة للعـراق أو بعيـدة عنـه، وثمـة دراسـات وأبحـاث التزمـت بـالقول " ان السومريون كانوا نتاج تفاعل حضاري متصل نتج مـن وجـود تلـك الأقـوام التـي سـكنت أرض مـا بـين النهـرين، وقـد توارثـوا الإنجـازات وتمكنـوا مـن تطويرهـا والوصول بها إلى المدى المدهش، هم صـنعوا ذاك الخلـيط وفـق قالـب ثقـافتهم وتقاليد وجودهم، اسـتغرق ذاك الإنجـاز مـنهم سـنوات كثـيرة متداخلـة، وهـذه الحقيقـة وحـدها تسـقط إدعـاءات الـبعض، ويظـل الأصـح تمامـا حزمـة الأسرار والمعلومات التي سيرفع عنها النقاب في المستقبل والذي حتما سـيعلن ان شـعب سومر حقيقي وعاش في تلك المنطقة التي وصفت بجنـة عـدن وقـد ظهـروا مـن خلال تفاعلهم مع المحيط البيئي وتمكنوا من ترويضه وتطويعه لمستقبل أيـامهم وهم قطعا السكان الآصليون وذلـك تأكـد مـن خـلال التنقيبـات في بقـاع أخـرى مجـاورة مثـل إيـران وسـوريا وفلسـطين وتركيـا، حيـث وصـلت إلى تلـك البقـاع تأثيراتهم الحضارية المهمة بما يصح ان نقول أنه شكل " وحدة الحضـارة الكونيـة "، وهكذا لايختلف أثنان من أن الحضارة السومرية تعتبر من القلاع الأولى وذلك

عندما نتتبع المحطات التي اعلنها البحث والتنقيب:

- تل حسونة

- تل حلف

- فترة العبيديون

- أوروك

- جمدت نصر

- أور – اريدو – لجش.. وغيرها من العناوين التي حفلت بها تقارير العلماء في القرن الماضي.. أتوقف عند بعض الأفكار التي نشرت عن شعب سومر وهي تجانب الحقيقة وروّجها اكاديميون في العراق ودول أجنبية حيث تقول: " كما في كتاب " طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – المجلد الأول – الصفحة رقم 58 " أن مآثر تلك الحضارة المدونة لم تقتصر على اللغة البابلية بل أكتشفوا إلى جانبها لغة ثانية سموها اللغة السومرية، ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا والتساؤل لا يزال يثار عن هذه اللغة وعن القوم الذين تكلموا بها، فمن كان أولئك السومريون..؟ هل كانوا أحد الأقوام الذين تحدروا من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التاريخ..؟ أو أنهم جاءوا بهجرة من خارج العراق في فترة ما في أواخر تلك العصور..؟ ولإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاءوا، اين كان مهدهم ومتى جاءوا إلى العراق...؟ أو كما كتب يوهارد برينتس قائلا: " قد يكون وصول أدوات حضارة – حاجي محمد - إلى بلاد ما بين النهرين مرتبط بعملية هجرة غير واضحة، فمن المؤكد ان هجرات السومرين وقعت في تلك الأثناء، عندما عاشت الحضارة العبيدية الضعيفة وكانت في مرحلة نهايتها، وكما يميل بعض علماء الآثار مثل – ناغيل – للاعتقاد بأن السومريين المنحدرين من آسيا الصغرى هم الذين صنعوا

الفخاريات الرمادية في منطقة – شاه تبه وتبه غيسار – التي ظهرت في شمال شرق إيران، البرهان على هذا هو تشابه بعض اشكال فخاريات بلاد الرافدين مع فخاريات – شاه تبه -، وإذا كان الأمر كذلك فأن موطن السومريين لم يعد لغزا، لكن اسئلة جمة بقيت دون جواب، فلا نعرف مثلا أية حضارة من الألف الخامسة والسادسة في اسيا الوسطى والصغرى سبقت حضارة الفخاريات في – شاه تبه – ومن المعلوم لدينا انه لا توجد هكذا حضارة وما عدا هذا فأن تاريخ طبقة غيسار ومثيلتها مستوطنة شاه تبه يعد غير صحيح ومن الاصح ردها – كما فعلوا في الماضي – الى الألف الثالثة – لكن أهم ما في الأمر أن – ناغيل – يعتقد بأن الأدوات الرمادية والحمراء التي اكتشفت في أوروك ظهرت نتيجة وصول حضارة شاه تبه، التي وصلت جنوب بلاد الرافدين في أواسط الألف الرابعة، وإذا قلنا ان تلك الفخاريات هي من صنع السومرين وأن انتشارها الواسع في عهد سيطرة السومريين يعطي اساسا لهذا القول يصبح من المنطقي ان نقول: ان السومريين كانوا في بلاد الرافدين أثناء أواخر الحضارة العبيدية أو أنهم عاشوا جنبا إلى جنب مع قبائل الحضارة العبيدية، ولكنهم أخذوا يستأصلونهم تدريجيا "او كما جاء في كتاب البروفسور " هنري ساغس " الذي لا يتفق مع جميع الإدعاءات التي تنال من حضارة السومريين: " الحقيقة التي لا مناص منها ان الحضارة وضعت بذرتها الأولى في رحم الأرض الواقعة بين النهرين الخالدين – دجلة والفرات – وفي وعي شعب مبدع ومثابر الذي ساهم في نشرها ومتابعتها وأغنائها، ذلك الفعل الكبير هو الذي نقلنا من الهمجية إلى حالة التحضر التي نحن فيها الآن " بينما يقول – اندريه مالرو – لقد اعطانا بلد النهرين القوة في التعبير بصفة اولية واساسية في الدمى التي عثر عليها في القبور، النحات السومري كان يعبر عن نفسه كفرد باكمل معنى " بينما ثبت أندريه بارو في كتابه

عن سومر وحضارتها وفنونها ما يلي: شمس بلاد الرافدين، كجبار ذي اكتاف ملتهبة، تسير قدما في طريق افتتاحه للسماء ولم تضيء تلك الشمس بأنوارها سهل وحوض النهرين العظيمين - دجلة والفرات - حسب بل أضاءت كل المنطقة المحيطة بهما "، بينما ترى الباحثة كريستينا غافليكوفسكا في كتابها الموسوم - الفن في بلاد ما بين النهرين: بفضل ما يزيد عن مائة وثلاثين عاما من أعمال التنقيب الاركيولوجي، يمكننا اليوم استعراض صورة الحضارة الرافدية عبر ستة آلاف سنة حيث شاركت في بنائها خلال هذه الحقبة الطويلة أقوام كثيرة، أنطلقوا في كل مرة من منجزات أسلافهم "...! من تلك الفترات المهمة والتي افردت لها كتب العلماء مجالا كبيرا - فترة تل حسونة - وهنا اكتب عنها بشيء من التفصيل لتحقيق مايعبر عن تمازج الفكر والفن والتجربة في مفهوم وحدة الحضارة الذي ساد في عموم المنطقة فيما بعد..

تل حسونة

كل تلك الفترات المميزة انجزت من قبل تجمع ثقافي اتصف بالإبداع والابتكار والعمل المتواصل.. يعتبر تل حسونة إحدى علامات تلك الحضارة وقد سمي هذا الموقع على رمز يمثل قيمة مهمة للذين تواجدوا أنذاك في مشهد حضاري مميز، المناطق التي شكلت سلسلة الحضارة السومرية كانت تتفاوت في العامل الثقافي والحضاري وأيضا في صنع القيم الحضارية والمنجز الإبداعي.



في كل مرحلة تبدو هناك هالة من العمل، المتداخل الذي يوثق الماضي وينشر الحاضر، كأنك في حضرة مصنع مهمته صنع الحضارة المثيرة المستندة إلى أقليم متفرد وضع عن جدارة تلك الأقسام الحضارية التي دونتها اعلاه وكلها خرجت من ذاك المصنع العظيم صاحب الرؤيا المستقبلية، بحث العقل السومري في تلك الحقبة التي سبقت الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف سنة وحققت التغييرات الملائمة والمناسبة لبلاد ما بين النهرين التي كانت على موعد مع بداية تشكيل

عصر الإمبراطورية السومرية، قادت المعلومات التي تم جمعها من كهف شنايدر من عظام انسان النياندرتال والأواني الفخارية، وكما وضحت ان الكهف موجود في المنطقة الشمالية من أرض كردستان العراق، وتم اعتباره من أكبر الكهوف التي اكتشفت لحد الآن، يقع في الجناح الجنوبي من جبال برادوست وله إطلالة كبيرة على وادي الزاب الأعلى – بالقرب من ناحية شنايدر، الجهة الأولى التي عملت للتنقيب فيه هي مديرية الآثار العراقية، تبعتها فرق تنقيب من اهمها تلك التي رأسها " رالف سوليكي من قبل جامعة مشيغان الأمريكية وذلك في العام 1951 من القرن الماضي، وأغلب الأدوات التي تم العثور عليها في مراحل التنقيب هي أنواع من المثاقب المصنوعة من الحجر وأدوات تستعمل للقشط وبقايا عظام حيوانات وأيضا هياكل بشرية من نوع إنسان النياندرتال – تعود للإنسان الذي عاش في المنطقة قبل ما يزيد على 60000 سنة وهناك الكثير من الكهوف والملاجيء في المناطق الجبلية، مرورا بأقدم القرى مثل – قرية " زاوي جمي " والتي ظهر فيها تطور في مجال الإنتاج الزراعي وتدجين الحيوانات البرية، وتقع على ضفة نهر الزاب الأعلى، البيوت فيها شيدت على اسس واستعمل في البناء قطع من الحجارة الكبيرة، وعثر فيها على عدد من المواد المنزلية البدائية، ومن بينها الاحجار التي كانت تستعمل للدق وطحن الحبوب أيضا وجدت فيها مناجل مصنوعة من عظام الحيوانات، في تلك المرحلة بدأ التفكير بالتغيير الاقتصادي، ويعود وجود تلك القرية الى الألف العاشر قبل الميلاد، يعتقد علماء الآثار بوجود علاقة بين كهف شنايدر وقرية زاوي جمي - الكهف كان الملجأ في فترة الشتاء والقرية كانت مكان سكنهم في الصيف، وقد عثر في حفريات بالقرية على قبور وادوات وتجهيزات جنائزية ووجود علاقات تجارية، كذلك الحال يتشابه مع قرية جرمو، المعلومات التي نشرت في تقارير

البعثة التي نقبت في " تل حسونة " تصف المنطقة على أنها بمثابة تل كـنخفض يقـع في منطقة تبعد مسافة 35 كيلومترا جنوب الموصل، تم التنقيب في الموقع خلال العام 1943 من القرن الماضي من قبل مديرية الاثار العراقية تحت إشراف العالمين " ستون لويد وفؤاد صفر "، بعد فتح ثغرة في التربة لذلك الموقع تـم العثـور عـلى فخاريـات وحجارة صلدة يكشفان بشكل إيحائي عن وجـود تجمعـات زراعيـة سـكنت في تلـك الأكواخ، المكان وحسب التقارير المنشورة يخلو من وجود بنايـات كبـيرة أو مرتفعـة، ولكن يماثل شكل المستوطنات البدائية، كما عثر على نمط آخر تجمع يتكون من سـتة بيوت، لها مواصفات أفضل في البناء، وذات طراز متقدم وأكـبر في المسـاحة والحجـم، وكما يبدو للبناء مخطط هندسي واستخدام مواد متعددة في بناء تلك البيوت، وتبدو قريبة الشبه من بيوت القرى العراقية المعاصرة المشـيدة في المنـاطق الشـمالية، مـثلا وجدت ستة او سبعة غرف رتبت في بناء يتكـون مـن قسـمين إضـافة إلى فنـاء، كتلـة واحدة تمثل مكانا للسكن والباقي تم استعماله كمطـبخ ومخـزن، الحيطـان صـنعت من الطين المضغوط – المفخور – وقد صـنع مـن خلـط الطـين بـالقش، كـما وجـدت حبوب تم خزنها في صناديق ضـخمة مـن الطـين المفخـور كـما وجـدت بعـض الأواني الفخارية ومكان للموقد وهو يشبه إلى حد بعيد المواقد الحالية المستخدمة في القرى الفلاحية في شمال العراق وجنوبه، وأيضا وجدت أفران للخبز وهاون لطحن الحبوب وأنصال منجل مصنوع من حجر الصوان ومغزل لغـزل خيـوط الصـوف المـأخوذ مـن الحيوانـات أيضـا مصـنوع مـن حجـر الصـوان، وتماثيـل طينيـة لاشـكال مـن النسـاء العاريات والجالسات على مايبدو تلك كانت من تماثيل العبادة، أيضا تم العثور عـلى جرار كبيرة وجدت داخل البيـوت كـما عـثر عـلى قبـور تحـوي عـلى عظـام لأشـخاص ميتون مصحوبة بكؤوس وقدور صـغيرة جـدا وقطـع الزينـة وتماثيـل صـغيرة أخـذت

إلى العالم الثاني بعد الموت، كانت تسود لديهم فكرة وجود حياة أخرى ينتقل إليها الجسد، كما وجدت مدافن في غرف البيوت دون ان تكون معها أدوات زينة أو تماثيل جنائزية، الجماجم التي عثر عليها كانت تشبه الجماجم التي عثر عليها في مقابر تعود لبيبلوس او منطقة اريحا وهي من مناطق البحر الأبيض المتوسط، وذلك يؤكد دون شك وحدة الحضارة في منطقة الهلال الخصيب وبشكل أدق في سوريا والعراق، الفخاريات التي عثر عليها في " تل حسونة " قد قسمت إلى قسمين منها جرار اتخذت شكل كمثرى مستديرة أو طويلة من الطين الخشن وغير مزينة بألوان أو رسوم أو خطوط، طاسات صنعت بشكل أدق وهي تتفاوت باللون حيث يتدرج اللون الأسود الداكن تبعا للطريقة التي تم فيها فخارها وتم تلميعها بمادة زيتية، وصنف آخر من الطاسات التي أخذت شكلا كرويا ولها رقبة قصيرة مباشرة تم تزيينها بشكل القصد منه ابراز نوع التصميم البسيط من خلال ذات الطلاء لونه اسمر غير لامع والثخين منها وضعت له ألوان من الزينة وهي تتصف بمهارة عظيمة، والبعض منها ظهر عليه الضحالة والشقوق وبعض الحزوز، بينما الفخاريات القديمة لها عدة ميزات على غرار التي وجدت في الكهوف التركية في مناطق " مرسين " وفي سوريا في منطقة سهل " كركميش " وفي فلسطين في منطقة " اريحا " في مواقع قديمة تم الوصول اليها ظهر ان الفخاريات تطورت تبعا للوعي والثقافة التي حصل عليها سكان تلك المناطق القديمة، في تل حسونة مثلا يمكن ان نجد ان فرق التنقيب عثرت في العديد من التلال شرق وغرب دجلة أسفل مناطق جبل حمرين، كما وجدت نماذج كاملة في مناطق - نينوى - الموصل حاليا وأيضا في مناطق تقع جنوب كركوك shimshara في وادي الزاب الأسفل وبالقرب من تل عفار، تمثلت بعض الأثار ببقايا أشكال مربعة أو بيوت مستديرة وفيها وجدت أيضا أدوات وأسلحة

مصنوعة من حجر الصوان ومطعمة بقطع من النحاس وأيضا تماثيل طينية لنماذج بشرية في وضع الجلوس وأيضا نماذج أخرى مصنوعة من حجر الصوان، وكانت تلك التماثيل دقيقة ومتطورة أكثر، كما وجدت ألواح طينية عليها نقوش على شكل خطوط مستقيمة أو متقاطعة، وبعض التماثيل وجد لها خيط حول الرقبة، ربما تلك التماثيل تعود إلى العائلة الملكية أو رموز الحكم، كما وجدت ذات الأختام المتقدمة في الصنع، كانت تلك بمثابة إشارة مهمة لتطور الفن في بلاد ما بين النهرين بعض كتب المثيولوجيا أشارت الىا تلك النماذج وعلى وجود تعويذات أو هي تمثل نوعا من الحلي، في منطقة dabaghiya وهي مستوطنة كانت بمثابة محطة تجارية بسيطة، ان السكان القدماء فيها عرفوا فن دباغة الجلود وكان يتم التبادل بتلك الجلود مع مناطق كثيرة ومنها " تل حسونة "، الموقع له العديد من المميزات الفاعلة والتي ساهمت بنضوج فكرة التطور وبشكل غريب، على سبيل المثال لوحظ التطور في بناء البيوت من عدة طوابق واستخدام الكتل الطينية الكبيرة في أغلب الاحيان وتكشف عن استخدام الطابوق المفخور والحيطان تم طلائها بالجص وصبغت باللون الأحمر كما حملت بعض الجدران صورا على شكلجداريات، كما وجدت في العديد من البيوت طاسات مرمرية تم تقطيعها بشكل جميل لها لمعان، كما وجدت طاسات وجرار مزينة وتماثيل صغيرة للحيوانات ونماذج من البشر في اوضاع شتى، تلك النماذج تصور تطور الثقافة والفنون والوعي في " تل حسونة " أيضا لها ما يشابهها في سوريا " رأس شمرا " على الفرات – وجدت حيطان مشابهة وفخاريات أيضا متطورة، البعض من تلك النماذج اكتشف في مقبرة تحت بيوت المدينة التي تعود للقرون الوسطى، كما عثر على تماثيل وقدور مصبوغة باللون الارجواني الغامق او المائل الى الاسمرار أو الأحمر الداكن ولها تصاميم هندسية رتبت بشكل أفقي

أنيق ومنها رسوم تحاكي البشر – الطيور – السمك والظباء – العقارب والأسود – وحيوانات أخرى، ان المواضيع التي ناقشها الإنسان القديم تبدو قد تم توزيعها بشكل متوازن جدا، وهي معالجة بطريقة مؤثرة وتحقق الإنطباع الاستثنائي من حركة الفن والوعي وتعطي مؤشر نحو التقدم وذلك نلمسه من خلال جهود الناس الذين شكلوا وصبغوا تلك الفخاريات واللوحات الجدارية وقد اتسموا بمعرفة فنية عظيمة دون شك، وهي نتيجة لتراكم الخبرة لفترة طويلة وتعود تلك النماذج الأولى من الفنون الى سكان بلاد ما بين النهرين ترتبط ببداية ثقافة لم تكن معروفة بداياتها ولكنها ازدهرت في وادي دجلة وخاصة مناطق الوسط من ذلك السهل الفسيح في الفترة من النصف الثاني من الألفية السادسة قبل الميلاد، هذه الأنماط الثقافية تم كشفها في مرحلة الستينات من القرن الماضي من خلال جهود علماء الآثار من العراق في منطقة تل حسونة الذي يقع في مستوى منخفض من تكوين تل كبير يقع على الشاطيء الأيسر من دجلة ويبعد مسافة عشر كيلومترات جنوب مدينة سامراء – البشر الذين سكنوا تلك المنطقة كانوا فلاحين اغلبهم من سكان – تل حسونة – الاصليين، هم استعملوا الحجارة وقطع الصوان وعاشوا في منطقة ينـدر فيها سقوط المطر – لكنهم نجحوا في مزاولة الزراعة بشكل بدائي واستخدموا طرق ري بسيطة وكانت دجلة تفيض بمائها فتندفع تلك المياه لري حقولهم وهكذا وجدوا الحنطة تنمو والشعير وبذور الكتان، لابد ان المحصول كان كثيرا حيث وجدت مخازن على شكل سايلوات خصصت لحفظ الزائد عن الحاجة، احيط ذلك البناء بخندق لحمايته من اللصوص وكان عمق الخندق أكثر من متر يحيط بعده حائط من الطين بالمخزن وهو سميك وقوي، كما كانت البيوت كبيرة وقد نظمت في شكل هندسي مرتب، الغرف والفناءات كانت متعددة، السكان كانوا يستخدموا في البناء الطين

المصنوع على شكل طابوق، كما يتم طلاء الجدران من الداخل بالجص أيضا استخدموا الطين في صنع الأواني والقدور الكبيرة والصغيرة، كما استخدموا في بناء البيوت فيما بعد قطع من الرخام لتكون بمثابة أرائك للجلوس، كانت سقوف البيوت عادة تكسى بالأخشاب الكبيرة القوية يوضع فوقها الحصيرة من القصب او البردي وثم تكسى بالتراب روبعد ذلك توضع طبقة من القار وبعدها طبقة أخرى من الطين الممزوج بالقش، القبور التي اكتشفت كانت أكثر إثارة فقد وجدت على اشكال عديدة من المرمر وأخرى طينية مفخورة لنساء في أوضاع عارية وأخرى لرجال، البعض وقوفا أو في وضع القرفصة، البعض من التماثيل الطينية لها عيون بحجم حبة القهوة ورؤوس مدببة وهي تشبه إلى حد بعيد تلك التماثيل التي عثر عليها في " تل العبيد "، كما عثر على تماثيل أخرى مصنوعة من الطين ولكن لها عيون مفتوحة وكبيرة طعمت بالصدف والقار وصنع لها حواجب سوداء، تلك كانت مدهشة جدا وتشبه تقنية تماثيل سومر ولهذا تم الربط بينهم وبين الأسلاف وهكذا اعتبر السومريون هم الأسلاف الحقيقيون للعبيديون وربما هم كانوا يقيمون في منطقة مجاورة حيث عثر على الكثير من نسخ الفخار في تلك المناطق الجنوبية المجاورة لتل العبيد وعلى طول امتداد نهر دجلة صعودا نحو - نينوى ومندلي بالاقتراب من الحدود الإيرانية العراقية، في الموقع الأخير حيث زالت قناة الري عثر هناك على تماثيل صغيرة تشبه تلك التماثيل التي كانت تمتاز عيونها بأنها بحجم حبة القهوة، انواع الخزف التي عثر عليها في تل " حسونة " لها ما يماثلها في مواقع عديدة من أرض جنوب العراق ووسطه وشماله، وتلك تعتبر من الأشكال المبكرة في صنع وحدة الحضارة التي تم تأسيسها في فترة العبيديون..

تل حلف ومواقع أخرى

ومن المواقع المهمة الأخرى - تل الصوان كشف فيه عن أطوارالعصر الحجري المعدني والأطوار الأخرى التي مثلت العصر الحديث ويقع على ضفة نهر دجلة اليمنى وعلى بعد 11 كيلو مترا جنوب مدينة سامراء، وهو تل صغير نقب فيه الاثاري " هرتسفيلد في العام 1911 من القرن الماضي وجد فيه أنواع من الفخار المشابهة لفخار دور حسونة والعديد من القبور التي وجدت فيها هياكل عظمية ومجموعات ثمينة من الأواني الحجرية ودمى أو تماثيل صغيرة منحوتة نحتا دقيقا من حجر المرمر وتميزت بجمالها كما وجدت أنواع من الحلي بعضها مصنوع من الأحجار الكريمة مثل العقيق والزبرجد والفيروز ووجد في تلك القبور هيكل امرأة مطلي ودفنت معها قلائد من الخزر المتنوعة ومجموعة جميلة من التماثيل المصنوعة من المرمر، ومنها تماثيل على هيئة العضو الذكري وزينت بعض وجوه تماثيل النساء وخاصة العيون منها بالصدف والمحار الثابت، ومن المباني المهمة في تلك المنطقة بناء واسع مشيد باللبن وجدرانه مملطة بالطين يعتقد انه موقعا دينيا حيث وجدت فيه تماثيل من المرمر من النوع الذي يطلق عليه بتماثيل " الآلهة - الأم " وفي دور سامراء حيث عثر المنقبون الالمان قبيل الحرب العالمية الاولى 1912-1914 انواع من الفخار المميز والذي تم تسميته بدور سامراء في مجموعة من مواقع اثرية محصورة في شمالي العراق وفي الاجزاء الوسطى من موقع سامراء صعودا واشهر تلك المواقع " تل مطارة " القريب من مدينة كركوك و" تل حسونة " وايضا " تل شمشارة " و" تل الصوان " و" تل جغاربازار " في منطقة الجزيرة العليا و" تل بوغاز " على الفرات الاعلى مقابل مدينة البوكمال ووجد تقليد لفخار سامراء في منطقة " سوسة - بلاد عيلام "امتاز فخار سامراء بلونه الاحمر وزخارفه الهندسية المرتبة وباشكال الحيوانات والطيور والعقارب

والايل ووجود زخارف تنقش بلون اسود فاتح على الاناء ولم يعرف طور سامراء المعـادن او التعدين فقط برعوا في استعمال الحجارة وخاصة البركانية منها...



الفترة الثالثة من تاريخ بلاد ما بين النهرين تأخـذ عنوانهـا مـن سـجل " تـل حلف "، هذا الموقع يقع على نهر الخابور وبالتحديـد في قريـة تقـع عـلى الحـدود التركية السورية وعلى بعد نحو 40 ميلا شمال غربي نينوى، تحـرت في ذلـك الموقـع بعثة آثارية ألمانية برئاسة العالم الآثاري " فـون أوبنهـايم " في الفـترة التـي سـبقت الحرب العالمية الاولى وكشف خلال ابحاثه عن بقايا اثرية مهمـة منهـا مـايعود الى المملكة الآرامية التي أزدهرت في تلك المنطقة في القرن العـاشر قبـل المـيلاد، التـي كانت عاصـمتها تسـمى " كـوزان " وهـو اسـم تـل حلـف القـديم، وجـدت أنـواع من الفخار تحت القصر الملكي المصبوغ الجميل والذي اطلق عليه فيما بعـد اسـم فخار تل حلف، عثرت فرقة التنقيب على طبقة سميكة مـن الفخاريـات المصـبوغة

بشكل جميل تحت جدران قصر الملك الآرامي الذي حكم كما اسلفت في القرن العاشر قبل الميلاد، الاكتشاف ونتائجه لم تنشر إلا في العام 1933، في ذلك الوقت كان العالم لم يعرف ألا القليل عن منطقة الشرق الأدنى، أيضا كان الخلاف يتصاعد في تلك الفترة بين بريطانيا وألمانيا التي كانت تقوم بعمليات التنقيب بالقرب من مدينة " نينوى – الموصل حاليا " كما عمل في الموقع فرق تنقيب امريكية وروسية ومحلية ونشرت البحوث وتواصلت المناقشات التي أدت إلى عمليات تنقيب جزئية لعدد من المواقع الأخرى في منطقة جبل حمرين، ووادي دجلة الأعلى، الدراسات والتقارير التي صدرت بعد تلك العمليات تمكنت من المقارنة بين ثقافة تل حلف ووجدت فيها ميزات جديدة متميزة ومتطورة عن الفترات السابقة، كما لاحظت ان اغلب المواقع الحضارية وخاصة في مجال البناء وتطور المجمعات السكنية" القرى " كشف عن تواصل استخدام الطابوق المضغوط أو طابوق الطين المفخور إضافة إلى استخدام مواد أخرى إنشائية قياسية، لكن من الملاحظ ان البيوت المستطيلة كانت تبدو أصغر من قبل وظهر شكل بناء البيت مستديرا وبعضها تتكون من غرفتين وكان شكل الغرف مستطيلا داخل حيطان مركزية بنيت من الطين المضغوط وتراكيب أخرى بحدود 10 أمتار، ويشتمل البناء على ممرات طويلة تؤدي الى غرفة انتظار، كما وجدت في ساحة أخرى ملحقة بساحة الدار استخدمت كقبور لأفراد العائلة، كما وجدت أبنية أكبر حجما استخدمت كأضرحة أو معابد، لكن نمط وشكل البيوت التي عثر عليها في منطقة " حلب – في سوريا " تتضمن أشكالا بسيطة مثل مكانا مربعا للسكن له ركائز وممرات وملحق به حظيرة للدواب.



وفي موقع نهر البليخ عثر على بيوت مشابهة مع استخدام مساحة من مساحة البيت الكلية كمدفن لأفراد العائلة، كما وجدت مدافن جماعية وبنايات أكبر حجما أعدت لتكون مكانا للأغراض الطقوسية، ضمن السكان القدماء وجدت إشارات رمزية تعني وجود طقوس وتعاويذ دينية مثل ان تكون السقوف على شكل جمالون وفي أعلى السقف يوضع رأس ثور أو فأسين متقاطعين أو بعض التماثيل المفخورة وتمثل حيوانات مفترسة أو نساء عاريات، وهو تكرار لما استخدمه السكان في التجمعات السكنية الأولى التي ظهرت في بلاد ما بين

النهرين، لكن الاختلاف عن النماذج السابقة تحقق في تماثيل مثل أن الإمرأة تجلس في وضع القرفصاء كما في الوضع المعتاد أو تجلس على مقعد مستدير، ذراعيها تحيط بصدرها، تلك كانت من الاشكال الواقعية ومغطاة بالأشرطة أو عليها قطع من الملابس أو الإشارة الى وجود جواهر، من المحتمل أن هذه التماثيل كانت بمثابة تعاويذ ضد العقم أو أخطار الولادة بدلا من تماثيل الآلهة الأم هذا ما اوجزته بعض التفسيرات، أخيرا وليس أخرا تم العثور على أنواع من الفخاريات المصبوغة بألوان رائعة وتستعمل في المنازل ودوائر الحكم فيما بعد في بلاد مابين النهرين، وقد تم العثور عليها في " تل حلف " البعض منها مصنوع من طين مزجج وفيه قطع من الحديد على شكل رقائق

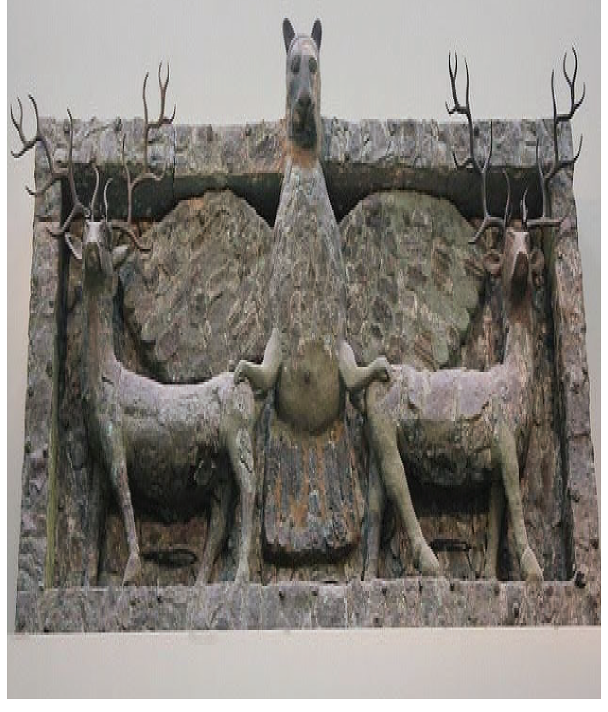


" من أرشيف التنقيب عن بابل "

رقيقة جدا في أغلب الاحيان، وتلك المصنوعات تفاوتت في التصميم والحجم ومنها القدور والأواني المستديرة ولها رقاب أو مقابض وكذلك وجد تطور في صنع الطاسات العميقة ذات لون أبيض مائل للصفرة وعليها رسوم تزينها، وتعود تلك النماذج إلى فترات حضارية من فترات حضارة بلاد مابين النهرين وهي كما في:

- جرمو
- جمدت نصر
- تل حسونة
- تل العبيد
- أريدو
- تل حاج محمد
- تل حلف
- النمرود - نينوى
- الوركاء
- لجش... وغيرها....





تلـك الـنماذج كانـت قـد نفـذت بشـكل يتكيـف مـع البيئـة المحيطـة واستخدمت بشكل مثالي وكانت تؤدي الغرض المطلوب في تلك الأزمنة وهي مـثلا تستعمل لوضع القشطة فيهـا أو الحليـب أو المـرق أو الحلـوى أو الـرز المطبـوخ، وكانت قد نفذت بأشكال مستطيلة أو على شكل مثلثات أو بتصميم يشبه المحـار وكانت ذات ألوان متعددة والغالب منها " بيضاء وحمراء وسوداء تميـل الى اللـون الرمـادي " وذات أحجـام صـغيرة ويبـدو انهـا كانـت تمثـل الـنماذج المفضـلة في الاستخدام البعض منها تم تزينه برسوم مثل الزهور والطيـور السـاكنة في حركتهـا والغزال الجاثم او الفهد القافز – البعض من تلـك الأواني أيضـا يحمـل صـورا ذات دلالات رمزية دينية مثل رسوم آلهة أو معابد أو كلمات أدعيـة أو هيكـل عبـادة، وقـد وجـد في بعـض الألـواح المسـمارية ان تلـك الأواني يصـنع منهـا كميـات كبيرة البعض منها يباع عن طريق الاسـواق والتجـارة، وتوجـد مشـاغل او مصـانع لهذا الغرض، فـيما بعـد تكـاثرت المصـانع الصـغيرة في المـدن السـومرية المجـاورة وبشـكل تـدريجي صـارت حلقـة للصـناعة والتجـارة، ويـتم نقـل تلـك البضـاعة من مكان صنعها إلى الأسواق المجاورة بواسطة الماشية أو من خلال عربـات كبـيرة تجرها ثيران، وكان النفيس منها مطعم بالاحجار الكريمة وقد عثر على عينات منها في " تل حلف " وثمة دراسة اشارت إلى ان مجتمع تل حلـف كـان بمثابـة مجتمعـا اقتصاديا وتجاريا ويعتبر من المراكز التي اهتمت في تصـنيع الأواني الفخاريـة كـما كانت منطقة متميزة وفيها مسـاكن مخصصـة للطبقـة الثريـة والمتنفـذة وخاصـة الزعماء المحليين، بينما في القرى الصغيرة المجاورة لها كانـت عبـارة عـن تجمعـات مخصصة للمزارعين وأصحاب المهن الأخرى – على صعيد الزراعة اشتهرت بزراعـة الحنطة والشعير والكتان والـذرة والهـرطمان والعـدس والخضـار وتربيـة الخـراف والعنـزات والخنـازير وأنـواع أخـرى مـن الماشـية – والكـلاب للحراسـة، النظـر الى

فخاريات " تل حلف " أو دراستها يقود إلى إعطاء فكرة واسعة عن تطور الفعل الثقافي، تلك البقعة تبدو مثل هلال مضيء معلق في منطقة زراعية حدودها تمتد من منطقة حلب في سوريا إلى ديالى ثم تنعرج نحو الجزيرة حيث ترتكز أعمدة الحضارة الأشورية ذات الصدى المدهش، في هذه المدن الصغيرة والكبيرة انتشرت الفخاريات وصولا الى مدن الأناضول وشمال سوريا أيضا وساحل البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من مدن تقع غرب إيران، ثقافة منطقة سامراء التي اعتبرت منبثقة من ثقافة " تل حلف " القديمة في بلاد ما بين النهرين والتي ربطت تلك المدن وفق العامل الحضاري بما شكل وحدة الحضارة الكونية – كل التصاميم اللاحقة صنعت على انماط تلك التي عثر عليها في – تل حلف – والتطابق يبدو كبيرا بين تلك النماذج والنماذج التي عثر عليها في برد الأناضول، لكن يجب الاعتراف بأن النماذج التي تصنع حاليا تعتبر اكثر دقة وأجمل، ربما انتقال تلك النماذج الى مناطق مجاورة لبلاد ما بين الرافدين يخضع لحصول الاحتلال ضمن الامبراطوريات الثلاثة " السومرية – البابلية – الآشورية "..

تل العبيد

تمتد فترة " تل العبيد " من 4500- 4300 قبل الميلاد وهي تتكون من عدة مستوطنات في تل حلف في بلاد ما بين النهرين وتمتد بين الوسط والشمال، تلك الفترة تركت العديد من آثارها المميزة التي تعتبر بداية التكوين الثقافي والاساس الحضاري، من تلك المنطقة خرجت الفخاريات المصبوغة التي كونت البداية لنشوء التكوين الثقافي، تلك الفخاريات التي حملت اسم تل العبيد، تم اكتشاف تلك الانواع في العشرينات من القرن الماضي في تل حلف وسميت بآثار تل العبيد وهي على مقربة من المدينة المشهورة " أور " وهي من المدن السومرية، هذا الموقع هام جدا وهو يشير دون لبس الى المرة الأولى في تاريخ الكون التي أسس

فيها الانسان أول ثقافة للبشرية مدت جسورها إلى منطقة الجزيرة وظلت قائمة إلى آمد بعيد في دلتا دجلة والفرات، ثمة صلة قوية بين ثقافة " تل حلف و تل العبيد " وهناك فرضيات عديدة تتناول وجود تلك الأقوام، ولكن كما يبدو ان السكان في منطقة تل حلف نقلوا الكثير من خصائص ثقافة تل العبيد وطوروها فيما بعد، والحقيقة التي لاخلاف عليها ان جنوب العراق قد سكن قبل فترة طويلة ربما في منتصف الألفية الخامسة وفي العام 1946 تم التنقيب في منطقة " أريدو – ابو شهرين " وتبعد مسافة 19 كيلومترا نحو المنطقة الجنوبية الغربية من – أور -، مدينة اريدو كانت تحيط بها التلال المنخفضة وكثبان الرمل وقد تعرضت الزقورة – معبدها الديني الى خراب وتدمر برجها الأعلى، والذي يعود بنائه إلى فترة حكم ملك السلالة الثالثة لأور والذي حكم من الفترة 2046-2038 قبل الميلاد، ولكن ظلت أجزاء من تلك الزقورة قائمة، تم الكشف عن سلسلة من المعابد المهمة في تلك المنطقة من قبل بعثة التنقيبات التي قادها " لويد و فؤاد صفر " وكشف فيها عن معابد رائعة عددها سبعة عشر معبدا، بنيت الواحد فوق الآخر في فترة التاريخ الأولى، والنموذج من تلك المعابد يتكون من عدة طوابق فيها أماكن للسكن إلى جانب وجود المذابح ومناضد عريضة وفخاريات ممتازة رفيعة زينت بأشكال جميلة وبإتقان رائع وعثر عليها في مدينة أريدو ذات تصاميم هندسية رائعة وفي أغلب الآحيان صبغت بألوان غامقة قريبة إلى اللون الأسمر وجدت نماذج منها في تلك المعابد وقدمت فكرة كاملة عن الصلات الثقافية بين المدن التي ظهرت في تلك الفترة.



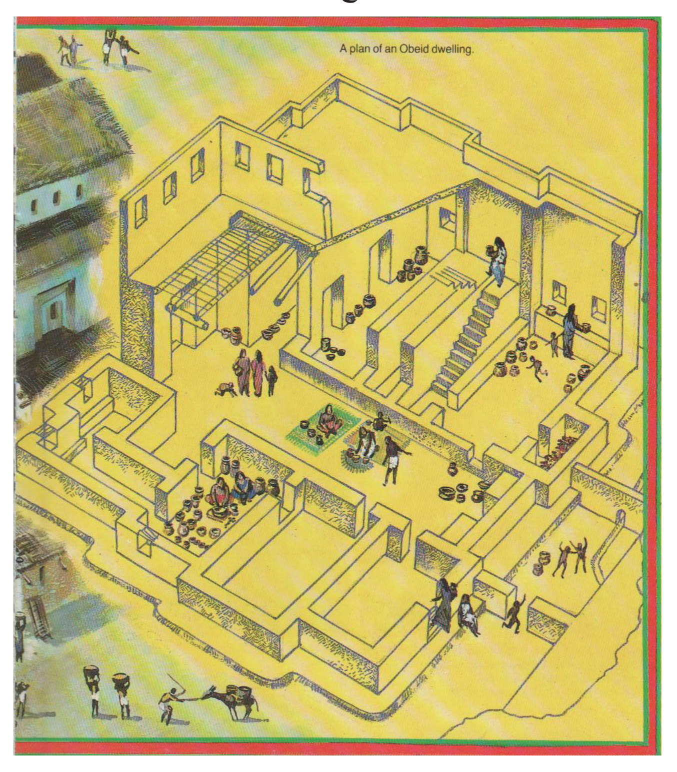
تمثال نصفي لمتعبد سومري عثر عليه في أوروك محفوظا داخل جره مغلقه من عصر فجر السلالات الثالث -بلاد مابين النهرين _المتحف الوطني العراقي.

عثر على انواع منها في العام 1937 من قبل بعثة ألمانية في موقع " تل حاج محمد " قرب أوروك وكذلك في مواقع أخرى جنوب العراق وبشكل خاص في موقع راس امية الذي يبعد ثمانية كيلومترات شمال " كيش kish" حيث وجدت حيطان للبيوت والمعابد والقصور وأشكال من المنحوتات والأواني الفخارية المدفونة في موقع – حاج محمد - تحت طبقات الطين على عمق عدة أمتار،

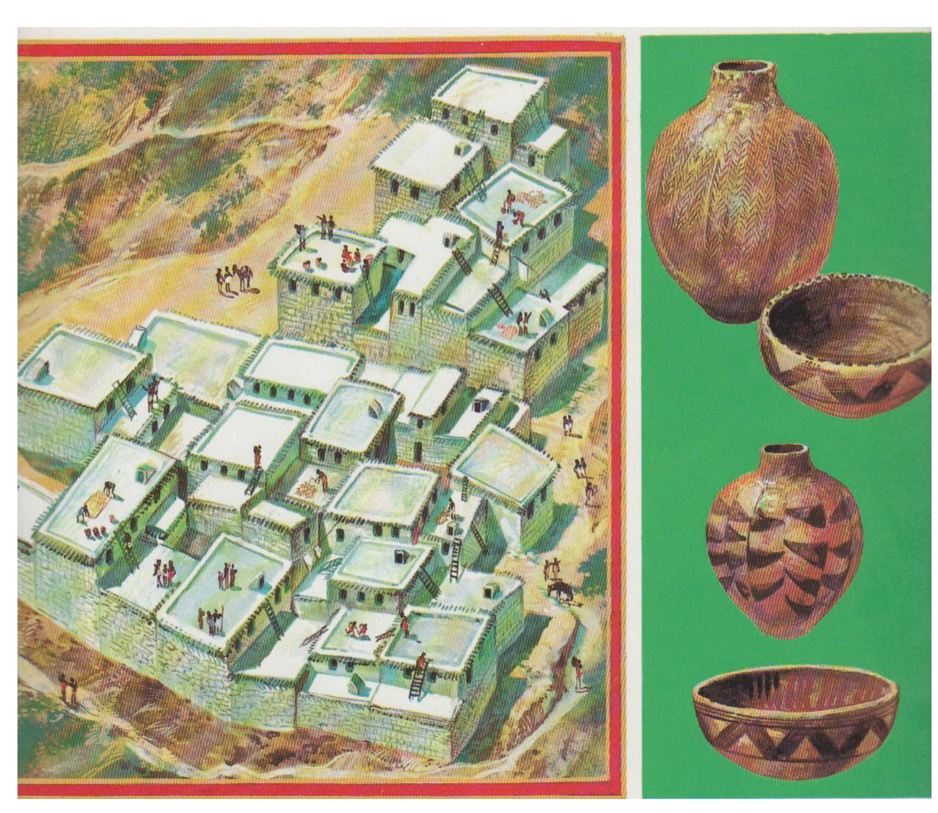
كما تم الكشف عن معابد بعضها بدت بحالة جيدة واحتوت نماذج مهمة من الآثار وخاصة في منطقة " أريدو " وخاصة في معبد الآلهة "إنانا " الذي يعود الى مرحلة مبكرة من فترة حضارة أوروك ويمكن اعتبار تلك النماذج وثيقة الصلة بفترة العبيديون المبكرة منها والمتأخرة، أربعة أنواع من الفخاريات تنتمي الى أزمنة حضارية متتالية وتشكل صورة واضحة للحضارة الكونية الأولى في بلاد مابين النهرين في الفترة الأخيرة وتم الكشف عليها من قبل فريق علماء فرنسيين كانوا قد حفروا في موقع قريب من مدينة" لارسا larsa" في تل صغير من ارض سهل منبسط وهو يقدم فكرة إضافية عن تكوين الحضارة العبيدية، وكانت قد نشرت تقارير عن ذاك الحدث في العام 1938 مكنت المستكشف الى تحديد ذاك الموقع على انه يمثل ثلاث إلى أربع أطوار حضارية متتابعة بعد حضارة العبيديون، احتوت الأدوار العليا فخاريات وعينات ومن الأمور التي تم التوقف عندها أنواع الفخاريات وأيضا الطابوق الذي بنيت من خلاله الجدران في حقيقة الأمر يشبه الطابوق الذي عثر عليه في مواقع أخرى مثل موقع sawwanوقد استخدم بشكل واسع في عموم المواقع الآثرية في المناطق الجنوبية من بلاد ما بين النهرين، تلك المناطق كانت قد وقعت تحت سيطرة العبيديون، أولئك السكان الأوائل هم الذين اخترعوا الزراعة ونجحوا في إنشاء قنوات الري على ضفاف نهر دجلة في منطقة مندلي mandali، وقد وجدت إشارات لتطور معماري متقدم في كل المعابد التي وجدت في منطقة أريدو eridu، وتبعا لتلك الاكتشافات نجد ان هناك صلات مؤكدة بين جهات الثقافة القديمة من خلال تشابه الإنجاز والمشاركة بما تركوه من أثار، كانت مدينة أريدو هي بوابة كل الإنجازات اللاحقة، يمتد ذلك التاريخ من الألفية السادسة قبل الميلاد، من شواهد حضترة " تل العبيد " معبد الآله آنو anuالمقدس في أوروك يعتبر شاهد

على حضارة كبيرة وعلى منجز تم في الماضي، قدمت للبشرية عمليات التنقيب في تل العبيد وصولا الى تل حلف، كلاهما علامة فارقة في سجل حضارة بلاد ما بين النهرين، لقد حفظ لنا الطين الرافدي تفاصيل مهمة عن تلك الحضارة العظيمة، حتى التي صبغ بها الطين تم اختيارها لتناسب البيئة، تم اختيار اللون الأصفر الداكن إلى الأخضر، الطلاء اسمر مظلم غير لامع أو أسود مزرق، هكذا حددوا قاعدة الى تزيين الأواني والقدور وتلك التماثيل الصغيرة كما اخضعوا تلك الرسوم التي تزين الأواني والقدور إلى الوضع الطبيعي حيث تم تجسيد أشكال الحيوانات وتلك الأقواس، كل شيء كان يبدو ساحرا رغم تكرار تلك الأشكال والمواضيع كما استخدموا بذكاء وتوظيف جيد لتلك الأقواس والخطوط المتموجة والمكسورة - كل شيء يؤكد قوة الخيال، تبدو طريقة العمل قد تم استخدام عجلة بدائية يعود إليها صنع تلك النماذج، ربما كان يتم تدويرها يدويا هي تدقق المنجز وتدوّر المقابض وتنجز الأشكال المطلوبة مثل الطاسات والجرار والسلال التي تنوعت الوانها بين اللون الأبيض المائل للصفرة أو بلون العدس وتلك القواعد الدقيقة والأنابيب المرتبطة بها وتلك المقابض الطراز الذي عثر عليه في موقع kish على سبيل المثال كان مختلفا، فخاريات ذات مستوى مدهش تلك التي تم العثور عليها في جميع المواقع جنوب العراق وكذلك في العديد من المواقع من الجهة الشمالية وكلها تؤكد بداية الإشارة الثقافية التي صدرت من موقع تل العبيد **tel alubaid** استخدموا حجارة نادرة حصلوا عليها من مناطق في شمال العراق استعملها الصُناع المهرة في صناعة الأدوات الثقيلة وجزء من الحلي والزينة وصناعة التماثيل وأجسام أخرى مثل المسامير والفؤوس والسكاكين وتماثيل الآلهة من تلك التي وضعت في المعابد، مثل تماثيل الأم التي صنعت من الطين بكثرة وفي أماكن عديدة مثل إمرأة واقفة وتبدو هيئتها بسيطة

أو تمثال سحلية على رأسها تاج من الذهب، كانت هناك تماثيل للرجل وجدت في عدد من البيوت التي تم بنائها من القصب والطين المدعم بجذوع الأشجار وسعف النخيل كما تم طلاء الحيطان بالجص أما السقوف فقد تم تغطيتها بالقار والطين وهي تشبه الى حد قريب بيوت سكان قرى البصرة الموجودة حاليا، البنايات الكبيرة والمهمة استخدم الطابوق من الطين المفخور في بنائها كما في معابد eridu- اريدو ذاك الطابوق تمكن من مقاومة الرطوبة والتلف كل تلك الفترة الطويلة، في تلك المعابد مساحة متروكة تحيط بالغرف الصغيرة وثمة منصة منخفضة تدعم مكان الآله المعبود بينما في النهاية البعيدة عن مكان وجود التمثال ينتصب " المذبح " المبني من الطابوق والحيطان قد زينت من الخارج بدعامات فيها فتحات على شكل نوافذ تسمح للضوء بالدخول الى المكان.



ظلت لسنوات عديدة مجهولة اسس ذلك المعمار الذي تم اعتماده في البناء ولكن المؤكد أنه منذ بدايات فترة العبيد على سبيل المثال كشف علماء الآثار الفرنسيون عن بقايا عدد كبير من البيوت تم بنائها بواسطة الطابوق المفخور وبينها مساحات جعلتها مفصولة عن بعضها البعض، كذلك وجدت بنايات أكبر يرجع الاحتمال أن تكون أماكن لتخزين الحبوب - سايلوات وكانت القرى في مناطق مستوية تحيط بها الجداول وليست بعيدة عن المستنقعات والحقول غير بعيدة عن مواقع تلك القرى، وثمة مزارع للحنطة والشعير والذرة والكتان والعدس وأيضا بساتين للنخيل، تلك القرى محاطة بنباتات صالحة للأكل والماشية بكل أنواعها مضافا إليها الخنازير، كانت الماشية تتغذى على النباتات المائية مثل البردي والقصب، كانوا يقطعون تلك النباتات والأعشاب بواسطة المناجل المصنوعة من الحجر، في منتصف الطريق بين السهل الجنوبي والسهل الموجود في الشمال في منطقة " حمرين" تم العثور على 12 قرية تعود إلى فترة " العبيديون " من خلال جهود فرقة تنقيب بريطانية وذلك في العام 1977 لغاية العام 1980 تم العثور على أحد أهم البنايات التي شيدت في العصر القديم - في بلاد ما بين النهرين - كانت طريقة تصميم البيوت والبنايات في فترة - العبيديون - أيضا تصميم المعابد متشابهة أيضا تماثل إقامة الحيطان والقاعات ووضع التماثيل وأشكالها وطريقة استخدام الأبواب والشبابيك، وأيضا التماثل في محتويات البيت مثل الأدوات والأواني الفخارية وأيضا الأدوات الزراعية، وكلما صعدنا نحو المناطق الجلية في كردستان العراق القديمة نجد ان البيوت استخدمت الحجارة في تشييدها، في تلك المناطق عثر العلماء على اختام وتصاميم متشابهة في الكتابة من خلال الألواح السومرية وتماثيل تعبر عن شخصيات له حركات تشبه حركة الراقصين.



ربما هي تجسد مشاهد معبرة عن فكرة اسطورية أو هي تقوم بالرقص الاسطوري في شمال العراق حيث وجدت الكثير من المعابد الكبيرة ذات بناءا فخما يتكون من عدة مستويات تشبه طريقة إنشاء معابد أريدو وأيضا تم وضع تماثيل نسائية بشكل يبدو أكثر أهمية، ربما كانت طريقة الدفن مختلفة عن الوضع الذي عرفت فيه تلك المدافن في أريدو، حيث وجدت مقبرة كبيرة بعيدة عن القرية أو التجمع السكاني، بعض القبور تم بنائها بواسطة الطابوق وفي عدد من الحالات وجدت القبور في مكان قريب حول البيوت، تلك المظاهر في الغالب لا تختلف عن السائد في فترة " العبيديون " انتقلت فواصل الحضارة من الجنوب إلى الشمال، وهذا يؤكد وحدة الحضارة، سكان تل العبيد ومن جاء بعدهم قد عمل

على تطوير تلك الثقافة المحلية دامت تلك الحالة الف سنة وانتشرت في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين وكان العامل المشجع للإنتشار هو العامل الزراعي وتلك الفعاليات الصناعية الأولى، حضارة الفرات الأوسط ووديان دجلة في السهل الرسوبي أثرت في المناطق المجاورة وكان تكرار وجود المعابد على شكل الزقورة هو من تلك العلامات الواضحة وأيضا إيجاد العامل التجاري وفق الأشكال البسيطة التي بدأت بالمقايضة وتطورت فيما بعد، كان من أبرز المواد التي تم المتاجرة بها هو " الذهب - الأحجار الكريمة - الناتج الزراعي الحبوب والخضار والاسماك والجلود والتمور "، هناك أيضا دلالة على التجارة بالفخاريات من تلك النماذج التي ظهرت في منطقة تل العبيد والتي عثر على ما يشابهها في رأس " شمرا " على الساحل السوري، وعلى الشواطيء العربية على الخليج، كلها رحلت من بلاد ما بين النهرين الجنوبية، وبشكل خاص من موقع تل العبيد الذي ارتبط بالعالم القريب والبعيد من خلال مجرى الفرات وفروعه وحركة الزوارق والمراكب باتجاه البحر القريب والبعيد، عثر على نماذج من المراكب الطينية تحاكي المراكب الخشبية في تل العبيد - اريدو، كانت ثمة مراكز من تلك القرى التي تحولت فيما بعد الى مدن رئيسية في تكوين سومر القديمة، ثمة حقيقة توقف عندها أغلب علماء الآثار وهي ان بنايات فترة العبيد - مثلا المعبد - كان أفضل وأكبر في البناء والمساحة، كانت تلك التجمعات تسعى وتتحرك نحو ظهور المدن الكبيرة - من مدن سومر - التي كان الناس يحلمون بها ويفكرون بإنجازها، ومن شواهدها كانت القصور والقلاع والمعابد التي سميت بالزقورة وقد اسبغوا عليها القداسة، ربما ذلك في تلك الفترة يبدو تفكير غير معقول إطلاقا، ولكن من الحقائق الجوهرية ان مجمل ذلك التطور خرج من المعبد الذي ساهم بقوة في تغيير الحياة الاجتماعية ودعم النشاط الاقتصادي

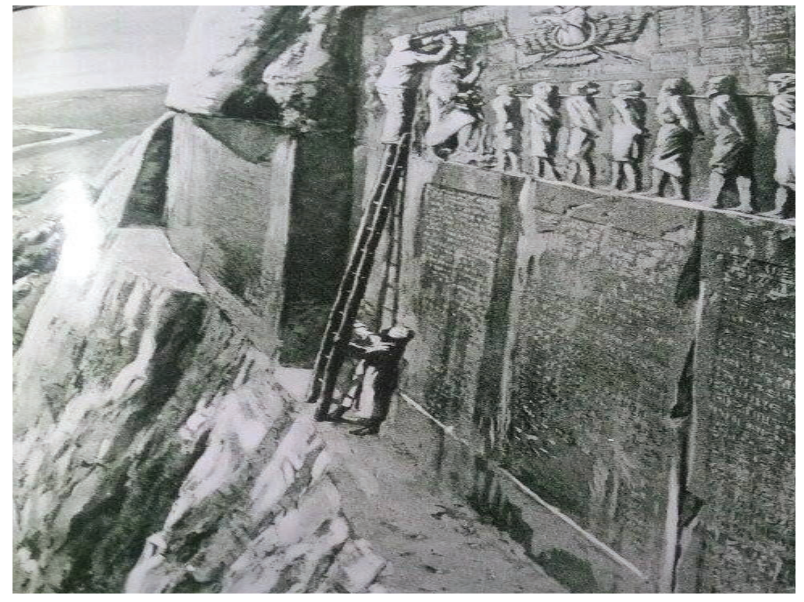
والتجاري في تلك المرحلة المبكرة دفع المعبد الناس للتفكير في إيجاد طريقة للتـدوين، تلـك أولى الخطوات التي بدأت في تل العبيد ودفعت سومر خطوات إلى الأمام...

الحجر والفن

بعد الحـرب العالميـة الأولى اكتشـف علـماء الآثـار الرومـان في منطقـة "زينـو بيورغن " تماثيل صغيرة وأوان مصنوعة مـن الفخـار وألـواح منقـوش عليهـا كتابـات مسمارية، تعود إلى عصر " النيوليت " البلقاني المعاصر لحضارة " فـيشي "- عـلى تلـك الآثار كتابة بلاد ما بين النهرين – بالتحديد الكتابة التي استخدمت في مدينـة أوروك، علل العلماء ذلك بأنها وصلت إلى البلقان في زمن قديم جدا نتيجة للعلاقـات القويـة التي كانت سائدة بين امبراطورية سومر والبلقان وهي تعود تحديدا إلى فترة الألفيـة الثالثة قبل الميلاد، ذاك الحديث المهم قطع الشـك بـاليقين بخصـوص حضـارة كانـت مؤثرة ولها علاقات كونية وإنجازها الحضاري الصناعي يتم تداوله والاحتفاظ به، وفي ضوء تلك التقارير التي نشرها علـماء الآثـار نسـتطيع ان نقـول الإنسـان القـديم إلى جانب اهتمامه في الزراعة والصناعة كانت له اتجاهات في الفـن الـذي تطـور بشـكل واضح وكانت بداياته في بلاد ما بين النهرين وإيران وسوريا وفلسطين وبلاد الأناضول، اكتشف في الكهوف الواقعة جنوب تركيـا وعـلى جـدرانها رسـوم تجسـد اشـكالا مـن الماشية وخاصة الغزال تارة في وضع متحرك او ثابت في كهف " بلـديبي – واوغيوزلـو – من منطقة الاناضول "، تلك الرسوم تتماثل مع الرسوم التي تم اكتشافها في منطقة تقع في جنوب فرنسا، ولكن التقنية تبدو متطورة على النمـوذج الأول، بيـنما اعتـبرت رسوم كهوف منطقة الآورال اكثر نضوجا وهي الاقرب في التجسـيد لمحاكـاة مواضـيع من البيئـة المحيطـة، مـن الملاحظـات التـي سـجلها العلـماء عـن رسـوم الكهـوف ان

الأساليب فيها تبدو متعددة كما شهدت المراحل المتتابعة تطورا محسوبا في بلاد الاناضول والقفقاس وطاجكستان وسوريا، رسوم كهوف منطقة " بليديي " اعتبرت بمثابة تقليد لتفاصيل البيئة الاوروبية ومن مواضيعها تجسيد رسوم للحيوانات ورجال محاربين او في أوضاع عمل أو خلال حلقات لتجمعات كما هي الحال حول صيد او حول النار وما شابه، وتلك الصور محور التجسيد فيها لحالات من مجتمع بدائي جدا، كما وجدت صورتان كبيرتان محفورتان داخل جدار كهف، الأولى لغزال واثبا والثانية تمثل ثورا بريا يجري ملتفتا الى الوراء، ركز الإنسان القديم كما يبدو على المحاكاة الفنية من خلال تجسيد رسوم الحيوانات المحببة إليه مثل الغزال والثور والماعز والخراف وفي بعض الحالات الطيور وأيضا الكلاب، كل الأشياء التي ارتبط بها فن الرسم كانت فلسفة الانسان القديم تنطلق من حالة توثيق لجوانب من حياته وطرق معيشته وكانت تلك فعالية صحيحة جعلت الرسم حالة معبرة جدا عن احتياج للاحتفاظ بفواصل من الزمن ومايملك فيه، ثم جسد حالة الاشتباك مع الحيوانات الكاسرة والاشتباك معها، ثم اقترب في محاولات الرسم من الاقتراب لمحاكاة التخيل الاسطوري والتعبير عن مكنون حالة السحر، في كهوف منطقة " دردوني – الفرنسية " وجدت لوحات أكثر تجسيدا تمثل حيوانات محجوزة في حظائر وحولها الصيادين وبالقرب منهم اكواخ بدائية مصنوعة من القش. في اغلب رسوم الإنسان الأول يعتبر القاسم المشترك.





تجسيد موقد النار وحركة جسد الحيوانات وبعض الرسوم جسدت حضور المرأة يستر جسدها بعض القطع الصغيرة من جلود الحيوانات وبيدها رمح أو وهي جالسة على قطعة من الحجر وبالقرب من موقد نار، كما اكتشفت في فرنسا أيضا رسوم تمثل الشياطين او السحرة الذين يصنعوا الأذى وقد تنكروا بجلد الدببة ويعتقد بعض العلماء أنها جزء من طقوس دينية، كما وجدت في جبال الآلب رسوم مشابهة تحاكي تلك الرسوم التي شاعت في فرنسا في العصور الأولى، من المحاولات الموثقة في فنون الشعوب القديمة –صور الآشوريون " لاماشا الآشورية – وأعطوها رمز الروح الشريرة وأرتبط وجودها بظهور حمى التيفوس، تم تصويرها في تمثال على هيئة امرأة ترضع كلبا وخنزيرا حديثي الولادة، هناك الكثير من رسوم العبادات جسدت أشكال العبادة القديمة خاصة في المعابد، كما تم تصوير مواسم نضج الحبوب حيث تم رسم الناس وهم يغادرون مساكنهم وكذلك الكهوف وهم يجرون العربات ويحملون السلال والأكياس متجهين نحو أماكن الحقول التي يتم قطاف المزروعات فيها، تلك اللوحات شكلت بانوراما عن حياة الفلاحة والرعي وعموم مظاهر العمل، كما صورت لوحات أخرى مظاهر النزاع بالاسلحة القديمة، انتبه الإنسان القديم إلى اهمية الأنهار والينابيع والكهوف ولذلك ارتبط بها ووثق وجود حياته معها، كما وثقت الكثير من الصور حياتهم في الصيد، تذكر التقارير التي نشرت تم اكتشاف أولى منتجات الفن في مستوطنة " عينان " وظهر من تلك الرسوم الارتباط مع تفكير ونتاج تجمعات بشرية أخرى في جبل الكرمل مثلا – فلسطين – أيضا وجد علماء الآثار قطعة من حجر البازلت مصنوعة على شكل تمثال امرأة عارية وقطعتين أصغر منحوتين على شكل رأسين بشريين عيونهما عملت على شكل قنوات، وتم تجسيد شعر الرأس على شكل خطوط....!

الفصل الثاني

الديانة في سومر وما بعدها



الفصل الثاني

الديانة في سومر وما بعدها



مهما قيل عن فرضيات تتعلق بأصل الشعب السومري، ومهـما صـدرت من شكوك تطلق من تلك الجهة او غيرها إلا ان القول الذي لاشك فيه هـو ان حضارة سومر انبعثت من بيئة برد مابين النهرين ومثلت فواصل متداخلة مـن التاريخ، عكست الكثير من المزاج والخواص للشـعوب القديمـة وهـي تضاهي مزاج وخصال الشعب الحاضر، تلك الحقب البعيدة جسـدت تطلعـات شـعب من الفلاحين والمحاربين في صور حافظت في تكوينها على مصادر الفكـر والفـن

والتزمـت بمنظومـة الأخـلاق والتشريـع والعبـادة وأعمـدة اخـرى مهمـة، تلـك المنظومة شكلت العمود الفقري لبلاد ما بين النهـرين وكانـت عـاملا جوهريـا في صـنع الحضـارة والتـاريخ، قـدم لنـا السـومريون كأمـة ظهـرت بقـوة وأسسـت امبراطوريتها في الألفية الثانية قبـل المـيلاد، الشـعب السـومري بنـى وتمكـن مـن محاكاة كل المحيط وعدل عـلى إنجـازات شـعوب أخـرى، نجـح في التـأثير لاحقـا بحضارات أقوام مثل العموريون والحيثيون والاشوريون والكلدانيون، أقوام كثيرة حكمت بعد السومريون في التعاقب على أرض ما بين النهرين، مثل حضارة بابـل التي ظهرت فيما بعد ولم تكن مختلفة عن حضارة سومر بل اعتبرت امتدادا لهـا، ربما تغيرت بعض التفاصيل إلا ان طابع وتأثير الحضارة السومرية يتجلى بوضـوح وخاصة في قضية الدين والعبادة والفنون، سـادت تلـك الأفكـار لأكـثر مـن ثلاثـة آلآف سنة، آلهة ومعابد قدمتها سـومر لتبقـى تتـداول تعاليمهـا وأفكارهـا ثلاثـة آلآف سـنة، تلـك الأفكـار التـي رّوجـت لهـا حضـارة سـومر لعبـت دورا مهـما في حياة شعوب بلاد ما بين النهرين أولا ثـم في تكـوين بقيـة شـعوب المنطقـة، مـن خلال خلق مؤسسات دينية وضعت قواعد وقوانين وأوجدت نصوص دينيـة، تـمّ تدوينها بنوع من النتاج الأدبي الفني الراقي وهي تحكم شرعيـة وجـود الإنسـان والحاكم بمجمل النشاط اليومي في كل المواضـيع التـي تـدعم شرعيـة الحيـاة، في مجتمـع آثـري آخـر لم نجـد الاهـتمام بالديانـة أو العبـادة لتحتـل ذلـك الموقـع، ظل محور الديانة السومرية الاعتماد على إرادة الآلهـة في تحديـد مصـير البشر، المجتمع السومري قد بلور قضية الدين وبنى المعابد وحقق عـدة نتـائج عميقـة تمكن من خلالها انجاز الكثير من التحولات وفق أفكار نظرية وممارسات عمليـة، على سـبيل المثـال وضـع قـانون يؤكـد أن الأرض تعـود ملكيتهـا للألهـة ويحصـل من يزرعها على نسبة عادلة مـن الانتـاج الزراعـي، الملـوك الآشـوريون أصـحاب

الإمبراطورية ذات القوة الهائلة التاي مدت سيطرتها إلى النيل والبحر الأبيض المتوسط وكانوا في كل ما يتعلق بسيطرتهم وانتصاراتهم ليسوا أكثر من الحدم المتواضعين لآلههم آشور فقط، وحكام لجش lagash الذين حكموا وكانت مملكتهم تمتد على بضعة أميال مربعة من أرض سومر، كانوا يعملون بوصايا وبركة إلههم " ننخرسو ningirsu وهذا بالطبع لا يعني ان الأقتصاد والزراعة والتجارة والعواطف الإنسانية الأخرى مجتمعة لم تلعب دورا مهما في صنع تاريخ بلاد ما بين النهرين، بل المفيد من القول ان هذا الشعب السومري ساهم بشكل واضح وفاعل في صنع تاريخ البلدان الأخرى المجاورة، ولكن لا يجب ان ننسى الدور الكبير للعامل الديني الذي ساهم في مجمل تلك التحولات التي صنعت فصول التاريخ المهم لبلاد سومر وممكن ان ندون وصف قصير للأفكار الدينية التي ظهرت في بلاد سومر نستنبط ذلك من خلال قراءة مجموعة من النصوص الاخلاقية والدينية التي ثبتها السومريون في الألواح باستخدام الخط المسماري من حكايات وملاحم وطقوس وترتاتيل وصلاوات وتنجيم واختراع قوائم بإسماء الآلهة وكتابة مجموعة من النصائح وأمثال وحكم لتسهيل المغاليق من مواقف الحياة اليومية وتلك جاءت من مصادر أهمها المكتبة الكهنوتية في مدينة " نيبور – نفر " التي كانت تعتبر المركز الديني الرئيسي لسومر، وأيضا المكتبات العامة ومكتبة قصر الملك آشور بانيبال، البعض من هذه النصوص كتبت في سومر وتوارثتها الأقوام اللاحقة مثلا في نسخ بابلية أو آشورية، عادة يتم التعديل على النص لكي يتكيف مع التوظيف الجديد وهو مثبت في الأدب السومري بشكل لا نظير له وهو مرتبط مباشرة بالدين، ومن النماذج التي اكتشفت لحد الآن، يحدد التاريخ الاركيولوجي ظهور بدايات الشعيرة الدينية تعود إلى فترة 1900 قبل الميلاد وصولا الى القرون الأخيرة قبل الميلاد، وتلك

المفاهيم قد دونت وتمت مناقشتها والعمل بها في المعابد وتضمنتها الألواح السومرية، ولكن هناك فرضيات إلى حد كبير معقولة تؤكد ان تلك التعاليم الدينية انتقلت بين مدار الزمن بالتتابع وكانت بدايتها يعود الى الفترة السلالية المبكرة وربما قبل تلك الفترة أصلا وقبل تكون المدن السومرية، وذاك يستند الى تاريخ الأساطير وأيضا نماذج الاختام السومرية والتماثيل التي اقتربت من تجسيد فكرة الدين، تلك النماذج التي عثر عليها في مدينة " أوروك uruk" وكذلك فترة جمدت نصر، الاعتقادات تشير إلى فترات سابقة بزمن بعيد، حالة الاستمرارية جعلت تلك الأفكار تتعمق وتظهر بوضوح تام في النماذج المعمارية، وهناك معابد تم إعادة بنائها على بناء نفس المعبد المدمر وذلك يشير بشكل واضح إلى الاعتقاد بقداسة المكان، ان الحقيقة الواضحة الآلهة في سومر تمت عبادتهم في جنوب العراق أثناء فترة العبيد ubaidفي تلك المرحلة تمت صياغة الأفكار الدينية والتعبير عن قدسية الآلهة في الأساطير والأناشيد والمراثي، كانت تلك عملية بطيئة في التطور ولكنها كانت ثابتة وذات دلالة صادقة وتم تداول تلك المفاهيم في مدارس الكهنة بشكل آني، لكن بطريقة ما، في النهاية العقل السومري توصل الى ما يشبه الاتفاق على المباديء، وترك الحرية لكل مدينة ان تتخذ الآله الذي تؤمن به، والذي يستطيع ان يرعاها ويحميها من الأخطار، والكوارث وتنسج له الأساطير المناسبة ثمة مدن كانت تعبد الها مشتركا، ونجد ان المجمع القدسي تم تصوره على نسخة طبق الأصل من مجتمع إنساني ونظم وفقا لتلك القياسات وذاك الاعتقاد حقق الرابطة القوية بين السماء والأرض، وهذا كان هدف اساسي في فلسفة الدين السومري، كانت الأرض دائما مفتوحة أمام آلهة السماء، وتستقبل هبوطهم وتعمل بنصائحهم وتنشر تعاليمهم وتسبغ عليهم القداسة، في بداية الأمر في قضية الديانة السومرية، كانت هناك المئات من

الأسماء التي تخص الآلهة وقد انطلقت أفكار تطالب بوجود قاعدة توفيق داخلية بين وجود ومهمات الآلهة، كما ظهر فيما بعد لدى الآلهة اليونانية التي كانت لها مظاهر ومهمات كما سجلت ضدها عيوب ونكسات وتسجيل ظواهر عملها في كسب عواطف الشر، كل الآلهة في سجل سومر وأيضا في تفاصيل تكوين الحضارة اليونانية وهدفها والفرعونية، التصور الواقعي والغيبي القوة الكبيرة المطلقة الرائعة، كان لها سلطان وهي موصوفة بالخلود والإنجاز الخارق، علاوة على ذلك كل الآلهة وضعت وجودها تحت هالة واضحة ومبهرة من الضوء، والتأثير الهام في المصائر واتجاهات الحياة، من خلال تعاليم موشاة دائما بالعظمة التي يكون تاثيرها يحيط بالمتلقي من عموم الشعب السومري كما يحيطهم بالرهبة والاحترام وإعطاء شعور عميق يتعذر وصفه ويستند الى ضرورة الإتصال بالكاهن الذي في كل الاحوال يمثل الوسيط بين الإنسان والآلهة، وبهذه الطريقة فقط يتحقق جوهر الإيمان ويتأكد دور الآلهة والكاهن، وهذا ما تطلب جميع الأديان تحققه في كل مكان وزمان، آلهة بلاد ما بين النهرين في جوهر الحقيقة لم تكن لها منزلة سماوية ولكن لها اعتقاد بشري تم بنائه على أفكار وتصورات أو حاجات روحية، ولم يكن تصنيف تلك الآلهة من السهولة أو مهمة لا يعترضها الجدل أو الشك، وهي تحتمي في حالة وجودها في تصادم فكرتين الأولى تحتضن الشر والأخرى تحتضن الخير.



وكان الصراع الأبـدي في عـالم الآلهـة يـدور بـين عـالم الأرواح الخـيرة والشـياطين التـي تعترض الأمان والطمأنينة والبحث عن حالة السحر والتعاويذ لطرد خيـالات الضرر والاحـتماء بأفكار الدين، الآله الشخصي الذي يعبده أي شخص هو بمثابـة المـلاك الوسـيط، أو ولي الأمـر الذي يرتبط به الشخص المؤمن، والكاهن هو بمثابة الوسيط بين الآله وبين من يؤمن بـه مـن البشر، وهناك آلهة كانت تمثل العناصر الفاعلة في الحيـاة والعمـل، مثـل ظهـور آلهـة كانـت مسؤولة عن المهن المتواضـعة، كـالتي تسـتعمل فيهـاأدوات مثـل المحـراث أو القالـب الـذي يصـنع فيـه الطـابوق أو الفـأس، ولتلـك الأدوات مـن يحركهـا مثـل الخزافـون الحـدادون

الصاغة ومهن أخرى مشابهة، بالإضافة إلى وجود آلهة أخرى تختص في قوى الطبيعة المختلفة وتحقق للبشر الاحساس الواسع في التعبير او خلق التصور، وكذلك تحقيق تفاصيل الوعي والارتباط بالظواهر الطبيعية المطلقة في الكون، ظهرت في هذا المجال آلهة للأنهار والجبال والمعادن والنباتات البرية وآلهة أخرى لها التأثير في تدجين الحيوانات، أيضا في سجل شعب سومر ظهرت آلهة للخصوبة والنماء وللولادة وللطب وللرياح والعواصف الرعدية، وربما كانت هناك آلهة أخرى لم يتم ذكرها ولكنها كانت شاخصة في فكر وتكوين المجتمع السومري تمتلك التأثير المباشر وغير المباشر في تفاصيل الحياة، ذاك التأثير الروحي الكبير الذي يفعل فعله في كل الظواهر المقصودة، كما يمتلك السلطة والقوة التي تدفع العقول نحو الإيمان بتلك الآلهة وتصديق ان لها فعلا حاسما، ذاك هو التصور لتكوين العقلية البدائية للإنسان السومري ومن ذاك التصور بدأ التكوين الديني الأول، تأثير تلك الآلهة تجده جنبا إلى جنب آلهة الحب الى جانب آلهة الحرب مع آلهة النجوم والقمر، مثلا آلهة إنانا التي سيطرت على الوقت وحددت الأشهر القمرية واشارت الى وجود القدر المحتوم الذي يخضع له الإنسان في حياته هي صاحبة فكرة الإرتقاء إلى السماء والنزول إلى العالم السفلي، وهكذا نجد ان فكرة الآلهة وسيطرتها وقوتها تظل غامضة ولكن فعلها موجود في سلوك وعبادة البشر، في قوة آله الشمس " أوتو " أو الإله شمش shamashالذي يعمل من أجل تحقيق العدالة المستقيمة والوقوف ضد العمل الشرير والظالم، وهناك الآله الذي اغرقت قوة فعله العالم بالضوء وأخيرا نجد الفعل الكبير المؤثر للآلهة الثلاثة العظيمة في سومر " enkiانكي، enlil انليل، anuأنو - أو ما يطلق عليه anum في الفترة الآكدية وهو الرمز إلى الآلهة المسيطرة على السماء والتي منها حصل على اللقب واحتل المركز الأول في

الديانة السومرية وهذا الآله كان معبده ينتصب في مدينة أوروك – uruk هو يمثل أصل القوة الكبيرة المطلقة في الكون ملك كل الآلهة أو سيد الآلهة، يقودهم مثل الأب وقراراته نافذة يحكم كما يحكم الملك، ونداءه وقوله لا يرد، هذا ما تم تثبيته في علم الأساطير القديمة، هو لم يلعب دورا في الحياة الدنيوية يراقب الكون وهو بعيد في السماء يدير مجمع الآلهة في بعض تفاصيل تلك الفترة المجهولة، ربما هناك أسباب غامضة في تكوين الديانة السومرية ولكنك تجد الشعب السومري يطلق على الآله إنليل enlil في مدينة – نفر – نيبور nippur لقب الإله الراعي- حصل على الرتبة العليا وصار موجودا في إحساس الشعب المتعبد وهو بمثابة الآله الوطني صاحب التأثير الكبير، هو ذات الآله الذي تكررت عبادته في معابد شعب بابل وعرف بأسم" مردوخ – marduk " ربما كانتحالة تقليد أو إستعارة لمواصفات الإله إنليل، ولكن ثمة فروق بين الآلهين – إنليل أقل سيطرة من الإله مردوخ إله الهواء، له حركة ضخمة وتأثير كبير على حياة الناس، إنليل كان يرمز له على اساس القوة التي صنعت الجنة وتهيمن على مقاديرها، هو الذي فصل الأرض عن السماء، وبذلك تمكن من خلق العالم، له حاشية من علماء دين وهو من سادة الإنسانية أو ملك ملوك الآلهة، هو يحتفظ بالقرار الكبير، هو الذي كان يختار حكام سومر وآكد ويمكنهم من وضع التيجان على رؤوسهم، كل ملك جيد كان يصنع مملكته وفق تعاليمه ويسبغ عليها حالة من الترتيب والرفاهية والعدل ونشر الإيمان، كذلك فأن إله السماء صاحب القوة المطلقة بكلمة يطلقها من عليائه يتحقق المستحيل وبدون موافقة إنليل لن تبنى مدينة ولن ينتصر جيش في حرب ولا ينمو النبات ولا قيمة لعرش ملك، لاكاهن يولد ويكبر وتكون له مكانة، ولا أحد يتمكن من إيقاف غضب الفيضان أو الإعصار ولا يمكن ان تضع الأسماك بيوضها في البحر أو النهر، ولا

يمكن للطيور ان تبني أعشاشها على ثغور الأرض أو في الأعشاش ولا يخرج النبات من الأرض، ولا تتحرك الغيوم ولا يخفق النبات على وجه السهول ولا تحمل الأغصان الورود ذات الألوان المختلفة والأشجار التي تزرع في الجبال لا تعطي ثمارها، أن شخصية الإله أنكي enki معروفة أكثر ومقدسة لدى شعب سومر ولكنها تبدو أكثر تعقيدا على الرغم من كل المظاهر المقدسة، بعض المصادر لاتحسم الجدل بشأن المعنى المضبوط للإله السامي أنكي وما دلالاته، أن أرض سومر كلها عائديتها له، ولكن ليس هناك من شك ان أنكي هو إله المياه التي تتدفق في الأنهار والبحيرات والتي ترتفع في فصول الربيع في الآبار والآنهار والسواقي وتجلب إلى بلاد ما بين النهرين الحياة والنماء والخير الوفير، أحاط بما يحصل وما في علم الغيب القادم، آذانه الواسعة الكبيرة ترصد كل حركة تدب أو كلمة تقال في سومر ولمعرفته بما يحتاج السومري وفرّ كمخترع كل التقنيات والعلوم والفنون وقدم الرعاية للسحر والفلك علاوة على ذلك كان الآله enki هو الذي دعم فكرة وجهود تطوير الحضارة وتوجيه عقول الشعب السومري إلى تلك الأهداف وهو الذي لعب دورا كبيرا في الأقدار بعد ان خلق العالم طبق من أفكاره التي لا نظير لها كما ابتكر القوانين وجعل عقول السومريين تهتدي إليها وفق مراحل متتابعة كما لو انه كتب في عملية الخلق تلك قصيدة سريالية فوضع العالم بالترتيب ومدّ بركاته ليست فقط إلى سومر، بارك سقائف الماشية والحقول والمدن حتى " ديلمون dilmun" ويشمل ببركاته كل خيام بدو الصحراء، تحول في بدء الخلق إلى ثور وملأ نهر دجلة بماء منيه الفوار وجعل الحياة والنماء يتحرك فوق الأرض وفرض واجبات الآلهة ومهماتها وتسلم زمام الكون ثم سلمها إلى الآله أوتو – utu إله الشمس، هذا المصمم والمهندس البارع الذي قال بأنه كان يسمع ويرى كل حركة أو فعل وهو العقل المدبر فوق الأرض، أيضا كان هو

الآله الأقرب والمفضل لدى رجال سومر، هـو الـذي وضـع الفكـرة الرائعـة لخلـق البشرية وسهل مهام عمل الآلهة وأيدها بقوته وبصيرته، ووفر الحماية للبشر من كوارث الفيضانات، مجلس الآلهة يتكون من آلهة من جميع الرتب رجالا ونساءا، النسـاء الـبعض مـنهن كـان مجـرد زوجـات للآلهـة بيـنما كلـف آخـرين بالقيـام بوظائف معينة، يبرز بينهم اسم الآلهـة الأم نينوسـاج والتـي عرفـت بأسـم آخـر ninmah أو ashtarلدى الساميين والتي لعبت دورا مهما في علم أساطير بلاد مـا بين النهرين، الأساطير التي نشأت في سومر وبابل وآشور - بلاد ما بين النهـرين - تتحدث عن خلق العالم والإنسان وهـي أيضـا تتضـمن القصـص والأسـاطير التـي تروي ما فعلته الآلهة والأبطال من الأفعال الخارقة، استلهمت في سجلها الظواهر الطبيعية مثل نشوء الشمس والقمر والنجوم وقد تـم تصـويرها ومحاكاتهـا عـلى هيئـة شخصـيات بشريـة عاشـت عـلى الأرض ثـم تطـورت قـدرتها فصـعدت إلى السـماء وبعـض الأسـاطير تحـدثت عـن خلـق السـماء والكواكـب والشـمس والقمر والجبال والبحار ونسبت خلقها إلى قـوة خارقـة، في المواقـع التـي سـكنتها الشعوب القديمة تعاملت مع الحضارة أو أنتجتها كانت لها الكثـير مـن الأسـاطير والملاحم وظهرت لديها أساطير متطورة جدا وهي تتحدث في مضامينها عن نشوء الكون والإنسان، كتبت أساطير تصور نشوء الكون وتواجـد الـبشر في المجتمعـات القديمة، منذ بداية التكوين نجد ان أساطير بلاد ما بـين النهـرين شـغلتها بشـكل شامل قضية الخلق وتطور الإنسان وإنجـازه مـع التركيـز عـلى التشريـع وفلسـفة العلاقة بين الإنسان والآلهة وإقرار القانون، كما هي الحـال في إسـطورة الخصـب والنماء عند السومريين وهي تتحدث عن الإله " ديموزي الذي يمـوت ثـم يبعـث حسب تبدل الفصول وكـذلك ملحمـة جلجـامش gilgamesh التـي تحـدث عـن البحث عن نبات الخلود، تلـك المحـاولات كانـت بمثابـة الشـكل البـدائي لتكـوين

الثقافة وتجربتها، احتاج الإنسان إلى الأمان الروحي لذلك فكر بصناعة الشعيرة الدينيـة، في فترات متلاحقة تطورت المثيولوجيا في مجال الإسطورة والملحمـة وتوسـعت افـاق الشـعيرة الدينية مما دفع الشعوب إلى مراحل حضارية متقدمة شخصت من خلالها التصور الخيـالي عن خلق الكون وعوامل السـيطرة عـلى الطبيعـة وفهـم الواقـع البيئـي المحـيط بالإنسـان وكيفية مواجهة التعامل معه، كانت الإسطورة والملحمة في بلاد سومر وبابل وآشور تنطلـق نحو الأرتباط بقوى الفضاء الكوني وخلق تفسير للظواهر الطبيعيـة وتصـويرها عـلى هيئـة شخصيات حية من رجال ونساء وكائنات مزدوجة الشكل أو الفعل، كـما صـورت الأمـراض والكوارث على شكل شياطين أو عفاريت أو غول أو أجسـام مخيفـة تلقـي الرعـب في روح من يراها، أما الرمز إلى القوة فقد جاء بعد الأيدي المفتولة العضـلات وقـوة الرؤيـا بتعـدد العيون الواسعة وسهلوا الأمر كثيرا عنـدما جعلـوا العلاقـات بـين الآلهـة والأبطـال والأرواح السابحة في الفضاء وتربط بينهـا علاقـات عمـل أو صـداقة أو روابـط عائليـة، حيـث ربـط الإنسان القديم بشكل فنطازي بين الإسطورة والشعيرة الدينيـة التـي حولهـا إلى طقـس لـه قوانينه وأبعاده تسخر الإسطورة لرواية الحدث الديني وفق نظريات وأبعـاد مطلقـة، كـما تمكن من صنع الأحداث الإسطورية الخارقة من خـلال البنـاء الـدرامي للحـدث أو الفكـرة والكلام يمكن ان يتم ترديده أو تجسيده بالحركة والتعبير، وتمكن بشكل معقول مـن ربـط الطقس الديني مع الشكل والمضمون الأسطوري أرتباطا قويا وجعل له المصداقية والتصـور هو أولا خلق الشـعيرة الدينيـة ووفـر لهـا الإسـطورة لتعميـق التـأثير وتعميمهـا في عمـوم المجتمعات البدائية.



الرؤى الدينية صنعت لها البساط الذي تطير به وكان ذلك الحدث الإسطوري المبهر والذي يثير السؤال ويطلق عاطفة التطهير، شكلت الأساطير الكنز الكبير روحيا ومعرفيا ومنح الإنسان في المدن القديمة بناء التقاليد والعلاقات وتعميق النظام والقوانين ومستويات الحكم وأهمية التعليم، وجعل التأثير المطلق للإسطورة في مجال التوضيح وفتح المجالات المغلقة أمام الخيال البشري، في كل المراحل ظلت أسطورة العبادة موشاة بالشكل المقدس، وظلت مضامينها وقواعدها محاطة بالقداسة، وتؤلف الراحة في مجال العبادة والعمق الباطني لمن يبحث عن الخدر والإنغماس في عوالم متخيلة بعيدة، ارتباط الإسطورة بالدين كان قد تم صنع رابط العلاقة بينهما بقوة والمطلوب من إتحادهما صنع عمود الخوف الذي يرتكز في أرواح وقلوب الضعفاء من البشر ويؤلف القاعدة الواسعة لأهمية الدين كعامل للخلاص والأمان، وكما نجد ذلك

في إسطورة الآلهة إنانا، كانت تمثل موقع آلهة الجنس المقدس والحب والخصب والنماء، لم يكن لها زوج أو أطفال، الآلهة الجميلة التي شغلت فكر الكثير من الرجال والنساء في مدينة سومر كانت مهمتها ان تهدي الشعب الى الحب اللذيذ وتثير شهواتهم من خلال الطقوس الجنسية المقدسة، ترسم لهم من خلال تعليماتها الدينية المكتوبة في أساطير تشبه نصوص المسرح المعاصر - الصور الجنسية المتخيلة وفق صور محسوبة بدقة تنسجم مع الأفكار والرؤى الدينية، من خرل فعل المتعة تقود إلى إنفجار العواطف العنيفة وفق حالة من الغضب والسرور والمتعة، كلماتها فيها الحرارة والإثارة التي لا حدود لها، وهي أيضا آلهة الحرب الهائلة، السمة الثانية في شخصيتها رفعتها إلى منزلة الآلهة الذكور حيث قادت الجيوش في المعارك إلى جانب حبيبها وزوجها " ديموزي dumuzi" الآله الوحيد الذي أحبته ويوصف أنه نتج عن إنشطار آلهين قبل التاريخ وهو كان يرمز إلى الآله حامي الماشيه والنبات - يموت في الصيف ويعود إلى الحياة في فترة الربيع، وهذا إعتقاد لدى السومريين وهو يتعلق بولادة الماشية وتجديد النباتات والفاكهة الصالحة للأكل وكان ذلك يتم وفق مراسم، تحصل في يوم رأس السنة الجديدة من كل عام، الذي يلعب فيه الملك - أي ملك يحكم المدينة دور ديموزي - وذاك الدور يؤدي الى دور مكمل مع الآلهة إنانا - اتحاد من خلال الزواج مع الكاهنة الآلهة، وتتردد قصائد الحب الممزوجة بالشهوة الجنسية كانت تلك تقدم على شكل عرض مسرحي في احتفال طقسي علني يحضره الشعب وفيه تعبر الكلمات عن العواطف الطرية، ويتم في كل التفاصيل التعبير عن فكرة " الزواج - الجنس المقدس " في شكل اسطورة كتبت فصولها بالشعر الجميل، تعتبر تلك القصائد وكلماتها من التراتيل الملكية - الأكثر وضوحا، كتبت في أواخر الألفية الأولى في زمن الملك LDDIN- DAGAN وهو من ملوك السلالة الثالثة في

مدينة ISIN ايسن تبدأ مشاهد طقوس الجنس المقدس على سرير في غرفة خاصة من القصر الملكي نشر عليه غطاء مريح وتكون الآلهة قد استحمت ورشت على جسدها أجمل العطر ومسحت جسدها بزيت المسك وعلى الأرض فرشت العديد من الورود، ثم يأتي الملك، يقترب من حضنها بكل الفخر، يضطجع بجانبها، يداعب حضنها الطري الصافي، عندها تكون الآلهة - السيدة - قد تمددت على السرير وصارت في حضن الملك الصلب الصافي المشع بالرغبة، عندها تكون إنانا قد تمددت في حضن الملك الصافي، تمارس الجنس معه على السرير، تقول له: أنت بالتأكيد محبوبي الوحيد، فيما بعد يدخل الناس وهم يحملون الهدايا، المنادي يدعوهم للدخول سويا، الموسيقيون يعزفون أجمل ألحانهم، الخدم يقدمون وجبة طعام خاصة، البهجة تملأ القصر، الملك سعيد جدا، يقضي الناس أجمل يوم في عامهم الجديد، ولكن السعادة والوئام والوفاق لا تدوم طويلا بين إنانا ملكة السماء والأرض وديموزي كما ورد في النص السومري المشهور الذي يتحدث عن الآلهة " إنانا ملكة السماء والأرض - أنظر ترجمة النص في كتابي " الإسطورة السومرية - دار تموز 2016 " عثر على نسختان من النص المكتوب بالحروف المسمارية - نسخة في مكتبة الملك الآشوري - آشور بانيبال، وأخرى في مدافن مدينة " نفر نيبور " في نص الإسطورة تذهب الآلهة إنانا إلى أسفل الأرض التي لا عودة منها - العالم الآخر - العالم الأسفل - وهي تتعرض للمواجهة مع شروط قاسية وضعتها شقيقتها الآلهة للعالم الآخر " ارشيكيكال- ERESHKIGAL "، ترضخ لكل الشروط لكي تمر إلى العالم الآخر، تنزع قطع ملابسها وتتخلى عن جواهرها في كل مرحلة تمرّ فيها من إحدى البوابات المؤدية إلى هدفها المنشود، هدفها الحصول على ما تريد لكنها في نهاية المطاف تقع رهينة في يد شقيقتها واتباعها، سوء حظ إنانا وتقصيرها في

إدارة المواجهة مع آلهة العالم السفلي يجعلها تواجه حتفها، تموت الآلهة إنانا، ثم تبعث بعد ان يتدخل الآله " أنكي ENKI" لكن شرط عودتها إلى الحياة وخروجها من العالم الآخر يضعها أمام شرط قاس، لن تتم عودتها إلا إذا وجدت بديلا لها، وتبدأ رحلة البحث عن البديل الذي يمكنها من العودة إلى الأرض، تختار التضحية بحبيبها المفضل " ديموزي DUMUZI" الذي يلقى عليه القبض من قبل " الشياطين " يأخذوه إلى العالم الأسفل، ذاك يؤدي إلى حزن أخته آلهة الكرامات " جيتشيانا – GESHTINANNA"، لكن إنانا تنخرط برثاء حزين من أجل " ديموزي " ويحصل القرار بإن يقضي عقوبتهفي العالم الآخر وتكون مدتها ستة أشهر وتكمل أخته نصف العقوبة التالية اي ستة الأشهر الباقية من مدة العام..

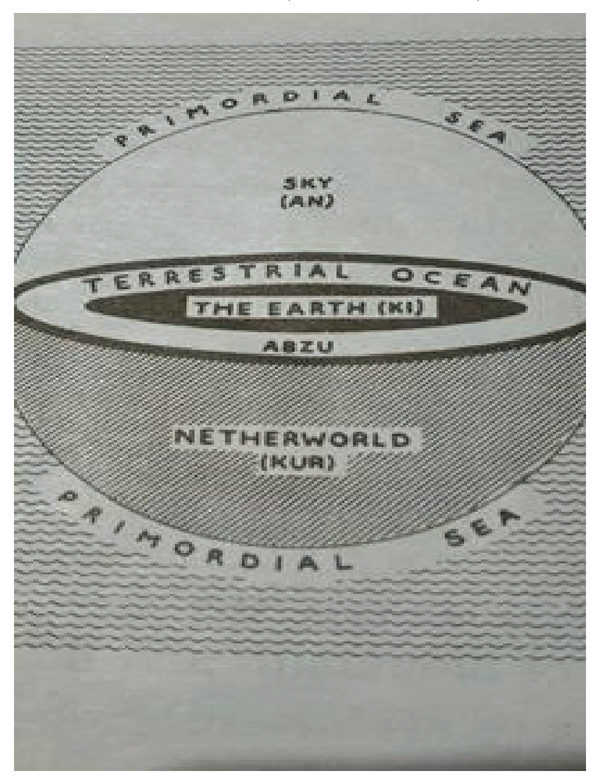


نشأ " طقس الزواج المقدس " في مدينة أوروك – URUK" لكنه فيما بعد أنتشر في المدن الأخرى أستمر حتى نهاية السلالة في العام 794 قبل الميلاد في مدينة " ايسن ISIN "، بعد تلك المرحلة صار الآله ديموزي ثانويا، لكن العالم العربي فيما بعد أطلق اسمه على أحد الشهور في التقويم السنوي وأعتبر من الآلهة السامية وفق المفهوم المثيولوجي، يعود ترسيخ الفكرة إلى القرون الأخيرة للألفية الأولى قبل الميلاد، على أية حال الطائفة المؤمنة بإسطورة " ديموزي " أنتعشت في المشرق فأطلق اسم جديد لإله النبات أوزيروس أدونيس OSIRIS ADONIS-" في المثيولوجيا الأغريقية الذي يموت كل سنة ويندب في فلسطين القديمة – القدسJERUSALEM " وفي منطقة بيبيلوس BYBLOS وأيضا في قبرص – SYPRUSوحتى في روما القديمة ROME توجد إسطورة يونانية بطلتها افروديت APHRODITE وحبيبها PERSEPHONE اللذان كانا يتشاجران ويتدخل الآله زيوس ZEUSويحكم بأن أدونيس يشترك في السنة بين الآلاهين، وهكذا نجد الإسطورة السومرية يتكرر صداها في الحضارات اللاحقة – اليونانية والاغريقية – اللتان استندتا على الكثير من الأساطير والملاحم والأفكار التي ظهرت في سجل الإمبراطورية السومرية ومنها إسطورة الجنس المقدس إنانا آلهة السماء والأرض مع التحوير او التعديل..

حكايات الخلق

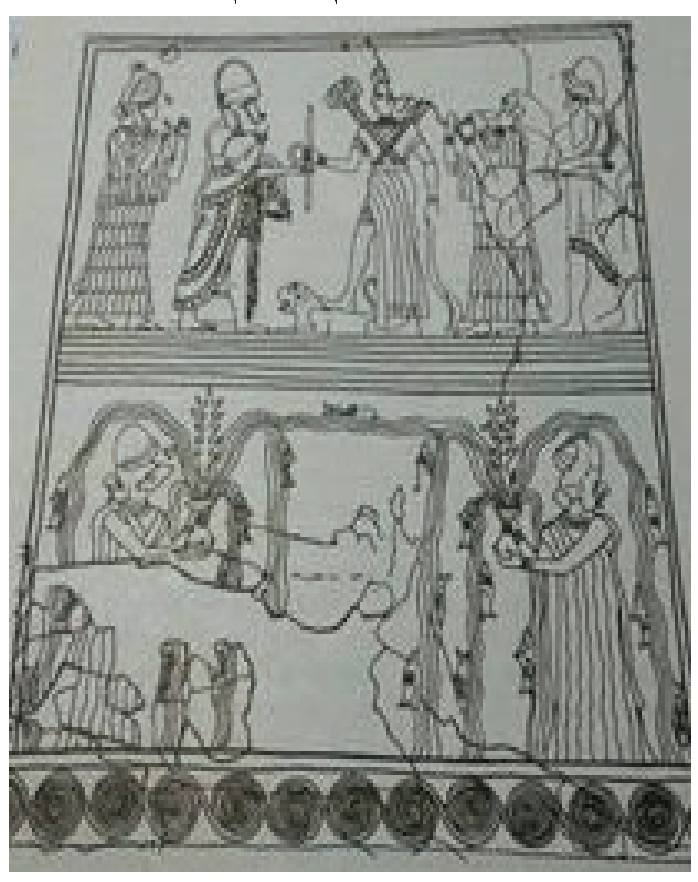
تخيل الشعب السومري في بلاد ما بين النهرين، الأرض على شكل قرص مستوّ، أحاطت به المياه من كل جانب، فيه جبال عظيمة ومخيفة أدغالها، ولها أنهار عديدة تجري فيها المياه العذبة، والحيوان الخرافي " الابزو " يسكن في الكهوف، وهو يعتقد ان الأرض قد أنفصلت عن السماء التي تسكن فيها الكواكب والقمر والشمس، كما اعتقد السومريون أن نصف الكرة الأرضية

ظاهرة والنصف الآخر هو الذي يمثل العالم الآخر – السفلي – غير الظاهر للنظر، وهناك في ذلك العالم المجهول تعيش أرواح الموتى، كما اعتقدوا ان الكون الكامل هـو السـماء والأرض له آله واحد هو – أنكي – هو خلق الكون كما يخلق فقاعة عملاقة وركز ما يريد في محيط بدائي ذو أذنين وركز الفراغ وخلق العديد من الأمم وذلك في مجال غير محـدود يحـيط بـه الماء المالح، ولا يوجد على الأرض في مرحلة الخلق سوى بلاد ما بين النهرين – ثم خلق كـل الكون المكمل من أجلها وشق لها نهرين من مـاء عـذب كالعسـل، وأعطـى شـعب سـومر أعظم الذكاء والصبر، في مدينة " نفر – نيبور "، خلق العالم وجعل السؤال حينا يتفاوت مع الجواب، هكذا كانت مضامين أفكارهم..!، أسسـوا التقاليـد المختلفـة وبـدأت ولادة الـدين وأمن البشر من خلال تعاليم آنو – anuالعظيم.



الذي خلق الجنة ووضعها بين السماء والأرض، أنكي نشر خيمة الحياة بموافقة مجمع الآلهة " الآبسو " الذي أتخذ مسكنه في السماء، هو خلق الكون لكل الآلهة، وكلف أربعة آلهة عظيمة أن تتصرف في إدارته بشكل جماعي، وكانت المواجهة الأولى ضد الدودة التي كانت مسؤولة عن أوجاع الأسنان البشرية، تقول الآلهة " آنو – anu" خلق السماء وفصلها عن الأرض والتي بدورها خلقت تباعا الأنهار، والأنهار دعيت لخلق القنوات ومن ثم عملت على خلق المستنقعات والمستنقعات خلقت تلك الدودة، "وتلك تبدو مثل أغنية مكتوبة للأطفال "، ربما الآن لا نأخذ هذه الأفكار على محمل الجد ولا نؤمن بها ولكن الإنسان القديم في سومر كان يؤمن بها، وجد ثمة إهتمام كبير في مدينة " سيبار – sippar" طبقا لتعاليم الآله الكبير " مردوخ – marduk" كان عليه أن يبني مركبا وضعه على سطح الماء، وترك تلك التعاليم يتناقلها فيما بعد عرب جنوب العراق الذين برعوا في صنع الزوارق " المشاحيف " وجعلوها تسير في الأنهار وتمكنوا من صنع جزر صناعية ونصبوا فوقها أكواخهم التي بدت تطوف فوق الماء، السومريون روضوا ذاك العالم المائي الساحر، الآلهة هي التي أهدتهم إلى المعرفة وركزت في عقولهم الذكاء الحار، أعتقد عموم شعب سومر ان الآلهة " نامو – nammu" أنجب لوحده سماء ذكر وأرض نسائية، كلاهما أنضم بحميمية إلى الكون، وكان ثمرة إتحادهم العظيم خلق آله الجو " أنليل – enlil" الذي عمل على فصل السماء عن الأرض، وبالنتيجة الأخيرة خلق المخلوقات الحية، كما خلق المحيط الحيوي الذي من خلاله خلق الحياة بكل عناصرها، وجد بعض رجال البحث من المعاصرين متكئا على رواية الكتاب المقدس الذي يقول " ان أولاد اللـه نزلوا إلى الأرض فوجدوا بنات الإنسان جذابات للغاية فعشقوهن وتزوجوهن وأنجبوا منهن أولادا " ثم ذهبت رواية تخيل الخلق والتكوين بإتجاه

آخر، بعض مطلقي النظريات من دارسي نزول رواد الفضاء القدامى يقولون ان القصة التي تتحدث عن الطريقة التي خلقنا بها كانت بالحقيقة نتيجة التلاعب الجيني وكما تحدثت قصة الخلق القديمة عن آلهة سومرية خلقت البشر من أنابيب واجرار وصلصال، ولكن يختلف العلماء في التفسير فيقول بعضهم إذا أيدنا تلك النظرية – عن هبوط رواد الفضاء القدامى – فالآلهة التي تقوم بعملية الخلق هذه ليست آلهة بالفعل بل هي في الواقع مجرد مخلوقات فضائية، والمخلوقات الخارجية لم توسخ أيديها، لقد كانت لديهم قوة مطيعة وعاملة هنا على الأرض وكانوا يعبدونهم على أنهم آلهة.



كانوا بحاجة إلى قوة عاملة، رواد الفضاء القـدامى أتـوا إلى الأرض لسـبب واحد وهو إستخراج المعادن من المنـاجم ولم يجـدوا أناسـا يعملـون في المنـاجم فقط، بل كانوا يربون الحيوانات ويزرعون المحاصيل لإدامة الحيـاة والاسـتمرار، كان العمال بشكل أساسي يمثلون خـداما للإلهـة، هـذه مجـرد افتراضـات نشرت مؤخرا وقد يتوصل العلماء الى نظريات أخرى مهمة تكشف عن دقة القوة‌ل ان المخلوقات الفضائية قد جاءت للعمل على الأرض أو تظهـر تقـارير تنفـي تلـك الفرضيات، في العودة إلى السائد حاليا من الأفكـار نجـد ان التكـوين الحقيقـي للفكرة عن وجود الضوء الأول للحضارة الكونية يربط البداية عند زمـن بدايتـه قبل 6000 سنة قبل الميلاد عنـدما تـم تـرويض الحيوانـات والمبـاشرة بالزراعـة، كانت تلك مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الـبشري، ظهـرت خيوطهـا كغمامـة من الغبار الكوني اجتمعت بعناصرها لتشكيل النجوم، كما ظهر نوع خاص مـن المجتمعات تماما مثل تلك التي في سومر – الواقعـة في بـلاد مـا بـين النهـرين – أناس مشتركون يشكلون كثافة سكانية عالية، تنمو لتنال مقاليد القوة والإبتكار في 3000 عـام قبـل المـيلاد غـدت واقعـا أطلـق عليـه تسـمية بعـض هــذه المستوطنات السومرية – مدن الإنسان الأولى – وفي مقـدمتها " أور- التـي كـان يقطن فيها حوالي 50 ألف نسمة كانوا يعيشـون في مسـاحة تقـدر في أقـل مـن ميل مربع واحد، هذه الكثافة السكانية تنافس الآن مدينة " نيويورك " في وقتنا الحالي، في تلك المرحلة البعيدة أصبح الإنسان مكتفيا إلى حد بعيد فهـو يحصـل على الطاقة من غذائه المحلي، بحيث ان هذه المساحات من الأراضي التي كانت تُعيل الأفراد الآن بإمكانها ان تعيل مجموعة قليلة وفق مفهـوم الأمـن الغـذائي وتشكل اعتمادات جديدة محدودة للغاية، عندما تقدم للزراعة سيكون نجاحها في زراعة نوع او نوعين من المحاصيل، كانت سابقا تلك الأرض وخاصة في الشرق

الأوسط تزرع الحنطة والشعير وكلاهما ينضجان في الوقت ذاته، في المدن الأولى هـذه كانت المحاصيل المسيطرة لتسيير أمور البشر، ومع النجاح الكبير للزراعة كـما اسـلفنا بدأ البحث عن نظام للتدوين - الكتابة - ومن أجل حمايـتهم شـكلوا أولى الجيـوش في التاريخ، ولكي يديروا شؤنهم بنجاح ابتدعوا السياسة والإدارة، عنـدما يكـون لـديك مئات بل آلآف من الناس يعيشون سوية فهـذا ببسـاطة رقـم عـال جـدا مـن النـاس يساهم في خلق ضرورات عدة، يخلق الحاجة الأكيدة لخلق وتشكيل حكومة بهـدف خلق ضمان سياسي واجتماعي ما، نمو البذور وضع الإنسان في منعطف جديـد وبعـد تلك الخطوة تطورت المستوطنات إلى مدن، وهكذا اعتمدت الرغبـة لاتخـاذ الخطـوة الملحمية القادمة، واعتبرت الاساس في تحويل المدن الى حضارات كبـيرة، وقـد نحتـاج إلى مساعدة من مخلقوق مدهش يصوب خطواتنـا وذلـك يُعـد عمـلا مدهشـا، قبـل 5000عام وبعد مسافة زمنيـة تعتـبر 100 الـف عـام قبـل المـيلاد مـن تـاريخ تحـول الإنسـان عـلى الأرض صـار الإنسـان أخـيرا كائنـا مسـتقرا، البشريـة عمومـا التصـقت بالمناطق القريبة من الأنهار وخاصة في تكوين بلاد ما بين النهرين على امتـداد نهـري دجلة والفرات حيث الحضارة كانت على وشك الإنبثاق، لكن في البداية على الجميـع ان يتقنوا شيئا واحدا حيـث حصـل التبـادل التجـاري، فهـم عنـدما يتبـادلون السـلع بشكل أوسع ويتعلمون من بلـدان أخـرى فـأنهم سـينمون وجـودهم بشـكل أوسـع وأسرع، يبدو أن تجارة المسـافات الطويلـة والمواصـلات هـي إحـدى المسـببات التـي سمحت للحضارة الأولى أن تزدهر على الشكل الذي نعرفه وبلا دهشة كبيرة، وهنـاك من يقول ان الحضارة الأولى وصلت على ظهـر مخلـوق عجيـب، يتمتـع ربمـا بصـيت سيئ في عالمنا المعاصر، اقصد هنا " الحمار - البغل " ان القافلـة التـي يقلهـا الحـمار كانت بمثابة الطريق السريع الناقل المضمون وهـو مخلـوق شـبكة التواصـل القاذفـة

السريعة في ذلك الزمان، عبر الطرق التي شقوها في تلك المحاولة تم وضع الحجر الأساس للعالم الحديث، تلك الحيوانات العظيمة تم من خلالها ليس نقل السلع التجارية بل الأخشاب والبرونز وكذلك أوصلت من خلال الرجال الأفكار والقصص، وجعلت المدن والحضارات ترتبط مع بعض وتتفاعل، ولها ذكر في الكتاب المقدس، أن مسارات هذه القوافل تلتقي في مناطق متعددة من الخليج العربي، حيث يتم وصلها بالسفن التي تحمل البضائع إلى بلاد الهند، تلك المخلوقات كانت سببا مهما في شكل تغيير نمو الحضارة، وأدخلتها الى طور التبادل المادي والثقافي على نطاق واسع، حقا كما يقول أحد العلماء أن تلك الخطوات الأولى كانت هي بدايات تكوين العولمة، أنه السبيل الذي نفهم من خلاله كيف يعمل عالمنا إلى يومنا هذا، تماما مثل الحضارات الأولى، نحن نتاجر مشكلين أشبه الى تكوين الشبكات – هذه تشكل بدورها منصات وعبر عصور التاريخ المتكونة في تلك المنصات، لبث شيئا واحدا هو جعل العالم كله متصلا وقرية صغيرة، في العام 2000 قبل الميلاد أنتقل الإنسان من مرحلة الأكواخ المتواضعة إلى أفق المعالم الحضارية العملاقة، في أفريقيا قامت الأهرام العظيمة على ضفاف النيل، وبالعودة إلى أرض سومر فأن المعابد الرسمية القديمة هناك تدعى " الزقورة " ترتفع عاليا صوب السماء، ولغرض تثبيت هذه العناصر الهائلة مع بعضها، لجأ السومريون في تفعيل البناء والحصول على تلك المادة المهمة الناتجة من الترسبات، على طول نهر الفرات أنها مادة " البيتومين " والتي استخدمت من قبلهم كأسفلت وذات الاستخدام في عالمنا المعاصر، أنها المنتج البترولي الأول الذي أكتشفه الإنسان، وبما ان البيتومين باهض الثمن اعتبرها القدماء من المعادن الجديدة لأنها تلتقط النار بسهولة تامة، فقد أطلقوا عليها تسمية " نافتا " اليوم نحن نسميها البنزين، وهي واحدة من أولى الإضافات لمجالات

النفط الواسعة والتي في يوم ما ستحول أرض مهد الحضارات إلى مركز للثروة ولتركيز شبح الحرب، أن موروث هذه الحضارات الأولى يمكن ان يشاهد بطرق مدهشة ثم حقيقة يقودنا إليها الحديث تتعلق بالنظام السومري الذي كان يقوم على الرقم 12 بدلا من الرقم 10 ولهذا السبب نحن نقسم يومنا إلى قسمين من 12 ساعة وساعتنا نقسمها إلى 60 دقيقة ودقائقنا نقسمها الى 60 ثانية ولا أحد يعرف السر في ذلك لماذا فكر السومريون هكذا...؟ هم أيضا من أخترع العجلة التي تقود إلى الاختراعات الأخرى والتي غيرت مسيرة الإنسان عبر العصور، أبحاث كثيرة صدرت حديثا في العالم الغربي وخاصة في أمريكا تتناول التكوين – الخلق – وأصل وجود السومريين – من هم - واتوقف عند البعض من تلك الأبحاث المهمة وأقدم بشكل مكثف بعض المعلومات التي وردت فيها، ربما تقام الحجة أو الدليل عليها أو ترفض من خلال مفاهيم علمية تقدم البديل عنها، من الظواهر التي أثبتها العلم الحديث نتائج تتطابق مع فرضيات وعلوم شعب سومر، وثمة سؤال محوري ظل يدور حول السومريون ومعرفتهم للفضاء البعيد وكشف أسراره والكواكب وأسرار الفلك، العلم قال توقعاته بحيث عمل حساباته وسار بإتجاه نهاية مجهولة، والتزم بحقيقة ان العالم بدأ من خلال الرسوم القديمة في الكهوف وانتقل إلى غزو الفضاء، تشبث العلم بحقيقة البداية المؤكدة للبشرية وأطلق السؤال وفيه الكثير من التخوف، ماذا لو وقعت مسألة الأصل البشري خارج نطاق القبول بالعلم، ماذا يحدث يثقافتنا لو أكتشفنا أننا كجنس ليس سوى تجربة جينية أجراها شكل حياتي هو الأسمى، على مر سنوات القرن العشرين شهدت تطور العلوم ودقة تجارب البحث العلمي والحضاري – الاركيولوجي – وظهرت أثر ذلك إمكانيات عديدة من الأفكار والفرضيات المتعلقة بالتكوين الجغرافي العالمي.



ولم تعد الإنجازات في المجال العلمـي والتكنولـوجي تقـاس بفـترة العقـود والقـرون الزمنية، بهذا التنامي غير الاعتيـادي تجـاوزت البشريـة عمـل إنجـاز سـجل خـلال ألفيـات الحضارة المعروفة، لكن ماذا لو تبين ان أكتشافات يومنا هذا والمتعلقـة بالإنسـانية والأرض وأصلنا معرفة جديدة، ماذا لو كانت هذه المعرفـة الجديـدة المفترضـة مخفيـة بـين أطـلال قوى قديمة بإنتظار أن نكتشفها، هذه المعرفة الجديدة المزعومة والمكتشفة في ركـن صـغير من الكون ويدعى الأرض يمكن اعتبارها عـودة، أفكـار وفرضـيات تلتقـي مـع علـوم الآثـار وما جاء في كتاب التوراة، حيـث أفـاد بعـض علـماء الآثـار المشـهورين عالميـا ممـن كرسـوا حيـاتهم لدراسـة الحضـارات القديمـة ولغاتهـا وفنونهـا ومعتقـداتها ومعارفهـا وفرضـياتها،

وكانوا يواجهون السؤال وهـو " عنـدما تـدرس وتعـاين كـل هـذا فهـل أنـت في فضـاء الخرافة أو في مواجهة الأسـاطير، أم هـي حصـلت حقـا، بعـض العلـماء نشروا مقـالات وكتب ثبتوا فيها قناعاتهم على أنها حصلت فعلا، وهذا تطلب إثبات علمـي موثـق، في غمرة خصوم مجتمعات أو دول أو كيانـات، يـنسى الـبعض حقيقـة جوهريـة تـتلخص بأننا جميعا نمثل تكوينا واحدا وقد تكون بحاجة لأن يهـدد وجودنـا خطـر قـادم مـن العالم الخارجي وذاك يجعل التكـوين الـبشري يـدرك الـرابط الحيـوي المشـترك، أحيانـا العلماء تشغلهم افتراضية إمكانية زوال هـذا الكـون في فـترة زمنيـة صـغيرة خاصـة إذا استمرت مواجهة التهديد من خارج هذا العالم، وثمـة سـؤال مركـزي هـوالأخطر واجـه العلماء، ألا يوجد في هذا الوجود قوة خارجية مؤثرة وخطيرة..؟ عاد العلماء للبحـث في كـل الوثـائق المتـوفرة ومنهـا كتـب الـديانات الثلاثـة، اسـتقر الـرأي لـدى الجهـات الستراتيجية للدول المتقدمة، ان التحـدي يكمـن في وجـود القـوة المجهولـة في الفضـاء الخـارجي، وذاك خطـر لا مفـر منـه، وهـذا يجـب ان تواجهـه أمـم الأرض المتقدمـة، ومنها المعنيـة مبـاشرة في مجـال التكنولوجيـا الفضـائية، نجـد في التقـارير الصـادرة في عقد التسعينات من القرن الماضي نشرت المحطة الفضائية " فريدوم " توقعاتها للعمـل الذي يجري ووضعت البرامج للقرن الواحـد والـعشرون، كانـت الخطـوة الأوسـع هـي العودة لاكتشاف القمر وما يحيط به، تلك كانت فكرة ومنهج المستقبل في تلك الخطة تقرر المكوث ومواصلة رحلة مأهولة إلى المريخ، ذاك هدف واضح وطموح كبير، بدأت المسابر تنجح في تحقيق إنجازات بخصوص المـريخ وكـذلك فعـل مرقـاب ناسـا واعتـبر ذلك هو الهدف الذي من خلالـه خطـت البشريـة خطـوات كبـيرة نحـو انجـاز علمـي مهم، تصاعد سؤال في تلك المواقع العلمية هل كانت المـريخ منـذ الأزمنـة السـومرية محطـة فضـائية أو مـا يشـبه ذلـك...؟! وجـد العلـماء فعـلا بعـض الأدلـة المحسوسـة

على وجود أعمال يدوية على المريخ، فلن نكون وحدنا بـالكون، إضـافة إلى أن هنـاك من سبقنا إلى الكوكب التالي، وهذا بحد ذاته سيغير وإلى الأبد إطار مراجعنا، خرجت البشرية من القرون المظلمـة مـن القـرون الوسـطى وصـولا إلى قـرون التنـور، مـرت بالثورة الصناعية وولجت حقبة التكنولوجيا المتطورة وحقبة الهندسة الجينيـة وأيضـا مرحلـة الـرحلات الفضـائية، رواد الفضـاء يهبطـون كالنسـور، أن في ماضـينا القـديم كائنات متقدمة عرفت باسم " أنوناكي " ومعناها المخلوقات التي أتت إلى الأرض مـن السماء – فكرة وجود جنس من الكائنات أذكى وأقدم منا، بنظامنا الشمسي والآن قـد زال، قد تظطرنا لإعادة التفكير بالعديد من المسائل بما فيهـا مسـألة أصـل البشريـة، السؤال يقول من أين أتينا..؟! هل يمكـن ان نكـون نتـاج هندسـة جينيـة فرضـية، أن العلوم الحديثة قد بدأت لتوها وهي تحـاول مجـاراة المعرفـة القديمـة وقـد ألهمـت العلماء والباحثين بزيادة جهودهم بغية إعادة اكتشاف مـا أضـاعه الـزمن، ربمـا هـذا يحيي وضعا كان في سحابة سابقة تواجدت قبل 5500 سنة قبل الميلاد في أجواء بـرج بابل، في الرواية البابلية للتوراة كان قوم بابل يشـيدون برجـا كـان ينبغـي بقمتـه أن تبلغ السماء وعليها شيم – أي صاروخ فضائي يـتم نصـبه بتوجيـه مـن إلههـم الأعـلى ، ولم تعرب الآلهة الأخـرى عـن رضـاها لفكـرة ولـوج الـبشر إلى عصر الفضـاء، تقـول الرواية التوراتية " أن الإله نزل لرؤيـة المدينـة، وأطلـع عـلى الـبرج الـذي كـان الـبشر يشيدونه وقال لمرافقيه – وكـما ورد في سـفر التكـوين الفصـل الحـادي عشر – هـذه فقط بداية مساعيهم، فمن الآن فصاعدا كل مايخططون لفعلـه لـن يبقـى مسـتحيلا عليهم، تعالوا فننزل ونعبث بلغتهم لئلا يفهم واحدهم ما يقوله للآخر " بفضل علـم الآثار عرف العلماء الآن، أن أولى الحضارات الكبرى قامت منذ حوالي 6000 سنة قبـل الميلاد، وهي أقـدم مـن حضـارة الفراعنـة والاغريـق وحضـارة المايـا وحضـارة الأنكـا،

قوم تلك الحضارة عرفوا بالسومريين تيمنا باسم بلادهم - سومر - الواقعة في السهل الرسوبي الكبير الممتد بين ضفتي نهري دجلة والفرات، العراق اليوم والتي ورد اسمها في سفر التكوين باسم - سهل شنعار - هناك عاشت أجيال متتالية من المفكرين التوراتيين إما تجاهلوا ورود الممالك القديمة بالنصوص أو صنفوها أساطير.



" الثعبانين المجدولين يرمزان إلى التلاعب والتعاقب الجيني الذي نقش في الصخر منذ ذلك الوقت "

ومن خلال دراسة الآثار التاريخية وكذلك ترجمة اللغات القديمة أصبح الكثير من الباحثين التوراتيين يعتقدون الآن أن مراجع العهد القديم هي سرد تاريخي واقعي لحضارات مزدهرة ومتقدمة، أحد العلماء قال: " ان درسنا سفر التكوين نعلم ان الله خلق آدم من الطين ثم خلق حواء من أحد ضلوعه إلى آخره، وأن أمعنا بدراسة النص نكتشف أنها ملخص موجز لنص أكثر تعقيدا

يأتينا من بابل وسومر، تلك النصوص القديمة تقدم رواية معقدة عن كائنات غير بشرية وأشبه بالآلهة قامت بهندستنا ونحن صُنعنا لإهداف محددة " تقصى بعض العلماء عن تلك الحضارات أوصلتهم إلى المعبد الكبير في مدينة " إيريك " القديمة والقائم منذ 6000 آلآف سنة قبل الميلاد والتي تم اكتشافها قبل 150 سنة، لم تعرف إيريك إلا من خلال قراءة فقرات من التوراة، وهذا المعبد المهم – الزقورة – في حضارة سومر والتي تم تشييدها تكريما للإلهة الأنثى التي تحمل اسم " إنانا " والتي عرفت في حضارة بابل باسم الآلهة " عشتار " على أحد أحجار بناء المعبد حيث وجد العلماء إشارات تدل على ملامحها المشوهة الباقية على الطابوق المنحوت، على شكل تماثيل تصورها، عرفت قدسيتها من خلال القرنين اللذين كانا هنا رمز العلوم منذ6000 آلاف سنة وهو أيضا الرمز للخلق والحياة، ثمة نتائج إضافية توصلت إليها أبحاث العلماء تؤكد نظرية أخرى أن الثعبانين المجدولين يرمزان إلى التلاعب والتعاقب الجيني الذي نقش في الصخر منذ ذلك الوقت أحيانا نجد نقش صورة عشتار وهي تحلق في السماء، وتغادر الغلاف الجوي للأرض لتعبر السموات..

في ميزابوتاميا القديمة احاطت السرية بأسرار الفلك والمعرفة السماوية الأخرى لتدرس فقط خلف أبواب موصدة من قبل جماعة الكهنة والفلكيين حصرا اختام أسطوانية من الحجر هي السجلات الوحيدة الناجية عن تلك الأسرار هذه اللوحة الحجرية تظهرل طباعة ختم اسطواني يعود الى 4500 سنة وتظهر الآله " انليل وهو يهب المحراث للبشر مفتتحا عصر الزراعة الحديث، وبمعاينة أدق يمكن مشاهدة شيء ملفت هو رسم كامل للنظام الشمسي كما تعرفه العلوم الحديثة مع الشمس في الوسط وكل كوكب في موضعه الصحيح وكذلك حجمه ونسبته الى الكواكب الأخرى، وعلى الأطراف كوكب إضافي،

كوكب عاشر لم يتمكن بعد تحديد موقعه من قبل غلماء الفلك المعاصرون وهـم جميعا يبحثون عن هذا الكوكب بشكل مستمر، يعتبرونه متملصا وتتنامى الأدلة الحسية على وجوده فعلا، وقبل ذلك سجل التاريخ اكتشاف الكوكب " بلوتـو" في 18 فبرايرمن العام 1930 من قبل عالم الفلك " كلايد تامبو " والكوكببلوتـو يظهـر بوضوح على الختم الأسطواني للسـومريين، هنـاك كوكـب إضـافي يصـفه العلـماء بالرمز " X " ويعتبر كوكبا غامضا وهو الأبعد من نظامنـا الشـمسي والـذي يبقـى غير مكتشف استنادا للعلوم الحديثة فإن البشرية وقبـل اخـتراع المرقـاب بـالقرن السابع عشر لم يعرفوا أي كوكب أبعد مـن المشـتري لأنـه لايمكـن رؤيتهـا بـالعين المجردة، فمن أيام " غاليليو " كدس علماء الفلك كمية مهمة من المعلومات عـن الكواكـب القاصـية وهـذه النظريـات جـاءت مـن علـماء فلـك مـن كـل أرجـاء العالم، بقيت غير منقوصة بـالقرون الأخـيرة، ومـع التقـدم التكنولـوجي المعـاصر تطورت الأفضلية للعلماء المعاصرين في مرقاب " هابل " الفائق الوضوح وكـل مـا وفرته المسابر في مهماتها الإستطلاعية إلى الإطراف النائية لنظامنا الشـمسي ففـي 19 أغسطس 1977 المسبر الفضائي الأمريكي " فوياجر " أقلع مـن قاعـدة " كيـب كنافيرال " برحلة لسنوات عدة إلى تخوم أبعد من كواكب النظام الشمسي، ولكن نسفت اكتشافات المسـبر عـدة اسـتنتاجات لفلكيـين معـاصرين وأكـدت معرفـة الأقدمين فللمرة الأولى نشاهد صورا لأورانوس، وللغرابـة فهـي مطابقـة لأوصـاف السومريين منذ ستة آلاف سنة رغم افتقارها للمراقب فقـد عـرف السـومريون " أورانـوس – مـاش سـيغ – أي " أي بمعنـى الكوكـب المخضـوضر الزاهـي، كـما فسروا الإنحناءة الفريـدة لأورانـوس اسـتنادا للسـومريون فـأن نظامنـا الشـمسي تعرض لغزو جسم فضـائي أسـفر عـن إرتطامـات وأفسـد النظـام الموجـود، يؤكـد علماء " ناسا " ان اصطداما بجسم فضـائي بحجـم الأرض يسـير بسرعـة 40 ألـف

ميل بالساعة قد يكون وراء اعوجاج مدار أورانوس والتشوهات الظاهرة على سطح الكوكب وقد وصف السومريون جاره " نبتون " بالكوكب الأزرق المخضر " منذ آلاف السنين، لكن العلوم المعاصرة لم تؤكد هذه الحقيقة إلا في العقود القليلة الماضية، قام السومريون بتسمية وتسجيل كل كواكب نظامنا الشمسي ولائحتهم الموثقة هي دليل ملموس، بمجال واحد على الأقل على أن الإنسان المعاصر يسير باتجاه إعادة الإكتشاف، تلك المعرفة القديمة شملت أورانوس ونبتون غير المعروفين فرضيا قبل اكتشافهما في عام 1781 و 1846 وحتى " بلوتو " غير المكتشف إلا عام 1930 ":

نبتون – نود يمود – الخالق الفنان.

أورانوس – آنو – رب السماء

زحل – انشار – أول من يملك السموات.

المشتري – كيشار – آله أول اليابسة و حزام الكويكبات.

المريخ – راكيش – السوار المضروب.

لامو – إله الحرب.

كي – الأرض " التي اعتبرها السومريون الكوكب السابع "، ولكن لماذا سمي بالكوكب السابع..؟ لم يتم الوصول إلى تعريف واضح في المداولات الحديثة.. سجلات السومريين تشير إلى أنهم بدءوا العد، ليس من الشمس بل من الكواكب على تخوم النظام الشمسي، المذهل كان إدراج كوكب ضخم على أنه العضو الثاني عشر من نظامنا الشمسي، في مجال اكتشاف الفضاء شكل إطلاق " بايونير 10 " في العام 1972 افتتاحا لحقبة استطلاع اعماق الفضاء، في

رحلات إلى ما وراء الكواكب المعروفة، لكي ترسل معلومات تفيد في البحث عن كوكب عاشر محتمل، في 14 أغسطس 1978 بعد ستة أسابيع من اكتشاف ان لبلوتو قمرا وعليه يمكن تحديد مدى ثقله، إنما تبين ان بلوتو أصغر وأخف وزنا عما تصوره العلماء ما يعني أن ليس لديه صلة ذات شأن بحركة كوكبي أورانوس ونبتون، حين ذاك أعلن العلماء أن فرضية أن يعني هذا وجود كوكب واحدا على الأقل على تخوم النظام الشمسي لم يكتشف بعد، على مرّ العقدين المنصرمين أنضم علماء الفيزياء إلى الفلكيين في البحث عن الكوكب " X " الغامض، في سنة 1978 بعد التنبؤ بوجود كوكب إضافي عاشر أو ثاني عشر حسب وجهة النظر حيث راهن العلماء على فرضيتهم وأخذوا بالبحث عنه، استطاعوا تقليص مجال البحث وقد أرتكزوا بتنبواتهم على التشوهات المرئية لأورانوس ونبتون، ثم بدءوا البحث في خطوات جديدة في منطقة " سنتوروس " جنوبي كوكب الميزان، ان كان بنوع من المدار فقد يكون كوكبا بمقدار أربع أو خمس مرات بحجم الأرض، هذا يضعه بموضع الوسط بين الكواكب الصلبة في داخل النظام الشمسي، وان كان الكوكب بمدار مدته 3600 سنة فسيكون حجمه أكبر، هذه خريطة للنظام الشمسي كما نعرفه، الكواكب الداخلية مثل مدار بلوتو وهو المدار الذي اقترحه العلماء ان يكون فعلا لمدار الكوكب العاشر وهم يؤكدون انه مستمر في مداره، في الأرض الكوكب السابع كما سماه السومريون وأيضا كان لديهم الرقم المقدس هو " 7 " وخلقوا الأسبوع من سبعة أيام، وقالوا ان التكوين حصل في سبعة أيام أيضا، وعرفوا ألواح التكوين بأنها " 7 "، ثمة الكثير في المصادفات عبر التاريخ تتعلق بالرقم " 7 " وأسرارها فقط يعرفها السومريون، العلماء قالوا ان مجرد تكرار الرقم لديهم يشير إلى أكثر من إسطورة مهما كانت وجهة النظر التي تحيط بمعظم التفسيرات، ولكن من وجهة

النظر العلمية فأن الوقائع المتعلقة بالكوكب العاشر كانت مذهلة حقا، قصة هذا الكوكب أو كما رواها – السومريون – في ألواح الخلق السبعة والتي تبدأ منذ 4 مليارات السنين، حين كان نظام الكون الشمسي أصغر سنا ولم تكن أرضنا موجودة، السجلات التاريخية الناجية من التدمير التي خلفها لنا السومريون، تكشف قصة الكوكب الدخيل المسمى " نيبيرو " والذي يقولون أنه جاء من أقاصي الفضاء وجذبه إلى نظامنا الشمسي بفعل جاذبية " نبتون وأورانوس وزحل والمشتري" وبمسار مداري مواجه للكوكب السابع وكما ورد بالسجلات السومرية الفلكية على أنه " تيامات "، مداره الجديد يقع حسب رأي العلماء حول الشمس وقد وضع الكوكبين حسب قناعة السومريين بمسار تصادمي، وذاك يستند إلى نظرية النشأة التي اعتمدوها وكما مدون في الألواح الطينية والمعلومات تحل عدة ألغاز مازالت تحير العلوم الحديثة ومحورها يدور حول رواية إصطدام كوكبين ومعرفتهم ان النظام الشمسي مؤلف من 12 كوكبا مع اقترابهما ارتطم أحد أقمار نيبيرو بتيامات وفلقه – الإرتطامات اللاحقة سحقت نصف تيامات بالكامل وتناثرت شظاياه لتشكل حزام الكويكبات وقد ورد في التوراة ونصوص السومريين على أنها " القبة الزرقاء " أي السماء وتحول النصف الثاني من تيامات إلى الأرض التي دفعت إلى مدار جديد بصحبة قمر تيامات الرئيس – أي القمر الحالي ونيبيرو الدخيل دفع إلى مدار دائم باتجاه عقارب الساعة حول الشمس ليعود إلى جوار الأرض مرة كل 3600 سنة وليصبح الكوكب الثاني عشر من نظامنا الشمسي، تلك بعض المعلومات التي وردت في رواية التكوين السومرية وهذه تتردد أصدائها في كل الثقافات القديمة لتصبح جزءا من المعرفة العلمية التي استند عليها كتاب العهد القديم فيما بعد في رواية سفر التكوين، بعد الاصطدام أعلن الخالق لتتجمع: " لتتجمع المياه التي تحت السماء في مكان واحد وليظهر

اليبس" فكان كذلك وسمي الرب اليبس أرضا وتجمع المياه سماه بحارا، ان كانت الأرض هي بقايا إرتطام كوكبي فأن العلماء يعتقدون ان المكان الأرجح للبحث عن تشوهات الإصطدام هي على عمق 7 أميال في المحيط الأطلسي، عندما لم تكن السماوات قد سميت بعد ولا الأرض في الأسفل " آبسو " المدمر لكنه الحيوي صانع " مومو وتيامات " التي حملتها فامتزجت مياههما، كوكبان امتزجا، المقطع التوراتي ببعض: " في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه الغمر ظلام، وروح الله يرفرف على وجه المياه وقال الله: ليكن نور، فكان نور " ان طابقنا بين النصين السومري والتوراتي فإننا نتبين النص الموجود في سفر التكوين والذي اعتمد على النص السومري المكتوب قبل ظهور التوراة بثلاثة آلاف عام، لاسيما فيما يتعلق بالمياه – النص السومري يقول – اعتمد ترجمة نشرتها في كتاب الإسطورة السومرية:

في الأيام الأولى،

في أيام التكوين الأولى،

في تلك الليالي الأولى،

في اليالي البعيدة الأولى،

في السنوات الأولى،

في سنوات التكوين الأولى القديمة،

كان كل شيء في طور التكوين،

في الأيام الأولى،

عندما فصلت السماء عن الأرض،

وفصلت الأرض عن السماء،

عندما خلق كل شيء حسب الاصول،

أنضج الخبز في الأماكن المقدسة،

وأُطعم في بيوت الأرض،

عندما تم تثبيت أسم الإنسان،

حمل آن معه السماء،

وإنليل حمل معه الأرض،

نتبين النص الصحيح لسفر التكوين، لاسيما فيما يتعلق بالمياه، " وقال الله ليكن جّلد في وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه ومياه، فكان ذلك وصنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وسمى الله الجلد سماء، ومياه عليا ومياه سفلى..؟ ماذا تعني التوراة بذلك والمضمون يتكرر كما في النص السومري..؟!..

يصف السومريون " أورانوس ونبتون " بالكوكبين المائيين فما هي استنتاجات العلوم الحديثة..؟، في العام 1979-1980-1981 بايونير وفويجر المركبتان الفضائيتان قد زارتا " المشتري وزحل " بأقمارهما العديدة خلال مهماتهما وفعلا كما قال السومريون في ألواحهم تم اكتشاف المياه في كل مكان منهما " جليد على السطح وتحته المياه " وكذلك زعم السومريون ان المياه موجودة على قمري المشتري المسمى " آبو وبوربا – زحل " وقد ثبت ذلك وتشير سجلات السومريون الى وجود المياه على " السيلدوس وتيتيس " وهما قمرين من أقمار زحل وفي حلقاته، وتؤكد اكتشافات " ناسا " مشاهدات السومريين وأضفت المزيد من الوضوح لما نقلته التوراة عنهم " مياه تحت الجلد "..

مذنب " هالي " وهو يعبر الفضاء نحو الأرض بحد ذاته يمثل تأكيد لافت للتوقعات السومرية والتي تردد صداها ايضا في النص التوراتي " مياه فوق الجلد " عمره 4 مليارات من السنين وهو يوصف بنصف حجم جزيرة ما نهاتن، يقذف

المياه بنسبة بين 70طنا في الثانية، ولديه ما يكفيه ليمضي بهذا القذف المتواصل لالآف السنين، هل كان الإنسان السومري على علم بهذه المعرفة الخاصة والبعيدة عن الأرض...؟!...

الجسم السماوي غير الاعتيادي المذكور في نصوص البابليين شوهد سنة 164 قبل الميلاد ويعتقد علماء بابل ان مذنب هالي " النجمة القلقة " وهذا يعني ان علومهم التي اعتمدت على الواح سومرية هي تتوقع سقوط المذنب الذي اطلق عليه اسم مذنب هالي فيما بعد، التوراة تلقفت المعلومة السومرية وقالت في سفر العدد " أراه وليس في الحاضر، أبصره وليس من قريب، يخرج كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل " مذنب هالي وأمثاله هي رسل التكوين، عندما أعلن في القرن التاسع عشر عالم الفلك الإيطالي " شيباريلي " أنه شاهد أقنية على سطح المريخ، تعرض للسخرية، كذلك عالم الفلك الأمريكي " لويل " عام 1916 التزم بذات الرأي، وعندما زارت مركبة ارسلتها ناسا وهي غير مأهولة الى المريخ في السبعينات اكتشفت أدلة وافية على وجود المياه، وزاد الإيضاح عندما عرضت صور من رحلات لاحقة الى كوكب الزهرة والمريخ أدلة مرئية عن بحار وبحيرات وأنهر جافة وأخرى فيها مياه وهذا كما سجلته ألواح سومر، وكما نقلته نصوص التوراة وهي تقول " مياه فوق الجلد "، حتى عطارد القريب من الشمس يظهر وجود مياه بماضيه ويحتفظ بقطبين جليديين ويرد في تقرير ناسا: لايمكننا سوى الاستنتاج بوجود تأثيرات مائية على المريخ، كان في الماضي على كوكب المريخ مياه تكفي لتغمر الكوكب بأكمله بعمق عدة أمتار، ما احتسبه العلماء كوكبا جافا قال السومريون انه مغمور بمياه غزيرة وصح اعتقادهم، كل المعلومات التي دونوها بخصوص المريخ وعطارد والزهرة والأرض ومؤخرا القمر ثبت انها صحيحة ودقيقة وتكشف عن وجود تطور

علمي مدهش، لقد تم اكتشاف المياه على سطح القمر وكواكب اخرى قريبة منه حتى ان فكرة الاستيطان أصبحت قابلة للتنفيذ..!، فيمكن علميا استخراج الأوكسجين من المياه، ليضخ في قباب أو قنوات تجميع سكنية على الكواكب التي تفتقر للهواء، والمياه كما هو معلوم هي أحد مكونات وقود الصواريخ، هذا الإكتشاف المعاصر زاد من احتمال قيام رحلات عبر الكواكب، كما ذكرت التقارير التي نشرتها وكالة الفضاء الأمريكية ناسا ان معدات " الفايكنغ " لن تحدد بشكل حاسم – وجود او عدم وجود حياة على كوكب المريخ – أحد العلماء في مقابلة بثتها قناة التلفاز وضح الأمر على النحو التالي: " برأيي أنه مازال من المبكر إعطاء إجابة نهائية، ربما ثمة وجود بيلوجي في المريخ، هناك عدد من التجارب يجب إجراؤها قد تحسم المسألة وقد لا تحسمها، ، لكن " الفايكنغ " سجلت نجاحا بيولوجيا لأن التفسيرات الكيميائية تعني وجود نوع من الكيمياء على سطح المريخ التي قد تؤدي بنا إلى بيلوجيا وقد نعرف شيئا مهما عن أصل الحياة "..

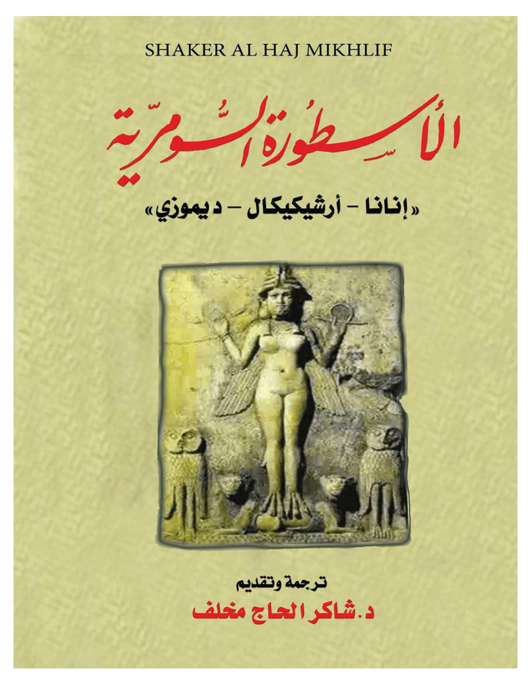
في أكتوبر من العام 1988 أطلق الاتحاد السوفيتي مركبتين غير مأهولتين " فويوس -1 فويوس 2 " تيمنا باسم أحد الأقمار بغية دراسة الكوكب الأحمر، فقدت فويوس 1 بطريقها الى المريخ وأرسلت على الفور صورا إلى الأرض، وفي الأول من مارس من العام 1989 تلقوا صورا لشبكة غريبة – تم تصوير الشبكة حسب تقارير العلماء بالطريقتين البصرية وماتحت الحمراء ودمجت في وقت لاحق، وفي 26 مارس بعثت فويوس بهذه الصور إلى الأرض التقطت جنوبي خط الاستواء ويظهر فيها طبق بيضوي الشكل، هذا الظل ظهر فجأة، هو بأجواء المريخ أم على سطحه، المؤكد كما ثبت أحد العلماء أنه يبدو كصاروخ ينطلق من على سطح المريخ مخلفا ذيلا من الدخان الأبيض، ، كان ذلك شيئا من التخيل

الذي أدلى بتفاصيله العلماء ويمكننا ان نردد معهم ذلك استنادا الى تقاريرهم العلمية، بعد ذلك أطلق الاتحاد السوفيتي مركبتين فضائيتين تحملان اسم قمر المريخ، كانت مهمتها تصوير كوكب المريخ، إحداهما أرسلت صورا مازالت تحير العلماء السوفييت، فقد التقطت الصور فوق خط الاستواء من ارتفاع 6 آلاف كيلو متر، أظهرت الصور ما فوق الحمراء الفروقات الحرارية وكانت البقع السوداوية هي الأكثر برودة، قال العلماء ان مساحة تلك المنطقة تبلغ 600 كيلو مترا وهي الصور الاكثر تفصيلا لسطح الكوكب حيث تظهر خطوطا دقيقة جدا تعني حالة الحرارة غير المرئية وحيرؤت العلماء وجود صورة للظل على سطح المريخ لايمكن رؤية أشياء على سطح المريخ من خلاله لكنه ظل ماذا..؟ وظل لغز المركبة الفضائية الروسية المختفية لغزا، العلماء الروس ذكروا ان الظل بمثابة جسم يرتكب من المركبة ولكن ما ماهية ذاك الجسم...؟، المركبة دارت حول المريخ " البروفسور كابيتسا " قال مازحا في مقابلة معه " انهم من أهل المريخ " ولكن بعض المراجع العلمية فسرت ذلك بأنه ربما كان نيزكا صغيرا، قطعة صخرية صغيرة بمدار فويوس وصدمتها، في حديث خاص صدر في اكتوبر من العام 1990 في موسكو قال البروفسور " ليف موكين " من معهد الابحاث الفضائية السوفياتي تلك افتراضات لم تثبت صحتها بعد، من بين كل الألغاز في الوجود هو لغز الحياة وكيف بدأت، وفي عودة الى النص الذي اعتمده علماء أمريكا من التوراة وهو يتحدث عن لائحة طويلة من عملية خلق البشرية – أسماك – طيور...الخ بعد ذلك كله خلق الله الإنسان، في الصفحات الأخيرة لرواية الخلق يشير السومريون إلى ان " آنو رب - الانوناكي " هو خالق البشرية وحسب النص السومري قبل هبوطه اي منذ 445 الف سنة أرسل كائنات لاستكشاف الأرض، وبعد 150 الف سنة وصل جماعة الانوناكي ليخلقوا الجنس البشري

ويتم الحديث عن خلق اول إنسان بواسطة الهندسة الجينية – الإخصاب بالأنبوب – انبوب زجاجي كما مرسوم بالختم السومري الاسطواني، كان آدم أول مولود أنبوب، في الفصل الأول من سفر التكوين الاصحاح 26 ورد في التوراة " لنصنع الإنسان على صورتنا وكمثالنا "، لكن لماذا تقترح النصوص السومرية " ان الانانوكي صنعوا الجنس البشري للمساعدة في التنقيب عن الذهب الأفريقي الذي يحتاجونه لإنقاذ الغلاف الجوي المتضائل في كوكبهم " نيبيرو " "، الديانات الثلاثة تأسست على مضمون فكرة " ان ثمة أمرا مميزا بالجنس البشري "، وأنا اعتقد بشكل جازم اننا لم نصل إلى هنا بمحض الصدفة، لسنا مجرد نتاج مليارات من السنين – التي عصفت بها تحولات عرضية ونحتت الاشكال الحياتية المتتابعة – ذلك لم يحصل بدون هدف – هناك افتراض يقول لقد خلقنا على صورة الله، والخالق يتعلق حقا بعملية خلاصنا، والأن في حال كانت هناك مخلوقات تكنولوجيا أكثر تطورا منّا وأقدم من حضارتنا وربما أذكى منا وأكثر منا نضوجا روحيا، يجب ان نصل الى جوهر الأمر، ان صحة تلك الفرضيات هذا الرأي ربما يقوض رواية الخلق ويترك مليارات البشر على كوكبنا بحيرة حول معنى الحياة..؟ تورد التوراة حادثة عندما حاول الجنس البشري فيها تخطي الحدود – حاول اتشييد منصة إطلاق ضخمة في منصة برج بابل، ظل السؤال يدور ما الهدف من جهودهم...؟، تصف اللوحات السومرية المحطة الفضائية الموجودة على المريخ " بسفينة الرحالة "، علل العلماء ذلك بأن الآنانوكي من نيبييرو تواجدوا على المريخ واستخدموا مركبة فضائية أصغر للإنتقال إلى محطاتهم بمدار الأرض ليس كل 3600 سنة بل بمواعيد أقرب، المحفوظات السومرية تُعرف الكوكب الثاني عشر من نظامنا الشمسي برموز محددة كما هي الحال في فكرة الإشارة للمريخ والأرض والزهرة، نرى في الألواح السومرية

رسموا الشمس مع أشعتها كما نرى أربعة يقفون على حيوانات تلك تتعلق بدائرة البروج، القمر موجود وكذلك الأرض ترمز اليهما سبع نقاط تشير إلى موقع الأرض بالنسبة للحدود القصوى، أدلة تضمنتها النقوش السومرية التي يقدر عمرها 4500 سنة نقش على اللوح اثنان يقفان إلى جانب مركبة بين السومريين والانانوكي، كما يعتقد بعض البحاثة في العلوم الفضائية ان كوكب المريخ كان قابلا للعيش عليه منذ 10000 سنة، قد نشاهد او نجد ضمن ارشيف الحضارة السومرية الكثير من الأدلة حول ما خلفته تلك الحضارة المهمة وراءها من اسئلة محيرة، عندما اطلقت الولايات المتحدة الأمريكية مركبتي الفضاء " مارينر وفايكنغ " لاستكشاف المريخ في اعوام الستينات والسبعينات تم تصوير بنى محيرة تشبه التي على الأرض وقد علق أحد العلماء من ناسا بقوله " أشعر ان ما تم اكتشافه حتى الآن يوحي بعمل لمخلوقات من الأذكياء هناك، ولديّ أدلة توحي بأن تلك العوالم صممت جراء عملية تفكير ذكية، على الأرجح ان تكون أكثر تقدما من ذكائنا بنواح معينة " ثم أردف يقول: " ما أثار حيرتي بشكل خاص كان تقارير بحاثة مستقلين التي تفيد بأن إتجاه الوجه والإهرامات الموازية يطابق الشروق بموسم الانقلاب الموسمي على المريخ ذلك منذ 450 الف سنة، السؤال أيمكن ان تكون هناك حضارة قادرة على السفر إلى المجال الفضائي منذ حوالي نصف مليون سنة، قد زارت هذا الجزء من النظام الشمسي الفضائي منذ حوالي نصف مليون سنة مخلفة الكائنات التي تسمى – الانوناكي – والدليل على هذا زياراتهم لكوكب الأرض والتعرف على مجتمعات دمرتها التناقضات الحضارية وكشف حضارة أكثر تقدما، كان لهذا ان حصل فعلا الوقع الكبير على حضارتنا القائمة، لكني اعتقد أننا من الذكاء بمكان ليمكننا من الاستعداد لذلك، حضارتنا قادرة تكنولوجيا على خوض أعماق الفضاء سعيا لاكتشاف مصادر وحقائق

العلم ومعرفة الكون بشكل تفصيلي، والسؤال الذي يظل في حالة البحث عن جواب كيف تسنى للسومريون ان يكشفوا تلك العلوم المهمة ويدونوها في الواحهم الطينية، تلك أجوبة لم يتوصل لكشفها العلماء بعد، رسم العقل السومري شكلا اوليا للكون حدد فيه طريقة الافتراق العنيف بين السماء والأرض وأسند السبب إلى طرف ثالث:



في السنوات الاولى

في سنوات التكوين الاولى القديمة

كان كل شيء في طور التكوين

في الايام الاولى

عندما فصلت الارض عن السماء

وفصلت السماء عن الارض

عندما خلق كل شيء حسب الاصول

أنضج الخبز في الأماكن المقدسة

وأطعم في بيوت الارض

عندما تم تثبيت اسم الإنسان

حمل " آن " معه السماء

و" أنليل " حمل معه الارض...

ذلك التصور ساد في سومر كما ظل صداه يتردد أيام امبراطوريتي " بابل وآشور " وشكل قاعدة أساسية للقصة الكاملة والأكثر تفصيلا عن عملية الخلق التي وصلتنا وسميت فيما بعد بالملحمة البابلية العظيمة " الاينوماإيليش – قصيدة التكوين والخلق البابلية وارتقاء الإله مردوك " التي تقول في افتتاحيتها:

في الأعالي لم تمن السماء قد سميت بعد،

والأرض اليابسة في الأسفل،

لم يكن قد أطلق عليها اسم،

وحدهما أبسو – الاول – والدهم

والأم تيامت

والدتهم جميعا

كانا معا يمزجان

مياههما

فلا منابت القصب كانت قد تكتلت بعد

أنذاك لم يكن أي من الآلهة قد ظهر بعد

ولم تكن أطلقت عليهم اسماء

ولم تكن مصائرهم قد قررت بعد..

الخلق والآلهة

في المقارنة بين ماورد في ألواح الاسطورتين نجد التأثير الواضح للأولى – السومرية – بينما نجد في الملحمة الثانية نتاج فلسفي اعمق وصور أكثر شمولا للخلق كما نجد وصف مكتمل لنهاية الأفكار، بعيدا عن طرح أفكار مجانية غير قابلة للتوضيح حول ماهية الآله الواحد المسيطر على الخلق والكون، ولكن ذلك يأتي كنتيجة لتطور الوعي بما يشبه معركة كونية مع الافكار غير المرتكزة أو الواضحة، كما نجد الظهور القوي للصراع الدائم والأزلي بين قوى الخير والشر وعدم اتاحة الفرصة لإدامة الفوضى، في تفاصيل الاسطورة البابلية نجد انها كتبت على سبعة ألواح وظلت لفترة طويلة بمثابة قصيدة كونية لها حضورها وأهميتها وقد أعدت أثناء الفترة البابلية القديمة – أي في بداية الألفية الثانية – مع ذلك كل النسخ التي تم العثور عليها كانت قد كتبت أثناء الألفية الأولى قبل الميلاد، في أكثر النسخ نجد الآله مردوخmarduk يلعب الدور الرئيسي وهو الذي يحرك الأحداث باعتباره الإله الراعي لبابل، لكن في النسخة الآشورية فيما بعد يختفي اسم – مردوك – ويحل بدلا عنه الآله – اشور ashurليلعب الدور الرئيسي ويؤكد النص أنه بمثابة الآله الوطني للإمبراطورية الآشورية وشعبها، نجد في النسخة السومرية تتم الإشارة إلى الإله " أنليل enlil، وكما في سجل المثيولوجيا السورية فأن الآله – مردوك marduk يعتبر قد أغتصب رتبة وامتيازات الآله أنليل وثمة العديد من الإشارات والمصادر تؤكد ان بطل الملحمة السومرية كان في الأصل الإله – أنليل – وقد أخذت بلاد سومر في تكوين بلاد ما بين النهرين الإلهام الكبير من تأثير ذلك الآله الذي تسند إليه الكثير من الخوارق وعمله على حماية شعب ومدن سومر، لو كنت تقف ذات يوم ينتشر فيه الضباب قرب ضفة شط العرب في مدينة البصرة أو عند نهاية

حدودها حيث تخوم البحر ماذا سترى...؟ ستجد ان تكوين الغيوم المنخفضة تمتد بامتداد الأفق الممتد بين البصرة وعربستان - الاحواز - كما لو أنك ترى بركة كبيرة من تلك المياه العذبة التي يحملها الرافدان - دجلة والفرات - مياه حلوة المذاق تتسرب بشكل متدافع ومتناغم في فيض واضح لتختلط بحرية كبيرة مع مياه الاخدود المغلق المالحة - اقصد الخليج - والتي تشكل منظرا غريبا وطبيعيا هناك تجدها شاخصة لمجرد بضعة أقدام ثم يختلط الماء الحلو بالمالح ليشكل بيئة مساعدة للأحياء البحرية في تكوين شط كبير ثم بحر وسماء أصفى من أي مكان في الكون، أرض وماء يمتدان في فوضى مائية ضبابية، تجد صدى لهذه الصورة فقط في الشعر والكتابة القديمة، الذين كتبوا تلك الألواح السومرية حقا لقد شهدوا مثل هذا المنظر ودققوا النظر كثيرا في تلك التفاصيل الواقعية، في أغلب الاحيان تخيل كتاب وشعراء سومر ان بداية العالم تبدأ من هناك، حيث لم يكن أي اسم قد ظهر بعد، بمعنى لم يكن اسماء قد أعلنت بالتزامن مع الخلق والتكوين.

في السنوات الاولى

في سنوات التكوين الاولى القديمة

كان كل شيء في طور التكوين

في الايام الاولى

عندما فصلت الارض عن السماء

وفصلت السماء عن الارض

عندما خلق كل شيء حسب الاصول

أنضج الخبز في الأماكن المقدسة

وأطعم في بيوت الارض

عندما تم تثبيت اسم الإنسان..

السومريون قالوا عن حدود ذلك العالم في ألواحهم هكذا وأضافوا اسم " المياه الجديدة "، كما أظهروا خوفهم من تكاثر وجود الملح الأبيض في مناطق السباخات والذي اعتبروه يهدد وجود " تيامات tiamat" حيث الملح يتوسع ويستوطن ويحاصر رقعة الزراعة، ظل عدو الزراعة والمشوّه للبيئة يمثل هاجسا لدى الإنسان السومري بجانب فيض النهرين، على المستوى العالي كانت ثمة كلمات أطلقت التسمية عن أرض قوية وصفت بأنها صالحة للزراعة، مياه تمتد وتمتد إلى عالم غير محدد وغير معروف..

في مدى الرؤيا أنذاك،

لا كوخ قد ظهر فوق الأرض،

لا أرض ظهرت فوق تلك المستنقعات،

عندما الآلهة مهما كانت أسمائها،

جلبت وجودها،

أعلنت عن أفكارها،

بالأسماء وضحت الأقدار،

بشكل محدد أطلقت قوتها،

ظهر أنذاك الآله صاحب الكلمة الفصل،

بعد ذلك كان بناء المنظر الطبيعي،

فوق الرقعة الأكبر من أرض جنة عدن،

تواصل ظهور السحب،

أرتفعت الشمس،

صار ثمة خط واضح يفصل بين السماء والأرض والمياه..

وكما في الأسطورة الآلهة الأولى ظهرت من خلال تصاعد الفوضى من بين تصاعد فورات الغرين، بعد الآله العظيم ظهر دور الأله " انشار anshar و الآله الثاني kishar" وتعزيز التوافق والتوأمة بين السماء والأرض وفق مقولات روجت لها تعاليم الديانة السومرية وظلت قوة وسلطة الآله anu و الآله enki، النشوء الديني من أهم مراحل استمرارية حضارة سومر وما بعدها من حضارات ظهرت في بلاد ما بين النهرين، من خلال الديانة السومرية تطور فن المعمار وظهرت الكتابة والتشريع والزراعة والعلوم الأخرى، كانت أولى محاولات البناء في السهل الرسوبي إقامة المعابد الكبيرة للآلهة والتي تجمعت حولها المستوطنات السكانية وكذلك انتشرت الاسواق والحقول وظهرت القرى ثم المدينة ثم القلاع التي تضم المدن والطرق والتجارة، الأمر الذي أدى إلى تطور الحياة بشكل عام في امبراطورية سومر، ويعتبر الكهنة أول الحكام الذين ظهروا في بلاد سومر، وتذكر الألواح ان الكاهن كان يطلق عليه اسم " أين – en" وهو الحاكم للمجتمع المدني المتعبد في المدينة كما جمع في فترات التكوين الأولى للمجتمعات المتمدنة على السلطتين " الدينية والدنيوية " وصولا الى المرحلة التي تم فيها الانفصال بين الوظيفتين وكان يعتبر في مهمات عمله مفوضا من قبل الآلهة ووسيط بينها وبين البشر ونقل تعاليمها وهو الوكيل الذي لا ترد له أوامر ومخالفة توجيهاته مخالفة لتعاليم الآلهة، تغير ذاك التقليد عندما ظهر الملك " لوكال – logal" الذي تمكن من بسط سلطانه على عدد من المدن المجاورة وتعتبر اولى الوثائق المرتبطة بتلك المفاهيم قد تم العثور عليها في معبد أي – أنا من اجزاء مدينة الوركاء والتي شهدت ظهور الكتابة في المعبد المذكور، في الفترة الدجينية الحضارية السومرية ظهر العديد من الآلهة والتي تعددت وظائفها البعض منها تعرف العالم على اسمائها ومهماتها من خلال وجود اشارة اليها في الألواح او

على الاختام التي استعملت في بلاد سومر لفـترات طويلـة، وكـان لـبعض تلـك الآلهـة معابد خاصة بها، والآلهة بشكل عام توصف بأنها خالـدة قـادرة عـلى فعـل أفكارهـا وتنفيذ أحكامها مثل القصاص والغضب المـدمر الجـامح لمـدن او قـرى او أقـوام، وفي بعض الاوصـاف ثبـت السـومريون أنهـا لا تختلـف عـن الـبشر في الصـفات الروحيـة والجسدية، وكانت تمارس ذات الاعمال التي يقوم بها البشر وتشـارك في الاجتماعـات والعبادات والحروب وتحضر مجالس القرار وتعطي قرارات الحرب والسلام وتنصيب الملوك، وتـرد قصـة في الألـواح السـومرية تتحـدث عـن الحـرب التـي قادهـا الآلـه " ننجرسو " آله دولة لجش الكبير لمحاربة جيش دولة " أوما - المعاديـة "، ابتـدع اهـل سومر القديمة مفهوم الآله الحامي – الشـفيع والمتـابع للفـرد والمسـئول عـن اعمالـه وتصرفاته، وتم توثيق ذلك من خلال استخدام الأختام الاسطوانية وقد تكون العلاقـة اعلى بين الفرد والآله ومن قبيل الابوة او الأمومة او القائد او المرجع في تحديد الرأي والفعل، ولم تظهر علاقات زواج بين الآلهة والبشر في تفاصيل الحضارة السومرية كـما هي الحال في حضارة الأغريق، وثمة إشارة الى البطل جلجامش انه ابن الآلهة ننسـون وذلك ضعيف ولم يوثق وقيل في بعض التعليل ان الإشارة جاءت بقصد وضـع أهميـة دينية للملحمـة – جلجـامش – ومـن الآلهـة المشـهورة في بـرد سـومر هـي الثـالوث المقدس " آنو – أنليل – أنكي " نجد لهـذا الثـالوث حضـور يتكـرر في الأحـداث وهـم يتقاسمون التأثير – مثلا " آنو آله السـماء " بيـنما " أنليـل – آلـه الجـو " و تلخصـت مهمـة " الآلـه انـكي – آلـه الميـاه "، ظهـر الثـالوث المقـدس وظـل لـه التـأثير بعـد اندثار الآلهة القديمة التـي وجـد الشـعب السـومري انهـا ليسـت مـؤثرة في وجـوده ولابد من التحديث، وكان ذلك نتيجة حرب دارت على الأرض للسيطرة عـلى الكـون، دارت معارك كبيرة بـين مجموعـة الآلهـة القديمـة وخصـومها الآلهـة الحديثـة، وكـما

ورد ذكر تلك الحرب في ملحمة التكوين البابلية، بعد تعدد الآلهة نظم رجال الدين من الكهنة العلاقات الجديدة حسب مصالحههم ومصالح البلاد، وظهرت لهم أبناء وبنات صاروا ينسبون الى تلك الآلهة كما هي الحال بالنسبة للإله " أنو " الذي اتخذ من أبنته المقدسة " إنانا " - التي سميت بالفترة البابلية "عشتار " اعتبرت هي الآلهة المقدسة المفضلة في أوروك، ومعبدها في مدينة الوركاء يسمى " أي - أنا " والمقصود اسمه بيت السماء، وظهرت اسماء أخرى لأبناء الآلهة مثل:

- آنتم - زوجة الآله آنو
- آنليل ابن الآله انليل من زوجته ننليل
- الاله القمر - نانا - بالسومرية ويسمى سين بالبابلية ومن ابنائه - نرجال اله العالم الاسفل
- ننانزوه اله الطب والشفاء
- ننورتا اله الحرب وهو ايضا ننجرسو اله لجش
- نانا ولد للاله القمر من زوجته ننكال
- اله الشمس الشهير - اوتو- بالسومرية وشمش بالبابلية وتم عبادته في اور ومراكز اخرى اشتهرت بعبادته مثل مدينة حران

الاله الشمس اشتهر بانه اله النور والحق والعدل والمنتج للشرائع والمحارب الكبير للظلم والبغي، كما يذكر ان مدينة - سيبار - وكذلك توأمها مدينة - لارسا - كان يشيع فيهما عبادة هذا الآله كما شيدت له معابد في مدن أخرى وكلها دعيت باسماء مختلفة، بينما الآله أنكي فكانت المدينة التي تهتم بعبادته هي - أريدو - ومعبده فيها يسمى - أي - أبسو - وتمت عبادته منذ ازمنة قديمة وكان يطلق عليه لقب - آله الماء والحكمة - المعرفة - وهو الذي تسند إليه قضية تعليم البشر العلوم والمعارف والفنون، وقد ولد له من زوجته المسماة " دام

– كنا – dam-kinna " التي ولدت له أبنه البكر " مردوخ marduk" الذي اتخذ قرار الحرب ضد الآلهة القديمة وقضى على أكبرها المسماة " تيامة " كما ورد ذلك في تفاصيل الملحمة البابلية – الاينو ايليش "، وولد لمردوخ من زوجته – صربنيتم – أبنه الشهير " نابو " أو – نبو – والذي يعتبر آله المعرفة والكتابة والقلم، مدينة " بورسبا " القريبة من بابل التي اعتبرت مركز عبادته وفيها معبده الكبير المسمى " أي – زيدا e-zida " ومعبد أبيه في بابل الذي يحمل اسم " أي – ساكلا "،

الإينوما إيليش

أسطورة الخلق والتكوين البابلي

من أصل الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الإنسان نصوص أدبية متنوعة ومتعددة بعضها باللغة السومرية والبعض الآخر باللغة الأكدية ومن أدوار مختلفة أخرى في حضارة بلاد ما بين النهرين، ولا سيما منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من تفاصيل العهد الذي يطلق عليه اسم العصر البابلي القديم والذي تميز بنشاط واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية إلى البابلية، وكان موضوع الخليقة وأصل الأشياء على رأس القضايا التي شغلت تفكيرهم فعالجوها بالأسلوب الأسطوري الشعري الدرامي ونشأ عن ذلك كما يرى " طه باقر وغيره من علماء السومريات عقائد وآراء مختلفة " أن الكفاح من أجل السيادة على سومر هو أحد الدوافع التي تستند إليها أساطير تنظيم الكون السومرية " ويرى جاكوبسين في معرض تعليقه على الأساطير السومرية في كتابه " كنوز الظلام " أنها أساطير الخليقة السومرية، أنها قصيرة وكثير منها ناقص وغير مكتمل، ولكن البابليون أسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين وأخذوا الشيء الكثير من التراث السومري، وقد تركوا لنا أطول وأشهر قطعة

أدبية عن هذا الموضوع، وهي الأسطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصة أو أسطورة الخليقة البابلية " يطلق عليها في كتاب مقدمة في أدب العراق القديم " أينما إيليش – أو حينما عليش " وقد سماها بعض الباحثين " رقم الخليقة السبعة – the seven tablets of creation - وذلك لأنها جاءت مدونة بالشعر البابلي على سبعة ألواح من الطين يحتوي كل لوح منها ما بين 115 – 170 سطرا أو بيتا من الشعر ومجموع أبياتها زهاء ألف بيت، وقد عثر على معظم ألواحها في مكتبة الملك الآشوري – آشور بانيبال – في نينوى، كما وجدت أجزاء منها في مدينة – آشور – ووجد لها نسخ أخرى في المدن القديمة من بلاد بابل، من العصر البابلي القديم والحديث ويرقى زمن أواخر العصر البابلي القديم وأوائل العصر " الكشي " وتستند الأسطورة البابلية إلى أصول سومرية أقدم عهدا، أما موضوعها الأساس فأنه يدور حول تمجيد الإله مردوخ إله بابل وتبرير تعاظم شأنه منذ أن صارت مدينة بابل عاصمة إمبراطورية حمورابي الواسعة – 1792 – 1750 قبل الميلاد، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآشوريين جعلوا الإله آشور في النسخ الآشورية للأسطورة بطل الملحمة بدلا من الإله مردوخ، نظمت الأسطورة شعرا ولكنها من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش كما يقول " طه باقر " بل أن بعض القطع من النثر الأدبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير ويرجح أن القصيدة كانت تتلى أو ترتل بألحان خاصة إبان عيد رأس السنة البابلية " اكيتو – akitu " الذي يحتفل به في أوائل شهر نيسان كما يحتمل أنها كلها أو بعض مشاهدها كانت تمثل على هيئة مسرحية أو دراما ولا سيما الأحداث التي تدور على موضوع تغلب الإله مردوخ على قوى الشر والعماء الممثلة بالإلهة العتيقة وإحلال النظام في الكون ثم خلق الإنسان ونشوء العمران، ومن ملخص الأسطورة المنشور في كتاب "

مقدمة في أدب العراق القديم " نكتشف أهمية تلك الأسطورة البالغة في تاريخ حضارة وادي الرافدين من حيث الكشف عن عقيدتهم في أصل الوجود والإلهة وخلق الإنسان بالإضافة إلى أنها تصور جوانب مهمة عن أحوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في أصل نظام الحكم والأسرة الحاكمة وأحوال البيئة الجغرافية وفوق هذا فللأسطورة أوجه أخرى من الأهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة وأصل الأشياء في الحضارات القديمة الأخرى، فقد أجمع الباحثون على وجود شبه أساسي واقتباسات كثيرة منها في عقائد الأمم الأخرى ولا سيما العبرانيين، كما جاء في التوراة، وهناك مواطن شبه لا يشك فيها وردت في أساطير اليونان المتعلقة بأصل الأشياء والآلهة..

ملخص الأسطورة

أول من ترجم بعض أجزائها الباحث القديم " جورج سمث " وذلك في العام 1876 بعنوان " فصول من رواية التكوين " وتضمنت الآتي:

حينما في العُلى لم ينبأ عن السماء،

لم تُسمّ باسم،

وفي الدنى " الأسفل " لم تذكر الأرض بأسم،

وحين كانت مياه " أبسو " الموجود الأول،

والدهم و " الأم تيامه " والدة جميعهم،

واحدة مختلفة،

ولم يكن قد وجد أي مرعى،

ولا يرى أي شيء،

حتى هور القصب، حينما لم يظهر إلى الوجود أي من الآلهة،

ولم تذكر أسماؤهم،

ولا خصصت وظائفهم وأقدارهم،

ثم وجد الآلهة في وسطها، وسط أبسو وتيامه،

جاء إلى الوجود " لخموّ " و " لخاموّ " ودعيا باسميهما،

وقبل أن يبلغا أشدهما ويطولا قامة،

جاء إلى الوجود " أنشار " و " كيشار " وقافاهما بسطة في الجسم،

ثم تعاقبت السنون وتلتها الأيام،

فجاء إلى الوجود " آنو " بكرهم ووريثهم ومنافسهم،

أجل صار " آنو " بكر " أنشار " يضارع أباه، ثم ولد " آنو "

نود مّد " أيا " شبيهه،

صار " نود مدّ " سيد أبائه،

كان واسع الفهم، شديد الحول والقوة،

أجل أصبح أشد حولا من جده " أنشار "،

ولم يكن له مثيل بين أخوته الآلهه..

كان الأخوة الأقداس يتجمعون معا ويقلقون " تيامه " ويهاجمون،

حاميهم " أبسو " أجل صاروا يعكرون بطن تيامه وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس، لم يستطع " أبسو " أن يقلل من ضجيجهم وصخبهم،

أما تيامه فأنها سكتت ولم تضع حدا لصنيعهم، مع أن أعمالهم كانت مؤلمة، وصنيعهم شائنا، وعندئذ استدعى " أبسو " أبو الآلهة وزيره " ممو " وقال له: يا ممو، يا وزيري المطيب كبدي، هلم نذهب إلى تيامة، وقعدا عند أقدامها، وتشاوروا في أمر أبنائهما الآلهة، فتح أبسو فاه، وقال لتيامة بصوت عال: لقد أمرضتني " ثقلت عليّ " أعمالهم فلا أستطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء " لأقضين عليهم وأضع حدا لأعمالهم، لكي يعّم السكون فنستطيع النوم، ولما أن سمعت تيامه، ذلك غضبت وصرخت بزوجها: أدركت في قلبها ما يبيت " أبسو " من شرّ وخاطبته:

- علام ندمر ما أوجدنا بأنفسنا، حقا أن صنيعهم يسبب الألم والمرض، ولكن لنصبرّ على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر، بيد أن أبسو وقد سانده وزيره " ممو " لم ينثن عن عزمه في القضاء على أبنائه من جيل الآلهة الحديثة، ولما علمّ هؤلاء بما يبيته لهم أبوهم من شرّ ودمار، اضطربوا وجزعوا، وصاروا يتحركون على غير هدى، ثم هدءوا أخيرا واستكانوا وجلسوا صامتين يائسين لا يدرون ما يفعلون للنجاة من الهلاك المحدق بهم، وأخيرا أنبرى من بينهم الإله " أيا " تاج الألوهية وجلالها ومجدها لا، ثم قتله وسجن وزيره " ممو " وأبتنى في الأبسو بيتا له وسكن فيه هو وزوجته " دام – كنّا " وفي حجرة الأقدار والمصائر ولد أبنهما " مردوخ " وربيّ على الرضاعة من أثداء الإلهات وسرعان ما شبّ وأكتسب جلال الألوهية المخيف الصاعق، وصار ثاقب النظرات براق العينين جديدهما هائل الأعضاء والجوارح، لا يمكن النظر إليه و يعسر على البشر إدراكه له أربع عيون وأربع آذان وحين تتحرك شفتاه ينبعث منهما اللهب، واستطالت آذانه واتسعت عيونه الأربع فصار يرى كل شيء، اكتسى بنور الألوهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب، أما " تيامه " فأنها لم تنسى مقتل زوجها " أبسو " وحرضها على الثأر

له وللآلهة العتيقة يتزعمهم " كنكو " واستجابت " تيامة " للتحريض وعبأت جموعها وأعلنت من منزلة " كنكو " وجعلته زوجها وولدت مخلوقات مخيفة من الأفاعي والتنانين الهائلة، وعهدت إلى " كنكو " قيادة جموعها وزودته بألواح المصائر والأقدار، ولم يفطن الآلهة الحديثة إلى ما بيتته لهم أمهم تيامة من شر وهلاك إلا حين أوشكت على الهجوم، ولما أدرك الإله " أيا " الهلاك المحدق بأخوته من جيل الآلهة الحديثة تملكه اليأس والرعب، ولما زال اضطرابه قصد جده " أنشار " وأبلغه ما عزمت عليه " تيامة " فحرض " أنشار " حفيده " أيا " على أن يتصدى لقتالها ولكن البطل " أيا " الذي قضى على " أبسو " جبن وأحجم عن التقدم، ثم طلب " أنشار " إلى الإلهة " أنو " أن يكون رسول مصالحة وسلام إلى " تيامة " فذهب إليها وعرض عليها الصلح ولكن لم تنجح محاولته السلمية فرجع خائفا مضطربا وعندئذ عمّ الخوف والوجوم جميع الآلهة، وعقد الصمت لسان " أنشار " وجلس معه الآلهة وهم خائفون صامتون، وبينما كان الآلهة في هذه الأزمة العصيبة، خطرت لأنشار فكرة سعيدة إذ تذكر ما يتصف به أحد أحفاده، وهو " مردوخ " من مهارة وبسالة، فاستدعى " أيا " أبنه " مردوخ " وأعلمه بعزمّ الآلهة على أن يعهدوا إليه بمنازلة " تيامة " فقبل " مردوخ " الاضطلاع بهذا العمل الجسيم ولكنه طلب جزاء ذلك أن يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة، فوافق على ذلك أبو الآلهة " أنشار " ولكن لما كان منح " مردوخ " تلك السلطة خارج صلاحياته الإلهية، اقتضى الأمر دعوة الآلهة إلى عقد مجلس شورى، ولما أنتظم عقدهم قبل أحدهم الآخر، وقبل أن يتشاوروا في الأمر جلسوا إلى وليمة عامرة، أكلوا فيها وشربوا، فذهب عنهم خوفهم وانشرحت صدورهم بتأثير ما احتسوه من خمر جيد، وبعد أن فرغوا من الوليمة أقاموا منصة " لمردوخ " فجلس عليها هذا الإله الشاب قدام آبائه وأجداده ليتسلم منهم السلطة، فقد أنعقد إجماعهم على نقل سلطانهم وزعامتهم إليه،

وفوضوه تقدير المصائر والأقدار، وأعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان " أنو " وصارت إرادته لا ترد ولا تتبدل وتوجوه ملكا عليهم وعلى جميع الكون، ولكي يطمأن الآلهة من أن مردوخ حصل على هذه السلطة المطلقة وضعوا في وسطهم رداء، ولما أن فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء، وبكلمة أخرى نطق بها عاد الرداء، ولما أن تحقق الإله من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا له قائلين " حقا أن مردوخ ملك ! " وقدموا له الخضوع والولاء بصفته ملكهم وقلدوه شارات " الملوكية وهي " الصولجان والتاج والجلباب كما قلدوه السلاح الذي لا يقهر وحرضوه على قتال " تيامة " فأخذ الأهبة للنزال الرهيب وصنع لذلك قوسا وسهما وكنانة وأمسك هراوة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق أمامه، وأحاط جسمه بنور وهاج، وهيأ شبكة فحملتها له الرياح الأربعة وأهاج عواصف الأمطار وركب مركبته " العاصفة الرهيبة " التي تجرها أربعة مخلوقات مخيفة هي " المدمر " و " القاسي " و " المحطم " و " الطائر " وكان يلبس درعا من الزرد ولما أن أقترب من جموع " تيامة " بقيادة " كنكو " صعقت من جلال ألوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة، فهربت، ولكن تيامة ثبتت أمامه وأخذت تقذفه بالسباب والشتائم، ولما أن تقدمت لمبارزته نشر شبكته فأصداها بها ولما فتحت فاها لابتلاعه ساق في فمها الريح الشريرة فمنعها من أطباق شفتيها وسلط عليها الرياح فانتفخ جسدها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاغر فأصاب قلبها وقضى عليها ووقف على جثتها منتصرا، ولما رأى بقية أتباعها من الآلهة نتيجة النزال هموا بالهروب ولكن " مردوخ " لم يدع أحدا منهم يفلت حيث أسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها " كنكو " لوح الأقدار، وختمه بختمه وعلقه على صدره، ثم رجع إلى جثة " تيامة " ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع أوردة دمها وجعل الريح الشمالية تحمل دمها إلى الجهات الجنوبية النائية، ثم شطر جثتها

الضخمة شطرين خلق منهما الكون، إذ جعل من نصفها الأعلى السماء ومن نصفها الأسفل خلق الأرض، وعين للآلهة العظام وعلى رأسهم " أنو " و " أنليل " و " أيا " الأجزاء التي يحكمونها من الكون، ولما تمّ ذلك لمردوخ ارتأى أن يوجد مخلوقا سمي بالإنسان، من أجل أن يخدم الآلهة، وأعلن عن عزمه إلى أبيه " أيا " فحبذ له ذلك وأشار عليه أن يضحي أحد الآلهة لذلك الغرض، فقرر الآلهة في مجمعهم أن يكون الإله المضحي " كنكو " لأنه هو الذي حرض " تيامة " على محاربة الآلهة، فأمسك به " مردوخ " وجاء به إلى " أيا " فذبحه وخلق من دمه الإنسان، وفرض " أيا " على هذا الإنسان خدمة الآلهة ليريحها من العناء والتعب وقسم " مردوخ " من بعد ذلك مجموعة الآلهة المائة إلى مجموعتين، مجموعة للسماء وأخرى للأرض، وعرفانا بفضل " مردوخ " وبطولته في إنقاذ الآلهة من الهلاك، عمل آله " الآنوناكي " طول عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم " أي - ساكلا " مع برجه في مدينة بابل بعد أن أسسوها وخصصوا في هذا المعبد مزارات لأنليل وأيا، وبعد أن تمّ ذلك أجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتّل الآلهة بمديح " مردوخ " وتمجيده وتنازلوا عن أسمائهم وصفاتهم، فصار لهم خمسون أسما، وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا أنه كان يرتل تمجيدا لمردوخ في عيد رأس السنة.. أن أسطورة " الإينوما إيليش " - قصيدة التكوين والخلق البابلية، تلك القصيدة التي تمتاز بالشمولية وهي التي تتألف من حوالي 1100 سطرا تمّ تجميع نصوصها كلها والتي يغلب عليها فكرة تمجيد وارتقاء الإله " مردوخ " تتكون من حوالي ستين نسخة لأجزاء منها تبدو مختلفة جزئيا، وكما يثبت ذلك الباحث " ج. سميث g. smith " في المقالة التي نشرها في الديلي تلغراف بتاريخ 14/ آذار / 1875، بعد الكشف عنها من قبل بعثة الآثار التي كانت متواجدة آنذاك في العراق، تكاملت أجزائها

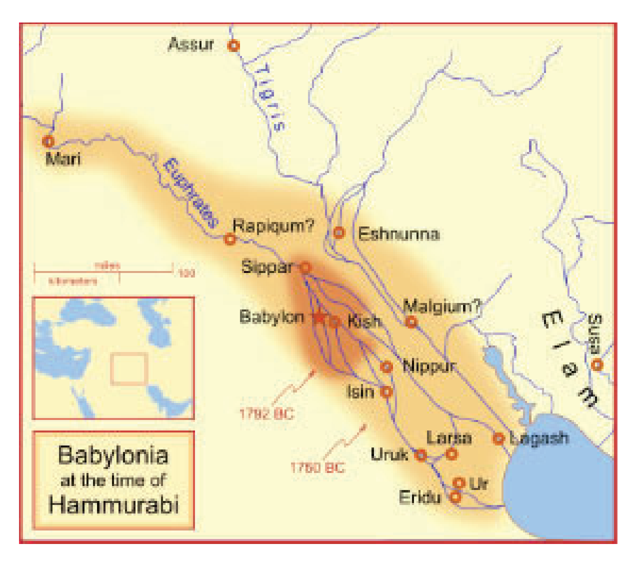
وثبتت المعلومات النهائية عنها في العام 1966 كما تمت ترجمتها إلى العديد من لغات العالم، وكما يوضح " أندريه بارو- andre parrot " فأن ترجمتها إلى الفرنسية تمت في مطلع عام 1935، وتعتبر أحدث ترجمة لها حدثت في العام 1989 وتم خلالها تقديم معلومات أخرى وافية وجديدة، وكذلك الإشارة إلى بعض الأبحاث التي تناولتها، تم اكتشاف أجزائها في ثلاثة مناطق من أرض العراق، وهي " كيش – سيبار – سلطان تبه " وفي فترة " الملك سنحاريب " تمّ إعادة كتابتها لتناسب وضع الدولة الآشورية حيث رفع اسم " مردوخ " منها ووضع اسم " آشور "، هذه القصيدة الأسطورية الطويلة تمت كتابتها من قبل مجموعة من الكتاب والمفكرين ورجال الدين، فريق مكلف في التأليف الجماعي على ضوء مخطط يسبق التأليف وتمّ تسجيل نصوصها على الألواح الفخارية باللغتين السومرية والأكادية، مجموعة الكُتاب، أو الكاتب المنفرد في تدوينها أنجز تلك الأسطورة والتي كان يهدف من خلالها إلى تمجيد الإله " مردوخ " باعتباره البطل الوحيد الذي أنقذهم، وبكل ذكاء وعبقرية يعود الفضل له في تحقيق الانتصار الذي أنعكس بدوره على قضية الخلق والتكوين للكون والبشر، هو الذي وضع كل شيء كما مقدر له، ثم حسب مهماته أصبح إلها وسيدا لجميع الآلهة ومن ثم للبشر واستحق على أفعاله التمجيد وحصل على جميع الألقاب الإلهية المعبرة عنه وعن فعله الكبير، وهي كما قدمنّا في الملخص ويمكن الإشارة إلى التسلسل الدرامي في تأليف الأسطورة، في الفصل الأول، تعرض حالة العماء البدئي ومن ثم يتطور الفعل الدرامي بالكشف عن ولادة الآلهة، وبعد ذلك نشوب التعارض والمواجهة بينها وتدخل الإله " أيا "، في الفصل الثاني ظهر بوادر الاستعداد للمعركة، ثم نجد الآلهة الذين يتهدد مصيرهم الخطر يبحثون عن منقذ، كما توّجه الأنظار نحو الإله المخلص " مردوخ " وفي الفصل الثالث " الإله مردوخ " يظهر

ويحصل على جميع الصلاحيات بتخويل من الآلهة وكما يتمنى، وفي الفصـل الرابـع تحصـل المعركة الكبيرة ومن بعدها يتقرر النصر وعلى أثر ذلك الإله مردوخ يبدأ التكوين والترتيـب والتنظيم، في الفصل الخامس الإلـه مـردوخ يتـابع مهمتـه في تنظـيم الكـون ويحصـل عـلى اعتراف بمبايعته من قبل جميع الآلهة، وعلى أثر ذلك يبدأ بمشروع بناء بابل وخلـق الـبشر لها، ثم إقامة المدينة وظهورها إلى الوجود، وبعد ذلك يتم تنصيبه الإله الأوحد القادر عـلى فعل كل شيء، وفي الفصل السـابع تعديـد ألقابـه وأسـماء الإلـه " مـردوخ " الخمسـين ثـم التمجيد المطلق له...........



مع ملحمة الخليقة البابلية، وما نشرته من أفكار كـان مـن أبرزهـا إنهـاء سـلطة الأم " تيامـة " وتأكيـد انتصـار رمـز الأب في الأسـطورة " مـردوخ " الـذي يتحـول إلى رمـز وقـوة كبـير عنـدما يـتم اختيـاره ليصـبح صـاحب القـوة والكلمـة لمجمـع الآلهـة

الذي يتكون من سبعة آلهة لهم السطوة والقرار، ولأنه هو الأقوى وصانع النصر الكبير فهو الإله المتفرد القائد، أن جميع الأساطير السومرية وما تبعها من أساطير بابلية تهدف إلى تأكيد أنها نسجت أحداثها من أجل الإنسان لأنه خلق أصلا لخدمة تلك الآلهة المتعددة المهمات، وكما ينشر تلك الحقيقة في المسرحية الإغريقية " أنتيجونا " الكاتب " سوفوكليس " فهو يرى أن الأشياء الهائلة الكثيرة في الكون ثابتة، لكن لاشيء غاية في موازاة ذلك الهول كوجود الإنسان، فهو الذي يجوب البحار المخيفة المظلمة، في عاصفة الجنوب الشتائي، ويقتحم بشجاعة الموج المتلاطم، والأرض أقدس مقدسات الأرض أقدس مقدسات الآلهة التي لا تنضب ولا تكل ولا تملّ وكذلك هو الذي يحرث ويقلب جوف الأرض سنة تلو سنة، يحرثها على الخيلّ وبالمحراث "، لقد تمّ تحوير تلك الأسطورة عن النص السومري لكي تتلاءم مع حاجات المجتمع البابلي، تلك الأسطورة التي كانت تمثل أمام أعلى سلطة بابلية " الملك الحاكم " وكما يرى – طه باقر – " أن عملية الخلق لم تتم بهدوء بل بعد صراع وكفاح ونزاع بين الآلهة، لقد أعطت الأسطورة للإله " مردوخ " أفضل مكانة دينية في بلاد ما بين النهرين، وهو يمثل برأي " موتكارت " قيما أخلاقية وصلت لمرحلة أعلى مما مثلته الديانات السابقة، وفي تفسير مهم لتلك الأسطورة يعتقد عالم النفس البارز " أريك فروم " يبدو فعل " مردوخ " قد أدى إلى ظهور واضح وقوي لسلطة الرجل وقلل من قيمة الإنتاج الطبيعية التي عرفت بها المرأة، لقد منح الرجل في تلك المواجهة سلطته التي تعتمد على التمكن الواضح من الإنتاج بقوة الفكر الذي يسير الكون، وتلك حالة من حالات تطور الوضع الإنساني الحضاري، كما وضع فكرة ظهور مفهوم الأب المقدس وتسلسل الرتب الدينية السلطوية والمهام في المجتمع، إضافة إلى تأكيد تعدد الآلهة وتفرد إله واحد في قيادة الكون..



- خريطة المدن الحضارية القديمة في فترة سومر وبابل -

أن الأسطورة السومرية وبشكل عام تلك التي خلقتها حضارة " بلاد ما بين النهـرين، تمثل نظام فكري متكامل، نجح في استيعاب قلق الإنسان الوجودي وتوّقه الأبـدي لكشـف العيوب التي تبدو في محيطه، لقد جحت في رسـم لوحـة متكاملـة للوجـود، وهـي تثبـت بجدارة وبشكل عقلاني أن فكرة الخلق ما هي إلا عملية شاملة ودقيقة لاسـتخلاص النظـام من حالة فوضى كبيرة موجودة من العدم تحيط به وتحاول وضعه في مدار المتاهة..

ثمة آله له الأهمية الكبرى في حضارة بلاد ما بين النهرين وقد تمـت عبادتـه بشكل واسع وهو الآله المشهور " تموز – ديموزي " الذي كان يلقب بآله الخضـار والنمو ورعاية الماشية والخصب وأشتهر باقترانه في العبادة السومرية بالإله " إنانا " وفي العبادة البابلية – يعتقد انه اقترب بالآله " عشتار "، ومـن خـلال الطقـوس المرتبطة به انتشرت عبادة الخصب والنماء في حضـارة وادي الرافـدين واسـتمرت في أذهان أقوام وشعوب مجاورة، وهو تشجيع على الاهتمام بخصوبة الأرض ومـا

تنتجه من خيرات وازدهار، ويرتبط اقتران الإله – ديموزي – ببداية الربيع ويظن ان بداية تلك العبادة كانت قد ظهرت في مدينة – الوركاء والنماء، وتم تقليد ذلك العيد في مدن واقاليم مجاورة، وبعد ذلك تطور الى ان الحاكم يقلد تلك الشعائر الخاصة بالنماء مع كاهنة لها مكانة عالية يختارها...

أسطورة الآلهة إنانا

نشأت حول تموز – إنانا – أو – تموز – عشتار عدة أساطير من اشهرها " " اسطورة الآلهة إنانا " وخلاصتها ان الآلهة إنان عندما غضبت على زوجها " ديموزي – تموز " أنزلته إلى الأرض السفلى – اي العالم الآخر – عالم الموت وكان من قواعد العالم الآخر من دخله لا يستطيع العودة منه إلا ان يضع بديلا عنه في ذلك العالم.



- لوح سومري يمثل الآلهة إنانا وزوجها ديموزي -

حيث تعقد مع شقيقتها آلهة العالم الآخر " ارشيجيكال " أن يظل – ديموزي – حبيس ذلك العالم لمدة نصف عام ويخرج منه في النصف الثاني مقابل الاحتفاظ بأخته المسماة " كشتنانا " واسمها يعني " خمرة السماء " بديلا عنه في العالم الآخر – في النصف الثاني من ذات العام يخرج – ديموزي – الى الحياة والمرجح انه يخرج في مطلع الربيع ليحل بخروجه الخصب والحياة في الأرض، وقد نقل الاغريق اصل هذه الاسطورة فتحولت الى اسطورة " ادونيس " الذي عشقته آلهة الحب " أفروديت " ولكن آلهة العالم الأسفل " برسيفونة " نازعتها حب أدونيس، وحل النزاع بين هاتين الآلهتين واتخذ القرار ان يظل ذلك الآله الجميل عند آلهة العالم الأسفل طوال نصف عام ويخرج منه في النصف الثاني ليكون حصة " افروديت ".. هكذا نجد ان مشهد زيادة الآلهة في سومر التي ولدت من " الابسو " او تيامات " وكما تقول بعض القصائد المدونة في الألواح السومرية – ان هذه الآلهة كان سلوكها عاصف وصاخب وقد أزعج تيامات وازعجت آبائهم كثيرا ولذلك اتخذ القرار بتحطيمهم وعندما سمعوا عن خطة الآلهة العظيمة صدموا وتعجبوا، وظل الصمت يلازمهم، لاتفكير سوى التمسك باستمرار الحياة والبحث عن تحقيق سلام على تلك الأرض الجديدة، على أية حال ظهرت حكمة دفعت قوتها لتحطيم المخطط الشرير – اختارت المواجهة وبعد ذلك ذهب الآله الكبير بعد النصر إلى معبده واسس معبده – الابسو – على وجه المياه الحلوة مع زوجته:

عندما لم يكن هناك كوخ قصب،

قد ظهر فوق المياه والأرض،

كذلك لا أرض فوق مستنقع قد ظهرت،

عندما لم تكن أي آلهة مهما كان اسمها،

قد جلبت إلى الأرض لتكون ذات قرار،

عندما لم يكن هناك آله له اسم واضح،

عندما لم يكن الناس قد تمت دعوتهم إلى أقدارهم المحددة،

ثم ظهر ذلك الآله القوي من بينهم....

في المنظر الطبيعي تم وصف المشهد الجديد فوق رقعة أكبر من الأرض وصار يظهر ويكبر بوضوح وكذلك أزداد ظهور السحب وارتفعت الشمس، وصار ثمة خط يفصل السماء عن الأرض فوق امتداد المياه دون حدود، لذا نجد في الاسطورة ان الآلهة الأولى التي ظهرت - تحدثت الاسطورة عن ابن الآله - مردوك - الذي امتلك مواصفات غير اعتيادية بارزة كما هي الحال في الأعضاء وظلت تلك الحالة صعبة الفهم والتفسير:

له اربعة عيون

له أربعة آذان

عندما يحرك شفاهه تشتعل النار في اتجاهات عديدة

له أربعة أعضاء سمعية كبيرة

والعيون أيضا لها نفس العدد

هو مسح كل الأشياء

هو كان الأعلى من الآلهة

عندما لم يكن الناس قد تمت دعوتهم إلى أقدارهم المحددة

ثم ظهر ذلك الآله القوي من بينهم....

في المنظر الطبيعي تم وصف المشهد الجديد فوق الرقعة الأكبر من الأرض وصار يظهر ويكبر بوضوح وكذلك أزداد ظهور السحب وأرتفعت الشمس عن الأرض فوق امتداد المياه دون حدود، لذا نجد في الأسطورة ان الآله الأول الذي

ظهر كانت قوامه تعيق أعضائه التي كانت تبدو هائلة، هو كان آله حقيقي، في هذه الأثناء كانت تيامات ما تزال حية وحرة، وبغضب هادي اعلنت الحرب على الآلهة، خلقت عددا من التنينات العنيفة والثعابين البشعة، البعض منها له أنياب وأسنان حادة تنفت سمها بدم الضحية، وضعت أحد أبنائها وهو الآله المرعب " kingu" على رأس الجيش المرعب، الآله anshar" استبد بها الفزع وضربت خاصرته وكبح شفاهه من ذاك الخطر، وقالت ان kingu يجب ان يموت، لكن من الذي يستطيع ان يفعل ذلك - هي نظرت نحو marduk وقبل تحت شرط واحد، وهو ان يكون ملكهم المعظم، ثم بدأت الجمعية اجتماعها، قال مردوك:

أعلن أعلى قدرتي،

أترك في آذانكم كلمتي،

من بدلا مني يقرر المصير،

لم يكن لدى الآلهة أي بديل،

لذا اعلنت الموافقة،

اجتمعوا في مأدبة، أسكروا بعض الشيء، ثم وهبوا مردوك السلطات والشارة الملكية

- اختار مردوك أسلحته:

القوس

البرق

عاصفة الفيضان

الرياح الأربع

الشبكة

كسى جسده بالدرع المضاد للسهام المسمومة

وضع على رأسه العمامة الهائلة المفزعة
صعد على عربة عاصفته
ذهبلوحده لمحاربة قوات الفوضى
عند رؤيته بين الادغال
هرب جيش الوحوش
حل النصر على القوات المعادية ورئيسها kingu الذي تم أسره
أما بالنسبة لتيامات وقعت في شبكة مردوك
وعندما فتحت فمها ونفخت الرياح في الجهات الأربعة
جاء سهم وثقب قلبها
ثم حطمت جمجمتها بصولجان مردوك
ثم قسم جسدها وصار يفتحه كما يفتح صدفة السمك
نصفها بدى وسقفه كسماء
والنصف الآخر وضع تحت وصار الأرض
بعد انتصار مردوك وضع الترتيب الجديد للكون
صار ممكنا امتلاك الكون والسيطرة عليه
امتلك السماء الجديدة
تم تثبيت فصول الشمس
تم تحديد مهام القمر والنجوم
كما تقرر بعد ذلك خلق البشرية
قال أيضا " أنا سأخلق الوحش luiiu هكذا سيكون اسمه
سيكون رجلا وحشيا
سأخلقه بشكل عظيم

هو سيهتم بخدمة الآلهة

وكل من يكون بوضعها

من دم kingu الميت وشيء من دم مردوك ودم أبوه

هكذا ساصمم الإنسان الأول...



" بابل عند اكتشافها وفيها معبد مردوك "

فيما بعد قسم مردوك الآلهة الى مجموعتين - هو قرر ان يكون 300 منهم يسكنوا في الجنة و300 منهم للعيش على الأرض جنبا الى جنب مع الإنسان، تقديرا لنصر الأله مردوك تم بناء معبد يحمل اسمه في بابل سمي معبد ايسجالا، جمع الجميع في المأدبة العظيمة الأخرى وأعلن خلالها أسماء الإلهة الخمسون، قصة طفولية لها صدى يتردد في أذهان الشعب البابلي لفترة طويلة تسرب

مضمونها إلى عقولهم لتركيز الفكرة الدينية وجعل لديهم تفسيرا مقبولا وموقفا واضحا مـن الكون وأيضا حدد الموقف من الأشياء الأخرى، كما قدم الوصف الذي أراده العالم المزعـوم، تمكن ان يجعل فكرتين في قضية واحدة مهمة فيها الحسم والاقـتراب مـن الحقيقـة وتركيـز الدعوة بأن يكون الرجال خدما للإلهة وكذلك تفسير النوازع الشريرة الطبيعية التي تسيطر على الإنسان أحيانا، والذي اعتبره خلق من دم الشيطان " kingu- كينجـو " وبـرر اهميـة ان تكون السـلطات المطلقـة بيـد الإلـه مـردوك الـذي هـو بالحقيقـة تجسـيد للإلـه enlil بانتخابه وتقديسه من خلال مآثره وبطولاته وقدرتـه وقبـل كـل شيء كانـت لديـه عقيـدة الزواج المقدس وتلك تمثل القـوة السـحريةالتي يحتفـل بهـا الشـعب كـل سـنة وظـل ذاك الاحتفال متواصلا لمدة 2000 سنة تقريبا.


774—THE ILLUSTRATED LONDON NEWS—May 19, 1934

AN EXTRAORDINARY DISCOVERY
CULT STATUES DATING FROM ABOUT 3000 B.C., WITH OTHER BUILDINGS

OF EARLY SUMERIAN SCULPTURE:
AND THE TEMPLE WHERE THEY WERE FOUND; EXCAVATED AT TELL ASMAR.

May 19, 1934—THE ILLUSTRATED LONDON NEWS—775

FIG. 7. THE HOARD OF STATUES LYING IN THE SOIL JUST AS THEY WERE FOUND: A PHOTOGRAPH OF THEM IN SITU, BEFORE THEY WERE TAKEN OUT AND PIECED TOGETHER, SHOWING CRACKS AND BREAKAGES CAUSED BY CONTINUAL PRESSURE OF EARTH ABOVE THEM THROUGH A PERIOD OF SOME FIVE THOUSAND YEARS.

THE discovery at Tell Asmar of this unprecedented treasure of ancient Sumerian sculpture (fully described on page 776 by Dr. Henry Frankfort) has caused a stir in the archæological world. Writing in "The Times" recently, Mr. C. Leonard Woolley, of Ur fame, said: "No such hoard of stone figures in the round has come to light in any other ancient site of Mesopotamia. Isolated statues have been few, and here a wealth of examples appears to illustrate a little-known period. The building in which they were found is earlier than the Royal Tombs at Ur, and the sculptures, buried beneath its floor because they had outlived their vogue, are older still. This is probably more true of some than of others, for I suspect that the wide variety of style and technique on which Dr. Frankfort comments is in part at least due to difference of date."

The first of our photographs (Fig. 1 above), showing excavations at Tell Asmar, is explained in detail in Dr. Frankfort's complete description of it, which runs as follows: "An object lesson in stratigraphy. The uppermost figure is placed at a level dating from the dynasty of Sargon of Akkad, about 2500 B.C. The man below with the small pick is at the level at which were found the bronzes (published in 'The Illustrated London News' of July 22, 1933) that are identical in shape and workmanship with the vessels of gold and silver found in the Royal Tombs at Ur. The group of men excavating at the bottom are working in the earlier temple (at Tell Asmar), dating from about 3000 B.C., in which were found the statues illustrated in this issue." Our photographs are numbered according to references in Dr. Frankfort's article.

FIG. 9. A STATUE SHOWING EXTREMELY WELL THE PHYSICAL TYPE OF THE EARLY SUMERIANS. (HERE ONE-THIRD ACTUAL SIZE.)

FIG. 12. THE HEAD OF THE PRINCIPAL STATUE—THAT OF THE LORD OF FERTILITY (ILLUSTRATED ON THE FRONT PAGE WITH THE GREAT MOTHER GODDESS): A FACE IN WHICH DIVINITY IS INDICATED BY THE UNNATURAL ENLARGEMENT OF THE EYES, IN STRIKING DISTINCTION FROM THE HUMAN TYPES OF OTHER STATUES. (HERE SHOWN AT ITS ACTUAL SIZE.)

" صفحة توضح صور العبادة في الفترة السومرية "

وتم مزج مضمون تلك الأسطورة مع الإينوما إيليش – enumaelish ويتم الإشراف على تجسيدها من قبل كهنة بابل وذلك في اليوم الرابع من كل سنة جديدة تقريبا، كان البابليون يشعرون بأهمية مواصلة الكفاح من أجل الكون العظيم الذي لم يسبق ان طمعت به قوى الفوضى المعادية وهي جاهزة دائما للإعتراض على أوامر ورغبات الإلهة المؤسسة والحامية لوجود الكون والإنسان، الفكرة الأزلية هي " الحياة تنتهي بالموت والقدر محتوم تماما، وتجارة الحياة واستمرار شعلتها وقودها الرجال وصلوات الإلهة – هي مثل تجارة الرجال بين أنفسهم وكانت لها بالطبع درجات، إذا كان ملك بابل مباشرة يخضع لطلبات الإله مردوك والفلاح البابلي له اتصال مباشر مع الإله " أشنونا – إله الشعير أو شوموكان – shumugan إله الماشية أو مع الإله آنو anu أو enlil هذا بالإضافة إلى وجود عدد كبير آخر من الإلهة التي تهتم بالاحداث المهمة التي تحصل بالحياة، عندما يطلب الإنسان في دعائه اليومي، مثل ذلك الدعاء وحيث يتم عرض الطلبات مثل استرضاء الإلهة – gula إلهة الولادة، أوالألهة – باسج pasag الذي يعتبر حامي المسافرين من الأخطار، وفي حالة الطواريء وحصول كوارث أو أخطار كبيرة يمكن التوجه إلى الإله الحامي من خلال رجال الدين من الكهنة أو مباشرة من خلال وكيل الإله الذي يمتلك مكتبا خاصا له يمارس فيه العمل.. السومريون وكذلك البابليون والآشوريون نظروا إلى إلهتهم كما ينظر العبد إلى سيده الجيد، كانوا يستسلمون لهم ويشعرون بالخوف من غضبهم وبطشهم ويحيطونهم بالإعجاب والحب والتقديس، وهذا يشمل الملوك وعامة الناس على حد سواء، كلهم يقدمون طاعة يرتجى من وراءها الحصول على أعظم الطلبات والرغبات وكانت خدمة الإلهة تأتي في أولويات الواجبات التي يهتم بها الإنسان، كما ان المشاركة في الاحتفالات والمهرجانات المختلفة وإداء

الطقوس المعقدة من خلال جهد الكاهن وكان أيضا واجب كل مواطن الذهاب ودعم العروض الخاصة بالاحتفالات في المعابد وحضور المراسم الدينية الرئيسية الكبيرة، أيضا الاهتمام بحضور مناسبات دفن الموتى والمشاركة بالصلاة على أجسادهم ودفع التزام يسمى الكفارة للمعبد ودائما ملاحظة واستذكار القواعد الصارمة للعمل الحرام غير النافع من خلال قواعد صارمة حددها الإله ونشرها كاهن المعبد ويطبقها المواطن بدقة في حياته اليومية، أي رجل عاقل يجب ان يخاف الإلهة ولا يحيط به الشك من قدرتهم ودقة عملهم، أما الذي تكون صورته وممارساته عكس ذلك فهو شرير ومذنب حتما، كل شخص يعرف تلك الحقائق، وينفذ رئيس الرجل العقوبات الأكثر فظاعة، ورغم كل تلك الأمثلة التي أوردتها فأن قضية التفكير بالديانة التي تشكلت في بلاد مابين النهرين التي تعتبر قضية رسمية تماما، عندما تكشف التراتيل والصلوات المشاعر الإنسانية الأكثر حساسية والتي تقود إلى تأجيج العاطفة الأصلية، شعب بلاد ما بين النهرين وضع ثقته في قوة وبأس الإلهة المتعددة، اعتمدوا على الإله كما يعتمد الأطفال على آبائهم، كانوا يتكلمون معهم يحاورون تلك الآلهة كما يتكلم الأطفال مع أبائهم وأمهاتهم، من الممكن ان يهانوا أو يعاقبوا ولكن يمكن أن يكونوا راضون عنهم ويغفروا لهم، تتضمن العروض الطقسية الرافدية التبجيل وقراءة الأدعية والنواح والمراثي الطقسية المكتوبة على ألواح يتم تداولها وعادة تحفظ في مخزن داخل بناء مقام الإله، كما لايمكن الدخول الى باحة المعبد او مقام الإله إلا بأقدام عارية بعد خلع الأحذية في الخارج، ولكل متعبد ان يراعي التعاليم والمباديء الدينية وذلك ما كانت كل آلهة بلاد ما بين النهرين تطلبه من الذين تكفلوا بالعبادة الصحيحة ولايمكن قبول الصلوات الناقصة، الكلمات وحركات الجسد تجعل قلوبهم تتوهج بالبهجة والآمان والمشاركة بوجبات

الطعام التي كانت تنجز كفعل تقديس من قبل الرعية للإله ومن بعد ذلك الحصول على الحسنات والتبريك، أولئك المواطنون الذين عاشوا حياة مرفهة كانوا بمثابة آباء جيدون وأبنائهم جيدون أيضا وجيرانهم جيدون، تلك مزايا وسمات يوصفون بها، وهم قد اكتسبوها نتيجة أعمالهم الجيدة وفي اجسادهم ووجوههم وضعت الآلهة البركة والشفقة والحق والخلاص والعدالة واحترام القانون ومعرفة أسس الطب والفلك والغيب وماوراء الطبيعة، هم كل يوم يعبدون آلههم بإخلاص مثلا " يقول البابلي " أن مستشار الإله الحكيم ينظر إلى الضعيف بعين الشفقة ولا يقوم بإهانة المظلوم وكذلك المواطن الصالح يقوم بتقديم الأعمال الخيرية ويؤدي الخدمة المخلصة في كل الأيام ولا يلفظ البذائة وهو يتكلم من عقل ولسان جيد، لا يقول أشياء شريرة، دائما يمدح البشر، ولهذا الإله يقدم جائزة للتقوى يقدر بها التصرف السليم، الإلهة تساعد الرجل والمرأة تحميهما من الخطر ولا يترك الفاجعة تنال منهما، يحميهما دائما من كل الأخطار ويجعل صحتهما جيدة ويصنع لهما المركز الاجتماعي المرموق، كما يمنحهما النزاهة والثروة وأيضا يمنحهما أطفال عديدون ويجعل لهما طول البقاء المحاط بالسعادة " هذا هو الكلام النموذجي لوصف مردود التدين وفعل الإله، لئن الإلهة وتعاليمها تطالب الناس ان يكوموا هكذا وهذا أراه يتوافق مع ما تطالب به الأديان السماوية الثلاثة التي جاءت فيما بعد، السومريون والبابليون وأيضا الآشوريون اقتنعوا بتلك التعاليم وكانوا واقعيين وعمليين، هم أحبوا الإلهة وتمتعوا بالحياة التي كانت عندهم فوق كل شيء، كان العيش إلى الأبد لدي الإنسان السومري هو الحلم الأبدي الكثير منهم كان يراودهم الخلود ولذلك نجد أساطيرهم تتحدث عن ذلك الحلم العظيم وخاصة ملحمة آدابا أو ملحمة جلجامش - التي وضحت الفكرة وافصحت في تحديد الهدف في طلب الخلود،

كانت تتضمن قصة رائعة ذات رمز إنساني موشى بإهمية الحياة ومحاربة الموت ولكن حضارة بلاد ما بين النهرين أعطت بشكل محسوم " الفناء للإنسان والبقاء للإلهة " لقد قالت وفق تعاليمها فناء الإنسان أمر محسوم ولا جدال فيه.



" الزقورة – معبد الإلهة في سومر "

وقد قررته الإلهة ولزاما على الإنسان أن يتقبل..

- الإنسان في دوامة الفناء المتواصل،
- فقط الإلهة تبق خالدة
- إلى الأبد مثل وهج الشمس وضوء القمر وغناء النجوم،
- إلى الأبد يتواصل العالم الذي خلقته تحت مجرة الشمس وكذلك يتواصل الوجود والعدم،
- لقد قررت مجلس الإلهة الخلود لهم والعبادة الدائمة،

- أما البشر فأيامهم معدودة ولقد قررت الموت لهم مهما ينجزوا ذاك في مهب الريح،

" ولم تتوقف الفكرة في الديانة السومرية عند هذا الحد بل أنطلقت نحو عالم الغيب، فكر شعب سومر بطريقة أخرى للخلود، ماذا فعلوا...؟" بعد الذهاب في طريق الموت، وفي أسرار آلاف القبور نجد أصحابها قد تمتعوا بالمظاهر الجنائزية وهم في قبورهم تشهد عليهم على قوة اعتقادهم، الذي ينتقل إلى العالم الثاني يحمل معه امتعته وحاجاته الثمينة وأيضا الطعام والشراب الذي يكفيه لمدة عام حتى يتمكن من إيجاد البديل أو المساعدة من إله العالم الثاني، مثل هذه التفاصيل إنتزعها السومريون من إسطورة " إنانا – ورحلتها إلى العالم الأسفل ومن ثم عودتها إلى الحياة " أو من " دورة جلجامش في ملحمته المثيرة " كلاهما يتناول فكرة العالم الآخر رغم وجود تناقض في أغلب الاحيان في عرض الأفكار أو الأسس التي تقوم عليها كل من الاسطورة والملحمة – ولكن كلاهما مدهش ولم يتكرر مضمونه في الأساطير أو في الملاحم التي حاولت التقليد في حضارات لاحقة، وهذا يعود الى حجم التفكير ومدى الخيال الذي اخترق كل الحواجز وإلى الذكاء الخارق الذي تمتع به الشعب السومري ولم يتكرر في الشعوب اللاحقة، القضية الدينية التي ابتدعتها سومر مرت بتغييرات كثيرة مهمة للغاية، حيث صار للكهنة ومعابدهم القدسية الكبرى وأيضا السطوة المطلقة، أصبح العالم الروحي في تلك الحقبة هو الأكثر تنظيما وقد صار هو الحالة الأبرز للتطلع من قبل الإنسان والمجتمع السومري اندفع يفكر بشكل كبير للوصول إلى الأسرار التي كانت تشغله، من خلال تلك السيطرة الدينية صار الملك هو ممثل الإلهة على الأرض وحددت ضمن مسئولياته وضع القوانين والتشريعات وأخذ موافقة الإلهة على بنودها أو الحصول على التعديلات المقترحة عليها وينشرها ويتابع تنفيذها كما

يعمل على ترجمتها ونشر بنودها بين السكان، كانت المدن مسورة بالاسوار والمجتمع معروف بشكل تام، كان جلّ عمل الملك وأكبر أمانيه أن تكون مدينته المحاطة خالية من الفوضى وكل السلام والأمان موفور، وهو يدرك ان سكان سومر عموما نسيجه يتألف من خليط " الطبيعة - الوحوش البرية - البدو من الصحارى - والاجانب الذين يفدون الى سومر لأهداف كثيرة " والمحاولة تهدف الى العمل من قبل الملك واتباعه لتركيز قيم وأفكار الدين في تلك المجتمعات غير المتجانسة وفق التكوين القديم...

القدر... الموت.. الحياة الأبدية..

سيطرة فكرة البعث والحياة في العالم الآخر بعد الموت على تفكير الإنسان السومري حتى خلق اساطيرة وفق ذاك المفهوم، تجده يفكر بامتطاء الفضاء الواسع المجهول والعودة بعد مغامرة مدهشة ليهبط في اعماق الأرض - كما في اسطورة إنانا - التي بعد صعودها هبطت الى قصر ضخم تحكم من خلاله ذلك العالم الإلهة - أرشيكيكال - وزوجها " نرجال nergal "إله الحرب والوباء الذي أحاط به عددا من الآلهة والحراس الشداد، ولكي تصل إلى هذا القصر أرواح الموتى كان لابد أن يعبروا نهرا مخيفا وهم يستخدمون العبارات الخشبية - كما تكرر ذلك المشهد فيما بعد في الأساطير اليونانية الاغريقية - الذين يعبرون يركبوا العبارات بعد ان يخلعوا ملابسهم في اعتقادهم يتخلصوا من سجل حياة تعسة وكئيبة عاشوها في مكان ما:

الغبار تسلل إلى طعامهم،

أقدامهم غرست في الطين المزعج،

همّ لم يروا في طريقهم أي نافذة للنور،

سكنوا في جوف الظلام،

مثل الطيور يلتف عليهم ريش الأجنحة،

خيوط العناكب نشرت على المزلاج والباب...

نعرف تفاصيل أخرى رغم ذلك عن قصص وأساطير أيضا أضاءت مساحة العالم الآخر من خلال فكرة دوران الأرض، اعلن آله الشمس " أوتو atu" إصدار قراره على الموتى ومصائرهم بنفس المستوى، ولكن الألواح السومرية التي تم فحص مضامينها كانت تقريبا مبهمة، حيث امتاز الأدب السومري الذي اقترب منها على تطريزها بشكل شاعري يوشي المضامين والمواضيع، على كل حال كانت بلاد ما بين النهرين – سومر – قد انشغل سكانها كثيرا بتفاصيل الحياة كما هي الحال في العالم المعاصر- كان المرض ينال منهم وتحيط حياتهم الفاقة والاحباط والحزن ومظاهر سوداوية أخرى، كان الإنسان السومري يطلق السؤال الصعب دائما" كيف كل هذا يحدث..؟"، ويجد التعليل بسبب وضع الآلهة لقوانين الحركة في الكون، وصار يدرك ان تلك القوانين جعلت الشر يسود على الخير لغاية لايدركها، ولكي يتم تأكيد الفعل بأنه ناتج عن حكم صحيح مرتبط بتقديس الآلهة ولابد من وضع اللائمة في النهاية على الإنسان نفسه، وهو يواجه نتيجة مخالفاته شدة وصعوبة قواعد أحكام الآلهة ويكسب المنع الذي يحبط آماله أحيانا كثيرة، ويكون تحت العقاب والآثم عندما يسلك سلوكا يهين كرامة الآلهة أو يعترض على قوانينها ونواميس العبادة، التجاوز على الآلهة أمر بسيط ولكن رد فعلها قوي ومدمر ولهذا يعتبر من المستحيل التجاوز على قواعد تعاليم الآلهة اوقوانينها التي تنشرها من خلال الكهنة في المعابد، مع انهم كانوا في فترات يعتقدون ان الآلهة بدأت تتصرف وتلحق بهم الضرر وهي تسلك الطريق الأكثر

غموضا، كما أشار إلى ذلك شاعر في قصيدة مـن فـترة بابـل " ludlul bel nemeqi" – أنـا سامدح رب الحكمة – القصيدة تصور مشاعر رجل في كامـل قـواه يتمتـع بالصـحة والنبـل والثروة – أصبح ذو حال متدهور وقد تدمرت آماله وصار يكـره كـل شيء وأصـابته العلـل وركب الفشل على حياته وخطواته في الحياة ثم صار وضعه فظيعا وكما يظهر في القصيدة:

مخيف هو حلمي،

عندما أنام ليلا،

والملك نفسه – الكاهن – الكائن الالهي،

لسوء طالعي لم اتمكن من تهدئة غضب قلب الملك،

رجال البلاط،

لايكفون عن مراكمة العداء ضدي،

يجتمعون،

يتبادلوا فيما بينهم أشياء لا يحسن قولها،

كأن يقول الآول:

سوف أقضي على حياته..!،

ويصرخ الثاني:

سوف أفقده مركزه...!

أما الثالث فيقول:

سوف استولي على ما اسند إليه...!

سوف أنفذ إلى بيته.. يعلن الرابع...!

أما الخامس فيقول:

سوف أخرب......

ويستمر السادس والسابع...... ضايقا ملاكي الحامي

عصابة السبعة جندت قواها....!

في نهاية القصيدة هو يأسف لئن الآله " مردوك " لم يهتم لحالته ولم يوفر له المساعدة، ويظهر في مقاطع من القصيدة حالة الشك في حكمة السماء وتوجيهات الآلهة ونجد مقاطع القصيدة تؤكد ذاك الاتجاه بشكل مرير هو يقول:

من يعرف إرادة الآلهة وخططهم في الجنة،

من يفهم خطط الإلهة في عالم الجريمة..؟

أيها الهالكون يجب معرفة الطريق إلى العالم الآخر،

يجب معرفة خطط الآلهة،

أنت الذي كنت حيا يوم أمس – اليوم ميتا،

لمدة لحظت بعد برودة الجسد يتفجر حولك الحزن بشكل غزير،

الأشخاص المقربون يبكون بصوت عال،

الآخرون يندفعون وهم يندبون بشكل محترف،

أنا يمتلكني الرّوع في هذه المناسبات،

أنا لا أفهم أهمية الآلهة في تلك اللحظة أو معنى قرارها...!

لكن ما يسمى بالتشاؤوم أو الحزن العميق الذي أسس لأدب النواح والمراثي في كل الأزمنة إبتداءا من سومر وصولا إلى العصر الحاضر، هو إنفجار قوي للمشاعر أمام حدوث المصائب والنوائب بما يسبب حالة اليأس والقنوط ذاك مرده الى حدث غيبي وبشكل جوهري لا يتعلق بالاخلاق وأغلب ذاك قد جاء من الشروط الطبيعية التي سادت في بلاد ما بين النهرين، مثلا الكوارث التي كانت تحصل بسبب فيضان النهرين " دجلة والفرات " تلك التغيرات العنيفة والغير متوقعة، النهرين يجلبا الحياة وأيضا يجلبا الكوارث، الفيضانات المتعاظمة المتكررة التي تحدث في برد ما بين النهرين كانت تفرض سيطرتها على المساحات الشاسعة من أرض المدن والقصبات والمناطق الزراعية وتعمل على تخريب الغطاء النباتي الدائم وتؤدي إلى تعرية التربة وبذلك يحصل اليباب، في بلاد ما بين النهرين اوجد السومريون شبكة كبيرة من الأنهار الصغيرة والسواقي التي تتفرع منها في قنوات متصلة بنهري دجلة والفرات كما أوجدوا نظاما دقيقا للري وتصريف المياه وتحويل مجاريها بين النهرين بشكل طبيعي إنسيابي يخدم الزراعة في كل المواسم - ذلك قدم العناية لظهور الغابات والبساتين والمناطق الزراعية الكبيرة المساحة كما ساهم في وجود المستنقعات والأهوار والبحيرات الطبيعية - حركة المياه من خلال النهرين ساعدت في ترسيب كميات كبيرة من الطين والغرين وتلك ساهمت في مدّ غطاء صالح للزراعة على أراضي كثيرة، وقد قدرت كميات الطمي والغرين التي تترسب من خلال النهرين بما يقارب 10 بليون طن سنويا وقد اعتمدت المناطق الجنوبية في بلاد مابين النهرين على الري ونجاح الزراعة من خلال ما يطرحه النهرين ولكن التقارير التي نشرت من خلال المؤسسات العلمية في العراق تشير إلى ان أنهار العراق تطرح كميات كبيرة من الغرين والطمي تترسب في قيعان الأنهار أو تتسرب إلى مناطق مجاورة لها في

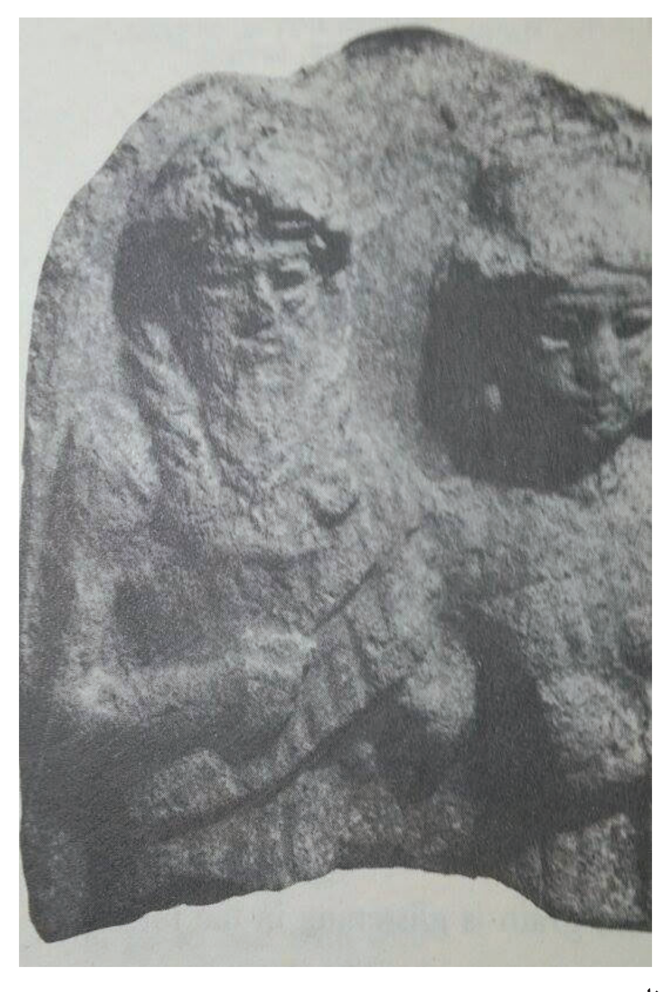
كل عام وبذلك تتسبب في مشاكل خطيرة منهـا، إرتفـاع قـاعي النهـرين عـن مجمـل السهل الرسوبي وأثر ذلـك في التصريـف الـداخلي في المـزارع وإزديـاد خطـر الفيضـان وتكوين الجزر الرملية في معظم مجاري الأنهار وأيضا تقليل سعة جداول الري – كما ان اهمال هذه الجداول بمرور الزمن لتعذر تطهيرها وكريها المستمرين بحيث يصبح فتح جدول جديد أسهل وأقل كلفة من كراء جدول قديم ومن النتائج الخطيرة لتلـك الترسبات تبديل الأنهار لمجاريها في فترات زمنية مختلفـة الأمـر الـذي سـبب هجـران المـدن بإنتقـال الاسـتيطان منهـا إلى مسـتوطنات جديـدة تنشـأ عـلى ضـفاف الأنهـار الجديدة، لقد أكدت معظـم الدراسـات – ان الفيضـان في وادي الرافـدين هـو الأقـل ملائمة ويتطلـب جهـودا جبـارة وسـيطرة كبـيرة غايـة في الدقـة والمتابعـة للحـد مـن عنفوان النهرين والاستفادة من ارتفاع المناسيب فيهما حيـث ارتفـاع مناسـيب الميـاه يبلغ ذروته القصوى ليشكل ذروته القصـوى في شـهري مـارس- ابريـل بيـنما يحـدث ذات الارتفاع في مناسيب المياه في نهـر الفـرات في شـهر مـاي ذلـك الطغيـان يسـبب الفيضـان ويلحـق الخـراب الكبـير في المحاصـيل وشـبكات الـري والسـدود وتـدمير المحاصيل الزراعية الناضجة الممتدة فوق الأرض حيث يصل مدى الفيضان القوي كما لو أنه كان بمثابة حالة إنتقام أو غضب تدميري ينشر الفوضى، وبالرغم من أن نهـري " دجلة والفرات " ميـاههما تسـقي السـهل الرسـوبي الكبـير في منطقـة سـهل شـنعار وبقية الأرض المجاورة لها في بلاد ما بين النهرين، المياه التـي يحملهـا النهـرين مهمـة جدا للحياة – وقد خص اهل سومر والذين جاءوا بعـدهم بالتقـديس والتعظـيم وفي أساطير التكوين والخليقة يأتي ذكرهما بأنهما ينبعان من عين " تيامـة " وهـي الآلهـة التي كان يرمز لها بعنصر الماء المالح كما عُد الفرات ودجلة من الأنهار الأربعـة التـي تنبع من عيون الجنة كما ورد ذلك في سفر التكوين 2- 10 – 14 ويعتـبر مجـرى نهـر

دجلة هو الأوطأ كثيرا من مجرى نهر الفرات وتتحرك المياه في حوض نهر دجلة بسرعة مرتان عن حركة المياه في نهر الفرات ولهذا أطلق عليه السومريون لقب " السهم المندفع أو الهائج " ولهذا الفيضان يصبح من المتعذر السيطرة عليه على وجه الخصوص لايتمكن المزارع من استعمال تلك المياه في مجال الري الزراعي، ذلك العامل الخطير جعل المستوطنات البشرية السومرية تشعر بعدم الفائدة باستثناء الرافد الأكبر الذي يصب فيه والذي يحمل اسم " نهر ديالى "– THE DIYALA وهو أهم وأطول روافد دجلة، يبلغ طوله بحدود 450 كيلو مترا وتقع منابعه الأساسية في الجبال والمرتفعات الإيرانية، كما تغذيه فروع وروافد كثيرة، من أشهرها " رافدان كبيران هما – الأول سيروان والثاني نهر تانجرو " كما تصب فيه فروع أخرى منها " قوراتو – الوند " النهر الأخير تقع عليه مدينة خانقين، وفرع أحر يسمى – نارين – يصب في نهر ديالى عند حواضر قرية السعدية، كما يصب نهر ديالى الكبير بدجلة أسفل مدينة " سلمان باك – المدائن " التاريخية، وذلك بنحو 20 كيلومترا وباتحاده مع النهر الخالد – دجلة – يتكون مثلث من الأراضي الزراعية الخصبة تمتد حتى سهل الكوت - واسط....

كل شيء على وجه الأرض يطفو في المياه، يشكل الطوفان موضوعا رئيسيا شائعا في آداب حضارة وادي الرافدين ونذكر على سبيل المثال – ملحمة جلجامش التي يعتبر الطوفان جزءا مهما منها ويرى العالم " د. طه باقر في كتاب تاريخ الحضارات القديمة " أن نظام الري في حضارة وادي الرافدين أصعب تنظيما وضبطا وأكثر مشاكل، بحيث لا يسع المتتبع لتاريخ هذه الحضارة إلا أن يقدر ما بذله سكان العراق القدماء من جهود جبارة للسيطرة على نهرين هما من أشد أنهار الدنيا عنفا، كما ان المناخ في بلاد ما بين النهرين غير مستقر تقريبا ، نجد ان فصول الشتاء قد تكون باردة جدا وممطرة وتلحق الأضرار في الحقول

وطرق المواصلات بينما عندما يأتي الصيف يكون قاسيا أيضا فهـو جـاف جـدا ترافقـه العواصف الترابية، تجد مثلا يوما جميلا فجـأة ينقلـب إلى عاصـفة رمليـة مـن خـلال تفاصيلها تظلم السماء وتنفتح أجواء الخراب وكل ذلك يحصل بسبب تسـلط القـوى الخارقة على الحياة كما يعتقد شعب سومر، بلاد مابين النهـرين تبـدو محـيرة ودائمـا تقع في فخ العجز والدمار والخراب، ولهذ ظل الخـوف والقلـق وعـدم الإطمئنـان إلى صورة المستقبل حيث يسيطر على حياة الإنسان وحياة عائلته، وكذلك تأثرت الحالـة الإنتاجية في الحقول وتربية الماشية وإيقاع الحياة بشكل عام ظل مشدودا إلى المصـير المجهول رغن تبدل الفصول والسنوات، كان الحزن ينبع من طغيان المياه في النهرين، الخوف من الفيضان وكذلك تواصل هطـول الأمطـار بشـكل غزيـر ومتواصـل، لـرغم تبدل فصول السنة وتغير المناخ إلا أن الحقيقة التـي يواجههـا إنسـان بـلاد الرافـدين بشكل دائم هي الضياع والمصير المرتبط بفورة الحـزن والنـواح والقلـق، باعتقـاده ان الكون تسوده حالة من التشويش الذي لا يتناسب مـع وجـوده ويدفعـه إلى الهزيمـة أمام وقائع الحياة، كما يدرك ان نظام الكون بني على المحافظة على الجـنس الـبشري واسـتمرارية الحيـاة، رغـم الكـوارث والحـروب والتـدمير، وكـان طغيـان الفيضـانات المتكررة هو يقف على هضبة في الحقول ينتظـر ظهـور الشـمس المحرقـة في الصـيف لينضج الزرع، هو يطمئن إلى تعاقب ظهور الشمس والقمر والنجوم وهبـوب الريـاح وهكذا يطمئن إلى استمرار عمل إدارة الإلهة في السماء وعلى الأرض، يدرك من خـلال تلك الدورة بأن فعل الإلهـة مسـتمر وذاك يؤكـد ان القـرار الآلهـي المقـدس لم يكـن قد أعلن بعد تعطيل دورة الكون ودور الإنسان فيه، هو يدرك ان موقعه هو الأصـل في كل فعل – هو أصـل الأشـياء المشـبعة بالحيـاة والمـوت، هـو يكـرر لزامـا الالتـزام بتلك الديمومـة والسرّ الـذي تمتلكـه الإلهـة ولا تريـد ان تكشـف عليـه ولكنـه يظـل

يدفع الحياة إلى الأمام، لهذا هو يكرر وضع حضوره مرارا وتكرار في مسيرة الزمن، خصوصا والفصول السنوية تتبدل والبيئة من حوله تتغيير والمجتمع أيضا في حالة تحول، مثلا نجد ان لهيب الصيف القاسي كما لو أنه يرمز إلى قدوم الموت البطيء ويظل مستقبل الأرض والإنسان يحتمل الحيرة والشك والقلق والخوف من القادم المجهول، الإنسان السومري كان ينظر بإهتمام وهو يتابع تلك الظروف الحرجة ويرصد كيف تؤثر قرارات الآلهة في مصيره ومصير المجتمع من حوله وكذلك في مفردات البيئة – الحقل – الحيوانات، تحت تأثير عامل الخوف من القادم يندفع الناس إلى المعابد لإداء المناسك وفق التعاليم القديمة التي تضمن التخفيف من الكوارث والعقاب كما كانوا يتصورون، هم يحاولون بتلك المناسك جعل الإلهة تتوسط لدى قوى الطبيعة القاسية لتخفيف العقاب، ولهذا نجد ان كل ربيع يمرّ في مدن وحقول سومر ترافقه مراسيم عظيمة وأيضا فيها ملامح للحزن يجري ذلك في العديد من المدن وخاصة في سومر والذي يطلق عليه مهرجان الربيع أو مهرجان بداية السنة الجديدة والذي تقدم فيه مسرحية طقوس الجنس المقدس تصويرا للقوى العظيمة التي تحرك عملية الخلق وإعادة التكوين وتقدم السلطة من جديد إلى الملك والتي يحصل من خلالها حفل التتويج وموافقة كل الإلهة وفق أبجدية التكوين والأقدار المتعلقة باستمرار الحياة والموت نجد في الفصل المتعلق بإسطورة أنانا- الجنس المقدس ان أحدالفصول يركز على نشر قضية جوهرية مهمة يطمئن فيها أهل سومريحصل ذلك عندما يعود الملك إلى عرشه ويدعو الفلاح كي يعود هو الآخر إلى الحقل، ذاك التوجيه يعلن عن بداية سنة جديدة في بلاد ما بين النهرين..



أنا، إنانا،

سأراقب الحياة في بيتك،

سأجعله المكان الأكثر أشعاعا وسعادة في سومر،

وفوق كل الأرض،

وفي القصر الملكي حيث تتقرر مصائر شعب سومر،

سوف أحفظ لك العهد،

أهب الحياة لسومر،

ولكل الكائنات الحية،

أنا ملكة القصر،

سأحفظ لك كل شيء في آمان....

كلم دوموزي:

" أُخْتي،

قد أُرَافِقُكَ إلى حديقتي،

إنانا،

قد أُرَافِقُكَ إلى حديقتي،

قد أُرَافِقُكَ إلى بستاني،

قد أُرَافِقُكَ إلى شجرة التفاح،

هناك قد أَغْرِسُ البذرة المغطاة العسليّة،

الحُلوة "

أختاه،

أخصبي لي بستاني ...

تكلمت إنانا:

" أَدْخَلَني حديقته،

أَخي، دوموزي،

أَدْخَلَني حديقته،

تَنَزَّهْتُ معه بين الأشجار القائمة،

وَقَفْتُ معه بين فروع الأشجار،

تحت شجرة التفّاح اتخذت وضعي المناسب،

بينما جاء أخي وهو يغني،

اتجه نحوي، وهو يغني،

من مقدمة الظل الأسمر لشجرة السنديان،

تحت حر الظهيرة،

أخي يتجه نحوي،

أمام دوموزي،

سيدي،

سكبت من حضني الخضار الطازج،

أنتجت له حباً،

سكبت الحب أمامه،

وَضَعْتُ أمامه البذرة،

عَبَّرْتُ البذرة من رحمي.... "



<u>**غناءإنانا:**</u>

في الليلة السابقة،

فيما كنت أنا الملكة إنانا،

أشع ضياء،

في الليلة السابقة،

فيما كنت أنا ملكة السماء،

أشع ضياء،

طرباً كنت أرقص،

كنت أترنم بأغنية عذبة والضوء يقترب،

الضوء الساطع كان يقترب،

هو التقى بيّ،

الرب " دوموزي " ألتقى بيّ،

الرب وضع يده في يدي،

" دوموزي " ضمني إلى صدره بقوة،

والضوء يقترب...

رَئِيس كَهَنَتي جاهز للخواصر المقدّسة،

السيد دوموزي جاهز للخواصر المقدّسة،

النباتات و الأعْشاب في حقله ناضجة،

دوموزي! كمالكَ هو بهجتي !"

أعدته،

أعدت الفراش الذي يُبْهجُ القلب،

أعدت الفراش الذي يُحلي الخواصر،

إنانا،

أعدت فراش الملك،

أعدت فراش الملكة،

الفراش الذي يُبهج ُ القلب،

من أجل الثور البري،

من أجل الرب المقدس،

أخذت الزينة،

طليت بالعنبر ثغري،

صبغت بالكحل عيني،

" نشرت ملائة الزفاف فوق الفراش،

ثم نادت الملك "

الفراش جاهز،

" نادت عريسها،

هو ينظر إلى الفراش، ثم، "

أحتوى خاصرتي براحتيه الواسعتين،

الرب دوموزي هو المضطجع بجانبي،

الراعي دوموزي أضطجع بجوار إنانا المقدسة،

مسد الحضن باللبن والقشدة،

ووضع يده على فرجي،

قاربه الأسود قد بدء يتوغل،

هو مثل قاربه قد جلب معه الحياة،

روى رحمي المقدس،

فوق الفراش يغازلني،

أغازله،

أكتب أحلى الأشعار من أجله،

ألاطف خاصرتيه،

وضع يده على قلبي،

ما أحلى النوم ويدي في يده،

ما أحلى النوم والقلب يلتصق بالقلب...

أنا إنانا،

ملكة دار السلام،

الإمرأة الموصوفة بالبطولة،

العظيمة أكثر من أمها،

توسطت لدى أنكي،

وحددت قدر دوموزي..

في المعركة أنا قائدكَ،

في القتال أنا حامل درعكَ،

في الاجتماع أنا مؤيدك،

على الحملة أنا إيحائكَ،

أنتَ راعِي المَزَار المقدّس المختار،



أنتَ ملك أوروك الأمين،

أنتَ، مصباح مَزَار آن العظيم،

في كلّ العادات أنتَ صالِح،

أن يَدُومَ رأسكَ عاليا على المنصة المتكبّرة،

أن تجلسَ على عرش اللازورد،

أن يُغَطِّيَ رأسكَ بالتاج المقدّس،

أن ترتدي الثياب الطوال على جسمكَ،

ليُزَخْرِفَ جسدك بالثياب الملكية،

أن تحملَ الصَوْلَجان و السَيْف،

أن تصوب القوس الطويل و السهام،

أن تشد عصا الرماية والمقلاع إلى وسطك،

أن يُسَابِقَ الطريق مع الصولجان المقدّس في يدكَ فوق،

و الصَنَادِل المقدّسة على أقدامكَ،

وتثب على الصدر المقدّس كتلة جليد لازورد ية،

أنتَ، العداء،

الراعِي المختار،

في كلّ العادات أنتَ صالِح،

ليتمتع قلبكَ بحلاوة بالأيّام طويلا،

ما قد صَمَّمَ لكَ-مايو/ أيار ليس يُغَيَّرُ،

عسى قدرك ألا يتُغَيَّر،

أنتَ مفضل نينجال،

وعزيز إنانا "

نينشوبور،

خادِم مَزَار أوروك المقدّس الأمين،

قَادَ دوموزي إلى أفخاذ إنانا الحُلوة و تكلم:

" مَلَكَتي، هَهنا خيار قلبكَ،

الملك،

عَرِيسكَ المَحبوب،

أجعليه يستمتع بأيام العسل على حضنك الحلو المقدس،

مايو/أيار أَنْفِقْ أيّاما طويلة في حلاوة خواصرك المقدّسة،

اِمْنَحيْه حكماً عظيماً زاهراً،

اِمْنَحيْه عرش الملك على اساس ثابت،

اِمْنَحْيه القوة لتدبير شؤون رعايا سومر،

اِمْنَحيْه تاجاً لايبلى وأكليل نور على رأسه،

من مطلع الشمس إلى حيث تغرب،

من الجنوب إلى الشَّمال،

من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى،

من بلاد شجرة - الهولوبو- الى بلاد شجرة - الأرز،

في فضاء بلاد سومر وأكاد امنحيه الصولجان والنفاذ،

حيثما تواجد أصحاب الرؤوس السود هو راعيهم،

كالفلاح يجعل الحقول تنتج الغلال،

مثل الراعِي يَجْعَلُ حظائر الغنم متعدّدة الطبقات،

في حكمه يكثر الزرع،

ويتوفر الحب والنهر يفيض بالخير في مايو/ أيار،

وفوق السباخ يزقزق عصفور الدوري ويغني السمك،

في مايو/ أيار، في الدغل ينمو عاليا نبات القصب الهرم،

و يلحق به القصب الفتي، وفي السهب تنمو عالياً شجرة – مشجور –

وفي الغابات يتوالد الآيل ويكثر الماعز الوحشي،

في مايو/ آيار هناك في البساتين عسل وخمر وخساً ورشاداً،

في القصر الملكي الحياة مديدة،

في مايو/ آيار يفيض الدجلة والفرات بالماء،

على ضفاف النهرين تنبت الاحراج والأعشاب والمروج الخضراء،

في مايو /آيار ملكة الخضرة المقدسة تجمع الحب أكواماً وتلالاً،

أيتها الملكة، ملكة دار السلام،

الملكة التي تحيط بالسماء والأرض،

ملكة لكل الكون،

مايو / آيار، أيتها الملكة،

الملك المرافق لعله يستمتع بأيام سعيدة على حضنك المقدس،

الملك الذي يذهب مرفوع الرأس إلى حضن الملكة المقدس،

يذهب رافع الرأس إلى حضن إنانا،

الملك القادم برغبته ورأسه مرفوع،

فتح أسلحته،

ليضم " بغي " الإله "آن " المقدسة....

<u>تكلمت إنانا:</u>

" حبيبي،

بهجة عييني،

اِلْتَقَاتي اِبْتَهَجْنَا معاً،

أَخَذَ مُتعته منّي،

أَدْخَلَني بيته،

اِسْتَلْقَاني على فراش العسل المعَطِر،

محبّتي الحُلوة،

يتكيء إلى نبضات قلبي،

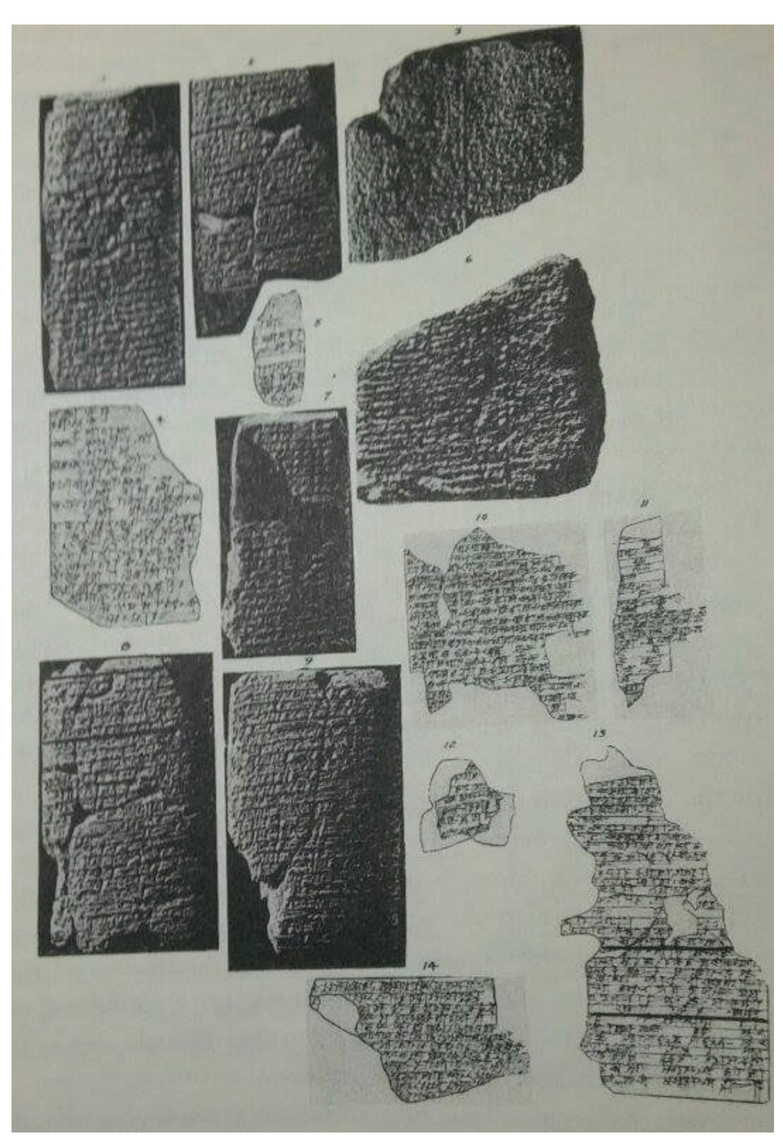
لسان- يَلْعَبُ مرة بعد مرة،

فَعَلَ دوموزي ؛

الجميل جدّا ذلك ؛ خمسين مرة،

دوموزي،

يثبت يديه على وركيه،



ينعم بالشبع،

الآن يَقُولُ:

أطلقيني،

أختاه الجميلة، أطلقيني،

قد أَذْهَبُ إلى القصر،

أطلقيني....

<u>تكلمت إناننا:</u>

" زهرة شجرتي المثمرة-حامِل، كَانَ إغرائكَ حلي.

زهرة شجرتي المثمرة-حامِل في بستان التفّاحة،

حامِل من الثمرة في بستان التفّاحة،

دوموزي- ابزو،

كَانَ إغرائكَ حلي.

واحدي الجرئ،

تمثالي المقدّس،

تمثالي المُزَوَّد مع السَيْف و سلطة ملكية لازورد،

كيف كَانَتْ حلوى إغرائكَ....؟ !"

إذا كان البعض يعتقد ان السومريون لم يكن لديهم نظريات واضحة حول أصل وجودهم في الكون، ولكن الذي يتفق حوله أغلب الذين كتبوا عن " سومر " من أنهم كانوا أكثر رصانة ولم يكشفوا عن أصولهم الخاصة ومن أين جاءوا، ذاك يثير تناقض صارخ في بعض المصادر وخاصة المصادر الدينية الأقرب، التوراة مثلا تحدثت عن النبي " إبراهام – إبراهيم وأكدت ان أصله من مدينة " أور " كما وصفت المنطقة التي ترعرع فيها بإنها المكان الموصوف بالجنة الدنيوية " جنة

عدن " – كما وصفت بشكل أدق " جنة سومر " أو سهل " شنعار " أو البلاد المحصورة بين النهرين" دجلة والفرات "، السهل الرسوبي المفتوح، ترك لنا السومريون لوحين عليهما دلالة كتابية تشير إلى مرحلة مدهشة تلقب بجدارة " العصر الذهبي " لكن اللوحين إلى معلومات أكيدة لسوء الحظ عن فترة السلالة التي كتبا بها، لكنهما مررا لنا معلومات عن الملحمة المهمة " enmerkar and the lord of aratta– إنميركار ورب أراتا " هي تتحدث عن أوقات بعيدة جدا – تلك الفترة التي كانت تسود فيها حيوانات خطرة جدا – عندما كان الناس يدينون بالولاء والتعظيم للإله أنليل enlil –، كتب تلك السطور في لغة واحدة، تلك الفترة السعيدة للحياة أنتهت كما يبدو عندما حصل التنافس بين الإلهين " أنكي – أنليل " وحدثت حالة من البلبلة في الألسن وكما ورد في " التوراة " في أصل النص الذي يروي " البلبلة " في قصة التوراة – دمار برج بابل، القصة الثانية التي وردت في اللوح الثاني تتحدث عن إسطورة غريبة ومعقدة التركيب تدعى " إسطورة أنكي ننخرساج – enki ninhursag" ومضمونها يتحدث عن تنظيم العمل في ديلمون – dilmun– البحرين الحالية ومناطق مجاورة لها وتلك الأراضي كانت تقع ضمن حدود إمبراطورية " سومر "، تتحدث نصوص الكتابة عن الطلب من الإله أنكي أن يجعل تلك الأرض خصبة من خلال جعل فصول السنة ذات ربيع دائم وأن يوفر لها الماء العذب ويبعد عنها القحط، والطلب من الإلهة " ننخرساج " أن تخلق الإلهة المساعدة في شؤون الحياة ومنها التي تقدم الشفاء للناس المرضى، أحد تلك الإلهة يدعى " enshag" ان يكون متعاونا مع الإله " inzak" وكما ظهر في الحجارة المنقوشة التي عثر عليها في البحرين وكذلك في جزيرة " فيلكا – failaka" ضمن حدود العراق الجنوبية الحالية بالقرب من مدينة الكويت، تتحدث السطور الأولى من الأ dilmun– البحرين، الطلب من الإله

انكي ان يجعل تلك البلاد آمنة نظيفة ذات خير موفور وأن يجعلها ذات سماء صافية لامعة لاتمر إلى أهلها الشيخوخة ولا المرض أو الموت المجهول والمعلوم، في مدينة " نفر " عثر على النص وكذلك عثر على نص آخر في حفريات مدينة " أور " كلاهما يتحدث عن مدينة " دلمون " التي عمل الإله " أنكي " على إحيائها مع جهد واضح من زوجته " الإلهة نينخورساج " منح الأرض المياه العذبة التي ساهمت في إنبات النباتات الضرورية للحياة واعتبر المكان جنة أرضية خالدة – وهكذا تفاعلت الإلهة الأخرى في عملية إصلاح الأرض البوار وإخصاب كل منطقة " دلمون " من قبل الإله أنكي وبقية ابلإلهة الذين عملوا معه:

مقدسة هي سومر،

ولكن دلمون هي أيضا بلد مقدس،

مكث – أنكي وننخرساج – فيها،

صارت أرض مقدسة – مثمرة،

يغمرها النور وترابها مقدس،

أنكي المقدس أقام فيها مع " ننسيكلا" الطاهرة،

في دلمون، في الزمان الذي مضى،

لم يكن يسمع صوت نعيق الغراب،

ولم يكن أي حجل يغرد،

ولم يكن أي أسد يفترس اي شيء،

لم يكن هناك أي ذئب يهاجم الخراف،

لم يكن الكلب البري يخطف صغار الجدي

لم يكن الخنزير البري يلتهم المحاصيل،

لم يكن هناك أي طير يطير في السماء ويهبط مسرعا لينقر الطعام،

لم تكن الحمامة تقف محنية الرأس، لم يكن هناك من يشكو من علة،

الاطفال تلعب وتمرح مع الكلاب والخنازير....!

تلك السطور المثبتة في ذاك اللوح تقدم لنا الدليل على ان السومريون عاشوا في تلك الأرض – على تلك الجزيرة الموهوبة بالخير والمشاكل أيضا، هناك شيء مهم أرادت الأسطورة تثبيت معلومات عنه، وهي بالتأكيد تذهب لتقول بالرمز او بشكل مباشر " ان أرض الشرق هي أرض المعيشة والسعادة، بينما أرض الغرب ليست سوى أرض الموت والغياب " تلك الرؤيا المهمة قدمتها لنا في النص حيث وضعت الخطوط التي صرحت بتلك الإشارة، ربما السومريون دمجوا في محاولة لتضمين inzak للإهتمام ببلاد ديلمون التي كانت تمثل أهم الموانيء التجارية وهي بوابة الخير حيث تطورت علاقاتهم مع شعوب ومدن أخرى، ذلك في الألفية الثالثة قبل الميلاد، السومريون مثل كل الشعوب وفي وقت مبكر رأوا ان بلادهم هي محور الكون، وهم الاحفاد الأساسيون للبشرية وهم الأوائل في كل شيء، هم العنصر البشري المميز الذي اختارته الآلهة ووهبته العلم والذكاء والمعرفة – الرؤيا المبصرة.



كما كتبوا في ألواحهم، وهم الذين توصلوا بموهبتهم الخارقة إلى إكتشاف فن الكتابة في مدينة " أوروك – الوركاء "، الناس عموما وخاصة شعب سومر استخدم بشكل ملحوظ الكتابة وطورها ونقلها إلى بلدان أخرى وأرتبط بها ثقافيا وحضاريا وإنسانيا شعرت بذلك وبعمق الدول الأجنبية، السومريون ربطوا أنفسهم ووجودهم بتاريخ الأقوام الأولى التي سكنت بلاد ما بين النهرين، قالوا أنهم من أصلاب الأقوام الأولى في الحضارات التي تعاقبت وسكنت تلك الأرض منذ وقت بعيد، ثم تخيلوا وجودهم ومملكتهم منذ خلق الله آدم الذي اعتبروه أحد ملوكهم الأوائل والذي جاء قبل التاريخ بأعوام بعيدة، هذا يؤكد ان السومريون لهم وعي بالفترات التي سبقت وجودهم..

الفصل الثالث

من بداية التكوين إلى الطوفان..

الفصل الثالث

من بداية التكوين إلى الطوفان..

من آدم إلى طوفان أتونابشتم..

فيما تقدم عرضت بشكل مكثف فكرة عن الملحمة البابلية العظيمة التي وضعت تصور واضح عن التكوين أو ملحمة " الخلق - الاينوමليش " رسمت شكل الإنسان متخلف يشابه الإله الشرير المتوغل في دماء البشر " kingu" وهذا وجد له تقليدا في ملحمة " اتراحاسيس - atrahasis" والحديث عن إله واحد أو أكثر تم صنعهم من الطين المفخور المخلوط بدم الإلهة أو ضحاياهم من النذور، هذا لم يتكرر في مكان آخر، ولكنه ظهر مدونا في أدب سومر وكان يتوازى في الهدف ويشكل الأقرب الى القصة التي وردت في التوراة عن الجنة المفقودة، ونجد الرمز الذي صورته آداب سومر وهو يحاكي سقوط رجل كما في إسطورة آدابا adapa التي كتبت في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد وهي تتحدث " عن " آدابا " وهو بمثابة الرجل الحكيم المعروف في مدينة "أريدو " خلقه الإله " آيا " ليكون نموذجا يقتدى به البشر، ووصفه بأنه الإنسان الكامل، أحبه الإله ومنحه الحكمة والمعرفة والتصرق السديد، كان عبدا صالحا لا يتوقف عن إقامة الشعائر الدينية وتقديم القرابين للإله " آيا " كما كان يمثل موضع اعتماد شعب " أريدو " كان يعمل في مهنة صيد الأسماك في سفينته وكان يجهز أريدو ومعابدها بالأسماك، وأشتهر بمعرفة فنون الملاحة والصيد وأحوال البحر وأماكن تواجد الأسماك بكثرة، وحدث ذات مرة ان الريح الجنوبية هبت وهو يصطاد في سفينته فأغرقتها، وقد جسم شعب سومر تلك الرياح وصوروها في نتاجهم الأدبي وعلى هيئة طائر

ضخم فأمسك – آدابا – بالطير وكسر جناحيه، فسكتت الريح الجنوبية فلم تهب بعد ذلك واضطرب نظام الكون وأحس بذلك كبير الآلهـة " آنـو " فـأخبره وزيـره المسـمى" ايلابـرات ilabrat" بإن آدابا ابن الآلهة " ايا " هو الذي كسر جناحي الريح الجنوبية فاستشاط " آنو " غيضا وأمر ان يحضر أمامه " آدابا " ليعاقبـه عـلى فعلتـه، ولما علـم بـالأمر الإلـه " آيـا " حامي آدابا، هيأه للمثول أمام " آنو " بأن جعله يطيل شعر رأسه ويلـبس ثيـاب الحـداد – أوصاه قائلا:

- يا آدابا، ستذهب إلى حضرة الإلـه " أنـو " وسـتأخذ طريقـك إلى السـماء وسـتجد عنـد مدخل السماء " آنو " الإلهين الحارسين " تموز وكزيدا gizzida" وسيسألانك – لم جئت وعلام أنت أشعث الشعر مرتديا ثياب الحزن...؟ - قال:
- وماذا اقول ياسيدي.. أجاب:
- اخبرهما أنك حزين على ألهين أختفيا من الأرض وسيسران لقولك وسيشفعان لك عنـد الإله – انو -، قال:
- ثم ماذا أفعل...؟.. أجاب:
- إذا مثلت أمام آنو فسيقدم لك خبز الموت فلا تأكله، ويقدم لك ماء الموت فلا تشربـه، إما إذا قدم كسوة فلا بأس عليك ان ترتديها، وإذا قدم لك زيتا فامسح به جسمك..

وهكذا عرج آدابا إلى السماء وبلغ سماء الإله " آنو " ووجد الإلهين المذكورين على نحو ما أخبره " آيا " ومثل في حضرة الإلـه العظـيم، ولما سـأله " آنـو ": لم كسر جناحي الريح الجنوبية..؟، أجابه بـإن هـذه الـريح الجنوبيـة أغرقـت سـفينته التـي يصطاد بها وحرمته من كسب عيشه، سانده الإلهان المذكوران، فرق له قلب " آنـو " ويبدو أنه توسم فيه رجاحة العقـل والحكمـة فقـرر بـدلا مـن عقوبتـه ان يطعمـه

طعام الحياة الخالدة ويسقيه ماء الخلود، فيجعله خالدا مثلما هـو حكـيم، ولكـن رفـض " آدابا " تناول ماقدم إليه من خبز وماء فعجب " آنو " لأمره ولما سـأله لم أمتنـع عـن ذلـك، أخبره أن " آيا " هو الذي أشار عليه بذلك، فغضب " آنو " ولعن آدابا قائلا:

- لأنك لم تأكـل مـن طعـام الحيـاة فلـن تنـال الحيـاة الخالـدة أيهـا الـبشر الناقص المعوج..!، وهكذا طرد آدابا يائسا من سماء " آنو " وأخفق مثل جلجامش في نيل الخلود، وبين هذه الأسطورة توجد أوجه شـبه مـع إسـطورة طـرد آدم مـن الجنة على الرغم من إختلاف السبب الذي خرج بموجبه آدم مـن الجنـة فـإن آدم بحسب رواية التوراة كان يعيش منعما في جنة عدن شبه مخلد وقد طرد منها لما عصى اللـه وأكل مـن الشـجرة المحرمـة – شـجرة المعرفـة وأصـبح يتميـز بميـزات الألوهية الأساسية وهي المعرفة فخشي اللـه أن يأكل مـن شـجرة الحيـاة فيكـون خالدا ويصبح مثل الإلهة فطرده من الجنة قائلا: لقـد أصـبح الإنسـان واحـدا منّـا يعرف الخير والشر والآن لكيلا يمد يده ويأكل من شجرة الحياة ويعـيش إلى الأبـد فطرده اللـه من جنة عدن- كماورد في سفر التكـوين 14 وقـد خلـق السـومريون ذلك النموذج في الاسطورة من قبل الإله – أنكي enki كنموذج لرجـال آدابـا عـلى هيئة كاهن في معبد أريدو eridu الذي أنجز المهام المختلفة في معبد أريدو وكان من ضمنها الأكثر أهمية تجهيز سيده بالغذاء وذات يوم وهو يقـوم بالصـيد عـلى شاطيء بحر عظيم انفجرت الرياح الجنوبية بعنـف فجـأة حيـث انقلـب المركـب الذي يملكه وصار أمام حالـة الغـرق وفي حالـة غضـب سـيطرت عـلى آدابـا نطـق لعنته المحرمة على الرياح الجنوبية التي اعتبرها " طيور الشيطان الكبير " ولوقـت طويل الرياح الجنوبية نفخت ليسـت عـلى الأرض فقـط، وتقـدم هـذه الاسـطورة فكرة مفادها ان الرياح الجنوبية – تسمى بالرياح الشرقية – وهي رياح مطلـوب

منها هبوبها لاهميتها للزراعة في جنوب العراق - هبوبها يجلب الامطار وينقل اللقاح ويساعد الحقول البعيدة عن ضفاف الأنهار ومصادرها.



ذلك يحدث في الشتاء أما في الصيف فأن هبوبها يسبب نضوج التمور، عندما سمع الإله العظيم " آنو " ما حصل في آدابا غضب كثيرا كما تقول الأسطورة وطالب بإنزال العقاب على المذنب لكن " آيا " جاء الى آدابا وخفف من

روعه وقال له انه سيقف معه على بابالآله " أنو " في الجنة وسيقابل آله النباتات " ديموزي "وكذلك الإله ننكشزيدا، لكن آدابا قتل الريح الجنوبية وكانت حيلته ان يلبس الحداد ويظهر علامات الحزن والندم فأن الآلهين سيرضيان ويبتسمان ويتكلمان مع " آنو " ويذكران حسنات آدابا ثم ان الإله " آنو " سيعالج وضع آدابا ليس كمجرم بل كضيف، هو بعد اللقاء سيلبس الأزياء المناسبة وسيحصل على الغذاء والماء ويدهن جسده بالزيت ويتخذ القرار، وفعلا كما تقول الأسطورة أتخذ القرار وكان ضده تماما.. وكما قالت الأسطورة، عندما يعرض عليك الخبز لا تأكله، وعندما يقدم لك الماء لتشرب، لا تشرب، قال بكلمات واضحة، هذه النصيحة التي أعطيتك لا تتحمل الأهمال، احفظ جيدا الكلمات التي تكلمت بها معك، أحفظها جيدا، كل شيء حصل بينما قال " آيا " وهو يدرك ان التوبة ربما لاتمس آدابا، اعترافه المخلص للآلهة ورفض تناول الطعام والشراب، الموت خبز الحياة وماء الحياة، لكن آدابا وجد نفسه مقيدا بنصيحة "آيا " ولهذا رفض الهدايا التي كانت ستجعله في مدار الخلود وكان القرار الصادم رفض الآلهة له وإعادته إلى الأرض، والقرار هنا سواء جاء من خلال نفاذ بصيرة " آيا " التي أفشلت القرار سواء جاء ذلك بسبب الكذب المتعمد من آدابا، صعب ان يتم تقرير ذلك، لكن في المحصلة النهائية " آدابا " فقد حقه في الخلود – فقده بسبب الطاعة العمياء، كما فقد " آدم " ذلك الحق من خلال العصيان المتسم بالغطرسة ومخالفة توصيات الرب، كلاهما حكم على نفسه بالموت، على أية حال الفكرة التي جاءت في التوراة عن آدم ومصيره هي ربما تقليد للفكرة التي جاءت في ملحمة آدابا، هكذا ينظر إليها من قبل اصحاب الدراسات المقارنة في الوقت الحاضر، في ملحمة آدابا السومرية التي قدمت المحاكاة لقصة آدم بشكل متواز لكنها افتقرت إلى الخط أو المسار الطويل الذي بموجبه يتم إقناع الأجيال، كتاب

التوراة ربط الفكرة التي استندت إلى فكرة ومحاولة النبي – إبراهيم – وهو الأقرب إلى رؤيا حضارة وفكر شعب سومر، وثمة حقيقة تقول ان السومريون لم يمتلكوا او يهتموا بعلم الإنساب كما هي الحال لدى اقوام البدو الساميون الذين تمكنوا من تثبيت كل ما يحيط بذلك، هم مثلا نظروا إلى تاريخهم الخاص من زاوية مختلفة، الإلهة فكروا بخلق البشرية لغرض مؤكد يتلخص في تحضير الطعام لهم وخدمتهم، هم ثبتوا لأنفسهم تفاصيل تلك الخدمات – كانت لديهم أتقن المناسك وأرفع الأنظمة القدسية التي يتم الترويج أنها وضعت للإنسانية، على كل حال النموذج الذي قدمته الملحمة كان عظيما، وكان الخلق وتلك المجتمعات من الرعاة تحتاج إلى الحكام وإلى القانون والملوك الذين تم تعينهم من خلال الإلهة لفرض التعاليم المقدسة، في بعض تفاصيل ذلك التاريخ البعيد نلمس ذلك.



والتصور المنشور يقول " أن الفترة التي تلت خلق البشرية كانت تحتاج إلى هبوط التاج السامي وعرش الملوكية ولذلك هبطا من السماء، ومنذ ذلك الحين تقريبا تعاقب الملوك وكانت في أنظمتهم توجد أنظمتهم السياسية وتشريع القانون أقدار سومروآكد، وهم يعملون نيابة أو بشكل وكلاء عن الآلهة ولمنفعتهم – هكذا تبرر الدراسات المثيولوجية الإشارة إلى الماضي الأكثر بعدا عن الحاضر، هم يتوقفون بإجلال عند نظرية " صنع الملوك " وفق حالة الإلهام الآلهي، وهذا التيار العظيم القوي الذي ظهر في برد مابين النهرين أعتبارا من حدود الألفية الثالثة واستمر يتقدم إلى الأمام، ورغم أن الكثير من العلماء يحملون ضده وجهات نظر مختلفة، هم مثلا يعتقدون بأن النظام الأصلي في سومر كان يهدف ويعمل على صنع " ديمقراطية بدائية مبكرة " والحكم الملكي في سومر تم تطويره نسبيا ولو في فترة متأخرة من ذلك العهد، عندما تم إنتخاب المحارب الرئيسي " لوجال lugal" من خلال جمعية تشريعية تتكون من المواطنين على ان يحكم لفترة قصيرة ويتجاوز الأزقة ويؤكد سيطرته الجيدة على دولة المدينة وهذه النظرية رّوج لها كثيرا العالم " ثيودور جاكوبسين " في دراسة مهمة عن ملحمة الخلق وهي لم تجد أي أعتراض أو رفض من قبل الجهات العلمية، في قراءة وصف إنتخاب " أنليل أو مردوخ " إلى رتبة بطل الإلهة، لغرض تعيينه كبطل للحرب أو قائد لشن خطط القتال ضد تيامات " tiamat" وهذا يعكس ما حدث على الأرض في ظروف مماثلة وهناك تصور في الجمعيات المبكرة التي ظهرت في سومر خصوصا من الرجال الأكبر سنا الذين لعبوا دورا في تشكيل وتوجيه حكومة المدينة وهم يستعيدون في رواية المعركة الأولى التي كونت العالم الذي يتواجدوا فيه، تسرد الرواية على النحو التالي والمطلوب من تفاصيلها ان تثير المخيلة رغم غرابة الأحداث وتشبعها بالخيال الفنطازي.. وما ثبته في دراسة

مهمة نشرتها اقتطع منها التالي لإضافة توصيح مهم يرتبط بما اتحدث عنه، نستخلص من مجموعة كبيرة من الأساطير السومرية، صورة ومفهوم العناصر التي شكلت الكون وهي على النحو التالي (البحر الأول – السماء – الأرض – الهواء) كما كان لديهم اعتقاد بأسبقية خلق القمر على الشمس، لكنهم تراجعوا عن ذلك فيما بعد، وهم لم يؤمنوا بشكل قاطع أن الخلق يولد من العدم، هم انطلقوا من وجود مادة أولى تولدت منها (السماء – الأرض) وذلك بفعالية التولد الذاتي، أما الإنسان فقد أقروا منذ البداية أنه مخلوق من الطين، الذي عجن بناءا على أوامر الرب (أنكي) وتجاوبا مع شكوى الآلهة التي نقلتها له أمه (نمّو) غير أن هذا الطين لم يكن يملك خاصية التوالد الذاتي لذلك تدخلت الآلهة (نمّو) والآلهة (ننماخ) لتخلق الإنسان وتقدر مصيره أيضا، ونقرأ في إحدى نماذج الأساطير البابلية أن كبير الآلهة (مردوخ) أوكل إلى القمر القيام بمهمة وضع تاريخ للأيام:

جعل (نانا) يسطع،

أوكل إليه الإبحار في الليل،

جعله قنديلا لليل،

أمره تحديد الأيام، ليطلع كل شهر من شهور العام مكللا بالتاج،

نانا، في أول شهر عندما يعم نورك البلاد أسطع بقرنين لتعين ستة أيام،

وفي اليوم السابع يكتمل نصف التاج.

ونجد وصفا آخر في الملحمة السومرية الخالدة (جلجامش):

ولما أخذته سنة من النوم،

وتسلطت عليه كالضباب، طلب " أوتونابشتم " من زوجته،

أن تخبز لجلجامش أرغفة من الخبز،

تضعها عند رأسه،

وتؤشر على الأيام،

التي ينام فيها على الجدار....



شكل موضوع عملية الخلق والتكوين واحدة من أهم المضامين التي أخذت حيزا كبيرا في تفاصيل الأسطورة، وهي تنشر مفاهيمها لتنظيم الكون لدى الشعب السومري، وتلك الحلقات المتتابعة أوجدت الوعاء الحضاري، وكما تحدثت الأسطورة السومرية التي تحمل اسم (أنكي ومدينة سومر) عن تفاصيل

الأرض والبناء وفن العمارة، تلك الأسطورة التي يجوب فيها (أنكي) جميع المدن السومرية، ينشر فيها بركاته، ويقرر مصائر أهلها، تلك المصائر التي تدفعه للبحث عن الموارد في المدن المجاورة، كما يتجه إلى دجلة والفرات ويمنحهما الماء شريان الحياة ويوكل تنظيم أمورهما إلى الآله (أن بي لولو) ثم يصل إلى الخليج في أقصى أرض سومر ويعين عليه الآله (سيرارة) كما يعين للرياح آله هو (أشكر) وبعد ذلك يتفرغ لتنظيم أمور الزراعة، وهنا تصف الأسطورة جانبا من ذلك:

—وجد أنكي المحراث والنير،

جعل أنكي الأمير عظيم،

قاد الثور وصرخ في الغلال الصافية النقاوة،

أنبت الحب في الحقول الدائمة الخضرة، السيد المتعالي،

جوهر السهل وزينة الأرض والسماء،

رجل المحراث، الفلاح أنليل،

أنكميدو صاحب الأنهار والجداول،

يعينه أنكي لها،

نادى الرب الحقل الدائم،

خلق فيه البركة والخير، جعله ينبت الحب الكثير،

جعله أنكي يثبت البقول الصغيرة والكبيرة،

الحب يطلق جناحيه فوق الأرض وفي الفضاء،

أنكي، الرب الكبير..

تثبت الأسطورة أعـمال (أنـكي) عـلى أنهـا إلهـام لشـعب سـومر وحكومتـه، الممثلـة بشخص الحاكم المقدس والممثـل للآلـه، المـدرك لنـواميس التنظـيم (me) الخاصـة بجميـع ظـواهر الكـون، والتـي سـنجد فيهـا وفي أسـاطير سـومرية أخـرى التعليـل المكثـف لتلـك النواميس، التي كما يفسرها بحث (دايان ولكشتاين) أنها تعني نواميس الحضارة والمفاتيح الكبيرة لفهم ما وراء الطبيعة والقوى المتحكمـة بالحيـاة والخصـب، تلـك المفـاتيح تجـدها ولكشتاين تنتقل من مدينة إلى أخرى كما تتحرك فواصل الزمن مثل الأيام والشهور وحركـة الشمس والقمر، وتستخدم حسب قوة هذه المدن ونفوذها السـياسي والحـربي والإنتـاجي، كالذي حصل في أمر انتقال تلك النواميس من يد (أنكي) في مدينة أريـدو إلى يـد (إنانـا) في مدينة أوروك، نقرأ في أسطورة هبوط (إنانا) إلى العالم الأسفل:

من العظيم الأعلى فتحت أذنها، إلى العظيم الأسفل،

الآلهة العظيمة فتحت أذنها، إلى العظيم الأسفل،

إنانا،

من العظيم الأعلى فتحت أذنها إلى العظيم الأسفل،

السيدة المقدسة،

هجرت السماء،

نزلت إلى العالم الأسفل،

تخلت عن مكانتها المقدسة في السماء،

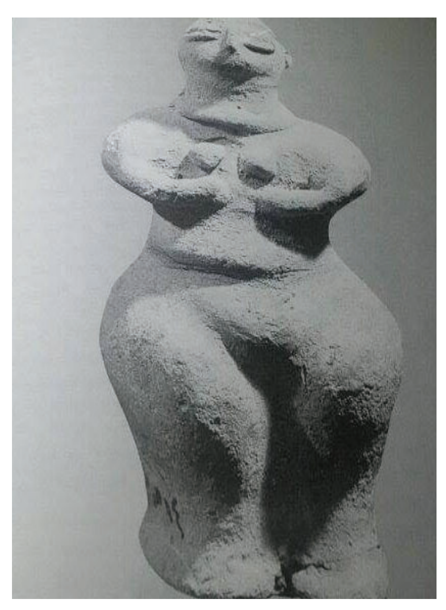
عن كل مقراتها،

نزلت إلى العالم الأسفل،

شدت النواميس السبعة إلى وسطها،

جمعت في يدها كل النواميس.

صنعت الأسطورة السومرية مكانة مرموقة للإنسان، كان مادتها ومرجلها الذي تتحرك به إلى الأمام، ندرك عمق ذلك في اشتراك مجموعة من الآلهة العظام في عملية الخلق والتكوين (أنكي – نمو – ننماخ –) تلك الفكرة توضح قرار الخلق من الطين المترسب في مياه الأعماق، وفق طقوس احتفالية كبيرة وخاصة، كانت قناعة الآلهة تؤكد أن المخلوق الرائع الفريد الجديد سيكون دوره حاسما في السهر على منجزات الآلهة وسيكون عبدا مخلصا لها وللشرائع والنواميس المقدسة، وقد استبعدت تلك الآلهة فكرة العبودية بل وضعت منهجا في تلك النواميس يوضح أنها علاقة الأب بأبنائه. ونقرأ مقاطع نشرت أخيرا من لوح سومري تم رتق بعض الأجزاء المحطمة منه، هو ينشر حكمة على لسان الرب الخالق الكبير:



أما أبنائي من البشر،

الذين تم تكوينهم من الحب السرمدي المقدس،

لهم الخصب والحياة،

أينما انتشروا فهم خلائقي، الجميلة،

ول – نتو، كل الوصايا المنسوجة من تلك النواميس،

نتو، أجعل البشر في سومر، تلك المخلوقات البهيجة

في مواضعها،

أرشدهم،

اجعل البشر يعمرون الأرض،

يبنون المدن الصغيرة والكبيرة،

أجعلهم يأوون إلى أفياء المدن،

ليوقدوا المشاعل ويغلقوا بالمزلاج أبوابهم بوجه الظلام،

نتو،

أجعل البشر في سومر يعرفون الطريق إلى الخصب

الخلود والخصب في اساطير بلاد ما بين النهرين

منحت الأساطير السومرية الخلود للآلهة صانعة النواميس الباقية وحجبته عن البشر الذين يتحركون نحو الفناء في زمن قد تقرر لهم، لكن طموح الإنسان ظل البحث عن الخلود وهذا نجده واضحا في قصيدة (جلجامش)، وفي هذا

المجال نجد الكثير من أبحاث العلماء حاولت إيجاد السبب أو العلة التي جعلت الكائن السومري يبحث في الطريق إلى العالم الأسفل ويعتقد بوجود حياة مستمرة داخل القبر، لعب الرمز العميق دورا كبيرا في الأسطورة.

بعض أساطير بلاد ما بين النهرين:

تناول أدب العراق القديم مواضيع مختلفة، سجلت الفكرة المتكاملة عن تلك العصور التاريخية البعيدة، استخدمت لغة ذات تكوين يتميز بالشعر والنثر، حاول الكاتب السومري الذي يغيب اسمه ولا يذكر بوجه عام على القطع الأدبية التي يبدعها، والسبب في إغفال أسماء الكتاب كما يرى (طه باقر – كريمر) أن القسم الأعظم من النتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين نشأ ونما على هيئة تراث قومي شاركت في إنتاجه أجيال كثيرة من الشعراء ولم يتفرد بإنتاجه أديب واحد على غرار ما نعرفه في الآداب الحديثة، أن شأنه في ذلك شأن الملاحم القومية المشهورة والقصص الشعبية مثل ألف ليلة وليلة، والإلياذة والأوديسة اللتين تنسبهما المآثر اليونانية إلى هوميروس، في حدود القرن الثامن قبل الميلاد تناول الأدب السومري ثم جاءت جهود تكمل تلك المسيرة من خلال جهود الكاتب البابلي من بعده الآشوري، مواضيع عديدة منها، (الخليقة وأصل الوجود والأشياء، البحث في فكرة أصل الكون والوجود، أصل الآلهة، وصف وتدوين الملاحم وأعمال الأبطال والآلهة وأشباه الآلهة، كما تم تدوين قصص البطولة والملاحم، وقصص الطوفان، وأساطير ما بعد الموت أو تصوير عالم الأرواح – العالم الأسفل، كما ظهر بوضوح الاهتمام بأدب الحكمة – الحكم والوصايا والأمثال وموضوع الخير والشر والعدل الإلهي، كذلك أدب المفاخرة والمناظرة والحوار وأدب السخرية والفكاهة وقصص الحيوان، أدب الرثاء – رثاء نفر نموذج بارز لذلك وعن تدمير المدن كما حصل لسومر ومن

بعدها بابل، ظهر لديهم وبقوة أدب الحب والغـزل، إلى جانـب ذلـك أدب الصـلوات والتراتيل والابتهـالات والترانـيم والأدعيـة، وأيضـا دخلـت الكتابـة في موضـوع الرقـى والتعاويذ والسحر، امتاز الشعر والنثر السومري بالإيقاع الخاص أي الوزن والعـروض، كما أتبع نظام خاص في تأليف هذا الكلام الموزون) وكما يرى العالم طه باقر (قـد تـم تقسيمه إلى وحدات صغيرة ومن ثم ضـم هـذه الوحـدات في مجموعـات أكـبر منهـا كالبيت والبيتين والأربعة أبيات وكذلك القصـيرة، عمـد الكاتـب السـومري إلى انتقـاء المفردات اللغوية الخاصة ذات البلاغة الواضحة - أي مـا يسـمى بالألفـاظ الشـعرية من حيث الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة لمقاييس اللغـة التـي يـنظم فيهـا الشـعر، ويدخل في هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر، كـان الموضوع والمحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعبير مؤثر لدى المتلقـي - السامع - أو القارئ كما يمتاز الشعر السـومري بعـدم الالتـزام بالقافيـة، ولكنـه ظـل محافظا على الوزن و ينظر إليه على أنه متحرر من القافية التي اعتبروها ليست مـن الشروط المهمة لكتابة الشعر، يرى - كريمر - أن الشعر السـومري ولـد متحـررا مـن أغلال كثيرة منها القافية والفضاء المفتوح لتناول كل الأفكـار حتـى تلـك التـي كانـت تتعارض مع العقيدة الدينية أو نظـام الحكـم، وهـو يؤسـس في ذلـك المـنهج للشـعر العالمي الذي ظهر في الفترة المتـأخرة والـذي لم يلتـزم بالقافيـة مثـل الشـعر اليونـاني واللاتيني وهو ما يطلـق عليـه الشـعر المرسـل في الأدب الإنجليـزي مثـل الكثـير مـن النماذج الواردة في مسرحيات (وليم شكسبير)، وكأنهم كتبوا كما تقول القاعدة يجـوز في الشعر ما لا يجوز في النثر، ومن إنجازات الكاتب السومري الواضحة والتي تسـجل لـه الريـادة فيهـا - النصـوص الملكيـة - وهـي تضـم مـا يسـمى بحوليـات أخبـار الملوك وحملاتهم العسكرية وحروبهم المستمرة والتي تشـكل حالـة الـنصر والهزيمـة

علامات بارزة فيها، فقد اشتمل ذلك التدوين على قطعا أدبية – يقول طه باقر وكريمر – لقد أجمع النقاد على أنها أروع ما خلفته الآداب القديمة في براعة الوصف والتصوير مثل وصف الأماكن والمشاهد الطبيعية كالجبال والغابات والأهوار والبوادي والصحارى والتصوير البارع لاحتدام القتال والمعارك واشتراك الآلهة في القتال في بعض المعارك على غرار ما نقرؤه في الملاحم البطولية في الأدب اليوناني، ونجد في هذا المثال الذي يصف فيه الكاتب وصفا لغزوة بلاد عيلام – إيران حاليا، يقول الكاتب: (من ديرّ مدينة الإله (أنو – المقدسة) قفز مسافة ثلاثين بيرو – مقياس مسافة – وسار في الطريق شهر تموز، لقد احترقت النصال وتوهجت أحجار الطريق كأنها الأفران الحامية، جفت الآبار وترنح حتى الأبطال الشباب، ورغم ذلك سار في الطريق قدما الملك المختار المصطفى والمسند من الآلهة، أجل حث الخطى)، نجد في الأدب السومري وأدب بلاد الرافدين بشكل عام التأثير الديني واضحا، يحضر بقوة في أنواع الفنون الأخرى، نلمس ذلك من اشتراك الآلهة بإحداث الملاحم البطولية والقصص والأساطير الموظفة في الغالب من أجل الأغراض الدينية المتنوعة ونجد الكثير من الألواح التي تم اكتشافها وفك رموزها تدور في إطار الابتهالات والصلوات التي شكلت قسما كبيرا من النتاج الشعري إذ كانت تنظم شعرا بينما كانت وظيفة النثر للاستخدام في لأغراض أدبية أخرى مثل تدوين الحوادث التاريخية والحربية ولكتابة رسائل الملوك وتثبيت نصوص الشرائع وقوانين الحكم، وقد امتاز بالإعارة والتكرار واستباق نتائج الأحداث، الفهارس والسجلات والمكتبات وغيرها من الأمور، ويرى عالم السومريات البارز – كريمر – في كتابه المهم (السومريون) أن أدباء العراق القديم قد عدوا أنفسهم حديثي العهد في الحضارة وأنهم ورثوا ماض مجيد متقادم العهد، هم قد تخيلوا عن جدارة أنهم

صانعوا العصر الذهبي للحضارة والثقافة العالمية، حيث كان السلام والخيرّ يسـودان الأرض فيه، لا خوف آنذاك ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تتنازع الإنسـان البقـاء وكـان البشر بلسان واحد يمجدون الإله (أنليل) كما ورد في أحد الأساطير السومرية.



بينما يثبت العالم العراقي البارز (طه باقر – في كتابـه الموسـوم مقدمـة في أدب العراق القديم): (أدب العراق القديم له خاصية في تاريخ تطور الحضـارات البشرية والفكر الإنساني، تلك هي النظرة المتفق عليها من قبل مؤرخي الحضـارة

على عظم التراث الذي خلفه ذلك الأدب في الحضارات القديمة الأخرى والثقافات المعاصرة، فهو على ذلك لا يقتصر على كونه أدبا قديما مثل دوره في تطور الفكر البشري ومات، بل أنه لا يزال حيا عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات الأخرى، والخصائص التي يتصف بها النتاج الأدبي في جميع العصور، مثل الموضوع أو الفكرة التي تعبر عنها القطعة الأدبية، وكذلك الأسلوب الأدبي الفني، سواء كان شعرا أم نثرا، ذلك النتاج المتميز بطراز خاص من النظم والتأليف المؤثر في مشاعر القارئ أو السامع، كذلك اختيار الحوادث والمواقف المؤثرة بالنسبة إلى مفاهيم الحضارة التي أنتجت الأدب المبحوث فيه)، أغلب الباحثين في أدب العراق القديم وخاصة الغربيين منهم وجدوا ذلك الموروث – أو كما وصفه أحدهم ب (كنوز الظلام) أنه يمثل طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة، ذلك التفكير الذي ميّز نتاجهم وجعل منه مظهرا من مظاهر الحياة آنذاك، ووجها من أوجهها، كانت النزعة الغالبة في ذلك الأدب كما يرى (مرسيا إلياد) يمثل التفكير الأسطوري المكتوب شعرا، باستثناء مواضيع قليلة، لا يسعنا أن نسمي ما خلفوه فكرا فلسفيا بالمعنى الدقيق، لهذا النمط من التفكير الذي يستند إلى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الأشياء نظرا موضوعيا، ومع أنهم عالجوا في أساطيرهم وأنواع كتاباتهم الأخرى قضايا مهمة لا تقل شأنا وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، ويضيف (طه باقر) في معرض وصفه لمهمة الأدب في بلاد الرافدين، بيد أن تفكيرهم في مثل هذه القضايا كان تفكيرا خياليا وأسطوريا وشعريا، وإذا كانت الأساطير والقصص معروفة في الآداب الحديثة إلا أن أدباء وادي الرافدين القدامى لم ينظروا إلى أساطيرهم على أنها متعة أدبية فنية فحسب بل كانوا يعدون ما فيها من آراء حقائق معتبرة في تفسير الوجود والأشياء.



وعلى هذا الأساس ينبغي لنا أن ننظر إلى أساطيرهم على أنها تعبر عن معتقداتهم بالإضافة إلى كونها نتاجا أدبيا، كانت مهمة ذلك الأدب القيام بدور المفسرّ والمعلن في وقت واحد عن القضايا الأساسية التي انشغلت بها الفلسفة اليونانية تفسيرا وتنظيرا، بالاستناد إلى المنهج المنطقي، وإذا ما وجدنا فيما سنذكر من قطع أدبية تناقضا في الآراء والمعتقدات عن أصل الكون والأشياء فأن ذلك متوقع في التفكير الأسطوري الشعري لأن التناقض لا يبدو إلا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسموّ عليه خيال الشاعر الفنان، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد ما بين الأحلام وبين اليقظة مختلطا غير واضح المعالم، والواقع أن الرؤى

لم تكن أقل نصيبا من الحقيقة في اليقظة فكان القوم يحصلون على التوجيه والإرشاد الإلهي عن طريق اتصالهم بالإلهة في الأحلام وإذا ما حاولنا العثور في أساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون (العلة) الذي هو أساس منهج العلوم الحديثة فأننا لا نجد له أثارا واضحة، أنهم كانوا ينظرون إلى علل الأشياء والحوادث من وجهة نظر من يحدثها وليس كيف تحدث - أو لماذا تحدث؟، (تذكر دايان ولكشتاين في بحثها عن أسطورة هبوط إينانا إلى العالم الأسفل) إذا كان نهر دجلة أو الفرات لم يرتفع فيهما منسوب المياه يعزو السومريون ذلك إلى غضب الآلهة التي هي تتحكم في مصير البشر، لقد كان لهم حالة من الاستدلال والتوقع تنطلق في الحكم على الأشياء تستند إلى مبدأ التمثيل والقياس أكثر من استنادها إلى الاستنتاج والاستدلال ويظهر هذا واضحا في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للأشياء حسب منهج التشابه الظاهري مثل تصورهم للسماء على هيئة الأرض، ونجد ذات الرأي لدى (طه باقر وغيره من الكتاب) وهم يتناولون تلك المناهج والرؤى، ويتفق الجميع على أنهم اندفعوا بتفكيرهم لكي يتصوروا أن السماء ربما تكون دولة أو مملكة تحكم فيها الآلهة من الذين يحملون المراتب المتدرجة وربما هم يجتمعون بشكل دوري لكي يراجعوا مصير البشر على الأرض بشكل مجلس للشورى ويتخذون فيه القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري، ولهذا نجد أن مبدأ التشبيه يأخذ حالة قوية تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير، وقبل الدخول إلى استعراض لبعض الأساطير السومرية والبابلية والوقوف عند مضامينها، لا بد من ذكر ملاحظة تتعلق بمدى تفهمنا للنصوص الأدبية التي عثر عليها المنقبون وفك رموزها علماء الآثار وتناولها رجال البحث العلمي، أن تلك النصوص المترجمة عن الكتابة المسمارية وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت لجعلها أقرب إلى فكر تلك الحضارة

القديمة وكذلك محاولة جعلها تعيش وسط حالة التطور والتوسع الحضاري العلمي، أنجزت تلك النصوص في الترجمة والبحث على أسس علمية لا يرقى لها الشك منذ منتصف القرنين المنصرمين، ولكن هؤلاء المختصين متفقون على ترجمة القطع الأدبية بالرغم من أننا نجد اختلافات واجتهادات، كما يرى (طه باقر) الكثير منها غير جوهري، ومهما بلغت ترجمة هؤلاء الباحثين من دقة الأداء فإنها لا تستطيع أن تنقل لنا الروح الأصيلة والمناخ الفكري العاطفي المميز لتلك النصوص شأنها في ذلك شأن الآداب العالمية الأخرى إذا ما نقلت من لغتها الأصلية إلى لغة أخرى، أن ما يميز نصوص الأسطورة الرافدية عن غيرها أنها كتبت وفق صيغة درامية، وكما يرى (مرسيا إلياد – مظاهر الفلسفة) تلك العلامات موجودة في بنية النص، فالأسطورة تروى بشكل درامي، وليس بطريقة القصّ أو الرواية، نجدها تتضمن الأناشيد والحوار المكثف الموضوع لغاية الترديد على لسان الشخصيات و(الكورس) من المنشدين بل يوجد في الأسطورة أكثر من (كورس) كما أنها لا تلتزم بسياقات الزمان والمكان وكما أثبت أكثر من باحث أن تلك النصوص الأسطورية مكتوبة لكي تؤدى بشكل تمثيلي وحيّ أمام حلقات من النظارة، وبعضها تفسح المجال للمشاركة الجماهيرية في ذات الطقس الذي ترويه، وربما كانت بداية المسرح العالمي من فضاء الأسطورة الرافدية التي تطور شكلها في المسرح الإغريقي لاحقا، أن أسطورة هبوط إنانا وملحمة جلجامش وأساطير التكوين السومري والبابلي والطوفان السومري والبابلي وأساطير الدمار والتنين السومري والبابلي والجنة السومرية والبابلية وهبوط عشتار إلى العالم الأسفل وغيرها تمثل نصوصاً فيها الكثير من البناء الدرامي وخاصة في مجال التراجيديا التي عرف مثيلا لها المسرح الإغريقي – الدراما الطقسية وقصة الموت الفاجع للإله (ديونيسيس) الذي يشابه في الكثير

من تفاصيلة موت (ديموزي – في الأسطورة الرافدية)، أما ملحمة جلجامش فقد وجدت لها الكثير من النماذج المشابهة في الشخصية المشابهة – هركليس – مع الفارق الفكري وحالة التسطيح لدى الإغريق عن العمق الفلسفي والبناء الدرامي الوجداني الذي امتازت به ملحمة جلجامش..

أسطورة التكوين السومري:

يرى (ثوركيلد جاكوبسن) في كتابه المهم – كنوز الظلام The Treasures of Darkness – والباحث معروف باهتمامه بعلوم السومريات وقد نشر الكثير من الكتب والأبحاث، يقدم عن أسطورة – التكوين السومري – تعريفا يتصف بالشمول ويبتعد عن الدخول في التفاصيل، يقول: أن تلك الأسطورة يعود تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، عندما تأسست في جنوب بلاد ما بين النهرين شبكة من القنوات المائية التي غيرت واقع تلك الأرض وجعلتها تزدهر اقتصاديا، عندما وظف الإنسان الرافدي مياه دجلة والفرات مستثمرا جهوده في الزراعة، الفكرة التي تنطلق منها الأسطورة – زواج أنكي – الذي يمثل إله المياه والحكمة من ننخرساج (التي تمثل المناطق الشاسعة تلك التي يتواجد فيها) الغرين – الطمي (الذي يحيط بالمياه، أنكي في الأسطورة هو الذي يمثل المياه يفيض في بعض أشهر السنة ليروي الحقول الممتدة على ضفتي نهري الفرات ودجلة وأماكن أخرى أبعد كثيرا ثم يعود النهرين تدريجيا لينحصران في مجراهما تاركين التربة – ننخرساج – بعد أن تمّ تلقيحها بمياه الفيضان، أثناء انحسار المياه – أنكي – يكشف عن أرض صارت خصبة تستعد لإنتاج نباتات جديدة هي تمثل إلهات النبات الثلاثة التي تحمل الأسماء – ننمو – وننكورا – وأتو –.



وفي انتظار عودة النهرين مرة أخرى إلى الفيضان، يكون أنكي قد صار مريضا والإلهة – ننخرساج التي سلطت عليه لعناتها متخفية عن الأنظار، وذلك إلى أن يعثر عليها الثعلب وتعود لشفاء المريض، يجعل جاكوبسين من الظواهر الطبيعية في الأسطورة شخصيات إلهية تلعب أدوارا حاسمة، ويرى تلك الشخصيات محملة بالرموز المهمة التي تحاكي ما يدور في الطبيعة، وهو ينجح في تقديم التفسير المتفق مع المنهج الذي يستخدمه، كما نجد تفسيرا آخر مختلفا في بعض الأفكار يتضمنه كتاب (صموئيل نوح كريمر) – السومريون – The sumerians – الصادر في العام 1963، حيث يعقد الكتاب مقارنات على جانب كبير من الأهمية بين أسطورة – أنكي ننخرساج – وأسطورة الفردوس التي تتحدث عن – آدم وحواء – وهو يعتقد ضمنا أن المياه التي فجرها أنكي تشبه إلى حد بعيد المياه التي تفجرت في جنة عدن، حيث تفرع النهر إلى أربعة

فروع، وقد أحاطت اللعنة بأنكي جراء أكله النباتات حيث نجد التشابه مع قصة آدم مرة أخرى عندما أكل من ثمار الشجرة المحرمة، كما يشير (كريمر) إلى وجود تشابه آخر بين اسم حواء واسم إحدى آلهات الشفاء المدعوة - نن - تي - والتي توظفها الأسطورة للعمل على شفاء ضلع أنكي، واسمها كما ترجمه كريمر عن السومرية - يعني سيدة الضلع أو سيدة الحياة - أو واهبة الحياة، وبذلك هي تشبه حواء التي ولدت من ضلع آدم ويلخص كريمر الأسطورة على النحو التالي: أنكي إله الماء العذب والحكمة، وننخرساج، الأم - الأرض، عاش - أنكي وننخرساج - عند فترة فجر الوجود والتكوين في أرض دلمون التابعة لسومر - البحرين حاليا - الجنة العذبة ذات التكوين النقي، التي لا يعرف ساكنوها الألم والمرض والشيخوخة، ولا يتجاوز فيها مخلوق على آخر، ولكن العلة فيها أنها كانت ذات أرض قاحلة، ولهذا طلبت ننخرساج من زوجها (أنكي) أن يبذل جهده لكي يجعل الماء يجري في الجزيرة، طلب أنكي معونة إله الشمس وإله القمر، وبعد أن تم ذلك اخضرت الأرض وجرى الماء في الأنهار الصغيرة والكبيرة، وغمر حقول القصب، أمر (أنكي) رسوله وتابعه (أزموند) بالا يمنع أي مخلوق من التقرب من السبخات المائية، بعد ذلك ضاجع أنكي زوجته فحملت منه، وبعد مرور (تسعة أيام) كل يوم منها يعادل شهرا كاملا، أنجبت الفتاة (ننمو) التي ترعرعت بسرعة ومرت إلى مرحلة الصبا، وبينما كانت الفتاة (ننمو) تتجول عند السبخات المائية رآها (أنكي) فقطع بمركبه المصنوع من القصب إلى الضفة المقابلة وضاجعها فوق ترابها، حملت ننمو من أبيها أنكي، وبعد مرور (تسعة أيام) كل يوم منها يعادل شهرا كاملا، أنجبت الفتاة (ننكورا) وبينما كانت الصبية تتجول في السبخات المائية ضاجعها أنكي فحملت منه، وبعد تسعة أيام مرور (تسعة أيام) كل يوم منها يعادل شهرا كاملا، وضعت

الفتاة (أتو) وقبل أن يعمد أنكي إلى إغواء البنت الجديدة، تقول لها ننخرساج بألا تستسلم له وليكن مهرها أن يأتيها بأنواع معينة من الخضار والثمار من الأراضي الصحراوية البعيدة، وبشرط أن يكون بينها العنب والخيار، كانت ننخرساج تدرك عن يقين عدم قدرة أنكي على إحياء تلك المناطق القاحلة، ولكن أنكي يجعل الفيض من المياه يغمر تلك الأرض ويرويها ويزرعها، ويقوم بستاني لا تحدد الأسطورة هويته برعاية تلك النباتات حتى تكبر وتنمو فيأتي بها إلى أنكي، الذي يقدمها إلى الفتاة (أتو) التي تستسلم له، ولكن ننخرساج تسرع إليهما وتنتزع بذور أنكي من بين ساقيها، وبعد قطع في سطور النص يغفل التفاصيل اللاحقة، النص ينتقل إلى انتزاع البذور إلى القول بأن ثمانية أنواع من النبات قد ولدت منها، نمت النباتات وكبرت، وبينما أنكي يتجول مع تابعه إزموند، وقع بصره على النباتات الغريبة فسأله عن أسمائها، وكان كلما ذكر له اسم واحدة منها اقتلعها له فيأكلها، وذلك بهدف معرفة اسمها وطعمها ويقدر مصائرها، حتى أكل جميع النباتات، وبعد ذلك تثور ثورة غضب ننخرساج للعمل الذي فعله ننخرساج، وتلعنه قائلة (إلى آخر أيامك الرثة لن أنظر إليك بعين الحياة) ثم تختفي، ويقع أنكي مريضا أثر لعنة ننخرساج، وتستوطن في جسده ثمانية علل بعدد النباتات التي أكلها، يؤدي مرض أنكي إله الماء إلى جفاف وموت للنبات والزرع بسبب مرض إله الماء، يجزع الآلهة ويبحثون عن ننخرساج يلتمسونها لكي ترفع لعنتها عن أنكي فلا يجدونها، وأخيرا يتطوع الثعلب للبحث عنها فيجدها، وعندما تحضر إلى مجمع الآلهة يمسكون بأطراف عباءتها ويرجونها أن ترفع لعنتها عن أنكي، تستجيب ننخرساج وتضع أنكي في فرجها ثم تسأله عن الذي يؤلمه:

ننخرساج أجلست أنكي في فرجها، قالت:

ما الذي يوجعك...؟

قال: يوجعني.....

قالت: لقد استولدت لك الإلهة آيو.. ثم ما الذي يوجعك...؟

قال: فكي يوجعني..

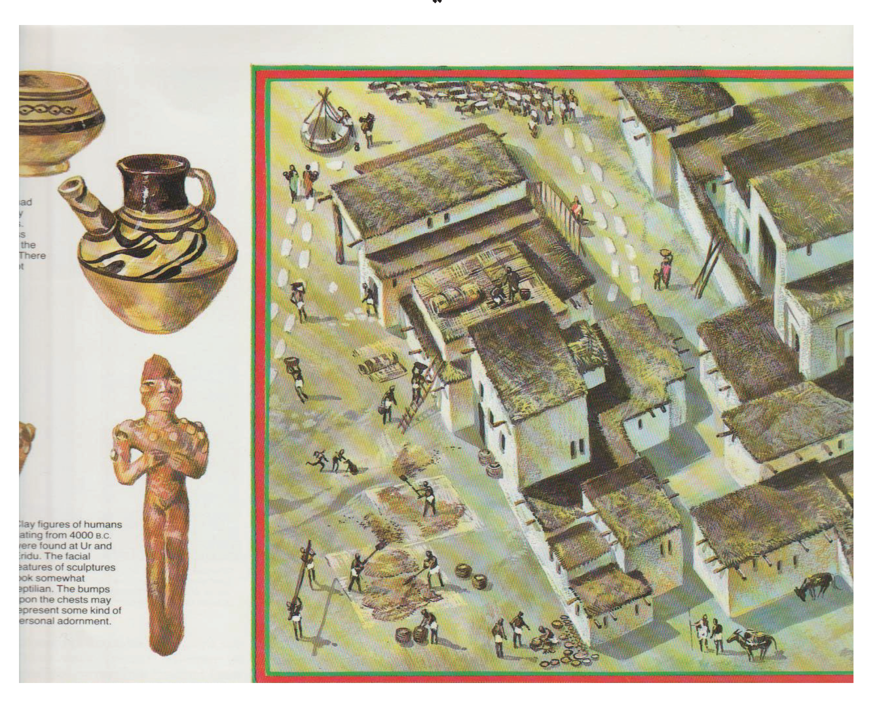
قالت: لقد استولدت لك الإلهة آيو... ثم ما الذي يوجعك..؟

قال: أسناني...

قالت: لقد استولدت لك الآلهة ننسوتو.. ثم ما الذي يوجعك...؟

قال: فمي..

قالت: لقد استولدت لك الإلهة ننكاسي..



يستمر الحوار بين ننخرساج وبين أنكي حتى تستكمل ولادة ثماني إلهات يعملن على شفاء أنكي من أوجاعه كي يسترد صحته، تتم ولادتهن من بطن أنكي، الإلهات الثمانية هن النباتات الثمانية التي سبق وأكلها فتحولت في بطنه إلى كائنات إلهية تحاول الخروج من الحياة، يصف صموئيل نوح كريمر نص الأسطورة بأنه يقع في 270 سطرا، وهو سليم خال من النقص والتشوهات، ولكن المعنى الكامن في تلك الأسطورة يظل غامضا، ويورد (كريمر) بشأن إحدى الإلهات التي خلقها ننخرساج لشفاء أمراض أنكي أسمها (نن – تي – nin – ti) ويعني المقطع الأول من الاسم سيده والمقطع الثاني حياة أو ضلع، معنى ذلك اسم الآلهة التي تم على يدها شفاء العلة التي أصابت ضلع أنكي، أما سيدة الضلع هو معنى اسم (حواء) في العبرانية أو المحيية – التي تحييّ، ولما شفي أنكي من مرضه عاد إلى تبوأ مركزه السامي بين الآلهة، وقرر مصير كل أله منهم وخص أرض (دلمون) بإله خاص أسماه (إينشاك – enshag) ويرى كريمر في تفسيره لهذه الأسطورة كما أسلفنا خلق حواء من ضلع آدم بحسب رواية التوراة، احتمال أن أصلها من أسطورة (دلمون) نشر نص هذه الأسطورة في سلسلة النصوص المكتشفة في آشور (1904 – 1912) نشرت في كتاب ألواح سومر الذي كتبه صموئيل نوح كريمر وترجمه في العام 1958 طه باقر (the tablets of sumer)..

أسطورة أخرى عن خلق الإنسان:

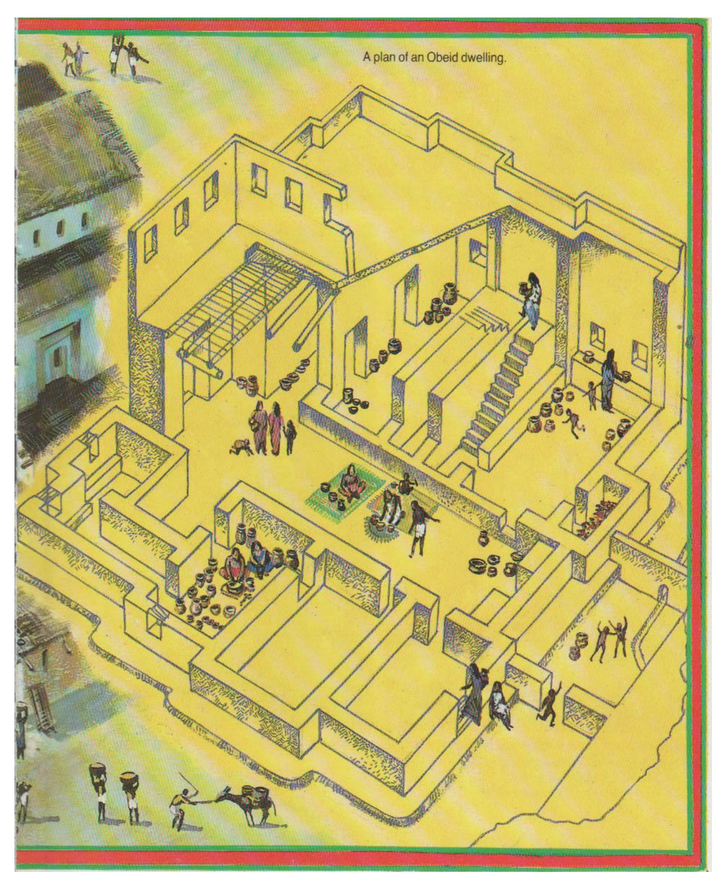
أسطورة أخرى عن أساطير الخليقة وردت في كتاب ألواح سومر لكريمر، وجد نصها في مدينة آشور – قلعة آشور، قلعة الشرقاط (يرجع عهده إلى العصر البابلي القديم في مدينة) نفر – في أثناء التنقيبات الأمريكية القديمة فيها وذلك أواخر القرن التاسع عشر، وموجزها أنه حينما فصلت السماء عن الأرض

وعينت مصائر السماء والأرض وحين حددت ضفاف دجلة والفرات ووجهت الجداول والأنهار في مجاريها الصحيحة حينذاك، أجتمع الآلهة العظام في المزار المقدس (آنو - أنليل - شمش - أيا - وجميع آلهة الأنوناكي) نظروا فيما سبق أن خلقوه وتساءلوا فيما بينهم قائلين (والآن بعد أن قدرت مصائر السماء والأرض وحددت ضفاف دجلة والفرات ومجاري الأنهار والجداول فما عسانا أن نخلق غير ذلك..؟ فأجاب آلهة الأنوناكي الإله أنليل قائلين) في حارة أوزمو (الحارة المقدسة في مدينة نفر توصف بأنها رباط الاتصال بين السماء والأرض) لنذبح ألهين من آلهة ال - لمكا lamga - ونخلق من دمهما البشر ولنفرض عليهم خدمة الآلهة في جميع الأزمان وليعملوا في جداول الحدود وحرث الأرض وزراعتها وإدامة بيوت الآلهة ويقيموا شعائرها وأعيادها على الدوام وسيكون اسما أول بشرين (أوليكرا - ulligarra وزلكرا - zalagara وسيعملان على تكثير البقر والضأن والماشية والسمك والطير، ومن الجدير بالذكر أن آلهة (ال - لمكا - مجموعة من الآلهة الصغرى المخصصة للصناعات والحرف وقد ذكر اسما أول بشرين في الأسطورة بصفة (سيد الخير - سيدة الخير)..

أسطورة أنليل وننليل - ولادة الآله القمر:

أسطورة سومرية أخرى تدور حول فكرة ولادة الآله القمر (ننا - ننار) أو (الإله سين): وكما وردت بعض التفاصيل عنها في أبحاث نشرها كل من (جاكوبسين - وكريمر) ولادة - سين - وولادة أخوته الثلاثة، وقد وقعت أحداث الأسطورة في مدينة نفر، وفي العالم الأسفل ودعيت المدينة في الأسطورة بتسمية مقدسة (دور أنكي) بمعنى (قلعة أو حصن الكون) وتذكر نهرها ورصيفها وميناءها وكان فيها الإله الشاب أنليل والإلهة العذراء (ننليل) وأمها - ninshebargunu، وقد حذرت هذه أبنتها أن تحافظ على نفسها عندما تغسل

في مياه نهر المدينة العذب من الشبان، ولكن لم يجد ذلك التحذير نفعا فقد حدث مرة أن شاهد الشاب أنليل العذراء ننليل تستحم في النهر، فحاول إغوائها ولما مانعت أغتصبها فحملت منه وولدت الإله القمر (ننا – سين) وهنا لم تترك سلطات الآلهة الجريمة بدون عقاب فقد قبض على أنليل وأحضر أمام مجمع الآلهة الخمسين ويترأسهم السبعة الكبار الذين يصدرون الأحكام فقرروا نفي نليل جزاء اغتصابه الآلهة ننليل إلى العالم الأسفل، وعندما أخذ طريقه إلى ذلك العالم قررت ننليل أن تتبعه ولكن أنليل لم يكن راغبا في اصطحابها معه فعمد على تضليلها بأن أتخذ هيئات شخصيات مختلفة، منها شخصية حارس بوابة المدينة، ولما بلغت ننليل البوابة وجدت أنليل متخفيا بزي البواب فلم تعرفه وأخبرها بأن ملكه (أنليل) قد أوصاه بها فقالت له أنها هي أيضا ملكته وأنها تحمل في أحشائها طفل أنليل – سين، فأظهر أنليل المتخفي بشخصية البواب الجزع في أن تأخذ ننليل معها نسل سيده إلى العالم الأسفل، فاقترح عليها أن يجامعها ليكون الابن الذي ستحمل به بديلا عن ابن سيده في العالم الأسفل، فاقترن بها وحملت بابن آخر هو الإله المسمى (mesiamtaea – ميسلام تاي، أخو إله القمر سين ومن ألقابه إله العالم)، ثم سار بعد ذلك أنليل في طريقه إلى العالم الأسفل، ولكن ننليل تستمر في متابعته، وقد توقف في طريقه مرتين، الأولى عند مروره بالرجل الموكل بنهر العالم، حيث يتخذ هيئة أخرى ويتخفى عن ننليل فيجامعها وتلد إلها ثالثا من آلهة العالم الأسفل هو (ننازو) والمرة الثانية عند ملاح العالم الأسفل الذي تخفى بهيئته أيضا ويجعل الإله ننليل تلد إله آخر لم يبق أسمه محفوظا في النص.



وهنا تنتهي الأسطورة نهاية مقتضبة بإزجاء التمجيد للإلهين – أنليل وزوجته ننليل وهكذا يبدو أن الغرض الرئيسي من الأسطورة بيان أصل بعض الآلهة وفي مقدمتهم الإله القمر (سين)، يقول العالم الكبير (طه باقر): شاءت الصدفة الحسنة أن لا يجد كتبة العراق القديم أيسر واسهل من الطين يدونون فيه الكلمة – أي الفكر – فالطين بخلاف سائر مواد الكتابة التي استعملتها الحضارات الأخرى لا يفنى، أنه طين العراق الخالد ذلك الطين الذي حفظ لنا أولى التجارب الرائدة في تاريخ البشرية حققها العراقيون القدامى يوم انتقلوا إلى الحضارة والمدنية وهي التجربة المثيرة في تطور الإنسان المديد، والتي لا تزال

البشرية تبحث فيها باهتمام كبير، أن المعتقدات الدينية قد آثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي أنواع الفنون الأخرى بوجه عام، وثمة ملاحظة تتعلق بالمجاميع المختلفة من ألواح الطين والمفهرسة على الوجه الذي ذكرناه تودع في حجرات خاصة من المعابد والقصور والبيوت، وكان بعضها مؤلفا من عشرات الألوف من الوثائق والسجلات مثل مكتبة (آشور بانيبال) في نينوى وغيرها من دور الألواح أو دور الكتب البابلية والآشورية في كبريات المدن القديمة وكان يطلق عليها بالسومرية (بيت الألواح) أي - دبا - e - dubba) وكانت بعض المدن مثل (نفر) مركزا كبيرا للتعليم والاستنساخ والجمع، حيث مدارس الكتبة المتمرسين في مختلف صنوف المعرفة، ويرى (باقر) وجود علاقة بين كلمة أدب السومرية وأدب العربية..

أسطورة دمار المدن:

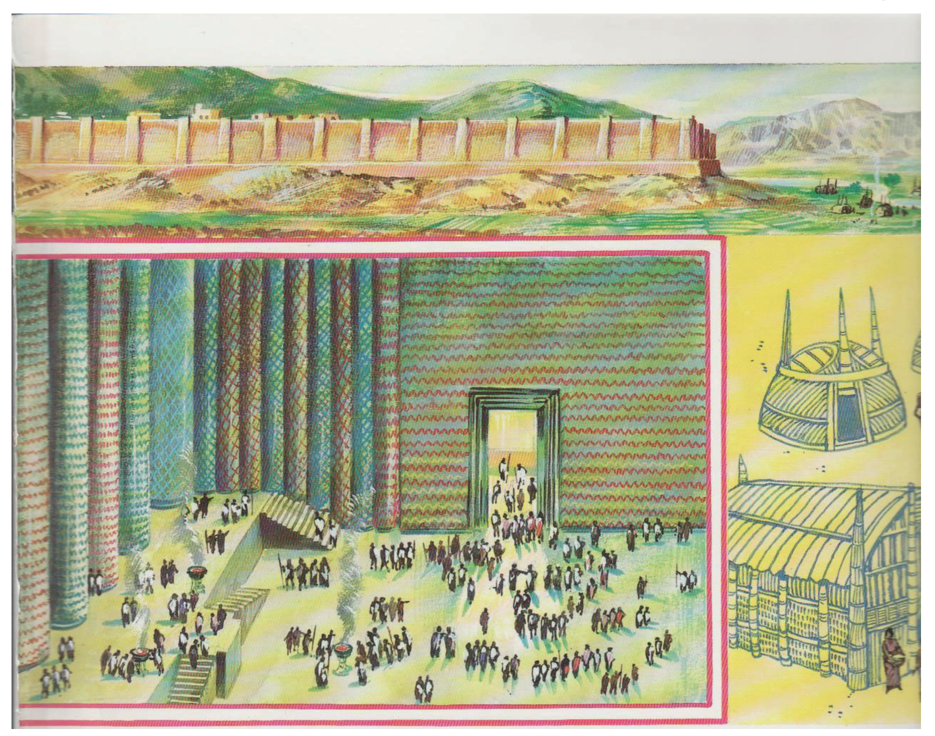
(أور - نفر - بابل) وهلاكها:

تختلف المراثي التي تتعلق بوصف الخراب والدمار الذي حلّ بالمدن الثلاث (أور - نفر - بابل) لكل منها شكلها الذي كتبت فيه وكذلك المضمون الذي تعرضه، نجد أن كتاب تلك المراثي الأسطورية الواقعة فعلا قد اختاروا الكلمات المعبرة عن الحالة الإنسانية، حيث يسودها فضاء الحزن القاتم العميق والمطلوب أن تثير بالمتلقي أو المشارك في الاستماع إلى تفاصيلها المكتوبة جوّ الحزن الكبير وتذكر بشكل مفصل الذي حصلّ وتنقله إلى إطلاق النحيب والنواح وتكرار ذلك كلما تمّ الولوج إلى تفاصيل خراب (أور - نفر - بابل) بتقديري تلك المراثي كانت نهجا للتربية على حب الأرض والشعب والمحافظة على أمن البلاد، ولهذا نجدها تنشد في مناسبات مهمة لكي لا ينسى سكان بلاد ما بين النهرين

ماذا حلّ بشعبهم ووطنهم وكيف دمرتّ حضارتهم ومعابدهم، على أيدي الغزاة من الأقوام الهمجية (الجوتيين والجبليون السوتيون الذين كانوا ينطلقون في غزواتهم التدميرية من منطقة بجوار جبل البشري الواقع في الشمال الشرقي من تدمر في منطقة الرقة السورية وكذلك أقوام الجزيرة ورعاع العيلاميون)، كانت فترة حكم الملك (شولجي – shulgi - الذي حكم في الفترة من 2110 قبل الميلاد) قد امتازت بطرد جميع الأقوام الهمجية من أرض سومر وتحريرها من الغزاة، تلك الحادثة المهمة شكلت حالة كبيرة من الفخر والاعتزاز بالنصر الكبير على الأعداء الذين دمروا البلاد، وانعكست تلك الحالة في النتاج الأدبي فظهرت قصائد فيها نماذج من الفخر والاعتزاز بالجيش ودور الملك شولجي، وكذلك تمجيد الآلهة التي مكنت شعب سومر من طرد الأعداء، وعلى أثر ذلك أنخرط رهط كبير من كتاب وشعراء سومر في تأليف الملاحم البطولية التي يفاخر بعضها بالملك شولجي صانع النصر ومؤسس أكاديميات العلوم في (أور ونفر) ولكن الغزاة ظلوا يراقبون بلاد سومر عن كثب ويرسلون لها جواسيسهم وعيون الرصد ولم يمض أكثر من (نصف قرن) على طرد أقوام (الجوتو) حتى عرف تاريخ سومر كارثة جديدة أكثر ترويعا عندما اتفقت عدة شعوب على غزو جديد للبلاد، هجم الجبليون والسوتيون والعيلاميون باجتياح كل أرض سومر، وبعد هدمهم لمدينة (أور) توجهوا نحو مدينة (نفر) ومدن أخرى، وساقوا الملك (إيبي – سين ibbi – sin) أسيرا إلى بلاد عيلام وهو حفيد شولجي الذي حكم في مملكة (أور الثالثة في الفترة حوالي 2077- 2003 قبل الميلاد) تلك النهاية المريعة للغزو جعلت الكتاب والشعراء يؤلفون المراثي الطويلة التي كانت تجعل البكاء والنواح يتفجر مثل البركان، ولكنها في الوقت نفسه تلك المراثي تهدف في جوانب منها إلى زرع الأمل باستعادة ما كانت عليه سومر..

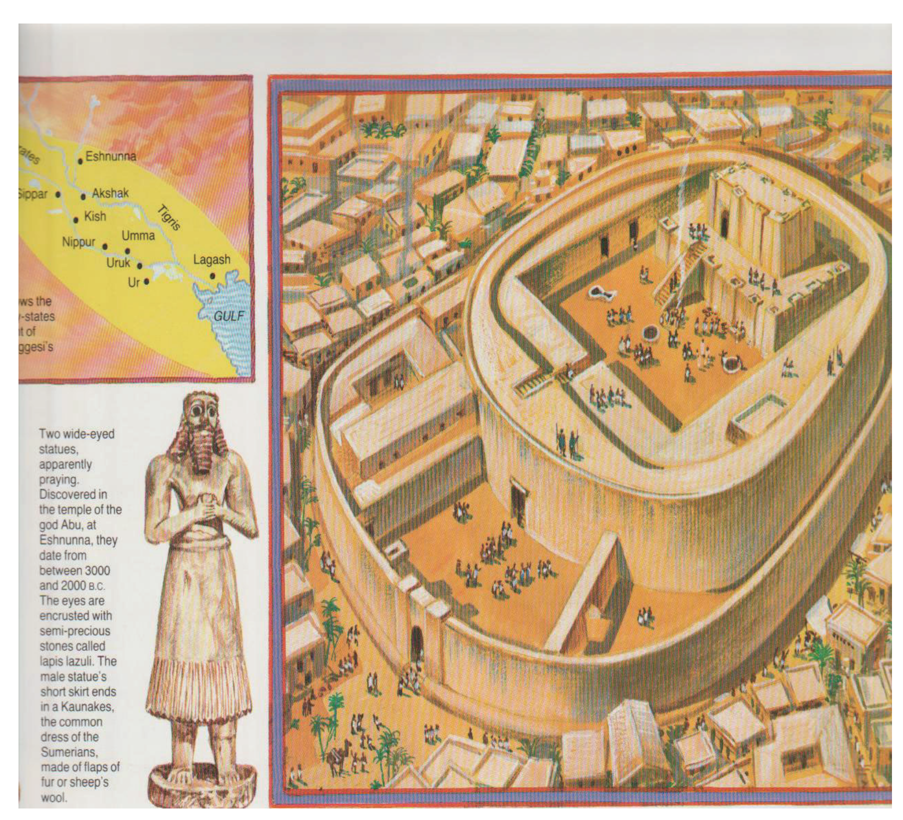
أسطورة إيتانا والنسر

نص آخر يحمل أسطورة تسمى " إيتانا والنسر " وهي من الأساطير البابلية القديمة، وتعود إلى الفترة ما بين " 2000- 1600 قبل الميلاد " عثر عليه علماء الآثار أثناء التنقيب في موقع قريب من مدينة "



سوسه – عاصمة العيلاميون " وله مثيل عثر عليه في مكتبة "آشور بانيبال " يعود إلى الفترة ما بين " 1600- 1000 قبل الميلاد " ونص ثالث من العصر الآشوري الوسيط، بين النصوص الثلاثة ثبت العلماء بعض أوجه الاختلاف في المضمون ولكن الأحداث تتطابق بشكل كامل، وتعود الترجمة الأولى كما نشرت في كتاب " ستيفاني دالي - stephanie dallay - mythes from mesopotamia ' - الكتاب صادر عن مطبعة جامعة أوكسفورد عام 1981 "

وهو يتضمن موضوع الأسطورة التي تتحدث عن صعود " إيتانا " على جنح نسر إلى السماء، ذلك الفعل لا يكشف عن قدرة خارقة أو عامل سحر يتمتع به إيتانا، كما حصل في أسطورة أخرى تتناول قدرة آدابا – adaba - الذي تقول الأسطورة أنه استطاع أن يكسر جناح ريح الجنوب، بل جاء تحقيق ذلك لإيتانا من خلال التقوى والعبادة المخلصة لإله العدالة شمش – shamash – كانت له أهداف يريد تحقيقها من هدف الصعود إلى السماء، فهو يتمنى أن يرزق أبنا يحمل اسمه ويرثه فيما بعد، إيتانا حاول السعي في رحلته للحصول على نبات الولادة – أي الأعشاب المساعدة على تثبيت الحمل في الرحم الأنثوي، كانت أمنيته تقديم تلك الأعشاب السحرية إلى زوجته، أراد الوصول إلى الإلهة " عشتار " هي وحدها التي بيدها مفتاح مساعدته فهي المعنية بشؤون إخصاب الحقول والأرحام، ولذلك قرر القيام برحلته على جناح النسر الذي أرتبط معه بصداقة قوية وبعد أن صنع له الكثير من المعروف بتوجيه من الإله " شمش " وهكذا يصعد إلى السماء بهدف إبلاغ الإلهة " عشتار " أمنيته، ويشار إلى أن تجميع أسطورة إيتانا والنسر من ستة عشرة لوحة وبعض أجزاء لوحة محطمة، والأسطورة التي وجدت في ثلاثة أماكن مختلفة تترك انطباع يؤكد شهرتها وأهميتها، وهي تتألف من ثلاثة أجزاء، في الافتتاحية أو المقدمة تقدم لنا فكرة واضحة عن نمط الحياة العمرانية والاهتمام ببناء المدن الجديدة في الفترة التي لم تكن الملكية قد تأسست بعد ولم تكن أيضا قد هبطت من السماء الأسس والشعارات والنواميس ولم تظهر المعابد.



تكشف قصة الأسطورة في تفاصيلها عن معاهدة صداقة تجمع بـين " نسر " قـوي و " حيّة – أفعى " كلاهما يقسم أمام الإله " شمش " على احترام بنود معاهدة الصداقة،

فتح النسر فمه وقال " للحية ":

تعالي لنعقد اتفاقا فيما بيننا،

تعالي لنصبح شركاء أنا وأنت،

فتحت " الحية " فمها وقالت:

لكن ذلك أمام شمش..

وبعد ذلك يلد كل منهما فراخه، النسر على قمة شجرة صفصاف والحية تكون في ظلّ الشجرة نفسها، وفي كل مرّة كان النسر يأتي بالغذاء لإطعام فراخه كان يخصص حصة للحية وفراخها وكذلك تفعل الحية بالنسبة لصغار النسر، وبعد أن كبرّ فراخ النسر وتمكنوا من الطيران، تبدو تراود النسر أفكار شريرة، كان يضمرها في عقله إذ قرر افتراس صغار الحية ثم نفذ ذلك.



وعندما كانت الحية بعيدة عن جحرها مخالفا بذلك عهده مع حليفته وحانثا بقسمه أمام الإله " شمش " الذي يعاقبه بتمكين الحية من الانتقام منه:

لدى سماعه لشكوى الحية،

فتح شمش فمه وقال لها:

" أتبعي الطريق اجتازي الجبل، من أجلك أعددت ثورا وحشيا،

افتحي جوفه، اثقبي بطنه، استقري في بطنه، ومعك جميع طيور السماء،

سوف تحط لتأكل من لحمه والنسر معها، دون أن يعلم المصيبة التي تنتظره، ومن اللحم سوف يفتش عن أطراه، سوف يتقدم من الشحم الذي يغطي

الأمعاء، وعندما يتم دخوله إليها، أمسكي به أنت من جناحيه، قدّي ريش قوادمه، وانتزعي الريش عن جناحيه، وأرميه في حفرة ليموت فيها جوعا وعطشا.. فيما بعد ندم النسر وتقدم لشمش برجاء أن يشفق عليه، لكنه رفض مساعدته بشكل مباشر بل طلب منه أن يذهب إلى " إيتانا " للقيام بذلك الذي تصفه سطور الأسطورة مشغول بهمّ عظيم والذي يتعبد مخلصا " لشمش " وهو يرجوه تزويده بنبات يساعد في الحمل والإنجاب، لذلك يستجيب شمش لطلبه ويوجهه نحو الحفرة حيث رمي النسر، يقوم بتغذيته والاعتناء به لمدة سبعة أشهر إلى أن يستعيد النسر كامل قدرته وللوفاء لشمش بأن يساعد من ينقذه في كل ما يطلب، واعترافا منه بصنيع " إيتانا " يعرض عليه حمله إلى السموات وكأن النبات الذي يفتش عنه متوفرا في سماء عشتار، وتبدأ عملية الصعود والنسر يحمل إيتانا على صدره وتبدأ البلاد تبدو أصغر فأصغر، ولدى وصولهما إلى بوابة " آنو " يسجدان خشوعا، ولكن " إيتانا " يطلب العودة إلى الأرض، إلا أن النسر يقنعه بالمتابعة نحو سماء عشتار، وعندها تبدأ المرحلة الثانية من الصعود، إلى أن تختفي الأرض نهائيا، وهنا يطلب إيتانا من جديد العودة إلى الأرض، ويشير نص الأسطورة إلى أنه يسقط ثلاث مرات متتالية ولكن النسر في كل مرة ينجح في التقاطه، وبسبب فقدان بعض الأجزاء المكملة تبقى النهاية غير مكتملة دراميا، ولكن بعض الترجمات من تلك التي تناولت أسطورة " إيتانا والنسر " تؤكد أن بقية الأحداث دارت فوق الأرض مما يؤكد هبوط إيتانا، وقد جلب معه الأعشاب التي يبحث عنها، كما يرد في بعض تلك الترجمات اسم الملك إيتانا يشار إليه على أنه رابع ملوك ما بعد الطوفان من كيش وقد خلفه في الحكم أبنه المدعو " بالخ " الذي دام حكم أسرته 400 سنة..

مهما أمعنت النظر،

فالبلاد لم تعد مرئية،

ومن البحر المتسع لم أعد أستطيع أن أُشبع نظري،

يا صديقي أنا ما عدت أريد الصعود إلى السموات،

وجه سيرك كي أعود إلى الوطن...!

استندت معظم الأساطير على الأسطورة الأولى التي تحدثت عن الخلق او التكوين ونجد ذلك واضحا في الاسطورة المكتملة التي عرفت بالاسطورة البابلية " الاينوماليش ": الإينوما إيليش:

أسطورة الخلق والتكوين البابلي :

من أصل الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الإنسان نصوص أدبية متنوعة ومتعددة بعضها باللغة السومرية والبعض الآخر باللغة الأكدية ومن أدوار مختلفة أخرى في حضارة بلاد ما بين النهرين، ولا سيما منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من تفاصيل العهد الذي يطلق عليه اسم العصر البابلي القديم والذي تميز بنشاط واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية إلى البابلية، وكان موضوع الخليقة وأصل الأشياء على رأس القضايا التي شغلت تفكيرهم فعالجوها بالأسلوب الأسطوري الشعري الدرامي.

ونشأ عن ذلك كما يرى (طه باقر وغيره من علماء السومريات عقائد وآراء مختلفة) أن الكفاح من أجل السيادة على سومر هو أحد الدوافع التي تستند إليها أساطير تنظيم الكون السومرية.

ويرى جاكوبسين في معرض تعليقه على الأساطير السومرية في كتابه (كنوز الظلام) أنها أساطير الخليقة السومرية، أنها قصيرة وكثير منها ناقص وغير

مكتمل، ولكن البابليون أسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين وأخـذوا الشيء الكثير من التراث السومري، وقد تركوا لنا أطول وأشـهر قطعـة أدبيـة عـن هـذا الموضـوع، وهي الأسطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصـة أو أسـطورة الخليقـة البابليـة (يطلـق عليها في كتاب مقدمة في أدب العراق القديم) أينما إيليش - أو حينما عليش.

وقـد سـماها بعـض البـاحثين (رقـم الخليقـة السـبعة the seven tablets of - creation - وذلك لأنها جاءت مدونة بالشعر البابلي على سبعة ألواح مـن الطـين يحتـوي كل لوح منها ما بين 115 - 170 سطراً أو بيتا من الشعر ومجموع أبياتها زهاء ألـف بيـت، وقد عثر على معظم ألواحهـا في مكتبـة الملـك الآشـوري - آشـور بانيبـال - في نينـوى، كـما وجدت أجزاء منها في مدينة - آشور - ووجد لها نسـخ أخـرى في المـدن القديمـة مـن بـلاد بابل، من العصر البابلي القديم والحديث ويرقى زمن أواخر العصر البـابلي القـديم وأوائـل العصر (الكشي)، وتستند الأسطورة البابلية إلى أصول سـومرية أقـدم عهـدا، أمـا موضـوعها الأساس فأنه يدور حول تمجيد الإله مردوخ إله بابـل وتبريـر تعـاظم شـأنه منـذ أن صـارت مدينة بابل عاصمة إمبراطورية حمورابي الواسعة - 1792 - 1750 قبل الميلاد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآشوريين جعلوا الإله آشور في النسخ الآشـورية للأسطورة بطل الملحمة بدلا من الإله مردوخ، نظمـت الأسـطورة شـعرا ولكنهـا من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش كما يقول (طه باقر) بل أن بعض القطع من النثر الأدبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير ويـرجح أن القصيدة كانت تتلى أو ترتل بألحان خاصة إبان عيد رأس السنة البابلية (اكيتـو akitu - الـذي يحتفـل بـه في أوائـل شـهر نيسـان كـما يحتمـل أنهـا كلهـا أو بعض مشاهدها كانت تمثـل عـلى هيئـة مسرحيـة أو درامـا ولاسـيما الأحـداث

التي تدور على موضوع تغلب الإله مردوخ على قوى الشر والعماء الممثلة بالإلهة العتيقة وإحلال النظام في الكون ثم خلق الإنسان ونشوء العمران.

ومن ملخص الأسطورة المنشور في كتاب (مقدمة في أدب العراق القديم) نكتشف أهمية تلك الأسطورة البالغة في تاريخ حضارة وادي الرافدين من حيث الكشف عن عقيدتهم في أصل الوجود والإلهة وخلق الإنسان بالإضافة إلى أنها تصور جوانب مهمة عن أحوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في أصل نظام الحكم والأسرة الحاكمة وأحوال البيئة الجغرافية وفوق هذا فللأسطورة أوجه أخرى من الأهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة وأصل الأشياء في الحضارات القديمة الأخرى، فقد أجمع الباحثون على وجود شبه أساسي واقتباسات كثيرة منها في عقائد الأمم الأخرى ولاسيما العبرانيين، كما جاء في التوراة، وهناك مواطن شبه لا يشك فيها وردت في أساطير اليونان المتعلقة بأصل الأشياء والآلهة.

ملخص الأسطورة:

أول من ترجم بعض أجزائها الباحث القديم (جورج سمث) وذلك في العام 1876 بعنوان (فصول من رواية التكوين) وتضمنت الآتي:

حينما في العُلى لم ينبأ عن السماء،

لم تُسمّ باسم،

وفي الدنى (الأسفل) لم تذكر الأرض بأسم،

وحين كانت مياه (أبسو) الموجود الأول،

والدهم و (الأم تيامه) والدة جميعهم،

واحدة مختلفة،

ولم يكن قد وجد أي مرعى،

ولا يرى أي شيء،

حتى هور القصب، حينما لم يظهر إلى الوجود أي من الآلهة،

ولم تذكر أسماؤهم،

ولا خصصت وظائفهم وأقدارهم،

ثم وجد الآلهة في وسطها، وسط أبسو وتيامه،

جاء إلى الوجود (لخموّ) و (لخاموّ) ودعيا باسميهما،

وقبل أن يبلغا أشدهما ويطولا قامة،

جاء إلى الوجود (أنشار) و (كيشار) وقافاهما بسطة في الجسم،

ثم تعاقبت السنون وتلتها الأيام،

فجاء إلى الوجود (آنو) بكرهم ووريثهم ومنافسهم،

أجل صار (آنو) بكر (أنشار) يضارع أباه، ثم ولد (آنو)

نود مّد (أيا) شبيهه،

صار (نود مدّ) سيد أبائه،

كان واسع الفهم، شديد الحول والقوة،

أجل أصبح أشد حولا من جده (أنشار)،

ولم يكن له مثيل بين أخوته الآلهه..

كان الأخوة الأقداس يتجمعون معا ويقلقون (تيامه) ويهاجمون،

حاميهم (أبسو) أجل صاروا يعكرون بطن تيامه وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس، لم يستطع (أبسو) أن يقلل من ضجيجهم وصخبهم.

أما تيامه فأنها سكتت ولم تضع حدا لصنيعهم، مع أن أعمالهم كانت مؤلمة، وصنيعهم شائنا، وعندئذ استدعى (أبسو) أبو الآلهة وزيره (ممو) وقال له: يا ممو، يا وزيري المطيب كبدي، هلم نذهب إلى تيامة، وقعدا عند أقدامها، وتشاوروا في أمر أبنائهما الآلهة، فتح أبسو فاه، وقال لتيامة بصوت عال: لقد أمرضتني (ثقلت عليّ) أعمالهم فلا أستطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء (لأقضين عليهم وأضع حدا لأعمالهم، لكي يعّم السكون فنستطيع النوم، ولما أن سمعت تيامه، ذلك غضبت وصرخت بزوجها: أدركت في قلبها ما يبيت (أبسو) من شرّ وخاطبته:

علام ندمر ما أوجدنا بأنفسنا، حقا أن صنيعهم يسبب الألم والمرض.

ولكن لنصبرّ على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر، بيد أن أبسو وقد سانده وزيره (ممو) لم ينثن عن عزمه في القضاء على أبنائه من جيل الآلهة الحديثة، ولما علمّ هؤلاء بما يبيته لهم أبوهم من شرّ ودمار، اضطربوا وجزعوا، وصاروا يتحركون على غير هدى، ثم هدءوا أخيرا واستكانوا وجلسوا صامتين يائسين لا يدرون ما يفعلون للنجاة من الهلاك المحدق بهم.

وأخيرا أنبرى من بينهم الإله (أيا) تاج الألوهية وجلالها ومجدها لا، ثم قتله وسجن وزيره (ممو) وأبتنى في الأبسو بيتا له وسكن فيه هو وزوجته (دام – كنّا) وفي حجرة الأقدار والمصائر ولد أبنهما (مردوخ) وربيّ على الرضاعة من أثداء الإلهات وسرعان ما شبّ وأكتسب جلال الألوهية المخيف الصاعق، وصار

ثاقب النظرات براق العينين جديدهما هائل الأعضاء والجوارح، لا يمكن النظر إليه و يعسر على البشر إدراكه له أربع عيون وأربع آذان وحين تتحرك شفتاه ينبعث منهما اللهب، واستطالت آذانه واتسعت عيونه الأربع فصار يرى كل شيء، اكتسى بنور الألوهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب.

أما (تيامه) فأنها لم تنسى مقتل زوجها (أبسو) وحرضها على الثأر له وللآلهة العتيقة يتزعمهم (كنكو) واستجابت (تيامة) للتحريض وعبأت جموعها وأعلنت من منزلة (كنكو) وجعلته زوجها وولدت مخلوقات مخيفة من الأفاعي والتنانين الهائلة، وعهدت إلى (كنكو) قيادة جموعها وزودته بألواح المصائر والأقدار، ولم يفطن الآلهة الحديثة إلى ما بيتته لهم أمهم تيامة من شر وهلاك إلا حين أوشكت على الهجوم، ولما أدرك الإله (أيا) الهلاك المحدق بأخوته من جيل الآلهة الحديثة تملكه اليأس والرعب، ولما زال اضطرابه قصد جده (أنشار) وأبلغه ما عزمت عليه (تيامة) فحرض (أنشار) حفيده (أيا) على أن يتصدى لقتالها.

ولكن البطل (أيا) الذي قضى على (أبسو) جبن وأحجم عن التقدم، ثم طلب (أنشار) إلى الإلهة (أنو) أن يكون رسول مصالحة وسلام إلى (تيامة) فذهب إليها وعرض عليها الصلح ولكن لم تنجح محاولته السلمية فرجع خائفا مضطربا وعندئذ عمّ الخوف والوجوم جميع الآلهة، وعقد الصمت لسان (أنشار) وجلس معه الآلهة وهم خائفون صامتون.

وبينما كان الآلهة في هذه الأزمة العصيبة، خطرت لأنشار فكرة سعيدة إذ تذكر ما يتصف به أحد أحفاده، وهو (مردوخ) من مهارة وبسالة، فاستدعى (أيا) أبنه (مردوخ) وأعلمه بعزمّ الآلهة على أن يعهدوا إليه بمنازلة (تيامة) فقبل (مردوخ) الاضطلاع بهذا العمل الجسيم ولكنه طلب جزاء ذلك أن يتبوأ السلطة

العليا المطلقة على جميع الآلهة، فوافق على ذلك أبو الآلهة (أنشار)

ولكن لما كان منح (مردوخ) تلك السلطة خارج صلاحياته الإلهية، اقتضى الأمر دعوة الآلهة إلى عقد مجلس شورى، ولما أنتظم عقدهم قبل أحدهم الآخر، وقبل أن يتشاوروا في الأمر جلسوا إلى وليمة عامرة، أكلوا فيها وشربوا، فذهب عنهم خوفهم وانشرحت صدورهم بتأثير ما احتسوه من خمر جيد، وبعد أن فرغوا من الوليمة أقاموا منصة (لمردوخ) فجلس عليها هذا الإله الشاب قدام آبائه وأجداده ليتسلم منهم السلطة، فقد أنعقد إجماعهم على نقل سلطانهم وزعامتهم إليه، وفوضوه تقدير المصائر والأقدار، وأعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان (أنو) وصارت إرادته لا ترد ولا تتبدل وتوجوه ملكا عليهم وعلى جميع الكون، ولكي يطمأن الآلهة من أن مردوخ حصل على هذه السلطة المطلقة وضعوا في وسطهم رداء، ولما أن فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء.

وبكلمة أخرى نطق بها عاد الرداء، ولما أن تحقق الإله من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا له قائلين (حقا أن مردوخ ملك!) وقدموا له الخضوع والولاء بصفته ملكهم وقلدوه شارات (الملوكية وهي) الصولجان والتاج والجلباب كما قلدوه السلاح الذي لا يقهر وحرضوه على قتال (تيامة) فأخذ الأهبة للنزال الرهيب وصنع لذلك قوسا وسهما وكنانة وأمسك هراوة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق أمامه، وأحاط جسمه بنور وهاج، وهيأ شبكة فحملتها له الرياح الأربعة وأهاج عواصف الأمطار وركب مركبته (العاصفة الرهيبة) التي تجرها أربعة مخلوقات مخيفة هي (المدمر) و (القاسي) و (المحطم) و (الطائر) وكان يلبس درعا من الزرد ولما أن أقترب من جموع (تيامة) بقيادة (كنكو) صعقت من جلال ألوهيته المرعبة وأسلحته الفتاكة، فهربت، ولكن تيامة ثبتت أمامه وأخذت تقذفه بالسباب والشتائم، ولما أن تقدمت لمبارزته نشر شبكته

فأصداها بها ولما فتحت فاها لابتلاعه ساق في فمها الريح الشريرة فمنعها من أطباق شفتيها وسلط عليها الرياح فانتفخ جسدها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاغر فأصاب قلبها وقضى عليها ووقف على جثتها منتصرا.

ولما رأى بقية أتباعها من الآلهة نتيجة النزال هموا بالهروب ولكن (مردوخ) لم يدع أحدا منهم يفلت حيث أسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها (كنكو) لوح الأقدار، وختمه بختمه وعلقه على صدره، ثم رجع إلى جثة (تيامة) ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع أوردة دمها وجعل الريح الشمالية تحمل دمها إلى الجهات الجنوبية النائية، ثم شطر جثتها الضخمة شطرين خلق منهما الكون، إذ جعل من نصفها الأعلى السماء ومن نصفها الأسفل خلق الأرض، وعين للآلهة العظام وعلى رأسهم (أنو) و (أنليل) و (أيا) الأجزاء التي يحكمونها من الكون، ولما تم ّ ذلك لمردوخ ارتأى أن يوجد مخلوقا سمي بالإنسان، من أجل أن يخدم الآلهة، وأعلن عن عزمه إلى أبيه (أيا) فحبذ له ذلك وأشار عليه أن يضحي أحد الآلهة لذلك الغرض، فقرر الآلهة في مجمعهم أن يكون الإله المضحي (كنكو) لأنه هو الذي حرض (تيامة) على محاربة الآلهة، فأمسك به (مردوخ) وجاء به إلى (أيا) فذبحه وخلق من دمه الإنسان.

وفرض (أيا) على هذا الإنسان خدمة الآلهة ليريحها من العناء والتعب وقسم (مردوخ) من بعد ذلك مجموعة الآلهة المائة إلى مجموعتين، مجموعة للسماء وأخرى للأرض، وعرفانا بفضل (مردوخ) وبطولته في إنقاذ الآلهة من الهلاك، عمل آله (الآنوناكي) طول عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه، فأقاموا معبده العظيم (أي – ساكلا) مع برجه في مدينة بابل بعد أن أسسوها وخصصوا في هذا المعبد مزارات لأنليل وأيا، وبعد أن تمّ ذلك أجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ورتلّ الآلهة بمديح (مردوخ) وتمجيده وتنازلوا عن

أسمائهم وصفاتهم، فصار لهم خمسون أسما، وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا أنه كان يرتل تمجيدا لمردوخ في عيد رأس السنة .

أن أسطورة (الإينوما إيليش) – قصيدة التكوين والخلق البابلية، تلك القصيدة التي تمتاز بالشمولية وهي التي تتألف من حوالي 1100 سطرا تمّ تجميع نصوصها كلها والتي يغلب عليها فكرة تمجيد وارتقاء الإله (مردوخ) تتكون من حوالي ستين نسخة لأجزاء منها تبدو مختلفة جزئيا.



وكما يثبت ذلك الباحث (ج. سـميثg. smith) في المقالـة التـي نشرهـا في الـديلي تلغراف بتـاريخ 14/ آذار/ 1875، بعـد الكشـف عنهـا مـن قبـل بعثـة الآثـار التـي كانـت متواجدة آنذاك في العراق، تكاملت أجزائها وثبتت المعلومات النهائية عنها في العـام 1966 كما تمت ترجمتها إلى العديد من لغات العالم.

وكما يوضـح (أندريـه بـارو- andre parrot) فـأن ترجمتهـا إلى الفرنسـية تمـت في مطلع عام 1935، وتعتبر أحـدث ترجمـة لهـا حـدثت في العـام 1989 وتـم خلالهـا تقـديم معلومات أخـرى وافيـة وجديـدة، وكـذلك الإشـارة إلى بعـض الأبحـاث التـي تناولتهـا، تـم اكتشاف أجزائها في ثلاثة مناطق من أرض العراق، وهي (كيش - سيبار - سلطان تبه)

وفي فترة (الملك سنحاريب) تمّ إعادة كتابتها لتناسب وضع الدولة الآشـورية حيـث رفع اسم (مردوخ) منهـا ووضـع اسـم (آشـور)، هـذه القصـيدة الأسـطورية الطويلـة تمـت كتابتها من قبل مجموعة من الكتاب والمفكرين ورجال الـدين، فريـق مكلـف في التـأليف الجماعي على ضوء مخطط يسبق التأليف وتـمّ تسـجيل نصوصـها عـلى الألـواح الفخاريـة باللغتين السومرية والأكادية، مجموعة الكُتاب، أو الكاتـب المنفـرد في تـدوينها أنجـز تلـك الأسطورة والتي كان يهدف من خلالها إلى تمجيـد الإلـه (مـردوخ) باعتبـاره البطـل الوحيـد الذي أنقذهم.

وبكل ذكاء وعبقرية يعود الفضل له في تحقيق الانتصار الذي أنعكـس بـدوره عـلى قضية الخلق والتكوين للكون والبشر، هو الذي وضع كل شيء كـما مقـدر لـه، ثـم حسـب مهماته أصبح إلها وسيدا لجميـع الآلهـة ومـن ثـم للـبشر واسـتحق عـلى أفعالـه التمجيـد وحصل على جميع الألقاب الإلهيـة المعـبرة عنـه وعـن فعلـه الكبـير، وهـي كـما قـدمنّا في الملخص.

ويمكن الإشارة إلى التسلسل الدرامي في تـأليف الأسـطورة، في الفصـل الأول، تعـرض حالة العماء البدئي ومن ثم يتطور الفعل الدرامي بالكشف عـن ولادة الآلهـة، وبعـد ذلـك نشوب التعارض والمواجهة بينها وتدخل الإله (أيا)، في الفصل الثاني ظهـر بـوادر الاسـتعداد للمعركة، ثم نجد الآلهة الذين يتهدد مصيرهم الخطر يبحثون عن منقذ، كما توّجه الأنظار نحو الإله المخلص (مردوخ)

وفي الفصل الثالث (الإله مردوخ) يظهر ويحصل على جميع الصلاحيات بتخويل من الآلهة وكما يتمنى، وفي الفصل الرابع تحصل المعركة الكبيرة ومن بعدها يتقرر النصر وعلى أثر ذلك الإله مردوخ يبدأ التكوين والترتيـب والتنظـيم، في الفصـل الخـامس الإلـه مـردوخ يتابع مهمته في تنظيم الكون ويحصل على اعتراف بمبايعته من قبل جميع الآلهة.



وعلى أثر ذلك يبدأ بمشروع بناء بابل وخلق البشر لها، ثم إقامة المدينة وظهورها إلى الوجود، وبعد ذلك يتم تنصيبه الإله الأوحد القادر على فعل كل شيء، وفي الفصل السابع تعديد ألقابه وأسماء الإله (مردوخ) الخمسين ثم التمجيد المطلق له.

مع ملحمة الخليقة البابلية، وما نشرته من أفكار كان من أبرزها إنهاء سلطة الأم (تيامة) وتأكيد انتصار رمز الأب في الأسطورة (مردوخ) الذي يتحول إلى رمز وقوة كبير عندما يتم اختياره ليصبح صاحب القوة والكلمة لمجمع الآلهة الذي يتكون من سبعة آلهة لهم السطوة والقرار، ولأنه هو الأقوى وصانع النصر الكبير فهو الإله المتفرد القائد، أن جميع الأساطير السومرية وما تبعها من أساطير بابلية تهدف إلى تأكيد أنها نسجت أحداثها من أجل الإنسان لأنه خلق أصلا لخدمة تلك الآلهة المتعددة المهمات.

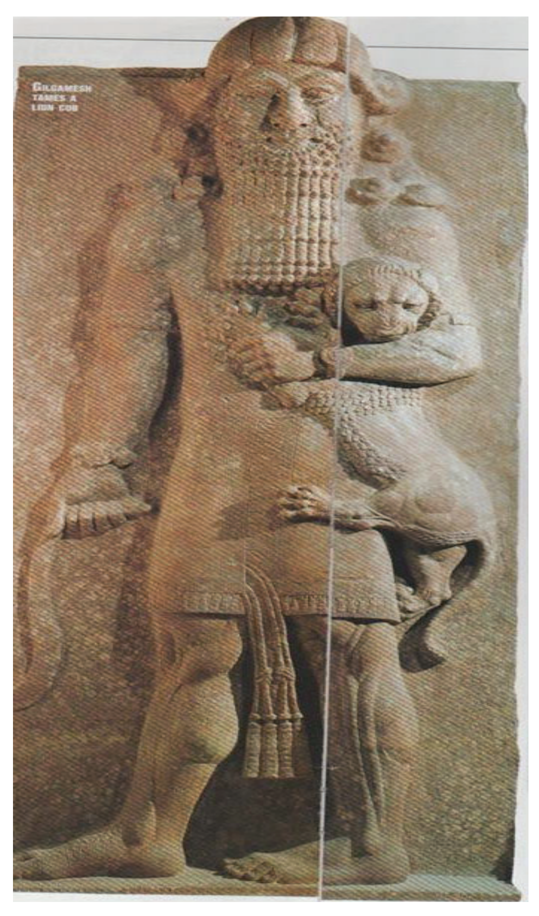
وكما ينشر تلك الحقيقة في المسرحية الإغريقية (أنتيجونا) الكاتب (سوفوكليس) فهو يرى أن الأشياء الهائلة الكثيرة في الكون ثابتة، لكن لاشيء غاية في موازاة ذلك الهول كوجود الإنسان، فهو الذي يجوب البحار المخيفة المظلمة، في عاصفة الجنوب الشتائي، ويقتحم بشجاعة الموج المتلاطم، والأرض أقدس مقدسات الأرض أقدس مقدسات الآلهة التي لا تنضب ولا تكل ولا تملّ وكذلك هو الذي يحرث ويقلب جوف الأرض سنة تلو سنة، يحرثها على الخيلّ وبالمحراث، لقد تمّ تحوير تلك الأسطورة عن النص السومري لكي تتلاءم مع حاجات المجتمع البابلي، تلك الأسطورة التي كانت تمثل أمام أعلى سلطة بابلية (الملك الحاكم)، وكما يرى (– طه باقر –) أن عملية الخلق لم تتم بهدوء بل بعد صراع وكفاح ونزاع بين الآلهة، لقد أعطت الأسطورة للإله (مردوخ) أفضل مكانة دينية في بلاد ما بين النهرين، وهو يمثل برأي (موتكارت) قيما أخلاقية

وصلت لمرحلة أعلى مما مثلته الديانات السابقة، وفي تفسير مهم لتلك الأسطورة يعتقد عالم النفس البارز (أريك فروم) يبدو فعل (مردوخ) قد أدى إلى ظهور واضح وقوي لسلطة الرجل وقلل من قيمة الإنتاج الطبيعية التي عرفت بها المرأة، لقد منح الرجل في تلك المواجهة سلطته التي تعتمد على التمكن الواضح من الإنتاج بقوة الفكر الذي يسير الكون، وتلك حالة من حالات تطور الوضع الإنساني الحضاري، كما وضع فكرة ظهور مفهوم الأب المقدس وتسلسل الرتب الدينية السلطوية والمهام في المجتمع، إضافة إلى تأكيد تعدد الآلهة وتفرد إله واحد في قيادة الكون...

إن الأسطورة السومرية وبشكل عام تلك التي خلقتها حضارة (بلاد ما بين النهرين، تمثل نظام فكري متكامل، نجح في استيعاب قلق الإنسان الوجودي وتوّقه الأبدي لكشف العيوب التي تبدو في محيطه، لقد نجحت في رسم لوحة متكاملة للوجود، وهي تثبت بجدارة وبشكل عقلاني أن فكرة الخلق ما هي إلا عملية شاملة ودقيقة لاستخلاص النظام من حالة فوضى كبيرة موجودة من العدم تحيط به وتحاول وضعه في مدار المتاهة، تلك كانت نماذج تم عرضها وفق سياق يقدم حالة استشارية في المعرفة وفهم تكوين البعض من تلك الاساطير التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين، وكان يتم استدعائها من قبل الحكام في المناسبات الصعبة والنادرة، وهناك تجسيد للتصور البدائي من الديمقراطية، بالرغم من ان وضع مسمى الديمقراطية – هذه الكلمة في تلك العصور – ربما حالة من التعبير الخطأ، هناك الكثير من النصوص الموجودة الآن لمن يريد دراسة ذلك التوجه الذي ظهر في سومر، خاصة في فترة دول المدن التي حكمت من خلال مؤسسات جماعية، وبقدر ما نحن نعتقد بشكل إيجابي يمكن أن نعود إلى الماضي وسنرى بشكل حاسم لاشيء سوى حكام أو ملوك يرتبط مصيرهم

وقرارهم إلى الآلهة، بالصدفة أطلع العالم على وثيقة مهمة قدمت لنا قائمة من الملوك منذ بدايات الحكم الملكي قبل القرن الثامن عشر قبل الميلاد في سومر، ملك مشهور جمع تلك الأسماء ودونها في لوح في خمسة عشر نصا مختلفا وتم نشرها من قبل العالم الأمريكي " ثيودور جاكوبسين – thorkild jacobsen" وذلك في العام 1939 على الرغم من تحطم بعض تلك الألواح، تلك الوثيقة كانت مهمة ليس لأنها ترشدنا إلى قائمة من أسماء الملوك بل هي تلخص تقاليد الحياة في سومر القديمة جدا من خلال إطار زمني مهم وممتاز وذاك الذي يحلل ويوضح أغلب الأساطير العظيمة التي ظهرت في الفترة السومرية وخاصة الوقائع البطولية منها، السومريون كما هي الحال عند اليونان القديمة من بعدهم وكذلك لدى الهندوس والألمان والفراعنة، كل أولئك كان لهم مدى وأصل لعمر البطولة والتراجيديا، كانوا يصفون الأبطال في سومر على أنهم نصف آلهة، والملوك على أنهم أعلى مرتبة من البشر، وهم الذين وقفوا على التعليمات والتوجيهات السماوية التي تصدرها الآلهة وتمكنوا من آداء أدوار البطولة المميزة، وهكذا ندرك الآن وبعد نشر تلك الوثيقة ان هؤلاء الملوك الأبطال هم نصف أسطوريون ولذلك نعود من خلال مفردات سيرتهم لدراسة مفردات التاريخ والربط بين تلك الأحداث حتى نصل الى تصور افضل، وطبقا للقائمة التي أعدها الملك، كانت الإشارة الى الملوكية أولا على أنها حصلت وفق رغبة السماء وكانت البداية في مدينة " أريدو " – وهي إحدى المدن المهمة ضمن خريطة إمبراطورية " سومر القديمة " التي ظهرت في جنوب العراق وذلك قبل 5 آلاف سنة قبل الميلاد وحكم فيها عدة ملوك منهم " ديموزي " وملك آخر ظهر في مدينة " سيبار – sippar" وملك ثالث ظهر في مدينة " شروباك- shuruppak" وهذه الأرقام المدهشة نتوقف أمامها باستغراب فهي تشبه أجيال " آدم " المتتابعة التي

تحدثت عنها التوراة ليس لها أهمية مخفية ولكنها تؤكد أعتقاد بسيط وواسع الإنتشار عن عصر ذهبي حيث عاش الرجال فترات حياة أطول كثيرا - ليست عادية.



يمتلك القوة الذهنية والجسدية الخارقة، أحد الألواح مضمونه يتطابق مع ماورد في التوراة – العهد القديم، اتوقف عند جملة وردت وهي تأتي بعد أسم الملك الذي حكم شورباك ثم يتوقف السرد ويغلق الموضوع – وهذا أهم ما ورد في اللوح المذكور الذي تعود أهميته لوجود قائمة باسماء الملوك، الباحث هنا يجد

نفسه مرغما بشكل لا يقاوم لمقاطعة القصة ويذهب لتفحص إحدى أهم المشاكل ذات الجدل المستمر والساحر في علم الآثار الخاص بحضارة بلاد ما بين النهرين - اقصد هنا علم الأساطير ومشكلة الفيضان العظيم الذي حصل وتضمنت الألواح السومرية معلومات كثيرة عنه..

الطوفان العظيم

في العام 1872 أعلن عالم الآشوريات البريطاني " جورج سميث عن اكتشافه لأعجوبة مدهشة - وجد بين الألواح التي تم العثور عليها في مكتبة آشور بانيبال- ashur banipal " الموجودة في المتحف البريطاني حاليا - ذاك اللوح الذي أشار إليه والذي وردت فيه معلومات عن حساب الطوفان على نحو مدهش ومطابق جدا لما ذكر في التوراة - سفر التكوين - 22، القصة تم اكتشافها وصارت في متناول اليد وهي تدون عن حادثة حصلت من مدة طويلة، كتب مضمونها في إثنا عشر لوحا - المعروف " بملحمة جلجامش " - التي دار التمعن والحديث عن تفاصيلها المدهشة وحول الشخصية المحورية فيها - الملك السومري - ملك أوروك - الذي أنطلق في رحلة غريبة وشاقة للبحث عن نبات الخلود - ويشار إليه على انه قابل في نهاية رحلته- اتونابشتم - الرجل الوحيد الذي كان قد مُنح حياة أبدية- الأبن الذي كتب تلك القائمة هو ملك شروباك Ubar Tutu " هو يظهر في بعض تفاصيل التاريخ الغير محدد عندما كانت شروباك مدينة قديمة، الآلهة قررت إرسال طوفان شديد ليحطم الجنس البشري الشرير لكن الرب " آيا " آسف لحال " اتونابشتم " فتكلم معه سرا من خلال الحائط الرقيق - حائط كوخه المصنوع من القصب، نصحه ان يمزق بيته ويترك حقله، وأن يعمل على بناء .



سفينة اتونابشتم – فيما بعد سميت سفينة النبي " نوح " –

قبل انطلاقها في تفاصيل الطوفان

سفينة لم يحدد حجمها وطلب منه ان يحمل معه من كل نوع من النباتات وكذلك من كل مخلوق زوجين ذكر وأنثى ومن البشر المخلصين له، وأن يهيء نفسه لأسوأ الظروف الطوفان قادم، وفي اليوم التالي بدأ العمل على السفينة الكبيرة وبزمن قريب تمكن من صنعها، كانت تبدو كبيرة مزينة ضخمة التكوين وكانت جاهزة لاستقبال البشر والحيوانات وفيها مخزن لأنواع النباتات وقد طلاها من الداخل بالقار السميك وحمل فيها أيضا قطع من الذهب والفضة والألماز، وكذلك عائلة اتونابشتم والعديد من العمال الذين ساعدوه في بناء

السفينة، وعندما صار الطقس مخيف جدا جاء اتونابشتم ودخل السفينة وأغلق الباب بمزلاج قوي وحالما شع الوميض الأول للصباح صعدت إلى الأفق غيمة سوداء، وأعلن للذين معه ان العاصفة الأكثر فظاعة قد بدأت وزاد الهيجان واشتدت الريح وانهمر المطر مصحوبا بالبرق الشديد المخيف، اتونابشتم المكلف من قبل الآلهة شهد كل شيء، رأى الخنادق وقد بدأت تمتلأ بالمياه من الفيضان رأى الأكواخ والبيوت يجرفها سيل مياه الفيضان، رأى السهول وقد تحولت الى أنهار وبحيرات والجبال العظيمة المرتفعة جدا صارت تغرق وتختفي، غطى الظلام الأرض وأستمر العصف والبرق وزاد بشكل رهيب إنهمار المياه من كل صوب، حتى الآلهة كانت مذعورة وأسف بعضها لما يحصل لكنها كانت متضامنة فيما بينها ولا مجال للتردد:

أنكمشت الآلهة وصارت تنبح كالكلاب،

وجثم الخطر من حولها وهي ترى،

بعض الآلهة صرخت مثل امرأة تواجه الفناء،

قالت: كيف ولدت هذه الحرب....؟،

كيف حطم الطوفان شعبي...؟،

كيف سار الموت فوق جثث الذين ولدتهم الأرض..؟،

آلهة الآنانوكي بكت مع بقية الآلهة،

كل تلك الرموز العظيمة المسيطرة على الكون جلست منحنية الظهر وتبكي،

ستة أيام وستة ليال،

والريح تنفخ في كل إتجاه، أنهمر الفيض وظل الخوف يتصاعد،

غمر ماء الفيض كل شيء،

تعاهدت العاصفة والفيضان وفي قلبهما سفينة اتونابشتم،

في اليوم السابع على كل حال انحسرت العاصفة، قال اتونابشتم:

عندما فتحت النافذة في السفينة سقط على وجهي مصدر الضوء،

شاهدت صفحة البحر قد انفتحت هادئة

وتيقنت ان الصمت يحيط بكل شيء...!

كل البشرية كانت قادمة نحو يوم مهم...!

هبطت السفينة على الجبل " نصير " المسمى فيما بعد " الجودي أو آراات "، لكن الأرض كانت غير مرئية إضافة إلى الصخرة التي حملت صوامع السفينة، بعد أسبوع أرسل " أتونابشتم " حمامة لكنها رجعت ثم بعث حمامة أخرى وأيضا رجعت، ثم بعث غراب وعندما وجد الغراب أرضا انحسرت عنها المياه لم يرجع، أتونابشتم صعد على قمة الجبل وقدم تضحية من القصب الحلو والأرز ونبات الآس:

تشممت الآلهة رائحة الطعام،

كانت رائحة طيبة زكية،

تجمعت الآلهة مثل الذباب حول الطعام،

وخاصة الآلهة عشتار،

هي بشكل خاص ابتهجت واقتربت من الآله أنليل الذي طلب الطوفان،

والذي احيطت خططه، كان قد امتلأ بالغضب والغيض،

ووضع اللائمة على الأله " آيا "،

لكن الاله " آيا " أنجز عمله بشكل جيد،

هو يرد على سببه الخاص،

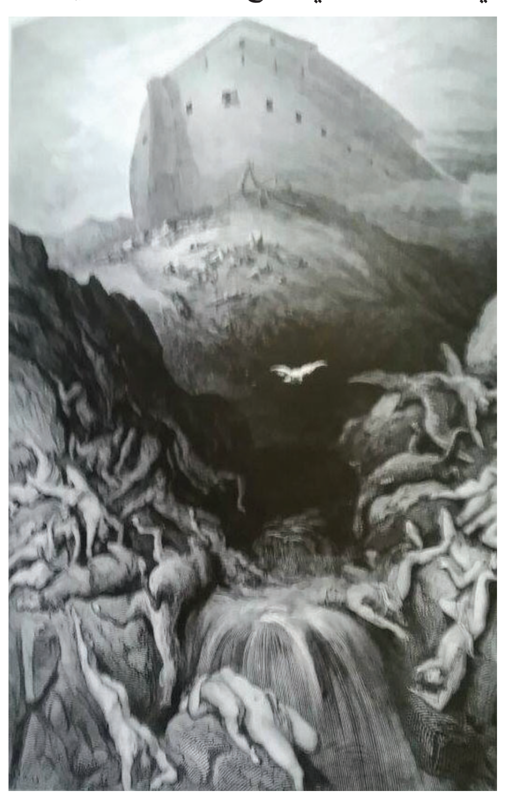
وموقف البشرية الذي قلب خطط أنليل،

هو دخل السفينة وبارك أنتصار أوتونابشتم وزوجته قائلا:

حتى هذه اللحظة أتونابشتم مجرد رجل..!، ولكن الآن أوتونابشتم وزوجته سيكونان مثلنا آلهة..!

نشر جورج سميث هذه القصة في الصحف ثم اشتهرت، كما ان نصوص مسمارية جديدة قد تم نشر ترجمتها وصارت متوفرة، وظهرت عدة تفسيرات وإضافات أخرى عن إسطورة الفيضان، أقل النصوص التي لم تكن كاملة، صارتفيما بعد كاملة أو تم تعديلها في مجمل المضمون وهي مازالت تبحث عن الإضافات، مثلا ÷ناك أقدم نسخة من ملحمة جلجامش التي كتبت في نينوى في القرن السابع قبل الميلاد، تم الكشف عن اسم البطل في نص كتب في مدينة سومر - في مدينة " نفر " يعود تاريخه حوالي 1700 قبل الميلاد - كان يدعى Ziusudra"بينما في الملحمة البابلية في التاريخ الثانيكان يسمى Atrahasis وهو مشهور بالحكمة ومن المحتمل ان يكون الاسم الثاني له كما شاع في الكثير من الكتب والألواح " اتونابشتم "، لكن تكرار تداول القصة ومرور الزمن عليها ربما أدخل عليها بعض التغييرات والإضافات البسيطة الأخرى، التي قدمت إيضاحات أو تفسيرات أو شرح معنى معين، أو تعميق المعنى او الهدف - ولكن

يظل الموضوع يدور دائما حول فيضان عملاق هائل غطى كل الأرض وأزال كل المباني والأكواخ وبسببه مات كل البشر ماعدا الذين صعدوا الى ظهر سفينة اتونابشتم وهم خليط من البشر والحيوانات والنباتات، نجد ثمة تطابق وتشابه كبيرين بين القصة السومرية والقصة التي وردت في التوراة علاوة على ذلك من الممكن ان أحبار اليهودخلال اقامتهم في بابل أطلعوا على تلك النصوص المكتوبة بالألواح السومرية واستعاروا القصة من السومريون وضموها لكتاب التوراة الذي كتب تحت اسوار بابل كما يقول العالم العراقي – طه باقر – في كتابه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.



الطوفان وسفينة اتونابشتم – صورة متخيلة

وهذا يؤيده الكثير من علماء المثيولوجيا – السؤال الذي اطلقوه: هل هناك دليل على وجود مثل هذه الكارثة الكونية حصلت في بلاد – غير بلاد ما بين النهرين...؟ حتى الآن هناك الكثير من الإبداعات السومرية مغمورة تحت الطين والرمال بسبب طمر استمر لفترة طويلة، ربما تمكن العلم الحديث وجهود البحث على فتح اسرار ثلاثة مواقع في بلاد ما بين النهرين كما هي الحال في أور وكيش وشروباك في أور، هناك سبعة مواقع تم تحديدها من قبل السير " ليونارد ويلي – Leonard Woolly" وذلك بين الأعوام 1929-1934 كشف في تلك المواقع المختارة عن إبداعات مهمة ومختلفة، الأعمق والأهم منها وجدت بين طبقتين في فترة " تل العبيد " – أبقى ويلي دائما التفسير مغلقا وبدون أسباب مقنعة وربط ذلك بالحدث التوراتي المتعلق بالفيضان، بينما وردت عدة تعليلات من علماء ورجال بحث آخرون، في خضم هذا التناقض الذي تفرضه اكتشافات الآثار التي تم العثور عليها في " أور " والتي يعود تاريخها حوالي 2800-2600 قبل الميلاد، يضاف إلى ذلك عدة إبداعات اكتشفت في كيش، أما أغرب الاكتشافات وصول العلماء إلى تحديد طبقة غريبة وجدت في مدينة – شورباك – يعود تاريخها إلى 2900- قبل الميلاد، في تلك الابداعات الطينية تم تحديد بعض النظريات الجيوفيزيائية الصعبة، ورغم دراسة متتابعة من العلماء لكن لا يوجد دليل تم تقديمه عن حالة تلك الأراضي قبل حالة الغمر الواسع الذي أنتشر وغطى مئات آلآف الكيلومترات المربعة في بلاد ما بين النهرين وعموم منطقة الشرق الأدنى، التقارير خلصت إلى تحديد عمر الغمر واحتمالات الفيضانات المتكررة من خلال نهري دجلة والفرات وفروعهما.



جبل الجودي – جبل آرارات – الذي رست السفية عنده بعد نهاية الطوفان

كما لاحظ العلماء على سبيل المثال من موقع في أريدو وجود طمر في مناطق ضحلة في منطقة تمتد على مساحة 20 كيلومترا في مدينة أور وعندما تم التنقيب أسفل التربة وجدها العلماء عذراء لم تتعرض إلى أحداث فيضان كبير، لكن إذا لم يكن الطوفان قد حصل في بلاد ما بين النهرين أو في مكان آخر قد حصل فيضان كبير وكارثي كالذي تم وصفه في كتاب " التوراة " وهذا يطلق

السؤال الصعب " على ماذا اعتمدت إسطورة سومر الخاصة بالطوفان..؟" في سياق البحث عن تفاصيل هذا الموضوع قدم العلماء عدة فرضيات ومنها تتمتع برغبة قوية تطرح وجهات نظر مزعومة مختلقة تريد إلغاء تلك الفكرة وأيضا عدم ربط الحاضر بالماضي، هنا أنا ألتقط الحديث أو التحليل العلمي الذي يرتبط بسقوط الأمطار الغزيرة التي حدثت في فترات من تاريخ بلاد ما بين النهرين، على أية حال لاشيء من تلك النظريات يقود إلى قناعة مقنعة والسبب في ذلك بسيط جدا – لأنها تتعارض تماما مع الذي تم تدوينه في النصوص المسمارية التي تتحدث عن الطوفان وهو في واقع تلك الألواح المسمارية السومرية لم يكن حادثا بسيطا أو طبيعيا، وفي مضمون تلك الألواح ندرك ان المعنى يريد القول بوضوح ان الألهة أرادت التخلص في تلك الحقبة من البشرية لفسادها وعصيانها وعدم تطبيقها الأوامر والتعاليم المقدسة، ولكن علماء من اختصاصات مختلفة قدموا السؤال الصعب الآخر " لماذا كانت الآلهة تريد ان تفعل ذلك..؟" ورغم التفسيرات المتناقضة الكثيرة تظل ملحمة جلجامش وقصة الطوفان العظيم – فيضان سومر – تصطدم كل الآراء التي تريد التغيير أو التبديل للحقائق المثبتة، كما أن نشر النصوص المتعلقة " ب اتراحسيس " قدمت لنا فكرة عن عمق ودقة هذه الملحمة الرائعة تبدأ بخلق البشر الذكور والنساء والتي تخفف عن كاهل الآلهة وتساهم في تنفيذ توجيهاتها وتقيم الدليل على وجود سيطرة " الأنانوكي " على الكون وتصور عملهم المضني على الأرض:

كل يأتي بشكل حسن في أول الأمر،

لكن مائة وأثنا عشر سنة،

ماعبرت لحد الآن،

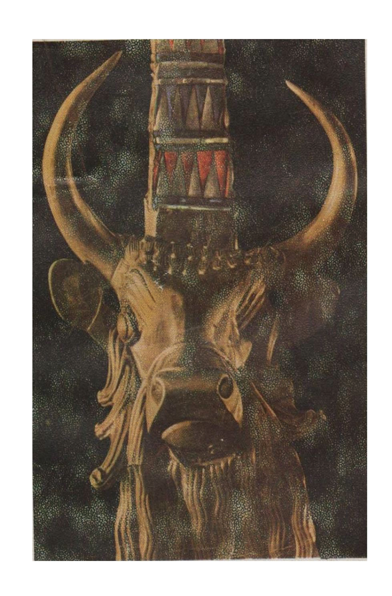
عندما الأرض توسعت والبشر تضاعفوا،

الأرض كانت هائجة هي مثل ثور تصيح،

الآلهة أصبحت مكتئبة من ذلك الضجيج،

ضجيج قبيح متعاظم،

وكما تعبر القصيدة السومرية ان الآلهة لكي تدفع هذا الحشد الصاخب إلى الهدوء، تطلق عنان نشرها لوباء يليه الجفاف الخانق الفظيع، هل تلك الأحداث تحصل دون جدوى، الرجال والنساء انخرطوا في نحيب واعدادهم مع حرق الزمن يتضاعف وكانت المجاعة القاسية تجبرهم حتى يندفعوا لأكل أطفالهم وسط المسغبة، بعد ذلك تصدر الآلهة القرار بحدوث الطوفان، لكن الرب " آيا " يطلق تحذيره ويقرر حماية" اتراحاسيس " الحكيم جدا، ان الفيضان نفسه يوصف في غضون نفس الكلمات كما ظهر في ملحمة جلجامش، لكن نهاية الملحمة فيها الكثير مما يستحق الانتباه، يظهر " آيا " وهو يدعو للعقم والفناء والعزوبية وعدم إنجاب الأطفال وذلك حسب تقديره هو العلاج النافع ضد الفائض من البشر وهو يوجه بوضوح أمره إلى " أم الآلهة – Mami /Nintu" يقول لها:



سيدة الولادة،

أنتبهب إلى الأمر الجلل،

لابد من تحديد مصير البشر،

اتخذي قرارك وطبقيه على البشر،

اجعلي النساء لا ينجبن،

لتكن أرحامهن قاحلة،

أخلقي بين البشر شيطانا،

مكنيه من أن يقبض روح الطفل عند الولادة،

دعيه يموت في حضن أمه،

أخلقي كاهنات يابسات القلوب،

اجعليهن واجعليهم يقطعون الصلة بين البشر والحياة...

هذه هي التعاليم التي وردت في ذلك اللوح المسماري السومري والمضمون يقود إلى إلى تفسير خوف الآلهة من زيادة أعداد البشر وضرورة السيطرة على زيادة السكان، ولذلك لابد من إرسال الكوارث ومنها الفيضان وذاك هو الحل النهائي، أما بالنسبة للفيضان الذي حصل في سومر وجاء ذكره في قائمة الملوك - هو حدث مركزي مهم ويمثل مفتاح القوة المنتقلة من مدينة إلى أخرى - ذلك الحادث المحدد زمنيا والمهم في التكوين ينشر المضمون الذي يماثل رسالة هامة موجهة إلى البشر، لايمكن ان يكون ثمة حدث مختلف من قبل كُتاب مدينة " شروباك " تلك البلاد التي شهدت ثلاث كوارث آنية حول العام 2900 قبل الميلاد، منها هزيمة عسكرية وغمر حاد ومن المحتمل إنفجار سكاني كبير معضلة كبرى، هذه الحالة كانت تدمج بالحدث الأبرز المرتبط بالطوفان العظيم، لكن هاتين الحكايتين المرتبطتين بالأسطورة، ومنها إشارات إلى إطلاق كاهنات لهن القوة لحرمان الأمهات من حمل الأطفال وجعل الأرحام مصابة بالعقم، ذلك التوجيه الصادر عن الآلهة لن يتوقف عن إثارة السحر والفضول..في الوثائق او الالواح السومرية الكثيرة يرد اثبات الطوفان على النحو الذي يصور الدمار الكبير الذي لحق بمدينة - شروباك - وتلك كانت بالنسبة للعلماء هي اول اشارة دقيقة تجسد الحدث البالغ الاثر الجسيم في التدمير وهلاك البشر ومحو البيوت والبنايات وزوال المدينة بشكل تام، وقد اعتبر ذاك الحد حد فاصلا بين فترتين في تاريخ بلاد ما بين النهرين اي قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان، وهو الحدث المركزي والمهم في تاريخ البلاد القديم قبل التاريخ اسئلة كثيرة طرحت تتعلق بتاريخ حدوث الطوفان وهل حصل الطوفان مرة واحدة ام شهدت ارض مابين النهرين عدة طوفانات مدمرة لم يهتدي العلماء الا الى طوفان واحد وكبير وربما فقط الذي ورد ذكره في الملحمة الخالدة ملحمة - جلجامش - وبعض القصص

او الاناشيد التي كشـفت عنهـا بعـض الالـواح السـومرية، وقـد رجحـت اغلـب الدراسـات حدوث طوفان كبير ذاك الذي ورد ذكره في الملحمة وبقية الالواح السومرية وقد تـرك اثـرا بليغا في ادب بلاد سومر في الفترات التي اعقبت الطوفان، ويعود زمن حدوث الطوفـان الى الفترة التي سبقت ظهور سلالة كيش الاولى واقـرب الاحـتمالات تقـول ان التـاريخ الـدقيق لحصول الطوفان هو مابين دور جمدت نصر وبين فترة عصر السلالات الاول ولعل الاثبـات يعود الى اكتشاف العلماء طبقة طينية في جملة من المواقع تثبت ذلك في مدن مثـل كـيش والوركاء وشروباك- تل فارة – ولجش وذاك استنادا كما سبق الاشارة اليه من خلال ابحـاث العالم – وولي – عند التنقيب في مدينة اور حيث وجـد اشـارات الى ترسـبات طينيـة تؤكـد حصول الطوفان وبشكل دقيق عند المقبرة الملكية، وكما يرى العالم العراقـي – طـه بـاقر – ان ثمة اجماعا لدى الباحثين والعلماء الاثـاريين بـأن خـبر الطوفـان الـوارد في مـآثر حضـارة وادي الرافدين وارد في الكتب المقدسـة ولا سـيما كتـاب التـوراة هـو ذات الطوفـان الـذي حصل في بلاد ما بين النهرين وايضا يتم الاستناد الى نصوص ملحمة جلجـامش واشـارتها الى الطوفان وتم تحديد عصور ما قبل التاريخ البعيدة وعـلى وجـه التحديـد الـعصر الجليـدي الرابع حيث كان يقابل هذا العصر – عصر ممطر في اقطار الشرق الادنى..

خلق سلالة الإنسان السوبرمان

بعد حدوث الطوفان قال الملك السومري ودون في قائمته: ان الملوكية مـرة أخرى قد هبطت من السماء، ولم يخلقها البشر وقد تقرر ان تكون في أرض الجنة وتلك الأرض هي في مدينة " كيش " – وكانـت المدينـة تمثـل مدينـة مهمـة تمتـد جذورها إلى زمن قديم وتمتد على رقعة واسـعة وهـي لهـا حـدود 16 كيلـو مـترا بإتجاه الشرق من بابل – السلالة الأولى التي حكمت كيش تشمل ثلاثة وعشرون

عهدا سياسيا، كل عهد منها امتد إلى ألف سنة، وبالرغم من المبالغة في ذلك كما نرى حاليا ولكنهم دونوا تلك المعلومات، إذا نحذف اسم ملكا واحدا لايمكن ان يقرأ اسمه من قبل كاتب القائمة الموجودة في اللوح السومري آنف الذكر - نلاحظ ذلك أثنا وعشرون اسما أو على شكل ألقاب مثل " دُب – حَمل – أو كلب – عقرب " وستة منهم لهم أسماء سومرية وأربعة لهم اسماء مجهولة في الأصل – هذا يقدم فكرة لنا عن الخليط الموجود في العناصر العرقية في جنوب العراق والتي تواجدت هناك في تاريخ مبكر، كما نرى سيطرة الساميون ضمن حدود مدينة " كيش "، تلك من علامات تأكيد حالة التنافس الواضح بين السومريون والساميون ضمن حالة المدينة أو الدولة – أو هذه السلالة، ثمة سبب آخر يقود إلى اعتبارها تاريخية جزئية على الأقل ويجب أن تكون قد ظهرت بعد الفترة 2800 قبل الميلاد، رغم أن أحد الملوك يُعينون بشكل واضح كما ورد في الأسطورة " إيتانا Etana" الراعي الذي صعد إلى السماء، وقد نشر علماء البحث الاركيولوجي تقارير تفيد بحصولهم على ألواح بابلية وآشورية تقدم لنا معلومات وتفاصيل أكثر حول إسطورة " إيتانا " التي تنشر قصة خرافية تقترب من الاسطورة حول الثعبان والنسر " وكما نشرت ملخصا لها في الصفحات السابقة " اللذان عاشا على نفس الشجرة وساعدا بعضهم البعض كجيران جيدون، لكن النسر ذات يوم التهم أحد صغار الثعبان وعندها رحل الثعبان شاكيا إلى الآله " شمش – shamash" – هي فكرت بحيلة دفعتها إلى الأختفاء في بطن ثور ميت وعندما جاء النسر لالتهام الجثة زحفت الأفعى للأنتقام، مسكت الطير الكبير – كسر كعبه ورمته إلى أعماق الحفرة العميقة، في تلك اللحظة كان إيتانا متأكد من وجود طريقة للصعود – لم تكن لديه أطفال وكانت الغاية في نفسه الحصول على نبات الولادة الذي ينمو فقط في الجنة، هوأيضا بكى في حضرة شمش الذي رق

له ونصحه أن يقـوم بإنقـاذ الـنسر ويـربح صـداقته ويسـتعمله كعربـة للطـيران إلى السماء، عمل إيتانا بتلك النصيحة، وعقد الاتفاق مع النسر، في رحلـة الصـعود وضـع صدره على صدر النسر ووضع يديه على جوانب ريش أجنحتـه وعـلى جوانبـه وضـع ذراعيه في هذا الوضع المزعج المتعب أقلع " إيتانا " في رحلة مدهشـة وأخـذه الـنسر إلى باب الإله " آنو Anu وانليل Enlil وآيا Eaوشمش وأدد وعشتار، ثم متحركا من قبل روح المغامرة ذاهبا إلى الأعـلى وبشـكل تـدريجي إلى الطبقـات الأعـلى، هـو رأى الأرض تنكمش لتصبح بحجم شق والبحر العظيم صار بحجم سلة خبز، لكنـه عنـدما فكـر في تلـك اللحظـة ان البحـر والأرض لم يعـودا كـما كانـا في السـابق أصـبح لديـه إضطراب، صاح بقوة " ياصديقي لقد قررت عدم الصعود الى السماء " صاح ثـم حـلّ قبضـته وهـبط بشـكل رئـيسي نحـو أسـفل الأرض وطـار الـنسر نحـوه لحمايتـه مـن الارتطام بالارض، لكن نهايـة القصـة غـير واضـحة بسـبب وجـود فجـوات وكسـور في الألـواح الأخـيرة التـي تتضـمن النهايـة، لكـن ثمـة علـماء افترضـوا بـأن إيتانـا وصـل هدفه، والبعض الآخر يقرر ليس ذلك معلوما، يعتبر توثيق الملـك في وثيقتـه – اللـوح المذكور سابقا – ان سنة 1500 قبل الميلاد كانـت تمثـل سـنة مهمـة ومحتومـة لـذاك الحدث، لكن طبقا للوثيقة الملكية تلك ان الملك كان لديه ابن وريـث يـدعى " بلـيخ Balikh" وتقدم تلك الوثيقة السومرية فكرة واضحة بأن الملك الأخير للسلالة ألأولى في مدينة كيش آجا Agga" الذي هزم في المعركة من قبل الملـك الأول للسـلالة الأولى في أوروك " السلالة في النص السومري تعني رمزا للعائلة المالكـة أو مجموعـة ملـوك تعاقبوا عـلى حكـم الدولـة أو المدينـة في فـترة زمنيـة كـما ورد ذلـك في قائمـة الملـك السومري وهي تشير الى السـلالات التـي حكمـت وتعاقبـت عـلى حكـم بـلاد سـومر بشكل كامل " لكننا نعرف من خلال التوثيق السومري ذاته ان السـلالتين تـداخلتا أو

بشكل أدق توحدتا وبأن Agga في حقيقة الأمر كان معـاصرا لحكـم الملـك الخـامس الـذي ظهر في أوروك - جلجامش تـم اسـتخلاص هـذه المعلومـات مـن سـطور قصـيدة سـومرية قصيرة والتي تقول ان الملك AGGA أرسل إلى جلجامش إنذارا نهائيا يطلب فيـه استسـلام مدينة أوروك لمدينة كيش، لكن مدينة أوروك رفضت ذلـك الإنـذار النهـائي بعـد ذلـك تـم حصار المدينة، لكن عندما ظهر جلجامش على سور المدينة غمر العـدو الخـوف وفي نهايـة المواجهة الحربية صار الملك " آجا " تابعا لمدينة اوروك وملكها جلجـامش اي مدينـة كـيش بأكملها أذعنت لمدينة أوروك وكما أشار إلى ذلـك الملـك في اللـوح المـذكور، ورغـم ذلـك ان أسلاف جلجامش لم يحكموا البلاد التـي لسـومر سـيطرة تامـة عليهـا فقـط حكمـوا أوروك وكانت أسمائهم بارزة ومهمة وكانوا على التعاقب:

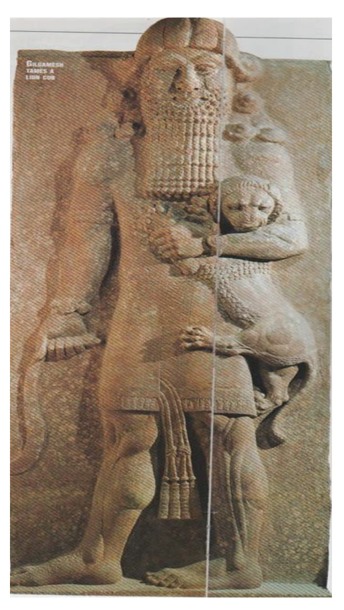
Meskiaggasher ويعتبر أبن أله الشمس Atu الذي غامر مع قواته بدخول البحـر والخروج منه مقاتلا نحو الجبال حيث هزم قوات العدو.

Enmerkar الملك الواحـد الفريـد في عصره الـذي خطـط وقـرر بنـاء اوروك وكـان عهده يوصف بالقوة والحكمة.

الملك الكاهن الراعي Lugalbanda الذي ارتفعت في عهده مكانة الـدين والحكمـة وبدأ التفتيش عن ترسيخ قيم العدل والقانون.

وأخيرا الملك المشهور في إسـطورة بـلاد مـا بـين النهـرين " Dumuzi" الـذي اعتـبره السومريون آله النبات ويوصف بأنه صائد السمك.

جلجامش ابن الكاهنة وبطل اوروك وحاكمها القـوي وصـاحب الملحمـة المشـهورة- الباحث عن الخلود..



إثنان من أولئك الملوك لهما أعمال مهمة ويُعدان من الأبطال – أنصاف الآلهـة – وأسمائهم مألوفة لدينا، بسبب نشر أربع حكايات من مثيولوجيا سومر وجدت سـليمة كما دونت في الألواح السومرية، تلك القصص كانت ملحمية وجاءت في عدة أجزاء مـرة يكون بالبطل فيهـا الملـك – اينمركـار – وتـارة الملـك لوجالبانـدا – وكـل تلـك القصـص الاربعة تـدور حـول العلاقـات المتـوترة عـادة بـين أوروك و Aratta وهـي بـلاد بعيـدة تفصل بينها وبين بلاد سومر سبعة جبال ومن المحتمل ان تكـون تلـك الأرض واقعـة في إيران الحالية، واحدة من تلك الحكايات تقول لنا بالتفصيل عن الصعوبات الكبيرة التي واجهت الملك اينمركار في سعيه للحصول على الذهب والفضة وأحجار اللازورد وكـذلك الأحجار الكريمـة الأخـرى المهمـة التـي يملكهـا ملـك آرتـا، وقـد أراد تحقيـق ذلـك تـارة بالتهديد أو من خلال المقايضة بـالحبوب، تلـك الحالـة كـررت نفسـها مـرارا وتكـرارا في التاريخ الطويل الخاص ببلاد ما بين النهرين وهي تسجل حالـة الحـروب اللانهائيـة بـين

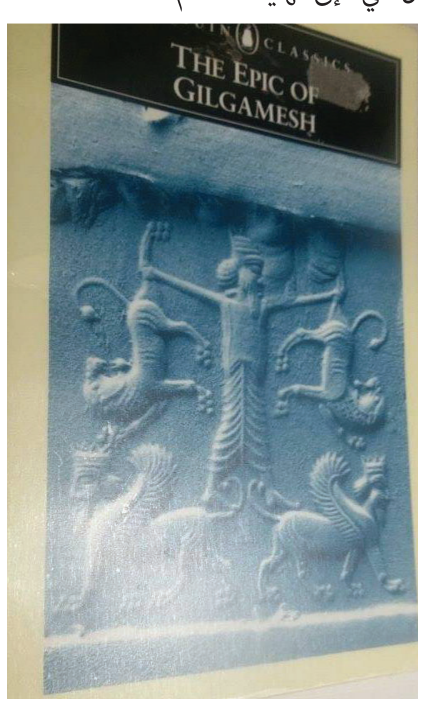
تلك البلاد وبلاد عيلام الجبلية – في الحكاية الأخرى نرى أوروك محاصرة من قبل الأقوام العموريون الذين تقدموا نحو " سومر – اوروك " وحاصروها.. لقد عاشت تلك المملكة تحت حالة تهديد دولتين مجاورتين لها وظل الحال هكذا حتى تقدم بدو الصحراء وتمكنوا من السيطرة عليها وحصل ذلك في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، في التمعن بمضامين تلك الأساطير وما ترمي إليه وجدتها في الحقيقة تعكس صورة الحالة السياسية وما رافق فترات الحكم من أحداث مهمة، منذ فجر التاريخ كانت تلك الأحداث متواصلة وقد كتبت وفق رؤيا حقيقية وذلك قبل 800 قبل الميلاد ونجد في تلك المرحلة إهتمام أهل سومر بالمؤرخ ونتاجه وفن التوثيق الذي يقوم به فئة منتخبة ولها نظام علمي يستندون إليه او اعتمادهم على تجارب معروفة لديهم..

جلجامش - Gilgamesh

أخيرا نصل إلى الملك السومري الخامس الأبرز من السلالة الأولى التي حكمت في أوروك – يوصف في الألواح السومرية بأنه ابن الكاهنة Ninsunوالكاهن الأكبر Kullab وتردد صدى بطولته في اشكال تم تصويرها في الحضارات اللاحقة كما هي الحال في أوليسيس وهرقل وغيرها من الانماط، ولكن جلجامش يُعد الأكثر شعبية من جميع الأبطال الذين ظهروا في بلاد ما بين النهرين، يوصف في الألواح السومرية على أنه رجل طويل مفتول العضلات ملتحي يحارب الثيران والأسود كما وضعت صورته واسمه على عدد كبير من الاختام والتماثيل التي تؤرخ لمرحلة جمدت نصر وايضا وجدت في أغلب القصور الآشورية، هو مثل إينمركار أو لوجالبيندا يرد ذكره أوالإشارة إليه في أغلب الأساطير السومرية، وهي تعرض حوادث غير مترابطة من حياته، نحن نعرف خمسة منها، لكن هذه ليست كل القصص أو الحوادث التي دونت في وقت

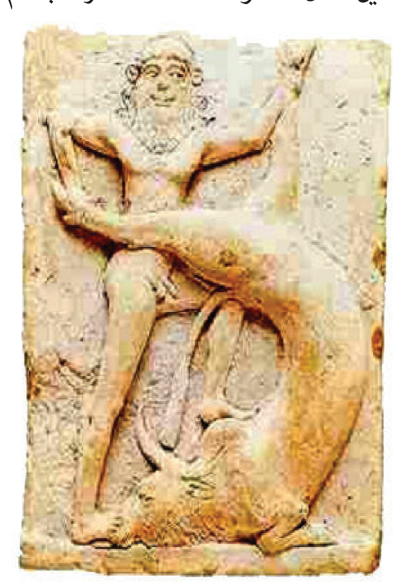
مبكر من الألفية الثانية ومنها بطبيعة الحال الملحمة الطويلة الخالدة التي كتبت على شكل قصيدة دمجت بعض الأساطير السومرية الجديدة معها وأنتجت بذلك الملحمة المشهورة عالميا – ملحمة جلجامش – وهي بالصدفة وصلت إلينا شبه كاملة – وتمثل قطعة نادرة من الأدب السومري وقد ترجمت الى اللغة البابلية والآشورية وفي حقيقة الأمر توصف تلك الملحمة بأنها من أجمل الحكايات الملحمية التي ظهرت من أدب سومر ومن مجمل أدب الحضارات القديمة، وأنا هنا أحاول ان اقدم خلاصة قصيرة مكثفة عن محتوى تلك الملحمة المهمة كي يتمكن القاريء الكريم ان يطلع على الترجمة الكاملة والتي نشرت في عدة ترجمات عالمية..


" هو الذي رأى كل شيء إلى نهايات العالم "



شرسا عاش في السهل بين الوحوش البرية

هذا هو عنوان القصيدة التي تفتتح بها ملحمة جلجامش وبطلها ثلثي إله وثلث رجل، يوصف بأنه كان وسيما، شجاعا، وقويا بدرجة كبيرة، هو الملك الذي اهتم كثيرا بمدينته أوروك واحترمت المدن الأخرى القريبة والبعيدة سور المدينة القوي الذي يلف أوروك ويبعد عنها الأعداء ويجعل حياة السكان آمنة، كان بطول 9 ونصف كيلومترا وقد تم بناءه في عصر السلالات الأولى والذي كان يطوق مدينة " الوركاء AL-Warka" من الخراب رغم ذلك عانى شعب المدينة من تكبر جلجامش وإنعدام رحمته وفساده وتلك الامور وغيرها كانت موضع القلق الكبير لمواطني المدينة الذين رفعوا الشكوى إلى الإله العظيم Anuالذي مرر الشكوى إلى الإلهةAruraوكان الطلب يتلخص بخلق ثور بري آخر يكون حجمه ضعف حجم جلجامش كي يمكن له ان يتحداه ويصرف إنتباهه وأهتمامه عن بنت المحارب وزوج النبيل وهو لا يريد ان يتركه بسلام، لذا أنجزت الألهة Aruraخلق أنكيدو من الطين، كان مخلوقا ضخما مشعر الجسم



" أنكيدو في لوح سومري يقاتل الأسود "

مثل الغزال، هو يتغذى على العشب،

يعيش مثل الوحوش البرية،

دائما يتدافع معها في أماكن السقي،

يتصرف مثل الحيوانات الصاخبة،

يبتهج قلبه في الماء،

الآن في هذا اليوم،

رأى الصياد أنكيدو على مسافة قريبة،

فهم السرّ،

عرف لماذا صنعت ووضعت الفخاخ،

هو الذي كان يصنعها،

لكنه دائما يجدها معطلة،

دائما كانت اللعبة تنزلق خارج يديه،

الصياد أبلغ جلجامش عن اكتشافه،

جلجامش كان ينصب فخاخ من نوع آخر،

كان بها يصطاد الرجل الطائش،

امرأة تعجبه،

أي مومس يشتهيها،

فكر،

ثم ذهب إلى السهل بهدف إغواء أنكيدو،

قرر ان يخرجه من الحياة المتوحشة الى الحياة المتحضرة،

بحث عن مومس يرسلها إليه،

العاهرة لم يكن لديها صعوبة في إنجاز الجزء الأول من مهمتها،

تمكنت من أنكيدو،

أخذته بيدها مثل أم،

قادته إلى قلب أوروك،

تعلم ان يستحم،

تعلم ان يدهن جسده بالزيت المعطر،

ويأكل الخبز،

ويشرب الخمور القوية،

وتستمر سطور الملحمة لتخبرنا بأن أنكيدو سمع بأن جلجامش سيذهب ليمارس تمارينه في ساحة الاحتفالات، وقف في طريقه بشكل شجاع ودارت بينهما معركة كبيرة وقاسية لكنها أنتهت بالمودة والسلام المتبادل، فرح جلجامش كثيراحيث وجد رفيق دربه وصار له صديق مثل الظل يمشي معه، صار يناديه سيدي ثم أقنعه ليرافقه الى غابة الآرز الواسعة البعيدة التي يسكن فيها خمبابا Hawawa العملاق المخيف الذي ينفخ من فمه النار، وهو لمن يظفر به يعني الموت الأكيد في مواجهته، وبعد ان هيئأ أسلحتهما وصلى في محراب الإله، تركا مدينة أوروك وقطعا المسافة في ثلاثة أيام بينما يتم قطعها عادة في ستة أسابيع:

وصلا إلى غابة الآرز،
وقفا بلا حراك وحدقا في الغابة،
نظرا إلى إرتفاع أشجار الأرز،
كانت أعلى من إرتفاع الجبال،
ظلهما قد أرتفع أيضا،
كانت أعماقهما مليئة بالبهجة،
بعد ان مسكا أطراف الحديقة،
قررا دخول الأرض المحرمة،
صار جلجامش يسقط شجرة بعد أخرى،



" لوح سومري مرسوم عليه جلجامش يقطع رأس خمبابا "

صرخ خمبابا بغضب،

قال:"سأذبح المغامران "،

وكاد ان يفعل - لكن الإله شمش هب لأنقاذهما،

كيف فعل – أرسل كل الرياح الثمان لتعمل ضد خمبابا،

صار الغول مشلولا،

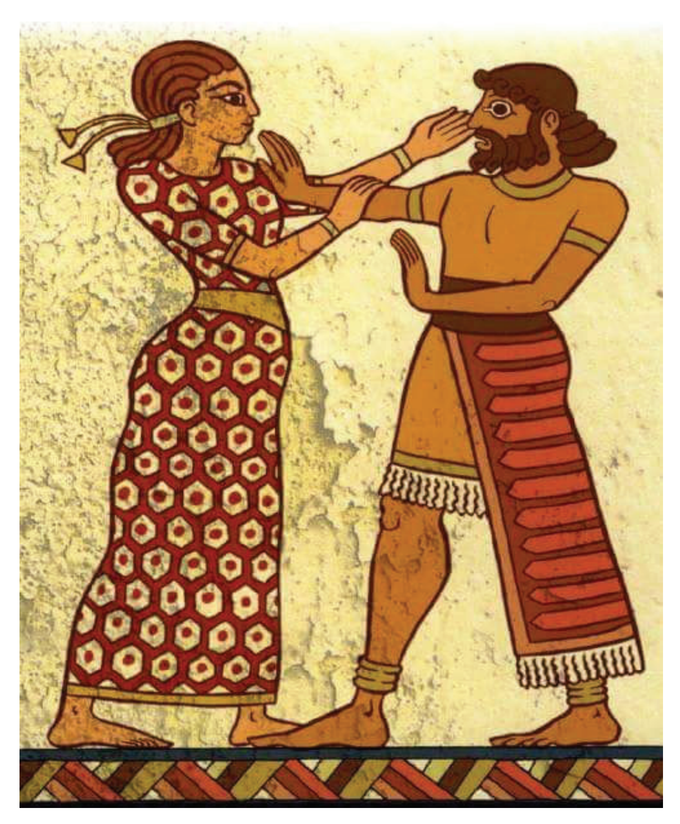
اعترف بأنه سيفقد نفسه،

استجدى حياته منهما كي يبقى،

لكن جلجامش وأنكيدو قطعا رأسه،

عادا بإنتصار عظيم إلى مدينة أوروك...

بعد هذه المآثرة البطولية تروي بعض الألواح ان الإلهة " عشتار " وقعت في حب " جلجامش " وطلبت منه الزواج، لكنه لم يكن يميل إليها، وتذكر ان هذه الآلهة غير المخلصة ماثل في ذهن جلجامش كيف عالجت علاقاتها مع عشاقها الكثيرون، مثل تموز الذي أنتهى مصيره الى النواح سنة بع أخرى- ذاك الراعي الذي تحول تارة الى ذئب وتارة إلى عنكبوت ودخل في أوضاع أكثر بشاعة، هو قال لها:



" لوحة تمثل جلجامش وعشتار في حال عدم وفاق "

انت الفن الذاهب نحول التشوش والألم،

المخلوق من النحاس الغارق بالبرودة،

الباب الخلفي الذي لايبعد عن المتعبد اي أنفجار،

جلد الماء الذي يبلل ملابس حامله،

الحذاء الذي يقرص قدم مالكه...

هكذا أهانها بشكل مرير، ونتيجة لذلك توجهت للشكوى لدى الإله " آنو " ليرسل ثور السماء لتدمير أوروك، وبعد أن أسقط الثور الرجال واحدا بعد

الآخر، في المواجهة استولى جلجامس على قرون الثور ودفع السيف إلى رقبته، وعشتار تلعن جلجامش وقوته، ثم مزق فخذ الوحش ورماه في وجهها، مثل هذه الوقاحة كانت سببا في غضب الألهة التي قررت على الفور بإن إحداهما يجب أن يموت، أتخذ القرار- يموت أنكيدو -، لذا تم تسليط المرض عليه وكان مؤلما، وبعد ان راجع حياته الماضية لعن العاهرة، غادر الى عالم آخر، تجهم جلجامش بعد ان توفى أنكيدو، ندب رفيقه لسبعة أيام وليالي حتى سقطت الدودة من أنفه، موت أنكيدو أثر على جلجامش بشكل عميق، ملك أوروك الناري الشجاع الجريء المرعب – للمرة الأولى أدرك الرعب الكامل للموت، هل يمكن أن يختفي الموت مثل اختفاء أنكيدو..؟ هل يتمكن أن يهرب من هذا المصير ومعه الجنس البشري بشكل عام..؟، هل يمكن أن ينقذ الجنس البشري..؟، خوفا من الموت صار يتجول في السهل:

المشكلة هي ان صديقي ترك لي حملا ثقيلا...!،

كيف لي أن أصمت..؟،

كيف لي أن أبقى هكذا...؟،

صديقي الذي أحببت أصبح تحت التراب،

أنا سأكون مثله،

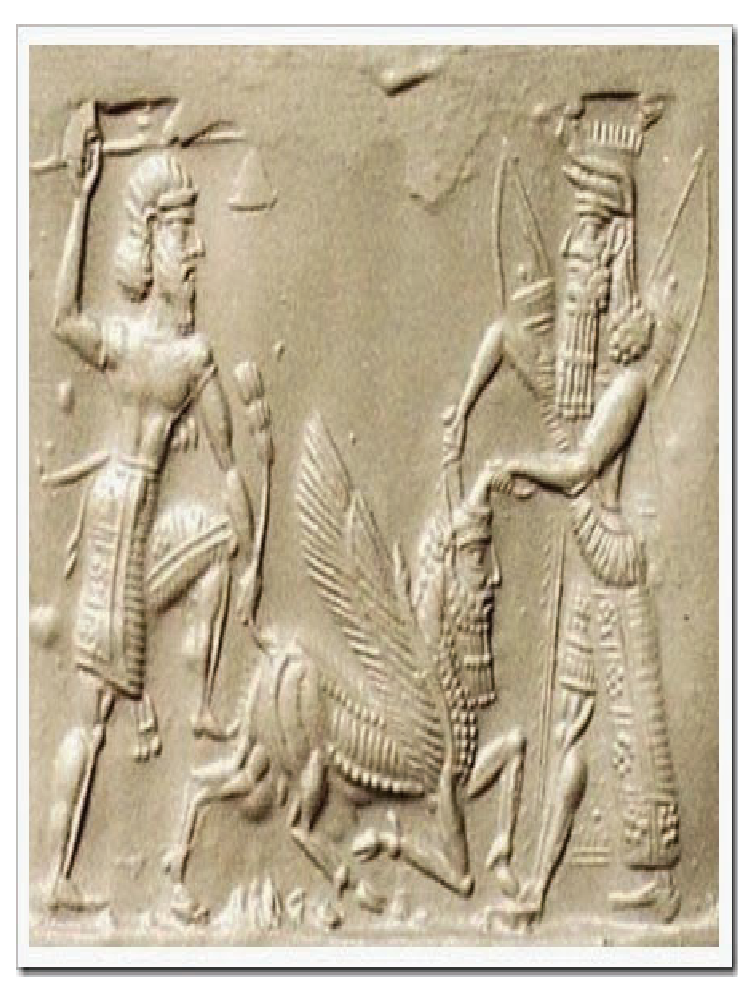
أضطجع تحت التراب،

لن أرتفع مرة أخرى إلى الأبد – إلى الأبد،

مالعمل ياجلجامش...؟!

جلجامش – تفاصيل الملحمة

الملحمة السومرية الخالدة (جلجامش) أول عمل أدبي مكتمل يكشف عن تفاصيل حضارة راقية، عندما رفع الستار عن حوادثها وفصولها وقيمها الفكرية والوعظية، تجاوزت حدود (سومر) إلى فضاءات قريبة وبعيدة، إعصار مهذب موشى بحلم الخلاص من الكابوس المرعب، ينتشر في المدن والحيوات الأخرى، حلما سرمديا لاتشبع منه العقول يعاد ويعاد والتآويل تتوالى، وعندما ضربت أمواج ذاك الحلم السومري العراقي الجميل شطآن العالم المعاصر، استفزت البشرية ورأت ضآلتها أمام بوابات ذاك الحلم الجلجامشي الذي صار مدخلا وسراجا لفهم تفاصيل تلك الحضارة التي سادت في أوروك ثم بادت وتركت المعاني الكبيرة، هذا الأثر الأدبي المهم يتواجد في اغلب مكتبات العالم المخصصة للمطالعة. كما يحتل مكانا مرموقا لدى الأدباء والشعراء، وكذلك جمهرة المهتمين بدراسة الحضارات القديمة والآثار، ولكونه من النفائس النفائس ترجم إلى أغلب اللغات التي تتداولها شعوب الأرض، البعض يضع هذه الملحمة بذات المكانة للكتب السماوية. ملحمة الينابيع العذبة تجاوزت صدأ الأرض والقلوب وظلت كما أراد لها السومريون تشحن العقول بطاقات الحلم والأمل والبطولة، تجاوزت حدود الزمن وعبرت المفازات وظلت حية في أروقة الجامعات وعلى مقاعد الدراسة.



" لوح سومري - جلجامش يقاتل الرجل العقرب "

نقطة دالة أو وشم كبير في جبين حضارة كانت هـي البـئر الأولى التـي فـاض ماءهـا على أديم الأرض حتى صار طوفانا رافق (أوتونابشتم) وبين الطوفان واستمرار الحياة إلى ما لانهاية تكمن معادلة ملحمة جلجامش الذي لا يمثل ملكا سومريا فحسب بـل هـو شـعاع يدق أبواب المستقبل لكي يحل المشكل الإنساني المستعصي ويمنحنا الخلود الأبدي.

عقد المقارنات

بهدف التشويش والتقليل من دلالات ومنجزات الحضارة السومرية عمد بعض الكتاب العرب إلى مقارنة تلك الملحمة الأصيلة مع ملاحم وأساطير منقولة عنها وتحاول محاكاتها مع بعض التغييرات، أولئك الكتاب إذا قرأت كتبهم تكتشف جهلهم بمجرد الإطلاع على أسماء القادة والملوك والمواقع التابعة للحضارة الرافدية والمدونة خطأ لديهم تتغير الأسماء والمعاني والمواقع والتفاصيل، تلك الأقلام استغلت حالة الفوضى التي يمر بها العراق، وقد تيقنت أن الحكومة التي ضبطت متلبسة ببيع الألواح والتماثيل واللقى الأثرية لا يعنيها في شيء تزييف مفردات الحضارة السومرية.

ومع أني مطمئن تماما إلى عدم وجود أسطورة أو ملحمة تنافس جلجامش أو هي تشكل مصدرا اعتمدته المضامين والتشكيلات الصورية المرتبطة بالقوة والعنفوان والهدف النبيل، أتوقف عند ذاك الذي يثار حاليا وادخل ساحة المقارنة معتمدا على دراسة كل تلك الأساطير التي جاءت بعد جلجامش واستند إلى مصادرها وليس إلى تلك الكتابات الباهتة التي تروجها عقول مؤد لجة لغايات رخيصة، وسنرى الفروق بين جلجامش وثيسيوس أو أخيل أو هرقل أوذو القرنين أو برومثيوس.



" لوح سومري - جلجامش يصارع الاسود "

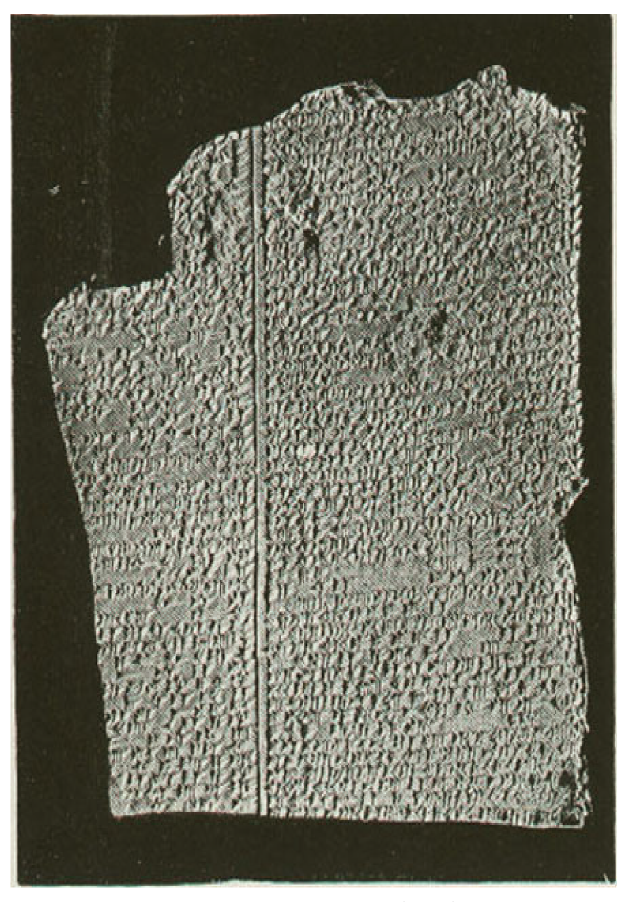
جلجامش السومري

يرى عالم الحضارة الرافدية الأستاذ (طه باقر) في كتابه الموسوم (تاريخ العراق القديم) أن مدينة (سومر) هي أول مدينة حقيقية في التاريخ، ويثبت العالم الأمريكي (صموئيل نوح كريمر) في كتابه الموسوم (من ألواح سومر) أن تنقيب البعثات الأثرية في وادي الرافدين أكد بوضوح لا يقبل الشك من خلال التكوينات الأركيولوجية، أن أوروك كانت أكبر المدن السومرية في الفترة الزمنية التي تعرف (بعصر السلالات)، ويضيف العالم (الكسندر هايدل في كتابه) ملحمة جلجامش أوروك هي أعرق مدينة في أرقى حضارة مدينيه وصلت قمة ازدهارها.

ويصف الدكتور سلطان محيسن في كتابه عصور ما قبل التاريخ الصادر عن جامعة دمشق، أن أريدو بلغت في نهاية فترة (تل العبيد) حجما كبيرا بمقياس ذلك العصر، حيث نافت مساحتها عن العشرة هكتارات ووصل عدد سكانها

إلى أربعة آلاف نسمة، وهذا أكبر تجمع سكاني حققته الحضارة الإنسانية حتى ذلك الوقت، في أي بقعة من العالم. مع أوروك تبدأ حضارة المدينة وتترسخ أولى تقاليد الحضارة العالمية التي مازلنا نعيشها حتى يومنا هذا وعن أوروك التي كان يحيط بها سور عظيم بني في عام 2600 ق. م، وكان يقدر عدد سكانها آنذاك أكثر من 60 ألف نسمة، فإذا عرفنا أن سكان مدينة روما إبان العصر القيصري لم يتجاوز 150 ألف نسمة لأدركنا أية عظمة بلغتها مدينة أوروك في ذلك الوقت المبكر من تفاصيل ذاك التاريخ المكتوب على ألواح الطين السومرية. أوروك هي المدينة السومرية التي شهدت ولادة عدة أساطير وملاحم ومن بينها ملحمة جلجامش التي عثر على ألواحها مطمورة تحت أنقاض قصر الملك الآشوري (أشور بنيبال) بعد تدميره اثر الهجوم الكاسح الذي تعرض له على أيدي الكلدانيين وذلك في العام 612 ق. م. الألواح واللقى والكتابات المسمارية التي تمثل الحضارة السومرية تؤكد بشكل قاطع أن جلجامش لم يكن صنع خيال أو خيط وهم أو ابتكار أو محاكاة، كما يدعى البعض، بل هو شخصية حقيقية ذات حضور خارق وهي من لحم ودم وذات حس بشري يستند إلى أرث حضاري واضح، في بداية القرن الماضي عثرت بعثات التنقيب الأثرية على الألواح التي تضم النصوص المتعلقة بتفاصيل الأسطورة السومرية التي أشار أليها العالم العراقي المُبَرَزْ طه باقر في كتبه وأبحاثة وأخص منها ملحمة جلجامش. الملحمة المقصودة هي نص شعري طويل مكتوب باللغات السومرية والآكادية والبابلية، وموزع على أثني عشر لوحا فخاريا، ويعتقد بعض العلماء أن ثمة ألواح أخرى لازالت مفقودة أو هي أصابها العطب والتلف، كما أن طه باقر والدكتور سامي سعيد الأحمد اختصاصي اللغة الآكادية وأستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد، بذل كلاهما جهدا كبيرا لاستكمال المعاني والأحداث في الألواح التي فقدت بعض السطور أو

الكلمات، ويعود الفضل في وصول الملحمة إلى الأجيال اللاحقة إلى الملك الأديب أشور بنيبال صاحب أكبر مكتبة في تلك الفترة، حيث جمع فيها الأدبيات الجيدة التي تمثل قيمة معرفية، حيث تم إحصاء ما يزيد عن ثلاثمائة رقيم من شتى نماذج المعرفة، وحوالي مائتي قاموس ومائة من نصوص الصلوات وحوالي مائة رقيم تحوي أدعية وتعاويذ، وتجاوز عدد النصوص المعنية بالآداب الأربعين بينها ملحمة جلجامش.



" أحد ألواح ملحمة جلجامش "

وقد الزم الملك الآشوري شباب مملكته بدراسة وتمعن ملحمة جلجامش معتبرا أنها تفتح العقل على ارتياد المغامرة والعلم المقرونتين بالشجاعة والذكاء، وهناك أدلة توصل أليها علماء الآثار تفيد إلى وجود تقليد يتعلق بإقامة دورة رياضية للتسابق على شرف جلجامش في شهر آب من كل عام، يتبارى خلالها الشباب في فنون القتال والمصارعة وسباق العربات وكذلك العاب القوى، وقد بقيت تلك التقاليد قائمة في الإمبراطورية الآشورية التي كانت تسمي شهر آب بشهر جلجامش السومري.

أصل الحكاية في أوديسا بلاد ما بين النهرين:

هو الذي رأى كل شيء وغنت البلاد بذكره،

هو الذي جرب كل الأشياء وأفاد من عبرها،

هو الحكيم،

قد أبصر اسرار الكون،

وعرف الخفايا المكتومة،

جلجامش.. جاء بأنباءما قبل الطوفان،

أوغل في الأسفار البعيدة،

حتى حل به الضنى والتعب....

أبن الآلهة (ننسون) الذي حملت به من ملك أوروك (لوجال بندا)، جلجامش الذي ولد ثلثه إنسان وثلثاه إله،

القوي

الجميل

الحكيم

لم يترك عذراء لعشيقها

ولا ابنة المقاتل

ولا خطيبة البطل

توجه اهل سومر بشكواهم للآلهة –

إلى رب السماء، قالوا بصوت واحد معترض:

ألم تخلق أنت هذا الوحش الجبار..؟

هو راعي وحامي أهل سومر ولكنه يضطهدهم،

أستمع " آنو " إلى شكواهم،

كما سمعت العظيمة " آرورو " شكواهم،

غسلت يديها،

أخذت قبضة طين،

رمتها في البرية،

خلقت أنكيدو،

الشجاع القوي، يكسو جسده الشعر،

وشعر رأسه كشعر رأس المرأة...

جلجامش أيضا وجدته (سومر) متفوقا على رجالها بصفاته الجسمية والعقلية، قويا ذكيا شجاعا، أمسك بصولجان الحكم وهو في مرحلة الشباب، وعندما خلقت الإلهة (آرورو) أنكيدو، القرين والند والصديق لجلجامش فيما بعد..



" أنكيدو مع حيوانات الغابة - لوح سومري "

هلمي أيتها البغي،

خذيني إلى البيت المشرق المقدس،

إلى مسكن آنو وعشتار، إلى حيث يحكم جلجامش،

سأتحداه،

سأغلظ له في القول،

سأصرخ في كل الجهات: أنا الأقوى....

تغيرت الأفكار والرؤى وصار التأمل العميق في بحر الموت واشرعة الحياة، يـدفعان جلجامش للدخول في إنجاز فعل كبير..

رأى جلجامش أنكيدو الهائج،

أنقض عليه وهاجمه،

تصارعا طويلا،

ثم خاراخوار ثورين وحشيين،

وبعد أن استدار يريد الذهاب وقد هدأ غضبه،

قال أنكيدو له:

أنك الرجل الأوحد، رفع أنليل رأسك عاليا على الناس،

وقدر إليك الملوكية على البشر...

أنتهت المواجهة بينهما إلى صداقة قوية وحميمة صارا أخـوين، وكشـف جلجـامش لأنكيدو عـن قـرار خطـير، عـن فكـرة الوصـول إلى غابـة الأرز الموجـودة في أقصى مغـرب الشمس وقتل حارسها خمبابا..

ياصديقي،

أشعر بأن الخوف قد شلّ جوارحي،

لقد خارت قواي،

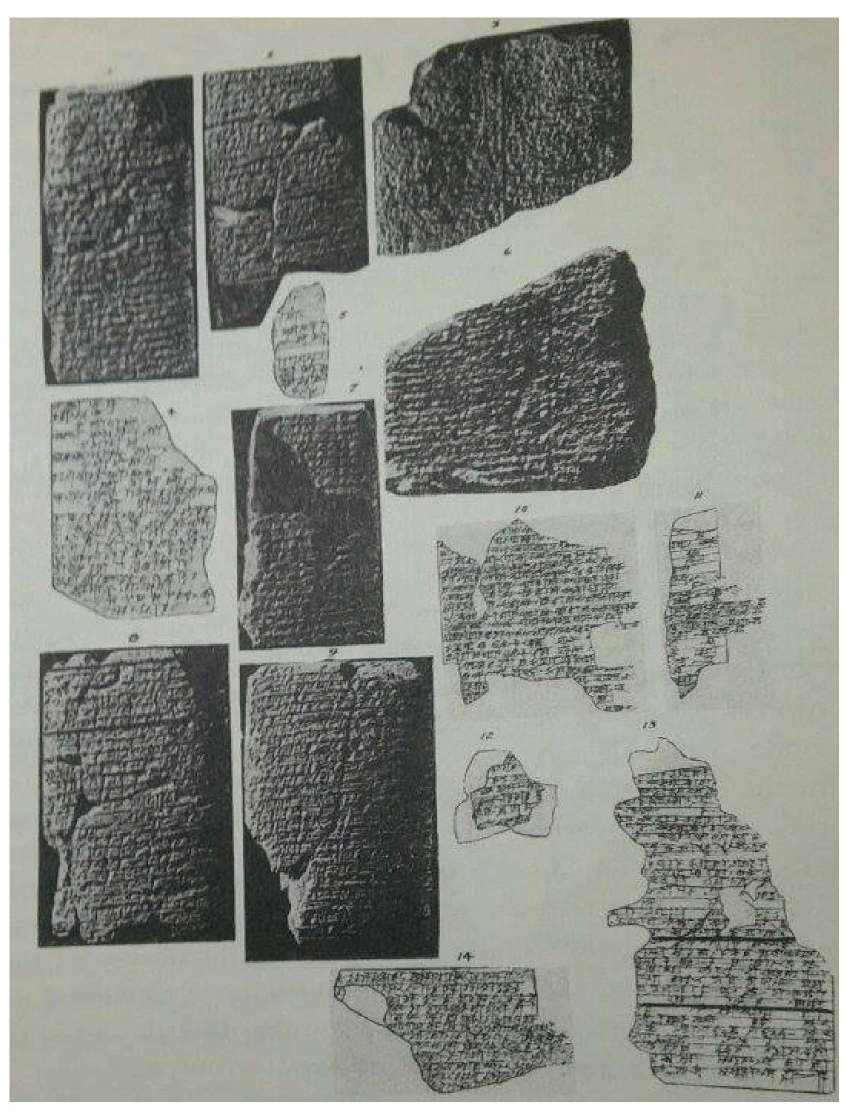
وفقد ساعدي قوته،

فعلام عزمت على تحقيق هذا الأمر...؟

فخاطب جلجامش أنكيدو وقال له:

يسكن في الغابة " خمبابا " الرهيب فلنقتله كلانا،

ونزيل الشرّ من الأرض..



فـرح جلجـامش كثيراحيـث وجـد رفيـق دربـه وصـار لـه صـديق مثـل الظـل يمشي معه، صار يناديه سيدي ثم أقنعه ليرافقه الى غابة الآرز الواسعة البعيدة التـي يسكن فيها خمبابا Hawawa العملاق المخيف الذي ينفخ من فمه النـار، وهـو لمـن

يظفر به يعني الموت الأكيد في مواجهته، وبعد ان هيئأ أسلحتهما وصلى في محراب الإله، تركا مدينة أوروك وقطعا المسافة في ثلاثة أيام بينما يتم قطعها عادة في ستة أسابيع:

وصلا إلى غابة الآرز،

وقفا بلا حراك وحدقا في الغابة،

نظرا إلى إرتفاع أشجار الأرز،

كانت أعلى من إرتفاع الجبال،

ظلهما قد أرتفع أيضا،

كانت أعماقهما مليئة بالبهجة،

بعد ان مسكا أطراف الحديقة،

قررا دخول الأرض المحرمة،

صار جلجامش يسقط شجرة بعد أخرى،

صرخ خمبابا بغضب،

قال:"سأذبح المغامران "،

وكاد ان يفعل - لكن الإله شمش هب لأنقاذهما،

كيف فعل – أرسل كل الرياح الثمان لتعمل ضد خمبابا،

صار الغول مشلولا،

اعترف بأنه سيفقد نفسه،

استجدى حياته منهما كي يبقى،

لكن جلجامش وأنكيدو قطعا رأسه،

عادا بإنتصار عظيم إلى مدينة أوروك...

ذاك الفعل تعارض مع الإله إنليل الذي أوكل إلى خمبابا حراسة غابة الأرز. يبرز الطابع البطولي عند جلجامش بفضل المظهر العتيق لصورته المعكوسة المتمثلة بالعملاق الوحشي انكيدو، انهما متماثلان من حيث القوة ويحققان المآثر بصورة مشتركة، غير أن انكيدو يتصف بمظاهر الضعف التي يشكو منها الإنسان الاعتيادي، فهو يجبن عند التفكير بالقيام بحملة إلى غابة الأرز ضد الغولة خومبابا، أما جلجامش، الذي تعتبر الشجاعة من صفاته المميزة فيخجل من تصرف صديقه، ولا يصغي إلى نصائح الشيوخ الحذرين، مفضلا عليها الحياة القصيرة والمجد الأبدي. ورغم الخوف الذي يجتاح أنكيدو، بدأت فصول الرحلة المحفوفة بالمخاطر والخوف، اقتحما غابة الأرز المسحورة وكان صوت خمبابا المرعب يهدر وكاد أن يهلكهما لولا مساعدة الإله شمش الذي أمدهما بثمانية أنواع من الرياح هبت في وجه الوحش المرعب وشلت حركته، أمسكا به وقطعا رأسه وقدماه قربانا لشمش، كانت أم جلجامش تشكو، قبل القيام بحملته إلى غابة الأرز، من أن الله منح ابنها قلبا جنوبيا، عاد البطلان إلى اوروك، حاولت الإلهة (عشتار) إغواء جلجامش لكنه رفض عرضها منددا بخيانتها المعروفة لعشاقها وأزواجها، وردا على تلك الإهانة أطلقت (الثور السماوي) في مدينة أوروك ليعيث فسادا. ولكن جلجامش وأنكيدو ما لبثا أن تصديا له وقتلاه بعد صراع مرير وقدما قلبه قربانا للإلهة شمش، قرر مجمع الإلهة موت واحد من

البطلين ووقع الخيار على أنكيدو، أقام لإنكيدو طقوس الحداد وقبع في قصره وحيدا حزينا وصارت فكرة الموت تطارده (يدرك جلجامش كربة الموت فقط بعد مقتل انكيدو، غير أن هذا لم يكن بسبب الخوف على نفسه شخصيا، بل بسبب خيبة الأمل لإدراكه حقيقة أن العظمة السامية للشخصية البطولية لم تنقذ الأخيرة من النهاية الطبيعية لكل الناس)، يحمل الهواجس والأفكار معه تعذبه حتى إذا وصل إلى رمز الخلود " اوتنابشتم" ليسأله عن سر الحياة والموت.

جلجامش وسيدوري:

ألى أين تسعى ياجلجامش...؟

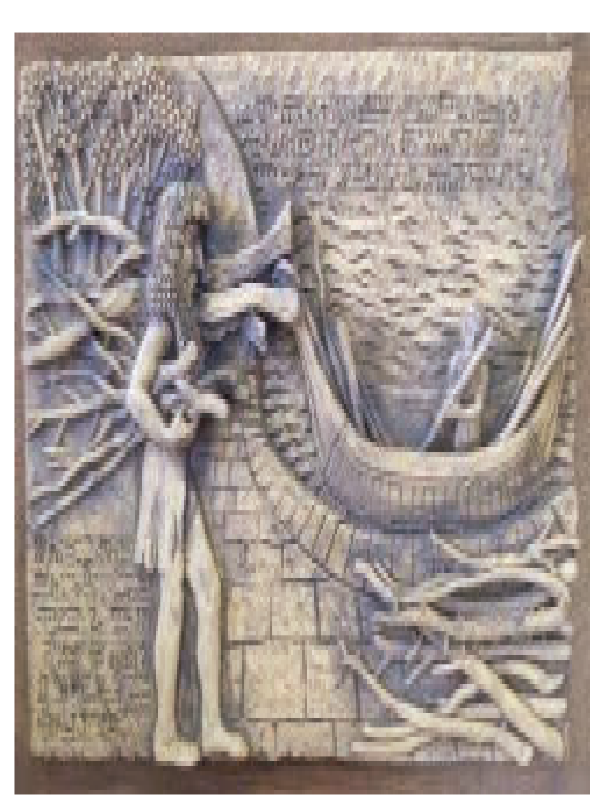
أن الحياة التي تبغي لن تجد،

إذ لما خلقت الآلهة البشر قدرت الموت عليهم،

وأستاثرت بالحياة – هذا هو نصيب البشر،

ولكن جلجامش أردف مخاطبا صاحبة الحانة:

ياصاحبة الحانة أين الطريق إلى أوتونابشتم...؟ دليني عليه...!



" جلجامش يصنع الزورق لعبور بحر الموت "

كان على جلجامش أن يجتاز سلسلة جبال (ماشو) التي تحرس ذراها المتقابلة الفوهة التي تنزل منها الشمس إلى باطن الأرض، ومن بعد تواصل مسيرها في بحر الليل قبل شروقها من الطرف الثاني، سهل له البشر العقارب الموكلون بحراسة تلك الجبال عبور مسالكها الوعرة، أرشدوه إلى أقصر طريق يصل من خلاله إلى أوتنابشتم، وعندما وصل إلى فوهة الشمس نزل فيها ليصل عبرها إلى الطرف الآخر من العالم، عمل من الخوارق ليس بوسع البشر القيام به، هو من مهمات الإله، اجتاز جلجامش ممر الشمس الأسفل في أقل من ليلة واحدة، وخرج من الطرف الثاني ليجد نفسه على شاطئ البحر الذي يفصله عن جزيرة اوتنابشتم،

هناك تقيم سيدوري ساقية حان الآلهة، حيث يتوقف الخالدون للحصول على محطة استراحة وتناول الشراب، ينتاب سيدوري الفزع والخوف وهي ترى عملاقا أشعث يعلو ملامحه الغبار ويرتدي جلود الأسود، تدخل وتوصد باب حانتها دونه، لكن جلجامش يناديها ويكشف لها عن شخصيته وأهدافه التي جاء من اجلها وطلب منها المساعدة، تخبره سيدوري بوجود ملاح أوتنابشتم المدعو (أورشنابي) في المكان يحتطب من أجل سيده، أرشدت سيدوري جلجامش الى مكانه وأخبرته بأنه الوحيد الذي يستطيع بقاربه عبور مياه بحر الموت، لأنه يملك رقم حجرية عليها طلاسم سحرية.

جلجامش وأورشنابي:

لقد أفزعني الموت حتى همتُ على وجهي في القفار والبراري،

كيف أهدأ أو يقرّ لي قرار وصديقي الذي أحببت صار ترابا،

وأنا أفلا أكون مثله فأضطجع ضجعة لا أقوم من بعدها أبد الدهر،

والآن يا أور شنابي، أين الطريق إلى أوتونابشتم....؟

إنطلق جلجامش كسهم سريع إلى مكان أورشنابي وفي غمرة اضطرابه وانفعاله العنيف داس فوق الرقم الحجرية التي كان أورشنابي قد وضعها جانبا وهو يحتطب فبعثرها وحطمها، فقال له أورشنابي، بعد أن سمع قصته، بأن يديه قد حالتا دون عبوره لأنه كسر الرقم الطينية التي تعين الزورق على اجتياز مياه الموت، وبعد تقليب الأمور على وجوهها، توصل أورشنابي إلى حل للمشكلة فمياه الموت التي تبدأ حدودها بعد مسيرة طويلة في البحر، هي مياه راكدة والهواء فوقها ساكن، حيث لاريح تدفع ولامجذاف ينفع، وحيث الرذاذ إذا تطاير يقتل باللمس، أختار أورشنابي دفع الزورق بالمردي وطلب من جلجامش أن يحتطب

من الغابة مائة وعشرين مرديا طول الواحد منها ستين ذراعا، وعندما أنجز جلجامش عمله، أبحر الاثنان في الزورق وعندما ولج مياه الموت، طلب أورشنابي من جلجامش أن يبدأ باستخدام المردي، كان على جلجامش أن يستعمل كل مردي لمرة واحدة فقط ثم يتركه بعد الدفع إلى الماء، لكي لا تمس يده ما علق عليه من ماء قاتل.جلجامش قرر مقابلة " أتونابشتم " الرجل الذي نجا من الطوفان ليحصل منه على سرّ الخلود، في مسيرته الصعبة عبرّ جبل " ماشو "الواسع المرتفع الذي يغمر ما حوله الظلام ولا تشرق من خلاله الشمس، والذي مدخله يحرس من قبل رجال العقرب، الذين أسفو لحاله عندما سمعوا قصته وتركوه يعبرّ، وعلى الجانب الآخر قابل صاحبة حانة " سيدوري " النادلة التي توجد حانتها على حافة البحر، هي أسدت له نصيحة قالت له عليك أن تتوقف وتطرد من حياتك القلق، أذهب وتحرك تمتع بالحياة، رغم ذلك شعرت بحزنه وقررت ان تساعده كي يصل الى مكان أوتو نابشتم، جلجامش البطل لم يتردد عبر البحر المرعب - بحر الموت - وقابل أتونابشتم...

ياجلجامش سافتح لك عن سر محجوب

سأطلعك على سر من أسرار الآلهة

شرباك المدينة التي تعرفها أنت

والراكبة على شاطيء نهر الفرات

ان تلك المدينة قد تقادم العهد عليها

فرأى الآلهة العظام ان يحدثوا طوفانا...

جلجامش وأوتونابشتم:

قص جلجامش على اوتونابشتم قصته وماجرى لـه ورجـاه أن يخـبره كيـف اسـتطاع تحقيق الخلود لنفسه من دون بني البشر، قص اوتونابشتم على جلجـامش قصـة الطوفـان العظيم بجميع تفاصيلها وكيف انتهت إلى مكافأته بنعمة الخلود عندما قام إنليـل بإسـباغ نعمة الخلود عليه وزوجته مكافأة له على صنيعه وأسكنهما في هذه الجزيرة، ثـم عمـد إلى اختبار جلجامش، كان الاختبار عسيرا والمطلوب منه أن يثبت استعداده ومقدرته على قهـر الموت الأصغر وهو النوم، فكان عليه أن يجلس في وضـعية القعـود سـتة أيـام وسـبع ليـال دون أن يطرق الكرى أجفانه. قبل جلجامش التحدي مصمما على قهر الموت الأصغر ولكنه بعد وقت قصير راح في سبات عميق أستمر ستة أيـام وفي اليـوم السـابع هـزه اوتونابشـتم فأفاق معتقدا أنه لم ينم إلا هنيهة، وعندما عرف حقيقة مـاجرى لـه وتأكـد مـن فشـله في الاختبار، قرر مغادرة الجزيرة ومعه اورشنابي الذي أمره سيده بمغـادرة المكـان دون رجعـة ومرافقة جلجامش إلى مدينـة أوروك، وبيـنما هـما يـدفعان الـزورق بعيـدا عـن الشـاطئ، شعرت زوجة اوتونابشتم بالشفقة على جلجامش وطلبت من زوجها أن يقدم له بعضا مما قدم لأجله، نادى اوتونابشتم جلجامش وأطلعه على سر نبته شوكيه تعيش في أعماق المياه الباطنية؛ حيث مسكن الإله انكي، تلك النبتة تحمل خصائص تجديد الشباب لمن يأكـل منهـا إذا بلغ الشيخوخة، غاص جلجامش في القناة المائية التـي تصـل إلى الآبسـو - مجمـع الميـاه السفلية العذبة، رابطا إلى قدميه حجرا ثقيلا يشده بقوة إلى الأسفل.



" جلجامش في اعماق البحر يبحث عن نبات الخلود "

سافتح لك ياجلجامش سرا خفيا

اجل سأبوح لك بسرّ من أسرار الآلهة

يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه

وهناك رأى النبتة فاجتثها بعد أن أدمت أشـواكها يديـه، ثـم حـل وثاقـه صاعدا نحو الأعلى، ثم عرضها عـلى اوتونابشـتم وزوجتـه وشـكرهما وقـال: انـه

سيحملها معه إلى أوروك ليجعل الشيوخ يقتسمونها فيما بينهم، وإنه سيأكل منها عندما تداهمه الشيخوخة، ثم أنطلق مع أورشنابي في طريق العودة إلى أوروك، وفي إحدى المحطات التي توقفا عندها للراحة، رأى جلجامش بركة ماء فنزل إليها واستحم بمائها تاركا النبتة عند الضفة، عندها جاءت حية إلى النبتة وأكلتها وبينما هي راجعة إلى وكرها تجدد جلدها، جلس جلجامش عند الضفة وقد انهار تماما بعد أن فقد حتى الأمل في تجديد الشباب

يأتي هذا المخلوق فيختطف النبات مني..؟

وجدت ان هذا نذير لي ان اتخلى عن مطلبي...

تأكد له لن تكون هناك حياة أبدية والخاتمة في الملحمة ربما تريد القول - هل نبني البيوت الى الأبد،

هل النهر إلى الأبد يظل منسوبه في أرتفاع

ويخلق الفيضان

والحائك سيترك يوما مغزله

سيتذكر من يعرفه

الصوف وحركة المغزل في يده

وابتسامته في الكوخ

الموتى دائما يذهبون إلى الراحة الأبدية

كل البشر على حد سواء

مثل هذا العرض الموجزينثر عطر تلك الملحمة الخالدة في الوجود – والاعتراف بها قائم كملحمة سومرية هي الأكثر شهرةفي منطقة الشرق الأدنى القديم، ولقوة مشمونها وروعة الأفكار الواردة فيها ترجمها البابليون والآشوريون وصدرت في طبعات كونية تظهر أكثر العناوين رصانة عندما ترجمت إلى العديد من لغات العالم، ملحمة بطولية تستحيل إلى قصيدة ميثولوجية يصبح فيها جلجامش رمزا للإنسان بصورة عامة، وبصفته – فاوست بابلي قديم – فريد يتحول من المآثر البطولية إلى البحث عن معنى الحياة وفي الجزء الأساسي – الملحمي الصرف – من هذا العمل الشعري تتشابك الطاقة البطولية عند جلجامش بالغيظ المهتاج.

الملاحم التي قلدت جلجامش

جلجامش العظيم أكسبته أعماله شهرة طبقت الآفاق وجعلت منه البطل الأعلى في القصص والأساطير السومرية، فقد كتبت القصائد تمجيدا لأعماله ومآثره، وكانت تكتب مرة ومرة على امتداد القرون، ولم تقتصر كتابتها على اللغة السومرية، بل تعدتها إلى جميع اللغات الهامة التي كانت منتشرة في أقاليم آسيا الغربية، لقد أصبح جلجامش بطل العالم القديم بامتياز، فهو المغامر والشجاع، لكنه أيضا الشخصية المأساوية التي ترمز إلى سعي الإنسان الدءوب. لقدأصبح جلجامش شخصية خرافية تطوف كما الشمس أرجاء العالم يقارن علماء الايكولوجيا بين ملحمة جلجامش وأسطورة بروميثيوس الإغريقية كلاهما تتصدى للخوض في مغامرة صعبة وقاسية فيها من التحدي والبحث عن المطلق في مضمار الحقيقة الشيء الكثير ولكن ملحمة جلجامش تحظى بامتياز الحس الإنساني النبيل والهدف يسمو كثيرا فالخلود الذي غامر من أجله السومري يوازي النار الأزلية ويكشف كل طلاسم الكون ويحل الرموز المستعصية، الأسطورة

الإغريقية تلمست شيئا في دائرة التناول، لكن الملحمة السومرية التي سبقتها قطعا بالكثير من الزمن فتحت الباب على مصراعيه للعقل البشري لكي يبحث عن المجهول ويبقى يطارد الألغاز والقوى التي تختفي وراء سجف الطبيعة. لقد حاول برتراند رسل وهو يؤرخ للفلسفة الغربية أن يظهر تحيزه الكامل للتفوق الفكري عند الإغريق واليونان، وفيما يخص الرياضيات يذكر أن المصريين والعراقيين القدماء عرفوا الحساب شيئا من الهندسة ولكن معرفتهم في هذا المجال لم تصل إلا إلى (أحكام عامة مبنية على التجربة العلمية لا على التنظير العلمي!، ولكن إذا عرفنا أن الأصل الذي أخذ عنه عالم الرياضيات اليوناني فيتاغورس، نظريته من نظرية وضعها علماء الرياضيات السومريون قبل عصر العالم اليوناني بقرون عديدة، ولا يزال هذا الأصل موجودا في نقشه المسماري على لوح من الطين المحروق في المتحف الوطني للآثار في بغداد إلى جانب أربع تراجم له، إحداها عربية وثلاث بلغات أوروبية والى جانبها جميعا نسخة من النظرية اليونانية المنقولة. وذات الأفكار حاول البعض من أصحاب الثقافة الهشة تسويقها ضد الحضارة السومرية وعلى وجه الدقة الجوانب المتعلقة بالموروث منها في مجال الثقافة؛ أي الأسطورة والشعر والمراثي وقصص الخوارق والأناشيد والطقوس الدينية، ولعل الدراسات والأبحاث التي أنجزها صفوة من الباحثين والعلماء السوفييت المختصين بنظرية الأدب والموروث القديم تشير إلى الأتي (نجد المحاكاة لأساطير الحضارة الرافدية قد تم في الكثير من الأساطير وقصص الخوارق اللاحقة، وتجسد بوضوح في الأشكال المبكرة للأدب الملحمي، كما في الأدب الكاريلي، والتركية والمنغولية والباكوتي والفلندي ومناطق القفقاز، وأيضا في نتاج هوميروس كما في الإلياذة والاوذيسة أو الانياذة لفرجيل، أو الشاهنامة للفردوسي. ترك جلجامش للسومريون كنزا كبيرا إذا هم أفلحوا في فك رموزه وطلاسمه وأحسنوا الاهتداء

إلى إشاراته المحيرة، لقد أراد جلجامش لشعب سومر الخلود، احترق الجزء الأول من الحلم السومري وتحقق الجزء الثاني منه، لقد قفزت سومر إلى الخلـود عنـدما اصـطدمت أصـابع العلماء الذين كانوا ينقبون عن كنوز سـومر، وظهـرت كسرات الألـواح الطينيـة السـومرية المسمارية إلي الوجود وسرعان ما تحرك بركانها الخامد عندما مسـت ريـاح العلـم الرافـدي فوهته، تحول إلى أقواس قزح تغطي كل أرجاء العالم، في الثلاثينات من القـرن المـاضي ومـا تلاها من سنوات مشحونة بالعمـل والبحـث والتنقيـب. اكتملـت المعلومـات لـدى علـماء اللغات القديمة وأساتذة المثيولوجيا والآداب وعلماء الإنسانيات ومن يتـبعهم عـلى مقاعـد الدراسة، لقد حاور كل تلك العقول طيف من الماضي يوازي عشب الخلود، اختلفت الكثـير من الدراسات والأبحاث ولكن الأتفـاق كـان أبـدا في الاتجـاه الـذي يعـزز سـيادة الحضـارة الرافدية وشمولها وآفاق ابتكارها غير المحدود، لقد تعلم الكون المعـاصر مـن رمـوز سـومر البحث عن الخلود والحياة الجديدة والعوالم غير المرئية، ظهرت لملحمة جلجامش ترجمات عديدة ونشرت عنها دراسـات بعضـها يجانـب الصـواب، تـم تصـويرها في أفـلام سـينمائية وكذلك في المسرحيات وأشكال التعبير الإيمائي والأوبرا وكذلك البالية، فك رموز تلك الملحمة، الخالدة والكبيرة جيش من العلماء والبـاحثين مـن أحفـاد سـومر، تجـاوزت ترجمـة العـالم العراقي (طه باقر) كل تلك الترجمات التي حاولت الدخول إلى فك رموزها. كما هي الحال في ترجمة الباحث والعالم الأمريكي (الكسندر هيديل) لقد ظل كتاب ملحمة جلجامش هو الجهد الصادق والدقيق لتفسير تلك الألواح السومرية، حاولت الأسطورة أن تروج مفهومـا واضحا على النحو التالي (الآلهة وحدهم هم الخالدون في مجمع شمش، أما البشر فأيـامهم معدودات وقبض ريح كل ما يفعلون)...!

الديانة السومرية وأهم المعابد

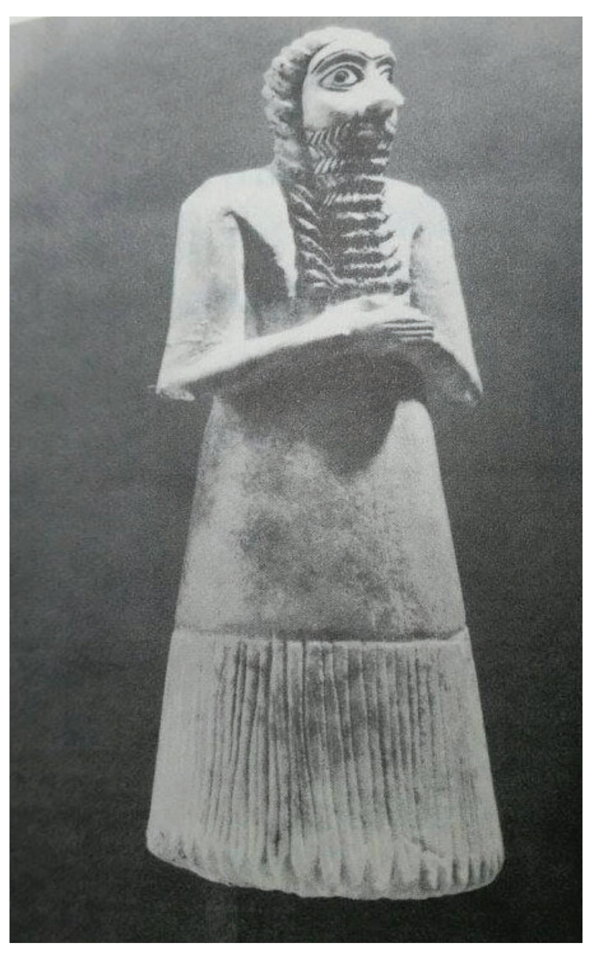
تمكنت الديانة السومرية من فتح الآفاق أمام الذهن البشري في مجال الأبتكار والبحث وتطور الحياة امدنية والعسكرية وكذلك فنون العمارة وظهور التشريع والقوانين وأيضا علم الكتابة، كل شيء تطور وفق أساليب ومضامين عديدة، وفي الغالب كانت محاولات الإنسان السومري مبتكرة، منها ظهرت الأناشيد الدينية والشرائع وفنون النحت والعمارة والكتابة على الطين – الألواح السومرية – واستخدام الذهب والنحاس والخشب وقطع الأحجار في بناء المعابد والقصور، في كل الحقول كان الإنجاز يتقدم العقول كانت تتنافس في حال حماسة كبيرة لترتقي تلك المدن القديمة، والاختراعات كانت تتوالى بما يؤكد حصول حالة الرخاء الى جانب التقدم العلمي الصناعي الزراعي، ذاك أيقظ الممالك المجاورة فقلدت شعب سومر، ودخلت إمبراطورية " سومر " في نزاعات حربية وظلت الحروب متواصلة لوقت طويل – تمكنت من حرق وتدمير الجانب الكبير المشرق لتلك الحضارة لكن الديانة في مدن سومر وما تبعها ظلت متواصلة، كان للطين السومري الأثر الأكبر في التوثيق الذي وصل إلى العالم المعاصر، تلك الجهود تواصلت من فترة " جمدت نصر " حتى العصور المتأخرة من الحضارة الآشورية، جاء ذاك الأختراع المذهل ليؤكد قوة العقل ونجاح التخيل والمغامرة، تم تصنيع الألواح المكتوبة بالخط المسماري وصارت تنجز مشروع التدوين وفق رؤيا علمية ةكانت مبتكرة في ذاك الزمن البعيد، كانت المدن " أوروك – نيبور – أوما – " ومواقع أخرى كثيرة في الخريطة السومرية تتابع تطور ذاك الاختراع المهم وتدون تفاصيل ما يجري وتترقب – الملك السومري نجح في مدّ أجنحة نظام مملكته على المدن الأخرى المجاورة.



في مدافن سومر كشفت التنقيبات عن تمثال واسع العينين وهو يقف في حركة شبه صلاة للآلهة – أكتشف ذاك التمثال في معبد الإله " آبو " في مدينة آشنونا – يعود إلى مرحلة ما قبل3000 عام قبل الميلاد، في التمثال المقصود نجد ان العيون مغطاة بأحجار اللازورد الكريمة الثمينة، وقد لبس الشخص في التمثال تنورة قصيرة – أشتهر أنذاك الذكور في أرتدائها – ذاك اللباس المثبت في اللوحة مصنوع من صوف الخراف، مدينة " لجش " في ضفاف الألفية الثالثة قبل

الميلاد كانت تتنافس مع مدن أخرى في خريطة ميزابوتاميا وخاضت سلسلة من الحروب وكانت هي المدينة الأكثر قوة، تمكنت من السيطرة على مدينة " أوما Umma" وأيضا مدينة أوروك ومدن أخرى وسيطرت على مدينة " كيش Kish" وذلك في حوالي 2600 قبل الميلاد، أهتمام الملك بقضية تحقيق العدالة بعد تحقيق فترة مجيدة اعتبرت كنموذج للحكم الذي تحقق فيما بعد في مملكة " ماري " تلك الأصلاحات التي حققتها أدت إلى ضعف الحكم الملكي – حيث المعبد البيضوي الكبير كان يمثل بناية ضخمة فرضت سيطرتها على المدينة – كانت البناية ضخمة تحيط بها ثلاثة اسوار محصنة أرفق بها بنايات سكن للمراجع الدينية، والمستوى الثاني أحتوى دكاكين تجارية رتبت حول فناء تقديم الضحية والنذور، فيما يوجد سلم داخل المعبد يقود إلى الأعلى – التكوين الرأسمالي الذي ظهر في مدينة – أور و كيش – تمكن من توحيد بلاد سومر وذلك في العام 2700 قبل الميلاد من خلال جهود الملك " لوكال " وهو كان إضافة إلى السيطرة السياسية وقيادة الجيش – كان أيضا يمثل المثل الدنيوي لإله المدينة كما الحال في المدير المدني حاليا، أشرف على أعمال فتح القنوات وشبكة الري وعمله يمثل حالة الإطمئنان على توفير الطعام والأمان لسكان المدينة كما أطلع بعملية بناء القلاع أو تجهيز القوات الحربية وقيادة الحرب حين حصولها، كما خطط لبناء البنايات الدينية – المعابد – وكان في المراسم يلعب دور الإله، تلك المدن ذات الطموح والتي كانت منفصلة من قبل توحيدها، تلك المدن كانت لها نافذة كبيرة نحو المدن التي تقع على الضفة الأخرى من الصحراء وقد وجد صدى تلك الحضارة في مملكة " إيبلا " وبالرغم من تصاعد النشاط الحربي بين مدن سومر الموحدة وقوات " عيلام – إيران حاليا " كانت تهب على تلك الحضارة مواقف إنسانية أدت إلى الإبتكار العلمي ونشر المعرفة وكانت بوابة الفتح أمام البشرية

اكتشاف الكتابة كما اسلفت والتي جعلت الحياة تنتظم من خلال التدوين والتوثيق وإجراء العمليات الحسابية.



كانت المعتقدات الدينية مشتركة لسكان مدن مختلفون ينعمون بظل الحضارة السومرية، المعبد السومري قدم التفسير العميق والواضح والميسر للدين، وقبل نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد عندما تكامل فجر الإمبراطورية

الآكدية وظهور الملك العظيم " سرجون الآكدي " الذي صنع نهاية مفاجئة جدا للتمزق والتناحر بين الدويلات وحقق توحيدها، وكان بذلك الحدث الكبير ظهور إمبراطورية سومر الجديدة القوية، كان السكان خليط من الساميين الذين كانوا يعيشون حياة " البداوة " في المناطق المتروكة من أرض " ميزابوتاميا " - في مركز تلك المدن أو في مواقع شمالها حيث استقرت تلك الأقوام النازحة من مناطق عديدة بعيدة أو قريبة، وتمكنوا من الاختلاط مع السكان الآصليين، وبسبب تزايد أعدادهم تمكنوا من السيطرة على البلاد ووصلوا إلى حكمها بدلا من السومريين كما جلبوا قوات من البلدان التي ينتمون إليها وكان من مظاهرهم القوة لذلك تمكنوا من بسط سلطانهم على مركز البلاد وكل الأرض المجاورة لها، وتدريجيا ظهرت إمبراطورية الفاتحين إلى حيز الوجود بمرور الوقت، أمتدت سيطرتهم القوية على بلاد مابين النهرين وعيلام ومدينتها سوسة Susa ثم تطورت سيطرتهم حتى وصلت إلى مناطق الشرق الأقصى كبحر عمان ونهر الهندوس في أقصى غرب أسيا الصغرى وأيضا إلى تخوم البحر الأبيض المتوسط، هذه السيطرة سمحت للإمبراطورية للحصول على أهم المواد الأولية للعمران ولتقوية حلقات الحضارة والتقدم..

في مراجعة أغلب الكتب والدراسات التي اهتمت بتفسير قضية الديانة عند الشعب السومري - يذهب العلماء في عدة اتجاهات الأبرز منها ان الإنسان السومري وهو يتلمس تفسير الظواهر المحيطة به ومعرفة حقيقة نشوء الكون ووجود الإنسان في ذاك المحيط المتضمن الاختلافات والغموض، وضع افتراض غيبي على شكل إسطورة في المضمون وهي في تفاصيلها تحاكي تقبل العقول أنذاك، الكون وُلد من خلال وجود الآلهة الأم " التي يعود إليها الفضل في ولادة جميع الآلهة والتحكم من خلالهم بمصير البشر " ولم يتوقف الأمر عند هذا الموقف

بل تم تقسيمهم إلى آلهة يكون مكان عملهم وتواجدهم في السماء وآلهة أخرى تم تخصيص عملهم في العالم الأسفل من أجل ذلك وجد علماء السومريات قصيدة مكتوبة على لوح تقول سطورها:

أنا الآلهة الأم،

ولدت جميع الآلهة الأيجيجي،

خلقتهم كما أردت بكاملهم،

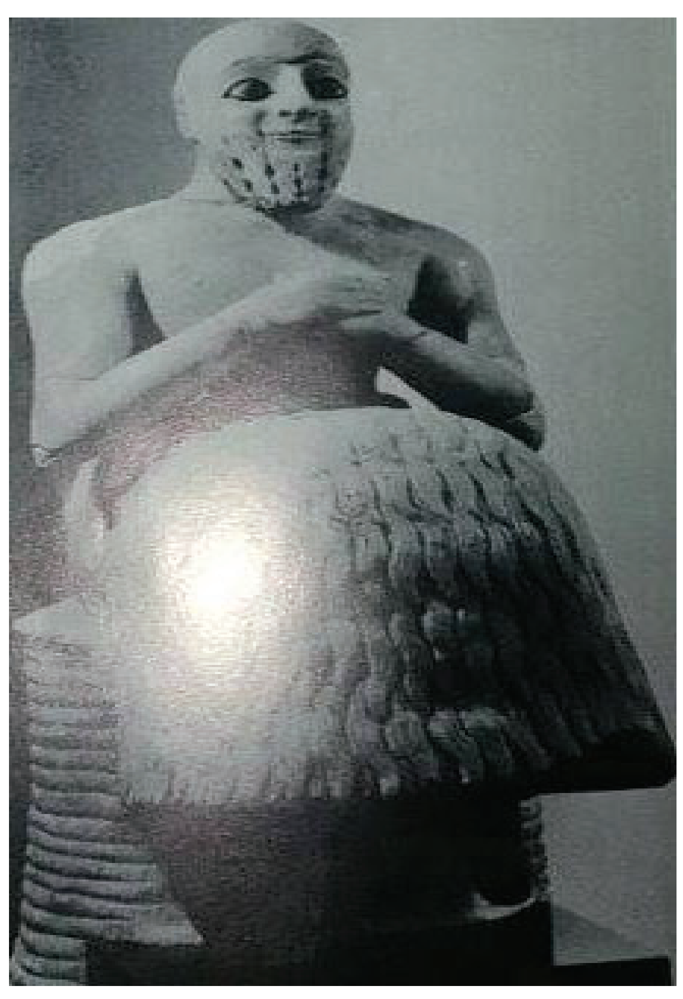
وكذلك مجموعة آلهة الآنانوكي،

الآلهة العظام أبنائي،

أنا أم الآلهة " مامي "

تصور الإنسان القديم في سومر ان الآلهة يتم توالدها كما هي الحال عند البشر، ونجد في تفاصيل الملاحم والأساطير وخاصة اسطورة إنانا – وملحمة جلجامش، وكيف انشطرت الأم تيامات من خلال الحرب إلى شطرين الأسفل كان – الأرض – والعلوي كان – السماء – ومع تقادم الزمن ونجاح تلك التخيلات تكاثر عدد الآلهة وصارت لها مهام كثيرة في الأرض والسماء وتم تقسيم أهميتهم " الآنانكو وهم الآلهة الأسياد، والأيجيجو وهم آلهة السخرة والعمل ويعتبرون من آلهة الدرجة الثانية، وتمت تسمية المكان الذي يقيمون فيه هو " جبال الكون المقدسة "، ولكي تأخذ الآلهة مكانها في عقول البشر أنذاك ظهر توزيع الثواب وأيضا إقرار العقاب وتم العمل بذلك المفهوم منذ بداية التكوين حتى حصول الطوفان العظيم الذي اتفقت الآلهة على حصوله، تلك الأفكار التي يراها البعض حاليا تتصف بالغيبية والسذاجة في حقيقة الأمر مثلت على

مساحة الزمن الماضي في سجل الحضارات القديمة أنها بجدارة كانت تمثل تأكيد حالة الاستمرارية في تدعيم مقومات الحضارة وديمومتها، والجدير بالذكر ان هذه الافكار التي وضعت بذرتها في حضارة بلاد مابين النهرين كانت تتعرض للتطوير والبناء من الداخل وتعزيز فرضياتها، كما لابد ان نشير إلى عمل جوهري رافق ظهور المعابد، يتمثل في أنهاتركزت حولها وبالقرب منها أهم المستوطنات البشرية كما كانت عاملا للإزهار التجاري والزراعي وفيما بعد لتطور الخطوات الحضارية في الحكم والتشريع وانتاج منظومة الكتابة، ورأينا من خلال تلك التجمعات التي اقتربي من المعابد تكاثرت تلك التجمعات ومن خلالها صارت القرى الكبيرة والمدن ثم تلك المدن تحولت الى اسيجة دول وممالك، وكذلك حصل الانفجار الكبير في مدارات الحيوات الأخرى – الصناعية – التجارية – الاقتصادية – العلمية – الثقافية – بناء الجيوش – انتاج المسلات والتشريع ومنصات الحكم، في لحظة إمساك المعبد بصولجان الحكم – كان الكاهن الأعلى يطلق عليه لقب " En" وهو يشغل وظيفة الحاكم للمجتمع المرتبط بالمعبد وظل ردحا من الزمن هو يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، وفي مرحلة لاحقة تم الفصل بين السلطتين وذلك في عصر فجر السلالات عندما ظهر على منصة الحكم بجانب كاهن المعبد الحاكم الاعلى الذي اعتبر مفوضا من آله المدينة وقدم نفسه على انه المكلف بالحكم من قبل الإله وأطلق لقب " Ensi" وكان بداية فترة الحكم الموثق مرحلة الملك " لوكال " وتلك المرحلة حصل فيها توظيف اكبر لسلطة الحاكم الذي يحق له بسط نفوذه على دول أو مدن أخرى.



" تمثال أحد الكهنة في معبد سومري "

ويمكن ان يكون حاكم بلاد أومدينة لقاء بقائه في الحكم ان يكون تابعا لـه، وضمن الألواح السومرية وجد العلماء إشارة – تشير – إلى الكاهن على أنـه " eN " على انها للدلالة على صلاحيات كـاهن المعبـد، مـن جملـة التوثيـق والـترجمات عن الألواح السومرية ثمة ما يؤكد ان المعبد هو دينمـو الحيـاة الحضريـة وبوابـة

التطور التي استفادت منها كثيرا حضارة بلاد ما بين النهرين، يـربط التـاريخ ان ظهـور اولى المستوطنات البشرية قرب احد المعابد كان في السهل الرسوبي ضـمن الألـف الخـامس قبـل الميلاد، وظهر بين جدران المعابد اعظم اختراع بشري حضـاري في منتصـف الألـف الرابـع – ظهور علم الكتابة والتدوين – وبدقة في مرحلة حكم عصر – الوركاء – حين ظهرت حاجـة المعبد الى تدوين الواردات المقدمة للمعبد من المتعبـدين وكـذلك حاصـلات الزراعـة التـي تعود وارداتها للمعبد، عثر المنقبون في معبد الإله إنانا في مدينة الوركاء عـلى لـوح مكتـوب يمثل أقدم كتابة صورية في تاريخ حضارة بلاد ما بين النهرين، ثمة مصادر لم تتفق حتى الآن على معرفة اسماء الآلهة التي تمت عبادتها في تلك المعابد في العصـور التـي سـبقت - عصر السلالات – بعد ذلك ظهرت الواح تم فيها تثبيت اسـماء الآلهـة وذلـك الى جانـب العثـور على تماثيل منحوتة وأختام أسطوانية وكانت الكتابة في مجال التجريب الأول وقـد وجـدت اسماء لعدد كبير من الآلهة والتي توضحت سماتها ومجالات عملها وقـوة تأثيرهـا، وثبتـت بعض الألواح ان تلك الآلهة كانت موجودة ومعروفة وتتم عبادتها منذ أزمنة قديمة ولكـن ربما حلت بدلا منها آلهة أخرى جديدة، وجدت تلك الاشارات التي تعود الى العصر الشبيه بالكتابي، والدلالة التي تستند عليها تلك الأبحاث رموز التماثيل التـي تخـص الآلهـة وأيضـا المشاهد الدينية للأناشيد والابتهالات والإشارات التي تخص عظمة وجبروت وبطـش الالهـة وأيضا التضرع إليها وطلب المساعدة، وقـد سـجلت بعـض الملاحظـات حـول انـدثار بعـض المعابد أو إقامة معابد على أنقاضها وكذلك ظهور آلهة جديدة..

الفصل الرابع

وصف قدرة الآلهة ومهماتها...

الفصل الرابع

وصف قدرة الآلهة ومهماتها...

من ابرز الصفات التي يجدها الباحث ماثلة من خلال دراسة الاناشيد والمواعظ وأيضا من خلال الأساطير والملاحم أو من خلال المثبت على التماثيل أو في المسلات القانونية والأختام أو ما تم نقشه على صفحات جدارية - حيث تبرز صفات ومهام واسماء الآلهة التي أثرت بشكل كبير وهام على حياة الشعب السومري وحضارته، في جميع المراحل المتتابعة ظهرت الكثير من الآلهة السماوية أو التي تؤثر في العالم الأسفل، وتم نسج الأساطير العديدة عن نزول آلهة الى العالم الأسفل أو صعودها إلى السماء ومحاولة التحاور أو الاقتراب من الآلهة، ولايمكن تعداد جميع الآلهة والتي يحتاج ذكرها الى مجلدات كبيرة، ونجد بعض الملامح التي ثبتتها الدراسات والملاحم والأساطير.

- الآلهة عموما تتميز عن البشر بالخلود وقوتها في مواجهة الكوارث
- تقدم المساعدة وتمنح الآمان للمتعبد شريطة ان يقدم الطاعة والعبادة.
- تشبه الى حد بعيد البشر في مجمل الصفات الروحية والمادية.
- تسكن في الارض داخل المعابد المقدسة او هي في السماء او تستقر تحت الأرض.
- الإنسان الصالح المتعبد على اتصال مباشر معها.

- لدى الآلهة القدرة على القيام بالافعال والاعمال التي يصعب على البشر القيام بها مثل الأمطار – حركة الرياح – تفجير البراكين – هبوب العواصف المدمرة – الطوفان.
- الآلهة في الحياة مثل البشر تمارس الحياة الخاصة والعامة ولها القدرة على حضور مجالس الشورى والحكومة والتجمعات الآلهية.
- الآلهة مثل البشر لها علامات الفرح والغضب والتخاصم فيما بينها ومع الإنسان أيضا.

وهكذا وكما يرى " جاكوبسين و كريمر " ان مجتمع الآلهة كان يمثل نسخة مكررة من المجتمع البشري الموجود في المدن السومرية الذي يلتقي في معابد الآلهة التي هبطت من السماء على الأرض كما تؤكد ذلك أغلب الأساطير السومرية التي ظهرت أصلا من بين فضاءات المعابد وترسيخا لمقولاتها ومنطلقاتها الفكرية والعلمية وكما مدّون في الألواح السومرية الكثيرة وعلى واجهة الاختام الأسطوانية المتنوعة التصاميم.



لوح سومري نحت عليه صورة الإلهة " إنانا "

كما دونت اسماء تلك الآلهة في فترات حكم الملوك الذين حكموا سومر بالتعاقب امتدت سيطرتهم لفترة 400000 سنة قبل الميلاد، ويُعد هذا الامتداد الزمني الضخم بمثابة ذلك السجل لعهود امتدت إلى آلآف السنين وجعلت أغلب المؤرخين في حيرة من دقة وصحة تلك الوقائع، على آية حال البعض من أولئك الحكام الأوائل كانت ترد الإشارة إليهم على أنهم ألهة بينما ترد الإشارة أحيانا إلى أنهم يمثلون نصف آلهة – تلك الآلهة العديدة ارتبطت بفعلها ظواهر مختلفة دعيت بأسماء منها:

- Anunnaki
- Elohim
- Nephilim Nefilim

في علوم الأساطير تم تقسـين تلـك الآلهـة إلى مجموعـة للخـير وأخـرى لـلشر، اتفقوا على الهبوط عـلى الأرض لخلـق الجـنس الـبشري هـذا مـا تـذهب إليـه دون مواربة أغلب المصادر، تلك الآلهة جاءت مـن " Nibira" أي كوكـب العبـور – ذاك الكوكب أيضـا اطلـق البـابليون والآشـوريون عليـه تسـمية " مـردوخ – Marduk" ووصفوه بأنه آلههـم الـرئيسي الـذي يجـب أن يعبـد متفـردا، وقـال السـومريون أن التواجد لمدة سنة واحدة على الكوكب Nibira asar - يعادل ما مقداره من الوقـت 3600 سنة فوق كوكب الأرض، تلك هي مجموع سنوات فترات حياة الأنانوكي الـذي يعتقد ان وصوله وإقامته فوق الأرض استمر لغاية حصول الطوفـان العظـيم، ومـن الجدير بالذكر ان الكثير من تلك الآلهة التي ظهرت في سـجل الديانـة السـومرية في بلاد ما بين النهرين، من خلال القـوى والظـواهر الطبيعيـة البـارزة والمخيفـة وذات التـدمير الهائـل وخاصـة تلـك التـي تـؤثر في حيـاة تلـك المجتمعـات البدائيـة مثـل الكواكب – القمر – الشمس – الأمطار – العواصف – الفيضانات – والهـواء والأرض – ومن اجل السيطرة على تلك الظواهر تم تسمية آلهـة تـدير وترتـب العلاقـة بـين البشر وبينها، وتم تخصيص القرابين لها وعبادتها وكتابة القصائد والأناشيد والأساطير وأيضا تم بناء المعابد التي تحمل أسمائها وتفـرد لهـا الطقـوس الخاصـة، ومـن أبـرز تلك الآلهة تلك التـي يمـس عملهـا عصـب الحيـاة مثـل المـوت والـولادة والخصـب والغلال والأمراض وغيرها، مع تفاوت في أهميتها لكنها تُعبد وينظـر إليهـا بتقـديس كبير، كما تفاوتت أحجام وأهمية ومكانة المعابد المخصصة لتلك الآلهة، وظلت تلـك الطقـوس والعبـادة مهمـة جماهيريـة واسـعة، كـما قسـمت الديانـة في بـلاد مـا بين النهرين الى ديانة رسمية يتبع لها الحكم وأخرى شعبية جماهيرية يـتم انتخابهـا من قبل الجماهير والترويج لمفاهيمها وكذلك بناء المعابد وانتاج الطقـوس لهـا، كـما

تمت تسمية تلك الديانة بالديانات المحلية وأخرى عبرت عبادتها إلى مدن أو دول أخرى، وكانت ثمة حروب تحصل أو حصلت بين المدن بسبب تخاصم أو تعارض تلك الآلهة، وهكذا ظهرت حروب دويلات المدن، ومن الأحداث التي دونتها الألواح السومرية تلك الحرب التي قادها الإله ننجرسو آله مدينة " لجش " ضد الدولة المعادية " أوما "وكيف أصطاد آلهة الدولة المعادية بشبكة الصيد الكبيرة، كما حفلت بعض الروايات أو الأساطير بوقوع البعض من الآلهة أسرى – مثل أسر الإله مردوخ إله بابل المشهور – كما ساد في فترات التاريخ القديم اسلوب اتخاذ الآله الحامي وهو يعمل شفيعا ومخلصا له ويكون صلة الوصل بينه وبين بقية الآلهة ويكون مسئولا وناصحا له في اعماله وتصرفاته وينقي خطواته ويرشده إلى الطريق القويم، وقد توضح ذلك العرف والسلوك في الاختام الاسطوانية وفي القصائد وفي ايضا الاناشيد والابتهالات المثبتة في الالواح السومرية التي تم العثور عليها، وقد تم الخلط بين بعض الإلهة السومرية مثال على ذلك التضاد بين عشتار وإنانا – ومن خلال ترجمة الإسطورة السومرية نجد الخلل واضحا في بعض الترجمات – حيث لاتوجد آلهة عشتار في الفترة السومرية بل توجد الإلهة " إنانا " ونجد هذا فيما نشرته الكثير من المصادر ويعتبر خاطئا تماما، العلاقة بين إنانا وجلجامش كانت جيدة وقد قدم لها الحماية وطرد الطائر الخرافي الذي احتل قلب شجرتها – كما ان الآلهة التي هبطت إلى العالم الأسفل هي الآلهة " إنانا " وليست عشتار، وانظروا مثلا ماورد في بعض المصادر من الخلط:

ما أنتِ إلا مَوقد سرعان ما تخمد ناره في البرد

أنتِ باب لا ينفع في صدِّ ريح عاصفة

أنتِ قصرٌ يتحطم في داخله الأبطال

أنتِ بئر تبتلع غطاءها
أنت حفنةُ قيرٍ تلوِّث حاملَها
أنت قربةُ ماء تبلِّل صاحبها...
أنت حذاء تقرص قدم منتعلها..))



الآلهة إنانا في لوح سومري تستلم النواميس والتكليف من الإله " أنكي "

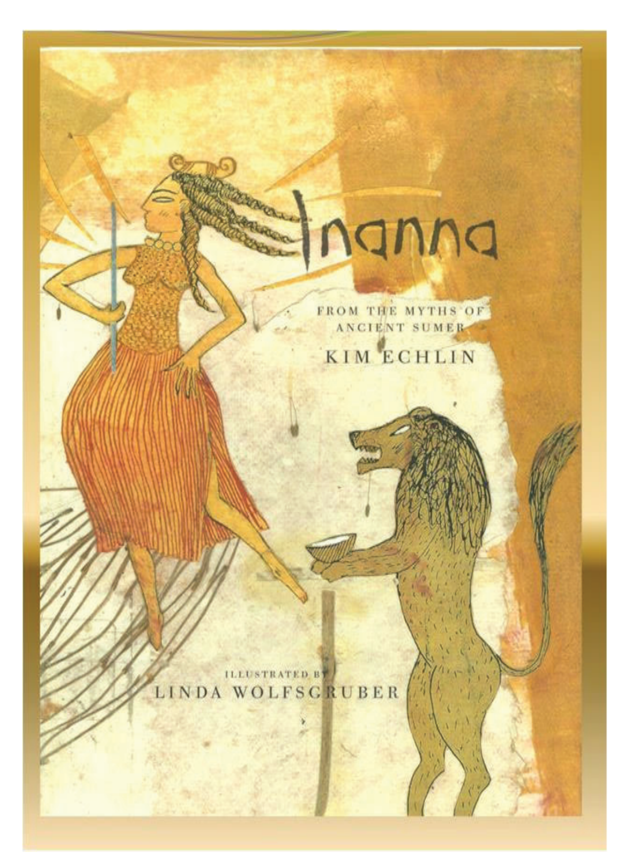
عشتار وغيرها من آلهة الأنوثة والخصوبة لدى كل الديانات البدائية كانت تُرمز ويشار اليها برموز مثل الشعلة الابدية النجمة الخماسية والوردة والقمر ومُثلت تارةً تمتطي الاسد (وهو رمز حبيبها تموز) وتارةً أخرى ترعى البقر (وصور قرنها الهلال) وصورت تحمل الأفعى رمزا للطب والشفاء " هنا يقع الباحث في الخلط بين عشتار البابلية وإنانا السومرية " ويضيف باحث آخر الآتي:

رمز بشكل عام إلى الإلهة الأم الأولى منجبة الحياة، وكان أحد رموزها الأسد. ومعبدها الرئيسي كان في نينوى قرب مدينة الموصل. وكان السومريون

يطلقون عليها عناة والعرب يسمونها عثتر والإغريق يسـمونها أفروديـت. ظهـرت أول مـرة في بلاد سومر في العراق وسوريا وجنوب بلاد الرافدين، قبل أكـثر مـن سـتة آلاف عـام، إمـا بشخصها المرسوم على الأختام الأسطوانية وبعض المنحوتات، وإما بالرمز الـذي يـدلّ عليهـا في الخطّ المسماريّ وهو النجمة الخماسية التي تشير إلى كوكب الزهرة، ألمع الكواكب

ويصفها الكتاب المقدس الانجيل في سفر الرؤيـا: ((الزانيـة العظيمـة الجالسـة عـلى المياه الكثيرة التي زنى معها ملوك الارض و سـكر سـكان الارض مـن خمـر زناهـا فـمضى بي بالروح الى برية فرايت امراة جالسة على وحش قرمـزي مملـوء اسـماء تجـديف لـه سـبعة رؤوس و عشرة قرون و المراة كانت متسربلة بارجوان و قرمز و متحليـة بـذهب و حجـارة كريمة و لؤلؤ و معها كاس من ذهب في يدها مملـوة رجاسـات و نجاسـات زناهـا" و عـلى جبهتها اسم مكتوب سر بابل العظيمة ام الزواني و رجاسات الارض

هي في أساطيرهم ابنة الإله سين إله القمر. وأمها الإلهة ننكال، وأخوها الإله (أوتـو) إله الشمس، وأختها الإلهة (ارشكيجال) إلهـة العـالم السـفلي، عـالم الأمـوات. وهـي أعظـم الإلهات وأسماهن منزلة. وكان مركز عبادتها الأصليّ مدينـة أوروك (الوركـاء) عاصـمة بـلاد سومر، التي كانت تُعدّ من أهمّ المراكز الدينيّة والحضاريّة لعصور طويلة.



وقد لعبت دورا هاما في ملحمة جلجامش.. " ويضيف مصدر آخر معلومات بعضها ينطبق على الآلهة إنانا وهو مثبت في تفاصيل كتابي – الاسطورة السومرية ":

يُقال أن عِشتار ذات جمال باهر لم يشهد له مثيل حتى أوزيس عشقها، ولم يكن أهل الارض بعيدين ذلك العشق، كانت عشتار تدور بين عالم البشر، بحثاً عن الضحايا حتى وصلت إلى ملوك البشر فكانت تأخذ كل ما يملكون، وتعدهم بالزواج حتى إذا ما أخذت أعز ما يملكون تركتهم وهم يبكونها ليلاً ونهاراً. وبيوم وصلت عشتار إلى راعي أغنام فذهلهُ جمالها، وأغوتهُ عيون الفتاة، فقام

بذبح شاة لها لكي تبقى معه لأطول زمن ممكن، فأخذت تأكل عشتار ثم رحلت، وفي اليوم التالي ذبح لها وفي الثالث فعل نفس الشيء، حتى لم يبق لدى الراعي شيء يقدمه لعشتار، سألها البقاء معه ولكنها رفضت وقالت: أنه لا يملك شيء يغريها بالبقاء معه، فقام الراعي بسرقة شاة وأخذ يبحث عن عشتار ليقدم لها ما سرق، ومن يومها أصبح الراعي ذئبا يسرق من الرعاة على أمل أن تعود عشتار لتجلس معه، وتسرد أسطورة سومريّة أخرى لنا كيف أن الإلهة اينانا نقلت ذات يوم شجيرة تنبت على ضفة نهر الفرات إلى مدينة الوركاء وزرعتها في "بستانها المقدّس" على أمل أن تنمو تلك الشجيرة وتصير شجرة سامقة الأغصان فتصنع من خشبها عرشاً وسريراً لها. وعندما كبرت الشجرة وحان وقت قطع أغصانها اكتشفت أن أفعى قد اتخذت من أسفلها مخبأ، وأن طيراً بنى في أعلاها عُشّاً، وأن عفريتة استقرت في وسط جذعها. فاستنجدت اينانا بأخيها أوتو إله الشمس الذي أسند المهمة إلى البطل المشهور جلجامش، فجاء هذا البطل متسلِّحاً بدرع سميك وفأس ثقيلة، واستطاع أن يقتل الأفعى، وعند ذاك فرّ الطير وهربت العفريتة إلى الخرائب المهجورة، فقطع جلجامش أغصان الشجرة وحملها هدية إلى اينانا لتصنع منها عرشاً وسريراً، وفقا للأساطير أيضا تزوجت الإله تموز زواجا قتل بعدة تموز، فحزنت عليه حتى بلغت حدا أبت تحت رزئه إلا النزول إلى عالم الموتى لترى تموز هناك. فاستاءت الأحوال على الأرض وتوقفت وانقطع النسل، فأرسلت السماء أمرا إلى العالم السفلي بإخلاء سبيل عشتار. عادت عشتار إلى الأرض ومعها عادت الحياة تموز .وكانت هذه القصة محورا أساسيا في الدين البابلي لفترة طويلة، يعتبر هبوط إنانا إلى العالم السفلي أول ملحمة إنسانية حول موضوع الإله الفادي، بحيث تقوم إنانا بتضحية اختيارية وتنزل إلى العالم السفلي، بحيث تلبث ثلاث ايام، ثم يسعى خادمها الأمين لاستعادتها، هذه بعض المصادر

التي تقع في خطأ التسمية بين عشتار وتموز.. ونجد في كتاب العالم العراقي " طه باقر " نفس الخلط بين عشتار وإنانا – في الصفحة 336 من كتابه الموسوم " مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة " يقول ": " نشأت حول تموز وعشتار جملة أساطير أشهرها الاسطورة الجميلة التي جاءت إلينا في أصلها السومري وبالرواية البابلية أيضا وخلاصتها ان عشتار غضبت على حبيبها أو زوجها " تموز " فأنزلته إلى الأرض السفلى، عالم الأموات وحبسته فيه، وكان من سنن هذا العالم أن من دخله لا يستطيع الخروج منه حتى الآلهة، ألا بأن يضع بديلا عنه في ذلك العالم، ولانعلم نهاية الاسطورة على وجه التأكيد، فهل بقي تموز رهينة ذلك العالم أو انه خرج منه، على ان آخر الآراء في الموضوع انه تم الاتفاق ما بين عشتار وأختها ملكة العالم الاسفل (ايرش- كيكال " ان يظل تموز حبيس ذلك العالم طوال نصف عام ويخرج منه في النصف الثاني مقابل الاحتفاظ بأخته المسماة " كشتن – أنا بديلا عنه في العالم الاسفل في النصف الثاني من العام الذي يخرج فيه تموز إلى الحياة "، في نشر التعبير والقضية الدينية التي خرجت من بين جدران المعابد إلى الفضاء الاوسع حيث المدن البعيد والقريبة – ساهمت في ذلك الطرق التجارية والمواصلات وعامل الجغرافية والتاريخ المشترك في تثبيت الأفكار الدينية وشكلت تلك العوامل السمات المهمة للاتصال بمنظومة الدين والمعابد بشكل مباشر، وهذا يشمل انتشار جميع الديانات التي ظهرت في منطقة الشرق الأدنى والأوسط القديم وهو منبت الحضارات المتعاقبة – كان التأسيس في منطقة بلاد ما بين النهرين – الشعيرة الدينية هناك تطورت بشكل تدريجي من ديانات معابد قديمة ثم وصولا إلى الديانات التي ظهرت في الأزمنة المتأخرة مثل الديانات الهندوسية والمسيحية واليهودية والأسلام، المراسم الدينية فرضت أشكالها من قبل شخصية الكاهن الرمز الديني والحاكم المطلق داخل فناء المعبد

وخارجه، تلك الأفكار الأولى التي جاءت في مرحلة ما قبل الميلاد استطاعت ان تحجز العقول في مدارها وفق أفكار ترتب السلوك والأفعال وترتب المعتقدات وتمكنت من وضع الأسس الخاصة بتعاليم الدين وفرض نظام ألزامي لممارسة الطقوس الدينية ووضع الحدود الصارمة بين الخير والشر والدعوة إلى تربية الحيوانات الأليفة والرأفة بها واستخدام لحومها في دعم حياة الإنسان، وكذلك الدعوة إلى التآلف والتعاون والبناء والتقليل من حالة الخصام بين الطبقة الزراعية المستقرة وأقوام البدو الذين يفدون إلى سومر بهدف الاستثمار الزراعي وخلق حالة المنافسة التي تؤدي إلى حالة الثراء في الانتاج وعدم التوتر والتصادم وتكرار قصة " هابيل وقابيل " والتنبيه على ان تلك الصورة لا تتفق مع تعاليم المعابد ولا يروج لها الكاهن الأكبر ولا يلتزم بها حاكم المدينة، وتحديد بعض الحدود في مسائل الحرام والحلال، كما روجت تلك التعاليم للدعوة الى المحافظة على البيئة واستمرار الحياة وترسيخ فكرة التحريم في التعاملات بين سكان المدينة والعمل بالتوثيق وفق مناهج القانون كما ان ترسيخ الحدود التي ذكرت أنفا ظل ساريا من الأديان القديمة وانتقل إلى الأديان اللاحقة والتزام بمبدأ الفتاوى القديمة وفق الحالات الضرورية وبعثها في الوجود الجديد كما هو مثبت بالفروق بين الاديان القديمة والحديثة، في الديانات القديمة لم تظهر قضية تحريم أكل بعض الحيوانات – مثل الخنزير – أو الامتناع عن ذبح البقر، أو وجود المذاهب الدينية، بينما نجد الآن في الاديان الحديثة هناك تحريم لأكل لحم الخنزير أو ذبح البقرة أيضا وجود المذاهب في العديد من الأديان السماوية الحالية، لم تكن هناك ممارسات تؤدي إلى خرق من قبل مجموعة دينية لمجموعة دينية أخرى بقصد الآذلال أو الترهيب والسيطرة ولم يحدث أن تكرست حالة الانعزال أو التضامن والتحشد ضد آله معين، أو التفرد في عبادة آله آخر في مدينة واحدة،

كما أن حدود الكفر لم تصل إلى حالة إنكار الآلهة أو السخرية منها، ربما حالة الأعتراض السياسي كانت موجودة فقط، ولكن في أغلب الأحوال كانت هناك حالة إتفاق بين المعبد ومنصة الحكم والعمل بينهما يمثل قانون الاتفاق لقيادة الرعية، المجتمعات القديمة كانت متسامحة كثيرا ومنضبطة ومتجانسة من خلال العقيدة الدينية التي كانت سائدة أنذاك، كما أن الديانات القديمة شجعت على ظهور الأساطير والملاحم كي تفسح المجال للإجابة على الأسئلة الملحة والمحورية التي كانت تطرح من قبل البشر لفهم ماهية الكون والنجوم والقمر والشمس والبحار وكيف تكونت وأشياء أخرى، المعبد والكهنة بشكل خاص جعلوا الأجوبة تنشر من خلال تلك الأساطير بما يحاكي عقول وإدراك البشر لفهم طبيعة الكون وتأثير الفرد في حالتي السكون والحركة، كانت الأجوبة أو النتائج يصرح بها المعبد عن طريق الكاهن وهذا يؤكد ان المعبد إلى جانب التأثير الديني كانت له تأثيرات علمية على العقول بشكل عام في تلك المرحلة وما تبعها، هو الذي يفسر العالم المرئي وغير المرئي بما ينسجم مع الحالة المقدسة لتعاليم الآلهة.



" الإناء النذري السومري "

كانت المهمة الأولى في حياة الإنسان هي الصلاة للإلهة ومن ثم الإنطلاق للبحث عن استكمال مفردات الحياة الأخرى، دفعت التعاليم الدينية بتأثيراتها على الإنسان وحققت في تفكيره إنتقالات مهمة في البحث عن غذائه وترتيب أمور حياته، أندفع أول الأمر بإتجاه الصيد، ثم فشل في الاستمرار بتلك التجربة عندما وجد لديه مواهب في مجال الإنبات والزراعة وأيضا كان للمعبد الحث والتوجيه والمتابعة في ذلك المضمار، وعندما تعرض ذاك الجهد إلى شحة المياه أو الفيضان المتكرر أو تعثر عمل الري طاردته شحة الموارد الغذائية وحاصرته المجاعة ولفت إنتباهه هجرة الحيوانات بسبب التبدل في الظروف البيئية وانحسار الغطاء النباتي وظهور الأمراض الوبائية، عندها عاد مرة أخرى ليسترشد بتعاليم المعبد بهدف تعديل الأحداث والخروج بنتائج إيجابية جديدة، من خلال تلك الأحداث المتكررة أندفع للتفكير بشكل عميق بتلك القوى التي تحرك الأحداث وتخلق الكوارث - من الذي يسيطر على القرار في هذا الكون الواسع المذهل...؟ من الذي يتحكم بتلك الظروف البيئية المتغيرة...؟ ومن بين الإلتصاق بالمعبد وتعاليمه نمى بشكل كبير الرصد للظروف البيئية المتغيرة والبحث عن الأسباب من خلال طرح الأسئلة وتلمس الأجوبة ولدت القاعدة الأولى للتفكير العلمي، في تلك الأزمنة البعيدة كان السؤال يكبر حول حركة العواصف وفيضان الأنهار ومن أين تأتي المياه ولماذا تتكون البحيرات والمستنقعات وكيف تكونت الجبال الرواسي وعن الشمس والريح وتغير مسارها والنار التي كانت أعظم اكتشافه والبحث في معرفة سلوك الحيوان والغموض الذي كان يحيط بكل تلك المفردات الكونية، في كل خطوة يتلمس معلومة مهمة يتوثق فيها الفهم والأدراك وتقوى العلاقة بين المعبد والإنسان، أكدت الألواح السومرية وجود أتصال مباشر بين البشر والمعابد كما توجد مناقشات للقضايا

والمشاكل التي تطرأ على الحياة والتدابير التي تعرضها المعابد ويتدخل الكهان لحلها ومواجهتها.

الموقع الأول لظهور الديانة السومرية

ظهرت المعابد الكثيرة وكذلك المدن في مراحل حضارة بلاد ما بين النهرين، وكان البعض منها يقام على مصاطب او دكات اصطناعية، وقد كشف عن البعض منها في مدينة الوركاء وخاصة في معبد الإله " إينانا " من مناطق مدينة " نفر "، كما شيدت معابد أخرى للآله " آنو " وذلك في الموضع الذي شيدت فيه " زقورته " وحسب تقرير البعثة الالمانية التي نقبت في العراق بداية القرن الماضي وجود ستة معابد ومنها معبدين متجاورين إحدهما للإلهة إنانا والثاني لزوجها الإله ديموزي " تموز " وكلاهما مزين بلوحات من الفسيفساء وجاء بعض الوصف في تلك التقارير على النحو التالي بخصوص معبد الاله – آنو – في الوركاء بأن له ستة أدوار بنائية شيدت بشكل متسلسل تصاعدي – الواحد فوق الآخر – وقد تطورت فيما بعد من خلال التوسعة والترميم في تلك الفترة لتأخذ شكل " الزقورة " وكانت على هيئة دكة ترتفع خمسين قدما وفوقها شيد المعبد الذي أطلق عليه اسم المعبد الأبيض، بينما نجد ان زقورة مدينة الوركاء الكبيرة والموجودة اثارها في منطقة " معبد الإلهة إنانا " وأيضا من المعابد المهمة الموجودة معبد " العقير " والذي يُعد من المعابد المتطورة أكثر العالي الزقورة كما زينت جدرانه بلوحات جدارية ملونة تسجل احتفالات ومواكب الابتهالات الدينية، في أماكن أخرى أكثر بعدا عن المنطقة نجد إشارات لوجود معابد مثل " قالينج آغا " بالقرب من قلعة أربيل، ومعبد العين في – تل براك – على نهر الخابور، ويرجع الى فترة جمدت نصر وجود عدد من المعابد من أهمها معبد الآله " سين في منطقة خفاجي من حواضر – ديالى -، وجد في منطقة معبد الإلهة إنانا " الإناء النذري " الشهير

والذي تحدثت عنه كثيرا كتب علماء السومريات، وهو منحوت من حجر الرخام الصلب مقدار ارتفاعه 3أقدام ونصف، وتتألف اغلب المنحوتات المثبتة على واجهاته البارزة من ثلاثة مستويات نجد في المستوى الأعلى مشهدا يمثل الكاهن الأعلى أنذاك وهو يقدم هدية عبارة عن سلة من الفاكهة إلى الإلهة وهو في الأغلب " إنانا " التي تقف بين عمودين أو حزمتين من قصب الأهوار كلاهما معقوفتين يمثلان شعار تلك الآلهة أو رمزها وأصل العلامة التي يكتب بها اسمها السومري، ويقف خلف الكاهن أشخاص آخرون أغلبهم من الكهنة، كما يشاهد خلف الآلهة طائفة من القرابين والنذور والنذور من بينها وعاءان يشبهان الوعاء النذري الأصلي، ويشاهد في المستوى الثاني أسفل المستوى الأول موكب من كهنة عراة يحملون السلال المليئة بالفاكهة والجرار والصحون، وتحت في المستوى الثالث نرى قد ثبت صفوف من الكباش والغنم مع أشجار نخيل وسنابل.. الثمار والخضار هي رمز الهدية التي قدمت للإلهة إنانا بصفتها آلهة الخصب والنماء..

اريدو – من المدن السومرية القديمة جدا يتفق الكثير من علماء السومريات – في هذه المدينة تشكلت بدايات نشوء الديانة، تلك المدينة – ابو شهرين – تقع في منطقة شبه صحراء رملية، صورتها الحالية هكذا تعاني من أهمال كبير، بيد أنها لم تكن كذلك في العصور القديمة إذ تشيرالكتب التي تناولت الحضارة التي نشأت فيها إلى أن نهر الفرات أو فرعا منه كان يرويها من بعد مروره بمدينة أور القريبة منها وتبعد عنها مسافة 25 كيلو مترا باتجاه الشمال الشرقي، وأبرز ما يشاهد الآن من بقايا المدينة بضعة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا البرج المدرج " الزقورة " الذي يرجع اصل بنائه إلى فترة العصر الشبيه بالكتابي، وقد شيد بالآجر بشكله التاريخي في عهد سلالة أور الثالثة في حدود

2100 قبل الميلاد كما يدل على ذلك وجود الآجر المختوم بأسماء الملوك من تلك السلالة واشتهرت مدينة أريدو في تاريخ حضارة بلاد مابين النهرين ومآثرها الدينية بكونها مركز عبادة الآله الشهير أنكي – آيا – إله الحكمة والمعرفة والماء، الذي أشتهر في العقائد الدينية وفي الآداب والأساطير وهي أيضا أولى المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات من الملوك في عصر ما قبل الطوفان، المدينة التي تبلورت فيها فكرة نشوء الديانة تكونت أرضها من ترسبات الطمي والغرين الذي ترسب من مياه الفرات الذي كانت تتصف شواطئه بالحافات الرملية ومع مرور الزمن نبت في تلك الأرض القصب والبردي حيث كان الماء يمتد وتتشكل المستنقعات والمساحات المغمورة، تكونت مناطق الأهوار والغابات القصبية وتكاثرت فيها الخنازير ومختلف الزواحف والطيور البرية، نمت الحياة في تلك المنطقة بشكل رائع حتى أطلق عليها " جنة عدن " وصار تكاثر وجود المياه والثروة الحيوانية يفرض مشهدا مؤثرا لوجود حياة ثرية " الماء سرّ الحياة " لذا أطلق شعب سومر على الإله " أنكي " إله المياه، كلما تأمل السومري ذاك المشهد الذي يعج بالحياة والتوالد البشري – الحيواني وبنماء النبات - شعر بالخشوع وسيطرة عليه قوة طاغية مندفعا للتعبد والصلاة لمن وهبه تلك النعمة الكبيرة، في قرارة نفسه هو يريد ان تفتح له مجالات أخرى لكي يسبر أسرار الكون ويقترب بخطوات الى مناطق المعرفة والعقل ليكون قريبا حد الإلتصاق من تلك القوى المهيمنة على هذا التكوين المذهل- كان يريد كشف المحجوب من ماوراء الطبيعة – كان يرى سرّ الكون مرسوم على صفحة المياه إينما استدار، ولكن كيف الوصول إلى الإجابة عن تلك الأسئلة التي شغلت تفكير اللإنسان السومري الأول، كانت ثمة قوى حية يراها، يتخيلها، يسمعها تحاكي مشاعره وتفكيره وبعمق وتأمل يرصد ذبذباتها التي تحرك الحياة من حوله تلك الموجودة

في كيانه وداخل جزيئات المياه وفي القصب والبردي والزواحف والطيور والأشجار، في محيط سومر البيئي كانت الكثير من الأسئلة الأمر الذي ساعد في إنتاج الغذاء بوفرة كبيرة، كما تطورت تبعا لذلك صورة الفائض الزراعي وتحسنت أحوال المدن حيث أزداد عدد السكان ليصل إلى 40 الف مواطن أو أكثر من ذلك، والعمل على تسيير دفة الحياة وتشريع القوانين الجديدة المناسبة ومتابعة أحوال السكان ولذلك صار التفكير جديا لاختيار الزعيم او القائد، وترشحت فكرة عامة تقول – ليس من الضروري أن يكون الحاكم أو القائد للبلاد من سلالة الملوك، ولكنه أولا يجب ان يكون متفهما للحاجات الإنسانية وأن يجعل الشعب ينعم بالحريةوالديمقراطية ويعمل على جعل الجميع يعملون ضمن إطار وحدة متجانسة وقوية، الحاكم أو القائد المطلوب ان يعمل على جعل التنافس قائما بين الأفراد والمؤسسات لتقديم أفضل الخدمات للناس وللوطن، كما يجب أن يظهر الحاكم أو القائد بمظهر الوقار وعدم الكبرياء وان يحترم الشعب والمعابد والمراجع الدينية، ويأخذ بما تقترحه سلسلة المراتب بالدولة وعدم مشاركة أفراد الشعب في ثرواتهم وعدم اغتصابها، ايضا عليه ان يكون النموذج المطلوب في العظمة والمهابة والعدل والحزم ليكون في القمة المطلوبة، ويظهر السمة الرائعة التي تد على الفخامة والسلوك في التعبير، كما عليه ان يترك لدى الشعب نحوه مشاعر الرهبة والاحترام والتبجيل والطاعة وتنفيذ أوامره، تلك الإشارات وغيرها جعلت المجتمع السومري مبكرا يرسم صورة القائد او الوكيل المكلف من قبل الآلهة لحكم الشعب، وعليه ان يجمع بين القيادة الأجتماعية والصلة الدينية، وهكذا كانت السلطتان مطلوب توفرهما في النموذج المنتخب للقيادة، تلك الأفكار أنبثقت من تأثير القوة الرعدية والرعب الذي رافق الطوفان والفيضانات المتكررة وشحة المياه أحيانا بما ينشر القحط

والجوع، ظلت حالة الخشوع مرتبطة بتوفر الخير واستمرار الحياة اليسيرة، في العودة إلى تلك التوصيات كان المطلوب ظهور الحاكم الخارق مع بقاء مساحة لديه تجسد النموذج الإنساني، الملك أو الحاكم المنتخب لابد أن يدرك قيمة الإرتباط بتكوين مجمع المياه العذبة - الابسو - وما تلقيه في النفس والمشاعر العميقة من خشوع تام، بهذه القاعدة الفكرية لفلسفة الحكم في المدن القديمة لبلاد ما بين النهرين وصارت هي المرآة التي تظهر فيها صورة الحاكم وأفعاله ومن خلالها تتم حالة الحكم عليه أو نقده، هناك أعتقاد يقود إلى ان الملك aNNEPDDA وأبوه وهما من الأسماء التي تضمنها سجل اثبات ملوك سومر وأيضا اعتبرا من مؤسسي السلالة الأولى في " أور " التي ينتسب إليها حكام السلالة الأولى، وهكذا اجد من الواضح وجود الإشارة إلى أحد أولئك الملوك السومريون الأوائل الذين ظلول لمدة طويلة مجهولة أخبارهم، ولكنهم من خلال الأكتشافات الآركيولوجية أصبحوا حقيقة مؤكدة، أيضا هناك اعتقاد ان الملك MESANNEPADDA كانت فترة حكمه من 2560 قبل الميلاد، أخيرا في العام 1959 العالم الألماني " D.O.EDZARD" الذي وجد في المتحف العراقي مزهرية كبيرة نقش عليها ثلاثة كلمات واعتبرت اقدم مخطوطة قديمة جدا والكتابة تقول " مي - باراك - سي- ملك كيش " هذا الملك كما رأى العالم " ADZARD" يعتبر ضمن القائمة السومرية بمثابة الملك الثاني والعشرون من السلالة الأولى الأسطورية التي حكمت مدينة كيش وهو والد الملك " آجا - AGGA" الذي نتذكر أنه قاتل ضد الملك المشهور " جلجامش " وكان ذلك التاريخ آخر مرحلة لمدينة لجش وفق المعلومات التي عثر عليها في موقع " خفاجي - KHAFAJE" خلال عمليات البحث الآركيولوجي وكما مثبت في تفاصيل حكم الملك جلجامش ملك أوروك.



...and the Origins of Writing

It is said that "history begins at Sumer" because history is the written record of events, and around 3000 B.C. the Sumerians invented writing. Of course, they didn't start by writing history. Their earliest writing kept track of business transactions.

➤ **SMALL CLAY TOKENS,** probably representing different items, such as grain or sheep, were an early form of a bill accompanying shipments. Tokens (below) were put into a clay sphere (right), which had cylinder seals rolled over them to produce records.

▼ **WITH WRITING** came the desire to send a letter. In Mesopotamia, that could be done! The Mesopotamians invented the earliest example of a postal envelope. A letter was written on a small clay tablet (right) and enclosed in a clay envelope (below, far right) with the name and address of the recipient.

◄ **SINCE MESOPOTAMIA** had few trees for making paper, writing was scratched on clay tablets. This chart shows how their writing, cuneiform, developed from earlier pictographs (picture writing).

MAGNIFICENT MESOPOTAMIANS

Enheduanna, daughter of Sargon the Great, learned to read and write at an early age. When she was a teenager, her father made her high priestess to Nanna, the moon god of Sumer. She held the position for 25 years, expressing her religious feelings in poems. Besides penning a series of 43 hymns to the temples of Sumer and Akkad, she wrote a cycle of poetry to the moon goddess Inanna (right). Enheduanna is the first author to be known by name.

➤ **THE BABYLONIAN** map of the world, of which this is a copy, is the earliest known world map. Made 2,700 years ago, it shows the Euphrates River (parallel lines in the circle), crossed by Babylon (top rectangle in the circle), and nearby countries (small circles).

➤ **ASSYRIAN KING** Ashurbanipal (668–627 B.C.) founded the first national library, at Nineveh. Clay tablets were stored on shelves in baskets, while catalogs were prepared giving the contents and location of the various baskets.

والذي ورث عنه الحكم سبعة من احفاده الذين حكموا من بعـده لمـدة 140 سـنة قبـل إسقاط حكم سلالته من قبل الملك " MESANNEPADDA" – هناك أفتراض يفيد بأن الملـك " mebaragesi" حكم في العام 2700 قبل الميلاد واعتبر ذاك التـاريخ نقطـة البدايـة والتحـول في بلاد مابين النهرين القديمة، وأن الملوك الـذين حكمـوا مدينـة " كـيش " كـان عـددهم 21 ملكـا سـبقوافترة حكـم الملـك المـذكور ومـنهم أربعـة ملـوك حكمـوا مدينـة " أوروك " بفـترة سـبقت حكـم الملـك " جلجـامش " ذاك التحديـد سـد فـراغ المرحلـة التاريخيـة بـين 2900-2700 قبـل

الميلاد، ولا يوجد أي شك من أن هؤلاء الملوك السومريون لهم حقيقة في وجودهم وقد تحول البعض منهم إلى أبطال لاحقا، تؤكد المعلومات ان الملك " إد الأول و- إد الثاني " وحسب البيانات الآثارية أو النصوص القديمة والتي لم تقدم التوضيح الوافي المطلوب حول المرحلة التاريخية منذ العام 2500 قبل الميلاد وإلى مرحلة متقدمة حيث تم العثور على ألواح تعزز تلك الفرضيات وتقيم الدليل على صحتها، بالإضافة إلى ترجمة عدة ألواح أدبية وأيضا قضايا ومعلومات إدارية وقانونية وأقتصادية وخاصة تلك التي ترجمها " abu salabikh" ولاحقا " girsu" وتلك قدمت مخططا مكتملا عن الوضع السياسي والتأريخ الأجتماعي في مملكة سومر، كما ظهرت فيما بعد عدة ألواح عليها نقوش قليلة تحمل في الغالب أسماء الملوك وجدت نسخة منها في آثار مملكة " ماري – mari" الواقعة في منطقة الفرات الأوسط وخاصة أجزاء من مزهرية عليها كتابات وتماثيل صغيرة تم اكتشافها في منطقة "خفاجي – khafaje" من أجزاء وادي " ديالى "، كل هذه النصوص قدمت الفكرة المؤكدة عن حضارة بلاد ما بين النهرين الجنوبية، الجزء الشمالي من البلاد ظل المعلومات عنه للأسف مجهولة، على كل حال يقول العلماء يجب أن لانفقد الأمل، مثلا وجدت ألواح في موقع " إيبلا – ebla" تلك الألواح قدمت فكرة بأن المستقبل القريب قد يحمل الكثير من المفاجآت، لايمكن تقدير قيمة الأكتشاف بالكامل ويجب أن نذكر حقيقة أن شمال سوريا لم تكن المعلومات عنه متوفرة عمليا في مجال الآركيولوجيا حتى العام 1974، ولكن كانت كما يبدو ضربة حظ قد حصلت في السنتان التاليتان عندما تم الاتفاق مع علماء الآثار الإيطاليون الذين ابرم عقدا معهم للتنقيب في موقع " تل مرديك – tell mardik" وهو بمثابة تل كبير يقع على بعد 60 كم جنوب غرب مدينة " حلب " العلماء تمكنوا من كشف خرائب قصر يعود للفترة بين 2400-

2250 قبل الميلاد ومن بين الاكتشـافات في ذلـك الموقـع العثـور عـلى حـوالي 1015 مـن الألواح الطينية التي تحمل إشارات مسمارية من ذات النوع الذي استعمل في مدينـة " سومر " و" كيش " العديد من الجمل والكتابات كتبت باللغة السـومرية" "logogram وأخرى كتبت على شكل مقـاطع – تخبرنـا تلـك الألـواح أن مدينـة " إيـبلا " كانـت قـد ذكرت في عدد من نصوص بلاد ما بين النهرين، وتم البحث عـن تحليـل تلـك النصـوص وعندما تكاملت المعلومات ظهـرت أهميـة الكشـف عـن تلـك الألـواح المسـمارية عـن اهمية كبيرة لمدينة – إيبلا – فهي مدينة كبيرة ومملكة لها دور حضـاري هـام وظهـرت في منطقـة شـمال سـوريا وكانـت مزدهـرة وقويـة نسـبيا، زود ذاك الاكتشـاف العـالم بمعلومات منظمة ورسم هيكلا اجتماعيا لتلك المجتمعات القديمة وعن التجارة وطرقهـا والعلاقات بين تلك الدول – تلك التي كان لها الأثر في تكوين الصلات الثقافية مـع تلـك المملكة التي ظلت منسية لفترة طويلة، وكما ورد سابقا فأن الدولة التي كانت موجودة في سومر من الفترة المبكرة تركت لنا أرشيف واسع ومفصل، ساهمت نصـوص مملكـة " إيبلا " بتوضيح حقائق مهمة عن حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة، اغلب المعلومـات الواردة في تلك الألواح تأخذ طريقها إلى النشر الآن وربما ستظهر معلومات جديدة تغير الكثير من المعلومات القديمة، أظهرت تلك الاكتشافات وعمليـات التنقيـب التـي جـرت معلومات جدا مهمة تتعلق بفترة الألفية الثالثة قبـل المـيلاد، خاصـة عمليـات التعمـير التي جرت في " أوروك " والتي وصلت قمتها أنذاك، كما رسمت صورة واضحة عـن كـل بلاد ما بين النهرين في تلك الفترة وكيف اختفت الكثير من القرى في جنوب بلاد مـا بـين النهرين في تلك الفترة وكيف اختفت الكثير من القرى في جنـوب بـلاد مـا بـين النهـرين لتظهر بدلا منها المدن الكبيرة المتزايدة المسـاحة والسـكان وأفضـل مثـال عـلى ذلـك أن

مدينة – أوروك – أصبحت عاصمة ضخمة تغطي مساحة حـدودها أكـثر مـن 400 هكتـار يسكنها بحدود 40 – 50 ألف إنسان كـما ظهـرت وتطـورت مراكـز حضـارية وتطـورت إلى مستوطنات شكلت ظاهرة في تاريخ الجزء الشمالي وخاصة البلـدات التـي حـددت تكـوين مملكة ماري كما هي الحال في تل الحريري – tell hariri" الذي يقع في منتصف الطريـق بين مدينة سومر وشمال سوريا ومدينة قلعة الشرقاط الآشورية – qalaat sherqat" عـلى بعد 90 كيلو مترا جنوب مدينة نينوى – الموصل الحديثة والأسم القديم يحمل اسم " teel taya" أسـفل جبـل سـنجار – sinjar" وكـذلك " tell khueira" الواقعـة عـلى الحـدود السورية – التركية، بالقرب من نهـر " البلـيخ – balikh" وأيضـا " الخـابور – alkhabur" هناك حصل النمو الحضري والتمدن على شـكل إنتشـار منـاطق ريفيـة واسـعة عـلى نحـو استثنائي، نفـس الإنتشـار حـدث في منطقـة " ديـالى – diayala" وهـي المنطقـة الشـمالية الشرقية من بغداد، حيث كشفت التنقيبـات الآثاريـة وجـود عشرة مـدن رئيسـية وتتبعهـا تسعةعشر من البلدات الصـغيرة وسـبع وسـتون قريـة كلهـا عـلى منطقـة تمتـد عـلى نحـو 900 كيلـو مـترا مربعـا، كـان ذلـك الفـتح قـد حصـل هـلى سـبيل المصـادفة مـن خـلال جهود علماء الآثـار الأمريكـان الـذين عملـوا في العـام 1930 ونقبـوا في ثلاثـة مواقـع مـن اجزاء تلك المنطقة وهي – منطقة تل أسـمر tell asmar– و – أشـنونا ashnunna– و- خفـاجي khafaje وقـدموا تصـورا يقـول أن تـل عقـرب – tell aqrab يقـود إلى كشـف معلومات مهمة عن فترة السلالة المبكرة، كانت تلك المنطقة قاعدة مهمة لحضارة بـلاد مـا بين النهرين فيما يتعلق بالألفية الثالثـة المبكـرة قبـل الميلاد، والـذي أحـيط بسـياج وعـزز في بعض المناطق بوجود أبراج، هذه التحصينات كانت تتطلبها أوضاع حماية المدينـة مـن الهجـمات الحربيـة المتكـررة، وكـان قـرار ذاك البنـاء يعـود إلى فكـرة الملـك السـومري "

إد الثالث – ed iii" وقد ذكرت الألواح قصة الكفاح والمواجهة بين دول المدن ضد المحتلين الأجانب وغزواتهم المتكررة على مدينة سومر، كانت أقوام همجية تكرر هجماتها منطلقة من منطقة تل طاية – tell taya" ولهذا بنو حصنا حول مدينتهم بشكل قوي ورفعوا حائط مدينتهم من خلال تقوية السور الحجري بإرتفاع ثلاثة أمتار، ما عدا بعض الحالات فإن كل البلدات الشمالية كانت خاضعة بدرجات مختلفة للسيطرة السومرية وكانت ثقافة شعب سومر قد أثرت على تلك المدن وخاصة في مجال الفن والهندسة المعمارية ونظرية الدين وأحيانا ظهرت فخاريات متشابهة، هذا دفع علماء الآركيولوجيا إلى الأعتقاد بوجود مستعمرات سومرية من قبل السكان الساميين، ولكن لم توجد نصوص تدعم تلك النظرية أو الأفكار التي تحدثت عن ذلك يخص الفترة السلالية المبكرة.



ولكن الظاهرة الأكثر تأكيدا هي أن ثقافة سومر أنتشرت الى العالم المحيط القريب والبعيد من خلال الصناعة والتجار السكان لأهداف عديدة حيث يتفق أغلب علماء الآثار على أن ثقافة الفترة السلالية المبكرة ترتكز على قاعدة ثقافة أوروك – جمدت نصر uruk jemdat nasr وهذه الحقيقة مؤكدة من عدة جوانب مع وجود تساؤلات صعبة تدور حول أمور لم يتم تأكيدها بعد، حيث هناك أدلة تعتبر مختفية تتعلق بفترة حكم الملك " إد الثاني – edii اختفاء معلومات مهمة قبل نهاية حكم الملك " إد الثالث – ed iii" حيث دخلت مادة إنشائية غريبة وتشخيص يتطابق مع تلك الأفكار التي سبق ان استعملت في وادي الرافدين قبل وبعد تلك الفترة وهناك أدلة تتعلق بشكل الطابوق المحدب وشكل أرغفة الخبز كما وجدت تلك الملاجيء الكلاسيكية الثلاثية والبيوت المحيطة بها، والمعبد البيضوي الذي وجد في منطقة " خفاجي – khafaje" وشكل الأعمدة والبناء يعود إلى ذات الطابع الذي ميز بناء معابد أوروك ويشابه إلى حد بعيد " معبد تل عقير – tell uqair" وذلك يعكس تطور وتأثير بعض السلالات المبكرة في بلاد ما بين النهرين على المناطق المجاورة وذاك يعود إلى أسباب جغرافية وثقافية وامتداد السيطرة وخاصة في منطقة " ماري " على سبيل المثال التشابه في بناء معبد " nina zaza" الذي شيد من خلال الأعمدة المخروطية الشكل وأنتقل ذلك الشكل إلى مناطق أخرى من سوريا وفلسطين وأبعد شمالا وجد نموذج مطابق في منطقة " tell khueira" بالقرب من الحدود التركية الحالية يستند في بنائه إلى قواعد من الحجارة وله أروقة معمدة مفتوحة تشبه المساكن الأناضولية، وفيها لوحات على الجدران مثيرة بأفكار رسومها وتماثيل منحوتة تمثل وقوف المصلين في المعبد مرة وهم يقفون على المقاعد المصنوعة من الطابوق والتي تم اعتمادها في أغلب المعابد وهناك أوضاع أخرى تمثل وقوفهم وقد طويت

إيدهم أمام صـدورهم، رجـال ملتحـين غـير محلـوقين الشـعر الطويـل وهنـاك مـنهم رؤوسهم صلعاء وهم يلبسون التنورة السومرية الصوفية التقليديـة، أمـا النسـاء فقـد لففن رؤوسهن في نوع من القماش وكن يحـدقن في بعـض التماثيـل المقدسـة بعيـون صنعت من الصدف والدر وكانت أحلى العيون في التماثيل القديمة وأجملها تلك التي وجدت في موقع " tell khueira" وأيضا في موقع " tell es- sawman" تعود الى فترة منتصف الألفية الثانية، مثلت تلك التماثيل الصغيرة نوعيات مختلفة من فن النحت، تطابق ذات التماثيل التي تم اكتشافها في معبد عشتار القديم وأيضا في حضارة آشـور بارتفاعات متوسطة وانتشرت على نحو واسع ووجدت نماذج منهـا في " tell asmar" على شكل تماثيل صلبة ولها عيون موسومة بالحزن وذات أجسـاد ضـخمة ولهـا لحـى متموجة رائعة وأكثر من جميلة، على النقيض من ذلك العديـد مـن التماثيـل كشـف عنها في منطقة " ماري " بصور رائعة جدا، بـالرغم مـن بعـدها الجغـرافي عـن سـومر ولكن النحت الرائع لا يمكن إلا أن يكون هو الفن السومري الذي يمثـل تلـك الثقافـة القوية المؤثرة وهو نتاج فنانين محليين اسـتمدوا إلهـامهم مـن سـومر وهـم في واقـع الأمـر أسـلاف النحـاتين العظـماء الـذين ظهـروا خـلال الفـترة الآكديـة بكـل تلـك الغرابة والإبهار في مجال المنجز الفني وهنا يمكن الإشارة الى تكـوين المعبـد البيضـوي في " خفاجي – khafaje" العائلالة الثالثة المبكرة وتلـك الحيطـان المبهـرة وقـد كـرس ذاك المعبد الفخم لعبادة الإلهة كما يتطابق ذلك مع تماثيل المصلين التي اكتشـفت في " نفـر – nippur" و " كيرسـو – girsu" في وسـط تكـوين مدينـة سـومر وذلـك يعطي إنطباع وجود عن التحف التي طبعت فـترة حضـارة أوروك وهـو بمثابـة حالـة استثناء في تاريخ الفن البشري، لكن من العدل ان نقول نقول ان فن السـلالة المبكـرة هو أبعد ما يكون عن الإنحطـاط ولهـذا أزدهـرت فـيما بعـد في بـلاد مـابين النهـرين

الفنون من الفخاريات الجذابة وكانت سلع للبيع والاستعمال والديكور وتزيين المنازل منذ مرحلة جمدت نصر، من ناحية أخرى أنتجت الكثير من المواقع في وادي دجلة الأعلى ومنطقة الخابور ونينوى عينات رائعة من الخزف في باديء الأمر ثم فيها استخدام الألوان ثم الحزوز والتدوير والنهايات وبأشكال رائعة لتكون أماكن لوضع الفاكهة الطويلة بقواعد لها قوائم ترتكز عليها مزهريات عالية الاكتاف لزوايا البيوت وطاسات تمثل نوعيات فنية عالية الدقة والتكوين، كما تطور فن الحجارة ليتجه نحو صناعة الاختام الإسطوانية القصيرة والضيقة منها من يحمل أفاريز لها شكل الحيوانات المخططة أو ذات التصاميم الهندسية، ثم تطورت إلى نماذج أطول وأوسع بتراكيب مختلفة كليا واتخذت تصوير مشاهد لمآدب أو حيوانات وشرب للرجال والنساء تلك الكؤوس والجرار الطويلة صارت تمتلك أنبوب، كما تضمنت مشاهد حيوانات مثل هجوم الأسود على الماشية أو اندفاع الرجال العراة الأبطال وهم يصيدون الثيران والجاموس والآيائل، كما كانت هناك بعض المواضيع الدينية مثل تجسيد آله الشمس على ظهر مركب، بمرور الوقت بقيت نفس التراكيب الاساسية، المهارة العظيمة لدى الصُناع تطورت، بعض الاختام التي ظهرت لاحقا جسدت الملوك والحكام والمعابد والأعيان وقد صنعت من أحجار اللازورد أو نصف الأحجار الكريمة الأخرى، أوتم تطعيمها بالذهب أو أحيانا بالفضة خاصة في مناطق النهايات والمقابض، ومن الطريف ان ظهور النماذج الأولى من تلك الفخاريات من زمن جمدت نصر قد حملت النقوش المسمارية القصيرة منقوشة على الاختام أيضا، على كل حال تقدمت سومر كثيرا من خلال من خلال اكتشاف طرق صناعية مبتكرة لاستخدام البرونز والمعادن الثمينة الأخرى كما ظهر ذلك في القطع النادرة التي اكتشفت في المقبرة الملكية في مدينة " أور " في تلك الفترة تم إبتكار

صناعة الذهب ووصلت إلى درجة كبيرة من التطور وإلى فن لا يجارى في أي حضارة معاصرة أخرى، لكن السومريون كان لزاما عليهم استيراد المادة الخام والتي تدفع اثمانها عن طريق مقايضتها بالحبوب والجلود والصوف والمنسوجات وصناعة التماثيل ومادة القار، وهكذا تمكن السومريون من تطوير اقتصادهم كما تطور هيكلهم الاجتماعي وفلسفة الحكم والشعيرة الدينية وتركوا لنا آثارا أدبية رائعة فيها يركز أنتباهنا على تلك البلاد الصغيرة ذات الثلاثون ألف كيلومترامربعا وهي أقل بعض الشيء من خريطة بلجيكا الحالية، أو هي تقدر بمساحة أربعة أو خمسة مقاطعات إنجليزية، وظلت حياة السكان فيها تتركز بالقرب من نهر الفرات والقنوات والأنهار للحصول على المياه للري وللحياة، تلك المنطقة التي كانت مهد الحضارة، كانت خريطتها تمثل في واقع الأمر شريطا ضيقا جدا من الأرض يمتد من خط عرض بغداد إلى المستنقعات التي تجاور سواحل ومناطق الخليج العربي، كان هناك ثمة خلاف في اللغة مابين " نفر " و " كيش " حيث تم وصف مجموعة بالساميين وذاك يحدد حجم سومر وهي المدينة الأصغر والتي كانت قبل الألفية الثالثة قبل الميلاد، كلا من سومر وآكد مقسمة كوحدات سياسية إلى " دول المدن " وكل قسم من تلك التكوينات يشمل المدن والضواحي والبلدات والقرى وكل من تلك التقسيمات لها حياتها الخاصة ولها خريطة تبين فيها كل منطقة بشكل واضح المعالم وتشمل " الحدائق – البساتين – النخيل – حقول الشعير والحنطة " أيضا من الجدير بالذكر أن لها سهول مفتوحة بين المناطق ويتم سقيها – كانت تمثل أراضي لأفضل المراعي – تلك الدويلات كانت تمثل تكوينات مدنية متطورة وكانت لجش بمثابة أكبر تلك المدن – تذكر التقارير ان مساحتها تقدر ب 2880 كيلو مترا مربعا وعدد سكانها يقدر بحوالي 30 ألف الى 35 ألف نسمة، وتذكر ذات التقارير عن الفترة السلالية المبكرة

وجود 18 مدينـة رئيسـية في كـل مـن مـدينتي " سـومر – آكـد- تتجـاور مـن الشـمال إلى الجنوب مثل – سيبار، كيش، اكشاك – لاراك – إيسن – نفر – آدابا – زبلامـا – شروبـاك – أوما – كرسو – لاجاش – نينا – بادتيبيرا – أوروك – لارسا – أور – أريـدو " ولكـن العديـد من البلدات والقرى الأخرى غير معروفـة أسـمائها لحـد الآن، مـع أن العلـماء كشـفوا عـن مواقع أخرى مشابهة لموقع " تل العبيد – أبو الصلابيخ " ولكن أسـمائها الحقيقيـة مازالـت مجهولة، كل مدينة سومرية كانت تتشكل من عدة مناطق – لكل منطقة معبدها الخـاص بها وكذلك آلاهها المعبود، المدينة وأرضها ككل كانت تحـت حمايـة إلـه وطنـي هـو الـذي يرعى بشكل مثالي تلك المدينة – على سبيل المثال " مدينة أوما لها الآله " شارا "- ومدينـة أور لها الآله نانا آله القمر " وكذلك بقية المدن – هذا يقود إلى فهم الاستقلالية الدينيـة في العبادة، كان ذلك من أسباب عوائق التوحد، كانت الشعيرة الدينية تعتـبر مفهومـا خياليـا، تلك الحقيقة تكشف عنها السجلات الإدارية الأولى التي توفرت بأعداد كبيرة ووجد البعض منها في معبد الآلهة " بابا " في مدينة كيرسو – توضح تلك السجلات أن كل أرض الدولـة أو المدينة كانت تعود ملكيتها إلى المعابد وجميع البشر الذين يسكنونها كانوا بمثابة الخدم أو اتباع المعبد، هذه كانت من الحقائق التي أرتبطت بالوضـع السـابق لغايـة ظهـور وأرتقـاء أوروك، لكن الألواح التي عُثر عليها من قبل علـماء الآثـار في فـترة قريبـة تقـدم معلومـات مختلفة عن تلك التي شاعت في فترة سبقتها عن الحضارة السومرية، تلك المعلومـات التـي تقول أن ثلث الأرض الصالحة للزراعة والتي تحيط بالمدينة كانـت ملكيـة واضحـة للمعبـد وهي تحت تصرف الكاهن ولايمكن بيعها أو تبادلهـا وهـي تقسـم عـادة إلى ثلاثـة أقسـام وعلى النحو التالي:

- أرض الآله " جانا – نا – اينا "

" وهي يكون حاصلها لإطعام الكهنة والأشخاص الذين يعملون بخدمة المعبد "

- أرض الطعام " جانا – شكورا "

" حاصلها يوزع على شكل حزم صغيرة إلى المزارعين الذين يعملون في مجالي الزراعة والحصاد أرض الإله وإعالة بعض مسئولي المعبد لتأمين حياتهم، ويمكنهم أن يأخذوا من المحصول في أي وقت يشاؤون فيه.

- أرض الحراثة " جانا – أورو – لا "

وهي أرض تركت خارج المساحة الأولى والثانية ويتم عرضها للمستأجرين على شكل مجموعات تتكون من سبعة أشخاص أو ثمانية – أثمان إيجارها تعود إلى المعبد، كما استغلت المعابد في مرحلة لاحقة استئجار البساتين والمراعي الطبيعية والثروات السمكية بالإضافة إلى قطعان الماشية، كما سيطر المعبد على ناتج الفاكهة وكانت المردودات كبيرة جدا، لذلك تم استخدام اقسام خاصة للتسجيل والتنظيم والمتابعة وأيضا جهاز خاص يتكون من موظفين للإحصاء والمحاسبة وكتبة ومسئولين عن إدارة تلك الطواقم وكان جزء مهم من ذاك المحصول يتم تخزينه لأيام الجفاف، تلك الفترة كانت بداية تشكل الظاهرة التجارية يتم ذلك عن طريق تبادل السلع المستوردة بسبب الناتج الفائض، كما كان يمنح من ذلك الفائض هبات للناس الفقراء أو يتم توزيعه كأجور لقاء خدمات تقدم للمعبد أو يمنح للنساء الأرامل وللعبيد والأسرى وللعمال الذين يعملون بشكل دائم في الورشات ومباني المعبد أو الذين يطحنون الحبوب أو الذين ينسجون الصوف أو شعر الحيوانات أو الذين يصنعون الخمر والجعة أو يعملوا كطباخين أو خدم تنظيف البساتين والبيوت وعادة ما تدفع الحصص، بينما كان مزارعوا المعبد يمكن أن ينخرطوا في التعبئة العامة للحرب أو ما يسمى

بالنفير العام - بقرار من الحاكم أو ضمن خطط الأشغال الواسعة مثـل بنايـة الملاجـيء والتحصينات وحفر القنوات، كما ان سلم الأجور كان يتفـاوت مـن مكـان لآخـر حسـب أهمية الموقع وأيضا بتحديد ساعات العمل، كل هذا التخطيط الدقيق المطلـوب بشـكل مستمر والسيطرة والمحاسبة تكشف ان السومريون كانت لديهم عقول منظمة ودقيقة في إنجازها بشكل جيد جدا ليس فقط في العمل حيث كانوا يعدون آلاف قوائم الرواتب ومستندات الصرف وكذلك قوائم بإسماء العهمال ومواقع عملهـم وإنتاجيـة كـل واحـد منهم وكتابة الوثائق اليومية عن سير العمل في مختلف الأماكن ونحن وجدنا في الألـواح الطينية التي اكتشفت في موقع كيرسو girsu وشورباك shuruppak تم تقسـيم أعضـاء المهن من أصحاب الدرجات العالية في اختصاصاتهم المهمة والتي تعتبر نادرة أو شائعة، مثلا كان هناك رعاة مخصصين لرعاية الحمير الذكور وهناك مثلهم لرعايـة الحمـير مـن الأناث، وصيادوا الأسماك أيضـا منفصـلين مـنهم مـن يتخصـص للصـيد في الميـاه المالحـة خاصة المناطق البحرية منها ومنهم من يكون مجال عمله الصـيد في الأنهـار أو منـاطق المستنقعات القصبية مثل الأهوار وهنـاك صـيادون اختصاصـهم الحيوانـات مثـل صـيد الأفاعي وهم ينتظمون في تجمع له رئيس بما يشبه في وقتنا الحاضر شركـة صـغيرة، كـما تم تنظيم عمل عمال الصناعة والتجارة ومنحهم الموافقات للتجارة مع البلدان الأجنبيـة البعيدة مثل أفغانستان ووادي الهند والسند، وكان لـدى السـومريون جيشـا كبـيرا مـن الكتاب ورجال السيطرة والمراقبون ومسئولون آخرون في وظائف أخرى، ويتم تـوجيههم من قبل مفتشين رئيسيين، يطلق على الواحد مـنهم لقـب " نـو - بانـدا " ويطلـق عـلى المدراء لقب " أكراك " وجميعهم يعملون تحت أمرة الكاهن الأكـبر الـذي يطلـق عليـه لقب " سانجا " كل معبد يدير شؤون ممتلكاته بشكل معقد وفي دقة التنظيم والمتابعـة

والمحاسبة المستمرة، كان قصر الحاكم معروف أيضا بدوره وإدارته ويقدم صورة عن الحاكم الذي يحتفظ بسبعمائة جندي كما ورد في أحد الألواح المتعلقة بفترة مدينة شروباك في 2600 قبل الميلاد، أولئك الجنود كانوادائما في أجهزتهم الخاصة وكانوا بمثابة حراسه الخاصين ويتم انتخابهم من أفضل القوات في الجيش المنظم في دولة المدينة، كما استخدم الحاكم أصحاب المهن المختلفة للأشراف على عقاراته، ونجد ذلك واضحا من خلال الألواح الطينية التي أشارت إلى عدد من العقود التي تتحدث عن شراء أراضي بين الحين والآخر من الأفراد الأغنياء أو الموظف الكبير، هنا لا يمكن تقييم حجم ملكية الحاكم واتباعه أو حصر أملاك الأمراء ورجال السياسة في تلك المرحلة حيث ندرت الوثائق بهذا الصدد، ولكن الشائع ان الحاكم كان يملك اقطاعيات كبيرة وأفضل أنواع الأراضي المنتجة وبما يماثل مايملكه المعبد، كما ظهرت عقود كثيرة وعديدة في آكد للاشخاص الساميين تشير إلى ان أصحاب المواقع والرتب يمكنهم ان يبيعوا بحرية تامة ويمكنهم التبادل والتبرع أو الشراء للحقول أو الحدائق أو برك الأسماك أو البيوت والماشية والعبيد الذين كانوا يعودون إليهم أو يتم شراءهم من آخرين وتتفاوت حيازة الملكية الخاصة طبقا للمركز الأجتماعي والوظيفي للمالك، أحيانا يصل إلى أكثر من 240 هكتار للموظف الكبير ويكون أصغر بكثير حيث يصل إلى 6 هكتارات للموظف البسيط، أما بالنسبة للهيكل الاجتماعي في دولة المدينة فأن الألواح الطينية ذكرته على النحو الآتي:



- الأحرار
- العبيد
- الطبقة الحاكمة

وقد ورد ذلك التوضيح في النظام الاقتصادي الثلاثي وقد وصفه تكوين الفترة السلالية المبكرة للتكوين السومري وقد تم تقسيم ذلك المجتمع الى ثلاث طبقات رئيسية كما ورد في أحد الألواح:

- طبقة القاع أو العبيد

- طبقة الجند، وعادة هم من أسرى الحروب أو ممن تم اختطافهم من البلدان وأيضا العمال والفلاحين الذين يخدموا المعبد أو قصر الحاكم، أو الذين لا يمتلكوا أي أرض أو أملاك..
- ملاك الأراضي الواسعة، وهم " الأحرار " الذين لديهم السيطرة على الصُناع ولهم روابطهم مع العائلة الحاكمة ولهم تأثيرهم في الأقتصاد والصناعة والزراعة ولهم أساطيلهم التجارية مع الدول الأخرى..
- الحاكم، وهو راعي الجميع وقد اختاره الإله وجعله المسئول عن حياتهم وهو الذي يوفر الآمان والأزدهار لدولة المدينة، وقد سجل ذلك على الألواح الطينية التي عثر عليها في مدينة أوروك القديمة ويدعى بلقب خادم الآله، وهو يجمع بين الوظائف السياسية والدينية ويتم انتخابه أو ترشيحه من خلال المعبد وأحيانا هو قد وصل إلى درجة الكاهن الأكبر أو ما يسمى بخليفة الآله على الأرض وبمثابة رئيس المعبد، وهكذا نجد نماء وتطور جميع الأوضاع في سومر واستمرارها هذا التوصيف حتى القرن التاسع عشر قبل الميلاد - كان الحاكم يعتبر " الرجل العظيم " وقد يحكم عدة ولايات أو دول أو مدن وعرفت زوجة الحاكم بلقب " السيدة " أو الملكة وهي تلعب عادة جزءا مهما في الحياة العامة وتساهم في إدارة شؤون معبد الإلهة مثل ما يذكر عن إدارة شؤون معبد " بابا " حيث يعيش الحاكم وعائلته في قصر - بمثابة بيت كبير وقد عثر على ثلاثة قصور في بلاد ما بين النهرين أثناء التنقيب واحد منها في مدينة أريدو وآخر في مدينة كيش وقصران متداخلان في مدينة " ماري " توجد بعض الاختلافات في بناء تلك القصور ولكنها متماثلة من حيث الشكل الهندسي، كل قصر منها له فناء مركزي مربع يحيط بالغرف من ثلاثة جوانب ويتصل بها، على الجانب الرابع توجد غرفة مستطيلة عملت

كقاعة للجمهور، كما يوجد حائطان سميكان متوازيان يشكلان ممرا يحيط البناية، في " ماري " احتوى القصر على تجهيزات طقوسية عديدة بمثابة أماكن صلاة ملكية، في " كيش " توجد بناية ثانية بجانب القصر تتضمن قاعة واسعة بأربعة جدران ذات أعمدة من الطابوق ولها رواق، كان الحاكم الذي يحكم المدينة نيابة عن الآلهة، هذا متبع كقانون لدى أقدم الملوك القدماء والحديثين كما يقود قواته ضد الغزو الذي يرتكبه أعداء بلاده، ويوقع معاهدات السلام وينظر في تطبيق الأحكام العادلة ويعيد النظر في الأحكام التي تلحق الضرر بالمحكومين، وكانت أكثر واجباته تتلخص بصيانة بناء المعابد والمحافظة على إتمام الطقوس المقدسة، حيث كانت الفكرة السائدة هي ان جميع البشر قد خلقوا لخدمة الآلهة وعلى الملك أو الحاكم أو الكاهن أن يكون في أول أولئك الذين يخدمون المعبد والآلهة، تشير النقوش العديدة الى مثل تلك النشاطات التي أرتبطت بالملوك والحكام ومن هم في صفتهم، وقد سجلت جهودهم العمرانية كما في أورنيناتو واشور بانيبال، هناك عدة ملوك في بلاد ما بين النهرين تم تجسيد مواقف لهم خلال تصويرهم في التماثيل الحجرية والبرونزية بالسلال موجودة على رؤسهم يحملون الحجارة لبناء الملاجيء والبيوت الجديدة لشعبهم، اينيس ولوجال لعبا دورا أساسيا أيضا في مواسم الأعياد أو إقامة المواكب والمراسم الدينية التي كانت تشهدها مدينة أوروك، وأيضا من المحتمل في مدن أخرى كانت تتبع سيطرتهم، كان الدور الذي سجل لحاكم السلالة الأولى مثل دور الإله الذكر في طقوس الجنس المقدس، في الحقيقة هناك سبب لهذا الاعتقاد الذي ظهر في الفترة المبكرة ضمن الألفية الثالثة قبل الميلاد، في أيام حكم " لوجال بيندا وديموزي وجلجامش " كل الكهنة والشعب في سومر تركوا لنا معلومات تشير إلى ان بعض الملوك

اعتبروا بمقام الآلهة، أو بشكل أكثر من ذلك، كنسخ طبق الأصل من إنسان مقدس وهذا سبب كبير في تطور المدينة التي كان يحكمها أي منهم، هذا قد يكون أحد الأجوبة على العديد من الأسئلة التي اجابت عليها الاكتشافات الآركيولوجية الأكثر دهشة أثناء حملات التنقيب في بلاد مابين النهرين وخاصة المقبرة الملكية في أور ـ أن اي وصف يخص المقبرة الملكية في أور نشر في الكتب والمقالات أو في التقارير الخاصة بالبحث لايمكن ان يقدم الصورة الحقيقية ولكن ما كتبه العالم " ليونارد ويللي " مهم جدا النظر إليه حيث يقدم لنا صورة عن هذا الموضوع الساحر، نحن نجد فيه كيف يندفع شعور الحماسة عمليا إلى روحه وفريقه كلما ظهرت قطع ذهبية من تلك الأرض التي أخذوا يحفرون فيها، القطع التي تخرج كانت تمثل أعجوبة الأعاجيب التي تقدم فكرة مدهشة عن ذلك العالم القديم المدفون في الظلام، في تلك المغامرة العلمية تم الكشف عن ذلك العالم البارز الموسوم بالحساسية العالية والجدية والصبر والمهارة في استخراج الأجسام والقطع الرائعة والحلي والأسلحة التي دفنت في قبور الموتى في توابيتهم وكذلك تم العثور على الحناجر الذهبية والتماثيل المصنوعة من حجر اللازورد والبرونز منها كبش في حظيرة ورؤوس ثيران ذهبية وفضية وكذلك تلك التي زينت القيثارات وغطاء رأس الملكة " بؤابي " المعروفة أيضا باسم الملكة " شبعاد – shubad" وقبل كل شيء الخوذة الذهبية الرائعة وهي من أبرز القطع الرئيسية، بعثت تلك القطع المذهلة على يد العالم " ويلي " وفريقه، من تلك القبور خرجت تشكيلات الموسيقيين بقيثاراتهم والجنود مع السيدات والأسلحة توشح ملابسهم الرائعة وهم يسيرون خلف سادتهم بكل الرغبة وهم قد أخذوا إلى القبور لكي يدفنوا معهم وذلك الفعل يمثل حالة موت غير مؤلم أبدا، لا يخامر القاريء الشك او

اي شعور بوجود حزن أو رعب من الموت، بـل تلـك مواجهـة تـم اختيارهـا عـن طيب خاطر ولم تحصل إلا لـدى الشـعب السـومري، وهـي تمثـل كـل الإعجـاب واعجوبة لا مثيل لها، على الرغم من أن التنقيب في مقبرة أور رافقتـه صـعوبات كثيرة، حيث تعود أغلب الآثار إلى مرحلة فجر التاريخ – الفترة التي تسبق ظهور السلالة الأولى أي قبل 2600 قبل الميلاد، الملك يبدو أنه يغدق الحنان على الناس المدفونون معه من ملكات وأمـراء وأفـراد الحاشـية، وجـدت في القبـور السـبعة عشر عدة نقوش معظمهـا عـلى اختـام اسـطوانية اسـمين فقـط منقوشـين هـما "meskalamdug- بطل الأرض الجيدة " و " akalamdug– ابن الأرض الجيدة " وهما مسبوقين بالتعريف " lugalاي الملك " وأسمين آخران وهما " ninbanda وهـي زوجـة meskalamdug و puabi وهـي زوجـة ملـك مجهـول ومسـبوق اسـميهما بـالتعريف – ninاي ملكـة " ويبـدو ان القـبرين قـد سـلبا في الـعصر القديم وهذا يفسر عدم وجود نقوش الملكية، هذه المعلومات المفقودة أربكـت مشهد تثبيت التفاصيل المطلوبة، وتجدر الإشارة إلى أن مرافقي الدفن الجماعـي يتضمن من ثلاثة إلى أربعة وسـبعين مـن المـرافقين وتظهـر أنثـى واحـدة ضـمن العائلة الملكية، ذلك مثبت وفق مقياس أصغر وفي الغالب الخـدم الـذكور وذات التقليـد مثبـت في العديـد مـن البلـدان خـلال أوقـات مختلفـة مـن الحضـارات الكونية في مصر مثلا أثناء السلالة الأولى وفي أثينا ومنغوليا وجنوب روسيا وحتى أوقات متأخرة كالقرن الثالث عشر بعد الميلاد، لكن ليس في أي مكان في بلاد مـا بين النهرين خارج أور، ومـن المحتمـل في كـيش، مـن الممكـن تثبيـت ملاحظـة هي ان جميع القبور الملكية في العراق القديم وجدت مسلوبة ومع أننا لا نملـك لوحا من الألواح السومرية يقدم وصفا مكتوبا عـن تفاصـيل او مراسـم الجنـازة

الملكية، ورغم ذلك الصمت الذي أحاط بغياب المعلومات حول تلك المراسم التي تبدو أنها كانت ذات أهمية عظمى وينتج عن لحظة مفاجئة كما يمكن ان يوضح على أنه مراسم دفن ملكية ترافقها تضحيات ببعض البشر يعود إلى فترة السلالة الأولى المبكرة، اختفت الألواح التي تقدم فكرة مفصلة عن التاريخ الحضاري لبلاد ما بين النهرين، ولكن السؤال الذي يطرح من قبل رجال البحث هو " لماذا كان يتم حصول تلك التضحية...؟" النص الوحيد الذي في حوزتنا يشير إلى أن الملك يذهب بجثمانه إلى القبر محاطا بحاشيته بشكل ملحوظ، نجد ذلك في مدونا في الملحمة السومرية المعروفة – بموت جلجامش – ونعرف بأنه مع الملك " meskalamdug" كانا بينهما يفصل عدة أجيال ونحن نعرف أيضا من المصادر الأخرى أن جلجامش أعتبر إله العالم الآخر وهذا يتفق مع نظرية روج لها العالم woolley وهو يعدد اسماء بعض الملوك وشخصيات اخرى مجهولة، ملوك – ملكات – المقبرة الملكية كانت تضم رفاتهم كانوا أكثر من ملوك – كانوا بمثابة آلهة، أو على الأقل يقال أنهم مثلوا الآلهة على الأرض، وكان لهم الحق في أخذ حكومتهم معهم إلى الحياة الأخرى، حياة بشر بها على أنها ستكون ممتعة صافية لكل إنسان يلتحق بها، على أية حال هذه الأفكار كانت وما تزال تتعرض للانتقاد وعدم الأعتراف، وتبق طقوس المقبرة عبارة عن مسرحية، هناك معلومات تؤكد ان ملوك بلاد ما بين النهرين توقفوا مبكرا عن فرضية أنهم آلهة وبدلا عن ذلك احتفظوا بالبعض من وظائف الملوكية والحكم، ورغم ذلك فأن الاتجاه العام في أرشيف التاريخ يقود إلى حصول افتراق تدريجي بين قصر الحكم والمعبد، وهذا التطور حصل خلال فترة السلالة الأولى أي في غضون 2400 قبل الميلاد، على أية حال هذه النظرية أيضا مثل بقية

النظريات الأخرى تخضع للانتقاد، في لجش لم يعد - أنتمينا أو أنسي - هو الكاهن الأكبر في المدينة، نجد على سطح مزهرية فضية جميلة نقوش مكرسة إلى ننجرسو وهي تذكر بشكل واضح:

- في أيام dudu الذي كان كاهنا النزاع نشب وبشكل مفتوح بين الحاكم والكهنة حول منصب entemena– اوركاجينا الملك الأخير هو ملك لجش الذي يتحدث عنه لوح ويصفه بأنه كان بطلا مشهورا وفي مصاف الألهة وهو الذي وضع حدا للإنتهاكات التي كانت موجودة قبل عهده، مفتشوا الحاكم تدخلوا في كل شؤون الدولة، هم حققوا ضرائب كبيرة خاصة تلك التي فرضت على دفن الموتى وأيضا على حفلات الزفاف، ومن أوجه الفساد ان المسئولين في الدولة كانوا يشترون البيوت تحت سعرها الحقيقي من الدولة، تلك من صور الفساد الذي كان متفشيا وعانى السكان منه كثيرا لكن الحاكم الجديد كان يعمد الى تعزيز سيطرته على العقارات الكثيرة ويزرع الحقول متجاوزا على أفضل الحقول المخصصة للآلهة وكان يوفر الكثير من الثيران لحراثتها وكذلك البغال والحمير من تلك التي تعود ملكيتها للمعبد كما أنهى خدمات العديد من المسئولين وعمل على تخفيض النظام الضريبي وأعاد تنصيب ننجرسو في البنايات وحقول الحاكم، كما عمل على تحرير مواطني لجش من الربا واحتكارات قوت الناس وأزال ظاهرة الجوع والسرقة وكافح هجوم قطاع الطرق وأسس مفهوم الحرية، ولكن أغلب تلك الأصلاحات لم تطبق بشكل فاعل وماطبق منها لم يكن له تأثير واضح، وأخيرا سقطت لجش في قبضة سومر.

وهكذا نرى أن بناء سلسلة التاريخ وترتيب الأحداث أثناء فترة حكم السلالة الأولى ليست مهمة سهلة، المعلومات تكاد تكون نادرة جدا او هي

مدونة على ألواح فقدت أجزاء من تكوينها، كما يظل البحث بحاجة للعثور على النصوص التاريخية الصحيحة، ولكن ثمة حقيقة مهمة تلك التي تتعلـق بتعـايش عدة سلالات في مدن سومر وقيام بعض الملوك ممن لم يذكروا في سجلات الحكم بلعب أدوارا مهمة في البناء وإقامة النظام السياسي والإصلاح ويظل ما يذكر عـن تاريخ تلك المراحل ناقصا مهما حاولنا رسـم الصـورة عـن تلـك الفـترات البعيـدة والنقاط التي تذكر عن تلك المراحل ربما تثير الكثير من الجدل، ومن ذاك التاريخ غير المكتمـل مـثلا الحـروب التـي دارت بـين دول المـدن وضـد التمـدد الأجنبـي والغزوات التي تعرضت لها سومر ودويلاتها الأخرى، وفي الغالب تُعرف الأسـباب الدافعة على أنها اقتصادية وعوامل أخرى تتعلق بالسيطرة أو التحكم في قنـوات الري وطرق التجارة، مع أن البعض من الحكـام كـان لـديهم دوافـع جغرافيـة أو سياسية أو دينية، كما كان ذلـك ظـاهرا في سـلوك حكـام مدينـة " كـيش " التـي اعتبروها منطقة سامية مع ان حكامها يحملون اسماءا سومرية، مثل لقب ملـك سومر – ملك آكاد – أو ملك الجهات الأربعة – او ملك جميع بلاد سـومر، وقـد وجدت بعض الإشارات في الألـواح السـومرية تشـير إلى ذلـك، مـما يؤكـد وجـود هدف معنـوي لـه دلالتـه – هـو ان أي ملـك أو حـاكم سـومري أو سـامي كـان يجب أن تكون له سيطرة على مدينة نفـر أو عـلى الأقـل يحظـى بـولاء ومباركـة رجـال الـدين فيهـا عـلى النقـيض مـن كـيش وأور – نيبـور – لم يكسـب الحكـم ولا أدعى الفوقية عـلى المـدن الأخـرى ولا يعتقـد ان بـين السـلالات السـومرية ثمة حاكم من أبناء تلك المدينـة كـان لـه اسـما في قائمـة الحكـام، لكـن كـان لهـا المكانة الدينية الكبيرة المقدسة بوجود إله سومر الأعلى – أنليل – وتعتـبر المركـز الديني الكبير والمهـم والمـؤثر في القـرار السـياسي كـما هـي الحـال الآن في وضـع روما أو مكـة المكرمـة، المـدن السـومرية جميعهـا كانـت تعـترف بتلـك المكانـة

الدينية المقدسة وكانت ترسل إلى ضريح أنليل الهدايا الأكثر ثمنا وكان وجود نفر ضمن المدن التي يحكمها الحاكم علامة مباركة ودليل قوة، وكان جميع الحكام يعملون على إعادة بناء تلك المعابد وترميمها، في نهاية الألفية الثالثة الكلمات التي اختارها من كلام الإله انليل في مدينة نفر أصبحت جزءا من العناوين الملكية القياسية، هذا مجمل الموقف من تقييم العلاقة بين المدن ومدينة نفر المقدسة وهو لا يعكس حالة تأجج ديني مجرد عن المفاهيم والتقاليد، رجال الدين ومن يحيط بهم ويعمل وفق تعاليمهم يؤيدون بشكل كبير قيام ديمقراطية بدائية، عزز من ذلك التأييد ان البلاد كانت تتعرض للاعتداءات أو الغزو الخارجي أو الأحتلال أحيانا، وذاك يتطلب إشاعة نظام العدل والمساواة كي يدافع الناس عن حدود وبقاء المملكة، وعندما لاح شبح العدوان الكبير أوفدت كل المدن مبعوثا عنها للاجتماع في مدينة " نفر – نيبور " لإنتخاب زعيم مشترك يقود الحرب، وكان بعض الكهنة ورجال الدين في نفر يمارسون على بعض الملوك الأقوياء تأثيرا سياسيا هائلا، كما هي الحال التي كانت سائدة لدى الأغريق أو الفراعنة، وهذا الحال لازم العديد من الفترات التاريخية القديمة ومع كل هذا التوضيح يظل هذا غير قاطعا في فهم الحالة التي كانت سائدة أنذاك، في العام 2700 قبل الميلاد، الملك الأول من السلالة الأولى المسمى " mebaragesi" المدون اسمه وعنوانه على أحد الألواح الطينية على انه الملك الأول في سومر ضمن قائمة سجل أثبات الملوكية في سومر، ويذكر أنه حصل على غنائم حرب كثيرة وعمل على إصلاح الزراعة والمؤسسات الإنسانية وملء العرش بأعمال مهمة وغنم أسلحة جيوش عيلام – إيران حاليا – هذه الإشارة الأولى ومن المحتمل ان تكون الحادثة الأولى التي تدوّن عن تفاصيل نزاع طويل جدا بين بلاد ما بين النهرين وبلاد عيلام الذي كانت جذوره تضرب في فترات قديمة قبل الأدوار الأولى

التاريخية وقد دام قرابة أكثر من 3000 سنة عندما استسلم الملك " MEBARAGESI" ابن الملك " AGGA" الى الملك " جلجامش " من ملوك السلالة القديمة الأولى لمدينة " كيش " وعلى أثر ذلك أنتهت الحرب التي دانت لمدة قرن من عام 2500 – 2660 قبل الميلاد.

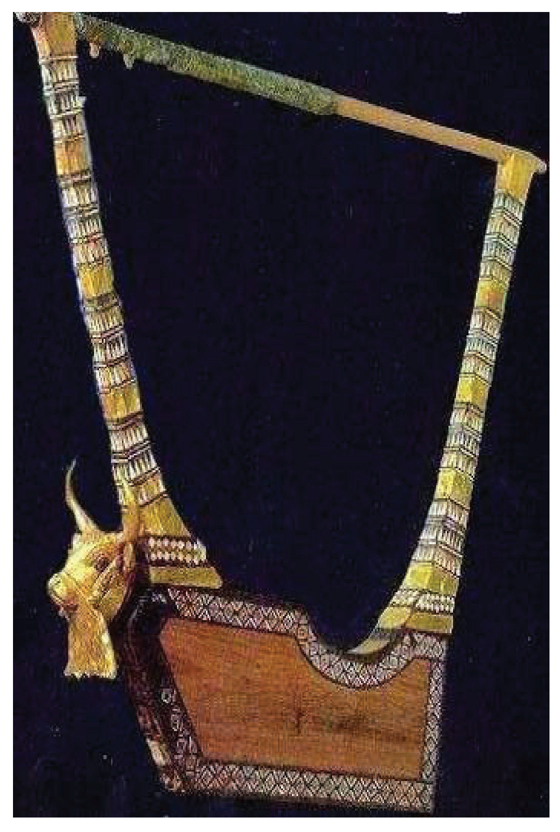


وتوارث الحكم بعد ذلك سبعة ملوك حكموا كلا من مدينة أوروك وكيش مباشرة بعد مرحلة جلجامش وتوجد ثلاثة ألواح قصيرة عن أمير مجهول الأصل يسمى " MESALIM" الذي أطلق على نفسه لقب " ملك كيش " وكانت لديه

آواصر علاقات قوية مع مدينة " لجش " حيث تم تنصيبه في معبد " NINGIRSU" وعمل على تحكيم بشأن الخلاف الحدودي الذي كان قد حصل بين مدينتي " أوما وكيرسو " ويفصل بينهما من حلال تكوينات الصخور الحجرية، خلال تلك الفترة كانت التجارة البحرية بالشرق قد أغنت المدينة كثيرا وتعتبر كميناء يقع في فم الفرات المفتوح نحو البحر، وكما تثبت تلك الواقعة الكنوز الآثارية التي دفنت مع MESKALAMDUG – AKALAMDUG"" في المقبرة الملكية ونحن لا نعرف الكثير من المعلومات عن الملكين المذكورين أو أسلافهم لكن في العام 2560 قبل الميلاد " MESANNEPADDA" البطل الذي أختاره الآله AN والذي أسس السلالة الأولى لأور – كان قويا ولديه جيش تمكن لاحقا من إسقاط الملك الأخير الحاكم لمدينة أوروك بالإضافة إلى أنه كان يعاصر الملك " MESALIM" ملك مدينة " كيش " وتظهر بعض المعلومات ان مدينة " نفر " كانت تحت سيطرته وهو وريثه الثاني MESKLAGNUNNA" الذي اتخذ قرار إعادة بناء وترميم المعبد الذي كان قد تم تشييده من قبل الملك MEBARAGESI" والذي تم تخريبه على أثر الغزو الذي قانت به لجش على أثر الحرب التي أنتهت بعقد اتفاقية السلام مع مملكة " أوما "وملك UR-NANSHE الذي عرف عنه انشغاله باستيراد الخشب من مدينة دلمون وقام برسم على لوح في جدارية حائط مشهورة مع زوجته ومعه في الصورة أبنائه السبعة وثلاثة من مسئولي حكومته، كانت لحكومته علاقات جيدة مع مملكة " ماري " البعيدة عن سومر وكانت تلك العلاقات تتصف بالود والتعاون، ويتفق هذا مع الآثار التي ظهرت في مدينة ماري وفيها رسائل وهدايا من الملك " MESANNEPADDA" إلى أحد ملوكها يقول فيها " هذا هو السلام السومري بدعم من مملكة أور "وذاك الوضع دام حوالي مائة سنة لكن في الأخير أنتهى بكارثة لمدينة " كيش "، لابد من

الأعتراف بوجود معلومات مفقودة ومن المحتمل ان تكون تتعلق بالحكام المحليين من السلالة الثانية والذي احتلت دولتهم من قبل الأقوام التي جاءت في حادثة الغزو من مدينة " HAMAZI" وهي بلدة حدودية موقعها على ضفاف نهر دجلة في مكان مابين الزاب وديالى منها جاءت حشود كبيرةوخاصة من منطقة " AWAN" وهي منطقة تقع بالقرب من منطقة تسمى SHUSHTARذاك الغزو وفر فرصة للسيطرة المطلقة على مدينة سومر، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أصبحت مدينة " لجش " تثير الإضطراب تحت قيادة أحد حكامها الذي ترك لنا بما فيه الكفاية من السجلات التاريخية المفصلة والأكثر شمولا عن فترة السلالة المبكرة في سنوات 2425-2455 قبل الميلاد، حيث قام EANNATUMببناء معبد عظيم كما حفر القنوات لإرواء الحقول الكبيرة، الظروف المحيطة ببلاده وحجم التحديات وصد الأعداء خلقت منه محاربا عظيما، عمل على تطهيلا سومر من مرتزقة مملكة – عيلام – كما حمى جناحه الشرقي وفتح الجبل العظيم الذي كانت تحتمي به واستطاع السيطرة على عدة بلدات تقع على حدود مدينة عيلام وأسقط الحكم في مدن أور وأوروك إضافة إلى لجش ومملكة كيش، تلك الحرب التي انطلقت من موضوع نزاع حول حقل مع العدو المقابل " مملكة أوما " الواقع بين حدود الولايتين وكل طرف كان يدعي أحقية عائديته له، كان مشاة لجش مسلحين بالرماح الطويلة، وتحميهم الدروع الثقيلة، في المعركة تواجه الجنود لكن EANNATUM ربح المعركة عندما قذف أنليل الشبكة العظيمة فوقهم وجعل أجسادهم تملأ السهل، بينما أتجه الباقون على قيد الحياة إلى EANNATUM اسقطوا أنفسهم أسرى مدى الحياة، بكوا ثم انتهت المعركة من خلال معاهدة سلام وفرضت ضريبة ثقيلة على مدينة UMMA في دفع كميات كبيرة من الشعير واعتبر نصرا كبيرا ل NINGIRSU أله لجش على

شارا إله مدينة أوما وتلك النصوص مدونة على لوح يعود لتلك الفترة المبكرة السومرية، وجد مرسوم عليه لوحة لعقبان تمزق جثث الجنود المقتولين في أرض المعركة، كان لابد ان تحارب قوات مدينة EANNATUMقوات كيش وماري تحت قيادة ZUZUأو UNZIوهذه الحرب أنهت دور تلك المدينة الصغيرة عسكريا وجعلتها تابعة، فقط قبل سنوات قليلة عرف تاريخ مملكة ماري أثناء الفترة الخاصة بالسلالة المبكرة ويعتقد أن تلك المملكة موجودة إشارة لستة ملوك من مجموع 136 سنة من عهد وجودها لكن فقط اسمين او واحد واضحان، وذاك مذكور في لوح سومري يمثل ملك ماري، وأربعة من تماثيل أخرى لمجموعة من المصلين وجدت في ماري وهي تحمل عددا من الأسماء ولم ترد معلومات عن فترات حكمهم، ولكن الآن بعد العثور على عدد من الألواح والتماثيل ضمن أرشيف " إيبلا " تتحدث عن سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة التي قادتها تلك المملكة في شمال سوريا ضمن فترات متعاقبة، حيث كانت بعض البلدات التابعة للمملكة قد تعرضت للغزو والاحتلال، كما أن المملكة قد تعرضت للغزو والاحتلال، كما ان المملكة تلقت هدايا كبيرة بإنتظام من الذهب والفضة حتى عهد الملك القوي ebrium وهناك وثائق أخرى تكشف أن مملكة ماري لم تكن توافق على الشروط السيئة، وتذكر الوثيقة ان العديد من الصناع والفنانين من ماري عملوا في الحقيقة في إيبلا، وكانت هذه المدينتين تتبادلان التجارة فيما بينهما وترسلان بضائعهما عبر موانيء البحر الأبيض المتوسط و الأناضول من جهة ومع بلاد ما بين النهرين من جهة أخرى وفي حروب مملكة ماري كان الأنتصار على السومريين يبدو مستحيلا وذلك لنقص العُدد والمحاربين وأيضا بسبب الحيرة وأسباب جغرافية وصار الأتفاق على الشراكة والتعاون والسلام.



ونجد على لوحين من ألواح سومر ثمة معلومات تفيد بحدوث حروب ثانية، وتم بناء سور وخندق ومن مصادر أخرى تؤكد أنه تم الوصول إلى حلف بين الولايات المتنازعة حتى الفترة التي تم توحيد أوروك وبقية دويلات المدن حتى صارت على شكل مملكة واحدة واستمر عهد السلام والإزدهار في تلك المنطقة ولكن بعد سنوات قليلة نجد المعلومات تشير إلى ان الحالة قد تدهورت ثانية بين مدينة لجش وأوروك حيث استولى كهنة " نينجرسو " قد استولوا على العرش واحتلوه لمدة عقدان من السنين وتضخمت ملكياتهم الخاصة استنادا الى أنهم يمثلون الآلهة واسقطوا حكم uruinimagina المشهور بإصلاحاته

الاجتماعية، لكن الكاهن المنتصر هو الذي حكم باسم الإلهة وقرارها، ثم أنتهى كل ذلك إلى إحراق المدينة، نجد أحد الألواح يتحدث على لسان شاعر أو كاتب وهو يرثي المدينة حيث أشعل المحاربين النيران في المعبد وسرقوا الفضة والأحجار الكريمة، نجح ملك أوروك وأعلن نفسه كملك لتلك المدينة ثم تمكن من فتح بقية مدن سومر ونجد ذلك مثبت على مزهرية تشير إلى الآله أنليل في مدينة نفر - نيبور - الذي صار الإله المعبود في كل من بلاد ما بين النهرين وأرض سوريا، اصبح الإله انليل هو الإله المعبود في جميع البلدات ذات السيادة اعطاه الملك الحاكم لقب سيد سومر وجعل كل البلدان التابعة لحكمه تعبده وتقدم له القرابين وتتبارك بمعبده كما جعل كل أرض تطلع عليها الشمس من الشرق تذعن له، ثم وسع نفوذه الى منطقة الخليج والبحر الأعلى - البحر الأبيض المتوسط - ليس له من يعارضه أو يحتج ضد عدالته، كل البلدان وشعوبها أنحنت لمدينة أوروك في سومر وربما تندر الوثائق الكثيرة عن تلك الفترة ولكن مما لاشك فيه ان الملك lugalzagesi أمتلك وحقق تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف وصار ملك أوروك دون منافس واستطاع الحصول على استسلام الشعب السامي في مدينة " ماري "...

الإمبراطورية السومرية استوردت كميات كبيرة من الخشب والحجارة والمعادن ومواد أولية أخرى لم تكن موجودة في أرض بلاد ما بين النهرين المعلومات تكاد تكون قليلة عن اهم الملوك الذين ظهروا في فترات مهمة مثل " جلجامش وسرجون الآكدي أو نرام سين "أبن أخيه وأحد أبرز الملوك الذين ورثوا السلطة من بعده، السبب يعود إلى فقدان الكثير من سجلات الإمبراطورية التي دونت فيها المعلومات المهمة عن تفاصيل تلك المرحلة حتى هذه المرحلة لم

يعثر على بقايا المدينة المشهورة " akkad" عاصمة الدولة الآكادية، الحياة التي كانت موجودة في زمن ذلك الملك الفاتح الكبير والذي يعتبر ظهوره اسطورة، هو فرض على عقول مواطنيه الصورة الفخمة والقوية للملك الشجاع، الذي وحد البلاد وخاض المعارك وأنتصر فيها ورفع مستوى معيشة سكان بلاده كما أعلن قيام الإمبراطورية الآكدية التي ظهرت إلى الوجود وحققت المفهوم الجديد للسياسة من خلال القوة والفتوحات الحربية وكانت بداية ظهورها من خلال إقامة توحيد الولايات السومرية ذاك التوحيد فسح المجال أمام إقامة حدود الإمبراطورية التي أعلنت عن وجودها الكوني وهي تمجد القوة والأنتصار ويعبر عن ذلك اسم الملك " نرام سين " الذي أطلق على نفسه ملك الجهات الأربعة من الكون الكبير، رغم القوة والإندفاع الكبير في الحروب إلا أن الآكديين ظلوا يحترمون الثقافة السومرية ويعملون على تعلم حلقاتها ويواصلوا ربط الحلقات العلمية والعمل من خلال الوصايا والشرائع والتعاليم الدينية التي أوجدتها سومر، من سخرية القدر ان تلك الإمبراطورية الضخمة المأهولة بالسكان المتنوع كانت ضعيفة جدا، الرغبة ووجود تلك الإمبراطورية كانت مقيدة بحروبها وحملاتها العسكرية وفتوحاتها التي توسعت شرقا وغربا كما ان الصراع على السلطة كان من بين أسباب ضعفها إلى جانب الثورات والتمرد في الأراضي التي أحتلتها الإمبراطورية الكلدانية وفي النهاية كانت تواجه بشكل مباشر غزوات السكان الساميين البدو الذين كانت هجماتهم تأتي من الأراضي المجاورة المحيطة وتقودها قبائل قوية منها قبائل - gutansالكوتيون - وتمكنت في النهاية من القضاء على الإمبراطورية الكلدانية..

الملك المطلع



هذا تمثال الملك " غوديا gudea" صنع منحوتا من حجر الديوريت في العـام 2300 قبل الميلاد – النحت كـما يبـدو يمثـل تقنيـة عاليـة المهـارة والدقـة، هـو أحـد أهـم ملـوك الإمبراطورية الآكدية وتمثل سماته صورة الملك الإنسان المطلع على الثقافة والمتبحر بقوانين العدل والمرجع الديني الأول للبلاد الذي سعى لنشر الحق والفضيلة هـو صـاحب الحكمـة المطلقة في " لاجاش – lagash" كانت مملكته قد ملكت الوسائل العديدة لاسـتيراد المـواد الثمينة النادرة والمهمة لتطوير العمران والحياة بكل جوانبها، جلب حجر الديوريت الثمين جدا، اغلب الإشارات أكدت ان نقل تلك الأحجار مـن أرض عُـمان، أي موكـب رائـع وكبـير ذاك الذي حمل جثته – ملك ميت يذهب إلى القبر – ومـن حولـه الاتبـاع والخـدم، عشرة

رجال يحملون الجسد المسجى في النعش، مثل موكب عرس جاءت تلك المواكب الملكية السومرية مصحوبة بصوت القيثارات السومرية، كانت التقاليد أنذاك أن يدفن الخدم الشخصيون في أغلب الأحيان مع الموتى سوية مع العربات الملكية والتحف والحيوانات الخاصة – في أحد القبور التي عثر عليها وجدت سيوف وخناجر ذات مقابض ذهبية من مرحلة حكم " أور " تعود للعام 2500 قبل الميلاد، تلك وأيضا أجسام ظبي دفن في قبر الملك – ذاك يعطي فكرة عن اللاهوت الذي حكم الحياة والموت في تلك المرحلة، وهي تعاليم الإله آنو – إله السماء والهواء وكذلك تعاليم الآلهة – إنانا – إلهة الخصب والنماء في سومر – ذاك اللاهوت تعود له قوة التغيير البيئي وتطور مفردات الحضارة والثقافة ومجمل الاختراعات العلمية، تلك القوة دفعت العقول في سومر لتحويل الصحراء إلى واحة خضراء بعد الحصول على بركات آلهة الماء والشمس والحكمة، كانت تلك قد مهدت لبداية حرب متواصلة تدور بين الإنسان والطبيعة القاسية وتلك النتائج دونتها الألواح السومرية رسما وكتابة...

اريدو – من المدن السومرية القديمة جدا يتفق الكثير من علماء السومريات – في هذه المدينة تشكلت بدايات نشوء الديانة، تلك المدينة – ابو شهرين – تقع في منطقة شبه صحراء رملية، صورتها الحالية هكذا تعاني من أهمال كبير، بيد أنها لم تكن كذلك في العصور القديمة إذ تشيرالكتب التي تناولت الحضارة التي نشأت فيها إلى أن نهر الفرات أو فرعا منه كان يرويها من بعد مروره بمدينة أور القريبة منها وتبعد عنها مسافة 25 كيلو مترا باتجاه الشمال الشرقي، وأبرز ما يشاهد الآن من بقايا المدينة بضعة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا البرج المدرج " الزقورة " الذي يرجع اصل بنائه إلى فترة العصر الشبيه بالكتابي، وقد شيد بالآجر بشكله التاريخي في عهد سلالة أور الثالثة في حدود

2100 قبل الميلاد كما يدل على ذلك وجود الآجر المختوم بأسماء الملوك من تلك السلالة واشتهرت مدينة أريدو في تاريخ حضارة بلاد مابين النهرين ومآثرها الدينية بكونها مركز عبادة الآله الشهير أنكي – آيا – إله الحكمة والمعرفة والماء، الذي أشتهر في العقائد الدينية وفي الآداب والأساطير وهي أيضا أولى المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات من الملوك في عصر ما قبل الطوفان، المدينة التي تبلورت فيها فكرة نشوء الديانة تكونت أرضها من ترسبات الطمي والغرين الذي ترسب من مياه الفرات الذي كانت تتصف شواطئه بالحافات الرملية ومع مرور الزمن نبت في تلك الأرض القصب والبردي حيث كان الماء يمتد وتتشكل المستنقعات والمساحات المغمورة، تكونت مناطق الأهوار والغابات القصبية وتكاثرت فيها الخنازير ومختلف الزواحف والطيور البرية، نمت الحياة في تلك المنطقة بشكل رائع حتى أطلق عليها " جنة عدن " وصار تكاثر وجود المياه والثروة الحيوانية يفرض مشهدا مؤثرا لوجود حياة ثرية " الماء سرّ الحياة " لذا أطلق شعب سومر على الإله " أنكي " إله المياه، كلما تأمل السومري ذاك المشهد الذي يعج بالحياة والتوالد البشري – الحيواني وبنماء النبات - شعر بالخشوع وسيطرت عليه قوة طاغية مندفعا للتعبد والصلاة لمن وهبه تلك النعمة الكبيرة، في قرارة نفسه هو يريد ان تفتح له مجالات أخرى لكي يسبر أسرار الكون ويقترب بخطوات الى مناطق المعرفة والعقل ليكون قريبا حد الإلتصاق من تلك القوى المهيمنة على هذا التكوين المذهل- يريد كشف المحجوب من ماوراء الطبيعة – كي يرى سرّ الكون مرسوم على صفحة المياه إينما استدار، ولكن كيف الوصول إلى الإجابة عن تلك الأسئلة التي شغلت تفكير اللإنسان السومري الأول، كانت ثمة قوى حية يراها، يتخيلها، يسمعها تحاكي مشاعره وتفكيره وبعمق وتأمل يرصد ذبذباتها التي تحرك الحياة من حوله تلك الموجودة

في كيانه وداخل جزيئات المياه وفي القصب والبردي والزواحف والطيور والأشجار، في محيط سومر البيئي كانت الكثير من الأسئلة التي ظل الكثير منها دون أجوبة، كما ان الكوارث وخاصة الفيضانات الرهيبة جعلت الخوف يستقر في الأعماق وبسبب طغيان الطبيعة المتكرر صار البحث عن قوة يستند إليها وتجلب له الأمان، تندفع مياه الفيضانات لتدمر كل جهده وتجربته في الحقل والزراعة وتربية الماشية، كانت أريدو وكما وصفت في الألواح السومرية بمثابة مستوطنة بشرية تعج بالحياة المتجددة رغم مخاطر الفيضانات والعواصف والغزوات التي تطالها من مدن أخرى قريبة، لكنها ظلت تعمل لكي تنشر تجربتها وشرائعها وحاولت إنشاء قنوات الري واستصلاح الأراضي البور ومنحها مجددا الحياة وجعلها منتجة.



الشعب السومري الذي تواجد في أريدو يحق لنا أن نقول عنه أنه شعب مبدع وبدون حدود، لقد فكر كيف يصنع الحياة ويديم زخمها وجلب المياه إلى أماكن لا يمكن ان تصل إليها، حوّل النباتات الموجودة من حوله مثل القصب والبردي لتدخل في مفردات حياته، كما عمل على مدّ الغطاء النباتي من خلال زراعة الأشجار المثمرة مثل النخيل، ثم أنجز بيئة ملائمة لتربية الأسماك والطيور والحيوانات الأخرى التي دجنها واعتبرها ثروة ومهمة لاستمرار الحياة، في كل تلك المظاهر تجد الإنسان بصورته التي تشبه تكوين الإله، في البيئة المستنقعية لأريدو ترى صفحة المياه تمتد إلى ما لا نهاية وكانت أحيانا تعلو على سطح الأرض، ثم تمتد إلى مساحات أخرى تغسل الأرض وتحولها لإلى مناطق صالحة للأنبات، تجد الحفر في بعض المناطق لا يتجاوز شبرا واحدا حتى ينبع الماء من باطن الأرض، تلك كانت واحدة من معجزات الإنسان السومري في ترويض وتطويع الطبيعة، هذا يتفق تماما مع اعتبار رجال البحث العلمي في سجل حضارة العراق ان الديانة هبطت في أريدو من السماء ونبتت معها الملوكية التي نظمت وأوجدت التشريع وفلسفة الحكم، من هذه المدينة أنتقل الحكم إلى مدن أخرى مثل " باد – تيبيرا " وأيضا إلى مدينة " لرك – larak " ثم الانتقال الى مدينة " سبار " ومنها إلى مدينة " شروباك " ثم اختفى كل شيء عند حصول الطوفان العظيم، بعد ذلك عادت الشعيرة الدينية والملكية أيضا إلى مدينة " كيش "، وثبتت تلك المسيرة حقائث كثيرة مهمة منها:

– ان الإلهة هي التي تحكم الكون والبشر وأن نظام الحكم والملوكية وشاراتها لم تصنع في الأرض بل هي من عند الآلهة في السماء، ولكي تحكم الأرض والناس فأنها تنتدب أو تفوض نوابا عنها تصطفيهم من بين البشر ليكونوا نوابا في حكم البشر – وهذه تعتبر نظرية أساسية في أصل الديانة والحكم

في بلاد ما بين النهرين، ويقول " كريمر " ان أوضح تعبير عن هذه النظرية ما نجده في مقدمات الشرائع التي يتجلى فيها تسلسل التفويض الآلهي من كبار الآلهة إلى إله المدينة التي أصدر ملكها الشريعة، ثم تفويض هذا الإله بدوره ملك هذه المدينة ليحكم الناس بالنيابة، كما ان جعل اريدو أول مركز حلت فيه الملوكية في عهود ما قبل الطوفان ذو مغزى حضاري مهم، وقد عثر في أريدو في موقع تل العبيد على ألواح سومرية فيها سجل إثبات الملوك الذين حكموا المدينة تم تدوينه من قبل " كهنة أريدو " ويتضمن وصف وكلاء الإلهة وهذه أول محاولة لتثبيت أسس الديانة، كان الفلاح مثلا قد يعيش في المدينة بسبب ما توفره من رفاهية ولعلاقته بالآله المعبود وأيضا ذاك يعزز علاقته القوية مع الأرض والإنتاج في مجال الزراعة وتربية الحيوانات مثل قطعان الخراف والبقر والجاموس، وفي الحقبة تلك نجد ان معظم بنود النظام القانوني يتوالد في المعبد وهو يهتم أولا بالزراعة والري وطرق البيع والشراء، في تلك المدن القديمة جدا والتي تطورت بفعل الزراعة، اتوقف لدى حقيقة ثبتتها الألواح السومرية تتعلق بالحروب حيث كان الهدف الأول منها يتمثل في السيطرة على مصادر المياه والأرض المزروعة وصوامع الحبوب وتُعد أثمن النتائج إذا فقدت الدولة المقاتلة تلك المصادر وتعتبر أنذاك هزيمتها قاسية جدا، تلك الأسس للحرب أيضا وضعها المعبد ونسبها لتوجيهات الآلهة حيث الاستيلاء على المحاصيل وحصار المدينة التي تُشن ضدها الحرب لفترة متواصلة يؤدي إلى الجوع والقحط ينجم عنه الأستسلام للخصم المهاجم، وإذا انتقلت للحديث عن تخطيط المدن السومرية أيضا نجد للمعبد توجيهات وتوصيات، قدم المعبد الأفكار حول التخطيط لمدن مستقبلية تتفق مع النمو القادم، هذا الهدف وجده علماؤ الآثار موثقا في الألواح الطينية السومرية، كانت تلك التوصيات توفر الميزات المتعلقة بالإنضباط وعدم

الشطط، وظهر التخطيط مساحات المدن على شكل مربعات يتم تخطيطها على شكل أرباع وتعتبر تلك المنجزات أول معالجو ناضجة لتخطيط المدن القديمة، وجد العلماء أيضا أن سمات ذاك التخطيط يتميز بوجود ممرات - ومساحة لبحيرات ومساحات خضراء وطرق تمّ رصفها مع توفر شروط أخرى تمت مراعاتها في تلك المدن التي ظهرت في الألفية الثالثة في بلاد ما بين، تخطيط الحواضر وما تحتاجه لتكون مدنا تتمثل فيها الحياة المتطورة المتجددة، ذاك التمدن المجتمعي القديم الذي يتطور هو يمثل نتيجة لتوصيات المعابد ومتابعة الحاكم وعوامل أخرى تعود إلى الإزدها الأقتصادي ووفرة المال، كما قدمت العمران في تلك الفترة صورة عن التقسيم الطبقي الاجتماعي والذي يبرز في التفاوت بالبناء والمدن والمساكن التي تعبر عن التمايز الطبقي، كل ذلك تمّ بموجب النصائح وسيطرة المعبد وقوة الحاكم، أنعكست تلك التعليمات الكهنوتية في بناء المباني الرئيسية التي تُعطي كل مدينة تميزها وشكلها المختلف وامتلكت الوضوح والمركز الإداري المؤثر وأيضا القوة في القيادة والتجارة، نجد ذلك واضحا في سلطة رجال المعبد الذين سُجل عنهم أنهم يميلون إلى إحداث التطور الطبيعي لكل مرحلة وتخصيص أماكن ضمن التخطيط للمقابر التي يدفنون فيها عند حدوث الوفاة أو تشجيع التجار لجلب أو عمل تماثيل لها إعلان عن الحالة الدينية أو الحياتية أو تخليد رموز الحكم، كانت بعض التماثيل يتم شراؤها من مدن أخربوتنقل إلى المدينة ويتم نصبها ضمن أحتفال كبير يحضره الحاكم والكاهن، كانت سلطة الحاكم مستمدة من سلطة الإله " أنليل - أو أنكي أو مردوخ " وتلك هي أساس نظرية الحكم في بلاد ما بين النهرين والتي ظلت لفترة طويلة خلال الأدوار التاريخية المتعاقبة، تحت مدار الأرض السومرية في أريدو وجدت المياه العذبة التي أطلقوا عليها تجمع مياه الابسو وهي فكرة ترتبط بعالم

ما وراء الطبيعة وتلك حالة من الخلق والابتكار، لقد كانـت لهـم الطـرق التـي فتحـت ولا نهاية لها وكان المطلوب منهم دائما أن يرافقو العمل ويمعنوا التفكـيرفي أصـل الأشـياء، كـما رافق تلك الخطوات عمل راسخ للفكر والإبداع، كما ظهر في بعـض الأجـزاء المكتشـفة مـن منـاطق مـدن الجنـوب في العـراق المعـاصر وثـائق تشـير إلى أن تلـك الأرض الصـحراوية الشاسعة إلى أرض خضراء ينمو فيها الزرع والعشب، جعلت الحياة تزحف على اقطاعيـات الأرض الميتة وصارت الخراف والماشية تظهر أثناء فصـل الشـتاء والربيـع وبـدايات الصـيف وصار لها مخازن يتوفر فيها العلف يتوفر مـن تلـك الأرض، ومـع تكـرار ظهـور العواصـف الرعدية الشديدة في بداية كل ربيـع وهطـول الأمطـار يتبـدل المنظـر حيـث تخـرج الأرض بركاتها مـن الأعشـاب والرعـاة يسرعـون بإطمئنـان يخرجـون مـع مواشـيهم نحـو الأمـاكن البعيدة جدا عن حافات المدينة، حيث توسعت المراعي وصارت تمتد نحو المواقـع البعيـدة جدا.



معبد « الآلهةإنانا» كما هو اليوم في خرائب أور

تخبرك الألـواح المسـمارية أن تلـك الأرض المجدبـة تحولـت إلى أرض مصـل سـجادة كبيرة جدا تمتد دون حدود، في ذلك المشهد كان الإنسـان السـومري يقـف وقفـة الخشـوع ويصبح المعبد والآله والكلمات والأناشيد المقدسة هي بمثابة الدعوة لإدامـة بركـات الأرض والسماء، في أعماق ذلك التحول الذي شـاع في الأرض اليبـاب وداخـل تفاصـيل أي عاصـفة رعدية قوية كـان الخـوف يطلـق الابتهـالات والأناشـيد وكلـمات دعـوات متضرعـة للرأفـة والرحمة أوحجب الخطر الكبير أو رده عن المدينة وأهلها:

أنت راعينا، القوي الجميل الحكيم،

باني أسوار أوروك،

وحرم إنانا المقدس،

والمستودع الطاهر،

أنظر إلى سور المعبد الخارجي تجد شرفاته تتألق كالنحاس،

وأنعم النظر في سوره الداخلي الذي لا يماثله شيء،

اقترب من جوهر مسكن الآلهة إنانا،

الذي لايماثله صنع ملك من الآتين ولا إنسان..

المراعي تزهر والأبقار والخراف والعنزات في موسـم التوالـد ذاك هـو الفـرح الكبـير الذي يراه السومري، والحليب يكثر كانه فرع يمتـد مـن ذاك النهـر الكبـير، خصـوبة الأرض غيرت شكل الحياة ذاك المشهد المثير ظـل يـداعب خيـال الشـاعر السـومري الـذي انـدفع ليكتب في لحظة إندهاش كبير تلك القصيدة في ملحمته:

نظر الآله نحوه فبدل يداه وصارتا مثل جناحي طائر مكسوتين بالريش،

قادني إلى دار الظلمة الى نزل ارشيكيكال،

في الدار التي لا يرجع منها من دخلها،

اقدامي على الطريق الذي لارجعة لسالكه،

الى الدار التي حرم ساكنوها من النور،

حيث التراب طعامهم والطين قوتهم،

وهم مكسوون كالطير بأكسية من أجنحة الريش،

ويعيشون في ظلام لا يرون نورا،

في بيت التراب الذي دخلته،

شاهدت الملوك والحكماء - رأيت تيجانهم قد نزعت وكدست..

في التفكير البدائي رأى السومريون قوة الآله ربما موجودة في الحليب - السائل الهام واللذيذ الخارج من بطون تلك الحيوانات، لكنهم في مرحلة أخرى من التفكير تراجعوا ولم يعتبروه آلها أو حتى كاهنا، ومن خلال تفسير جديد اعتبروه هدية الآلهة إليهم، ولكن عندما جفت المياه وتصحرت الأرض وماتت الحقول جف الحليب في ضروع الماشية، شعر الإنسان السومري بأن الرعاية الآلهية قد حجبت عنه وذاك سببه عدم احترام الآلهة والابتعاد عن الصلوات في المعابد، وفي مناطق أخرى من سومر ظلت فيها البساتين عامرة والحقول خضراء والمياة تتدفق بشكل مستمر وقد ظن اصحاب المناطق المنكوبة ان سكان تلك المناطق أكثر منهم خشوعا للمعبد والكاهن ولهذا أرسلت الآلهة نحو مناطقهم الرحمة والخير والأمان ولهذا ظلت مخازنهم عامرة بالمحاصيل التي خزنوها لفترة

الشتاء القادمة، ولابد ان يعودوا للخشوع والابتهال كي تعود بركة الإنتاج إلى أرضهم حتى يتواصل النماء والخير، ظل هذا المفهوم شائعا وأندفع العقل السومري نحو محاكاة تلك الأحوال المناخية الأنتاجية المتغيرة من خلال الأساطير والملاحم وقصائد الشعر والابتهالات والأناشيد فظهرت أساطير الخلق وملحمة جلجامش وفيما بعد في فترة بابل ملحمة الخليقة الاينو ما ايليش، ولكن ظلت حالة معالجة تلك الظواهر تجسد حالة هيمنة الخشوع والعبادة:

أقاموا من اجله – المنصة الملكية،

ومقابل آبائه،

استقر عليها كمليك،

وحدك،

اعلنوا أمامه،

أنت الأسمى بين الآلهة العظام،

قدرك لا مثيل له،

وسائدة أوامرك،

من الآن فصاعدا لا مردّ لقراراتك،

ترفع وتخفض – شأن من تشاء –

سيكون ذلك طوع أرادتك،

والكلمة التي تخرج من فمك ستتحقق..

من ملحمة الاينوماإيليش نجد خلق الصورة وبشكل متميز وهي تتحرك في تجسيد افضل الحال المطلوب للحياة والتي تتحقق من خلال العمل وتمجيد الآلهة، وحسب الإنتاج والتغييرات البيئية أصبحت مفاهيم الإنسان السومري تتغير وصولا إلى مستويات هي الأكثر نضجا وتفسيرا للظواهر وللمجهول من تفاصيل الكون، تلك التفسيرات عبرت إلى ما وراء الطبيعة، كما تضمن البحث أكثر من حياة الإنسان ومتغيرات محيطه إلى البحث أيضا في تفاصيل عالم الحيوان، العاصفة الرعدية التي كانت تحاصر الإنسان السومري دفعته إلى الخشوع والإلتزام بتقديس المعبد وتنفيذ وصايا الكاهن واستمرار انشاد الأناشيد الدينية وتقديم القرابين وإقامة الصلوات بإنتظام، شكلت تلك القوة غيمة ثقيلة وضخمت الخوف من استمرار حدوث الظواهر الطبيعية القاسية، تلك الأحداث جعلت العقل السومري يتحفز لتسجيل تلك الأحداث المخيفة ويرصد تأثيراتها ولكن كيف السبيل إلى تدوين ما كان يحدث...؟، استخدم الإنسان السومري أول الأمر في طريقة التعبير بالإشارات، من داخل المعبد بدأت المغامرة الكبيرة وحدث الرسم على الطين والكاهن يرى، صورة الطائر الذي قدم كهدية وصلت إلى المعبد، وجد الصورة معبرة كرمز والطير يرمز إلى الأبسو وتلك اشارة مضافة لحالة الخشوع التي تغمر إله المياه العظيم، تلك الفكرة الأولى أو حالة الإكتشاف المثير مرّ بعمليات تطوير لاحقا، كان التدقيق أو الاستعارة من قوة المياه وأسرار التكوين، تلك الحالة فسحت المجال للقوة الخارقة لمتابعة أسرار القوة الكامنة في الأبسو، التدقيق في صورة وعل خارق عظيم التكوين غطس في المياه وظلت قرونه تدور وأحيانا يراها تعلو حافت القصب الثابت في مياه الأهوار تبتعد وتقترب، في النهاية جاء الاعتراف بوجود إله كان السومريون قد أطلقوا عليه أسم وعل الآبسو، تلك من أسرار التفكير البدائي رافق تطور مفهوم القوة

والخشوع وكان السومري يراه مرتبطا بمنظر الحليب المتدفق من أجساد المواشي المنتجة – وتوجد أشعار تتحدث عن هذا بشكل واضح.



كما ارتبطت شحة الحليب وانقطاعه بحالة الموت الاسطوري للإله تموز الذي جسد رمزا لحالتي القوة والضعف، من تلك الأشعار التي تشير الى الحليب كقول الشاعر السومري:

أنت لست القشطة،

ولست الحليب،

ولكنك الروح الموجودة في القشطة والحليب،

من يشرب الحليب يشعر ببركتك فيه..

مرحلة ظهور أشباه الآلهة

بعد العام 3000 قبل الميلاد حصلت تغييرات رئيسية داخل المدن السومرية التي تقع جنوب بلاد ما بين النهرين، تلك التغييرات تمثلت بنجاح فكرة الري ومدّ شبكات كثيرة لقنوات الري وفتح انهار كبيرة طويلة وصغيرة بين المدن، الأمر الذي ساعد على ظهور حضارة مزدهرة وإمبراطوريات ثلاثة مهمة...

الآكديون

ضمن التوثيق الذي نشرناه عن الفترة السلالية المبكرة حيث مارست سومر التأثير الثقافي الكبير خارج حدودها الطبيعية، خصوصا على طول الفرات من حدود مملكة " كيش – kish" وصولا إلى مملكة ماري ومنها إلى حدود مملكة " إيبلا – Ebla" وظلت الحركة المدنية على امتداد وادي دجلة غير محددة ولأسباب مجهولة أو أنها أهملت نسبيا في تفاصيل التوثيق القديم، على أية حال هناك توجهات سومرية تمثلت بنشر فنونها وآدابها وأنجزت لك الهدف من خلال الفتوحات العسكرية حيث قاتل حكام " سومر " أربعة قرون أو أكثر لصد هجمات الغزاة القادمة من جهة الشرق وللمحافظة على سيادة مملكتهم وتثبيت حالة الوحدة مع دول المدن الأخرى وأيضا المحافظة على الأرضي والدول والمدن التي تقع تحت سيطرة مملكة سومر، على أية حال عند نهاية القرن الرابع والعشرون قبل الميلاد باشر الملك " لوكال كيزي – Lugalaagesi" جملة من الحروب وسياسة التوسع والهيمنة الإقليمية تلك التوجهات التي وافق عليها

أغلب الأمراء الساميين من ممالك وسط بلاد ما بين النهرين، تلك الفتوحات والسيطرة وضم المدن لم تنطلق من زمن " سرجون – Sargon" أو من جاء بعده من حكام الإمبراطورية الآكدية الذين أخضعوا أغلب المدن القريبة والبعيدة وخاصة داخل تكوين بلاد ما بين النهرين وأيضا في بلاد " فارس " وعلى أثر تلك الجهود تكونت أعظم الإمبراطوريات في بلاد ما بين النهرين، تلك الصورة الجديدة برزت للمرة الأولى منذ فترة " تل العبيد " التي ظهرت في فترة ما قبل التاريخ، نصفي تلك البلاد تم وصلهما وتوحيد وجودهما من خلال الروابط الثقافية المتحررة، تلك امتدت من جبال زاغروس إلى شواطيء البحر الأبيض المتوسط، الشعوب في تلك الأزمنة وجدوا ذلك التكوين الجديد المذهل الذي أحاط بالجهات الأربعة من الكون، تلك كانت صورة الإمبراطورية التي أسسها " سرجون الآكدي " والتي دامت لفترة مئتان من السنوات تقريبا وأنهارت بفعل ضغط هجمات الأقوام الهمجية القادمة من " جبال زاغروس " في إيران وأيضا إلى جانب حدوث عدة حالات تمرد داخلية، لكن تلك الإمبراطورية ضربت مثلا مهما في القوة والتنظيم والقانون والإزدهار وتفاصيل أخرى لايمكن ان تنسى ويتم إعادة الحديث عنها في المحاضرات والكتب ومقاعد الدراسة، كما يمكن استذكارها عندما يتم الحديث عن وحدة بلاد ما بين النهرين، الجهود للوصول إلى حدود البلاد الطبيعية والمحافظة عليها والتي كانت حلم كل الملوك والقادة الذين جاءوا بعد سرجون الآكدي..

الساميون

منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وحتى ظهور تكوين الإمبراطورية البابلية في العام 539 قبل الميلاد، تاريخ بلاد ما بين النهرين يوضح محاولات جميع الملوك حالات النجاح والفشل في تحقيق هذا الهدف الكبير، في المرحلة التي

تتحدث عن ظهور الساميون والذين ثمة جهل في صفحات التاريخ عن دخولهم الرائع، هم الذين أخذوا تسميتهم في العام 1781 وأطلقت من قبل العالم الألماني "schlozer" وهو يبحث في أصل اللغات التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين وتحديد الأقوام الذين تحدثوا بها وقد جاء تسمية " الساميين " نسبة إلى اسم " سام " أبن النبي " نوح " وهم المرجع الأعلى " للآشوريين، والآراميون والكنعانيون، وتلك لغات البعض منها لا يزال رغم التحوير فيها تستخدم على نحو واسع في البلاد التي سيطر عليها الساميون، نجد المخطوطات والألواح التي كتبت بتلك اللغات وبالرغم من أن اللغات الآكدية والبابلية والآشورية أو اللهجات الكنعانية أصبحت ميتة، بينما اللغة الآرامية ما زالت باقية بالرغم من دخول تعديلات عليها وهي تستخدم في الطقوس داخل الكنيسة الشرقية – السريانية – وتتضمن عدة لهجات تتكلم بها الجاليات المعزولة الصغيرة في لبنان وسوريا وشمال العراق كل تلك اللغات لها الكثير من المفردات المشتركة ولها خصائص تلك اللغات الرئيسية – الافعال – الأسماء – الصفات، كلها تشتق من أصل جذور تلك اللغات وعادة تكون متكونة من الحروف الساكنة الثلاثة، ، أدخال أحرف العلة الطويلة أو القصيرة، هذه الحروف السكنة تعطي دقة وحقيقة إلى المفهوم مع أرتباط قوي بالجذر العام، هكذا تعطى الأهمية الكبيرة في اللغة العربية كتابة ونطقا مع أنها تحمل الفكرة المبهمة للكتابة وهي تعطي المفهوم للمضمون كما نقول في اللغة العربية " الكاتب يكتب " الخ.. من الأمثلة التي تقدم التفسير الصحيح، المعلومات المثبتة والتي تقول ان تلك اللغات السامية سهلة ومقبولة قبل مرحلة الفتح الإسلامي الكبير، وصف بعض علماء اللغات ان الساميين هم جنس معين وبالاحرى عنصر سامي، وذاك التعريف رفضه بعض العلماء واعتبروهم بمثابة أقوام يشتركون ليس فقط في عامل اللغة بل أيضا في

علم النفس والقوانين والعادات والمعتقدات الدينية والفكرة السائدة عـن السـاميون تقـول أنهم الأشخاص الوحيدون في هذا الكون منهم خرج العظماء والقادة الأفذاذ أصحاب العلم والتنظيم والمعارف والفنون وهذه النظرة تؤدي إلى وجود حالة من الألتباس وهي مشـكلة تحتاج إلى فحص وتقييم صحيح، المناطق التي سكنتها الأقوام السامية في الأوقات التاريخية المبكرة تشمل شبه الجزيرة العربية وأطرافها الشمالية مثل الصحراء السورية وعمـوم أرض سوريا وفلسطين وجزء من بلاد ما بين النهرين وتلك تبدو منطقة متجانسة واضـحة المعـالم ولها حدود مثل البحار والجبال العالية وطبقا للوصف الكلاسيكي كل الساميون كانوا بمثابة قبائل بدوية أصلا وهي تعيش في أجزاء مركزية من تلك الخريطة، في فترات مختلفة تحـرك السامون لترك الصحراء العربية للاستقرار مـن خـلال القـوة وفرضـوا وجـودهم في المنـاطق الخارجية وفي الغالب بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومنهم الآكاديون في بلاد سومر أثناء الألفية الرابعة قبل المـيلاد، السـاميون الغربيـون " الكنعـانيون والعموريـون " أقـاموا كيانات لهم في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسـطين أثنـاء الألفيـة الثانيـة والثالثـة، وكـان الآراميون لهم وجود في كافة أنحاء الهلال الخصـيب خـلال القـرن الثـاني عشر قبـل المـيلاد، أيضا النبطيون العرب تواجدوا في في القرن الثاني قبل الميلاد حتى فضاء القرن السادس بعـد الميلاد وأخيرا جاء العرب المسلمون في القرن السابع بعد الميلاد، هذه النظرية تحمـل صـفة حقيقيـة وموضـوعية خصوصـا لمجموعـة اللغـات السـامية والبحـث في وجودهـا وعوامـل استمرارها ضمن عرض سلسلة من الأحداث بشكل تفصيلي وتلك الأفكار لا يمكـن التسـليم بها دون تعديلات جادة والتأكيـد عـلى مفهـوم ان الصـحراء السـورية العربيـة هـي مركـز إنتشار الساميين وذلك يظل محل نقاش وبحث متواصـل، وتعتـبر أمـاكن تواجـد السـاميين

في " اليمن – حضرموت – عمان " وعدد من الأماكن حيث توجد الواحات المنتشرة فوق مساحات من أرض بلاد العرب، وهناك أراء تعارض فكرة أن العرب سكنوا تلك المناطق بشكل مطلق بين الفترة من العصر الحجري الأول، تلك الأنحاء كانت تمثل صحراء واسعة وبمثابة سهلا عشبيا في فترة الألفية الأولى قبل الميلاد ومن الثابت ان الحياة في المناطق الصحراوية تفترض هجرات موسمية بعيدة المدى في البحث عن الماء والمراعي، كانت هناك هجرات قصيرة المدى تستعمل فيها الجمال على إنتشار واسع في منطقة الشرق الأدنى إبان القرن الثاني عشر قبل الميلاد وفي فترات لاحقة استخدم البدو ركوب الحمير كما زاولوا تربية الخراف، وكانت حركة تنقلهم مدارها حدود السهل المعشوشب الذي يمتد بين دجلة والفرات وفي أسفل مطقة جبال زاغروس – zagros" ولبنان، كما استخدموا الثيران – كانوا على تماس وتواصل دائم مع السكان وخاصة طبقة الفلاحين – اشتروا منهم الخراف وجهزوهم بالحبوب وأدوات الزراعة والأسلحة وأمور أخرى ينتفعون منها وتوفر لهم الزيادة في الإنتاج الوفير والراحة، كانت العلاقة بين البدو والفلاحين تتطور وتتخذ أشكالا مختلفة، اجتمعت تلك المجموعتان بإنتظام في القرى وداخل الأسواق وخارج أبواب المدن ويتم التبادل في السلع بشكل متواصل، تلك الممارسات كانت تنبع من الأفكار العديدة المستقرة ثم استوطن البدو بالقرب من تلك السهول كانت القرى الخاصة بهم على بعد عدة كيلومترات من تلك المدن الكبيرة المزدهرة من حين لآخر، كانوا يتواجدون فيها بشكل دائم، ثم تركوا القبيلة لإيجاد عمل دائم في تلك المدن المزدهرة، تحولوا إلى باعة أو تجار أو حرفيون ومنهم من حصل على أراضي لزراعتها والإستفادة من محصولها، صارت كل عائلة تكسب بشكل ممتاز وكذلك كل قبيلة أو عشيرة وبعضها صار لها إقطاعيات غير محددة وفق هذا

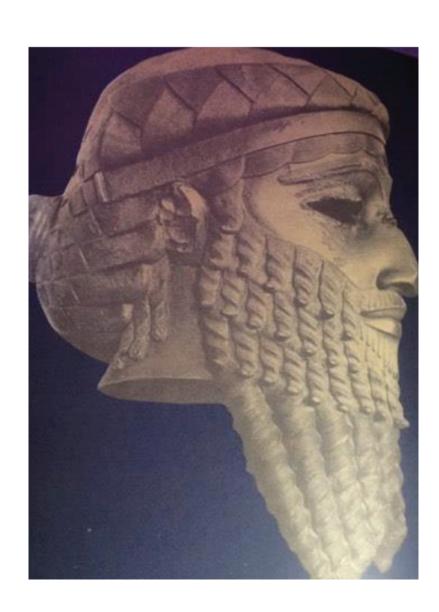
لتوجه إزدهرت الزراعة وإزداد حجم الثروة الحيوانية بكثرة الخراف كما اندفعت حكومات المدن تعمل للسيطرة على تجمعات البدو، كما ظهر في تلك الفترة التفكير باستخدامهم كقوة مساندة للجيش في حالة حصول الإضطراب السياسي ويمكن أيضا عكس الحالة في إمتلاك تلك القبائل البدوية تحقيق فكرة الولاء بعد حصولها على التدريب العسكري وتسللت لتشن حربا ضد المجتمع المقيم كما عملت على إشاعة حالة السلب والنهب وإحتلال مساحات كبيرة من الأرض، وعند السيطرة استقروا وأسسوا لهم مدنا خاصة بهم، وصاروا يتدخلون بالحوادث العرضية بأفعال مسلحة أنتقلوا عمليا من تحركهم الخارجي البعيد عن المدن في الصحراء إلى المرتبة والمنظمة ذات المساحات الزراعية الواسعة الخصبة، ثم حصلت الكثير من الأحداث المرتبطة بتواجدهم في تلك المدن.



وسيطروا فيما بعد على المساحات الواسعة وقنوات الري، ثم تدريجيا سيطروا على الهلال الخصيب وأجزاء أخرى من أطراف الجزيرة العربية، تلك المناطق صارت بمثابة الوطن الحقيقي للساميين، تواجدوا فوق تلك الأرض بقوة، وبقدر توفر المصادر التي تساعد على الحكم وإبداء الرأي الواضح، تلك الفترات التاريخية البعيدة جدا اي في الفترة التي سبقت الميلاد، لكن التكوين البدوي السامي من خلال أفعاله يكشف تاريخهم عن الموقف العقلي الفعلي وفي عدة خطوات محسوبة من قبلهم أصبحوا أكثر نشاطا في المجال العسكري ولهم التأثير السياسي والتجاري والمعرفي وهذا مدّون في سجلات التاريخ القديم أي الألواح الطينية، هم أصبحوا أكثر سيطرة على المجتمع المتحضر الموجود في المدن الكبيرة بفعل قوتهم ومناوراتهم السياسية وخطط السيطرة، كانت أغلب القبائل البدوية في الشرق الأدنى القديم تتكلم اللغة السامية وهي لا تشير او تؤكد ان أغلب الذين تكلموا اللغة السامية كانوا من البدو مع ان هذه المعلومة يشوبها الكثير من عدم الدقة والوضوح، وسواء ان هذا المفهوم أطلق بشكل صحيح أو بشكل خاطيء حول البدو الساميين عموما، لكنهم في واقع الحال يتميزون بالشعور العاطفي الجياش والموقف الزئبقي وعدم الصبر والنشاط الدائم والتنوع العقلي وفي أفكارهم معاداة للطقوس والأساطير وأفكار الديانات وطرق التوحيد، ومفاهيمهم السياسية الاجتماعية تتمحور حول القبيلة، وهذه حقائق مطلقة حول الساميين البدو وهي دقيقة إلى حد بعيد ونلمس ذلك من طريقة حياتهم وأطرها ولكن بعض العرب الساميون من الآراميون يقعون ضمن هذا التصنيف، هنا أنا ليس بموقف تصحيح الأفكار أو التصنيف وفي العودة إلى الفترة التاريخية للآكديين في بلاد ما بين النهرين أو فترة " إيبلا – أو بلاد كنعان في فلسطين " تلك المجتمعات التي تطورت فيما بعد – هي كانت في الأصل من النسيج البدوي، لكن بالنسبة إلى

بلاد ما بين النهرين نحن لا نعرف متى أولئك الساميون دخلوا البلاد، هنـاك فـترات إفتراضـية تقول أنهم لم يدخلوا ومنها من يربط بحصول الهجرات العرقيـة الكبـيرة خـلال فـترة التـاريخ الأول والتي قادت إلى إحتلال الساميون، ولكن هناك تناقض كبـير في أراء علـماء الآركيولوجيـا حول هذا الموضوع أدت إلى مساؤى أفضت إلى تصورات يشوبها الجهـل وعـدم الدقـة، نجـد هناك أسماء كتبت وهي تمثل حالات شخصية للبروز السامي من خلال بعض النصـوص التـي دونت في النصوص التي وجدت في اللغة السامية والتي ظهرت خـلال فـترة السـلالة المبكـرة، من خلال تواجدهم الجغرافي يثبت بأن الساميين كانوا عبارة عن أقلية بين الكثافة السـومرية في منطقة جنوب بـلاد مـا بـين النهـرين، لكـنهم كـانوا يشـكلون قـوة نشـيطة ولم تكـن لهـم السيادة في الحكم كما تحدثت عن ذلك الوثـائق المتعلقـة بفـترة مملكـة كـيش ومـاري ومـا حملته الألواح الطينية من معلومـات ولكـنهم بشـكل أكيـد شـكلوا الجـزء الأكـبر مـن نسـبة السكان...

سرجون الآكدي



لو تحركنا نحو الشمال العراقي نجد إشارة إلى زمن الملك العظيم " سرجون الآكدي " ذاك يمثل الجزء الأهم من حضارة بلاد ما بين النهرين المرتبطة بمدينة " نفر " تلك الفترة التي تعود إلى حضارة سومر عند مدينة " سامراء " ضمن وادي " ديالى " ضمن ذلك المنخفض الذي اطلق عليه اسم بلاد " آكد " هناك أطلق اسم الساميين الأوائل الذين جاءوا إلى بلاد ما بين النهرين واختلاف لغتهم التي تسمى باللغة الآكدية وهم يمثلون فرعا من التكوين السامي وقد كتبوا مفردات وجودهم وحضارتهم بالخط المسماري الذي اخترع من قبل السومريون وشكل الوعاء الخاص بلغتهم الخاصة وجعلوه يتكيف مع أحساسهم وتفاصيل الأحداث التي صنعوها أو مرت بهم وكانت لغتهم والكتابة التي اخترعوها صعبة للغاية ونجد ثمة علاقة بين اللغة الآكدية والسومرية وارتباط بينهما، وهي تشبه إلى حد ما اللغة الصينية الحاضرة الآن، أو حالة قريبة من اللغة اللاتينية حيث يوجد تشابه بين بعض الكلمات أوالجمل بعض تلك الكلمات او الجمل او المقاطع عبرت من اللغة السومرية إلى اللغة الآكادية مثل كلمة " فأس " أو " سعر " أو " ثوم " هذه وغيرها واضحة في المصادر المتوفرة حاليا، لكن يجب الإشارة إلى أنه لم يعثر على لوح سومري يشير إلى ان الآكديين أعداء أو هم من البدو أو محتلون، ولو أنه من الممكن أن تظهر في التنقيبات الجديدة إشارات إلى ذلك، ان جميع القوانين وحالات التطور الاجتماعب واستمرار الطقوس الدينية سارت على النهج السومري واستفادت من البناء المتكامل الذي أسسته الإمبراطورية السومرية الآكديون لم يخلقوا أي شيء جديدة بل استفادوا من جميع الآرث اسومري، ويظهر بشكل واضح ان الآكديون زاولوا الزراعة وفق المنهج الذي أسسه أسلافهم السومريون في شق الجداول وبناء القنوات وتقسيم مواسم الزراعة كما أنهم أي الآكديون عاشوا في القرى والبلدات على ذات نمط الحياة

السومرية أخذوا تعاليم الدين والطقوس وقلدوا ما ورد فيها حتى في شكل المعابد والآلهـة، ورد في الألواح السومرية أو الكتابات الآكدية وجود أختلاف واحد بينهما يكمن في تفاصيل اللغة، ولكن في الجوانب الأخرى يصعب إيجاد الفرق بينهما، في فترة ظهور الملك " سرجون الآكدي " تغيرت فصول التاريخ القديم وصارت هناك إشارة جديدة لفصول حضارية أخرى مهمـة تـرتبط بفـترة الإمبراطوريـة الآكديـة، حيـث صـارت بـذات المسـتوى في المقارنـة أو الأهمية، عد سرجون الآكدي الأول جعل مثل هذا الإنطباع سائدا في فصول التاريخ القديم، احيطت شخصية هذا القائد بهالـة كبـيرة مـن التعظـيم والسـموّ ونسـجت حـول بطولتـه القصص الكثيرة بعضها أقرب إلى الخيال، في فترة الإمبراطوريـة الآشـورية تـم كتابـة لـوح في القرن السابع قبل الميلاد يصف ولادة الملك " سرجون الآكدي ".. يقول اللوح الآتي:

أنا سرجون الآكدي،

الملك العظيم،

ملك آكاد،

أمي كانت كاهنة معبد،

ولم أعرف لي أبا،

أعمامي أحبوا المناطق الجبلية وسكنوا فيها،

مدينتي أسمها " أوزو بيراتو "

هي مدينة ضفة الفرات،

حملت بيّ أمي الكاهنة سرا،

وعندما ولدتني تملكها الخوف،

فوضعتني في سلة من القصب،

ختمتها بالقار الأسود،

وأنزلتني في الماء الذي لم يغمرني،

ماء الفرات المقدس،

هو الذي حملني إلى البستاني " آكي "،

هو الذي أنتشلني عندما كان ينضح الماء من النهر بسطله،

آكي الرحيم أخذني إليه كأبن لهورباني،

ثم جعلني أعمل بستانيا في أرضه،

وبينما أنا أعمل في البستان،

منحتتني عشتار حبها فصرت ملكا،

طفولة الملك سرجون الآكدي كما أسلفت في تفاصيلها تشبه طفولة النبي " مـوسى " والكثير من العظماء الذين تحدثت عنهم فواصل التاريخ، هناك أراء وتوثيق يعارض الفكرة ولابد من الإشارة إلى الآراء المتناقضة لكي يحـدد القـاريء موقفـه مـن التفاصـيل التاريخيـة لأهمية ذلك، قصة ولادة سرجون العظيم وسرقة اليهود لها ونسبها لموسى،

" تقول الاساطير القديمة ":

ام البطل القومى تصنع سلة وتطليها بالقار

تضع الام ابنها الرضيع فى السلة

وتلقى السلة بالنهر

لا يغرق الرضيع وانما تستمر السلة فى الطفو على صفحة المياه

شخص يجد السلة فينتشلها من النهر ويخرج الرضيع

يقوم هذا الشخص المنقذ بتربية الرضيع

يكبر الطفل ويقود شعبه ويحقق لهم دولة كبيرة ومجدا عظيما

اقدم اسطورة ذكرت تفاصيل هذه القصة هى الاساطير السومرية التى ترجع للالف الثالث قبل الميلاد عند حديثها عن سرجون، وبعد ما لايقل عن الف عام باقل تقدير ظهرت نفس تفاصيل القصة من جديد فى التراث اليهودى المقدس عند حديثها عن موسى وبعد حوالى ثلاثة الاف سنة من القصة السومرية ، او حوالى الف وخمسمائة سنة من القصة اليهودية او منذ حوالى 1400 سنة من تاريخنا المعاصر جاء الاسلام واقتبس تفاصيل الاسطورة بثوبها التوراتى. قد يكون موسى البطل القومى اليهودى شخصية حقيقية بالرغم من عدم وجود اى اشارة له فى تراث المنطقة المعاصر الا ما جاء بكتب اليهود المقدسة ، لكن مما لا شك فيه انه اضيفت لهذه الشخصية بعض الاساطير التى نسجها اليهود على منوال شخصية سرجون الاول ، هذه الشخصية التاريخية ، والذى استطاع تأسيس المملكة الأكادية بعد ان هزم المدن السومرية ووحدها تحت حكمه فاقام امبراطورية ضخمة عرفت بمملكة أكاد واستمرت هذه المملكة فى الحقبة من 2350 الى 2150 ق م ولقد نسجت حول هذا الملك العظيم اساطيروخرافات " واعرض هنا أراء أخرى تتناقض مع المعلومات التي تتعلق بالملك سرجون الآكدي وهي لا تمثل وجهة نظري " فلما ظهر العبرانيون فى المنطقة بعد مئات السنين بعد زوال هذه الدول والممالك الرافدية القديمة ، وبعد ان اقاموا وطنا

على ارض هذه الممالك القديمة ، سجل مؤرخوهم وكتابهم الدينيون تاريخا لامتهم واخذوا تراث واساطير المنطقة ونسبوها لانفسهم ومن بين هذه الاساطير اسطورة الملك الأكادى العظيم سرجون حيث جعلوا من قصة قائدهم ومؤسس دولتهم موسى وخاصة قصة مولده صورة كربونية من اسطورة مولد سرجون فنقرأ فى التوراة عن قصة مولد بطل اليهود موسى ، وكيف ان فرعون مصر امر بالقاء كل طفل ذكر عبرانى فى النهر: " ثم امر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه في النهر لكن كل بنت تستحيونها " ثم نقرأ قصة مولد موسى - و ذهب رجل من بيت لاوي و اخذ بنت لاوي فحبلت المراة و ولدت ابنا و لما راته انه حسن خباته ثلاثة اشهر و لما لم يمكنها ان تخبئه بعد اخذت له سفطا من البردي و طلته بالحمر و الزفت و وضعت الولد فيه و وضعته بين الحلفاء على حافة النهر و وقفت اخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل و كانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرات السفط بين الحلفاء فارسلت امتها و اخذته و لما فتحته رات الولد و اذا هو صبي يبكي فرقت له و قالت هذا من اولاد العبرانيين فقالت اخته لابنة فرعون هل اذهب و ادعو لك امراة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي فذهبت الفتاة و دعت ام الولد فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد و ارضعيه لي و انا اعطي اجرتك فاخذت المراة الولد و ارضعته و لما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابنا و دعت اسمه موسى و قالت اني انتشلته من الماء " فبحسب هذه القصة التوراتية خافت ام الطفل (الذى سيصير القائد والزعيم للامة اليهودية بعد ذلك) من فرعون ومن اوامره الملكية ولم تقدر ان تغرق ابنها فى النهر فلجأت لحيلة فوضعت ابنها فى سفط (سلة) من البردى وتركت السفط يعوم على صفحة المياه حتى يعثر عليه احد لربما يتعطف عليه

وينتشله فتكتب الحياة لابنها ، وبالفعل ، وبحسب الرواية التوراتية لعبت الصدفة دورا كبيرا حيث تصادف ان يمر السفط العائم امام قصر ابنة الفرعون على ضفة النيل ، وفى نفس الوقت تصادف ان ابنة الفرعون كانت تستحم. فلما رأت السفط العائم امرت باحضاره واكتشفت ان بداخله طفلا يبكى فتحننت عليه وقررت تبنيه وتربيته. وكانت اخت الطفل تراقب من بعيد مسيرة السفط ، ورأت ما حدث من ابنة الفرعون فتقدمت اليها تعرض عليها ان تحضر امرأة عبرانية لارضاع الطفل فوافقت ابنة فرعون ، وهكذا قامت الام بارضاع هذا الطفل بصفتها مجرد مرضعة ولم تفشى سر امومتها لابنة فرعون. وهكذا تربى الطفل فى قصر ابنة فرعون بجوار امه مرضعته. تكاد تكون هذه الاسطورة العبرانية الخاصة بمولد الطفل الذى سيكون له شأن عظيم عند اليهود صورة كربونية من اسطورة مولد الطفل الأكادى سرجون الاول والذى كان له شأن عظيم عند الأكاديين القدماء فى الالف الثالثة قبل الميلاد. فلما جاء اليهود بعد مئات والاف السنين اقتبسوا هذه الاسطورة القديمة بنفس تفاصيلها مع قليل من التعديلات لتناسب الثقافة العبرية -

فماذا جاء بالاسطورة الاصلية؟

نقرا بدائرة المعارف الكتابية تحت مادة: سرجون (ولاحظ اعترافها بتشابه قصة مولد موسى باسطورة مولد سرجون)

" واسمه بالأكادية في الوثائق المسمارية هو "شاروكين" ومعناه "الملك الشرعي" أو "الذي ثبَّته (الإله)". سرجون الأكادي: وهو أول حاكم سامي حكم كل بلاد بين النهرين. وتسجل النقوش المسمارية، الأشورية والبابلية، أسطورة عن نشأته أشبه ما تكون بقصة مولد موسى (خر1: 22-2: 10). فيقال إن أم سرجون

حبلت به وولدته سرًّا، ثم وضعته في سفط من الحلفاء وطرحته في النهر الذى التقطه منـه "عكس" السِّقاء ورباه كابن له. ولما بلغ أشده، أصبح سياسياً داهية وقائداً عسكرياً محنكـاً. عمل أولاً ساقياً "لأورزابابا" آخر ملوك "كـيس". وسرعـان مـا خلعـه سرجـون وتخلـص مـن منافسه الآخر "لوجـالزاجيزى" ملـك "أرك"، وأسـس الأسرة الحاكمـة الأكاديـة الأولى، ونقـل عاصمته من "كـيس" إلى "أكـد" (حـوالي 2360 - 2180 ق.م). وقـد ظـل حـاكماً فيهـا سـتاً وخمسين سنة. فكانت مملكته أول إمبراطورية عالمية في التاريخ. فقد أخضع كلاً من سومر حتى الخليج الفارسي، وبعد ذلك قام بعدة غزوات جعلت منه أسطورة عـلى فـم الجميـع. وقد ظلت أمجاده ومفاخره تسجل حتى عصر نبونيدس، أي على مدى أكثر من ألفـي عـام بعد وفاته. وأشهر هذه الملاحم هي المعروفة باسم "شار تمحاري" (أي "ملك الحرب"). وقد جاء فيها أن تجَّار ما بين النهرين - الذين كـانوا يمارسـون تجـارتهم في بـلاد الأناضـول - قـد استنجدوا بسرجون، فلبى دعوتهم وفتح تلك البلاد.

وبمقارنة تاريخ سرجون هذا مع العبارة الموجزة: "وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض. وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار. من تلـك الأرض خرج أشور وبنى نينـوى ورحوبـوت عـير وكـالح، ورسـن بـين نينـوى وكـالح. هـي "المدينـة الكبيرة" (تك10: 8-12)، يعتقد بعض العلماء أن سرجون الأول هـو نفسـه "نمـرود"، ولكـن ليس ثمة دليل قاطع على هذا. "

ويقول الباحث التاريخى " ايفار ليسنر ":

((وكـــان سرجـــون الاول Sargon وهوشخصـــية تاريخيـــة ذات شـــهرة اسطورية ، اول قائد عظيم استطاع توحيد هذه القبائل السامية وهزيمة المـدن السومرية الواحدة تلو الاخرى ، وبذلك اسـس امبراطوريـة " أكـاد " ودام عصره

الذى يعرف بالحقبة الأكادية من 2350 الى 2150 ق م.

وأصبح الملك إلها ، والامبراطورية الاكادية مملكة قدسية... ويقال ان سرجون نفسه هو ابن " لايبو " La ipu السامى ، كما يقال ان امه كانت كاهنة. والحقيقة هى ان ما تذكره الاسطورة السومرية عنها يذكرنا بأسطورة موسى. فقد وضعت الكاهنة طفلها الرضيع فى سلة صغيرة صنعت من اغصان الصفصاف وطليت بالقار ، وألقت بها فوق مياه نهر الفرات ، ثم عادت فى هدوء الى المعبد لتؤدى واجباتها. وعثر بستانى يدعى آكى Akki على السلة الصغيرة ، ومضت الايام واصبح الولد حامل كأس الملك " اورزابابا " Ur Zababa ملك كيش Kish. فما لبث ان خلع سيده عن عرشه ونصب نفسه حاكما على كيش بدلا منه...ثم اخضع سرجون بأسرها حتى غسل اسلحته فى النهاية فى مياه الخليج الفارسى ، وقبل ان تواتيه المنية كان قد وصل الى البحر الابيض المتوسط بل والى الاناضول ايضا واسس اول امبراطورية واسعة فى تاريخ العالم.))

هذا في أحسن الأحوال تاريخ الملك الذي بسط سيطرته على بقاع كثيرة من التكوين القديم، كتبت قصته ومكورة في مصادر موثقة كثيرة استنادا إلى ترجمة الألواح السومرية، وتضيف بعض الألواح الإشارة الى ان سرجون الآكدي كان يمكن أن يقنع نفسه بالعنوان الرفيع الذي يحمله كملك لمدينة كيش، لكنه أتبع طموحاته الكبيرة التي كان يراها في سيرة ملك " كيش " ولهذا قرر أن يؤسس على ضفاف نهر الفرات موقع لمملكة مهمة وكبيرة أطلق عليها اسم " Agada" والتي اعتبرت المدينة الملكية الوحيدة للعراق القديم والتي ظل موقعها مجهولا، بنى قصرا كبيرا كما بنى معبدا للإلهة عشتار أطلق عليه اسم " Zababa" واعتبر محارب إله مدينة " كيش "، اشتهر عهده في صعود الإبداع في الفنون والمعرفة وترسيخ أصول القانون وإدارة الدول، كان صعود الملك سرجون الآكدي قد

فتح الباب أمام عهد جديد أعطى للساميين السيطرة وحكم البلاد حيث عين حكام من آكد لإدارة كل المدن الرئيسية، وأصبحت اللغة الآكدية هي اللغة الرسمية مع بقاء استخدام الكتابة المسمارية بينما ظل الكهنة ورجال الدين في مجال عملهم، لهم مكاتب ومواقع في المعابد وظلت تعاليم الشعيرة الدينية في مصاف الإحترام والتقديس وتذكر اللألواح السومرية ان أبنة سرجون الآكدي الشاعرة " أنا هيدونا – Enheduanna" كتبت ترتيلة من الشعر مهداة إلى الآلهة " إنانا " وصفتها بأنها " نانا إلهة القمر لمدينة أور ودعت نفسها بلقب كاهنة " آنو Anu" والتابع للإله أنليل العظيم " Enlil" تولت هذه الشاعرة منصب الكاهنة العظمى مسترشدة بسيرة جدتها ام سرجون في أور مدة من الزمن، ويدخل في تركيب اسمها إله السماء (آنو) والذي كانت مدينة الوركاء مركزاً لعبادته، إذ تولت هذه الشاعرة بصفتها كاهنة عظمى أيضاً العمل في الوركاء فضلاً عن مدينة أور، وقد يكون هذا التقليد الجديد في منصب الكاهنة ضمن سياق توحيد البلاد في إطار الوحدة الوطنية التي حققها سرجون الأكدي، ولربما قد تمخض عنها أو كان منن جرائها توحيد مفردات الطقوس الدينية التي كانت سائدة في المدن الرئيسية، ولربما يكون التجاوز المزعوم الذي حصل على معبد الايكور في (نفّر) كان من جملة تلك الاجراءات.من نتاج هذه الشاعرة ترتيلة في مديح إلهة الحب والحرب انانا (عشتار)، وهي ترتيلة طويلة قسّمها الباحثون إلى قسمين، الأول أطول من الثاني، حيث يحتوي على أدعية ومدائح موجهة إلى الإلهة مستعرضة قدراتها الكبيرة على إنزال العقاب والدمار، فهي العاصفة المدمرة التي يرتعش لهولها البشر وهي إلهة الحرب الغاضبة التي لا يعرف قلبها الرحمة والتي ينهزم أمامها الآله مثل الخفافيش، أقتبس أجزاء من ترتيلة الشاعرة انهيدوانا التي نظمتها في مديح إلهة الحب والحرب انانا (عشتار):

انهيدوانا تؤكد انها حظيت بقبول الإلهة انانا،

يا سيدة النواميس الإلهية كلها،

النور الساطع،

المرأة واهبة الحياة التي تكتسي بالإجلال،

محبوبة السماء والأرض،

كاهنة الإله آنو،

ذات الحلي العظيمة، يا سيدتي: أنت حارسة النواميس الإلهية العظيمة،

أنت التي رفعت النواميس الإلهية وأنت علقت النواميس الإلهية في يدك،

لقد ملأت البلاد بالسم الزعاف كالتنين،

وأنت عندما تزأرين على الأرض يختفي كل ذي حضرة من سطحها،

يا صاحبة المقام الأول،

أنت (انانا) السماء والأرض،

تمطرين البلاد بالنار الملتهبة،

يا مدمرة البلدان الأجنبية لقد أعطيت أجنحة للعاصفة،

وعندما يمثل الناس أمامك، خائفين مرتعشين من نورك الوهاج فانهم ينالون منك جزاءهم العادل،

يا سيدتي،

ان انونا الآلهة العظام،

ينهزمون أمامك إلى الكهوف مثل خفافيش مرفرفة،

أيتها الرحيمة،

المرأة واهبة الحياة،

صاحبة القلب النير ها قد أنشدتها أمامك بموجب النواميس الإلهية،

ودخلت أمامك في الكيبار المقدس،

أنا الكاهنة العظمى انخيدوانا،

حملت سلة الطقوس وأنا أشدو ـ ولكني الآن لم أعد أسكن في المكان المـريح الـذي أقمته لي،

فإذا ما حل النهار، حرقتني الشمس،

وإذا ما حلَّ ظلام الليل حدقت بي ريح الجنوب،

لقد أضحى صوتي العذب مضطرباً ـ وتحول كل ما يسعدني إلى تراب،

أنا انهيدوانا،

سوف أتلو الصلوات لها ـ وأقدم دموعي كالشراب العذب إلى انانا المقدسة وأسلّم عليها،

يا سيدتي، يا محبوبة الإله آنو،

عسى أن يرق عليّ قلبك..

أنت معروفة،

أنت معروفة (بعظمتك)،

وما أنشدته لم يكن من أجل آنو،

بل من أجلك أنت،

لقد كومت الفحم (في المبخرة) وأقمت الشعائر،

وان ما تلوته عليك في منتصف الليل ـ

عسى ان يعيده عليك الكاهن ـ المنشد في منتصف النهار.

السيدة الأولى،

يا عماد قاعة العرش،

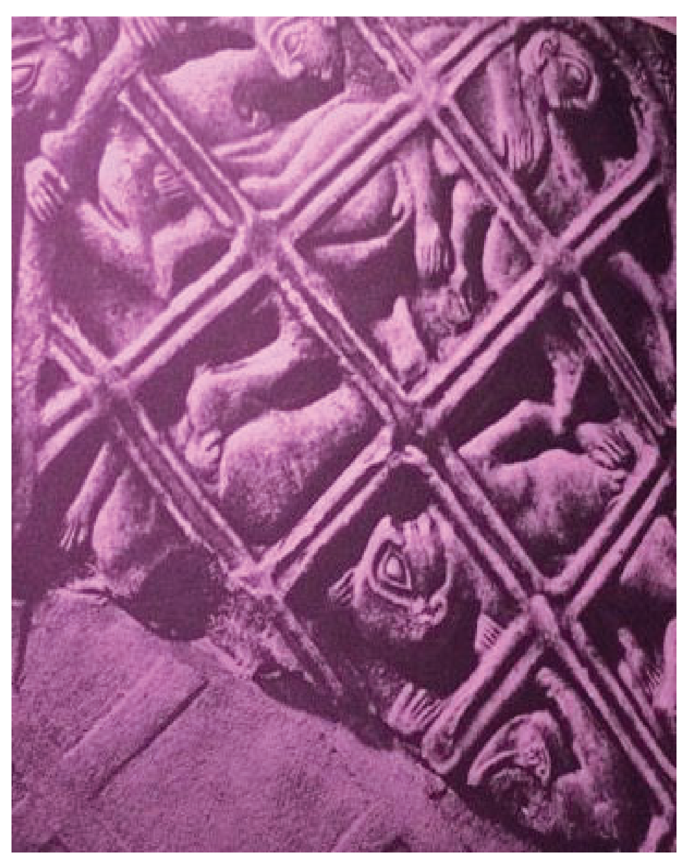
تقبلت صلواتها ـ واستعاد قلب انانا راحته،

كان يومها سعيد،

وهي تكتسي بالحسن وتزخر بفتنة الأنوثة،

المجد إلى سيدتي انانا،

التي تكتسي بالحسن.....



وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الشاعرة نود أن نشير إلى قطعة فنية على شكل لوح من الحجر احتوى في أحد أوجهه نحتاً بارزاً يمثل الكاهنة العظمى وهي ترتدي ثوباً طويلاً ذا أهداب له عدة طيات وقد تدلت ظفائرها على كتفيها يتقدمها كاهن يسكب الماء المقدس في إناء بالقرب منه بناء مدرج شبيه بالزقورة، ومن ضمن المشهد مجموعة من الكاهنات، أما الوجه الآخر من هذه المنحوتة فانها تحوي كتابة مضمونها: (انخيدوانا كاهنة الإله ننار، زوجة الإله ننار، ابنة سرجون) الملك سرجون الآكدي ثبت في فترة حكمه انه لا يريد التجاوز أو التخاصم مع التقاليد القديمة التي سادت قبل عهده والتي يحترمها شعب "سومر

وما جاورها بعد أن دعم سرجون الآكدي سلطته السياسية والأخلاقية وأرسى بقوة بنود القانون على سومر وتعاظمت قواته إلى حدّ كبير، أطلق عدة حملات عسكرية وخاصة في إتجاهين الأول عبر نهر دجلة نحو إيران والثاني على طول نهر الفرات نحو سوريا إلى الشرق، نظم قواته وحقق مقاومة قوية ثم اندفع نحو المدن في جنوب غرب بلاد فارس وتمكن من انتزاعها وهزم جميع أعدائه في نهاية الحرب كما تمكن من فصل تلك المدن عن ما تبقى من سيطرة مركزية، كما جعل حكامها أسرى لديه ومدّ سيطرته إلى مدن أخرى كما أتخذ من مدينة – سوسة Susa– مقرا لحكومته المؤقتة وفرض اللغة الآكادية لتكون اللغة الرسمية لمملكة عيلام ونقل القوات من الجبال إلى مناطق السهول وقد لعبت مدينة سوسه وحاكمها فيما بعد دورا مهما في إلحاق الهزيمة ببلاد ما بين النهرين، أتجه سرجون الآكدي في فتوحاته إلى المنطقة الشمالية الغربية كما لو أنه وقواته في تفاصيل نزهة عسكرية وبارك خطواته الحربية الإله " Dagan " " إله الحبوب الذي كان يُعبد على طول إمتداد نهر الفرات، وهو الذي جعله يتمكن عسكريا من السيطرة على مدينة – إيبلا – Ebla" وصولا إلى غابة الآرز وتلك الأجزاء الأخرى التي تشكل لبنان الحالي وعمل على نقل الأخشاب والمعادن الثمينة عن طريق السفن لإيصالها إلى مدينة " آكد " التي تقع أسفل الفرات، ويعتبر إنتصار قواته على مملكتي " ماري " و " إيبلا " خلصا مملكته من منافسين خطرين، الألواح التي دونت فترة حكم سرجون الاكدي تحدثت عن حملات عسكرية قادها نحو مدن الجنوب أو ما يسمى بمناطق دجلة العليا، تم العثور على قبعة عسكرية نسب إلى سرجون استخدامها في الحرب وهي مصنوعة من البرونز، وجدت في مدافن نينوى أثناء التنقيب في بداية القرن الماضي، كما تم العثور على الكثير من الألواح التي كتبت في فترة الإمبراطورية الآشورية تضمنت الكثير من المعلومات المهمة

عن سرجون الآكدي ودولته وفترات حكمه، كما وجدت كتابات أدبية ونصوص تتحدث عن المعارك وأحداث أخرى مهمة ووصف مكتوب بشكل ممزوج بالشعر لتلك الفتوحات التي قادها سرجون الآكدي، ومنها ما يوصف بالملاحم المرتبطة بفترة حكمه، تلك الملاحم المرتبطة بفترة حكمه، تلك الملاحم توصف أهم الصور التي رافقت إنجازاته في بلاد ما بين النهرين، تقدم في حروبه وتمكن من قلب آسيا الصغرى وجعل اعظم اهتمامه شق طرق التجارة وحمايتها واستمرار تدفق البضائع من المدن القريبة والبعيدة نحو آكد ومن أجل تأمينها قام بحملات عسكرية متواصلة في مناطق " كردستان " وأيضا أرسل حملات اخرى إلى مناطق الخليج لمدينة " ʿعمان " وتؤكد المصادر أن القوات بقيادته عبرت بحر الغرب ودخل إلى " قبرص " وأعتبر القائد الفاتح من بلاد ما بين النهرين وهو الرمز العظيم الذي شغل خيّال الكتاب والشعراء القدماء، وهو الذي قال يصف وجوده وأعماله:

" الآن،

أي ملك يريد أن يصبح نظيرا لي،

عليه أن يذهب أبعد مما ذهبت في فتوحاتي،

إذا اراد أتركوه يذهب.."

سرجون الآكدي كان يتحدث بشكل تلقائي ومثالي مع أنه برهن على قدرته في فتح أرجاء واسعة من مناطق ذاك العالم القديم، مع أن البعض ينظر الآن إلى كلماته وأقوله على أنها ساذجة ومتطرفة وهي من قبيل قصص المبالغة الخيالية، دام العهد المجيد للملك سرجون لفترة لاتقل عن خمس وخمسون سنة امتدت من سنة 2334-2279 قبل الميلاد، في شيخوخته تمردت ضده كل

الأراضي التي كان يسيطر عليها حيث تقدمت القوات المعادية لمحارة مدينة آكد من جميع الجهات، لكن الأسد القديم الجندي المحارب الشجاع انتفض وجمع قواته وتحرك لمحاربتهم وتمكن من هزيمتهم، أوقعهم في فخ رهيب نصبه لهم وحطم جيشهم الكبير المحتشد حول أبواب آكد، وعندما تحركت ضده قبائل البدو في أعالي الجزيرة هاجمهم في عقر دارهم بقواته الكبيرة ودمرّ أماكن تواجدهم مما دفعهم لكي يذعنوا من جديد لسيطرته، اعتبرت فترة كم الملك سرجون الآكدي استكمالا وامتدادا وتواصل لعصر فجر السلالات اوعصر دول المدن الذي ساد من خلاله السومريون في الفتوحات ومنجزات العلوم والثقافة والفنون وقد ظهر العصر الآكدي على أعتاب نهاية العصر السومري واستمرار عصر جديد رتبط به أضاف ذلك أبعادا جديدة لحضارة بلاد ما بين النهرين وجعل التغيير ممكنا كما ساهم في إبراز التكوين القومي واللغوي والحالة السياسية المتميزة، اتخذ الملك سرجون العديد من القرارات المهمة منها تطوير العقيدة العسكرية وبناء جيش قوي قادر على تحقيق طموحاته وأسس علوم الإدارة وفتح المجال أمام تطور الثقافة والفنون كما اتخذ لقبا جديدا لم يسبقه إليه أي من الملوك هو – ملك الجهات الأربعة – كما كشف توسع مملكته عن نشر عقيدة آكد الدينية وتثبيت مفوم المستعمرات الجديدة وصار لقبه يتماهى مع لقب الآلهة العظام مثل " آنو – أنليل – شمش " بصفتهم أسياد الخليقة والكون وبإتخاذ حكام آكد هذا اللقب صاروا ممثلين لهؤلاء الآلهة ولهم كامل الشرعية في حكم العالم، كما أمر في إدخال اسم الملك في العقود القانونية بجوار أسماء الآلهة، كما أنه جعل القضاء مجرد موظفين يتم تعينهم من قبل الملك ووفق وثائق او مراسيم بع ان كانوا في العهود السابقة أِشبه بالمحكمين بينما في التعيين الجديد صارت احكامهم نافذة يلتزم بتنفيذها الملك وتكوين الحكومة والمعبد وصار حكمهم

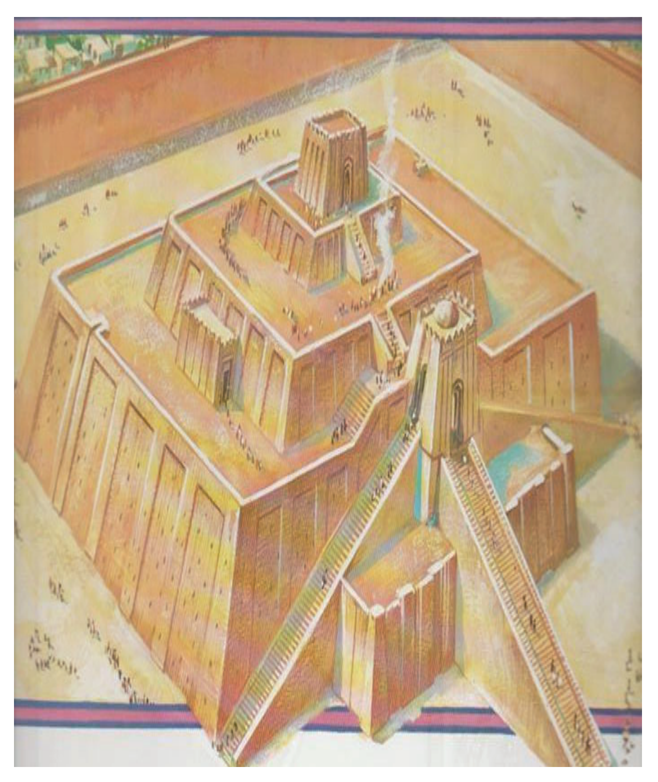
باسم الملك، عمـل سرجـون الاكـدي عـلى توحيـد التقـويم السـنوي وكـذلك اسـماء الشـهر وتخصيص الاعياد، أظهر الملك سرجون الاكدي حالـة مـن الأرتيـاب وعـدم الإطمئنـان لـولاء المدن التي سيطر عليها أو فتحتها قواته وصارت ضمن حـدود الإمبراطوريـة الآكديـة لهـذا أتخذ القرار بتعيين عددا من حكام دولته على تلك المدن والولايات التابعة كما قام بإتخـاذ خطوة اخرى تمثلت بترتيب اسس نظام الحكم حيث ألغى تـولي تلـك المناصـب الحكوميـة بالوراثة، كما امر بإزالة أسوار المـدن كـما يـذكر ان في زمـن حفيـده الملـك " نـرام – سـين " أطلق حكام المدن على أنفسهم لقب " عبـد الملـك "، ويعتـبر الملـك سرجـون هـو أول مـن أوجد نظام الجيش وفق أسس ثابتة وكانت تعتبر أساسية في تكوين القوات ووضع منـاهج التدريب وخطط القيادة وأساليب القتال وإدارة المعارك وفـق تجـارب ومعالجـات عمليـة وعلميـة، عقيـدة الحـرب كـما ثبتهـا أدت بالنتيجـة إلى تحقيـق أنتصـاراته اللاحقـة، ألغـى مـن مفهـوم الحـرب استعمال الأسـلحة القفيلـة التـي سـادت سـاحات الحـروب السـابقة منذ فجر عصر السلالات حتى عهـده بسـبب أنهـا لا تلائـم حريـة الحركـة وتمنـع المنـاورة في سـاحة المعركـة ومـا يتصـل بهـا، الـزم قواتـه باسـتخدام الأسـلحة الخفيفـة وخاصـة اسـلحة الرمايـة الفرديـة مثـل القـوس والسـهم، الآكـديون وفـق الحقـائق المعروفـة عن حضارتهم قد اقتبسوا الكثير مـن إنجـازات السـومريون في الفنـون والآداب واتسـمت منجزاتهم بقوة الرؤيا وفيها من الحيوية والحركة والتطور ما يعبر عن تلك المرحلة وخاصـة في مجال فنون النحت والتمثيل والرسـوم والاختـام ومـن تلـك " ألـرأس البرونـزي المسـبوك الذي تمّ العثور عليـه في مـدافن " نينـوى " ونسـب للملـك سرجـون الآكـدي وقـد اعتـبره العلماء على قدر كبير من البراعة والفن وطريقة الإنجاز، يضاف إلى ذلك المنحوتات الرائعة والجميلـة التـي تركتهـا مرحلـة حكـم – الملـك " نـرام – سـين " والتـي تظهـر فيهـا قـوة

التعبير وحيوية الحركة ودقة التجسيد، أظهر الاكديون القسوة إزاء المدن والدويلات التي أعلنت التمرد على حكمهم وخاصة السومرية منها، كما أنهم دفعوا التعويضات للراضي والأملاك التي استحوذوا عليها لإصحابهاوصفت تلك التعويضات بإنها عادلة وابتعدت عن حالة إغتصاب الحقوق وقد دوّن في عدد من الألواح وثائق خاصة بالمعاملات التجارية والأقتصادية والأدارية وهي تشمل عدة مدن حصلت فيها حالات البيع والتعاقد، توثق تلك المعاملات مرحلة الانتقال من سيطرة المعبد إلى سيطرة مراك الحكم والإدارة التابعة لها وتلك الألواح تمت كتابتها بعناية وبشكل متطور وهي تقترب في جودتها من ألواح مكتبة آشور بانيبال وفيها بوضوح تطور الخط المسماري وتزامن مع ذلك ظهور معاجم تُقرب بين اللغة السومرية والآكادية وشرح ما تعنيه العلامات المسمارية وما يرادفها من كلمات أو رموز...

حروب وفتوحات الإمبراطورية الآكدية

تواصلت فتوحات الإمبراطورية الآكدية بعد وفاة الملك " سرجون الآكدي " وذلك من خلال مجيء ملوك أقوياء تعاقبوا على حكم البلاد وكان من أبرزهم حفيده " نرام – سين " فتوحاتهم الواسعة والمهمة قادت إلى ظهور تكوين الإمبراطورية الآكدية التي كانت خارطتها الجغرافية تشير إلى تضم اجزاء من ممالك او مدن الهلال الخصيب وبلاد عيلام والأقسام الشرقية من بلاد آسيا الصغرى وصولا إلى سواحل البحر البيض المتوسط، ومن ثمار تلك المرحلة التقى النفوذ الآكدي مع النفوذ الفرعوني وحصلت السيطرة على المدن الفينيقية مثل " صور – صيدا – أقليم كبدوكيه – شرق الناضول – كريت – قبرص " حيث وجدت في مواقع عديدة من أراضيها آثار من بقايا حضارة بلاد ما بين النهرين وهي على وصول تلك الحضارة إليها وهي " قطع من العملة السومرية

الآكدية – الأختام الأسطوانية – والألواح المكتوبة بالخط المسماري "، نجد في عهد الملك " نرام – سين " قد توسعت الفتوحات نحو إيران وبلاد شمال سوريا،



كما عمل على زيادة النشاط التجاري مع الدول القريبة والبعيدة مثل بلاد عُمان وبلاد السند ودلمون وأغلب التوسع والعلاقات التجارية حصلت عن طريق الملاحة وكان الهدف منها زيادة حجم التبادل التجاري وأيضا جلب المواد الخام التي تحتاجها حالة العمران والصناعة، في مجال الفنون والثقافة التي أنتجتها الحقبة السومرية التي تجلت روعتها بتلك التحف التي تكونت منها المعابد حيث خصصت الكثير من التماثيل البارزة المعقدة التصميم وفق مستويات عديدة لعبادة الآلهة السومرية، وكما هي الحال في بناء " الزقورة " المعبد بني على أرض

مرتفعة كي يجلب أهتمام المتعبد إلى وجود نقطة قريبة من السماء، الزقورة والقصر الملكي هما أعلى البنايات في المدينة، وكما كشفت القبور السومرية عن عادات متأصلة في تمجيد الفن من خلال صياغة الذهب وفق أشكال جميلة أرتبطت بتلك المرحلة حيث عثر على نماذج منها مدفونة في قبور الملوك والأمراء إلى جانب أنواع من الأزياء البهيجة المطرزة بخيوط من الذهب وأيضا ذات الشيء حفلت به التيجان والأساور والحلي ومعدات الحرب المطلية بالذهب وكما اسلفت كانت الحاشية تضحي بأرواحها لكي تكون مع الملك أو الملكة أو الأمير في الإنتقال إلى العالم الآخر، أحيانا يضحوا بأنفسهم من خلال تجرع السم ليدفنوا في ذات القبور الملكية، وقد زيّن أعضاء العائلة المالكة بالجواهر الرائعة التي تدفن سوية مع الأجسام في قبور فارهة تم تجمبع ما يحتاجه المدفون فيها من أدوات وخدم، أن الملوك السومريين أحاطوا حياتهم بالترف وحملوا في حياتهم الألقاب المقدسة كما برعوا في إرتداء الخوذة المذهبة والتيجان والأسلحة ذات المقابض الذهبية وكذلك في أيديهم ألجمة الخيول وخلفهم العربات، كما كانوا أول من أستخدم التزيين بإحجار اللازورد – وهي من الأحجار الكريمة الثمينة الملونة والتي استخدمت بشكل واسع في صناعة الفسيفساء وخاصة في المباني المهمة والقباب والقصور مع الكلس وأحجار الديوريت كما استعملت قطع أحجار اللازورد في عدد من المصنوعات مثل " القيثارات – والسلاح " كما وجدت منحوتات على شكل رؤوس ثيران من الذهب زينت جدران بعض القصور، حصلت حضارة سومر على سمعة عظيمة في عصر الملك " سرجون الآكدي " الذي زرع التفوق وقاد شعبه في حروب متواصلة وهزم أعدائه في كل المعارك وجعل الإمبراطورية تمتد كما شجع العلوم وتطور الثقافة والفنون كما امتازت سياسته بالحكمة والذكاء والحسم، كان ملكا متميزا في سجل السلالة

السومرية الجديدة، ارتفع بذلك مجد مدينة لجش - Lagash- وساهمت في مرحلة جديدة في تطور الحضارة السومرية وكانت ذروة وصول الملك المميز - جوديا Gudea - - الذي صار له تأثير واضح في كافة أنحاء سومر ووصل إلى بلاد " عيلام "، كذلك ترد الإشارة إلى الملك " أورنمو - Arnmu- الذي تميزت فترة حكمه وأعتبر مؤسس للفترة الثالثة من تلك السلالة التي حكمت في 2100 قبل الميلاد، هذه السلالات المتتابعة سيطرت على مجمل أرجاء - ميزابوتاميا - بلاد ما بين النهرين، فتوحاتها جعلت خارطة سومر تتوسع وتبع ذلك تم نشر الثقافة وساهمت الإمبراطورية في تلك الحروب والتجارة ومدّ سيطرتها إلى تحديث المجتمعات المجاورة كما تمكنت المدن السومرية من تثبيت حدود الإمبراطورية السومرية، جاءت فكرة التوحد من خلال نشر مفاهيم السلام والمصالح المشتركة أثرت تلك الأفكار تأثيرا عظيما على التنظيم والإدارة وتنمية الموارد وتطور الثقافة والفنون وتصاعد القوة والسيطرة وتأكيد مفاهيم القانون والتشريع، وكما حصل في مرحلة حكم الملك " أورنمو " كما تطور أقتصاد البلاد وأنتشرت خطوط مواصلاتها التجارية وكذلك علاقاتها الكونية.. عمل السومريون على استثمار موارد البلاد التي كانت تخضع لسيطرتها كما ظهر في تلك المرحلة التفكير الجاد بتشكيل الإدارة المركزية التي تم المبادرة لها في عصر الإمبراطورية الآكدية عندما اكتسبت تلك الفتوحات والنفوذ سيطرة مركزية قوية، حيث القيادة العسكرية توصلت إلى البحث عن الملائمة العسكرية مع أفكار القانون والتشريع وتطلعات الشعوب المحكومة خاصة في مرحلة السلالات الثالثة في أور التي نظرت بعمق إلى الاستفادة من الأنتصارات في معالجة الحالة البيروقراطية السياسية، ذاك مثبت في عدد من الالواح السومرية التي عثر عليها العلماء في " مدافن سومر " والتي استعمل فيها تسجيل عدد من تلك المظاهر

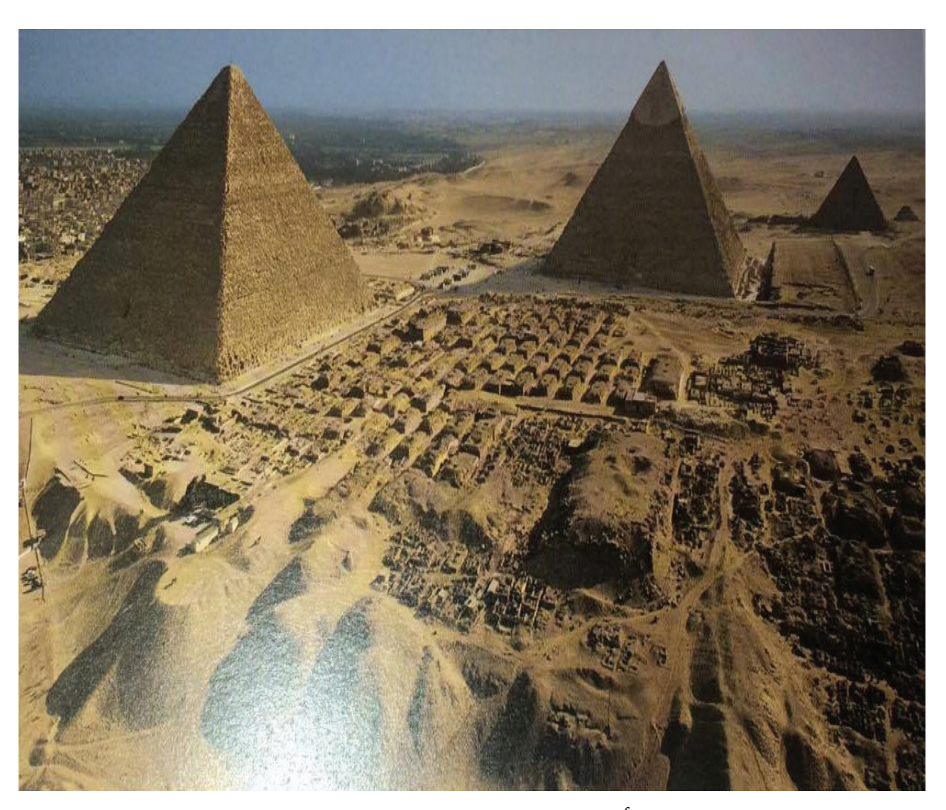
والخطوات وفق حسابات سياسية واضحة تتفق مع مفهوم سيادة الإمبراطورية السومرية خلال مراحلها الجديدة المتتابعة والنظرة التي توصل إليها العلماء تقول أن الإمبراطورية في تلك المراحل كانت قد دخلت في فضاء سلطة الإمبراطورية الإمبريالية الآكدية، ومن صور الفن والعمران في حضارة سومر حيث تبرز الزقورة..

الزقورة من أثار الفن والعبادة

ليس كبناء الأهرام في مصر التي شيدت بواسطة الحجارة الضخمة وجهود كبيرة، نجد ان الأمر مختلف جدا في بلاد ما بين النهرين عندما يدور الحديث عن بناء " الزقورة "، وهي من الشواهد التي اندثرت ومعها الكثير من التماثيل والمباني والمواقع الأخرى، وخاصة ما يتعلق ببرج بلبل الذي اشار الى وجوده كتاب التوراة بينما لا يوجد له أي اثر حاليا حيث تعرض للتدمير والاندثار، كما تحدثت مصادر كيرة عن الجنائن المعلقة التي شيدها - نبوخذ نصر - والتي اعتبرت من عجائب الكون السبعة، كانت الزقورة كمعلم مقدس للعبادة اندثرت عندما تعرضت مدينة سومر للخراب، وقد عثرت فرق التنقيب على عدة مواقع اقيمت على أرضها بناء للزقورة وجدت بقايا لذلك البناء المميز ومجمل البناء قد بني من الطابوق الطيني المفخور على أرض واسعة يتم للوصول الى سطح الزقورة من خلال سلم ينتهي بشرفة كبيرة، ثم حصلت تغييرات على شكل ذلك البناء لتصبح الزقورة متكونة من سبعة طوابق، وكما يصفها احد المهندسين المعماريين على النحو الآتي " الزقورة أقل من حجم الأهرام ولها شكلا يختلف وتتكون من عدة غرف ولها ممرات عديدة وهي أقل من النموذج اللاحق الذي بني في زمن بابل، كذلك وضعت لها أرصفة وفتحات لتصريف المياه الساقطة من الأمطار وكذلك فتحات لتجديد التهوية داخلها، واهتم

تصميمها بتفادي عواصف الرمال المتحركة، وتم اختيار الطابوق المقاوم للظروف المناخية، وكانت تلك من محاولة ظهور مفهوم يوائم التغييرات البيئية والمناخية، الملوك السومريون ومن جاء بعدهم من حكام آكد كانوا دائما يتخذون القرارات الحاسمة في إعادة الترميم أو البناء الجديد وكان الفن يتبارى في تشكيل الواجهات للزقورة أو في داخلها من هياكل أو تماثيل، وكل حاكم يثبت إشارة في مكان بارز أنه قام في التجديد أو البناء الحديث، الزقورة وغيرها من القصور والمعابد امتد إليها التدمير بسبب الهجمات الحربية للممالك المعادية وخاصة بين سومر وعيلام، كما ان حالة التدمير والخراب شملت أغلب تلك الآثار القديمة، كما تمت سرقة الكثير من أجزاء تلك الآثار، ومع ذلك نجد اختلاف بين قوة بناء الأهرام والزقورة حيث لم تتعرض الأهرام للتدمير بسبب استخدام الصخور القوية والكبيرة على العكس من تكوين الزقورة، وقد جاء في بعض الألواح السومرية المسمارية ان ارتفاعها يقدر بحوالي 300 قدما وهي تمثل الحالة المعمارية الأولى التي رافقت تطور تكوين دول المدن والتكوين الحضاري – ذلك التطور الذي شهده العام الألفية الثالثة، ولا شك ان بين الأهرام المصرية والزقورة السومرية توجد عدة اختلافات في التباين في حالة التفسير بما يتعلق بمضمون الفلسفة العقلية أو الرؤيا الإنسانية وكذلك المردود الاقتصادي، كما ارتبطت بمدلول الهيمنة والعبودية والسيطرة على مجاميع البشر من خلال العبادة، ونجد تطابق بين غايات بناء الأهرام والزقورة، لم تكن ألإفكار التي سادت لدى سكان بلاد ما بين النهرين تدعو لخلق وبناء القبور الكبيرة والواسعة ولكنها وافقت في بناء المعابد وإشاعة القدسية للآلهة، الزقورة السومرية حملت بوضوح إطلاق الرمز الكبير باعتبارها السلم الصاعد إلى السماء المقدسة حيث يوجد مقر الآلهة، تلك من تفاصيل ربط الإنسان في بلاد ما بين النهرين بمفاتيح العبادة وفي

مقدمتها العلاقة بين كاهن المعبد والناس والآلهة وقد شاع مفهوم نزول الالهة على سطح الزقورة لمعاينة مشاكل البشر والمساعدة على وضع حلول لها، لا توجد مقارنة قريبة بين الواقع الرمزي والديني للزقورة والأهرام الفرعونية ولكن يرى علماء الاركيولوجيا من خلال دراسة الألواح السومرية انها كانت تمتلك الصيغ والمضامين المدهشة والقوية والتي تقدم الفضاء المسيطر بالسمو الروحي الديني بشكل واضح ومؤثر وكيف تسيطر تلك المفاهيم على السمو الروحي للبشر هذا الذي ساد في فضاء المدينة السومرية القديمة اعطت الزقورة البعد الروحي وكذلك صولجان السيطرة والحكم للمناطق الممتدة بشكل شاسع وكان الذي يقف فوق سطح تلك الزقورة يرسل بريق بصره لمتابعة البشر والحياة في تلك المساحات الشاسعة المنتجة للغذاء والحياة، ولكن الرأي احيانا في المقارنة بين البنائين – الزقورة – الأهرام – انهما في تقدير الجميع يمثلان قيمة جوهرية ورمزا دينيا لشعب سومر والفراعنة في ذاك العالم القديم، ولكل منهما وظيفة تختلف عن الآخر، مثلا فلسفة الأهرام الفرعونية تقوم على ان العقل قد حدد ذلك الفناء للعبادة ومكان للأموات المختارين حيث يقوم كهنة الأهرام بإكمال تلك الطقوس المرتبطة بالجنازة وإنجاز مراسم ومناقب تخص الشخص المتوفي، وفق بنود ثبتتها الآلهة لشعب المدينة، بينا نجد الوضع في وظيفة الزقورة تمثل الآتي الجزء الاسفل من الزقورة كان مخصص للمعبد الرئيسي للمدينة، وهو أيضا مقر للاحتفالات والمهرجانات الرئيسية وخاصة الدينية منها بشكل خاص وكانت مباني الزقورة تتوسط المدن وهي تنشر الآمان ويسهل الوصول إليها من جميع أرجاء المدينة، بينما الحالة تختلف بالنسبة للاهرام التي بنيت على حافة الصحراء ويتم الوصول اليها من خلال مسيرات في مواسم محددة وتواريخ يروج لها الكهنة والحاكم.



وكلاهما اي الزقورة والأهرام يمثلان حالة خاصة المطلوب منها نشرالهدوء والإيمان وقتل هواجس الهوس والقلق وضياع الهدف، وكذلك التفكير وصنع الطريق للعمل لتحقيق حالة الخلود وعدم الفناء بعد الموت، وفي بناء الاهرامات والزقورة السومرية تكمن الفروق في استخدام مواد البناء وطريقة البناء والهدف أيضا، في بلاد النيل ظلت تلك الاهرامات شاهد على عبقرية ذاك الزمن القديم بينما في بلاد ما بين النهرين اندثرت تلك المعابد حيث لايتوفر شيئا منها للمشاهدة او الطواف او تحقيق الهدف السياحي، في تلك الأرض التي تعرضت لهجمات حربية وحالات التدمير والتعرية البيئية لا توجد شواهد مهمة فوق سطح الأرض الجنوبية ولكن ربما تحت التراب وتلك الاثار على ندرة اكتشافها

فهي تكشف عن روعة الافكار والتصميم والتنفيذ وكذلك الهدف من نشوئها كما هي الحال في آثار بابل ونينوى- Nineveh" تلك التي كانت موضع التقديس للشعب الاشوري بسبب وجود المعابد والآلهة وتم بناء مواقع دينية جديدة في ذات المواقع مثل كنيسة مسيحية كبيرة وأيضا مسجد للنبي يونس وأيضا العديد من المساجد القديمة بعضها بني قبل الف عام، انتقل تصميم الزقورة الدينية الى بلاد عيلام – Elam" التي تقع غرب إيران وهي من مناطق التماس مع الثقافة والتقاليد السومرية في زمن الدولة العباسية تم عمرانيا محاكاة تصميم الزقورة من خلال بناء المئذنة الإسلامية – الملوية – وهي تمتلك تصميما هندسيا مبتكرا يعتمد على شكل الزقورة مع التطوير في الفكرة حيث يصعد المؤذن الى أعلى نقطة من بناء تلك الملوية ليؤذن في الناس لإقامة الصلاة تمتلك المئذنة سلما حلزوني خارجي مبني من الحجر ينقص قطره كلما اقتربت المسافة من الوصول إلى القمة العليا، كما وجدت نماذج اخرى للزقورة في معابد اليابان وحضارة المايا والمكسيك ومناطق اخرى من شرق اسيا، كانت " سوسة " أو بلاد " عيلام – خوزستان الحالية " بمثابة سهل يمثل القلب الزراعي لبلاد عيلام جميعا، تلك المنطقة الجنوبية الشرقية لنهر دجلة لها مناخ قاسي وتفتقر إلى وجود مناخ معتدل حيث يكون الشتاء باردا جدا وي الصيف الجو حار حارق.



ومن جهة الغرب تكون ثمة حدود متصلة مع إمبراطورية سومر وهي حدود بلاد ما بين النهرين، يشوب ذاك الاتصال بعض الإنقطاع بسبب وجود المستنقعات وسلسلة جبال " زغروس " الحادة الإرتفاع وايضا وجود وديان وعرة، كانت تلك الصورة موجودة منذ 5000 سنة قبل الميلاد، صرة الحضارة في تلك الفترة كانت مزدهرة من خلال مجاميع القرى والمدن التي تطورت في المجال الزراعي وإنعكس ذلك على المستوى الأقتصادي الذي اعتمد على العاملين الزراعي والتجاري، حضارة منطقة – عيلام أو سوسة – كانت وثيقة الصلة بحضارة بلاد ما بين النهرين وتحاكيها وتقلدها في كل تفاصيل تطورها ثم في وقت لاحق صارت المنافسة تشتد بين الموقعين حتى صار الإصطدام السياسي والعسكري عظيما وتكرر في حروب قاسية وظهر فيها قيادات وملوك لهم أهمية

كبيرة وتعتبر مدينة سوسة من المدن المهمة وهي عاصمة مدينة عيلام وكانت تشكل قوة أخذت تتطور بعد العام 3300 قبل الميلاد في وجود حضاري أقتصادي ديني وعسكري، كانت خطوات التطور الحضاري في سومر بكل فروعها تجد لها الصدى الكامل والتقليد الدقيق في بلاد عيلام، وسوسة تعتبر من المدن المهمة فيها بنيت المعابد المختلفة، ولها جيش وإدارة للتجارة والعلوم والفنون، من أحد معابدها المهمة الذي بني من الطابوق ويرتفع إلى 10 أمتار وله شرفة هائلة، وهذا الطراز مشابه لتلك المعابد التي ظهرت في مدن سومر كما تم تزيين الواجهة بما يماثل النماذج الموجودة في بلاد ما بين النهرين، في تلك الفترة كانت حدود تاثيرات سومر يمتد إلى حدود أفغانستان وبلدان أخرى، كل المدن الكبيرة والعظيمة تأثرت تباعا بمفردات حضارة سومر وهي التي فتحت الكثير من تلك المدن وشقت طرق التجارة معها وارسلت إليها البضائع واستوردت منها المواد الأولية التي كانت تدخل في تكوين الصناعات والعمران والتي لم تكن تتوفر في سومر وبقية المدن القريبة منها..

حكام لهم موقع مؤثر في سجل الحضارة

ظهر العديد من الملوك والحام والقادو في مرحلة عصر فجر السلالات مثلا ظهر في سلالة كيش الأولى اكثر من 23 حاكما بعد مرحلة الطوفان منهم " كلبم – قاومم – زقاقب – ايتانا – اينميراكيسي – وآخر ملك في تلك المرحلة كان الملك اكا " بينما نجد في مرحلة السلالة التي ظهرت في كيش الثانية ظهر 8 ملوك منهم " دادسك – ماماكال – "، وفي سجل سلالة كيش الثالثة ظهرت ملكة واحدة هي " كوبابا- او كوباو " وفي سلالة كيش الرابعة ظهر سبعة ملوك هم " بوزر – اور – سيمودار – اوسى – واتر – يشمع – شمش " وفي مرحلة سلالة الوركاء الأولى ظهر 12 ملكا منهم " مسكيكاشر – اينمر كار – لوكال بندا –

دموزي – جلجامش – أور- ننكال – اودل – كلاما – ميلام – أنا – لوكال كيدو " وفي سلالة الوركاء الثانية ظهر 3 ملوك هم " اين شاكش – انا، لوكال – كنيشيدود، لوكال – كيسالسي " وفي سلالة الوركاء الثالثة ظهر الملك " لوكال زاكيري " بينما ظهر خمسة ملوك في مرحلة الوركاء الرابعة، وتضمن سجل الوركاء الخامسة " أوتو حيكال "، مات سرجون اكدي بعد ان حكم ما يربو على نصف قرن وخلفه في حكم الإمبراطورية الآكدية ولداه " رموش ومانشتوسو " ومرت أيام حكمهما في حروب وحملات عسكرية لاخماد الثورات والفتن التي عمت كل أرجاء الإمبراطورية..

الملك رموش ابن سرجون الأكبر

حكم الملك روموش الابن الاكبر للملك سرجون الآكدي فترة تسع سنوات قضى اغلبه في حروب متواصلة لقمع الاضطرابات ضد حكم ابيه واخماد الثورات في مناطق عديدة منها مناطق ضمن حدود سومر وسوسة وبقية بلاد عيلام حيث استثمرت تلك المدن والممالك موت الملك سرجون الآكدي لتعلن تمردها وانفصالها عن حكم الغمبراطورية الآكدية وقادت بداية التمرد مدينة " أور " ولذلك تم تدميرها من قبل القوات الآكدية المهاجمة، وكانت ابنة الملك سرجون الآكدي – انخيدوانا _ كاهنة عليا في معبد الإله القمر " ننا " الموجود معبده في أور، ثم أنطلق ليخضع بقية المدن المتمردة بعد نجاح حملته على " أور " أنطلق في الجزء الآخر من حملته نحو الخارج من حدود مملكته ابتدأ بالأقاليم الشرقية حيث قاد حملته عبر الخليج وتمكن من إخضاع الكثير من الممالك والمدن التي اعلنت انفصالها عن الإمبراطورية الكلدانية وقد دونت تفاصيل تلك الحملات من خلال الألواح السومرية التي عثر عليها في مدينة " نفر " والتي سجل فيها أنه اعظم ملوك كيش في نجاح حملته في بلاد عيلام وعمل على تدمير تلك

المدن التي اظهرت معاداتها ونجح في توطيد امبراطورية والـده سرجـون وقـا متفـاخرا أنـه حقق وحسب تمنيات الإله " انليل " فتح البحر الأسفل - الخليج حاليا ،كذلك البحر الأعلى - البحر المتوسـط كـما سـيطر عـلى كـل الجبـال ومـن المـدن في عـيلام التـي سـيطر عليهـا Shirikum،Anshan " وكلاهما يقع في شرق غرب إيران ثم عبر البحـر الاسـفل في مراكبـه وأخضع لسيطرته ملوك تلك الممالك الموجـودة عـلى الجانـب الآخـر مـن البحـر، اجتمعـت ضده جيوش عديدة لكنه تمكن من هزيمتها واخضع جميع المدن وحصـل عـلى مجـوهرات الملوك وتيجانهم وحمل الصخور المناسبة لبناء تمثال قدمه هدية للإله Enlil" وقـد عـثر في تل براك على أجزاء من أواني مصنوعة من الرخام عليهـا نقـوش تمثـل كتابـات تعـود إليـه، انتهت سنوات حكمه من خلال مؤامرة قادها أخيه " انشتوسو بالتعاون مـع رجـال الـقصر وتم قتله وبذلك أنتهت فترة حكمه وجاء مـن بعـده الملـك مانشتوسـو ليتربـع عـلى عـرش الإمبراطورية الآكدية واستمر حكمه لمدة 15 سـنة في بدايـة حكمـه نعمـت جميـع أجـزاء الإمبراطورية بالسلم واستتباب الأمور، عثرت بعثات التنقيب في مدينـة سوسـه عـلى تمثـال من الحجر لهـذا الملـك الآكـدي وعليهـا كتابـات دونهـا اكـم المدينـة وهـو يتوجـه باتمثـال الى الآلهة ويطلب منها حماية حياة سيده الملك، لم تستمر فترة السلم كثـيرا فقـد تزايـدت الثـورات والإضـطرابات في الكثـير مـن مـدن الإمبراطوريـة وقـد تضـمن أحـد النصـوص المسمارية وصف مهمات هذا الملك الآكدي الذي أنطلق بقيادة حملة عسـكرية كبـيرة في جبهتين هما الجبهة الشرقية والمكملـة لهـا الجبهـة الجنوبيـة الشرقيـة وكلاهـما في منطقـة الخليج وتمكن من إخضاع جميـع المـدن والأقـاليم الواقعـة هنـاك وكتـب في أحـد الألـواح السومرية ان الملك "مانشتوسو" ملك كيش العظـيم - ملـك كـل مـدن العـالم- قـاد حملـة عسكرية كبيرة لإخضاع الممالك والمدن في الساحل الآخر من البحر حيث اخضـع أول الأمـر

مدينة " أنشان " ومن ثم مدينة وكلاهما في بلاد عيلام، هو الملك المقاتل الذي عبرّ البحر الأسفل – الخليج – في سفن كبيرة مدهشة وحارب 33ملكا من ملوك تلك المدن الموجودة هناك شرق وغرب إيران هزم كل الجيوش التي اجتمعت ضده وتمكن من هزيمة الخصوم اخضع المدن واسقط الحكومات المناوئة له وحصل على مجوهراتهم وصل الى مناجم الفضةوكذلك الجبال الواقعة خلف البحر الأسفل وجلب منها الأحجار الجيدة والمطلوبة لصناعة تمثاله الذي قدمه فيما بعد الى الإله أنليل – Enlil" الجبال التي وردت الإشارة إليها في الكتابات السومرية هي موقع " عُمان " التي تعتبر أرضها غنية بوجود النحاس والحجارة القوية التي تصلح للبناء وصناعة التماثيل، مع ان هدف تلك الحملة التي قادها لم يذكر في سجلات سومر بشكل واضح، ولكن إذا وضعنا أمام أنظارنا حالة بلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت نفهم تلك الأسباب التي قادت إلى حصول الحملات الكبيرة، ونتذكر ان تلك المناطق الشمالية قد تم اخضاعها بقوات الملك " سرجون الآكدي " بعد حصول الإضطرابات ضد حكمه والتي امتدت من إيران إلى سومر وتعاظمت وهددت بوضع نهاية لحكمه وبعد موت سرجون تمكن أبنه روموش من قمعها بقوة ودون رحمة لكن سلطته كانت في موضع التحدي حتى داخل قصره، بعد تسع سنوات من فترة حكمه بين سنوات 2278- 2270 من فترة حكمه وخلال هذا التاريخ قاد حملة ناجحة في بلاد عيلام وقد تم تدوين نهايته حيث قتل في تفاصيل مؤامرة داخلية وجاء من بعده ليكون ملكا على عرش الإمبراطورية الآكدية أبنه " نرام – سين "..

في ذلك الوقت كان سكان الجزيرة وشمال سوريا قد تحرروا من سيطرة الإمبراطورية الآشورية وعادوا تحت حكم مملكة " ايبلا " تلك الأقوام ستلعب دورا مهما لاحقا في تاريخ العراق القديم حيث تقدم الحورانيون واحتلوا أجزاء

كبيرة ومهمة من مدن سومرية مثل أور وكيش ونيسابا ومناطق أخرى من كردستان الحالية أي أقصى جنوب نهر الزاب قرب سهل " شيرزور " في السليمانية بجوار مدينة همدان الإيرانية في أواسط منطقة جبال " زاغروس " حيث توجد قبائل الكوثين المتوحشة في أقصى المناطق البعيدة في الجنوب تلك القبائل التي توصف بأنها كانت تثير المشاكل في منطقة عيلام - كانت تلك الأقوام تفكر بعمل أي شيء ما عدا صداقة الآكديين ولهذا تكرر قيامهم بقطع الطريق على مرور البضائع القادمة من الأناضول وأرمينيا وأذربيجان والتي كانت تتوجه الى بلاد ما بين النهرين، وكانت حاجات دولة آكد تتلخص بالحصول على المواد التقليدية من نحاس وفضة وبرونز وقطع من الأحجار التي تدخل في صنع التماثيل الأمر الذي دفع مملكة آكد بالبحث عن طرق تجارية بديلة للحصول على تلك المواد، كان لديهم طريقان بديلان هما " عُمان وشرق بلاد فارس - أو اتخاذ قرار محاربة تلك الأقوام المسيطرة في الشمال وقد تم إتخاذ القرار المناسب في فترة حكم الملك " نرام - سين "

الملك " نرام - سين " أو محبوب آلهة القمر

هو ابن الملك " مانشتوسو " القائد الذي حالفه النصر في جميع حروبه ونجح فيها واعتبر من أهم ملوك آكد، قال مفاخرا أنه ملك جهات العالم الأربعة وأشتهر بأنه محبوب الآله سين، حكم أكثر من ثلاثة عقود وكان من أقوى ملوك الإمبراطورية الآكدية وأشهرهم من بعد سجل جده " سرجون "، تميز عهده كما دّون في الألواح التي تم العثور عليها في مكتبة آشور بانيبال ،ايضا تلك التي دوّنت على واجهة المسلات التي وجدت في مدينة سوسه العيلامية، أصدر تعليماته على أنه يمتاز بعلامة تدل على الآلوهية ذاك الاعتقاد أصبح تقليدا لدى

الملوك الذين جاءوا من بعده، صار يلقب نفسه بإله آكد ووصف بأنه كان يعيش جنون العظمة وقارن نفسه بالملك " جلجامش " حيث لبس لباس الرأس ذي القرنين وذاك اللباس يخص الآلهة، اعتبرت تلك الممارسة نوعا غريبا في تاريخ بلاد ما بين النهرين لم يسبقه ملك إليه، نرام – سين أفترض بإن مفهوم القدسية استمده من الملوك الذين مثلوا في تاريخ سومر دور الإله الذكر في طقوس الجنس المقدس – مثل – ديموزي - وتعتقد بعض المصادر بإن تظاهره بإنه إله كان هو الطريق الوحيد كي يتمكن من بناء إمبراطورية آكد في بلاد ما بين النهرين، صار مثل جده الملك سرجون بمثابة اسطورة بسبب الحروب التي خاضها وأنتصر فيها، كل تلك المعارك خاضها في محيط الإمبراطورية ثم إتجه نحو الغرب حيث مملكة إيبلا وحطم قصر الملكة – ماري – وكذلك قهر حكام جبال " آمانوس " الواقعة في منطقة آسيا الصغرى وأيضا جهات شمال العراق وأعالي منطقة الجزيرة حيث الخابور ونهر البليخ وبنى عددا من الحصون في المواضع المهمة وقاد حملة ضد الحوريين وجدت له إشارات على قطعة من الصخور على شكل مسلة مثبتة قرب قرية تسمى " بير حسين " بالقرب من مدينة " ديار بكر " كما بنى مدينة ملكية لها حصن منيع في " تل براك " سيطرت تلك الحصون والمواقع العسكرية على كل الطرق وصولا إلى منطقة جبال عُمان التي تعرف آنذاك باسم " ماجان " كما وطد أركان سيطرته في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية وأخضع جميع القبائل الهمجية المتمردة والتي تتواجد على حدود بلاد ما بين النهرين كما ترك شواهد من حملاته تلك في منحوتات جبلية في منطقة " قره داغ " وهناك منحوتات تمثل إنتصاراته في منطقة " سوسه " وقد نحت وجه أحد الجبال بمشهد يمثل إخضاع تلك الأقوام في معركة كبيرة ويبدو الملك – نرام – سين – مسلح بالقوس والسيف

وهو يرتدي الخوذة الحربية ذات القرنين وهي إشارة إلى الألوهيـة ويـدوس بقدميـه على قتلاهم بينما بقية القوات المهاجمة رسمها على مقاس أصغر، تلك المشاهد تكرر نحتها في مسلة " نرام – سين " الشهيرة المسماة " مسـلة الـنصر " التـي عـثر عليهـا في مدينة – سوسه – وهي من مدن بلاد عيلام – تلـك كانـت مـن جملـة الغنـائم التـي نقلها العيلاميون إلى بلادهم بعد غزوتهم التي دمـروا فيهـا سـلطة الكيشـيين في بـلاد بابل التي حصلت خلال الرن الثاني عشر قبل الميلاد، توطـدت سـلطة نـرام – سـين في بلاد عيم وفرض على أحد ملوكها معاهدة للصداقة وجدت في مدينة – سوسه – عدة آثار تدل على تبعية بلاد عيلام الى ممكـة نـرام – سـين، وفيهـا معلومـات عـن اسـماء الحكام الذين عينهم هناك، سجل إنتصـارات في أرجـاء الجهـات الأربـع وكانـت فـترة حكمه توصف بفترة حكم الملك العظيم في السلالة الآكدية، أنتهى حكمه مـن خـلال تصاعد موجة إضطرابات وتكاثر عليه وبعد موته تكاثرت الأخطار عـلى الإمبراطوريـة الآكدية وجاءت أخطرهـا مـن مجموعـات الكـوتين وبـدو سـوريا العمـوريين وتـروي اسطورة مكتوبة باللغة الحثية منها نسخة بابلية تتحدث عن غزو كثيف من جمـوع كبيرة اغلبها من المحاربين البرابرة تصفهم سطور الاسطورة على انهم اصحاب أجسـام وهيئات غريبة اغلبهم على هيئة الطيور الجوارح كا النسور وقد هبطوا من المنـاطق الجبلية الشمالية وتمكنـوا بسـهولة مـن اكتسـاح جميـع المـدن والممالـك والأقـوام في طريقهم مثل – السوباريين- والكوتين – والعيلاميين ثم انحدروا إلى بلاد سـومر وآكـد ثم استمروا نحو مناطق الخلـيج مثـل " ديلمـون – البحـرين وعُـمان وكـذلك وصـلوا الى اقليم " ملوخا، لم تتمكن جيوش – نـرام – سـين مـن إيقـاف زحفهـم وعـلى أثـر ذلك حدثت كارثة كبيرة في بلاد آكد وعموم بـلاد مـا بـين النهـرين وبجانـب احـتلال

مناطق واسعة منها أيضا حصلت فيها كوارث كثيرة مثل الجفاف والمجاعة الكبيرة وإنتشار مرض الطاعون وكذلك عدة فيضانات، في تفاصيل تلك الفوضى استلم زمام الحكم خلفا للملك " نرام – سين " أبنه الملك " شار – كالي – شري " الذي أتخذ لنفسه لقب " ملك الملوك، واجهت حكمه الكثير من الأحداث الصعبة من أهمها تفكك الإمبراطورية وإنفصال بلاد عيلام عنها ومهاجمتها لبلاد بابل، تمكن الملك الجديد طرد القوات العيلامية ولكنه وجد في مواجهته خطرا آخر أكبر يتمثل بتزايد الهجمات القادمة من الجهات الغربية وهي لجموع من الهمج الآموريين ولكنه بعد عامين من المواجهات معهم تمكن من التغلب عليهم في مرتفعات " بسار " ثم جهز حملة كبرى لمحاربة جيوش الكوتين وتمكن من هزيمتهم وأسر ملكهم – شارلكاب – ولكنهم شكلوا جيشا كبيرا وهجموا على حكم الآكديين وغرقت بلادهم في فضى كبيرة وترد في لوح ساخر يحكي قصة تلك النهاية حيث يقول الكاتب:

- من كان الملك،

ومن كان غير الملك،

هل كان الملك ايجيجي،

او كان الملك نانوم،

او كان لامي هو الملك،

او كان الملك هو اي لولو،

كل منهم كان ملكا،

حكم ثلاث سنوات،

في مرحلة حكمهم بلغ هجوم الأقوام الكوتين اوجه فأستطاعوا غزو جميع السهل الرسوبي ولكن مع ظهور ملكين في السلالة الاكدية هما " دورل ودودو"..

عهد الملك شار – كالي – شري

أتسم صعود الإمبراطورية الآكدية بإنها شكل يتكرر من حضارة بلاد ما بين النهرين الذي يوصف عادة بالتوسع السريع مصحوبا بحالة التمرد المتواصل إلى جانب حصول ثورات داخل قصور الحكم وحروب ثابتة على حافات الحدود تمثل حالة استنزاف دائمة كما حصل في حالة الحروب مع الكوتين التي شكلت الضربة القاضية لوجود حكم الملك الأخير " شار – كالي – شري " والذي تزامن مع هجوم الفرس والعموريين فيما بعد، ملخص ما سجله علماء الحضارات القديمة بشأن حضارة بلاد ما بين النهرين يفيد بالآتي: " أي حضارة تنشأ مستندة على الزراعة والعمل المعدني – اي الصناعة – في بلاد مثل العراق – لكي تكون فاعلة تتطلب شرطان في مقدمتهما التعاون المثالي بين الوحدات العرقية والسياسية الاجتماعية المختلفة والموجودة ضمن حدود البلاد وأن تكون صديقة لبعضها البعض ومتعاونة على الأقل، وكذلك اتخاذ البلاد الموقف المحايد من الجيران، لسوء الحظ ان الجيران دائما كانوا سببا مباشرا في تدمير الإمبراطوريات وحضارتها التي نشأت في بلاد ما بين النهرين، كما ان التكوين للقوميات الضيقة في بلاد ما بين النهرين شكلا وخاصة لدى السومريين أرثا تأسست على فلسفته وجود الإمبراطورية المرتبطة إلى الإلهة المحلية، وهذا لم يوفر الفرصة للتكيف لطاعة حاكم أجنبي، من الناحية الأخرى الكنوز التي جمعت في المدن الناجحة كانت من السهل ان تجذب الرعاة الفقراء الذين كانت تفضلهم عن سهل بلاد ما بين النهرين الجبال والتلال والصحارى ولهذا كانوا يهجمون بهدف السلب والاستيلاء وفق عقلية همجية، تلك الأسباب لم تكن تجعل سكان

بلاد ما بين النهرين أن يظلوا في الأمان وحالة الاحترام، كانت فكرتهم لابد من فتح الممالك والمدن القريبة والبعيدة لفتح شرايين حيوية لتجارتهم وكما دونت ان حروب متواصلة كانت تحيط فترة ظهور ملوك سومر وآكد ثم كذلك الوضع وجدناه يحيط بمملكتي آشور وبابل، تلك الحروب استهلكت القوة والمال ودمرت كل الأمكانيات الزراعية والصناعية وأوقفت تطور الفكر والفنون عامة وعجلت بسقوط الإمبراطوريات مهما كانت قوية، وكما تحدثت تفاصيل التاريخ يؤشر موت الملك " شار – كالي – شري " بمثابة نهاية للغمبراطورية الآكدية رغم قصر عمرها الزمني إلا أنها من خلال ملوكها قد مارست تأثيرا عميقا وبشكل دائم على وجود بلاد ما بين النهرين وما جاورها، كما أن أفق حضارات سومر صار أكبر في ظل وجود الإمبراطورية الآكدية واللغة والكتابة المسمارية وجدتا جمهورا أوسع وامتزجت الحضارة والثقافة والفنون السومرية مع التطور اللاحق الذي اوجدته فترة حكم آكد، الكتابة السومرية مثلا لم تستمر من خلال أقوام شمال العراق " الآكديين " بل أيضا في ظل العيلاميون والحورانيين وغيرهم بالمقابل فأن بلاد ما بين النهرين صارت غنية بحصولها على البرونز والفضة والأخشاب والحجارة المهمة في البناء والعمران وهي حصلت على كميات كبيرة منها وكذلك جلبها أعدادا كبيرة من الآسرى يعملون في أغلب المشاريع جلبتهم من أرض عيلام وديلمون وعمان ومناطق أخرى في الخليج من تلك المدن والممالك التي وقعت تحت سيطرتها، وكذلك نقلوا بعض مفردات حضارتهم مثل الاختام وتحفيات على شكل مزهريات الى الهند ومناطق في سواحل البحر الأبيض المتوسط، في الفنون ظهرت ميول نحو تطوير الواقعية واستبدلت الرسوم بصور حقيقية بدلا من تلك التي سادت في عصور السلالات المبكرة، سياسيا تطورت الدول الصغيرة إلى ممالك مركزية كبيرة، بينما في الحقول الاجتماعية والاقتصادية

اهتمت الإمبراطورية الآكدية بتأكيد مباديء الملكية الخاصة وتطورها ووضعت دستورا مفصلا لحكم العائلة الحاكمة، كما اعطت القوة للمعابد وتحديد سيطرتها، أيضا ظهر ملوك اعتبروا بمثابة حالة نادرة في الحكم والحرب كما هي الحال في فترة سرجون الآكدي وحفيده - نرام - سين...

تعتبر تلك المعلومات هي حقائق تم الوصول إليها من وثائق سجل إثبات الملوك وتفصيل ظاهرة الاختلاط العنصري أو القومي التي سادت في مراحل متتابعة بين سكان بلاد ما بين النهرين في تفاصيل الزمن القديم من تلك العصور السحيقة التي عبرت وتركت لنا الكم الكبير من الوثائق ومع الاكتشافات الإركيولوجية الأخيرة تغيرت الكثير من المعلومات وزالت الكثير من الافتراضات التي ثبتها رجال البحث وأساتذة الدراسات السومرية عن وجود صراع أو خلافات كانت سائدة بين التكوين السامي والسومري بالاعتماد على حقيقة أن مدينة " كيش " هي أول مركز تواجدت فيه السلالة الملوكية التي حكمت بعد الطوفان، وأن عددا من الملوك الذين حكموا فيها أتخذوا لقب " ملك كيش " ذاك يقدم لهم فكرة إتساع السيطرة وإظهار القوة والقرار وإمتلاك الدعم الديني المطلوب، هذا الإتجاه في حمل اللقب تطور وصولا إلى الفترة الآشورية بظهور اللقب الجديد " ملك العالم "، هناك اسطورة أرتبطت بسجل أحد ملوكهم المسمى " ايتانا " الذيصعد إلى السماء وفق تلك الاسطورة المثبتة على ألواح سومر، صد على ظهر النسر لجلب نبات خاص من السماء يجعل امرأته العاقر تحمل وقد تم استخدام مضمون هذه الاسطورة في الكثير من الاختام الاسطوانية، الاغريق قلدواتلك الاسطورة وظهرت لها محاكاة في الفن الاغريقي - تلك التي تخص الإله اليوناني " زيوس " الذي أخذ الشاب " كانيميد " على ظهر النسر إلى السماء ليعمل ساقيا له، يوجد لوح يتضمن تفاصيل صعود " ايتانا " إلى السماء موجود

ضمن مقتنيات متحف " بوشكين " في روسيا، تتناقض مع اسطورة سومرية أخرى تتحدث عن إنانا – ملكة السماء والأرض وهبوطها إلى العالم الأسفل – وضمن سجل إثبات الملوك وكما ورد سابقا نجد ان ملكين من لجش تم ذكرهما أولهما " إينميبردكيسي – وأبنه " الذي حكم من بعده " آكا – Agga" وكما ذكرت الألواح ان الملك الأول قاد الحرب ضد بلاد " عيلام – إيران الحالية " وأخضعها لسلطته حيث وجد لوح في حفريات منطقة " خفاجي – منطقة ديالى " يذكر تلك التفاصيل ومنها ان ملك " كيش " بدأ العمل لتشييد معبد الآله " ننليل " وأكمل ابنه ذلك العمل من بعده وقد عاصرا ملوك سلالة الوركاء مثل جلجامش وأبنه " أور ننكال " كما جدد بناء المعبد – الملك " ميسانيبدا " وهناك قصة ملحمة تدور حول الحرب التي حصلت بين " جلجامش والملك آكا – آخر ملوك كيش " وأنتهت بالمصالحة وتحقيق السلام، هناك ملك حملت الألواح السومرية الكثير والمهم من الأخبار عنه هو " ميسلم " ويُعد من الملوك الذين حكموا عموم بلاد ما بين النهرين وأطلقوا على فترة حكمه بعصر الملك " ميسلم الذهبي " وحكم من بعده الملك " آكا " وتتم المقارنة بينه وبين الملك " ميسانيبدا " الذي كان ملكا على مدينتي " أور – كيش " وهو من حكام سلالة " لجش " الذين حكموا في مرحلة فجر السلالات الثالث وردت إشارات واضحة حول الملك " ميسلم " في النصوص التي تعود لحاكم لجش " انتمينا "، من بينها ذاك النص الشهير الذي يوثق النزاعات والحروب التي دارت بين مدينتي " لجش – أوما " وكان ميسلم هو الحاكم في فترة ذاك النزاع وهو الذي قام بتخطيط الحدود بين الدولتين المتحاربتين وكان إلهه المعبود في مدينة " دور – أيلو " ويقع قرب مدينة " بدرة " وأمتد سلطانه إلى مدينة " آدابا " وكان اسمه من الأسماء السامية..

الحرب بين دولتي لجش - أوما

من بين دول المدن التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين " سومر " عصر فجر السلالات التي كان مركز حكمها في مدينة " أوما " المجاورة لدولة " لجش " وحكم في هذه الدويلة عدة حكام، وقد دّون عن تفاصيل الصراع الذي نشب بين الدولتين حول ملكية الأرضي الزراعية وحصص توزيع المياه وامتلاك القنوات الأروائية وبدأت العلاقة وحسب التدوين في زمن ملك " لجش - اياناتم " مع ان المشكلة بين الدولتين كانت قبل ظهور هذا الملك بوقت طويل، وكما سجل ذلك حاكم لجش - اينتمينا - اتسم الصراع بين الدولتين بالضراوة واستمر لعدة سنوات إلى أن أنتهى بغلبة دولة " أوما " وتحطيم لجش على يد آخر ملوك السلالات المسمى " لوكال زاكيري " الذي كان يحكم تلك المدينة وحاكم لجش المسمى " أنتمينا " ثم حصل تخطيط الحدود بين الدولتين المتنازعتين وتمكن الملك " أياناتم " القوي دحر جيش مملكة " أوما " وكتب إنتصاره في مسلة نحتها لتذكير شعبه بوقائع تلك الحرب وسماها " مسلة النسور " أو مسلة العقبان " حيث صورت تلك المسلة أشكال النسور أو العقبان وهي تنهش جثث أعداء بلاده في ساحة المعركة كما مثل هيئته في أحدى وجهي المسلة بالنحت البارز وهو يقف في عدته الحربية مرة واقفا ومرة أخرى وهو في عربته الحربية يقود جيشه وقد تسلح الجنود بالرماح الطويلة والدروع أما الوجه الثاني من المسلة فقد نحتت فيه صورة الإله " ننجرسو " حامي دولة لجش وقد نشر شبكته العظيمة فإصطاد في داخلها جيش المدينة المعادية أوما ولم يكتف بإصطياد المحاربين بل نجده يهشم رؤوسهم الخارجة من الشبكة بدبوسه الحجري وتحت هذا المشهد يوجد بقايا منحوتات غير واضحة من بينها صورة عربة حربية تخلد أنتصار " أياناتم " على جيش " كيش "،

تلك الحرب أنتهت بين الدولتين بمعاهـدة صلح رضخت بموجبها مدينـة " أوما " لشروط المدينة المنتصرة " لجش "..

فترة حكم الملك أنتمينا *Entemana*

هو صاحب النص الشهير الذي دون فيـه تفاصيل النـزاع بـين دولتـي " لجـش – أوما " ويروي حادثة إتفاق إله لجـش – ننجرسـو – وإلـه مملكـة أومـا – شـارا – عـلى تسوية النزاع بين المملكتين وتثبيت الحدود المشتركة وبعد فترة سلام استجد النزاع وكان البادىء في نقض تسـوية التحكـيم حـاكم " أومـا " المسـمى " أوش – ush" وقـام بغـزو واسع لدولة " لجش " عندئذ أمر سيد البلاد الألـه " ننجرسـو " القائـد أيانـاتم ان يشـن الحرب عتى حـاكم " أومـا " وقضى عليـه أثنـاء المواجهـة وفـرض عـلى " أومـا " شروطـا جديدة قبل بها الحـاكم " ايناكـالي – Enakalli" وتضـمنت معاهـدة الصـلح أن يقـوم حاكم " أوما " بحفر نهر جديد ينقل الماء من نهر الفرات والعودة إلى الحـدود السـابقة التي كانت قائمة قبل نشوب الحـرب وإعـادة جميـع التماثيـل المنهوبـة وكـذلك مسـلة الملك " ميسلم " وفرض غرامة حربية كبيرة على شعب " أومـا " تـتلخص بـدفع كميـات كبيرة من الحبوب سنويا، أيضا لم تـدم فـترة السـلام طـويلا للمـرة الثانيـة حيـث نقـض المعاهـدة حـاكم " أومـا الجديـد – أور – لمـا " وقـام بإزالـة الأنصـاب الموجـودة عـلى الحدودكما عمل على هدم المزارات الدينية ثم عبرّ النهر وغـزا مدينـة " لجـش " ولكـن حاكم " أوما " هزم في الحرب وتم إبرام معاهدة جديدة أعـادت إلى لـش حقوقهـا وتـم تثبيت الحدود بين الدولتين المتنـازعتين، كـان الملـك – أنتمينـا – يعـاصر حـاكم الوركـاء المسمى – لوكال كينشيدودو – حيث ابرمت بين الحاكمين معاهـدة سـلم وصـداقة وفي عهده تم حفر نهرا كبيرا من دجلة إلى الفرات ليضمن توفر المياه لمملكة لجش، ويسـود

اعتقاد ان النهر المذكور هو نهر – الغراف – الموجود حاليا، كما وجد في مدينة أور تمثال منحوت من حجر الديورايت للملك – انتمينا – وهو يعد آخر الحكام الأقوياء من سلالة حكام لجش – وأور كاجينا – هو آخر حكام دولة لجش ويعتبر صاحب الإصلاحات المشهورة وله مسلة تتضمن وصايا وبنود القانون، ويعتبر من سبقه في الحكم قد دأبوا على أبتزاز الثروات وإضطهاد الجماهير وسيطروا على ممتلكات المعابد لصالحهم ومن أجل إزالة تلك النقائص وجه الملك " أور كاجينا " إصلاحاته الأجتماعية المشهورة وقد حكم لمدة 8 سنوات ودعا للعودة إلى القوانين القديمة بأمر من الإله " ننجرسو- إله دولة لجش " وحصلت إصلاحاته على تأييد واسع من طبقات المجتمع وجماهير الناس الذين تسلط عليهم إضطهاد الكهنة وجباة الضرائب وعمل على تقليل قيمة الضرائب وعدل قوانين الأحوال الشخصية وفي مقدمتها أمور الزواج والطلاق ورسوم دفن الموتى كما عاهد الإله ننجرسو بأنه لن يسلم الضعيف أو الأرملة إلى القوي وكان جريئا ومحايدا في إصلاحاته، حيث حدد سلطات الطبقة الحاكمة وعمل على معالجة الجرائم وتنظيم العقوبات الخاصة ورفض تأييد قانون زواج المرأة برجلين في آن واحد وتعتبر تشريعاته هي أقدم التشريعات التي وضعت في تاريخ البشرية وفيها معالجة البؤس الذي لحق بطبقة العمال والصُناع وأبطل أعمال السخرة التي كانت تفرض على الفقراء والضعفاء والعميان من قبل وكلاء الحكام وأصدر قانون للعفو عن المسحوقين والموقوفين بسبب وجود ديون بذمتهمأو استحقاق الضرائب عليهم للسلطة الحاكمة وأبطل الضريبة التي فرضها الحكام على الرجل إذا طلق زوجته، وفرض الرجم على السارق، أنتهت فترة حكمه على يد حاكم المدينة المعادية – لوكال زاكيزي -...

لوكال زاكيزي



بعد زوال حكم المصلح " أوركاجينا " من خلال تصاعد العنف والإضـطرابات داخـل دولته وإيضا الإنفلات شجع الملك – لوكال زاكيزي – حاكم دولة المدينـة المجـاورة " أومـا " عدوة دولة " لجش " التقليدية على تحقيق ذلك الهجوم والسيطرة على المدينة، عُرف عـن حاكم مدينة " أوما " مقدرته العسكرية وتتضح في مقدرته للقضاء على الملك " اوركاجينـا " وقواته بهجوم خاطف سريع وبذلك أنهى النزاع الطويل بين الدولتين، ذاك النـزاع اسـتغرق أكثر من قرن والهجوم كـان مـدمرا حـول المدينـة إلى خرائـب تنـدلع فيهـا النـيران والمـراثي والنواح، وتسبب ذلك في قتل الكثير من سكانها، مـن العوامـل التـي سـهلت عـلى " لوكـال

زاكيزي " احتلال لجش وإبادة شعبها بالإضافة إلى مقدرته الحربية أحوال الدولة الداخلية حيث سادت الفتن والإضطرابات ورفض الطبقة الحاكمة للإصلاحات التي حاول أوركاجينا إنجازها حيث لاقت مقاومة من جانب الطبقات المتنفذة وأحدثت الفوضى وعدم الاستقرار وقد ترك ذلك الحدث المراثي وندب المدينة والدعوة من الإله الحامي لينزل غضبه المدمر على " لوكال زاكيزي " وتدمير مدينة " أوما " وصلت سومر إلى نهاية النفق المظلم حيث فرشت النهاية المأساوية خيمتها على ربوع سومر، كل إنسان ينتحب لمصيره بمرارة تركت أثرها في نتاج الأدب السومري، لنقرأ المدون في أحد الألواح السومرية لشاعر يصف وصفا يشع بالألم واللوعة الذي حل بسومر من دمار وخراب:

تدمر المدائن..

تدمر البيوت...

تدمر الإسطبلات وتباد حظائر الغنم...

ثيران سومر بعد الآن لا تقف في إسطبلاتها...

لا ترتع أغنامها في حظائرها..

تجري أنهارها بماء مرّ..

تنبت حقولها المحروثة أعشابا ضارة..

تنبت سهوبها نبات العويل....

الأم لا تعني بأولادها...

الأب لا يقول ؛ آه يا زوجتي...

الزوجة الشابة لا تبتهج في حضن زوجها....

لا يقف الولد الصغير على ركبتيه..

لا تشدو له المربية أغنية النوم...

كل ضفاف دجلة والفرات تنبت الآن نباتا يورث المرض...

لا يطأ أحد الطرقات ولا يسعى أحد إلى الدروب..

تتحول المدائن والقرى القوية الأساس خرابا..

أن تسلم رؤوس أهلها إلى السلاح...

ألا تحرث حقولها ولا تغرس بذرة في ثراها..

ألا تعطي حظائرها قشدة ولا جبنا، ولا تسمد أرضها...

أن يقل عدد الماشية الصغيرة والكبيرة..

وتسير جميع المخلوقات الحية إلى نهايتها...

ليس للمخلوقات من ذوات الأربع سمادا في تربة سوماجان...

في السباخ القصب عليل الرأس،

في أطرافه العفن والموت..

ضرع الكروم والبساتين قد جف...

فوق أرض سومر حلت النكبة...

لا يمكن لعقل رجل أن يتصور الذي حدث...

نشأ لوكال زاكيزي من عائلة تنتمي إلى طبقة الكهنة، كان أبوه كاهن الآلهة نيسـابا في مدينة أوما وهو من أص سامي آكدي وعمل أبوه في منصـب الكهنوتيـة ولكـن قابلياتـه العسكرية مكنته من تبوأ الحكم في مدينة " أوما " وبعد القضاء على دولة لجـش وتوطيـد السلطة في هذه المنطقة وفي " أور " استولى على دولة مدينة " الوركاء " وبعـد ذلـك أتخـذ لقب ملك " أوروك "وملك سومر فيما بعد، وبعد أن استولى على معظم بـلاد سـومر وآكـد وبضمنها مدينة " كيش " والمدينة المقدسة " نفر " ثم أتخذ لقب ملك كيش ومدّ فتوحاتـه من البحر الأسفل إلى البحر الأعلى – أي من الخليـج العـربي إلى البحـر المتوسـط وقـد دّون إنجازاته العسكرية والعمرانية في المدن المختلفة على ألواح ودام حكمه 25 عاما، تمكن من التمتع بثمرات فتوحاته وتوحيد البلاد وإقامة دولة موحدة وإنشـاء أولى الإمبراطوريـات في بلاد ما بين النهرين شملت في تكوينها أجزاء من الشرق الأدنى مثل بلاد الشام وعيلام.



لوكال زاكيزي الذي صار الملك الأعلى في" سومر " يذكر انه كان لديه 50 من كبار الكهنة تحت قيادته.تمكن من هزيمة خصمه وعرض جثته في باب معبد الإله أنليل وكذلك في بوابة مدينة " نفر " وبعد إسقاطه مدينة " أور " أتجه نحو لجش وأوما، وتذكره القصائد التي كتبت عنه حيث تقول:

إينما يتحرك يخلق الإنتصار،

كل بلدة يقترب منها بقواته،

ترتعد خوفا،

يمزق حيطانها،

يخضعها لسيطرته،

فتح كل المدن،

وحمل السيف ليفتح ممالك الخليج،

إنطلق من ميناء لجش " أنينكرنار "،

ذاك الميناء الذي يدل على رمز قوته،

هو القائد الذي ترك عصر القوة والفتوحات ماثلا في ذاكرة الملوك،

كان بعد غزواته يغسل سيفه في مياه شواطيء البحر الأبيض المتوسط.. "

قوانين ألملك أورنمو هي الأقدم

تتفق الكثير من المصادر والأبحاث استنادا إلى الألواح السومرية التي تم العثور عليها أن قوانين الملك " أورنمو " سبقت ظهور مسلة حموابي بثلاثة قرون وهو قد اعتمد عليها في وضع بنود مسلته المشهورة، وتلك القوانين هي الأقدم

في العالم القديم وقد تم العثور على قسم من الألواح التي تضمنت هـذا القـانون في مدينة نفر والقسم الآخر منها في مدينة أور، ويُعد الملك أور نمو المؤسـس لأسرة أور الثالثة او ما يطلق عليه عصر الانبعاث السومري، حكم أور نمو أكثر من سـبعة عشر عاما حيث امتد حكمه ما بين العامين (2112- 2095) قبل الميلاد، وحكم البلاد بعـد القضاء على حكم الملك " أوتو حيكال – او محارب الآلهة "، وقد تمكن بقوة جيشـه إخضاع الكثير من المدن السومرية والآكدية المجاورة لحدود مملكته وحمل لقـب " ملك سومر وأكد " وكذلك لقبا آخر هو " ملـك الجهـات الأربعـة " ولم يكـن اللقـب الأخير فعليا بل هو بمثابة لقبا فخريا وصف به، مع انـه عمـل ثقـوة وبشـكل مثـابر لتوسـيع حـدود مملكتـه مـن خـلال حـروب متواصـلة واعـتراف أشـور في الشـمال بنفوذهم ؛ كما أقام أهل (أشنونا) معبداً في مدينتهم نسبوه لملك أور (شـو – سـن). قام أورنمو في السنوات الأولى من حكمه ببسط سيطرته على جنـوب بـلاد النهـرين، وأعاد العلاقات التجارية مع مجان (عمان) عبر الخليج العربي، وهكذا حكـم أورنمـو مدينة أور وأريدو والوركاء وأقام عدة مبانٍ في نيبور ولارسا وكيش، ولا يوجـد دليـل واضح على أنه شن حرباً ضد جيرانه ؛ ويبدو أنه استقطبهم بالوسـائل الدبلوماسـية. بذل الكثير مـن الأهـتمام بتطـوير العاصـمة أور وعمـل عـلى بنـاء3وتـرميم المعابـد وخاصة معبد " نانا – سن " كما اقترن اسمه بمرحلة بناء الزقورة التي تعددت وظهر منها في العديد من المدن كما عمل عـلى شـق القنـوات الاروائيـة وأيضـا عمـل عـلى سن القوانين والتشريعات وما عُرف بإصلاحات أورنمو في الحكم والتشريع، ويختلـف في بنود تشريعه عـن بنـود القضـاء الأخـرى التـي ظهـرت فـيما بعـد – هـو اعتمـد في العقاب على مبدأ التعويض وليس القصاص، وعلى وجه الخصوص عـلى الجـروح التي لا تفضي إلى الموت. كما سـعى إلى توحيـد المكاييـل والأوزان، رغبـة في تخلـيص

المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم وأغنامهم، وفي النهاية فقد تعددت أنشطة الملك أورنمـو في شتى المجالات، وقد ترك عدة لوحات منحوتة من الحجر تظهر الملك بانياً للمعابد. وقـد وصل فن النحت إلى مستوى جيد من التنفيذ التقني، غير أنه افتقر إلى التنوع إذا ما قورن بالنحت في العصر الأكدي، كما أحدث نقلة مهمة في مجال الأدب السومري، ويشـار إلى أن من إنتاجه الألواح السومرية التي تضمنت " اسطورة رحلة أورنمو إلى العالم الأسفل " وهـو نص أدبي يصف دخول الحاكم المتوفى إلى العالم الأسفل ؛ ويوصف فيه بأنه شـبيه او شـقيق جلجامش ؛ الذي يطيب خاطره مع آلهة ذلك العالم بالهـدايا، وأخـيراً فقـد مـات أورنمـو في معركة لا توجد عنها معلومات، حيث يذكر نص أحد الألواح أن هذا الملك " وجد في ميدان المعركة مثل قارب محطم " مما يشير إلى مصرعه، بينما تـم تثبيـت بعـض المعلومـات عـن مقدمة قوانين " الملك أورنمو " والتي تحتوي على الوصف للقـرابين التـي قـدمها " أورنمـو " إلى آله المدينة كما تـرد الإشـارة الى الفكـرة او النظريـة التـي وضـعها والتـي وصـفت ب – نظرية الحكم والتفويض الآلهي المطلق " وهي تقوم على افتراض يقول ان الإله قـد فـوض بتخويل واسع وغير محدد الملك اورنمو ليمثله فوق كوكب الأرض كما ترد إشادة مـن الإلـه بمنجزات الملك أورنمو حيث هو الذي أرسى قواعد العدل وتمكن مـن القضـاء عـلى الفسـاد الاقتصادي وفساد الحاكم، ذاك الذي شمل تخريب الحقول وعرقلة التجارة والسـطو عليهـا وعدم الاخلاص في تربية ورعايـة المـواشي وأيضـا الثـيران والأغنـام والرشـوة في إدارة شـؤون البلاد.



استطاع الملك أن يحقق العدل والحرية في بلاد سومر ومن افكاره المهمة التأكيد على أن اليتيم لم يعد يسلم إلى الرجل الغني ولم يعد الرجل الفقير يسلم إلى الرجل ذو الشيقل أو يسلم إلى الرجل ذي المنا، كما أنشأ الملك نظام لتثبيت المكاييل والموازين.

أما مواد قانون أورنمو فهي 31 مادة لم يصلنا الا القليل منها حيث جزء كبير من الالواح التي كتب عليها جائنا متآكل وممسوح، ومن القدر القليل الذي تم التعرف عليه كان يعالج في مسائل قانونية، من أمثلة المواد التي تم التعرف عليها وجاء في بعضها:

المواد مـن 4 إلى 12، كانـت تعـالج مسـائل الأحـوال الشخصـية كـالطلاق والخيانـة الزوجية والخطوبة:

- المادة الرابعة تنص على حق الزوج بقتل زوجتـه الزانيـة، وإطـلاق سراح الرجـل الـذي ارتكب معها الزنا..
- المادة الخامسة تتعلق بحالة اغتصاب رجل لأمـة بكـر وكانـت العقوبـة هـي تعـويض مالك الأمة بخمس شيقلات من الفضة.
- المواد السادسة والسابعة والثامنة كانت تحدد شروط الطلاق.
- المادة الحادية عشر تناولت اتهام شخص لأي من الزوجين بالخيانـة الزوجيـة ووسـيلة إثبات ذلك الاتهام وكذلك عقوبة الاتهام الكاذب.
- تناولت المادة الثانية عشرة حـق الخاطـب الـذي تقـدم بهـدايا إلى خطيبتـه ووالـدها وعدل الأخير عن الخطبة وقام بتزويجها إلى شخص آخر فكان للخطيب الأول الحق في تعويض يقدر بضعف ما قد دفعه من هدايا.
- المادتان الثالثة عشر والرابعة عشر تناولتا مسألة هروب الرقيق.
- المواد من 13 إلى 23 تناولـت حـالات إيـذاء الأشـخاص الاعتيـادين أو الرقيـق وحـالات اعتداء الرقيق على أسيادهم.
- عالجت المـادتين الخامسـة والـعشرون والسادسـة والـعشرون موضـوع شـهادة الـزور، بالنص على عقوبة توقع على شاهد الزور وهي تغريمه خمسة عشرة شيقلا من الفضة أما إذا أدلى الشخص في قضية ورفض أن يؤدي اليمين على هـذه الشـهادة التـزم بـدفع غرامة تساوي قيمة الحق المتنازع عليه.
- أما بقية المواد فكانت تتعلق بموضوعات الاعتداء على الأراضي الزراعية وبعـض الأمـور المتعلقة بالزراعة...

قتل الملك " اورنمو " سنة 2030 ق.م بعد معركة أمام الكوتيين وبعد أن تمكن من تحرير كامل الخليج السومري من السيطرة الكوتية وخلفه بعده ابنه شولجي..

شولكي(شلجى) (2093 – 2046 ق م)

سار هذا الملك على سياسة والده في تشييد المعبد وتعمير المدن وحفر القنوات، وله تماثيل عديدة من النحاس تمثله حاملا سلة التراب ليضع حجر الأساس للمباني التي شيدها أو التي أكمل بناءها وقد جرت له بعض الحروب في منطقة جبال زاكروس وكانت بلاد آشور خاضعة له، توفي شولكي بعد أن حكم 48 سنة ووجد له في مدينة اور مرقد ضخم مبني بالآجر يتكون من عدة اقبية وتلاه في الحكم ابنه أمار سين.

أمار سين (2045 -2037 ق م)

ويقرأ اسمه (أمرسونا) أيضا بينما قرأ سابقا (برسن) وكانت الامور في زمنه مستتبة في البلاد وسار على سياسة التعمير. وظهر في زمانه اسم حاكم بلاد آشور المدعو (زار يقوم) الذي كان يقدم الولاء لسيده أمار سن. وبعد تسع سنوات خلفه في الحكم ابنه شو سين.

شو سين (2036 – 2028 ق م)

حكم هذا الملك أيضا تسع سنوات ازدادت في زمانه هجمات الاقوام السامية الغربية القادمة من وسط البوادي في الهلال الخصيب على طريق الفرات وكانت هذه الموجات السامية تزحف جماعات إلى المدن والأرياف ثم تولى الحكم أبي سين.

إبي سين (2027 – 2006 ق م)

هو آخر ملوك سلالة أور الثالثة وقد حكم 25 سـنة قضـاها في قمـع الفـتن وايقـاف زحف الساميين الغربيين القادمين عن طريق مـاري (تـل الحريـرى) عـلى الفـرات الأوسـط وضعفت أخيرا سلطة هذا الملك فاستقل (اشبي ايرا) في مدينة إيسـن واسـتقل (نـبلانم) في مدينة لارسا بمساعدة التـدخل العيلامـي مـن الشرق وكـذلك اسـتقلت بـلاد آشـور وكانـت الضربة القاضية من العيلاميين إذ زحفوا بجيوشهم الجرارة إلى أور وخربوهـا تخريبـا كـاملا وأسروا ملكها. وقد دونت الاشعار المحزنة في رثاء هذه المدينـة المجيـدة وهكـذا قضى عـلى سلالة أور الثالثة وبذلك انتهـى العهـد السـومري الأخـير في نحـو عـام (2003 ق م) الـذي انقرض به حكم السومريين نهائيا.

التشريعات التي سبقت شريعة حمورابي

تشريع لبت عشتار

استمر حكم هذا الملك في الفترة من (1934 إلى 1924 ق. م) وقد سبق هذا القانون شريعة حمورابي بقرابة القرنين من الزمـان، هـذا القـانون مـدون عـلى أربـع ألـواح طينيـة مكتوبة باللغة السومرية ويتكون من مقدمة وحوالي ثمان وثلاثين مادة فقط وخاتمة.

مقدمة تشريع لبت عشتار

كانت لغتهم السومرية ووجدت على ألواح طينية تتضمن تمجيد الآلهة ثم تمجيد الملك مصدر القانون نفسه، وسرد محاسـن القـانون، كـما تضـمنت إعطـاء الناس حرياتهم وبتوجيه جيد ترك الوالد يساعد أولاده وجعل الأبنـاء لا يتخلـون

عن آبائهم، ووصف نفسه بالراعي المتواضع والمزارع الضليع والحاكم المناسب وفقاً لأوامر الإله وأنه رفع الظلم عن رقاب أبناء وبنات المدينة.

مواد تشريع لبت عشتار

- المواد من السابعة إلى الحادية عشر كانت تتعلق بالزراعة في الحقول والبساتين ومسألة السرقة التي يتعرض لها البستان والقبض على السارق وعقوبة التعويض عليه.
- المواد من الثانية عشر إلى السادسة عشر تتعلق بموضوع هروب العبيد وتقرير عقوبة على من يأوي عبداً هارباً في بيته لمدة شهر أن يعوض رقيقاً برقيق.
- المواد من العشرين إلى الثلاثين تعرضت إلى مسائل الأحوال الشخصية، كالميراث والزواج من ثانية ومقدمات الزواج كالخطبة وحالة العدول عنها ومصير الهدايا المقدمة ومسألة الطلاق وأسبابه.

- تناولت المواد الأخيرة مسألة التعويض عن الأضرار الواقعة على الثيران المؤجرة.

خاتمة تشريع لبت عشتار

تضمنت سرد إنجازات الملك عشتار فيما يتعلق بالعدل والحق داخل البلاد تنفيذاً لتعليمات الإله أوتو (إله الشمس) ونبذ البغضاء والعنف، وانتهت الخاتمة بالدعاء لمن يحافظ على المسلة والقوانين المدونة عليها وإنزال اللعنات على من يحاول تخريبها أو تغييرها أو نسبها إلى نفسه..

• **تشريع أيشنونا**

قام هذا التشريع في العصر البابلي القديم بعد نهاية سلسة أور الثالثة، وقد تم العثور على ما بين أربعة أو خمسة آلاف لوح من الطين في منطقة تسمى تل

حرمل، كانت مكتوبة باللغة الأكدية وتضمنت مقدمة غير واضحة المعالم وبعض المواد التي تم حصرها في ستين مادة..

مقدمة تشريع أيشنونا

لم يتمكن أحد من التعرف عليها بسبب ما أصاب الألواح التي تحتويها من تلف وتكسير الأمر الذي جعل قراءتها صعبة للغاية.

مواد تشريع أيشنونا

مواد القانون الستين ما هي إلا مجرد سرد لبعض القواعد القانونية بشكل عشوائي لا يعتمد على ترتيب منطقي.

- المواد من الأولى إلى الحادية عشرة تناولت موضوع تسعير السلع الضرورية كالشعير والزيت النقي وزيت السمسم وشحم الخنزير والصوف والملح والنحاس، وتم إقرار السعر بالفضة، وعالجت موضوع تثبيت الأجور الخاصة بالعربات وسائقيها والثيران التي تقوم بجرها.
- المواد الثانية عشرة والثالثة عشرة تناولت جريمة السرقة التي على حقل أو بستان أو بيت والظروف التي تشدد العقاب على هذه الجريمة والتي تخففه. مثال: إذا كانت السرقة نهاراً فإن العقوبة المقررة لها هي التعويض أما إذا وقعت السرقة ليلاً فإن عقوبتها الموت.

بقية مواد التشريع تناولت:

- العقود التجارية وأسباب بطلانها
- مسائل الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والخطبة
- مسائل غيبة الزوج ومدى تأثير الغيبة على استمرار الرابطة الزوجية

- حقوق الطفل في الرضاعة والرعاية والمأكل والملبس
- الوديعة وحالة فقدانها والمسئولية المترتبة على ذلك
- عقد البيع
- حالات الاعتداء على الأشخاص وعقوبة هذا التعدي (العقوبة لم تتعد التعويض).

يها من علوم وآداب وفنون، ونالت أور القسط الوافر من العناية حتى أصبحت قبلة الشرق القديم وقد دون في هذه الفترة كثير من الأخبار التاريخية القديمة وسطرت الأساطير والقصص الدينية.

الأمن واستقرار البيئة ساعد في إنتاج الغذاء بوفرة كبيرة، كما تطورت تبعا لذلك صورة الفائض الزراعي وتحسنت أحوال المدن حيث أزداد عدد السكان ليصل إلى 40 الف مواطن أو أكثر من ذلك، والعمل على تسيير دفة الحياة وتشريع القوانين الجديدة المناسبة ومتابعة أحوال السكان ولذلك صار التفكير جديا لاختيار الزعيم او القائد، وترشحت فكرة عامة تقول – ليس من الضروري أن يكون الحاكم أو القائد للبلاد من سلالة الملوك، ولكنه أولا يجب ان يكون متفهما للحاجات الإنسانية وأن يجعل الشعب ينعم بالحرية والديمقراطية ويعمل على جعل الجميع يعملون ضمن إطار وحدة متجانسة وقوية، الحاكم أو القائد المطلوب ان يعمل على جعل التنافس قائما بين الأفراد والمؤسسات لتقديم أفضل الخدمات للناس وللوطن، كما يجب أن يظهر الحاكم أو القائد بمظهر الوقار وعدم الكبرياء وان يحترم الشعب والمعابد والمراجع الدينية، ويأخذ بما تقترحه سلسلة المراتب بالدولة وعدم مشاركة أفراد الشعب في ثرواتهم وعدم اغتصابها، ايضا عليه ان يكون النموذج المطلوب في العظمة

والمهابة والعدل والحزم ليكون في القمة المطلوبة، ويظهر السمة الرائعة التـي تـد على الفخامة والسلوك في التعبير، كما عليه ان يـترك لـدى الشـعب نحـوه مشـاعر الرهبة والاحترام والتبجيل والطاعة وتنفيذ أوامره، تلك الإشـارات وغيرهـا جعلـت المجتمع السومري مبكرا يرسم صورة القائـد او الوكيـل المكلـف مـن قبـل الآلهـة لحكم الشعب، وعليه ان يجمع بين القيادة الأجتماعيـة والصـلة الدينيـة، وهكـذا كانت السـلطتان مطلـوب تـوفرهما في النمـوذج المنتخـب للقيـادة، تلـك الأفكـار أنبثقت من تأثير القوة الرعدية والرعب الذي رافق الطوفان والفيضانات المتكررة وشحة المياه أحيانا بما ينشر القحط والجوع، ظلت حالة الخشـوع مرتبطـة بتـوفر الخير واستمرار الحياة اليسيرة، في العودة إلى تلك التوصيات كان المطلـوب ظهـور الحاكم الخارق مع بقاء مساحة لديه تجسد النمـوذج الإنسـاني، الملـك أو الحـاكم المنتخب لابد أن يدرك قيمة الإرتباط بتكوين مجمع المياه العذبة – الابسو – ومـا تلقيه في النفس والمشاعر العميقة من خشوع تام، بهذه القاعدة الفكرية لفلسفة الحكم في المدن القديمة لبلاد ما بين النهرين وصارت هي المـرآة التـي تظهـر فيهـا صورة الحاكم وأفعاله ومن خلالها تتم حالة الحكم عليه أو نقـده، وأيضـا بهـا تـم رفع الكثير من الحكام والملوك إلى مصاف أنصاف الآلهة التي تواجدت على الأرض بين البشر، تلك صورة إله عـلى النمـوذج الإنسـاني لـه مسـكنه في الآبسـو يسـيطر بقوتـه الروحيـة والعقليـة والجسـدية عـلى العواصـف الرعديـة ويواجـه جميـع الأخطار والتحـديات الحربيـة، وهكـذا صـار في المرحلـة تلـك ثمـة وكيـل منتخـب ومرتبط بحلقـة إرتبـاط غـير مرئيـة لهـا علاقـة مبـاشرة بالآلـه المعبـود بعـد هـذا بدأت مرحلة التخيل لوجود حروب بين الآله من خلال عدة أساطير وملاحم، كما حصل في تصور الإله " أنكي " وكذلك في الإله " مردوخ " كما ورد في الإينـو مـاليش أو كما ورد في اسطورة نينورتـا وهزيمـة الـنسر ولكـن في الحقيقـة الأسـطورة التـي

ظهرت في بلاد ما بين النهرين هـي نتيجـة مرحلـة طويلـة مـن التفكـير والتأمـل في العـوالم البعيدة الخفية، إذا دققنا النظر في تفاصيل الذي جرى فـيما بعـد تحـول الإلـه الشـبيه إلى صورة الإله الحقيقي بشكل تدريجي من خلال مواقف أو أحداث حصلت كما هـي الحـال في المكانة التي وصل إليها حاكم مدينة " لجش – جوديا " الذي حكم في العـام 2150 قبـل الميلاد وكان يوصف بأنـه نصـف إلـه حيـث رأى الإلهـة " نينجرسـو في الحلـم وقـد وصـفه بكلمات رددها شعب المدينة تقول:

في وسط الحلم،

كان ثمة رجل،

بلغ طوله إرتفاع السماء،

وزنه ؛ وزن الأرض،

يربض عن يمينه وعن يساره أسدان،

لقد أمرني أن أبني له معبدا،

لكني تبلبلت ولم أدرك رغبته ومراده،

ثم ظهرت امرأة،

حُرّت في أمرها من تكون..؟،

كانت تمسك بيدها قلما،

القلم كان من معدن وهاج،

وباليد الأخر،

كانت تمسك لوح كتابة السماء المقدسة،

ثم استغرقت في تفكيرها قبل ان تكتب..

الحلم الغامض يستمر ليرسم صورة متكاملة عن تفاصيل ذاك الذي جاءت به تفاصيل الرؤيا المقدسة فيقول:

من قلب الحلم السومري،

كان ثمة رجل،

في صورته ترى أنه ساوى إرتفاعه خط السماء،

وساوى وزنه كل الأرض،

نظر حول نفسه،

نظر حول أسوده الشرسة التي كانت تجثم في الجهة اليسرى،

ثم قال نطقه السامي،

أخبرني بضرورة العمل على بناء معبد،

لكني لم أفهم عمق رغبته،

هناك كانت امرأة،

لم أر وجهها من قبل،

هي التي كانت - ولكني لم أعرف من هي،

كانت تحمل في يدها أبرة من المعدن،

في غضب قالت وهي تحمل لوحا من ألواح السماء المكتوبة بحروف النار،

أبحرت في يمّ أفكارها،

القلق والحيرة سيطرا على جوديا،

ذهب إلى كوخ أمه ليحصل على الراحة،

أمه الآلهة جاتموداغ،

همست له ثم مضى بزورق خفيف إلى معبد الإلهة نانشا Nanshe،

مترجمة الأحلام السومرية وضحت لي،

قالت: الرجل الذي رأيته كان نينجرسو،

والإمرأة هي الإلهة نيسابا آلهة العلم والكتابة والإبداع،

هي التي نصحت جوديا كي يعرض عربة مزينة بالمعدن وأحجار اللازورد المشرقة،

كانت حكمة الإله غامضة مثل تلك السماء،

ننجرسو ابن أنليل سوف يرشدك،

هو الذي سيكشف إليك خطة بناء معبده،

المحارب الذي له مراسم عظيمة،

هو يبنيه لك،

هو المطيع،

هو الذي وحّد شعب كيرسو،

هو الذي جعلهم أبناء أم واحدة،

هو الذي جعل السلاح يتوفر في كل بيت،

هو الذي عاقب بشدة من دنس المعبد القديم،

هو الذي نقى المدينة المقدسة وطوقها بالنيران،

هو جمع يوما في مكان نظيف له جوّ صاف،

هو جمع الغرين،

هو صنع منه الطابوق،

هو صنع منه قلب للمعبد المقدس،

هو وضع الغرين في القالب،

هو رتل المناسك بعظمة وخشوع،

هو نقى مؤسسات المعبد،

أحاط الفناء بالنيران،

دهن رصيف الممشى بعطر الورود،

هذا العمل الكبير العظيم،

أنجزه حرفيون جلبوا من مكان بعيد،

من عيلام،

من سوسه،

من ماجان،

الخشب جلب من غابات الجبال المنيعة،

كوديا مررها من بلدته كيرسو،

كوديا الكاهن العظيم للإلهة ننجرسو،

جعل الطريق إلى جبال الآرز ميسورا،

لا أحد دخل قبل ذلك،

وتمكن من قطع أرزه،

كانت الفؤوس العظيمة مثل الأفاعي العملاقة تقطع،

أشجار الآرز تعوم أسفل ماء النهر،

لا أحد قبل كوديا دخل تلك العوالم،

كوديا اليد المخلصة للإلهة ننجرسو،

جعل الطريق سالكا لنقل الأحجار،

كتل كبيرة،

ثم قطع معادن أخرى ثمينة،

حملت من الجبل النحاسي،

جبال طارت كما يطير الغبار،

وكما أراد كوديا،

العمال نقبوا الفضة من قلب الجبال،

سيّل من الحجارة الصلدة،

بعد ان تكامل كل شيء،

بدأ البناء الصحيح،

وخلال سنة واحدة أكتمل البناء،

عين هي البوابة الجميلة كانت تستعد لدخول الإلهة الرسمي،

في نطقه السامي قال:

الأحترام الدائم للمعبد،

بكل فخر قال:

يجب أن يكون هو نور البلاد،

ويتعلم منه الغرباء،

وستتألف في كل اتجاهات الكون،

الإلهة إنانا وتنشر عباءتها،

مع الأسف هذا المعبد الرائع عمليا لم يبق شيء منه، نحن نفترض أن الملك الكاهن كوديا قد بالغ كثيرا في وصف المبنى بشكله الجمالي مع أنه وضع تماثيل عديدة جميلة جاءت لنا إشارة عنها نتيجة التنقيب وهي مصنوعة من حجر الديوريت الصلب الأسود الذي جلب من مدينة ماجان عمان حاليا، وقد نفذت تلك التماثيل بشكل متناغم وجميل، ونجح في التعبير عن أفكار غوديا، البعض منها الآن يوجد في متاحف العالم، كانت هذه الثماثيل التحف تحت الأرض في " كيرسو " وحسب رأي العلماء أن تلك المباني غير الموجودة الآن كانت تتمتع بناياتها بالزينة في التصميم ولم تصنع من مواد بناء رديئة، من بين تلك التماثيل تمثال كوديا الشاب الذي يجلس بشكل هاديء وابتسامته ضعيفة على شفاهه ويداه شبكت أمام صدره، الملك أورنمو الذي مات في حرب هائلة وخلفه في الحكم أبنه " شولجي " الذي حكم ما بين 2094-2047 قبل الميلاد، نصف ذاك

الزمن الطويل صرف في نشاطات سلمية، المعابد وخاصة الزقورة أسسا من قبل الملك أورنمو وبعد أن اكملت تلك المباني تم نصب تماثيل الآلهة في أضرحتهم وأصبحت تحت عناية وحراسة الجند ومتابعة الكهنة الذين تم تعينهم من قبل الملك، وتم إصلاح التقويم وإتخاذ إجراء في زراعة الحبوب وتم إلغاء الإجراءات التي كانت سائدة وقيد الاستعمال وتحقيق إصلاح اقتصادي وسياسي شامل وخطوات شولجي مهدت لظهور الإمبراطورية السومرية ونتج عن ذلك إعادة تنظيم الإدارة للمملكة التي حدثت أثناء تلك الفترة، علاوة على ذلك ان هذا الملك الذي كان يتقن علم الكتابة أسس مدرستين عظيمتين في أور ونيبور والتي ظهر منهما أفضل ما وصلنا عن الأدب السومري خلال فترة حكمه، كما أن شولجي قاد سلسلة من الحملات العسكرية وخاصة في سهول وتلال كردستان كانت أهم مسارح تلك العمليات في مدن مثل ارباليوم وشاشروم وحرشي وتم ضمها للسيطرة المركزية السومرية وكانت تلك الحملات نتج عنها الآسر والتدمير للمدن قبل استسلامها، وتلك المدن كانت تحت سيطرة الحورانيين الذين كانوا يتحالفون مع " اللولوبي " وتلك القوى كانت تهدد طرق التجارة الرئيسية وخاصة أهم الطرق النهرية على طول نهر ديالى وصولا الى وسط إيران والطريق الآخر على طول نهر دجلة وصولا إلى أرمينيا والأناضول حيث كان التهديد قويا، ولهذا حدثت ثلاثة حروب بين tlurrian والسومريون الذين قاموا ببناء حصنا منيعا في مكان ما بين دجلة وموقع داخل جبال زاغروس، في النهاية " شولجي " كان منتصرا وحول منطقة كردستان إلى ولاية تابعة إلى الإمبراطورية السومرية في العام 2051، ومع ذلك أتبع الملك السومري سياسة دبلوماسية الأمر الذي أغرى المجموعات الكوتية وضع حدا لوجود الحكم السومري من خلال إثارة الإضطرابات والفوضى في بلاد ما بين النهرين، شولجي استغل تلك

الحالة لتأكيد سلطته على مقر الإمبراطورية الكلدانية في مصاهرة بعض الحكام وتمكن من أخذ ملكية مدينة سوسه وإعاد ترميم وبناء معبد إله عيلام الأعلى كما تمكن من سحق الثورة التي قامت في مدينة إنشان Anshan كما كلف جنود عيلام بالدفاع عن حدود سومر الجنوبية الشرقية ومن بعد نرام سين أعاد شولجي استخدامه للقب ملك الجهات الأربعة من العالم وجعل المعابد تذكره في الأدعية والابتهالات والصلوات، كما نشر تماثيل له في كافة أنحاء الإمبراطورية، التراتيل كانت تشيد به وتمدحه وحدد عدد الأشهر ب 12 شهرا في التقويم السومري الجديد، الملك شولجي كان عمر حكمته تسع سنوات فقط من 2046-2038 وقد سار على نهج أبيه حيث قسم وقته بين بناء المعابد وإدارة خطط الحروب وإعادة ترتيب إدارة المؤسسات التابعة للدولة، كما وضع نفسه في موازاة الإلهة وأشتهر بقلة التواضع ومظاهر الغرور ولهذا أشار إلى نفسه ليكون في وضع مواز للآلهة أو هو الإله القاضي في الأرض، وطبقا لمعلومات مدونة في لوح أكتشف مؤخرا أنه مات ودفن في ضريح تحت الأرض وقد وجد ضريحه سليما بعد الهجوم على المدينة وتدميرها وسلبها وجد ضريحه قرب المقبرة الملكية المشهورة في أور، أثناء عهد شولجي بدأت ملامح الإمبراطورية السومرية تتوضح بشكل أكبر ووصلت إلى قمتها وتوسعت حدودها وضمت إليها مدنا كثيرة من أهمها " عيلام – ماري " كما أخرج مملكة ماري من تحالفاتها مع ممالك معادية لسومر ووضع بعض المدن تحت الحكم المدني والعسكري مثل سوسة وجزء كبير من مدن شمال ما بين النهرين وثمة إشارة إلى ان الملك – نرام سين – الذي تعرض للتدمير أثر هجوم الكوتيين على المدينة الآكدية والتي أصبحت ضمن دول المدن السومرية، تم تعيين حكام يديرون تلك الأجزاء من قبل الملك السومري وحدد فلسفة الحكم بحيث تكون العدالة متوفرة ويتم تطبيق الأوامر الملكية، الأمر الذي

تطلب توفير وظائف للعمل وجباية الضرائب من مختلف الأجزاء الواسعة التي تحكمها الإمبراطورية، تلك التي تم ربطها بشبكة واسعة من الطرق الجيدة، الملك شولجي هو الذي وضع أسس الإمبراطورية السومرية العظمى، كان قادتها ورجالها يتحركون في كل إتجاه وهم يمثلون السعاة التابعين للملك ويتم إرسالهم للتفتيش بشكل دوري وبتكليف من قبل الملك لضمان العدل وإنجاز الإدارات المحلية الإقليمية اعمالها بيسر وكفاءة، وفي الغالب يحمل البريد الصادر من الملك وحكومته مستشار كبير تكون مسئوليته تقديم التعليمات والتحقيق في تطبيق القوانين وإصدار التوجيهات وهو الشخص المسئؤل أمام الملك، إحدى أهم المؤسسات في الإمبراطورية تلك المسئولة عن تحقيق وإنجاز النظام الضريبي حيث يتم إلزام تلك المدن والممالك بدفع ضريبة شهرية عادة عن الماشية والخراف وموجودات أخرى، كما توجد بناية لمركز جباية الضرائب قريبا من مدينة " نيبور " تحت مراقبة المركز الديني لسومر وبقية الدوائر المعنية بجباية الضرائب الموجودة في مدينة أور، والضرائب يتم دفعها بقيمة الفضة أو قطع الجلود او الماشية، أو تدفع بإثمان أخرى من قبل المدن والممالك البعيدة والتي تخضع لسيطرة سومر، كما أن ديوان الملك السومري كان يستلم الهدايا من قبل الحكام في تلك المدن أو الممالك، كانت تلك الضرائب القادمة أو الخارجة يتم تسجيلها بدقة من قبل كتاب وموظفين تدربوا من أجل ذلك، وجدت في مراحل التنقيب قطع نقدية ذهبية وفضية من تلك التي كانت تدفع بها الضرائب في بعض المدن السومرية منها " نيبور - كيرسو - أوما " وألواح عديدة توثق عمليات جباية الضرائب ويوجد منها عينات في المتاحف الدولية ومتاحف الجامعات الامريكية والاوروبية من تلك القطع النقدية نستدل على نمط الثروة وتشكيل فكرة عن معرفة النظم الأجتماعية والأقتصادية التي كانت سائدة في سومر خلال حكم السلالة الثالثة

التي حكمت أور، مع ان تلك القطع النقدية لا تقدم إلا صورة مبسطة عن الوضع المالي والثروة التي كانت تملكها الإمبراطورية السومرية، ولكنها تلقي الضوء على العقود التي كانت تحكم التعامل بين الممالك والحكومة المركزية وكذلك الرسائل والاحكام وكل هذه النصوص كانت تتحدث عن حسابات المؤسسات الرسمية، وأيضا عمل القطاع الخاص، وبالرغم من كل ذلك تظل الكثير من المعلومات مجهولة وبحاجة غلى التفسير لتلك العناوين والمهمات التي كانت تسود في زمن سومر من خلال علم الآثار، ونحتاج إلى وقت طويل حتى نتمكن كعلماء ورجال بحث علمي من الوصول إلى التفسير والتوضيح المطلق والمتماسك، ولكن الألواح المكتشفة تقربنا من إنطباع عام حول فحواها وعلاقتها بالحكومة المركزية فهي قد كشفت عن سيطرة المعبد وقوة الملك الحاكم من خلال قصره ومن يعاونه في الحكم وينفذ تعليماته منذ السلالة المبكرة وفلسفة تلك القيادة والحكم أستمرت وهي تنمو وتفرز القوانين والمعالجات لوضع السكان والمدن وعلى كل الأراضي التي اصبحت تحت سيطرة ملك أور ومارس عليها سلطة مطلقة وقوية، كما تكشف عن أساطير وأحكام تتعلق بتسلم تلك السلطة والأموال من الإله " أنليل " ووضع القوانين المستمدة من الإله وجعل تلك التقاليد محترمة وسائدة إلى حد بعيد، وجمع الأموال وصرفها في مجال تمويل بناء المعابد وحفر القنوات وصيانتها في كافة أنحاء الإمبراطورية السومرية، الحقول الكبيرة الواسعة للحنطة والشعير كانت تدار من قبل الأشخاص الذين عملوا تحت قيادة أحد حكام الولايات الذين كان يشرف على جيش كبير ومشرفين ولهم أجهزة وكتاب لمتابعة ما يجري وتحديد كشوف بالأراضي القابلة للزراعة وفرز حصته من تلك الأرض بما يسمى حصة أرض الإله وهي يخصص محصولها للمعبد والذين يعملون فيه، لاتوجد معلومات دقيقة عن صورة

الأقتصاد لكن نحن نقرأ في الألواح عن وجود أراضي زراعية شاسعة وعن قطعان كثيرة ويشرف على تلك الثروة المعبد وقصر الحاكم، وهناك قوة اقتصادية أخرى هي تصنيع المعادن من خلال وجود عدد كبير من الذين يعملون في المراكز الصناعية الصغيرة للتعدين في أنحاء من جنوب العراق في المواقع الحضارية الموجودة في مراكز المدن المهمة ويعملون في تصنيع الفضة والذهب والنحاس مثل صناعة المجوهرات والتحف والأواني، في بلاد ما بين النهرين كانت ثمة مصانع لها حالة اكتفاء ذاتي وهي كبيرة وتنتج الكثير من السلع والتحف الفنية التي تكون جاهزة للبيع، مثل دباغة الجلود أو طحن الحبوب أو الحصاد، هناك آلآف من العمال الذين كانوا يعملون في هذا المجال ومعظم العمال كانوا من الآناث وخاصة في مدينة " كرسو " حيث كان الآلاف من النساء يستخدمون في صناعة المنسوجات المحلية وفي نفس المنطقة كانت توجد وحدة تعمل لطحن وتحويل الحبوب تنتج آلآف الأطنان من الطحين الجاهز للأستهلاك، وأيضا صناعة البيرة وزيت الكتان وهاون الطحن والقدور الطينية وصناعة قطع من الجلود وتمت بناء معامل تتخصص بذلك ونتج من تلك المرحلة ظهور طبقة من العمال المهرة منهم النساء وهن النسبة الغالبة، وهناك تجار يختصون بتلك التجارة التي كانت تمثل رأسمال الدولة وعصب اقتصادها، تلك الأموال كانت تدعم استمرار عمل الدولة وموظفيها الحكوميون الوسطاء بين الدولة والشعب، كانت الفضة نادرة وتستعمل بشكل رئيسي كقوة للتبادلات ويتم تخزينها في خزينة قصر الحاكم وهناك رتب في الحكومة تمت الإشارة إليها مثل رئيس بلدية القرية الذي تنحصر مهمته في جمع العائدات ويمثل مركزا اجتماعيا وله تنظيم إداري تتبعه رتب أخرى تمثل أشخاص يتم انتخابهم من اسكان وثمة وحدات يتم إدارتها من قبل عدد كبير من المدراء الذين يعملون في تخصص من نشاطات

مختلفة بينما القوة البشرية تتمثل في إعداد من الذكور والأناث وكانوا بمثابة عمال ماهرون وغير ماهرون ولكنهم جميعا يشكلون قوة العمل والتي استعملت بشكل دائم ولفترات طويلة وهي تقوم بتنفيذ الأعمال الموسمية مثل حصاد الزرع أو قص القصب أو أعمال السخرة الأخرى مثل الحفر وفتح وترميم قنوات الري وسحب الزوارق أو بناء التحصينات لبعض الأشغال العامة الشاملة جدا أوبعضهم أنخرط في تشكيلات الجيش والبعض منهم ظل يعمل مثل العبيد ولكنهم كانوا بأعداد صغيرة وجندوا للدفاع عن المدن والثغور وكان أغلبهم من أسرى الحرب الذين لم يقتلوا في المعارك وقد دمجوا في فرق أو وحدات عسكرية بينما تم تسليم زوجاتهم وأطفالهم إلى المعابد أو تم تخصيصهم للعمل في المصانع الكبيرة كمستخدمين أوعمال أو خدم لدى بيوت العجزة أو كبار السن أو في أعمال تنظيف دوائر الحكومة، وكانوا يتمتعون بنفس حقوق العمال الآخرون ولهم الحق في الحصول على مواقع قيادية في الأماكن التي عملوا فيها وكتقليد اتبع منذ فترة السلالة الأولى المبكرة كانت تدفع لهم رواتب سنوية أو كحصص شهرية أو يومية، وكانت كميات الحبوب التي تقدم لهم تتفاوت طبقا للعمر والجنس والرتبة، كانت حصة العامل في مصنع وغير ماهر بمقدار 20 لترا من الشعير شهريا زائد ثلاث ونصف لترات من النف وأثنان كيلوات من الصوف سنويا، في الحقيقة هذا يبدو قليل جدا، وهناك حصص أصغر توزع إلى الزوجات والأطفال في المواسم أو في تواريخ محددة وهي تشمل الفاصوليا والتوابل والسمك واللحم والملابس، ومن الناحية الأخرى وكان الشخص الذي يعمل في الحراثة يسمى خبير زراعي ويتسلم حصته مضاعفة إضافة الى ذلك هو يحصل على قطعة أرض وحديقة ملحقة بها يزرعها في النخيل والفاكهة والخضار والآوز وعدد من الخراف والعنزات هذا يترك لديه الفائض الذي يمكنه من

امتلاك خادمين أو ثلاثة أو ربما يخصص لأطفالهم بيتا خاصا ولكن رغم هذا فأن نسبة كبيرة من سكان سومر وآكد عاشت ظروف تعسة والكثير منهم كان يعيش تحت خط الفقر وكان هؤلاء الناس في أغلب الأحيان تضطرهم الظروف لاستعارة السلع أو قطع النقود الفضية من الدائنين من الذين يعملون في أقراض الناس بشكل عام أو خاص نظير بسعر أو فائدة عالية جدا - ثلاثة وثلاثون بالمائة بالنسبة للشعير - البعض من الفقراء يجبرون على الاستئجار كخدم هم واطفالهم وزوجاتهم حتى يسددوا ديونهم، الرجل في الشارع كان يعرف انه ضحية لسوء قانون المجتمع وتسلط الأغنياء والأقوياء لكنه تحمل ذلك من نظام يطبق بقسوة تنسب بنوده إلى تشريع الإلهة في أيام الملك " شولجي " كانت الماكنة الأقتصادية ضخمة جدا وهي ضمنت لهم الحياة الوادعة لكل شخص كما ان سومر كانت مزدهرة والعمل فيها يتوفر بيسر والمهارة والخبرة تتراكم، الذين كتبوا الألواح وأغلبهم ممن عاصروا تلك الإمبراطورية وحفظوا عنها تلك الصورة الزاهية تحدثوا عن صرح حضاري راسخ، كان الجنود مثلا يستمرون في المراقبة على طول الطرق الترابية التي تخترق الصحراء وهم يعرفون بتحركات البدو وغاراتهم التي تقطع طرق المواصلات وتغير على القوافل التجارية وتعمل فيها السلب والنهب، البدو كانوا يتحركون عبر الفرات والخابور ويتسللون أحيانا نحو الوادي الأخضر ويمرون إلى الجداول الصغيرة ويتوغلون في القرى والمدن، وهم يخططون لمستقبلهم في السيطرة والاستيلاء على مدن سومر، على آية حال قبائلهم العدوانية أصبحت تتعاظم وتشكل الخطر غير المنظور على وجود الإمبراطورية خصوصا وقد صارت لهم قوة لا يمكن القضاء عليها وخطواتهم تتقدم لإسقاط مدينة " أور " كانت الإشارة الأولى التي صدرت عن ذاك التعاظم على الحدود الغربية أثناء حكم الملك " شولجي " في 2029 - 2037

قبل الميلاد وقد شكلت تلك التحديات الوضع القـائم خـلال حكـم عـدد مـن الملـوك الذين حكموا قبل شولجي في ذات الوقت الذي قام به في ترميم وبناء المعابـد وشـن الغارات على جبال زاغروس حيث هزم كل القوى المتحالفة ضده وقمع تمـرد وقـع في منطقـة شـمال " مـاردين " جبـوب تركيـا وجلـب المتمـردين أسرى إلى سـومر، وبنـى معسكرا لهم قـرب " نيبـور – نفـر " وكـان العموريـون أيضـا يشـكلون حالـة تهديـد للإمبراطورية وكانوا في حالة تماس مباشر مع القبائل البدويـة التـي تسـكن في أمـاكن مختلفة من الصحراء، حيث كانت تعـبر منهـا مجموعـات لرعـي اغنـامهم في أمـاكن العشب قريبا من مدن سومر منذ أيـام السـلالة الأولى المبكـرة الأولى، الـبعض مـنهم وجدوا في تلك المدن حالة عيش أفضل لـذلك قـرروا تـرك مـدنهم وقبـائلهم وأنتقلـوا لستيطان في مدن سومر وكانت حياتهم الخشـنة تسـاعدهم للقيـام بجميـع الأعـمال وكان السومري ينظر إلى حياتهم بالأشمئزاز والأحتقار وهذا الوضع ينطبق أيضا عـلى فلاحوا وسكنة الجبال، هم يحفرون الأرض للبحث عن الكمأ وبيعه في الأسواق داخل المدن السومرية، وكذلك يعملون في زراعة الأرض وكـان يشـيع عـنهم أنهـم لم يـأكلوا اللحم الخام وأغلـب موتـاهم لا يـدفنوا، كـانوا يـاكلون حبـوب الحنطـة ويحسـبونها حلوى، هؤلاء الهمج الذين هاجموا القرى والقوافل كانت تشكل للـرد عـلى اعمالهـم قوات متخصصة تطاردهم في المدن والصحراء وأحيانا تطلق ضدهم حمـلات واسـعة، تذكر الألواح القيام بحملـة قـام بهـا الملـك الاكـدي shar kali عـلى منـاطق واسـعة تقع بين تدمر ودير الـزور وقـد وردت إشـارات إلى وجـود أعـداد كبـيرة مـن الأسرى – اللواح التي كتبـت في زمـن " شـولجي " مـن فـترة الإمبراطوريـة السـومرية، قـوات ضخمة كانت تتواجد في مواقع دفاعية لها في مكـان مـا بـين مـاري وأور وقـد اسـتقر التفكير على بناء قلاع تراقب تحركات العدو في المناطق المكشوفة وكان هـذا الاجـراء

لفترة زمنية يبدو فعالا حيث حدّ من تحركاتهم وخطر زحفهم نحـو المـدن والقـرى، بعد موت شولجي ومجيء أبنه إلى الحكم حدث تغييرات مهمة دفعت بعض المدن مثل اشنونا إلى الغنفصال وكذلك اصبح العموريون يمارسون ضغطا مستمرا ومتزايدا على حدود الإمبراطورية وتمكنـوا في السـنة الخامسـة مـن حكـم ابـن شـولجي مـن اختراق الدفاعات ووصلوا الى عمق قلب سومر هكذا أصـبحت حالـة الـبلاد الأمنيـة حرجة جدا، ونرى في مضمون رسالتين ثم تبادلهما بين الملك وأد قادته وهـو مـواطن من مدينة ماري الذي كان قد طلب شراء كمية مـن الحبـوب مـن مدينـة " نيبـور " ومن مكان آخر هو مدينة " ايسن " ولحمله إلى أور حيث يعلن أنه غير قـادر عـلى تنفيذ مهمته لأن مدينة " ماري " قد دمرت وتـم قطـع كـل الطـرق التـي تـؤدي الى المدينة الكبيرة، وان قوات كبيرة من البدو جاهزة لمهاجمة " ايسن ونيبور " ويطلـب أن يتم تأمين الدفاع عن المدينتين، وفي إجابته يوافق الملك وينصـح ضـباطه بغرسـال مساعدة ويوجه نداءا إلى تاجر آخر ويعرض شراء الحبوب في ضعف سعرها العادي، في السنة الحادية عشر 2017 أعلن القائد Ishbi Irra نفسه ملكا على مدينـة ايسـن وتعهد بحمايتها نيابة عن الملك السومري ثم دعا أحد شيوخ العموريين nablanum الذي توج ملكا على لارسا التي تبعد بنحو خمسة وعشرون ميلا عـن مدينـة " أور " جهزت دولة عيلام قواتها عندما وجدت ان سومر أصبحت ضـعيفة وقـررت غزوهـا وترك أهل سومر مصير مدينتهم بيد الآلهة، كانت المدينة تسودها المجاعة والأمراض والحرائـق عنـدما هاجمهـا الأعـداء مـن خـلال جبهتـين، صـارت مملكـة سـومر مجرد أنقاض لا وجود لها أو لظل الملك الذي حاول ضـمان تحـالف مـع العمـوريين للوقوف ضد قوات العيلاميون وحشـد قـوات ضـد ملـك ايسـن لكـن تلـك الخطـط فشلت في العام 2004 قبل الميلاد، ووصلت القوات العيلامية إلى أٍسـوار " أور " تلـك

الاسوار التي بناها " أورنمو " لتكون بإرتفاع جبال الشرق، لكن القوات العيلامية هاجمت المدينة العظيمة، دمرتها وانجزت فيها الحرائق وبعد ذاك التدمير تركت فيها قوات لتسيطر عليها وتم أسر الملك وأخذه على عيلام اسيرا ثم مات هناك، انطوت صفحة المدينة المزدهرة " اور " واصبحت مجرد اطلال وتصاعد في تلك الفترة كتابة اشعار الرثاء – كانت ابيات الشعر المؤثرة جدا وحزينة وهي تحاكي الكارثة الوطنية التي حلت في المدينة ومن تلك المراثي:

تلك المدينة الجميلة تحولت إلى خرائب،

الناس فيها صارت مثل قطع الخزف المحروقة المبعثرة،

تملأ جوانبها اصوات النواح واجساد الموتى،

الحيطان تمزقت،

ثم خرقها،

الناس الأحياء يئنون،

في باب المعبد الكبير،

يتذكرون بحزن كيف كانوا في أيامهم السابقة – تنزهون ويرقصون ويغنون-،

الان صاروا مجرد اجساد متخشبة،

أرى رياح الموت تتجول في دروب المدينة،

لم تعد الأرواح والعيون تحتفل بالأعياد،

الأرواح والأجساد مبعثرة،

في الشوارع يسير الموت

في البيوت يسكن الذل،

الجثث تنام ساكنة في الدروب،

حزينة مدينتي،

اختفت اعياد الأرض، الناس أكوام في اكفان الموت،

وهي تحتضن اكوام أخرى قادمة،

فاضت المقابر بالأرواح،

القيامة جعلت الغني يترك الضعيف للموت،

والملك يترك الجوع كالنار تحرق الجميع،

الآباء والأمهات يهربون من بيوتهم،

النار تستوطن القرى والمدن والدروب والبيوت،

الصغار الذين كانوا يستندون على أحضان أمهاتهم،

صاروا مثل الأسماك الميتة الطافية فوق المياه،

في المدينة المنكوبة،

الزوجة تركت الأبن،

تركت الزوج،

تركت الأملاك،

تبعثر قلبها في رياح الخوف....!

ثقافة سومر

من الحقائق الثابتة والمعروفة عن العالم القديم حدوث الاهتمام الكبير وغير المحدود بتعلم الكتابة والإندفاع للقراءة والإحاطة بكل العلوم المتوارثة، كانت كلمة التعليم أو متعلم أو متنور تطلق على كل من يجيد الكتابة وقراءة الألواح أو فك رموزها ونشر مضامينها، ذاك ينطبق على كل مواطن سومري آصيل، كانت المكتبات في البيوت على شكل رفوف مصنوعة من الطين تبرز من الجدران وتحوي المئات من الألواح الطينية المفخورة التي تعتبر آنذاك بمثابة الكتب التي تتشكل منها موجودات اي مكتبة في البيوت السومرية، تلك الظاهرة تمثل بدقة التطور الحضاري الذي وصلت إليه الحياة في سومر وحواضرها الأخرى، الحكومات المتعاقبة كانت تشجع على نشر التعليم وامتلاك ناصية المعرفة وإقتناء الألواح من مكتبات كبيرة صممت لذلك الهدف، وفقا لذلك يصبح مقياس مقدار التقدم في مدن سومر القديمة وأيضا رصد التطور ونموالمجتمعات مقرونا بتحصيلها العلمي الثقافي ومفردات ذلك:

- عدد المدارس الحكومية والخاصة
- عدد المتعلمين
- عدد المؤهلين للعمل في مكاتب الحكومة

تلك التقديرات توضح المقياس الخاص بالتقدم وحالة الإزدهار الثقافي المعرفي، في العالم القديم عندما ظهرت سومر كمشكاة من النور كان الإنحياز لحالة التعلم ونشر الثقافة شديد مبالغا فيه، نتاج تلك الأيام الغائرة في القدم يعكس بصدق الصورة التي كانت عليها المدن السومرية وجودة التعلم والمعرفة نجد في تفسير الألواح الشواهد العديدة مثبتة في المدن الكبيرة والصغيرة، وانتقلت

إلى مدن أخرى مجاورة قريبة وبعيدة شكل ذلك التجانس الحالة المتقدمة والتطور المعرفي- الثقافي المأمول كما هي الحال في الذروة التي وصلت إليها مدن بابل – آشور – الفراعنة – ايبلا – وغيرها، في سومر كما تذكر الألواح انطلقتمظاهر العمل على قرار محو الأمية وتحقق ذلك فعلا، يضاف إلى ذلك ان الكاتب المبدع حصل على التكريم والمكانة الراقية، أيضا ترافق ذلك مع مكانة سامية للمعلم أو المدرس وجميع أطقم التعليم، تعددت الأوصاف والمناقب حصلوا على مكانة سامية راقية لم يصلها – الملوك – ان الملك السومري " شولجي العظيم " نجح في زمنه قيام الثورة الثقافية المسماة " محو الأمية " التي حدثت في العام 2100 قبل الميلاد، كان في أحد الألواح يصف ذلك الحدث بإعتزاز كبير ويقول ان ذلك هو أهم المنجزات التي حدثت في بلاده، حتى قال في رسالة وجهها إلى شعبه " من يقرأ منكم سيضع أقدامه على تراب السماء "، ظلت تلك الخطوات والمواقف التي التزم بها الملوك بالتعاقب في بلاد ما بين النهرين والتي استمرت حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد حيث تذكر الألواح ان أحد الملوك الآشوريين كان يتحدث بفخر شديد أنه وشعبه أصبحوا يقرأون الألواح السومرية المسمارية وبذلك تطورت ثقافتهم ومعرفتهم وتوهجت حضارتهم، مع ان تلك الكتابة تعتبر في الزمن الآشوري قد اندثرت إلا انهم – اي الآشوريين – عملوا بذكاء على ربط ثقافتهم بجذور الثقافة السومرية الوطنية، ودراسة أحوال الثقافة السومرية دفع حضارات الشعوب الأخرى أن تعمل على ترجمت الألواح والتخصص في الترجمة والنقل من حضارة سومر، ولهذا تشكلت في الحضارات التي ظهرت في بلاد الشام ومصر تجمعات علمية متخصصة في نقل وترجمة الألواح والعلوم والفنون ولآداب التي أنتجتها " سومر "، الشعوب التي اطلعت على منجزات تلك الحضارة تطالب حكامها بإشاعة مفاهيم القراءة والكتابة

وتحريرها من قيود الجهل، حصل ذلك في بلاد الفراعنة في العام 2600 وقد وجدت من مخلفات تلك المرحلة أحد النصوص الذي يتحدث فيه أول ملوك سلالة الفراعنة " sneferu" يسير الى مجاراة شعب سومر والكتابة على ورق البردي ثم سار على ذلك النهج أغلب الملوك الذين اعقبوه، كما عززت وثائق أخرى من زمن الفراعنة ان الكتابة ازدهرت وقد وجد العديد من النصوص التي دونت على المسلات وقبور الملوك ورؤساء إدارات الدولة وعلى بوابات المعابد، تلك الإشارات منها الذي يتحدث عن العالم الآخر – اغلبها يؤكد ان تلك الفترة قد شاع فيها أسلوب تعلم القراءة والكتابة وتطورت من خلاله الفنون المبكرة وكذلك التعاويذ والشعر وطقوس الصلاة، لا يوجد اي شك ان ملوك سومر وكذلك ملوك آشور والفراعنة وغيرهم كانوا ملمين بالقراءة والكتابة، تلك المدارس الأولى تطورت فيما بعد إلى فضاءات أوسع كما هي حال الكليات والآكاديميات الحاضرة في هذا الزمن، تنتج الألواح وترجم وتضع نظريات أو اسس الكتابة والفنون وتفخر بأن لديها كوادر من العلماء والكتاب والمترجمين وأساطين الفنون المتنوعة، كما تبع ذلك ظهور مناصب كبيرة لرموز العلم والكتابة في اجهزة الحكم مثل وزراء – مستشاريين –عناصر تفتيش تتبع الملك – رئيس التعليم – رئيس القضاة – المتكلم باسم الملك، لهم ازياء خاصة وتقاليد خاصة توارثها الشعب السومري تتلخص في طريقة وتفاصيل إدارة المهرجانات والاحتفالات والطقوس وكذلك الخطب التي تلقى في المعابد والأماكن المفتوحة ضمن حالات السلم والحرب وكذلك نزعة متزايدة لكتابة الشعر والملاحم والأساطير ونصوص المسرح وفصول العلم الأخرى، كلها تؤكد ان القراءة كانت منتشرة بشكل كبير ونتاجها تلك الثقافة المميزة التي دونت في ألواح سومر وظلت خالدة تُخبر الكون المعاصر عن تلك الحضارات التي سادت وأنجزت

حلقات مهمة في الثقافة والعلم والحضارة، ان المتعلم وبشكل خاص الكاتب كانت أفاق تقلد المناصب المهمة في الدولة متاحة له، تروي النصوص الفرعونية مثلا عن أحد ملوك السلالة الفرعونية الثالثة، ان مسيرته بدأت في عمله كرئيس لمستودع أغذيه ومن ثم لعلمه وثقافته خرج الى الوضع الأعلى ليصبح قاضيا ثم الى رتبة حاكم له سلطة مطلقة، رغم ان الحكم في العال القديم كان يتبع منهج الوراثة للسلطة، ان مبادرات وأهمية الثقافة في بلاد ما بين النهرين وخاصة ضمن فضاء الحضارة السومرية كانت واضحة وذات تأثير غير محدود في حلقات الحكم الأخرى ضمن إمبراطوريات قلدتها في أدق التفاصيل، كل الحضارات تضيء وتشير إلى موقعها من خلال نشاطها وما أنتجت وعمق تأثيرها في المدن القريبة والبعيدة، انطبق هذا بشكل واضح على حضارة بلاد سومر وأكد وتلك الحقب الزمنية التي جاءت بعد تلك الإمبراطورية المدهشةحقا نشاطها لا يتعلق بما تركت من أدب مدّون في الألواح المسمارية ولا بتلك السجلات التاريخية أو الحروب، لكن ضمن حالة التغيير المعرفي والثقافي ونشر طريقة التعليم وابتكار قوانين الإنتاج في فروع الثقافة والفن، ذاك ما يميز بناء تلك الحضارات التي أوقدت شعلة التوهج لدى المجتمعات الأولى، أغلب الألواح تتحدث مثلا عن قيمة العمل وكفاءة العامل والمدرب الذي أشرف على مهارته وتلك الطرق التي كانت تستخدم في إدامة عمليات التموين أو التجارة أو عمل المواقع الصناعية، وكيف يتم حساب جودة الإنتاج أو الحجم أو الشكل أو اعداد القوى العاملة المطلوبة لإنجاز مخططات العمل كما هي الحال في بناء المعابد القديمة أو الزقورات او الجنائن المعلقة أو المدن الآشورية أو في بناء برج بابل أوالأهرام، تلك الأعمال أو الفعاليات تكشف عن وجود دراية ومنهج علمي في مجالات الهندسة وحساب تلك الأعمال وفق نظام الكلف أو رصد الأموال أو المواد المطلوبة، وتلك

المشاريع الكبيرة – الضخمة – تشير قطعا إلى وجود رجـال هندسـة ومستشـارين لدى الحكومة والملـك عملهـم يـنحصر في المتابعـة والإشراف وإنجـاز المشـاريع – المراسلات – الأوامر- من تلك التي تم توثيقها تؤكد ذلك دون ريب كـما ان تلـك المشاريع وغيرها رافق إنجازها ظهور عقود وخطابات موجهة من الإدارة المركزية إلى تلك الجهات المكلفة بالعمل، كما أن حالات الخلاف بين تلك الجهات يكشف عن وجود محاكم أو جهات تفصل في ذلك الخلاف وقراراتها نافـذة والكثـير منهـا تم توثيقه في الألـواح السـومرية المسـمارية – في المرحلـة الفرعونيـة عـلى أوراق البردي، كـما وثقـت تلـك الفـترة تشـعب جوانـب الحيـاة في المجتمـع السـومري وخاصـة في المجـال الـديني مثـل ذلـك الاتجـاه زيـادة في كتابـة وإنتـاج التراتيـل والدعوات للآلهة وخاصة في مجـال تصـوير العـذاب والبكـاء مـن غضـب الآلهـة وتدوين مفردات الطقوس والحفاظ على آدائهـا، تلـك المفـردات كلهـا تحتـاج إلى الكتابة وإلى وضع مناهج خاصة وخطط للإشراف والمتابعـة وصـيانة الألـواح مـن التلف مـن قبـل الخـبراء، في بـلاد سـومر امتـاز التعليم بوجـود نظـام للتـدريب طويـل الآمـد تشـير إليـه الألـواح المسـمارية، كانـت مهمـة الكهنـة تـتلخص إلى جانـب أمـور أخـرى في مقـدمتها يـأتي نشر التعلـيم وتطبيقـه بشـكل أشـمل في الحواضر البعيدة والقرى والأرياف وتغيير أفق ذلك الواقع الموسوم بعدم المعرفة لشؤون القراءة والكتابة حيث أقر كهنة المعابد ان تغيير وضع الشعب من الأمية إلى معرفـة القراءةوالكتابـة يسـهل كثـيرا عمـل المعابـد وجبايـة التبرعـات ونشر مفردات الدين وقراءة التعاويـذ والاناشـيد، كـما اعتمـدت المعابـد لمتابعـة تلـك المهمة رجال مهرة انتدبوا للإشراف على تنفيذ تلك الخطط وأيضا منحهم صلاحية حسم المنازعات والخلافات وخاصـة تلـك التـي تقـع بـين المـدن والقـرى بسـبب ترسيم الحدود أو أماكن الزراعة أو الرعي أو استغلال مجاري الأنهار، كـان رجـال

الأصلاح في عملهم يتبعوا بنود أقرتها المعابد ويتشاورون مع الكهنة بشأنها، بعض تلك الفتاوى الافتراضية منسوخة عن قوانين مشهورة من تلك التي دونت في مسلات معروفة وهي في الغالب تترك حالة من السؤال عن نجاحها في التطبيق في تلك الفترة، الآراء السائدة قبل ترجمت العديد من الألواح السومرية أن الكتابة كانت تقتصر على الكهنة ورجال المعابد ولكن ذاك الرأي تراجع وظهرت صورة أخرى مختلفة تماما، أيضا سقط الرأي الذي أشار إلى ان التعليم كان يقتصر على أولاد الملوك والتجار والحكام ومن بصفتهم أو على الآباء الكبار في السن حيث ظهرت معلومات ودلائل تؤكد وجود مدارس منتشرة بشكل واسع للتعليم وتساهم في تطوير الحالة الثقافية، تلك المدارس تواجدت في أماكن نائية وساهمت في حملة محو الأمية بشكل فعال، تلك الخطط ظلت سائدة تتوارثها أجيال سومر وتعمل على الإستفادة من تفعيلها، أن الحالة الثقافية الجديدة الواسعة اعتمدت على أسس نشر التعليم المبكر في السنوات الأولى من عمر الأولاد والبنات، هناك الكثير من الملوك حرصوا على تعليم أبنائهم وتدريبهم في مكاتب الدولة ذات الاختصاصات المختلفة وقد وردت أكثر من إشارة في سجل سومر تؤكد تلك الأفكار أيضا ضمن سجل الملوك في زمن الفراعنة، أفكار متشابهة سادت ضمن حالة الوراثة للحكم، يصف أحد الحكام وهو الوزير الأعظم شيخوخته وكيف كان يعمل على تدريب أبنه لاستلام الحكم في مكتبه ذاك الحاكم ينتسب إلى الأسرة المصرية الخامسة التي حكمت خلال القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، ذاك النص القادم من أفياء حضارة الفر يشير إلى وجود تعليم خاص يوازي التعليم العام النظامي، وهو يعني ان أبناء الملوك كانوا يتلقون تعليما إضافيا خاصا للإشراف على مهمات الحكم أو المواقع الإدارية الأخرى وكذلك الحال لدى أبناء الكهنة وجميع تلك الوثائق تشير

إلى ضرورة العمل أو الحصول على وظيفة يقترن الأمر بالتعلم ومعرفة القراءة والكتابة ومفردات العلوم الأخرى، في حالة الوزير الأول اعتبرت الحادثة هو يقوم بعمل المعلم والمشرف وهو الذي يمنح أبنه القرار النهائي في الصلاحية للحكم - في مراحل لاحقة داخل سومر ثبتت اشارات تؤكد تعليم الفتيات حيث وصل بعضهن إلى الحكم أو الكتابة للشعر كما هي الحال لدى ابنة الملك سرجون الاكدي أو الملكة " شبعاد " أو فيما بعد في ظهور الملكة " سمير أميس " لم ترد أي إشارة قاطعة بخصوص المراحل العمرية التي اعتمدت لمباشرة تعليم الفتيات في سومر، ولكن توجد إشارات تتعلق بتعليم الأولاد والمراحل العمرية دونت في مشاهد تخص حجرة الدرس وتوجيهات المعلم او المشرف على المدرسة أو ملاحظات أولياء أمور التلاميذ عن مراحل الدراسة لابنائهم وتوجد وقائع منها مايذكر قيام الأمهات بتدريس أبنائهن في سن مبكرة، كتلك التي تتحدث عن إقامة إحدى الأمهات لغرفة تدريس وصار يتتلمذ على يدها وتوفيرمصادر التعلم له وفق خطط تتفق مع السن والفهم والأدراك، كانت تلك المدرسة المصغرة هي حجرة في المنزل يخرج منها الطفل إلى مدرسة أكثر تخصصا وأدق في مجال الإشراف المعرفي والعلمي ولها حالة تنافس بين الأولاد مؤثرة للتحفيز، نص آخر يروي ان الآباء كانوا يوفرون لأولادهم الخبز والحليب واللبن كمتاع يتواجد معه أثناء التواجد في المدرسة، كما يستمر التدريس في تلك المدارس عدة سنوات متوسط زمنها 4 سنوات حافلة بالتدريب المتواصل، والاختبارات وتثبيت المهارات وتتحدث عن مواصلة المدرسين والتلاميذ لمهام عملية الدراسة وفرض قوانين عقوبات يتعرض فيها الطالب المهمل للضرب المبرّح، كانت العقوبات البدنية هي الرادع للكسل والإهمال وخاصة للمدارس التي ينتظم فيها كبار السن من التلاميذ أو الذين تصدر عنهم مخالفات أو تجاهل للواجبات

وكانت المؤسسات التعليمية في سومر قد فرضت وبموافقة الملك " شولجي " قانون إجباري يقضي بإرسال الأولاد إلى أماكن التعليم ومن يرفض الإلتزام بذلك يتعرض لعقوبات شديدة من قبل الدولة، كما صدرت توجيهات من الملك بتوجيه الأولاد منذ الصغر وخلال الدراسة إلى اختيار المهن ومتابعة تعلم الإحاطة بها، رغم صعوبة المواصلات خاصة بين القرى النائية ومراكز التعلم كان الأبناء يأتون بأبنائهم على ظهور الدواب أو من خلال زوارق تمر في الأنهار، كانت ثمة حالة تعاون بين المعابد والمدارس في تحديد نصوص العبادة أو مفردات التدريس وتداول نصوص الأدب والملاحم والأساطير أو الشعر او الحكم او التعاويذ التي لها علاقة بالصحة أو السحر أو معرفة الطالع والفلك، كانوا في حلقات الدرس يتداولون الأعمال الأدبية الخالدة والمهمة القديمة ويمرّ الطالب بمرحلة إنشاء وكتابة الرسائل في إنجاز الوثائق الرسمية التي تتطلب الحفظ وتتم تلاوتها أثناء الدراسة بصوت مرتفع وضمن وجود جوقة ومعلم يشرف على ذلك، أيضا يتم اختيار أحد التلاميذ من القدماء ليكون القدوة في القراءة ومهارة الخط وصناعة الوثائق وهو يجب ان يكون من الذين ثبتت لديهم الكفاءة والذكاء، أيضا يخضع التلميذ لتعلم فنون الحرب والفروسية ومعلومات عن المدن القريبة والبعيدة بما يشبه الجغرافيا المعاصرة، كان التجريب يقود إلى إنشاء رسائل بين تلميذ وآخر وهي طريقة كما يرى علماء الإريكلوجيا كانت مفيدة بإنجاز رسائل حقيقية للمتدرب والنماذج الأخرى تعتمد على رسائل يتناول فيها الدارس مقاطع من الاعمال الادبية ويثبت رأيه او ملاحظاته عنها، وقد سجل في الكثير من الألواح نماذج من الحكم او الأقوال أو الأفكار المتعلقة بالحياة اليومية أو فصول لدراسة النحو وأسس المهن الصناعية، أيضا تضمنت الألواح إشارات إلى رسائل هجاء ونوادر وقصص مضحكة، وتساؤولات محيرة في الحكم

والقانون والحروب والآلهة وتفاصيل الحياة اليومية، كانت تلك النصوص عبارة عن مناهج منفصلة تقدم للمتعلم المبتدأ وهي ترافقه في رحلة الدراسة وتتغير تبعاللمرحلة التي يصبح فيها، أحيانا يتم تعديل تلك النصوص حسب اجتهاد المعلم ويتم استخدامها بالتلقين والكتابة أو تحفظ في الذاكرة ويتم نسخها من ألواح تم اعدادها سابقا، جميع تلك الطرق تؤدي إلى قضية واحدة تتعلق بمنهج التعليم الذي كان متبعا أنذاك، تقدم المساعدة في التدريب وتوسيع الخيال وحفظ المفردات وأيضا فتح المجال أمام إضافات المتعلم والمعلم في آن واحد كما ترسخ الإلتزام بأصول الكتابة الصحيحة وتعلم طريقة إبتكار نصوص أو فقرات جديدة في مواضيع يتم إختيارها من قبل إدارة المدرسة أو المعلم المشرف على تعليم القراءة والكتابة، وترسخ الإتجاهات المطلوب توفرها في الكتابة الصحيحة، كانت الكتابة يتم إنجازها على صفحة اللوح الطيني من اليمين إلى اليسار وممكن ان تتضمن عددا من الأعمدة الرأسية أو الرسوم ذات الدلالة، وفي درس الأملاء يكتب التلاميذ من الذاكرة بما يشبه الإتجاه الحالي في المدارس المعاصرة لحصة الإنشاء أو التعبير، كما يطلب المعلم من التلاميذ البحث عن معلومات مثبتة في الألواح المخزنة في مكتبة المدرسة عن موضوع معين، عملية البحث تلك تكون في المصادر ذات العلاقة، وتلك المعلومات الموجودة يثبتها الطلاب مع إضافة الرأي أو تضمينها حادثة أو فكرة جديدة ، تلك المحاولات تقدم التصور المطلوب عن ترسيخ مفهوم والتأليف والإنجاز ويؤهل بعض الطلاب لمهمة القيادة الفكرية أو أختيار مهنة الكتابة والتأليف، تلك مرحلة تقدم الدليل على منهج النسخ وحفظ النتاج في الرؤوس أو على الرفوف، كانت عملية شحن الذهن والبصر بالمعلومات والتجارب الكتابية تمثل الطرق التربوية الناجحة، وهي جزء لا يتجزأ من التدريب والإعداد الثقافي المعرفي والتي قادت إلى حالات من

التدوين المباشر عندما تمكن الفن من التدوين الآني وتسجل اللحظة من خلال التوثيق في المعارك وعند إطلاق القرارات من قبل الحاكم أو أثناء حالات التحشد أو أثناء جمع الضرائب أو الحصاد أو الكوارث، كانت سجلات وتجارب الفنون قد توصلت إلى طرق وأساليب كثيرة في الإنجاز المباشر وإستخدام الألوان التي تعزز جهد البصر والعقل واليد في تكوين اللوحة أو الصورة، كما توسعت في أشكال الفخار أو استغلال الأخشاب في النحت، أو الحجر الجيري وإيجاد المواد التي تناسب الطلاء المطلوب للحالة التجارية والمناسبات الرسمية، كما استخدمت أغلى وأرقى المواد لتسهيل عملية الكتابة والتدوين وبشكل خاص التي تساعد على حفظ المعلومات المدوّنة وكانت على أحجام متعددة، تلك المنجزات لم تعد تستخدم في إمبراطورية سومر بل تم تداولها في المدن المجاورة القريبة والبعيدة وأيضا أصبحت تعرض في الأسواق وبشكل تجاري يحقق الربح للجهات التي تقف وراء الإنتاج، ذاك الفيض من الإنتاج الثقافي المعرفي الفني شجع على تقدم وإزدهار الفن والترجمة والبحث عن أساليب متقدمة في التعليم، من الإشارات المهمة في حضارة سومر أن الفنان والكاتب والمترجم في المعارك يكونوا جنبا إلى جنب مع القوات العسكرية ويمارسون ذات الأختصاص إلى جانب القتال في الظرف غير الاعتيادي، كانت الكتابة قد أفرزت نمطا معينا من المراسلات الدبلوماسية والحربية والتجارية والعلاقات العامة، لغة الكتابة كانت هي اللغة المسمارية السومرية المستخدمة أيضا في المدن المجاورة لبلاد سومر وهي لغة المخاطبة اليومية - لغة القرار والصلاة والتدوين والفن – وجدت مثبتة على الجدران والقصور والمعابد والتماثيل وفي صفحة المسلات وعلى قطع الزينة والمجوهرات وآلات الموسيقى، وجدت أيضا في الرسائل المتبادلة بين ملوك سومر والفراعنة وملوك الحيثيين، كتبت بالخط المسلعلامات الدالة على العلاقات

الرسمية والتجارية في تلك الفترة وعلى إنتقال الأفكار والمضامين والتأثيرات الفنية والثقافية لدى الفراعنة، كانت توجد مدارس لترجمة النصوص المسمارية السومرية، في مرحلة الربع الثاني من الألفية الثالثة في الزمن السومري تم تثبيت قوائم بالمفردات التي تسهل التدريب والتعليم الرسمي ويبدو أنها كانت متداولة على نطاق واسع، لاشك ان الكتابة السومرية واجهت صعوبة الإنتشار، ولكن بعد العام 2000 جعل الملك " شولجي " ذلك الإنتشار ممكنا من خلال النهضة الكبيرة لمحو الأمية وأيضا بواسطة استخدامها في كتابة الترانيم والأدعية وبنود الديانة الأخرى وفي التعاملات التجارية والتوثيق، كما أعطى توجيهاته على ان يتم جمع فعاليات الحياة من خلال الكتابة المسمارية في سومر والمدن القريبة منها، عهد شولجي كان بمثابة مرحلة صعود الكتابة والتعلم في بلاد سومر، هو اقر قانون يلزم السكان بإضافة اسماء المهنة بعد أسمائهم وفي الألفية الثالثة دخل الشعب السومري مرحلة التغيير الكبيرة والإنتقالة الثقافية الكبرى ساهم المعبد كبيرا في دعم مشروع محو الأمية، أيضا في ترشيح الحكام والأداريين ومتابعة نظام التعليم في المدارس وتوجيه الملاحظات أيضا رفع التقارير والمعلومات عن موظفي الضرائب أو الكهنة في المعابد الأخرى البعيدة عن مركز الحكم وتخصيص الأموال لمساعدة الفقراء واليتامى وأصحاب العاهات وتخصيص المأوى للأيتام منهم، كما ألزمت حكومة " شولجي " أي فنان أن يكون قد حصل على تعليم مهني معترف به من قبل جهات الاختصاص قبل الشروعفي مزاولة المهنة أو الخضوع للتدريب في مدارس خاصة، أيضا لم يتم استثناء الأناث من عملية التعليم – محو الأمية – لا يجوز ان يتم تعيين حاكم للمدينة أو في المعبد أو الوظائف الإدارية أو في مراكز قيادة الجيش أو نقاط التفتيش أو مراكز جباية الضرائب أو الحصول على موقع الكاهن في المعبد – لمن لا يعرف القراءة أو

الكتابة ولم يحصل على تعليم متقدم في المدارس السومرية لم يستثني قانون – شولجي – حتى الرعاة في المناطق البعيدة عن المدينة، كانت الدعوة إلى محاربة الأمية تنتشر بين السكان لسبب فهم أهمية القراءة والكتابة تارة وفق اسلوب الترغيب والترهيب وفرض العقاب ومن ذلك فرض الضرائب في حالات كثيرة، كان الآباء يتوجهون للمدارس خوفا من ان يطالهم العقاب أو تصادر الدولة ممتلكاتهم وتحرمهم من مزاولة العمل، كما شاعت صفة الرجل المتعلم او البنت المتعلمة - في تلك الفترة من نيبور التي أنشأ فيها الملك شولجي أول مدرسة انطلقت نهضة سومر حيث تعددت بعد ذلك المدارس في مدن أخرى، كما أمر جميع المعابد بأن تنظم دورات لتعليم أبناء المدن والقرى وأن تكون حصة التعليم أكبر من حصة الصلاة وتلاوة الأناشيد الدينية، حتى البيوت في سومر تحولت إلى مدارس خاصة يقود عملية التعليم فيها أشخاص متعلمون يتم انتدابهم لقاء أجور يتفق عليها ويجتمع في حلقات الدرس سكان الزقاق أو الأقارب، يطلق على المدرسة أو الأكاديمية " بيت الألواح - بيت المعرفة – بيت الكتابة والقراءة " ويسمى رئيس المدرسة " أب بيت الألواح أو الخبير" ينظر إليه باحترام كبير وتنفذ أوامره بدقة وله مخصصات معيشة من الدولة يقف التلميذ أمامه ويقول له:

- كنت جرو صغير مغمض العينين وفتحت لي عيناي على فيض النور، أنت جعلتني أفهم البشرية إينما كانت...

كان هناك اساتذة متخصصون في المدرسة السومرية مثل استاذ الرياضيات يسمى كاتب العد الرقمي..

استاذ العلوم والفلك وما وراء الطبيعة يسمى استاذ المجال..

وفي مجال المسائل الروتينية يتلقى التلاميذ التعليم الأساسي من المعلم الذي يطلق عليه " لقب " الأخ الأكبر " وهو يتمتع بسلطة أقل من سلطة مدير المدرسة، حكومة شولجي أقرت مبدأ التحفيز أمام الطلاب – أي طالب متفوق تتاح له الفرصة ليعمل معلما متدربا في المدرسة التي تلقى تعليمه فيها، كما يمكن ان يقوم بمهام " الأخ الأكبر "، ومن مهماته الإشراف على إعداد الألواح للتلاميذ الجدد ومتابعة عمليات نسخ الألواح وتصحيح الكتابة فيها والاستماع للطلاب عند قرائتهم للنصوص التي تعلموها عن ظهر قلب، بعد العام 2600 قبل الميلاد نجد التوثيق السومري يتحدث عن مواقع جديدة أصبحت تقود عملية التعليم في خارطة سومر مثل " ايريك – شورباك – نيبور – الوركاء – اوروك – لارسا – ايسن – وغيرها " وقد تم العثور فيها على ألواح تشير إلى مقتطفات من النصوص التي كانت تدرس في المدارس والتي تم العثور عليها خلال مرحلة التنقيب، أطلق عليها علماء الآثار مصطلح " نصوص سومر المدرسية " وبعض تلك الألواح متكررة ويبدو أنها نماذج اشرف عليها خبير سومري وفي البعض منها تمارين للطلاب تتضمن أفكار في الكتابة والتعبير وحلول لمعادلات حسابية، بعض الألواح تم نسخها عدة مرات بواسطة أيدي مختلفة تشير إلى ذلك اختلاف طريقة الكتابة، فيها ذات النصوص الأدبية أو حلول لمسائل رياضية وثمة ألواح حملت كتابة المتعلم على الجانب الأيمن وكتابة المعلم المشرف على الجانب الأيسر من اللوح وتوجد إشارات للتعديل أو التوضيح وضعها المعلم فيها التقدير لجهد المتعلم وبعض العبارات تدل على إنزعاج المعلم وغضبه من طريقة تفكير المتعلم، تشير الكثير من الأدلة التي كتبها أولئك الطلاب إلى ان مناهج الدراسة في سومر كانت الى حد كبير تهتم بالنسخ للكثير من التمارين في مجال الكتابة والرياضيات وعلوم الفلك والعالم المحيط وخرائط المدن بما يماثل " الجغرافيا

المعاصرة "، كما وجدت قواميس تم إعدادها لشرح معاني الكلمات أو المفردات الأجنبية النادرة وخاصة في الفترة الآكدية التي اهتمت كثيرا بترجمة المفردات السومرية أو شرحها وتثبيت ما يماثلها في المعنى المقصود، فيما بعد تطور الأمر خلال الفترة الآشورية إلى ظهور قواميس تجمع بين المفردات السومرية – الآشورية – الرومانية – الآكدية -، وفي كل الاحوال كان المصدر الاساس يتعلق باللغة السومرية ومنها تتم الإشارة إلى ما يماثلها في اللغات الأخرى، تلك القواميس شكلت بوابة مهمة لمعرفة تفاصيل كثيرة عن اللغة السومرية وطريقة كتابتها ونطقها الأمر الذي انعكس بشكل إيجابي على تفسير الكثير من المعلومات التي تضمنها مضمون تلك الألواح، النصوص السومرية وكذلك الآكدية وشملت أنواع عديدة من رسائل وتوجيهات الدراسة وحياة الطلاب وطرق إهتمام ذويّهم بمرحلة الدراسة وكانت تمثل قواعد صارمة توضع من قبل هيئة الدراسة وتطالب المتعلم بالتنفيذ والتقيد، وفي سجل الألواح نجد أحد النصوص يشير إلى منهج يوم من أيام الدراسة وعلى النحو التالي:

- مخطط شهري لحضور الدراسة في المدرسة..
- أيام العطلة ثلاثة في كل شهر..
- العطلة الدينية ايضا ثلاثة أيام في كل شهر..
- عشرين يوما تكون مزدحمة في الدراسة والبحث كل شهر..

بعض المتعلمين في المدارس السومرية وجدوا ان فترة الدراسة قاسية ومملة، كما وردت إشارات عن ممارسة العقاب معهم من خلال بعض الإلواح التي اشارت إلى وجود رجل السوط الذي مكلف بتنفيذ العقاب وهو المسئول عن تحقيق الإنضباط الصارم ويتحقق ذلك من خلال تنفيذ العقوبة الجسدية على من

يخالف لوائح المدرسة أو يحاول اختراق قوانينها، تلك العقوبات الرادعة تحاصر سلوك مـن يحاول الإساءة، كانت العديد من اللوائح والنصوص يفـرض تعلمهـا عـلى التلاميـذ والعمـل على نسخها في قوائم طويلة هي تصنف أو تقدم معلومات عن جوانب مختلفة من العـالم المحيط بسومر وشعبها وهي تحاول تغطية أي شيء مثل قوائم عن:

أسماء الآلهة

- عن النبات والأشجار
- عن البلدان والمدن والبحار والأنهار
- عن طرق المواصلات
- عن الحيوانات وأشكالها وأماكن تواجدها
- عن المعادن وأنواعها وطريقة البحث عنها
- عن المدن الموجودة فيها المناجم والمعادن وطرق البحث والأكتشاف
- تثبيت أنواع من المعادلات وكتابتها وتجميعها على شـكل قـواميس الأمـر الـذي أعطاهـا الأهمية في مجال البحث العلمي إضافة على احتوائها على أشكال من الصيغ النحويـة للمساعدة في إتقان اللغة السومرية..
- وجدت الدروس التي اعتـبرت أكـثر إشـارة إلى حالـة الإهـتمام المعروفـة عـن فـترة التـدريس في سـومر والتـي تقـدم صـورة عـما كـان يجـري في اليـوم الـدراسي الواحد حيث يقدم الطالب المتعلم تلك الأفكار في تقرير وعـلى النـو التـالي كـما وجـد مكتوبـا عـلى أحـد الألـواح السـومرية " ذهبـت الى المدرسـة، اسـتعرت لوحا من المكتبة، قرأته، تناولـت طعـامي، اعـدت اللـوح مـن جديـد، كتبـت في

اللوح الفارغ وثبت حلول التمارين، وعندما أنتهت فترة الدراسة ذهبت الى البيت، وجدت والدي في أنتظاري، لقد قرأت المعلومات المدونة في اللوح له، كان سعيدا معي إلى ابعد الحدود " وكما يبدو من تلك المذكرات أن الأمور لا تسير بشكل روتيني وكالمعتاد، ففي يوم آخر نجده يكتب في لوح آخر " عندما استيقظت في الصباح ذهبت إلى أمي وقلت لها: يا أمي هل جهزت لي طعامي..؟ اريد أن أذهب إلى المدرسة، اعطتني أمي أثنين من لفائف الطعام المرتب وانطلقت نحو المدرسة.." ورغم عجلته ومحاولته الوصول إلى المدرسة في الوقت المحدد إلا أنه يصل متأخرا ذلك اليوم وينال العقاب ويتعرض للضرب، كانت العقوبة تطبق على حالة التأخير أو سوء التصرف أو لكونه يرتدي ملابس غير مرتبة في الشارع أو لسوء سلوكه داخل حجرة التعليم أو ساحة المدرسة، مع تكرار تلك العقوبات يحث الأبن الأب ليقدم رشوة إلى مدير المدرسة ويوافق الأب على الفكرة ويدعو مدير المدرسة إلى تناول وجبة العشاء معه ويعامله باحترام كبير ويعرب له عن امتنانه لما يقوم به من عمل مهم وجدير بالاعتزاز، مقابل ذلك ينخرط مدير المدرسة بمدح الأبن ويتوقع له المستقبل الزاهر، تلك الملامح أو الصور تقود إلى معرفة أسس الثقافة السومرية التي تم تثبيت علاماتها وأثرت في الثقافات التي ظهرت فيما بعد في مواقع أخرى في تلك التجارب المتلاحقة التي أوجدتها الثقافة السومرية، كانت العبارات والكلمات والجمل القصيرة والطويلة تتغير ويدخل عليها الكثير من الحذف أو الإضافة، تلك التغييرات تدل على وجود ضرورة ملحة أو هي تستدعي أن تكون حالة مباشرة للتغيير رغم ان تلك اللغة تعرضت للكثير من التغيير إلا أنها كانت ثابتة في تلك التركة المدهشة من كنوز الظلام التي يتواصل كشف مفرداتها ومن تقاليدها

أثناء تعليم الطلاب القراءة والكتابة أحد طرفيها إعطاء المتعلم قوائم ونسخ أشكال من المفردات النحوية التي تم أختيارها بذكاء، وتلك فيما بعد استخدمت في اللغة الآية السومرية ويحتفظ المتحف في العراق بنماذج منها وهي تتصف بترتيب الأفعال أو الأسماء من تلك التي تشكل جزءا من الحياة القديمة وفيها مخططات عن الصناعة أو الفخار، الكثير من الأنشطة العلمية كانت قد دوّنت على ألواح من الطين المفخور ويتم تداولها في تلك المدارس مع الإضافات والتعديل على المنسوخ ووضع ملاحظات وأفكار ونصائح في مجال الطب المتداول والأمراض والأدوية، تشير بعض الألواح إلى تطور الطب في تلك المراحل وأيضا العلاج بالأعشاب، في المرحلة التي تتوسط الألف الثالث قبل الميلاد حصل تقدم كبير تطلب إعادة التقسيم لكل تلك النصوص والتعليمات والأفكار، كما تم نشر المعرفة وأصبح الآخذ بتوجهات السلطة غير قابل للنقض أو الأعتراض كما تم التغيير في بنود القرارات التي كانت تحدّ من تطور مجالات الأبتكار وتم التخلص من تلك النصوص أو القوانين التي تعيق المبادرة أو التفكير بالإبداع أو التجديد أو إضافة فرضيات جديدة، وتم تطبيق ذلك على كل فروع المعرفة، مثلا في مجال الجغرافيا الكونية وضع السومريون قاموسا يقدم المعلومات للمتعلمين مثل لوائح تتحدث عن الصحارى وسلاسل الجبال والبحار والأنهار والطرق التجارية والغابات المهمة، تلك المعلومات المهمة دفعت شعوب المنطقة للإستفادة منها - جميع الحضارات اللاحقة وكذلك تثبيت استخدام المعادن ومواقع وجودها، وتعليم طرق الملاحة وصناعة السفن والمراكب والإبحار بها، يسجل لتلك المرحلة بداية الترجمة والإعداد عن الألواح القديمة وتدوين العلوم والمعلومات غير المتوفرة وخاصة في مجال نظريات البناء والعمران

واستخدام المواد في صناعة مواد البناء والطلاء وخاصة المعادن مثل الحديد والخشب والنحاس، تلك المرحلة أيضا تثبت تشريع قوانين منح القروض والإعفاء من الضرائب أو الرسوم الكمركية على التجارة، وفتح دورات لتعليم إعداد الوثائق القانونية والإدارية، وتحديث نظريات الهندسة والرياضيات واستخدامها في مجالات العمران وقنوات الري وبناء المعابد والقصور، ويظل في مقدمة إبتكارات العقل السومري الكتابة وصناعة ألواح الكتابة من خلال استخدام تقنيات مختلفة في خلط المواد " الطين " وتحويلها إلى ألواح أو قطع أختام أسطوانية تختلف أطوالها وأحجامها وصناعة مكابس خاصةلذلك، وجدت في موقع " إيسن " غرفة على شكل مك فيها الكثير من الألواح على رفوف والكثير من الاختام الإسطوانية المخزنة في جرار فخارية كبيرة، أيضا استخدم في الكتابة ألواح مصنوعة من الخشب أو العاج المطلي بالشمع وجدت نماذج تقلد تلك الألواح في مدينة " إيبلا " شمال سوريا تعود لفترة الألف الثالث قبل الميلاد في فترة ظهور الحضارة " الحيثية " وأيضا وجدت في موقع آخر داخل سوريا " أوغاريت " تلك الألواح كتبت باللغة المسمارية وهذا يدلعلى ان شعوب تلك المناطق كانت مطلعة وتعرف بشكل جيد الكتابة المسمارية السومرية أيضا في فلسطين وجدت ألواح سومرية تعود إلى فترة 1400 قبل الميلاد ويعتقد ان تلك المواقع كانت بمثابة مدارس، دونت تلك الألواح المسمارية تعليمات الآلهة وتفاصيل الصلاة والأدعية والأناشيد التي كانت تعملبها معابد سومر والمدن السومرية كافة وهي تكتظ بالسكان وعادة يبلغ مدى مساحتها مئة فدان أو أكثر وهي من عدة طبقات اجتماعية الهيكل العام للسكان يقوم على التجمع القبلي وفيها المباني الحديثة القوية البناء والتصميم ولكل مدينة حكومة ولها حدود إدارية وقد تتضمن

تلك الحدود عدة مدن، في جنوب بلاد مابين النهـرين هنـاك العديـد مـن المـدن التـي نقشت تاريخها على الألواح المسمارية وظلت خالدة، في تلك الفترة كانت المدن تتبارى في التطور والقوة كما في مدن العراق وسوريا وإيران وأجزاء من بـلاد الأناضـول ورغـم وجود كيان المدن المتحضرة المتطورة كان هناك الكثير من السـكان يعيشـون في القـرى البدائية خارج حدود المدينة – القرى الزراعية كانت مؤثرة جدا في حاضرة المدينة مـن خلال الإنتاج وتبادل الموارد مع السلع والمصنوعات الأخرى..

في الفترة من 1100 قبل الميلاد بدأت مرحلة التخطيط العمراني في سومر، ظهـرت مباني بشكل متواز مع امتداد النهر، كانت المبـاني مـن عـدة قطاعـات تمـر فيهـا الأزقـة المرصوفة وتصب تلك في طرق أوسع تؤدي إلى قلب كل مدينة أو إلى وسـطها أو موقـع كيان الدولة ومؤسساتها الحكومية، ذلك التخطيط البدائي استخلص نتائج تطـورت فـيما بعد ضمن مرحلة بعيـدة المـدى أخـذت في الحسـبان الكثافـة البشريـة وتطـوير مراكـز الخدمات وأيضا توسع الجهات الحكومية وتطـوير توسـيع الأسـواق والمنافـذ التجاريـة، امتدت تلك المدن لتكون حلقة الوصل بين النهرين ولذلك تواجدت الطرق التي توصـل بين حافتي " الدجلة والفرات " كـما نجـح ذلـك التخطـيط في مـدّ قنـوات الـري بيـنهما وتطوير حقول الزراعة بسبب توفر المياه وظهور أماكن قروية جديدة شكلت تجمعات مهمة فيما بعد لدعم بقاء الدولة وتطور المجتمع، أزدهرت تلك المـدن بسـبب النجـاح في التخطيط واستخدام القوى البشرية في التغيير وزيادة الإنتاج الزراعي الذي سـاهم في بداية المرحلة الصـناعية، تـم العثـور عـلى بقايـا مخططـات تلـك المـدن وأيضـا الأنهـار والقنوات المندثرة وبعضها تتواصل الحياة فيه فقـط حصـلت تغيـيرات في مجـاري تلـك الأنهار، كانت مدن كبيرة ومزدهرة قياسا إلى ذلك العالم القديم، اسئلة كثيرة تطـرح عـن

فلسفة وفكرة ونموذج التخطيط الذي اتبعه السومريون في بناء تلك المدن الكبيرة والصغيرة وكيف اهتدى العقل السومري إلى ربطها بواسطة الطرق وجعل الحياة تدب في كل مكان يقام عليه العمران أو يتجمع فيه البشر، كانت مواد البناء متشابهة وتصاميم البيوت والقرى تكاد هي الأخرى تكون متشابهة " الأكواخ – البيوت – القصور – مراكز الدولة – المعابد، حتى بناء المسرح أو الزقورة، وكذلك الطرق التي تم شقها أو رصفها بالحجر أو الطابوق أو وضع الزفت خاصة في المناطق القريبة من مداخل أو بوابات المدينة، رصد علماء الآثار في تخطيط تلك المباني أنها كانت موجهة أبوابها في إتجاه معين غالبا مايكون نحو الطريق الرئيسي، أو بإتجاه مشرق الشمس، كانت المسافات بين البيوت والبناء مطلوب النظر إليها باهتمام، ومن لم يكن له بيت يسكن فيه يجد له ملاذ في بيوت المعوزين أو الأيتام أو المشردين، أيضا برزت قوانين لدراسة وضع الأماكن الفارغة بين البيوت والعمل على استغلالها لنشاطات أخرى تضمن العامل الصحي ورفاهية السكان، عبر ذلك التخطيط المرحلة العشوائية في البناء مما يدل على وجود رؤيا في مجالات البناء والهندسة العمرانية – وجدت إشارات لعلاقة الشوارع الصغيرة مع الكبيرة وطريقة التنظيم للحركة والسير فيها، أيضا وجدت قضية اخرى تشير إلى ابعاد الأسواق عن أماكن السكن أو أبنية الحكم والقرار، كما ان الأكواخ العتيقة صارت تختفي ويظهر بدلا منها البيوت الفخمة ذات البناء الأحدث وفيها متطلبات العيش الأكثر رغدا أو الأفضل في مجال الخدمات الصحية – أيضا سادت قوانين في تلك المدن منعت التعدي على الأماكن أو المساحات الفارغة المتروكة التي لم تستغل في البناء، كانت السلطة المركزية حازمة في ردع من يتجاوز على الأملاك العامة أو الخاصة منها، وهي تراجع بشكل متواصل خطط العمران والبناء ومنع الاستيلاء على أملاك الغير بالقوة وردع

حالات الجشع، كما كانت تلك الحكومات تضع الخطط لإنشاء مدن جديدة صغيرة وكبيرة يتم إسكان الذين لم تتوفر لهم أماكن السكن فيها، توزع عليهم لقاء أثمان بسيطة أو أحيان توزع كهبة من الحاكم في مناسبات الأعياد أو تحقيق الإنتصارات على قوى معادية، كما يرى الملك أهمية إنشاء مرفق خدمي وفق حاجة المدينة، كما حدث في زمن الملك- سنحاريب - الذي بنى فندقا كبيرا لسكن المسافرين الذين يصلون نينوى وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، كان بناءا واسعا عظيما فارها ذلك البناء جعل المدينة ينظر إليها على أنها عاصمة كبيرة ومهمة، كانت الأفكار والنظريات التي وضعها السومريون في مجال البناء والتعمير قد أثرت في الحضارات اللاحقة كما هي الحال لدى البابليون والآشوريون والحيثيون من خلال تلك المدن التي تم اكتشافها والتي تشير إلى منهج علمي يتطور بشكل مستمر لكنه يأخذ بأسس وتعليمات فن البناء والحضارة في سومر الذي يعتبر هوخط الشروع في البناء الكوني لمفرداتالتطور والنمو الحضاري للمجتمعات البشرية، من المزايا التي علمها السومريون للمجتمعات الكونية هي نشر الآمان من خلال تلك المدن وتنظيم الحياة والحقوق الفردية والجمعية وتأكيد دور " الحوزة الدينية " وتثبيت دور الكاهن والعبادة والدين وجعل ذاك الدور في خدمة تسيير الحياة وليس ضدها وتثبيت حقوق الملكية وبداية تبلور العامل الأقطاعي الذي صار ينمو في حضن التجمعات القروية والعشائرية، وتخليص ملكية الأرض من سيطرة المعبد بشكل تدريجي، وإطلاق سلطة الأثرياء في إمتلاك العقارات والأراضي الزراعية وسيطرتهم على الأيدي العاملة في حقولهم أو أملاكهم وتشريع قوانين تدير العلاقة بين أصحاب الأملاك والأجراء دون ان يكون هناك مغلوب في تلك العلاقة - أي بمعنى ضمان حقوق الأجراء وعدم تمكين الأغنياء من السطوة

على حقوق من يعمل لديهم تلك التشريعات تعتبر الآن حالة تقدمية وردت نصوصها في مسلات القانون المتعاقبة لدى " أورنمو - أوركاجينا - كوديا " وغيرهم، تلك الحالة أفرزت أرتباط الإنسان بالأرض واعتبارها مصدرا مهما للحياة والإنتاج في المدن، كان المجتمع يتشكل من الإداريين في أماكن العمل الحكومي والحرفيين والمهنيين المهرة الذين يعملون في الورشات أو المصانع وفرت المدينة كل مستلزمات الحياة التي لا تتوفر في القرى، كما اوجدت المعامل التي تعمل على الصناعة الزراعية مثل كبس التمور وتجفيف الثمار والأسماك ومنتجات البساتين كما اعطت الفرص لمن فقدوا أرضهم الزراعية أن يواصلوا حياتهم في العمل كأجراء ضمن ظروف عمل ميسرة ومضمونة الآجر، المدن أيضا وفرت حماية الناس من أي عدوان خارجي والدفاع عن حياتهم وممتلكاتهم من خلال وجود القوات العسكرية، منع حوادث السلب والنهب التي تحصل عندما تنهار سيطرة الحكومة على الأوضاع الأمنية وظهرت سطوة الملك أو قائد الجيش والحاكم العسكري للمدينة وتراجعت سيطرة الكاهن وجدت في رثاء المدن إشارة لذلك، في الكتابات المسمارية - كما وجدت خريطة تشير إلى تدمير المدن بعد الحروب والغزوات وحالات الإجتياح المدمر، من سجلات " نيبور " وسط بلاد ما بين النهرين وفي حوالي العام 1500 قبل الميلاد تظهر الخريطة الآثارية ان المدينة تم تصميمها بشكل عمراني باتجاه الجنوب الغربي لنهر الفرات وكانت تشكل خط الدفاع الأول تجاه قوات الغزو، كانت أسوارها محمية من خلال الخنادق العميقة على جوانبها حتى الوصول إلى الجدار العالي ولها ثلاثة جدران على التتابع ولها سبعة أبواب وتم تخطيط وبناء المدينة بعيدا عن الميدان إلى جانب وجود التضاريس الصعبة كما يشكل نهر الفرات إحدى الموانع الطبيعية لحماية المدينة إلى جانب الجدران والقنوات والممرات المائية الواسعة والضيقة

ووجود قناة تمر وسط المدينة كما تظهر في مخطط المدينة المعابد الرئيسية ومساحة لوقوف عربات الجند بما يشير إلى وجود معسكر كبير لحماية المدينة وذلك في الطرف الجنوبي من المدينة حيث ترتفع بعد ذلك الجدران ثم تنتشر المباني العامة في مساحات أخرى، أن ذلك التصميم الذي تتضمنه الخريطة يكشف أنها مستعدة للدفاع ضد أي هجوم أو غزو، استخدم السومريون أسلوب السخرة في بناء المدن والسفن والمراكب في توفير الصخوروالأخشاب والمواد الأخرى، كما نظموا البساتين وزرعوا المساحات المحيطة بالمدن لخلق بيئة مناسبة وأيضا كمصدات من الرمال والغبار في بعض المواسم، كما ابتدع السومريون طريقة لعقاب المجرمين أو ممن يتجاوزون على نظام الحكم ويمارسوا التخريب بالنفي إلى المناطق الجبلية، وظلت الفيضانات بجانب الغزو من أهم عوامل الخطر الذي يهدد وجود المدن، استخدموا الخشب والبرونز في صنع التماثيل كما مدوا شبكات الري من المياه قصور وبيوت المدينة، أيضا حفر الآبار للمناطق النائية، في زمن الملك سنحاريب الذي عمل على إحاطة مدينته بإراضي جديدة مما جعلها تمتد أكثر من 8 أميال وصارت المدينة محاطة بسور عالي كبير له خمسة عشر بوابة تفتح من الجدار الداخلي وبعدها يأتي السور الخارجي والذي اعتبر من أهم الموانع التي يصعب اجتيازها من قبل قوات الغزو كما خصص مناطق لسكن أبناء شعبه وترك مساحات واسعة من البساتين لتشكل محميات طبيعية ومنتزهات ومساحات للصيد الحر وجعل من نهر دجلة أحد أهم المصدات لحماية المدينة مع بناء الخندق الواقع شمال المدينة ودعى سكان المدينة إلى حماية البيئة وتطوير المحميات والبساتين وتوسيع مساحاتها باعتبارها رئة المدينة وعامل تجميلها، كما أمر بحماية الحيوانات النادرة والعمل على تكاثرها وخاصة الخنازير البرية التي كانت تتعرض للصيد الجائر، تلك القوانين أعادت التوازن البيئي إلى

حالته السليمة كما ساهمت في تنمية الثروة الحيوانية وشكلت خط الآمان الأول في نظافة البيئة وتنمية العوامل الاقتصادية وزيادة الثروة الحيوانية، توجيهات الملك سنحاريب استمدها من توجيهات الحكم في بلاد سومر التي سبقته حضاريا وفكريا في تقاليدها العظيمة، وهناك حقيقة تؤكد ان اغلب حكام سومر شجعوا الفلاحين على زراعة النباتات العطرية والقطن والشجيرات وتخصيص مؤسسات لمزارع القطن ومواد البناء وتوفير المياه التي تقدم الخدمة للزراعة كما تم استغلال الينابيع الجبلية من خلال وضع أفكار هندسية وهدم المباني الحديثة وتطوير الأزقة والشوارع وجعل داخل كل مدينة شارعا رئيسيا، تلك الطرق والشوارع اعطت المدن شكلا جميلا حضاريا وسهلت حركة المرور وجعلت تلك المدن موضع أهتمام السكان وملاذ الطمآنينة لهم - كانت تستخدم الشوارع العريضة للاحتفالات ومرور المواكب الرسمية ولخروج الجيش للحرب أو صد أي عدوان على المدن، كانت الحكومة في زمن سنحاريب مثلا قوانينها التي تهتم بشروط المواطنة الصحيحة لايكفي ان يثبت المواطن انتسابه الى المدينة او الشعب بل عليه ان يحافظ ويدافع عن الأرض ومن حق الإنسان أن يبني المسكن إينما تواجد، وهذه حقيقة أثبتها علماء الآثار في العديد من المواقع ومنها بشكل خاص في حفريات ديالى حيث كشفت التحريات عن البيوت في تلك المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد وجود بيوت واسعة وفيها أماكن خاصة بالمراحيض ولها مخطط هيكلي يتضمن مساحة مفروزة لحديقة منزلية وبحيرة صغيرة وأماكن لتربية الدواجن ويحيط بالبيت أشجار مختلفة الأنواع وسادت فكرة أن تلك البيوت لم تكن للناس العاديين ربما كانت للكهنة أو رجال الحكم والتجار، بينما وجدت أيضا منازل ذات تصميم مصغر وبسيط وتتكون من طابق واحد وبالحد الأدنى تتوفر مساحات متاحة، وكان البناء من الطين المفخور وهي

على شكل أكواخ وظل بناء تلك الأكواخ متوارث حتى منتصف القرن العشرين، كانت لها امدادات في المياه وشبكة مجاري تصب في حفر كبيرة بعيدة عن المدينة، المصمم العمراني قد وضع في حساباته التخلص من الفضلات البشرية بشكل يمنع حصول التلوث وعدم اختلاط تلك النفايات بالمياه الصالحة للشرب ومع ذلك يسجل تاريخ تلك المدن حصول كوارث بيئية أو أوبئة نتيجة تدني المستوى الصحي للأفراد أو الجماعات وكانت مشكلة التخلص من النفايات من أصعب المشاكل التي واجهت المجتمعات القديمة، ان نظام نشوء المدن يوضح حقيقة واحدة مطلقة أنها أقيمت في وجودها قرب المجرى المائي للأنهار – في بلاد ما بين النهرين نشأت أكبر المدن قرب ضفاف نهري " الدجلة والفرات " – وقد أزدهرت نتيجة لذلك السبب، بينما المدن التي نشأت بعيدا عن الأنهار كانت هي الأقل ازدهارا ولم يساهم وجود الآبار أو قنوات المياه المأخوذة من الأنهار البعيدة في المساهمة بحصول التطور او الإزدهار المرجو حدوثه، أحيانا لندرة المياه يعمد السكان إلى جمع مياه الأمطار في صهاريج والاحتفاظ بها لاستخدامها فيما بعد وهذا يشير الى وجود شحة في المياه، ان مصادر المياه الكبرى في بلاد ما بين النهرين وخاصة نهري الدجلة والفرات وفروعهما العديدة التي تأتي من خارجحدود العراق إلى جانب إمدادات المياه من الآبار والعيون والبحيرات الطبيعية تلك كانت مستخدمة في بلاد " آشور " وأيضا في بعض الأماكن من بلاد " سومر " – تلك التي كانت بعيدة عن ضفاف النهرين، كانت المياه فيهما تتعرض للتلوث بسبب خروج النفايات من بعض المناطق إلى النهر مباشرة ، بعض المدن الآشورية كانت ترمي نفاياتها في نهر دجلة، غالبية سكان بلاد ما بين النهرين كانوا من طبقة الفلاحين والذين سكنوا المدن وتحضروا لم تنقطع صلاتهم المباشرة معهم، الأرياف كانت تزود المدن بالسكان والإنتاج، أيضا في بلاد ما بين

النهرين الشمس الحارقة تعقم الحقول والأماكن وتقتل الجراثيم التي يتسبب بها سلوك الإنسان، ولكن ثمة أمراض كانت تتوطن في البلاد مثل البلهارسيا، في سجل تاريخ بلاد الشرق عموما وبشكل خاص في بلاد ما بين النهرين توفر العمل على توفير كميات من المياه النظيفة الصالحة للشرب والعمل على عدم تلوث مصادر المياه، ولهذه الغاية المهمة نجد ان صور أحد الملوك قد نقشت على إبريق الماء المذهب وتلك اللوحة السومرية تشير إلى الماء ضروري للحياة والملك يعمل على رعاية ذلك الحق وهو يضمن نقاء ونظافة منابع المياه ويبعد عنها التلوث، عرف الإنسان السومري ان تلوث المياه يجلب الأمراض والأوبئة ويهدد مصير السكان لهذا نجد الكثير من التوصيات والأفعال التي أكدت على ذلك ويشير إلى خطر الموت بسبب ذلك وقد بدأت تلك الإجراءات في التنفيذ اعتبارا من بداية الألف الثالث وأصبحت تقاليد معروفة في بلاد ما بين النهرين وأصبح المصمم المعماري يأخذها بنظر الاعتبار في عمله العمراني داخل المدن، كما صار العمل يجري إلى وجود مكبات أو أماكن لتجميع القمامة والتخلص منها بعيدا بالحرق أو الطمر وتلك من السمات الحضارية التي ترتبط بنظافة وجمال المدن السومرية، كانت البيوت والشوارع لا تعاني من تلوث القمامة حيث تقوم عربات خشبية تجرها الخيول وتعمل بشكل متواصل لنقلها إلى أماكن تجميع ثم يُصار إلى حرقها، في تلك الاماكن البعيدة تتجمع الكلاب والخنازير لتحصل على طعامها من تلك المخلفات، كما ان التقليد الذي ساد في بلاد سومر يدعو الى طهو الطعام بشكل جيد وقد توفر للمطبخ السومري العديد من المفردات والتعاليم والإرشادات كما برع السومريون في حفظ الأطعمة واستخدامها أثناء الفصول التي يندر وجودها، وتجفيف الأسماك وكبس التمور وتجفيف مشتقات الحليب واللبن على شكل كرات مدورة صغيرة، تعرضت المدن في جنوب

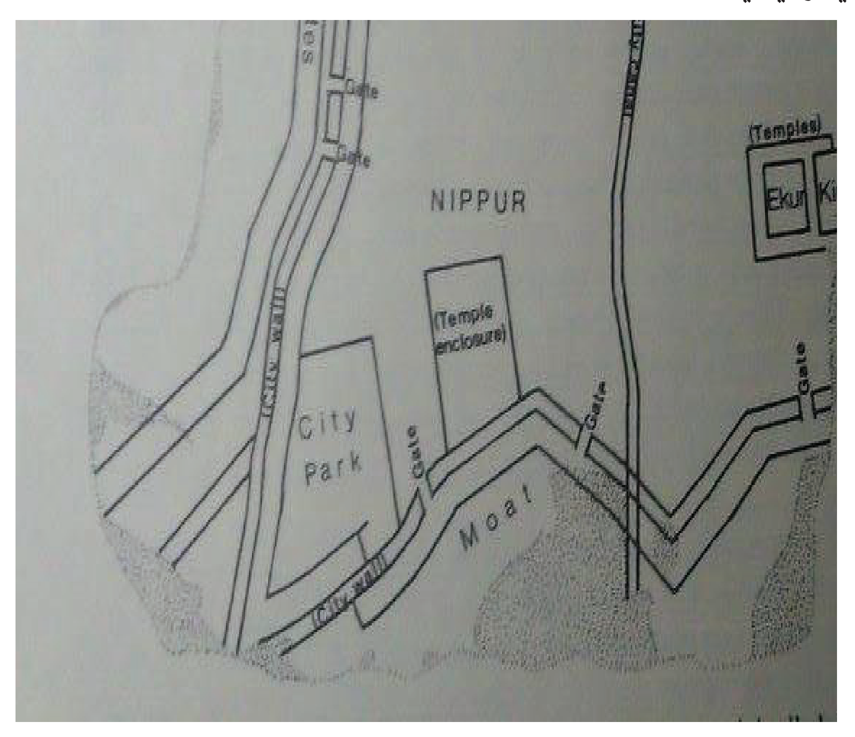
العراق وخاصة المكتظة منها إلى ظروف صعبة عندما كانت تنتشر فيها الأمراض الخطيرة كالطاعون، كانت الفكرة السائدة لدى السكان عند إنتشار الوباء ان الآلهة أرسلت جنودها الخفيين لمعاقبة البشر وأنها حكمت على سكان المدينة التي يجتاحها الوباء بالموت، كما اهتدى السومريون الى عدد من الأمراض التي تنتقل بواسطة الحيوانات، وقيل في وثائق سومر ان الطاعون يرسله الإله نيركال وهو يظهر بشكل محدد عندما ينتشر الزيف والفساد ويبتعد السكان عن المعابد والآلهة، وقالوا ان الطاعون يسير مع القوات وهم يشيرون بذلك الى ظهور الحمى الصفراء والأوبئة الأخرى التي تنتج عن تفسخ اجساد القتلى في تلك الحروب، وجدت ألواح كثيرة تتحدث عن المدن المنكوبة وأعداد الموتى يوميا نتيجة الوباء القاتل، في أواخر القرن الرابع عشر ونظرا لتكاثر عدد الموتى بسبب الطاعون قام الملك " MURSHILISH" يجمع الناس ويطلب منهم الصلاة للآلهة عسى ان ترفع سيطرة ذاك الموت عنهم، كانت الإدارات المحلية السومرية ضمن الحكم المركزي تجند المنظمات الاجتماعية للعمل ضمن الخطط المطلوب منها مكافحة الأمراض وتثبيت نقاط تقع ضمن جهدها تحقيق آمن الأشخاص وممتلكات الغرباء أو تقديم المعلومات عمن يدخل المدينة ويثير علامات الإشتباه أيضا كانت هناك لجان تعمل بموجب توجيهات الملك السومري لفض النزاعات التي تحدث بين المواطنين دون أن تؤثر على قرار الملك او المعبد وهي تسترشد بتوجيهات عناصر الحكومة، تلك المجموعات التي تعمل في الظل وتمثل شكلا من أشكال الحكومة المحلية وهي تشكل في إطار هيئة أغلب أعضائها من المحاربين القدماء وكبار السن الذين يتم انتخابهم واختيارهم وفق قواعد الإنتاج والعمل وعدم التورط في مشاكل ضد الحكومة او المعبد، عادة مايكون الملك او الحاكم او المعبد لا يتمتع أي منهم بالسلطة المطلقة لذلك يتم نقل عمل الحكم من خلال

تلك المجموعات التي تمثل عصب الإدارة المحلية وأحيانا يؤخذ الأعضاء من خلال أسس وراثية من خلال رؤساء الأسر المحلية القديمة، هذا الشكل المبسط يكشف عن أسس الحكم الديمقراطي بالمعنى الجديد كما يطمح إليه العالم المعاصر، ذاك المفهوم قد تطور فيما بعد خلال حقبة الاغريق، كان الملك السومري ينتخب أعضاء المجالس من كبار السن المحاربون القدماء والتجار ورجال الآسر الثرية والكهنة، ولكن القسم الأعظم من تلك التشكيلة تعتبر من رجال الملك وأعوانه في الغالب يسيطر على عمل تلك السلطات المحلية سلطة الملك، وكلما ضعفت تلك المؤسسات يحصل انفصال المقاطعات أو المدن وغالبا ما تكون الأسباب تتعلق بالأقتصاد أو الدين وممارسة أعمال الحكومة والتحريض الخارجي..

التجارة السومرية

عاملان اساسيان ساعدا على تنمية التجارة، الأول يتعلق بحصول فائض في الإنتاج الزراعي والصناعي حيث كانت بداية سنوات تأسيس الدولة المركزية، لم تكن الجهود قد عملت على التصدير والاستيراد – لم تكن الحكومة السومرية قد قررت التصدير لأسباب كثيرة، لكن المراحل اللاحقة اتسمت بزيادة الإنتاج وبدأت المحاولات الأولى بتوجيه التجارة نحو موانيء الفراعنة في وادي النيل، تم أختيار نماذج عالية لمستوى من الإنتاج عن طريق البحر بدأت عمليات التجارة الأولى عندما تغلب البحارة السومريون على عنف البحر ورسموا خرائط الملاحة بواقعية وحددوا طرقها الأمينة التي تقودهم إلى موانيء الفراعنة وأخرى غيرها، كانت مملكة الفراعنة تمر بمواسم فيضانات قاسية تتلف المحاصيل الزراعية في السنوات الرديئة ولهذا هي تبحث عن تعويض الخسائر من خلال التجارة، وجدت التجارة السومرية أسواق مضمونة في فترات من العام، هكذا توثقت بين الحضارتين وشائج علاقات عديدة منها العلاقات التجارية وتلك كانت أول

صور التكوينات الحضارية بين الشعبين وكانت عاملا مهما في تقوية العلاقات وهـي نتيجـة تفكير وقـرار الطبقـة العليـا إجتماعيـا وكانـت عـاملا مهـما في تعزيـز وجودهـا السـلطوي والحصول على مكانة اجتماعية ومالية تكون في الصدارة وكذلك الحـال متطـابق في مملكـة الفراعنة حيث تسيطر الطبقة الحاكمة على المباني الدينية وطرق التجارة وعصب الاقتصـاد وقطاعات أخرى ومن بين أهم المواد التي كانت تحملها المراكب والسفن في حالات التجارة المبكرة المحاصيل الزراعية والذهب والأحجار الكريمة الثمينة والماس والمصـنوعات والقطـع الفنية مثل الجرار وقطع النحت والأصواف والقماش والتمور المكبوسة وقطـع الأخشـاب – في خضم ذلك تزايد الطلب على تلك السلع وغيرها أخذت التجارة تتوسـع وتفـرز علاقـات ثقافية وسياسية.



كانت " مصر القديمة " مشهورة آنذاك بوجود كميات كبيرة من الذهب بكثرة وأيضا الصخور المطلوبة للبناء وهي تؤخذ من مناطق أقصى الجنوب، تلك الطلبات على تبادل المواد الموجودة في المملكتين أدى إلى الإزدهار الأقتصادي أولا، وإلى إقامة العلاقات الديبلوماسية والتفاعل الثقافي المعرفي، مثلا في عمليات قطع الصخور وسحقها ترسخت فكرة التعدين مع ان تلك المراحل لم تشهد ظهور تكنولوجيا ملائمة، كما تم جلب الفيروز من أرض سيناء كان العمل على تحقيق تلك المطالب التجارية يمرّ من خلال تكوين قطاعات للعمل من عمال اجراء تشرف على إدارتهم قوى تمتلك المنهج اللوجستي من خلال توفير القوى العسكرية التي تؤمن التدابير العسكرية لحماية قوافل نقل مفردات التجارة المطلوبة، حيث كانت تمر تلك القوافل في مناطق صحراوية وتتطلب وضع إجراءات فعالة لحمايتها، غالبا ما كان يتم مهاجمة تلك القوافل من قبل مجموعات تمثل قطاع الطرق، وهكذا نجد ان التجارة قد ازدهرت في بلاد ما بين النهرين عبر موانيء " دلمون " في جنوب البلاد، كانت سومر تفتقر الى الكثير من المصادر الأساسية مثل " المعادن – الأحجار الكريمة- الصخور – اللازورد والفيروز والعقيق – النحاس والقصدير – الاخشاب القوية "السلع المذكورة المهمة تمر إلى الأسواق السومرية وصولا إلى الموانيء التي تقع خلف جبال " زاغروس " حصل ذلك اعتبارا من بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، إزداد الطلب على اللازورد الأزرق الغامق ومنذ تأسيس تلك التجارة كان شعب سومر مهتم جدا بالحصول عليه ووضع النقوش المطلوبة فوقه من خلال أشكال وتقاليد يتقنها الصُناع المهرة في كل من بلاد سومر ومصر القديمة، كان أقرب موقع للحصول على تلك المادة مدينة في أفغانستان وهي تقع على بعد 1400 كيلومترا من حدود بلاد ما بين النهرين وتمر الطرق التجارية لنقل تلك المادة عبر

طرق وعرة تخترق السلاسل الجبلية الصعبة والصحارى القاسية، من الناحية النظرية تعتبر تلك الطرق التجارية عاملا اساسيا في إزدهار التجارة، مع العلم لم تترك المراحل القديمة إي إشارة على وجود مواقع يمكن الإشارة إليها في سير تلك الطرق، ولكن هناك إشارات وردت في بعض الألواح السومرية تشير إلى وجود مادة اللازورد أيضا في جبال تقع شرق إيران، تلك المواد كانت مطلوبة في عواصم الشرق القديم بشكل كبير، كانت تجارة اللازورد والعقيق تجارة رائجة جدا...

طرق تجارية بديلة لمملكة سومر

كانت هناك عدة طرق بديلة اشارت إليها وثائق مملكة سومر تسلكها تجارة اللازورد إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، التجار السومريون ينتقلون بتجارتهم من مستعمرة إلى أخرى وهم يعرضون بضاعتهم في تلك الأسواق وقد عملوا بدأب على تنشيط التجارة وتحسين حالة الأقتصاد السومري، كانت البضائع السومرية تذهب في عدة اتجاهات وتسلك كل الطرق التجارية للوصول إلى ابعد الأسواق والمدن في خريطة العالم القديم، كان لتلك البضائع رواج واسع وقد وجدت ألواح سومر تشير إلى ذلك أحدهما يشير إلى توجيهات ENMERKAR ولوح أخر يشير إلى LUGALBANDA كلاهما يتحدث عن بطولتهما في جلب غنائم من بطولات وحروب منها الذهب واللازورد والعقيق من مدن يذكرها النص - ذلك الحدث القديم يؤسس لبداية ظاهرة التجارة بين المدن القديمة وفي مقدمة المواد التي اهتمت بها سومر هو الذهب والفضة واللازورد والعقيق وحددت تلك الألواح موقعا هو أقليم " آراتا " وقد عمد اينمركار إلى جلب تلك المواد الثمينة لتزيين معبد الإلهة INANNA وتم وضع كميات من اللازورد والعقيق على واجهة المعبد، وردت في ملحمة

جلجامش إشارة إلى ذلك، وبسبب صعوبة التضاريس وبعد المدينة ووجود قوة عسكرية لا يمكن التغلب عليها أرسل الملك السومري وفدا للتفاوض مع حاكم " آراتا " والتعهد له بتقديم بضائع بديلة وحسب طلب حاكم المدينة وقد حصلت مفاوضات طويلة ثبتت مصالح الطرفيندون تضارب وعندما تعثر تنفيذ بنود الاتفاقية عمد الحاكم السومري إلى التلويح باستخدام القوة العسكرية للحصول على ما يريد ولكن الملحمة تشير إلى حل الخلاف من خلال إرسال قافلة محملة بالحبوب على ظهور الحمير والخيول كبدل مقايض للمطلوب من تلك المدينة وهو المعادن والحجارة وهذا أيضا دليل آخر على فتح قنوات التجارة بين تلك المدينة القديمة والمبدأ في تلك البدايات يؤشر الى المقايضة أو استخدام القوة العسكرية، الطلب التجاري على اللازورد صار يتعاظم في بلاد ما بين النهرين وفي العام 3000 قبل الميلاد أوصل تجار سومر هذا الحجر الكريم الى مدن الفراعنة واستخدم على نطاق واسع في إنتاج السبح والفسيفساء وغيرها من متطلبات الزينة وجدت نماذج منها في موجودات الحضارةالفرعونية يعتقد انها جاءت عن طريق التجارة السومرية كما وجدت في مدن الفراعنة نماذجمن الكتابات المسمارية مثل الاختام الاسطوانية التي تعود إلى الفترة 1800 قبل الميلاد..

تجارة الأخشاب

في بداية الألف الثالث قبل الميلاد شهدت بناء العديد من المعابد في بلاد ما بين النهرين وكذلك في مصر ومدن أخرى، احتاج ذلك إلى نقل كميات كبيرة من الأشجار من أرض الفراعنة واستخدمت لذلك الهدف مراكب وسفن كبيرة لنقل كميات من أشجار الجميز – الطرفة – كانت تلك السفن والمراكب قد بدء استخدامها بشكل واسع في التجارة وبالرغم من وجود النخيل والصفصاف

والحور ولكنها لم تكن قوية في البناء بمستوى قـوة تلـك الأنـواع مـن الأشـجار الموجـودة في أرض الفراعنة وفي غابات الآرز، ان حجم تلك المباني أو جد الحاجة لبداية تجارة الأخشـاب بين سومر ومدن الفراعنة، تلـك كانـت حاجـة لإنشـاء المبـاني الرئيسـية، ولـذلك فـأن تلـك المرحلة شهدت تطور تجـارة الأخشـاب بشـكل أوسـع، تلـك السـلع تطلـب وصـولها قطـع مسافات بحرية شاسعة وكانت تحدث نزاعات يتم تسويتها من خلال بعثات تجارية تضـع أسس الاتفاقيات التجارية وتشرف على تنفيذها وتفرض الغرامات ويتم إلزام أهل المنطقـة المنتجة ببنود تلك الاتفاقيات، لم تواجه التجـارة في بـلاد مـا بـين النهـرين مشـاكل كبـيرة في الوسط او الشمال بل ساعدت تضـاريس الـبلاد عـلى نمـو التجـارة وهـي تملـك أنواعـا مـن النخيل والأشجار المعمرة في غابات الجبال وظلت تقايض تجاريـا بـالحبوب والـرز وتطلـب أخشاب الصنوبر بشكل كبير لوجود عمليات بناء في المدن السومرية، كان التجـار يـذهبون بإنفسهم إلى المدن القريبة والبعيدة لعقد الصفقات التجارية واختيار نوع البضـاعة وأيضـا عمل سكان سومر على اكتشاف الغابات غير المكتشـفة مـع وجـود خطـر الوحـوش البريـة وأهوال ما قد يحصل ولكن خيال المغامرة كان يـرافقهم ويـدفعهم إلى أهـدافهم، أنعكـس ذلـك الفعـل في ملحمـة " جلجـامش " وهـو آخـر حـاكم لمدينـة " ايريـك " وأول مؤسـس لمؤسسة الحكم ذات النهج الديمقراطي وكيف حصلت المواجهة مع انكيدو في غابـات الآرز تقول بعض مقاطع من الملحمة:

علمت أنه صديقي هناك خلف التلال،

هو أعزل بمواجهة الحيوانا المتوحشة،

عشرات الآلاف من الروابط تمتد والغابة بعيدة،

من الذي سيتجرأ الدخول إلى غابة الآرز وهناك المخيف حواوا - HUWAWA

هو يستطيع تحقيق الفيضان الرهيب،

هو يستطيع ان يحرق كل شيء عندما يطلق النار من فمه،

أنفاسه هي الموت...

لكن جلجامش وكما في الملحمة لن يغير هدفه، هو البطل الذي اقتحم الغابة خلف جبال الآرز، جلجامش تمكن من صرع الغول حواوا ويسيطر على غابة الآرز، هو قطع الوحش وحرر الغابة وامتلك أشجارها والملحمة تتحدث عن مقتل وحش الغابة هكذا:

جلجامش ضرب وحش الغابة،

اهتزت الأرض،

دوت صرخة حواوا في الغابة،

ظل الوحش يحتضر،

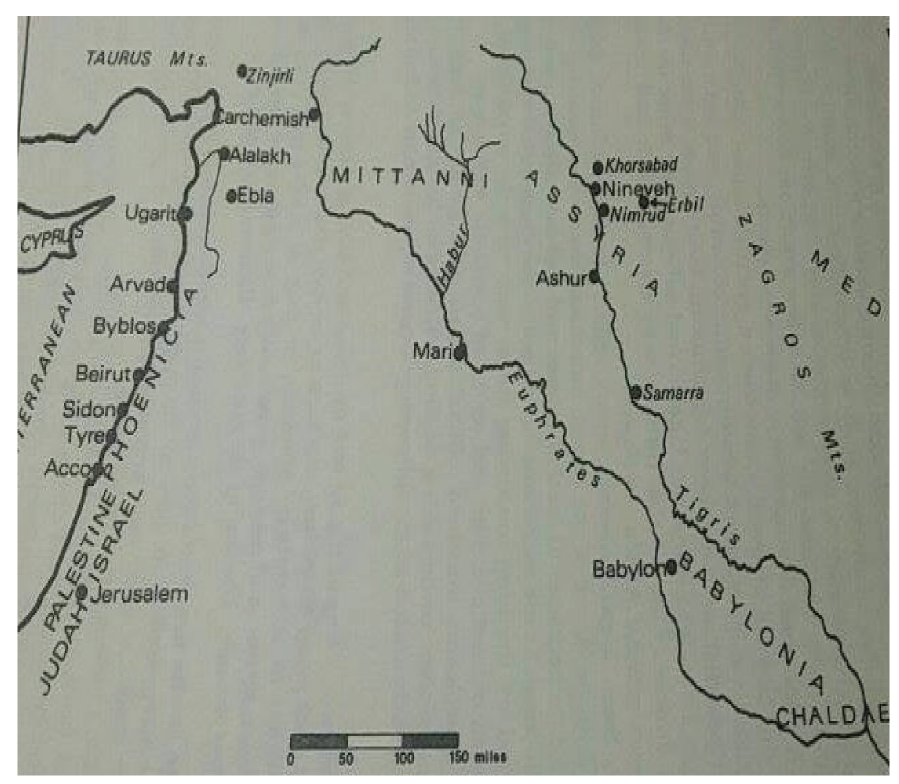
صارت الغابة ملك لجلجامش،

أخذ يقطع الأشجار،

مات الوحش المسعور..

وهكذا تكشف الملحمة عن وجود غابات غير مكتشفة تعلن عن زوال الخطر الحقيقي والتفاهم مع قبائل الجبال أولئك الذين تم الاتصال بهم من خلال ذلك الحدث الكبير، اصبحت هناك حلقة وصل بين بلاد الآرز وبلاد ما بين

النهرين وفتحت قنوات التجارة بين الموقعين وتم على أثر ذلك الحدث الأسطوري نقل الأخشاب القوية المطلوبة للبناء والعمرانأيضا استخدمت في بناء المعابد والأعمدة وبناء السفن والمقابر وإنجاز النعوش – ذلك بدء عند الألفية الثالثة قبل الميلاد، نجد ايضا ان التجارة البحرية والبرية قد أزدهرت بين بلاد سومر ومدن أخرى وظل تدفق البضائع بشكل مستمر، لعب خشب أشجار " ألآرز " دورا هاما في تطور صناعة المراكب والبناء وتمت نقل كميات كبيرة إلى أرض مصر وجنوب العراق وأيضا إلى سوريا التي استثمرت تجارة الأخشاب بشكل واسع، تلك الأخشاب كانت مطلوبة بشكل كبير لبناء النعوش وقد تم العثور على عينات من تلك الأخشاب في مدافن " نيبور " وفي " قبور الفراعنة " خاصة خشب " الأبنوس " وتلك من الإشارات الأكيدة حول التجارة وبداية مصدرها، أيضا كانت تجارة اللبان هي الأخرى رائجة بين المواقع المذكورة وأرض الآرز، أيضا تلبية احتياجات المعابد بكميات من البخور، كانت خطوط التجارة قوية وتعمل باستمرار كما وجدت إشارات على امتداد تلك التجارة الجنوبية من مصر إلى المنطقة التي تسمى "PWENET" وساد اعتقاد لدى علماء الآثار على ان المقصود بها أرض الصومال، كانت التجارة تصل إلى تلك الأرض عن طريق البحر الأحمر دون إنقطاع، وهي تمثل حالة مزدهرة في كلا الموقعين في بلاد مابين النهرين وبلاد الفراعنة – وتقع تحت إشراف الحكومة مع متابعة ومراقبة واتصالات التجار وتسلك عادة الطرق البرية والبحرية، وجدت في الألواح إشارات إلى وصول تجارة من أرض عيلام إلى مصر عبر البحر، أيضا وجود تجارة قوية بين مملكة الفراعنة وجزيرة" كريت " تؤرخ لها الوثائق الفرعونية على أنها بدأت في الأزدهار عند مطلع الألفية الثانية وذلك العامل وجد له صدى في اللوحات الفنية التي تعود إلى زمن الفراعنة.



الأخشاب والقطن والحبوب والفخار والمنسوجات من مصر ومن جزيـرة " كريـت " بالمقابل اللوحات والرسوم وصـنع التماثيـل مـن الحجـر، تلـك كانـت مـن سـمات التعـاون التجاري والثقافي وكانت التجارة البحرية بينهما لا تخلـو مـن مخـاطر - تعتـبر سـوريا هـي الموقع المهم والدائم لتجارة البحر الأبيض المتوسط، كما تمثل حلقة الوصل في نقل البضـاعة بين أرض الفراعنة وبلاد ما بين النهرين وأرض كنعان - فلسطين - وتمثل تلـك رحلـة شـاقة عبر أراضي البعض منها صحراء قاسية وغالبا ما تتعرض القوافل التجاريـة للنهـب والسـلب، في فترة لاحقة تمكنت مملكة الفراعنة مدّ سـيطرتها عـلى أرض فلسـطين وصـارت لهـا فيهـا حاميـة عسـكرية دائمـة، والتجـارة في تلـك المرحلـة كانـت تعـبر في إتجـاهين بـين المواقـع

التي تم ذكرها وهي تنقل السلع الرئيسية المطلوبة - في غياب وجود العملة كانت تتم عملية المقايضة أيضا - تشير بعض المصادر الى روّاج وتعاظم تجارة الرقيق، كانت مدينة " اوغاريت " من بين المواقع التجارية والثقافية المهمة التي ترتبط ببلاد ما بين النهرين تجاريا حيث كانت الأخيرة تحتاج إلى الأخشاب والزيت والزيتون والنبيذ وتحصل على الفخار والمجوهرات والعطور والتمور والحبوب، تطورت شبكة التجارة بين بلاد ما بين النهرين والممالك المجاورة لها منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد وصولا إلى القرن الواحد والعشرينتبعا للتغييرات السياسية وظهور مؤسسات معنية بذلك، ، القوة العسكرية دائما في خدمة العاملين التجاري والثقافي عندحالة الفتح والسيطرة التي حصلت في المدن القريبة والبعيدة وذلك ظهر بوضوح في سجل الإمبراطورية السومرية - مثلا - في زمن الملك " سرجون " كانت قاعدة التجارة قد مدت شبكتها لتشمل كل مناطق جنوب بلاد ما بين النهرين وتوسعت على أثر ذلك شبكة الطرق التجارية وتعاظمت في نهر " الفرات " وصولا إلى مملكة " ماري - إيبلا " في شمال سوريا وجميع المدن التي يمرّ بها النهر، كانت تلك الطرق تمثل ممرات ستراتيجية وهي حلقة وصل تربط جنوب بلاد ما بين النهرين في مدن شمال سوريا ومدن البحر الأبيض المتوسط، تلك الفترة الزمنية طورت عامل الاستقرار السياسي وعززت العامل العسكري والسيطرة وكانت وعاءا لنشر الثقافة والمعرفة والفن، في زمن الملك " سرجون " تجاوزت سيطرة سومر شمال سوريا إلى مدن تقع في آسيا الصغرى وقد أجبرها من خلال قوانين وضعها لتعديل تعاملها التجاري مع مملكة " سومر " وتطوير العلاقة مع المركز مع الآخذ بنظر الأعتبار وجود فترات من الصراع العسكري أو الغزو الذي يؤثر على وضع التجارة بين المدن والممالك التي تجاور سومر - كانت تسعى بشكل متواصل لتدمير قوتها العسكرية وتخريب شبكتها التجارية

ومحاصرة بضائعها لتواجه الكساد، - في النهاية – في زمن الملك " نرام سين – خليفة الملك سرجون الآكدي تحولت مملكة " إيبلا " إلى منافس قوي لمملكة سومر وبعد تدمير القوة العسكرية الذي حصل بعد ان حققت الكثير من النجاح في الشرق الأقصى والتوسع نحو عيلام جنوب غرب إيران وفرضت سيطرتها عسكريا الأمر الذي فتح الأبواب الواسعة نحو الطرق التجارية وصارت البضائع تتدفق واتخذت الدولة الشكل الإمبريالي أو الإمبراطورية، ولكن التوسع والسيطرة البعيدة عن حدود سومر أدت إلى نتائج عكسية تمثلت في سيطرة قوات الغزو التي اندفعت نحو سومر ومدنها وسيطرت على كل المخزونات التجارية كما ارغمت التجار السومريين على التعامل مع الكيان الاحتلالي الجديد ودعم سيطرة الحكم كما وضعت قوانين جديدة بهدف الإشراف على التجارة والتحكم بها، سيطرة قوات الاحتلال على أغلب المدن والمناطق، وتبعا لذلك ضعف النشاط التجاري وتراجع عمل الطرق التجارية من وإلى سومر، حتى التجارة في حجر اللازورد المستوردة من عيلام تراجعت حيث عزف التجار السومريون عن تقديم الدعم لقوى الاحتلال ومحاربة مملكة عيلام اقتصاديا وعمدت قوى التجارة السومرية المحلية إلى تقوية خطوط التجارة البحرية بعد سيطرت قوات " عيلام " على الطرق التجارية البرية- كان التجار السومريون قد أكثروا من المراكب والسفن القوية التي تمخر عباب البحر لتعود محملة بالفيلة والقرود وكائنات أخرى غريبة من الحيوانات التي لم تعرفها بلاد ما بين النهرين، ونقل بضائع ومنتجات بلاد سومر إلى المدن البعيدة الأمر الذي أنعكس على إزدهار سومر اقتصاديا وجعلها تتمكن من التخلص من سيطرة " عيلام " نشطت التجارة بين ديلمون وموانيء الهند وما جاورها، أذكى تذكر زمن " سرجون الآكدي " حالة من النهوض والمواجهة والعنفوان وأعاد للسومري وجوده في

عصر يحفل بالبطولة والتحدي والفتوحات والسيطرة ويضع علامة في سجل أمجاد بلاد ما بين النهرين، في ذلك الوقت كانت التجارة النهرية تشكل متنفسا كبيرا ومهما للحالة الأقتصادية، في مرحلة كل غزو تعرضت له " سومر " يتم تدمير المدن بشكل همجي وتتعرض التجارة للخسائر الفادحة وكما يقول الشاعر السومري:

" بعد تدمير المدن ينام بحارة سومر "

نجد في وثائق سومر إشارات للمينائين السومريين " meluhha-tilmun" ألأول تم تحديد موقعه في منطقة ماجان والثاني هو البحرين حاليا، وربما أيضا أجزاء من المنطقة الساحلية العربية المجاورة وقد ثبت من خلال الحفريات ان ميناء " دلمون " هو الميناء السومري الأهم وكانت له علاقة مباشرة بمدن بلاد ما بين النهرين الجنوبية وحلقة الوصل بين عمان وبلاد السند ومدن سومر وخاصة ميناء " أريدو " عن طريق ذاك الميناء كانت تتم نقل كميات كبيرة من العاج وأخشاب الأبنوس، ولا يوجد أي شك أن منطقة " meluhha"- عُمان حاليا هي حلقة الوصل مع وادي السند وأفريقيا وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد، كما تمثل المنفذ الهام مع تجارة بلاد ما بين النهرين، تم العثور على أختام وقطع من المنحوتات وقطع العملة من الذهب والنحاس والفضة، خاصة في المناطق الساحلية من مدن الخليج العربي القديمة، لا توجد الكثير من الوثائق ولكن الذي ثبت ان في زمن الملك" سرجون الآكدي " قد أزدهرت التجارة من خلال ميناء " دلمون – tilmun" مع منطقة ماجان ويعتبر الألف الثالث قبل الميلاد هو عصر التجارة الذهبي لتلك المنطقة، كان التجار في منطقة الخليج العربي يروجون لسلع مختلفة من تلك التي كانت تزدحم بها مستودعات التجار في مدينة ur أور وما جاورها مثل الصوف والجلود والمنتجات النفطية التي كانت تستخدم في

طلاء خشب القوارب والمراكب، نشرت أجزاء من وثيقة تجارية سومرية تتحدث عن بيع 60 طنا من الملابس الجاهزة و 330 غالون من القار نوعية جيدة و 180 من أطنان بذور الكتان والتمور - تلك الصفقة تم ابرامها في معبد الآلهة inanna وابحرت تلك البضائع نحو منطقة " ماجان " وشملت المقايضة التجارية مواد مثل " النحاس - العاج -الأخشاب - الأحجار الكريمة "- كانت توجد مستودعات تعود لمملكة سومر تقع على امتداد ساحل الخليج وخاصة في " دلمون ومنطقة ماجان " اصبحت تلك المواقع شريكا رئيسيا في إنطلاق التجارة وربط المدن السومرية بالممالك والمدن البعيدة، نجح السومريين إلى حد بعيد في ترويض البحر والإنطلاق بتجارتهم نحو أماكن بعيدة وقريبة وجاء ذلك بعد استغلال تجاربهم في الملاحة النهرية، ساهم أصحاب المشاريع الخاصة بتمويل ودعم التجارة التي تعود عليهم بالنفع والأرباح، كان الطلب قد تزايد على الفضة والنحاس، والجولات التجارية تخضع لدراسة التكاليف والأرباح - اي معرفة الجدوى الاقتصادية - وهي تؤكد دعم الداعمين الماليين دون الوقوع في خارطة المجازفة والحصول على أرباح أفضل كما كانت رحلات استكشاف الأسواق في المدن البعيدة تتواصل من قبل جهاز من الأشخاص يرتبط بتجمع للتجارة في سومر، وجميع الخطط تقود إلى ضمان سداد رأس المال وقياس حصة الأرباح على أساس عائد ثابت تخضع له صيغة إبرام العقود مع التجار وفق تسهيلات كانت تلك الخطوات بمثابة الدخول في التكوين الرأسمالي وبداية الإنتشار والإمساك بخطوط التجارة وفي ذات الوقت تم تثبيت مسئولية كل تاجر عن الخطوات الفردية أو القرار، كانت توجد جهة لتقديم القروض والدعم للتجارة والمشاركة في نسبة الأرباح كما تعمل البنوك الحالية وتحدد فترة زمنية لإرجاع الأموال من قبل التجار، كانت توجد جهة قانونية مختصة في فض النزاعات بين التجار في

حال بيع مادة أقل جودة من التي تم الاتفاق بشأنها دون ترك العملاء يقعون تحت وطأة الغش أو التلاعب بجودة المواد، مثلا كانت سبائك النحاس التي تتم الموافقة على صفقاتها تصل الى حجم 100 كلغم أو كميات تقدر بالأطنان، كانت التجارة أيضا تخضع للرسوم الجمركية التي تفرضها السلطات الإدارية وحسب لوائح يحددها المعبد، ثم صارت تفرض من خلال جهة حكومية وذلك في الألفية الثانية، أيضا توجد نقاط تفتيش على طول طرق التجارة النهرية داخل مملكة سومر حيث تبحر السفن والمراكب وإيقاف أي تجارة تمرّ دون إذن رسمي صادر عن حكومة الملك السومري، وظهر في ظل تلك التجارة نظام أوزان دقيق تخضع له شحنات النحاس في ميناء دلمون وأيضا المواد الأخرى مثل اللازورد والعقيق والخشب والعاج، تلك التجارة كانت تضعف وتزدهر تبعا لحالة الاستقرار السياسي وعدم وجود حروب تدخل فيها سومر بشكل مباشر، المعابد كانت هي الداعم الكبير للنشاط التجاري وكانت هناك تجارة تخص المعابد أطلقتها لإيجاد مردود مادي وملء خزائنها من الذهب والفضة لتمويل نفقاتها، كانت القوافل التجارية تقطع المسافات الشاسعة في طرق برية البعض منها يمر في أراض وعرة وفي مواقع محددة يمكن استبدال الخيول أو البغال، تلك المواقع كانت على شكل محطات استراحة للقوافل يتوفر فيها الماء والطعام واماكن المبيت عندما كانت القوافل تواجه ظروف جوية سيئة، احيانا تموت الخيول أو البغال في الطريق الأمر الذي يستدعي تغييرها، تدفع ضرائب كثيرة لمحطات القوافل نظير ما تقدم من خدمات مهمة، لإكمال الرحلة، وعند وصول البضائع إلى المدينة التي تقصدها يجب ابراز مستمسك أنها مسجلة لدى منظمة التجارة بين الموقعين وقد تمّ دفع الضرائب وتطلب الاتفاقية ان تكون البضاعة سليمة خالية من الأضرار ويتم دفع ثمنها بمسكوكات الفضة أو تبادلها مع كميات من النحاس، أيضا يتم

تبادل الهدايا بين القادة والتجار ومواقع أخـرى في الممالـك المجـاورة لمملكـة سـومر ومركـز الحكم، وظهرت من تلك المدن المهمة مدينة" ماري " التي تقع على حافات نهر الفـرات في اعالي مناطق الوسط وكانت بمثابة نقطة مهمة للتجارة وللعلاقات بين الممالك البعيدة عـن سومر، ظهر سطوع نجمها في أوائـل الألـف الثـاني قبـل المـيلاد واعتـبرت مـن أغنـى المـدن القريبة من حدود مملكة سومر واشتهرت بقصورها ونمط المعمار وكانت لها مدينة جميلة وثروة كبيرة ولها قوافل تجارية تتحرك ما بين البحر الأبيض المتوسط ومدن بلاد فارس، وتمر منها تجارة النبيـذ والأخشـاب وزيـت الزيتـون والأقمشـة القادمـة مـن جزيـرة " كريـت " والنحاس من قبرص، وتحصل على اللازورد والفضة والذهب من سومر وإيران وأفغانستان، وقد وجدت بينها وبين تلك المواقـع مراسـلات مكتوبـة بـالخط المسـماري السـومري، ولهـا اتفاقيات مع حكام تلك البلاد وتبادل حكامها معهم الهدايا الخاصة الثمينة، لعبت مملكـة ماري دورا مهما في التجارة الدولية وتعود بعـض الرسـائل التـي عـثر عليهـا الى فـترة القـرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما عثر على رسالة في تل العمارنـة تعـود الى فـترة الملـك الفرعـوني "امنحتب الثالث " الرسالة موجهة من الملـك البـابلي الى ملـك مصر وتـأتي في سـياق تبـادل الرسائل والهدايا تقول الرسالة في سطورها:

" كما سبق وأكدت لك ان والدي كان على علاقة جيدة مع والدكم، اتمنى ان يستمر بيننا الوفاق والتعاون ويبتعد شبح الحرب " كما توجد رسـالة أخـرى تعـود إلى فـترة الملـك الفرعوني" امينوفيس " موجهة إلى الملك البابلي يقول مضمونها:

" لقـد ارسـلت لـك هديـة للمنـزل الجديـد، سريـر مـن خشـب الابنـوس المرصع بالاحجار الكريمة وكميات من الـذهب ومسـند الـرأس صـنعته مرصـع بالـذهب

واللازورد ومقاعد بذراعين مدموغة بدمغة من الابنوس وكمية من الذهب والفضة على شكل قلائد وسلاسل "

ويرد الملك البابلي في رسالة جوابية:

" ارسل لك قطع من الميناس واللازورد الراقي وخمس فرق من الخيول، أي شيء تريده اخي ارسله لك، اسمحوا لي ان اقدم لكم الشكر على هديتكم "

السمات الأكثر وضوحا في العلاقات بين مملكة سومر ووادي النيل يمثل التطور في حصول شبكة واسعة من العلاقات التجارية والتعاون في حل المشاكل التي نشأت عن هضم حقوق تجار سومر داخل أراضي الفراعنة، هناك مناسبات وظروف أكدت تبادل الهدايا ولكنها لم تسفر عن تعزيز الصداقة رغم وجود علاقات دبلوماسية وشراكة تجارية استمرت عدة فترات وانقطعت، هناك مناسبات وظروف متكررة اكدت تبادل الهدايا ولكنها في الغالب لم تسفر عن تعزيز الصداقة رغم وجود علاقات دبلوماسية وشراكة تجارية، كانت المواد التي تأتي عن طريق التجارة مع بلاد الشام هي الأهم لدى سومر ومنها مواد غذائية مثل القمح والشعير والزيتون والزبيب والتين والبلح والعسل والجبن والنبيذ وزيت الزيتون وبذور الكتان والزيوت العطرية والبخور والصوف والمنسوجات مثل القماش والسجاد والملابس، وفي مجال المعادن تم تبادل النحاس والبرونز والقصدير وكذلك المواشي كالابقار والاغنام والطيور والاخشاب وأسرة مصنوعة من الخشب ومستحضرات التجميل والمعادن النادرة، وأيضا بناء مراكب النقل البحري والخيول والعربات التي تستخدم في الحرب وبعض انشطة التجارة الاخرى كانت تحصل تحت اسم الملك، كانت من أهم محطات الطرق البرية في أرض الأناضول وفي سوريا وبلاد ما بين النهرين وكذلك توجد في

المواقع الثلاثة موانيء بحرية، كانت وفود من التجار الأجانب تصل سومر للبيـع والشراء وشحن البضاعة المطلوبة من مصر وقبرص وتركيا ولبنان وفلسطين وبـلاد السـند وعـيلام واوغاريت وماري وعمد التجار الأجانب إلى اسـتثمار أمـوالهم في شراء عقـارات أو فـتح متاجر لهم، كان عملهـم يخضـع للضرائـب الأمـر الـذي يفيـد بالأهميـة التجاريـة التـي حصلت عليها سومر، اهتم الفينيقيـون والكنعـانيون بمـد شـبكة مسـتمرة للتجـارة مـع سومر وكانت تجارتهم تمـرّ مـن خـلال سـومر إلى مواقـع أخـرى بعيـدة، التجـارة البريـة تطلبت خطوط مواصلات وطرق جيدة ومحطات لمتابعة الرحلات، كما شـهدت التجـارة البحرية تطـور بنـاء المراكـب والسـفن القـادرة عـلى إنجـاز الـرحلات الطويلـة وتحمـل التغييرات المناخية ومقاومة العواصـف وهـي تقطـع المسـافات البعيـدة في أوقـات قـد تستمر لعام أو أكثر في الإبحار، ازدهرت في تلك الفترة تجـارة المحـار واللؤلـؤ المسـتخرج من الموانيء السومرية وخاصة " دلمون " الذي يصـدر بشـكل خـاص إلى بـلاد الفينيقيـين وتركيا وقرطاج كانت هي الميناء الذي تقصده تلك التجارة المزدهرة، تقصد أغلـب مـدن البحر الأبيض المتوسط وصولا إلى اسبانيا، قربت التجارة السومرية التواصل الحضاري بين المدن وجعلت العالم يبـدو قريـة واحـدة، حمـلات التنقيـب الآركيولـوجي في عـدد مـن المواقع أكد بشكل واضح تلك المعلومات، كما بدأت خطـوات التجـارة المرحلـة المتعلقـة بالسيطرة الاستعمارية التـي انتهجتهـا سـومر في علاقـات السـيطرة عـلى المـدن القريبـة والبعيدة وبدأت عمليات الحروب والفتوحات تبعا لذلك تغير التاريخ السياسي للمنطقة بشكل عام وأحكمت مملكة سومر قبضتها على دويلات في الخليج وبلاد عـيلام وماجـان ومدن البحر الأبيض المتوسط- المدن الفينيقية وصولا إلى السيطرة على فلسطين وكانـت فترة ظهور سرجون الآكدي وسنحاريب مـن أهـم تلـك الفـترات واسـتمر ذلـك في زمـن

الأمبراطوريتين البابلية والآشورية، البحث عن أسواق وبضائع ومنافذ تجارية قـاد إلى فكـرة السيطرة العسكرية وتأسيس المستعمرات التابعة لها وفي ضوء ذلك تعاظمت ثـروة سـومر وإزدهرت فيها التجارة وأصبحت تبحث عن مصادر للدخول في فترة التصنيع وخاصة لـوازم الحرب وما تحتاجه الحياة، وقد وردت إشارات لذلك في كتابات هيرودوت...

القانون في سومر

القانون في كل مـدن الشرق الأدنى القـديم كـان يمثـل تثبيـت مبـدأ العدالـة – تلـك القضية الأساسية في حكم أي ملك أو زعيم قبلي – وقد جرى العمل وفق ممارسات عديدة للتخلص من حالة الظلم الاجتماعي أو طغيان الفئة المتنفذة الحاكمة، افعال الظلم تشـكل جريمة وفق تعاليم الآلهة القديمة، كما ان المجتمعات الشرقية انتقلت من صورة إلى أخـرى خلال الحقب المتتابعة وبظهور تقاليد الملكية وتطور مفهوم القانون ظهـر تكـوين القضـاء والقضاة وتم انتخابهم من رجال لهم الأهلية ويثق في تصرفاتهم وهـم يحكمـون في قضـايا صغيرة أو كبيرة، يكتسب الحاكم العادل أو القاضي العادل التأييد الشعبي وإلتفـاف النـاس حول أي عمل قانوني صحيح ويظل يحظى بالاحترام والتقدير، ولهذا تم وضـع قـوانين عـلى شكل مسلات تضع في أولوياتها القوانين التي تنفذ في مختلف المنازعات والتي تـيسر عمـل وسلامة حقوق كل فرد منهم، ولو تفحصنا الكتب الدينية التـي جـاءت فـيما بعـد نجـدها اعتمدت على تلك التشريعات وثبتتها وأعطتهـا القداسـة ودافعـت عنهـا، ونجـد في أغلـب قوانين مملكة سومر الثواب والعقاب مصرح به، ولم توضع تلك القوانين عبثـا أو جـزءا مـن سفسطة جاءت في بعض البنود مثلا ماورد في أحد النصوص القانونية:

" أن أموال وأملاك الجار يجب صيانتها والدفاع عنها، وفي حالة السرقةمنها يجب انيجري العمل على إعادتها من لدن السارق الذي يثبت فعله أو جرمه، كما يجب عدم التجاوز على حقوق – أموال – أراضي – نواتج الزراعة – المواشي – "

كل العقائد الدينية جاءت لتثبيت مفهوم الحق وتسوية الخلافات وفق مبدأ القانون، اغلب الكتب الدينية وضعت بنود القانون بناءا على تعليمات آلهة الخلق، شكل العامل الديني من الآزل الرادع القوي ضد منصات الظلم والطغيان، كان القانون هو الصوت للأغلبية المستغلة، تلك التشريعات التيأوصها بها " الله " المرسلين لبثها بين الناس مثلت البصيرة النافذة للخالق ومعرفة ما سيحصل في افعال البشر في حالة التسلط فيما بعد، وعلى أساس ذلك التقى الكاهن والحاكم في تفاصيل عمل لوضع القوانين وتشريعها وكتابتها في مسلات تمثل الموقف من اي تجاوز او طغيان – وضع " حمورابي " الملك البابلي قوانين مسلته المشهورة والتي ظهرت خلال فترة حكم الإمبراطورية البابلية، تلك المسلة المدهشة وجدت في موقع قريب من مدينة سوسة غرب إيران وكانت على شكل تكوين من حجر البزلت الأسود وهي ترتفع إلى ثمانية أقدام – هي الآن محفوظة في متحف اللوفربباريس – تلك القوانين كانت مستخدمة في دولة العيلاميون، تكرر صداها في الحضارات اللاحقة ولدى الأقوام في عدد من مدن العالم، ومن تلك القوانين المهمة ذاك الذي يتعلق بالرقيق والعبودية وحيازة الأرض أو التجاوز عليها والحكم في أمور الزنا والزواج والطلاق وسفاح المحارم والتبني والآرث والاعتداء ومعدلات الآجور وامتلاك العبيد، وبشكل عام كانت قوانين الملك الحاكم هي قوانين يجب ان تنفذ وهي الطريقة الوحيدة لإقامة العدل

ويوصف العالم القديم بأن الأرض تشرق بنور عدل الملك أو الحاكم كما ورد في نصوص سومر والطريق إلى تحقيق العدل هو المسار لتثبيت مركز الأرض، تم تثبيت مهلة زمنية لتنفيذ أو تحقيق العقاب وبنود الحكم وفق القوانين الملكية، كانت تجري دون تأخير أو تعطيل وهي عبارة عن وصايا كل ملك لمن يخلفه في حكم البلد أو المدينة، ليس كل ماورد في التشريعات يعتبر حقيقيا ويضع الحل لمشكلة واضحة كبيرة، في أرث القوانين السومرية التي وضعها ur-nammu- او اوركاجينا أو جلجامش رسخت تقاليد الحكم وكانت البداية لتطور مفهوم الحكم والقضاء في بلاد سومر وفق توصيات الآلهة وبتنفيذ مباشر من الحاكم والكاهن وبهدف إقرار العدل في الأرض السومرية وتحقيق المساواة بين الرعية - تلك القوانين تردد صداها في آكاد وصولا إلى بابل وآشور في زمن لاحق رغم محدودية المعالجات في المراحل المبكرة إلا أنها نظمت شؤون الحياة وثبتت أركان العدل والأمان، كانت البداية في قوانين مسلة " أو - نمو " التي وضعت مفردات تلك القوانين كافة وجاءت من خلال وقائع وأحداث حصلت فعلا في مملكة سومر الأولى، اهتمت تلك التشريعات بمواضيع عديدة تعلقت بحقوق الملكية وتنظيم العلاقات الاجتماعية او حقوق العمل والواجبات تجاه أصحاب العمل وتجاه الحكومة وتحديد أولويات التهم التي يجب معالجتها وفق قوانين اهتمت بها، وتحديد أنواع العقاب المادي والجسماني، أيضا كانت من أبرز تلك القوانين ما يتعلق بالزراعة- وما أطلق عليه اصطلاحا - القوانين الزراعية - وكما أشارت الوثائق السومرية في الحالات التي ثبتها " أور - نمو " وهي إشارة واضحة على وجود رغبة كبيرة لوضع قواعد للتعامل بشكل مفتوح مع مشاكل المجتمع، تعتبر قوانين أور -نمو هي اللبنة الأولى التي اعتمدت عليها بنود مسلة حمورابي لاحقا

وتوسعت أكثر نتيجة لعدد من الأسباب يأتي في مقدمتها تشعب وتطور آليات المجتمع ودخوله في مرحلة الإنتاج الصناعي وإبتعاد الحكم عن سيطرة المعبد المطلقة، في جنوب بلاد ما بين النهرين وخاصة في مدينة Eshnunna والتي امتدت حدودها إلى ديالى كانت تحتاج إلى ترسيخ القوانين ونشر العدالة حيث المملكة في ذلك الوقت كانت تنمو سريعا وتمتد حدودها في عدة إتجاهات وتميزت بتطبيق تلك القوانين - حمورابي البابلي - جمعها فيما بعد ورتبها في مسلته المشهورة - مسلة حمورابي - المشكلات التي عمل القانون السومري على التصدي لها امتازت بإسناد القضايا الإقتصادية والاجتماعية - تلك القرارات التي اعتمدت في التطبيق رتبت مفاهيم الحياة ودفعت عملية التقدم إلى الأمام ودحض خطر تلك المشاكل التي كادت ان تسبب اختلالا في بنية المجتمع وتصدع في عمل الحكومة وتعزيز حقوق الملكية وحماية المواطن الضعيف من سطوة الأقوياء ومعالجة مشاكل الزواج وحقوق الوالدين وحقوق الرجل على الزوجة وحماية حقوق الأشخاص المسنين وحرية المواطن كما تعاملت القوانين بقوة مع جرائم السرقة والطلاق والمخالفات الجنسية والاعتداء البدني والموت بسبب الإهمال الطبي والتزوير في عقود بيع الممتلكات وحقوق العبيد لدى أصحاب العمل - لم تكن القوانين بشأن تلك المشاكل مجزأة بل كانت مكتملة وذات تأثير بالغ، توصف قوانين حمورابي بإنها أكثر قسوة وصرامة، تهدف لتطبيق مبدأ العين بالعين والسن بالسن، القانون يقود إلى إنتقام مباشر كتعويض بدلا من الفدية المالية، وردت إشارات مثيرة في تلك القوانين " مثلا " من يسرق خلية نحل يتعرض في العقاب للسعات النحل..!، ان العقاب البدني هو الأول وليس العقاب المادي، أعاب البابليون وحمورابي على قوانين أورنمو أنها أعطت التعويض

الدرجة الأولى بدلا من الأنتقام بذات الفعل الذي يتعـرض لـه الضـحية، أن قـوانين أورنمو كانت أكثر ملائمة لبلاد ما بين النهرين وقـد ظلـت ماثلـة في التطبيـق حتـى ظهور قوانين حمورابي وهي نتاج حضارة أزدهرت وعرفـت معنـى وقيمـة الإنسـان بينما قوانين حمورابي هي نتاج العقلية البدوية الصحراوية وهـي بدائيـة في وضـع تصور للمعالجات الأجتماعية، قوانين إيشنونا مثلا شـكلت وحـدة قانونيـة أخـذت بنظر الأعتبار السلوك البشري ودرست الظاهرة الأجتماعية وحددت المعالجات لهـا بشكل موضوعي، وانتقلت تلك القوانين إلى عاصمة الإمبراطوريـة الحيثيـة وكتبـت تلك القوانين وفق تعديلات تتفق مع طبيعة ذاك المجتمع وغطت أفكارها معظـم المشاكل وقدمت الحلول وهي أيضـا تناولـت ذات المعالجـات التـي عرفتهـا المـدن السومرية، في كل الأحوال حصلت القوانين والتشريعات على منهج التنظيم ووضـع الأسس لنظافة المجتمعات من الفوضى وضبط الحالة الإنسانية من عوامل التدهور والإنحــراف وشــيوع حالــة الجريمــة والتجــاوز عــلى حقــوق الآخــرين وزيــادة الرحمـة والتسـامح عكـس قـوانين حمـورابي التـي أوجـدت مبـدأ الأنتقـام كانـت مجمل القوانين وخاصة السومرية منهـا بمثابـة دعـوة لإصلاح الطبيعـة وتهـذيب سـلوك الإنسـان والتقليـل مـا أمكـن مـن تنفيـذ العقوبـة والعمـل عـلى الإصـلاح، نجـد هنـاك تطـابق بـين القـوانين التـي سـادت سـومر ومنهـا تلـك التـي عملـت بهـا مملكـة الحيثيـين وآشـور، الكثـير منهـا يُعـد إيجابيـا في المضـمون وفي التنفيـذ ، أن قضية إقامة العدل في المجتمعات القديمة قد أختلفت مـن مملكـة إلى أخـرى - لكن يظـل مبـدع القـانون الأول في الكـون هـو العقـل السـومري الـذي ينسـب ما تحقق إلى فضل الآلهـة التـي وجهتـه إلى تلـك العلـوم وأن أي تـدخل أو تغيـير أو تجاوز على تلك القوانين يمثل إهانة وتمرد ضد الآلهـة وان التجـاوز عـلى سـلطة

الحاكم يمثل تجاوز على سلطة الآلهة فهو ممثل الآلهة على الأرض – أي أنه يتحمل مسئولية مباشرة في تحقيق العدل في المملكة التي يحكمها...

سومر وفلسفة التآخي

كانت الفكرة الأولى في مخيلة شعب " سومر " العمل على جعل الزمن القادم هو العصر الذهبي المؤمل ان تعيش في ظلاله شعوب الكون دون حاجة للجيوش والحرائق والحروب، تلك الفكرة وجدها شعب سومر فيما بعد بمثابة ضرب من الخيال - هي لا تتحقق أبدا، وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الغزاة الذين يأتون من كل جهات الأرض، لهذا حملوا السلاح وابتدعوا فنون وقوانين الحرب وظل السيف في أيديهم والقتال يدور من زمن لزمن ومن أرض لأرض " رجال سومر نذروا أرواحهم للحرب والدفاع عن أرضهم ووجودهم " منعوا مهاجمة منازلهم وسبي نسائهم وقطعوا أيدي الهمج والرعاع من أجلاف " عيلام والجزيرة وغيلان الجبال " الرجل يعرف دوره كما المرأة تعرف دورها، في آتون الحرب والقتال كان السومري بعد ان يردع الأعداء يغسل سيفه في انهارهم او بحارهم ويدعوا الناس كراهب او ابن آلاه الى فكرة التآخي والسلام، وصل الأمر بهم إلى دعوة الآلهة المتحاربة في آكاد للجنوح إلى السلام وترك مدينة " أوما " تقرر مصيرها، شعب سومر هبّ للحرب بنفس الحماسة للسلام وتحقيق الآمن، الشعوب البربرية المجاورة لمملكة سومر هاجمت في زمن الملك " نرام – سين " خليفة سرجون الآكدي ونهبت مدينة " نفر – نيبور " دنسوا المعبد الكبير وسيطروا على معظم أرض سومر – البرابرة – من عيلام والقوى التي تحالفت معها لم يؤمنوا بالتآخي أو إبرام اتفاقيات السلام والجوار المشترك – عمدوا الى تمزيق كل الاتفاقات، ذلك الحدث يتكرر وهو ينسف فكرة السلام والتعايش وظلت دائرة الحرب تدور وتفرض على أهل سومر مفاهيم القتال والدفاع عن وجودهم، عندما

سقطت آكاد تدمرت كل الركائز للحياة الاقتصادية والسياسية، في تلك الحادثة الرهيبة كتب الشعراء أفضل قصائد الرثاء لمدينتهم نفر التي دمرها الغزو: " الشاعر الذي كتب هذه المرثية وقد تمكن بدقة ان ينتقي كلمات الحزن العميق ووضع المستمع في جوّ من الكآبة وضيق الصدر تنقله رتابة النواح وتكراره وتنشد تلك المراثي في مناسبات البكاء واللوعة على ماضي ليس ببعيد، حيث سومر وبلاد أور كانت تنعم بازدهارها ومجدها ومن تلك المراثي – رثاء " أور ":

في ذلك اليوم،

عندما أصابت العاصفة قلب الإله،

المدينة أمام سيدها،

تمّ تخريبها،

في ذلك اليوم،

عندما أحزنت العاصفة قلب الإله،

في ذلك اليوم،

أنا،

من أجل إنقاذ مدينتي لم أتراجع،

عن بلدي،

أنا،

لم أحول نظري،

أمام الإله " آن " سكبت دموعي،

أمام الإله " مو أوليل " أطلقت شخصيا تفجعي،

يجب ألا تهدم مدينتي،

قلت لهم،

يجب أن لا تهدم " أور "،

قلت لهم يجب ان لا يباد شعبها،

تلك القصيدة وغيرها وصف فيها التدمير الكبير الذي لحق بالبيوت والمعابد والحقول، في حادثة القتل الذي تعرض له سكان " نفر " كانت بداية العلامة الكبيرة في تاريخ حروب بلاد ما بين النهرين، في الألفية الثالثة ومابعدها ظهرت الكثير من النصوص التي تشير إلى الحرب ومواجهتها ووضع الملك " شولجي " بنود ارحمة أثناء الحرب ووفق تلك البنود سعت سومر لتحقيق الوفاق خلال مائة عام مع الممالك المجاورة، ذاك السلام الذي اسبغه الملك ومن بعده الذين حكموا البلاد أنعكس على حالة الرخاء والعلاقات التجارية والزراعة والصناعة وكل الأمور الأخرى التي تطورت بفضلها العلوم كافة وتقدمت البلاد خطوات كثيرة نحو الحضارة، ترسخت معاهدات السلام والتعاون بين سومر وبقية الشعوب أصبحت من بعدها سومر هي الإمبراطورية الكبيرة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد تحالفت مع ملك عيلام التي تقع جنوب غرب إيران، وتذكر الألواح أن ذلك التحالف حوّل الملك" نرام – سين " من صورة العدو إلى صورة الحليف، صارت بعد ذلك العديد من الدويلات تنضم إلى تحالفات أخرى، في ذلك الوقت كان العالم القديم يخطو في صفحة من تلك التحالفات مما بشر بعصر التآخي ونشر قواعد الوفاق، في فترة الألف الثاني قبل الميلادثمة ألواح تشير إلى ظهور معاهدات بين تلك الممالك التي كانت موجودة

في الغرب والشرق من حدود إمبراطورية سومر، كتلك التي حصلت بين الممالك التي تقع في منطقة شمال سوريا وأخرى في مناطق الأناضول وبقايا آشور، تلك المعاهدات تكتب باللغة الآكادية المسمارية على ألواح من حجر الجرانيت، الحيثيون والآراميون استخدموا تلك اللغة وسعت مملكة الفراعنة إلى ذات الهدف في تحقيق اتفاقات في زمن رمسيس الثاني، ونجد الكتابة الآكادية موجودة على جدران المعابد والقصور وبنود السلام والتآخي السومرية مثبتة على الألواح منها ما وجد في مدينة " boghazkoi" التي تقع شرق تركيا، ثمة كتابة معاهدات سلام وتآخي بين الممالك التي حكمت بلاد ما بين النهرين وممالك أخرى اسقطت مبدأ العدوان والحرب وهدفت إلى تثبيت مفاهيم التعاون وتُعطي الحق في تحقيق أحلاف عسكرية ضد القوى الأبعد التي تشن العدوان على إحدى تلك الممالك المتآخية، أيضا تم تنظيم معاهدات أخرى أكثر إهتماما بتأمين الآمن الداخلي تضمنت الاتفاق على تدمير أي حالة تمرد وتسليم المجرمين إذا تواجدوا على أرض أي مملكة من تلك الممالك المتآخية، لا توجد موانع لإرسال قوات تعتقل الشخص المطلوب، تلك الاتفاقيات بين ممالك العالم القديم كانت تدعمها المعابد وتباركها وتعلن عن موافقة الآلهة عليها، وهي بمثابة واقع جديد لا اعتراض ضده، يتم التوافق وكتابة نصوص المعاهدات تحت ظلّ الآلهة وفي رحاب أضرحتها ويتم الأحتفال بذلك، تظل سياسة كل مملكة بمثابة حالة مستقلة ولا تتدخل في شؤون المملكة التي اتفقت معها في بنود المعاهدة، كل طرف يقدم الدعم للطرف الآخر ويسهل أمور التجارة وتنقل الأشخاص ومرور القوافل، وجدت رسائل تحمل تهديدا بين مدينة وأخرى والرد عليها تقول: في حالة عدم تخلي حكومة عن سيطرتها على المدينة التابعة لمملكتنا ودفع الغرامة، بصفتي الملك اعمل على الاستيلاء على مدينتكم وتصبح كل ممتلكاتكم لي " أفراد

حاشية الملك أو القادة وقوات الجيش هي التي تعمل على تنفيذ خطط نشر السلام وأيضا ادارة شؤون الحرب والغزو والسيطرة وضم الأراضي، كانت أغلب المنازعات تدور حول حدود وهمية ومدن معلومة، وقد يشيع الاحتلال أو الغزو إبرام معاهدات سلام وتآخي ويدفع الطرف المغلوب التعويضات وهذه من القوانين التي وضعتها سومر في سياقات ترتيب علاقاتها مع الممالك المجاورة وغالبا ما تدفع الظروف غير الملائمة للعلاقات بين مملكة سومر والممالك المجاورة لها إلى حصول أعمال حربية، جميع المعاهدات التي عقدتها سومر كانت تلتزم بها لأنها حصلت بموافقة الآلهة وتم حفظ نسخ منها في خزائن المعبد..

حروب الإمبرياليات القديمة

في العالم القديم بعض الممالك عمدت إلى تجاهل الأتفاقيات وشروط التآخي كما ابتعدت عن السلوك المتحضر وفي خضم ذلك أندلعت الحروب وتواصلت بين تلك الإمبراطوريات والممالك، كلما كبرت مساحة اي إمبراطورية زادت لديها رغبة الأطماع في السيطرة على الممالك والمدن الأضعف، الكثير من حوادث طرد السفراء لممالك حصلت ومنع التجارة ومرور القوافل أو الاندفاع للاستيلاء على اراضي او مراكب في البحر أو تشكيل عصابات للسلب والنهب او الغزو المؤقت وحرق القرى الحدودية، الكثير من المدن والممالك اختلفت مواقفها مع سومر مثلا، تلك الهفوات في العلاقات قادت في الكثير من الحالات إلى حرب عندما تتعطل لغة الحوار والتفاهم ويتم نسف المواثيق، الحرب لدى تلك الممالك القديمة كانت ضرورة حتمية لحماية أراضيها الوطنية ووحدة تكوينها، بعد الألفية الثانية وما بعدها دخلت إمبراطورية " سومر " مدار الحروب المتواصلة عندما وجدت مصالحها تتعرض للخطر وأن التنمية الاقتصادية والتجارة تحتاج إلى فتوحات وسيطرة على مناطق

أخرى بعيدة أو قريبة، في ظل ذلك الوضع القديم المتفجر صارت الممالـك تسـعى الى تكوين الاحـلاف والاسـتقلال والابتعـاد عـن سـيطرة الامبراطوريـات المتنفـذة أنـذاك، أغلب تلك الحروب دارت في تضاريس مختلفة – الاراضي المفتوحـة وسلاسـل الجبـال وفي مواقع بحرية، كانت المعابـد تطلـق الفتـاوى التـي تـدعم أفكـار الإمبراطوريـات وتسهل مهمات الحرب وتوافق على أفكار التوسع والحرب وتعلل ذلك بأنه اسـتجابة إنسانية وضمن ظروف تكرس تحريـر الشـعوب مـن ديكتاتوريـة حكومـات غاشـمة، والآلهة ترعى تلـك الحـروب وتطلـب ان يـتم توسـيع حـدود الإمبراطوريـة لتتحقـق مفاهيم الدين، تلك الأفكار الدينية كانت بمثابة مظـلات سياسـية وتعبويـة لتحقيـق الفتوحات ومثلت قاعدة للحروب التي اعتبرت مقدسة وهي أيضـا اسـتجابة للـدفاع عن المدن والوجود وأن الآلهة قد أمرت بتدمير الخصم وإعادته إلى السلوك الصحيح، بشاعة تلك الحروب لم تتوقف عند مجابهة الجيوش بل تمتد إلى تدمير المـدن وحـرق البيوت وتخريب المعابد وقتل الأطفال وسبي النسـاء، أي مدينـة يـتم الهجـوم عليهـا تصبح أثرا بعد عين، معارك تفتقر إلى الإنسانية والمباديء العقلانية، كان كهنة المعابد يصرخون في جحافل الجند " إبادة الأعداء أمر إلهي، استبيحوا كل ما في مدن الأعداء، كل شيء فيها لكم مكافأة أقرتها الآلهة "، عندما يتعسر القتال وتشتد مقاومـة المـدن المحاصرة ويفشل الفتح يجنح قادة الجيش الغازي إلى حلـول بديلـة تبـدأ بالتفـاوض وإيقاف الحرب، يتم التعتيم على صراخ رجال الـدين في اضرحـة المعابـد ويقـال دون مواربـة " الآلهـة أعطـت قرارهـا بإيقـاف الحـرب والجنـوح إلى السـلام والتـآخي " تختفي قوانين الحرب وتبدأ عملية السـلام، يـتم اسـتبعاد قـرار الحـرب وإيقافهـا، في كلا الحالتين الحرب والسلام – القرار فرديا – يحتوي عـلى رغبـة السـيطرة والتوسـع، نجد بعض الألواح دونت إشارات الى وجـود تمثيـل مـن قـوة خاصـة نظمتهـا الآلهـة

لمتابعة تفاصيل سيرّ الحرب أو التفاوض او استمرار تثبيت السلام، ومدّها – أي الآلهة بتقارير عن ما يجري من خلال صعود الرسل الذين يحملون إليها كل التفاصيل، الإنسان يدرك ان الحرب مدمرة ووحشية وتسلب منه الحياة لكنه يمتنع عن الرفض لأنها مغلفة بطابع ديني يسهل مهمة مرورها إلى الأمام لأنها تدور على الأرض باسم الآلهة ولا أحد على سطح الأرض يمكنه ان يوجه اللوم إلى الآلهة فهي بعيدة عن كل إنتقاد ولا تحتاج إلى حجة رسمية لتثبت قداستها ونطقها السامي- هي في كل الأحوال قدر الوجود وديمومته، قدر الملك، قدر الشعب، روح المعبد وشعاع الكاهن، قدر الجندي الذي يشارك فيها، عند وقوعها يسلب من قلب القائد أي رغبة بالتبشير بالخير، الضرر أبلغ من أي خبر، قلب الملك القائد في حالة الضعف يهيمن عليه الحزن والخوف وهو يدرك مدى الضرر الذي سيقع، تروي اسطورة عن الملك السومري " نرام – سين " أعظم خلفاء من بعد سرجون الآكدي وهو مؤسس السلالة السومرية الثالثة، عندما جاء ملك آكاد يسيطر عليه الرعب محذرا من عواقب الحرب وتواصل الأسطورة لتروي ان الآلهة وجهته لمهاجمة قطعان الغزاة في أرض آسيا الصغرى، ولم يكن غير نرام سين هو الملك الذي هاجم في أقواله الأمم المتآخية بعد ان أبادت جيوشه والوثائق – الألواح السومرية – تتحدث عن شن هجومه الكبير على مدينة " آرارت " ونجده يدون في رسالة موجهة إلى الآلهة، ان الحرب قد قطعت شوطا كبيرا وأن العيد الجديد القادم سيكون هو يوم إعلان توقف الحرب، ولا ينسى في رسالته أن يبرر للآلهة لماذا قامت الحرب، ان الملك والحاكم الذي لا يحترم توجيهات الآلهة وقراراتها يعتبر " مارق " ويقع في أفعال الجرم العظيم، الملك " سرجون الآكدي " كان يعلن أمام شعبه أنه في الحرب ينفذ تعاليم الإله " أنليل "، ورغم سفك الكثير من دماء الجند، يقف الملك ليرفع يده بالدعاء إلى الآلهة

ويصلي ويطلب منه ان يجعل جنوده يتحملوا الألم ويتمكنوا من الثبات، العقوبات مـن الإلهة تطبق على من يبرم معاهدات السلام دون موافقة الإلهة فهي تعتبر تلـك جريمـة ضد القوانين التي وضعتها للكون، وتنـذر بـإنزال أشـد أنـواع العقـاب الـذي لـن يكـون بعيدا، وثمة حادثة تتعلق بالحرب التي دارت بين قـوات الحيثيـين والفراعنـة في سـوريا، عندما أقسم الطرفين على معاهدة السلام لكن الملـك الفرعـوني خرقهـا، كـان رد الآلهـة سريعا حيث مكنت الحيثيين من أنزال الهزيمة بقوات الفراعنـة، كـما أرسـلت الطـاعون ليفتك بالآسرى وبقية الجند كما ارسلت مياه الفيضانات ما تبقى من قواتهم، كان الملك هو المسئول عن نقض المعاهدة التي أنجزت برعاية الإلهـة وهكـذا لم يتـأخر رد الآلهـة طويلا حيث غطى عقابها كل شيء، عمدت الممالـك القديمـة إلى التعـاون أثنـاء حصـول الكوارث الطبيعية مثل المجاعة أو الطوفان أو القحط او الجفاف والأوبئـة، كانـت تلـك المحاولات تنم عن وعي إنساني بضرورة استمرار الحياة وتمكـين الشـعوب المنكوبـة مـن البقاء على قيد الحياة، كانت أفعـال التعـاون يتبعهـا أحيانـا الغـزو والحـروب وحصـول الآسر حيث يتغير مبدأ حسن النية بشكل فجائي وتتحول العلاقة من السلام إلى الحـرب، كل تلك الأفعال تسند الى الإلهة، في نهاية القرن السابع قبل المـيلاد مـدّت الإمبراطوريـة الفرعونية يد المعونة إلى الإمبراطورية الآشورية عندما هاجمتها عدة ممالـك عـلى حـين غرة، بعد ذلك نجد الحرب تحصل بـين الإمبراطـوريتين..!، كـل المعاهـدات التـي كانـت تعقد بين تلك الممالك القديمة تتعـرض للتمزيـق أثنـاء قـرار الحـرب الـذي يسـبقه نشر الاتهامات المتبادلة، كانت المعارك في كل مرة تحصل وفق تكتيكات عسكرية متغيرة بين الممالك المتحاربة وتبعا لحصول الحرب تتوقف كـل تفاصـيل الحيـاة وخاصـة في مجـال التجارة والعلاقات الدبلوماسية، تتحدث الوثائق المتوفرة عن تلك المراحل القديمـة عـن

فظائع الممالك المتحاربة، كل طرف يبدو أسوأ من الطرف الثاني إذا توفرت له فرصة الغزو والأنتصار، حيث يتم قتل وأسر شعوب كاملة ومسح ممالك كانت قائمة من الخريطة الجغرافية ومن الوجود، اتسمت تلك الحروب بحصول المجازرالرهيبة، نجد لوحات من تلك الأزمنة رسمت وهي تؤكد الذي حدث، منها وقوف القائد أو الملك فوق تلال من جثث الأعداء الذين قتلوا في المعارك، كانت الشريحة الأكبر تضررا من تلك الحروب هم " الأطفال والنساء " تتحول نساء الطبقة الغنية إلى أسيرات وجواري وخادمات في قصور الحكام أو القادة أو يتم بيعهن في سوق النخاسة في بعض الحالات يترك للنساء الاحتفاظ بالأطفال الصغار أثناء الآسر، أو فصل الأطفال عن الأمهات وأخذهم إلى أماكن يتم فيها تحويلهم إلى رعايا وبعد سنوات إلى جنود للمملكة، بقية الآسرى يتم تطبيق مفهوم العبيد عليهم أو ما يسمى " رقيق الحرب " يتم تجريدهم من أي حقوق إنسانية، الشعوب المهزومة تجد نفسها أمام حصيلة الحرب المرعبة، اعتبارا من الألف الثالث قبل الميلاد وما بعده نجد الوثائق تشير إلى أن الحرب اتخذت منحى اخر يبتعد قليلا عن التدمير وظهر أسلوب محاصرة المدن وتجويع سكانها حتى إعلان الاستسلام والسيطرة على المملكة أو المدينة دون تدمير وتقليل عدد القتلى ودون أخذ الشعب إلى الآسر يتم تعيين حاكم يتبع الطرف الآخر المنتصر والاستيلاء على كل الأقتصاد والتجارة وبعد فترة قريبة تعود الأمور في المدينة المهزومة إلى سابق عهدها كما يتم المحافظة على قنوات الري والحقول وطرق التجارة وتأسيس جيش جديد من مخلفات الجيش القديم يرتبط بسلطة المملكة المنتصرة، من أوجه تلك الحروب سلوك منهج التدمير الاقتصادي، سجلات الممالك القديمة في الشرق الأدنى القديم تعترف بحصول غارات التدمير التي كانت ترافق الحروب وبالسلب والنهب والقتل والآسر، لا تسلم من ذاك التدمير

حتى الأشجار وقنوات الري أو منابع المياه والمعابد، يتعرض الآسرى للذبح بشكل جماعي بهدف التخلص من نفقات طعامهم، ترتب الأمور أحيانا لتمكينهم من الفرار أو تحويلهم إلى عمال لخدمة المملكة المنتصرة، أو أختيار البعض منهم لتقوية الجيش بهم، كانت تفرض شروط قسرية على الآسرى في أرض العدو بهدف ضبطهم وتحويلهم إلى حالة مرادفة لسكان المملكة، في مسيرة العلاقات بين الشعوب القديمة كانت المواصلات والرحلات والطرق الخارجية التي هي بوابة العمل الدبلوماسي، القوافل بين تلك الممالك بعضها يحمل الهدايا للحكام وكذلك الرسائل بين الملوك والتجار والقادة وعامة أبناء الشعب، تسمح الممالك القديمة للاجانب بالوصول وممارسة حياتهم في مجال التجارة أو طلب العلاج أو الإقامة الدائمة وامتلاك السكن أو ممارسة العمل شريطة ان يلتزم المقيم بالقوانين السارية، ويحق له التزوج ويخضع لقوانين المحاكم ويدفع الغرامات المترتبة على أي فعل يتم اقترافه بما يناسب التعويض المقبول والمحاكم تفصل في تلك القضايا، كما كانت أغلب الممالك القديمة تلتزم بمبدأ سلامة الأجانب على أراضيها وتتحمل مسئولية مرورهم بأمان عبرّ أراضي المملكة ضمن شروط والتزامات تم الاتفاق عليها، كما تتحمل كل مملكة نتائج الجرائم والتصرفات التي يقوم بها رعاياها، بعض الممالك عمدت إلى توطين أسرى الحرب في أماكن سكن خاصة ويتم تمكينهم من الزراعة والتجارة وفق شروط عادية، كما ان اغلبها لم تمارس ضدهم التمييز العنصري الذي اختفى تدريجيا، كانت الممالك تشعر بالمسئولية إزاء حقوق أي مواطن على أراضيها وتستوعب الذين يفدون إليها في زمن سومر – زمن الملك " سرجون الآكدي " تمّ بناء مدينة تأوي الغرباء – كانت جهات الترجمة تتوفر للغرباء وتسهل امور التفاهم والتعامل مع سكان مدينة سومر...

السومريون واكتشاف المصادر الطبيعية واعتماد منهج الحفاظ على البيئة

اعتمدت الحضارة السومرية على تطبيق الأفكار والوصايا التي نادت بها الآلهة من أجل تنظيم الكون وخير الإنسان، تلك الأفكار العميقة المبدعة ذات الرؤيا الثاقبة لتنظيم الكون وصيانة المجتمع الإنساني عمدت إلى وضع المناهج التي تقود إلى سيطرة الإنسان على البيئة وترشيد مواردها كي تستمر حياة البشر بشكل أفضل مع الاستناد إلى عوامل تطور التقنية لاحقا وفتح الأبواب أمام التطور العلمي وجعل البيئة عاملا مساعدا والاهتمام بحمايتها، كانت الخطوة الأولى في مجال التقدم العلمي والتقني والتي نقلت الإنسان إلى مراحل أخرى لاحقة أكثر أهمية تمثلت بالاهتداء إلى استعمال النار، ظهرت تلك المعلومات في مرحلة ما قبل التاريخ وتوثقت من خلال ذكرها في الأساطير السومرية وتردد صداها في أساطير الكون الأخرى تلك التي أعطت للنار الفضل في ظهور التقنية الأولى لدى الإنسان وظلت باقية وتتطور لدى الأقوام في مجتمعاتهم الرعوية المختلفة، في بقاع أخرى هناك أقوام ظلت الى فترة متأخرة لا تعرف قيمة النار وأهمية استخدامها في المقام الأول استخدمت في الطبخ والتدفئة ثم صار لها استخدام آخر لا يقل عن اهمية استخدامها في الطبخ ذاك هو استخدامها في الفخار وإذابة المواد لطلاء السفن والمراكب وصناعة الطابوق والألواح المسمارية وقد وجدت دلائل على ذلك في مواقع للتنقيب في زاغاروس غرب إيران وفي تل جرمو شمال العراق وفي آسيا الصغرى في تلك المواقع وغيرها يمكن تحديد مسار إنتشار التقنية الفخارية في تلك المدن القديمة وحسب المراحل الزمنية المختلفة، أيضا وجود أواني الطبخ وتنانير الخبز، استخدمت النار للطبخ في حاويات طينية مفخورة على نار مفتوحة، ثم تطور ذاك الاختراع البدائي لدى الخزافون إلى شكل فلان من خلاله تتم السيطرة على طهي الطعام أو إنضاج

الخبز، في درجات حرارة يتحكم بها الإنسان وصار من الممكن إنتاج القدور والأواني الخاصة بالطبخ والتنانير الخاصة بالخبز في حجوم مختلفة، في فترة لاحقة تطور إنتاجها إلى فخاريات ملونة، ذاك الإنجاز قاد إلى التفكير بتطويع واستخدام معادن أخرى وصهرها من خلال النار وتحويلها إلى حالات جديدة بتلك الخطوات ظهر علم المعادن وتم استخدام الذهب وكان في القائمة الأولى للمعادن التي تمّ التعامل معها كانت نتيجة التجربة الحصول على المعدن الأول الطبيعي له شكل صاف براق وجميل وله لمسة ناعمة وجعلت إضافته إلى الأواني والأشياء المصنعة أرتفاع قيمتها في الأسواق، هذا العامل الجديد جعل التفكير يدفع حالة التقدم إلى الأمام وبخطوات أسرع تلك الإشارات الأولى كانت متساوية التأثير في علوم البيئة واستخدام المعادن، عمليات الصهر الأولى اعتمدت على استخدامات في الحضارة المبكرة في تزيين التماثيل والسفن والمراكب واعمدة المعابد والقصور الملكية وفي النقوش المسمارية استخدم على شكل رؤوس مدببة مصنوعة من الذهب للكتابة بها على ألواح الطين الطري، بعد الذهب جاء اكتشاف معدن آخر لا يقل أهمية عن الذهب لدى السومريون ذاك هو النحاس الذي استخدم في مملكة سومر على نطاق واسع ثم انتشر في مدن وممالك قريبة من سومر وبعيدة وجدت منه مصنوعات في أحد الكهوف شمال العراق، يعود تاريخ تلك النماذج إلى الألفية التاسعة قبل الميلاد اي زمن السلالات المبكرة مثل تمثال نحاسي لرجل وامرأة – يُعد هذا أقدم استخدام للنحاي رغم ان التمثال المذكور قد احاط به الصدأ لكنه يرتكز على قاعدة عبارة عن قطعة من المرمر الأخضر بلورية الشكل كان البعض منه تم استخدامه في المجوهرات أو السلاسل للتعويذة او تصنع منه أبواب المعابد المقدسة، كان السومريون يحصلون على النحاس بشكل أساسي من موقعين الأول في جنوب العراق غرب إيران من

جبال زاغروس والثاني من جبال في منطقة ديار بكر في الاناضول وموقع آخر أقل أهمية في جنوب سوريا، في مواقع عديدة من أرض بلاد سومر تمّ العثور على اجسام نحاسية ذات احجام وأشكال مختلفة كانت توجد مصاهر صغيرة وأخرى أكبر تستخدم لصهر النحاس الخام ثم تدخل الصفائح في مرحلة التصنيع، كانت عملية الصهر تنتزع النحاس الخام وتحوله إلى الحالة النقية التي تمّ تداولها، في بلاد ما بين النهرين - مملكة سومر - عثر علماء الآثار على قطع مدورة على شكل خرزة مصنوعة من النحاس يعود تاريخها صناعتها إلى الألف السادس قبل الميلاد حيث توسع استخدام النحاس في بلاد ما بين النهرين - وضع السومريون منهجا علميا لاستخدام النحاس تمثل في الذوبان والصهر ثم التبريد وتضمين المصنوعات بتكوين النحاس الذي يُصب بعد التذويب ليترك في نهاية الأمر معدنا نحاسيا من خلال وضعه القوالب المفتوحة، هذه العمليات جعلت السومريون يجدون البودقة المناسبة ثم توصلوا بعد ذلك إلى نظريات وفرضيات أخرى، إحدى الروايات التي تتعلق بإكتشاف النحاس تقول أن أحد الجنود السومريون أشعل نارا كبيرة وكان في الأرض عروق للنحاس فصهرتها النار وفي الصباح ظهرت قطعة صفيحة النحاس من تحت الرماد الذي أزالته الريح، أنذاك تم الاهتداء إلى النحاس وبدأت عملية البحث والتقصي وتطوير التجربة الفجائية إلى منهج وأفكار وقانون، تلك التقنيات انتشرت من أرض سومر إلى جنوب غرب إيران والأناضول وأرض الفراعنة وحافات البحر الأبيض المتوسط، وجدت في بعض المواقع من أرض بلاد ما بين النهرين أماكن أفران صهر النحاس كما تم الأهتداء ألى مشتقات أخرى من خلال صهر خامات النحاس تلك التي تحتوي على البرونز الزرنيخي، تلك المراحل من التعدين قادت إلى وضع مناهج وتجارب في التعدين الذي انسحب على مواد أخرى مثل

الفضة، عمليات التعدين مع عدم وجود الشروط الصحية ألحقت الضرر بالعمال، هناك إنتشار واسع لتلك المشاكل في علم الأساطير كوصف حداد الإلهة على شكل مخلوق كسيح ولحق هذا الوصف في المثيولوجيا الإغريقية والأفريقية فيما بعد وبشكل عام، كانت مملكة سومر تتابع طبقة الحدادين وتمنع هروبهم إلى صفوف الأعداء كي لا يستخدموا في مجال التصنيع الحربي الذي يلحق بسومر الضرر، قيود كثيرة توضع على تنقل الحداد من مكان إلى آخر في مملكة سومر، على عكس الحرية الممنوحة للتاجر في التنقل والسفر حيثما يريد، الأول قد ينقلب ويكون مؤذيا والثاني يساهم في تطوير وارتفاع مستوى الاقتصاد، في بعض الأساطير السومرية يوصف الحداد الذي يعمل في مجال تعدين " الزرنيخ – البرونز " عاجلا أم آجلا سيصيب صحته العطب ويتسرب التسمم بالزرنيخ المزمن إلى جسده ويتركه حطاما يعاني من ضمور عضلي وخسارة في ردود الأفعال العقلية وضعف عام، ورغم تلك المحاذير والكتابات التي دونتها الأساطيرإلا ان مهنة تعدين المعادن استمرت وانتقلت من بلاد ما بين النهرين إلى إيران والأناضول وأرض الفراعنة وبلاد الأغريق وسوريا التي عثر فيها على أجسام مصنوعة من البرونز وعليها كتابة مسمارية، إيضا في مناطق من بلاد الأناضول يعود تاريخها إلى العام 2600 قبل الميلاد، نماذج تؤكد على أعمال برونزية مميزة وذات حرفية جيدة كما وجدت نماذج من مصنوعات برونزية في غرب إيران – بلاد عيلام وعليها عبارات باللغة المسمارية تعود إلى فترة نصف الألفية الثالثة، تم البحث عن مناجم وأماكن التزود بالنحاس الخام واعتبر في تلك الفترة إلى جانب الذهب والفضة من كنوز الأرض المهمة، فيما بعد أصبح من أهم منتجات الإمبراطورية الآشورية التي وسعت حدودها وبحثت عن أماكن تواجد ثلاثية الثروة" الذهب – الفضة – النحاس " وعملت بتعليمات التعدين

السومرية وكذلك تتبعت الخرائط التي وضعتها سومر للمناجم الموجودة في أرض الاناضول وسوريا وغرب إيران وصحراء مصر تحسب تلك الخطوات العلمية والعملية للحضارة السومرية التي اكتشفت ووضعت الخطط والبرامج ودونت التعليمات وصارت المعامل الصغيرة والكبيرة تهتم بإنتاج الصفائح من النحاس الذي صار يدخل في تكوين صناعات كثيرة ويكشف عن تطور التقنية في الإمبراطورية السومرية قبل بداية الألف الثالث قبل الميلاد شكلت صناعة النحاس موردا تجاريا بين بلاد ما بين النهرين والمناطق المجاورة لها كما عملت مملكة سومر على استخدام واسع لمادة النحاس والفضة وصناعة المجوهرات وكانت عاملا تجاريا وثقافيا مع الدول المجاورة، نشرت بلاد ما بين النهرين صناعتها وحضارتها إلى أجزاء كثيرة في بلدان الشرق الأدنى التي كانت لم تتوصل إلى تلك التقنية، إنتشرت صناعة النحاس بشكل خاص ووصلت إلى الدول الآسيوية والأوروبية وبلاد الفراعنة، صارت جزءا مهما من اهتمام تلك الممالك ودخلت الكثير من التغييرات على طرق تصنيعها وإنتاجها، وكذلك البحث عن مناطق وجودها في الطبيعة الى جانب الاهتمام بالبرونز حصل تطور أكثر أهمية عندما تم اكتشاف مادة الحديد الخام وتم استخراجه من باطن الأرض، من بقايا النيازك المتساقطة تم الاهتداء الى مادة الحديد وتم العثور على تلال فيها المادة الخام للحديد كما تمكن العلماء من وضع معادلة التركيب وصناعة مادة الحديد والتعدين تحت شروط خاصة إهتدى اليها العامل السومري حيث تم تحويل المادة الأولية إلى حديد يمكن استخدامه في حالات جديدة وصار عاملا جديدا في الصناعة وفق معطيات جديدة للصهر والتعدين وبناء أفران خاصة لتلك العملية التي اهتدى إليها العقل السومري طرق من التجريب مرارا وتكرارا حتى الوصول إلى المرحلة الأخيرة في إنتاج الحديد، كان السومريون ينظرون إلى قطع

الحديد التي صنعوها بإنها جزء من جسد العفريت، في بلاد ما بين النهرين القديمة وضمن وجود الإمبراطورية السومرية تم وضع النظريات الخاصة بصناعة النحاس والتعدين في تحصيل مادة الحديد الخام، إيضا تحويل الذهب والفضة إلى مجوهرات مدهشة، حوادث فردية قادت إلى تأسيس تلك العلوم المتطورة والتي نقلت الصناعة إلى مراحل أفضل، التقط السومريون إشارة السماء التي سقط منها الشهاب وتمعنوا بتلك البقايا من النيازك وتوصلوا إلى البحث عن مادة خام مشابهة ثم دخلوا مرحلة التصنيع، اكتشاف الحديد غير الكثير من المعادلات العلمية وأدخل الصناعة في مرحلة متقدمة، بلاد ما بين النهرين اكتشفت وصنعت وقدمت نتاجها للشعوب المجاورة وغيرت الكثير من المعادلات وظهر الحديد بشكل مؤثر في تصنيع الأسلحة التي وجدت منها نماذج في القبور السومرية التي تم الوصول إليها- تلك اعتبرت من أهم كنوز سومر منها أسلحة ثمينة تم طلائها بالذهب وهي مصنوعة من الحديد، كذلك وجدت نماذج مهمة وثمينة جدا في المعابد السومرية – قدمت أرض بلاد ما بين النهرين دلائل مهمة على وجود فن متقدم للتصنيع تركت منه نماذج في الاختام الاسطوانية والأسلحة تلك التي ثبتها علماء الآثار في سجلات اكتشافاتهم المهمة المذهلة، وجدتُ إشارات عن تبادل تجاري بين سومر وممالك أخرى، ذاك التبادل تضمن مصنوعات من الحديد والنحاس وسبائك من الذهب والفضة كانت صفقات للبيع وأخرى قدمت كهدية- تلك المراحل الزمنية تدل على ان الصناعة السومرية وجدت طريقها للتصدير والتبادل مع الممالك الأخرى، وجدت نماذج مشابهة للنماذج السومرية في مملكة " ماري " وفي اكتشافات آثرية في الأناضول وسواحل البحر الأبيض المتوسط، تكشف تلك النماذج عن تطور في عملية التعدين وشكل الانتاج من صناعة الفأس والأسلحة والمحراث إلى المنجنيق

والدروع والعربات العسكرية المصفحة بالحديد والـدروع الواقيـة للجـواد ولصـدر المقاتـل إضافة إلى صناعة الخوذة العسكرية، إلى جانـب رؤوس السـهام التـي تطلـق مـن القـوس والسكاكين والخناجر والسيوف والرماح....

الرياضيات وعلم الفلك لدى السومريون وشؤون أخرى

الخطأ الشائع لدى الكثير من علماء تاريخ الحضـارات القديمـة ان الفضـل في وضـع علـوم الرياضـيات والفلـك في مرحلـة اليونـان يعـود إلى إطلاعهـم عـلى علـوم الحضـارة البابلية..!، هذا الاعتقاد أصبح فرضية غير صحيحة بعـد تعـاظم الاكتشـافات عـن حضـارة سومر، والصحيح ان تقسـيم السـنة والأشـهر وحسـاب الـزمن وعلـم الفلـك فـيما يخـتص بمراحل القمر وبروج النجـوم وتحديـد أسـماء الكواكـب وغيرهـا وضـعها علـماء الحضـارة السومرية قبل أي حضارة أخرى، اعتمد فضاء الحضارة البابلية في كـل شيء عـلى منجـزات شعب سومر، كل ما ينسب لبابل هو مأخوذ عن حضارة بلاد ما بين النهرين الأولى، تميـزت تلك الحضارة بظهور العمليات الحسابية – خاصة علوم الجبر والهندسـة والعمـران حيـث استخدم السومريون تلك التطبيقات في البناء والعمران وإنشاء القنوات وشق الطـرق كـما استخدمت علوم الهندسة والحساب في تطوير الكثير من العلوم الأخرى ووضع الفرضـيات وإيجـاد البراهـين لهـا، ثبتـوا الأعـداد ووضـعوا الأشـكال الهندسـية والنظريـات المتعلقـة باستخداماتها، حدد السومريون أشكال الزوايا والعلامـات الهندسـية الأخـرى مثـل الـدائرة – المثلث – المستطيل – المربع- الخط المستقيم والمنحني، كما أعطوا التفسير لكـل علامـة هندسية وكيفية استخدامها، دونوا الانطباعات – الرموز –الإشارات، كتبوا عـن كـل معـدل حسابي توصـلوا إليـه، ثبتـوا الرمـوز المطلوبـة، ووضـعوا التصـور الأولي للأحجـام والأطـوال والمقـاييس واسـتخدموا علامـات الترقـيم، حـددوا بمهـارة وذكـاء قيمـة الصـفر في كـل

مرتبة، وضعوا في الرياضيات النظام العشري والكسور وتحديد الأرقام وحساب الجذر التربيعي في المعادلات الحسابية وأسس معادلات الكسور العشرية، عدد من الدراسات الحديثة أشارت إلى أن نظرية فيتاغورس أصلها سومري وتوجد ألواح مثبتة عليها تلك النظرية بالكتابة المسمارية في متحف العراق الوطني للآثار، كذلك في مجال الفلك واكتشاف الكواكب ربطوا ذلك العلم بالآلهة ومن خلال توجيهاتها عملوا على إكتشاف الظواهر الفلكية وأندفعوا في تسجيل ملاحظاتهم وأفكارهم عنها خضعت تلك الخطوات إلى التطبيق العملي والبحث والتقصي وكانت البدايات وضع تقويم لخدمة الزراعة وإدارتها وفق الفصول ومعرفة متى يحل الصيف أو الربيع أو الشتاء – وصفت تلك الجهود بالبارعة والذكية والمقرونة بمعرفة الظرف الزمني وتغيير المناخ، وقياس الوقت ووضع الملاحظات عن التغييرات المناخية والبيئية، في مجال تدوينهم عن التغيير الذي يتعلق بالقمر حددوا له أربعة منازل يكون فيهاالقمر- الكامل – المتضائل – الهلال – المختفي، تلك كانت بمثابة علامات فلكية لقياس الزمن والتغييرات المناخية التي تصاحب كل حالة وما تتركه على الحياة والإنسان والنبات بشكل خاص، وصار تبعا لذلك تحديد المواسم الزراعية والحصاد ومواسم هطول الأمطار والفيضانات والعواصف الترابية، هذه القياسات والمعلومات استخدمت في المدن المتحضرة ذات الحياة المستقرة بينما لا يمكن تطبيقها على التجمعات البدوية التي تتغير ظروف الحياة فيها بشكل مستمر، كان القمر والشمس والكواكب علامة دالة يستدل من خلالها على تلك التغييرات، تلك الظواهر الطبيعية أعطت العلماء السومريون مفاتيح الزمن والفواصل بين الفصول، كما رسمت لهم بوضوح التغييرات المناخية، أعطتهم الدليل الأكيد عن الفترة التي تنجح فيها الزراعة بعيدا عن حدوث الفيض أو هبوب العواصف هذه العلوم

قدمت الخدمة الكبيرة للأقتصاد ولاستمرار الحياة وساعدت في ترسيخ خطوات التجارة، معرفة التبدل في الشمس ومنازل القمر جعلتهم يهتدون الى التقويم الشمس – القمري، اللذان صارا مرآة الحياة في كل عام، في الألواح السومرية تقول الأناشيد ان الأشهر هي 12 شهرا وعدد أيام السنة هي 354 ذاك التقويم أهتدى إليه السومريون في الألف الثالثة المبكرة حيث ظل العمل بالتقويم القمري والشمسي جنبا إلى جنب وتم العمل بهما رغم البيئات المختلفة في الممالك القديمة، كان علامة تؤرخ لبداية الاحتفالات الدينية وأعياد التتويج، أبقى السومريون وفيما بعد تبع خطواتهم البابليون والآشوريون على إبقاء سجلات مفصلة عن كل الظواهر الفلكية والطبيعية والتغييرات المناخية والتبدل في أحوال الفصول – من تلك التغييرات التي اهتموا بها دراسة سلوك النمل كما برعوا في معرفة الطالع ودونوا ملاحظاتهم عن متابعة حركة الأجرام السماوية وأسسوا لبداية علم الفلك الرياضي – حددوا حالات الإنفجار الشمسي وأماكن وجود الكواكب المهمة مثل – الزهرة وعطارد وزحل والمريخ والجدي وغيرها – ارتبط بتلك الكواكب ظهور علم جديد يتعلق بالتنجيم وبشكل دقيق ومبهر كما تمكنوا من صناعة ساعة الوقت – الساعة المائية والاسطرلاب وحركة الوقت داخل الدائرة وانتقالات الضوء وسرعة الصوت، وضعوا تمثيل بياني يعتمد على حركة الشمس والكواكب دخولها وخروجها من بعض الأبراج، وتأثيراتها وارتباطها بالطوالع التنجيمية والمستندة إلى حركة القمر والكواكب ورصد التغييرات لفترة طويلة، كما تمكنوا من تحديد موعد حدوث ظاهرتي الخسوف والكسوف وظواهر أخرى مثل المدّ والجزر في حركة مياه البحر وهبوب العواصف وظهور الصواعق وتفجر البراكين والزلازل..

الدواء السومري

تحدثت الألواح السومرية عن وجود وجود العلاج الطبي بمشورة الآلهة ومباركتها، وتضمنت الألواح الكثير من التعاويذ والوصايا وذكرت العديد من الأمراض وطرق الشفاء منها وكذلك وصفات طبية من الأعشاب من الأعشاب لمداواة آلآم الأسنان والمعدة ووجع الرأس وأمراض أخرى عديدة، توارثت الأقوام التي جاءت بعد سومرتلك العلوم كما نجدها عند سكان بابل من الذين كتب عنهم الرحالة " هيرودوت " ومارآه في أحد الأسواق من بيع العلاج أو وجود طبيب يكشف على المريض ويصف له الدواء، بالرغم من ترجمة الكثير من الألواح التي كتبت في فترة سومر إلا أن المعلومات تظل قليلة عن الطب والتداوي وخاصة العلاج للرمد وأمراض العيون، وذكرت طرق استخدامهم للحقن الشرجية لبعض الأمراض في المعدة، وثمة إشارة مهمة تتعلق بوجود أطباء رجال ونساء من اهتمامهن توليد الحوامل ومعالجة الأطفال حديثوا الولادة، وظهور مرحلة أكثر تطورا حفلت بنقل الخبرة الطبية وتشكيل مقرات للعلاج يمارس فيها التداوي بالطب والقيام بإجراء العمليات الجراحية، ، تلك المرحلة كانت بداية تكوين قاموس عن الأمراض وتدوين وصفات العلاج الخاصة بها، ومعرفة الأمراض التي ترافق كل موسم، تلك الألواح شكلت المصدر الواضح عن تطور الطب أو الدليل على متابعة الأمراض وكشفت عن ان من يمارس مهنة الطب في سومر لديه المعرفة بالقراءة والكتابة، تلك العلوم توارثتها أجيال من الشعب السومري وطورتها من خلال البحث والتجربة، تدرجت مسميات الذين يعملون في مهنة الطب حسب خبرتهم ومهارتهم وما أثبتته خبرة علاجهم، مثل لقب الطبيب المداوي – الطبيب الجراح – الطبيب المعالج – الطبيب الروحاني، تلك الألقاب تنطبق على الرجال والنساء، تلك

مسميات مهنية واجتماعية تحفظ الجهد والمرتبة وتشيد بمستوى علم الطبيب ونوعية تخصصه، أندفع الشعب السومري إلى أمام عندما أوجد لقب رئيس الأطباء - حكيم الحكماء - طبيب العلل - الطبيب الأعلى - سيد الشفاء - مفتش أحوال المرضى - كما تم تعيين المساعدين والجراحين وأصحاب خبرات المتابعة، كما ذكرت تلك المصادر عن وجود مسميات لأطباء طبيب القصر الملكي ومساعدوه أو طبيب الملك الخاص أو رئيس أطباء القصر الملكيأو مفتش أطباء الملك، من غير الواضح إذا كان أولئك أيضا يقدمون الخدمة للشعب أو فقط يقتصر عملهم على معالجة الملك وحاشيته في القصر الملكي أي الوزراء وقادة الجيش أو من برتبتهم ويرتبط بهم المشرف على المقبرة الملكية أو المقبرة العامة التي يدفن فيها أفراد الشعب أيضا هناك أطباء يقع ضمن أهتمامهم معالجة الكهنة أو الكتبة والمديرين والعمال وهناك علاج يتبع الحكم وعلاج له ثمن مقابل الخدمة، تلك التقاليد والمعلومات أنتقلت إلى المدن المجاورة وعمل بها نظام الحكم ووضع لها قوانين، وعند حصول الأوبئة والكوارث الصحية كانت الممالك المجاورة تستعين بجهود الأطباء في سومر، حيث يرسل القصر الملكي نخبة منهم للمساعدة في العلاج وتوفير الخدمة الصحية، الأمر الذي أرسى علاقات تعاون، كما كان الإبتهال للآلهة في المعابد جزءا من العلاج الطبي أيضا السحر والتعاويذ والكي بالنار والحجامة وإلقاء الملح في النار من وسائل علاج الأمراض، ثمة مزاوجة بين الطب بالاعشاب والطب بالتعاويذ والتضرع إلى الآلهة تبعا لتلك الحالات بدء التوصل إلى معادلات أولية لصنع العقاقير والدواء من الأعشاب والنباتات، بعض الدواء كأن يمزج بالطعام، ثبت السومريون المشاكل الطبية ووضعوا لها العلاج المناسب هم فكروا طويلا بالقروح والديدان التي تظهر في براز المرضى والتهاب المفاصل وسبب حالات العجز في الأطراف

او الدوالي في السيقان وقرحة المعدة والنقرس وسبب علل الرئتين والمشاكل التي يسببها الدخان والرمال وعدم التهوية للأماكن المغلقة وخاصة في المعابد والخلل في الهرمونات وفساد الدم وإصلاح كسور العظام واهتدو إلى طرق قلع الأسنان واستخدام الملح في معالجة نزيف الأسنان وأوراق الشجر في معالجة الدمامل والتوصية بوضع القدمين في ماء حار مذاب فيه الملح لتعقيم أقدام الفلاحين بعد الحصاد، ربطوا الصحة بالخرافة وبتكوين الوجود عندما كتبوا إسطورة التكوين الأولى حيث خلق الآله " آنو - ANU" السموات والأرض وشق الأنهار والبحار وصنع البحيرات وسهل عمل القنوات وخلق الدودة التي تدخل جسد الإنسان وتعمل على فنائه وموته، تلك الدودة التي جعلت جلجامش يبكي لمصير رفيقه " أنكيدو "، في الألواح الطينية السومرية الكثير من الإشارات التي تصف وتدون ملاحظات عن الطب وأنواع الأمراض والأدوية التي صنعت لها، وحديث عن جولات قام بها ملوك سومر لتفقد حالة المرضى في مجمعات صحية وعند أنهيار المباني يتواجد الأطباء لتقديم الاسعافات المناسبة كما عرفت سومر بدايات الطب البيطري والاهتمام بصحة الحيوانات المدجنة وتدوين وصفات لعلاج الأمراض التي تصيبها، أيضا اهتموا كثيرا بمعالجة أمراض النساء وتصنيع الأدوية المناسبة لحالات العقم وعمل الوصفات الطبية التي كانت غالبا تعتمد على مزج الحليب بالزيت النباتي مع مساحيق من أوراق الشجر، كانت تلك الأدوية تعطى للمريض عن طريق الفم أو أحيانا يوصف علاج يعتمد على الاستحمام به أو يطلب تبخير المريض به، توصف بعض العلاج للمرضى حيث يوصى بأكل السمك المشوي أو لحم الخروف المشوي أو دهن مواضع من الجسد بزيت الخروع، كما استخدم السومريون الثوم لمعالجة أمراض المهبل عند المرأة، حددوا معرفة الحمل عند المرأة من شكل عضلات الصدر والنهدين، وعملوا

على إيجاد علاج لحالة الضعف الجنسي عند الرجال، واسندوا علاج الكثير من الحالات للسحر ومشيئة الآلهة، اعتقدوا ان استخدام الثوم في تطهير الرحم ويمنع التفاعل بين البويضة والحيامن ويقلل من حالة الحمل وهذا يستخدم في حالات عدم الإنجاب بعد المباشرة الجنسية، كانوا يحددون من رائحة البول للمرأة درجة خصوبتها واستعدادهاللإنجاب ودرجة تفاعلها في العملية الجنسية حسب تلك التجارب كانوا يعرفوا تماما جنس الجنين داخل بطن المرأة، كتبوا العلاج لتدليك العظام بزيوت تم انتاجها من الحيوانات والنباتات، اعتمدوا أيضا على استخدام السحر في طرد الأمراض والعلل من الاجساد من خلال عمل الرقية وشرب السوائل التي باركتها الآلهة لطرد الشر والمرض من البطن والأطراف وقراءة نصوص دينية في وصايا الآلهة " إنانا " على جسد المريض، أو جعل المريض يشرب المياه التي قرأت عليها تلاوة منطوق الآلهة إنانا في حماية البشر، مثل حرق الحرمل والملح وقراءة التعاويذ لطرد أوجاع الرأس لدى المريض، كانت هناك أنواع طينية مكتوب عليها الآيات والتعاويذ يتم احضارها ويقرأ منها على جسد المريض الممدد قرب موقد النار حيث يتم مع القراءة إلقاء الملح والحرمل ويستمر ذلك حتى يخرج الشيطان من الجسد وبذلك يتعافى، أيضا اعتقدوا ان نشر روث الحيوانات في مكان يتم اختياره بالقرب من الدار أو البول فيه يمنع دخول الشيطان إلى الدار لصد الأرواح الشريرة أو استخدام الأقداح أو الأبر المدببة لعلاج أمراض العمود الفقري أو الحجامة ولعلاج المعدة إفراغ المحتويات الموجودة فيها عن طريق الشرج من خلال شرب زيت الخروع وجعل الوخز بالأبر لعلاج الروماتيزم في الأطراف كانت لديهم الكثير من الوصفات الطبية إلى جانب البخور والسحر دونها السومريون في الألواح الطينية التي كتبوها بالخط المسماري إلى جانب تعليمات لصنع الأدوية وتحديد استخدام كل منها لعلاج أي

مرض، كما عملت تلك المراكز الطبية بمفهوم الفحص السريري، وتدوين التقارير عن حالة المريض، كما تمكنوا من صنع مراهم علاج للعيون وأمراضها وحالات أمراض الأذن، دونوا ملاحظاتهم لعلاج العظام والكسور وإنزلاق الفقرات في الظهر، وربط الذراع والساق في حالة الكسر أو الجروح بشكل مستمر واستخدام أوراق الصفصاف أو الجميز في العلاج وغيرها من الأشجار بمثابة مواد لتطهير الجروح، كما استخدموا الكي في الكثير من الحالات، أيضا عملوا في مجال تشريح الجسد، عملهم في مجال الطب لم يكن يسعى لتخفيف المعاناة بل يسعى إيضا إلى فهم الأسباب الكامنة وراء الإصابة وتأثيرها على الجسد، تلك المعلومات المتراكمة التي دونوها في أبحاثهم أدت إلى تكوين المعارف الضروريةللعلاج ومن خلالها حصل التطور اللاحق في مجال الطب بشكل عام في الفترة السومرية واستفادت الحضارات اللاحقة من ذلك، تم النظر إلى تلك العلوم والمعارف على أنها هبة من الآلهة التي يهمها وجود البشر ومحاولة تعطيل مدة فنائه، تمجيد تلك الجهود بدأ في وقت مبكر في سومر، وشدد على تواصل عمل الاسعافات الأولية، ظل ظن شعب بلاد ما بين النهرين ان تلك الأمراض تحصل نتيجة هجمات القوى الوهمية المرتبطة بعفاريت الآلهة وأحيانا تنبع من حالة السحرالتي يقوم بها الأفراد ضد غيرهم، أن الرقائق الطينية المكتوبة فيها الأدعية المضادة للسحر لدى السومريون كثيرة، كانت أفكارهم في الكثير من ذلك تستند إلى خرافة تقول ان الآلهة تدبر تلك الأمراض من أجل فناء البشر وإثبات مقدرتها على العقاب، شكلت حالة الرقية والسحر في الطب السومري حالة للارتباط بالآلهة وإظهار قوة تأثيرها وهي حالة من الخرافة لاغير، يغلب على تفاصيل ذلك العلاج تكهنات متداخلة بين العلم والخرافة، حيث كان العالم القديم في مقدمة التكوين السومري يتبنى ثقافة الإيمان بالسحر وإمكانية فعل

الآلهة، تلـك الأفكـار الخارقـة للطبيعـة، كـما شـاع عنهـا يـأتي في المقـام الأول في العـلاج وخاصة استخدام المعوذات التي تحمل كلـمات وتعـاليم الآلهـة والمعبـد حتـى الأطبـاء الذين كانوا يتصدون للعلاج لم يتمكنوا من تحرير أنفسهم مـن ثقافـة الخرافـة، هـم لا ينكرون حصول الأمراض الناجمة عن القوى الخارقـة ومـع هـذا يعمـل عـلى العمـل في العلاج ووضع خطة الدواء، كما أن الطبيب المعالج قد يوجه باستخدام السـحر للشـفاء، في سومر كانت هناك آلهة من النساء للشـفاء وعـلاج حـالات المـرض، هـم يؤكـدون في حكمهم عن المرض والطب مـا يقولـون أن العـدوى بـدون طبيـب مثـل الجـوع بـدون طعام، كانت الأدوية السومرية تعتمد في الغالب عـلى طـب الاعشـاب والنباتـات، مثـل استخدامهم المنتجات النباتيـة – الارز – الزيـوت – الكبريـت – الامـلاح المعدنيـة – دم العديد من الحيوانات والطيور والزواحف – الملح – البخور – المخدرات لتسـكين الآلام، دون السومريون طرقا عديدة لتحضير الأدوية منها السحق عن طريق هاون حجـري أو مجرشة أو غـلي المسـحوق في فـرن لدرجـة الغليـان وتبريـد النـاتج مـع إضـافة البـترول ليتحول إلى مرهم، أو وصف الاستحمام بمياه ساخنة ممزوجـة بـالملح لمعالجـة الأمـراض الجلدية، أو مزج المواد المستخلصة من النباتات ودفع المـريض إلى استنشـاقها أو وضـع السوائل لعلاج الأنف والأذن أو للغرغرة في البلعوم، كان يتم تحديد تلك الأدوية أما أن تؤخذ مع الطعام أو بعد الطعام، وضعت تلك الأسـس أو المعلومـات في الألـف الثالـث قبل الميلاد وأصبحت مثل قاموس طبي يعود إليه الطبيب المعـالج للاسترشـاد في عملـه، حالات عمـل متواصـلة في التجريـب لاكتشـاف الأدويـة والوصـول إلى التحليـل وتأكيـد جودتها للعلاج أو وضع اقتراحات جديدة للتطوير، هناك وصفات طبية سومرية لا تزال تستخدم في الطب الحديث ولا بديل لها، في فترات الـزمن المتلاحـق بـدأ الأنفصـال بـين

المنهج العلمي والشعوذة وأتخذ الطب السومري طريقا ومنهجا مستقلا اكتسبت تلك التجارب وما تمخضت عنه نتائج وتوجهات اعتبرت مقدسة وحفلت بها النصوص الكتابية الأولى وفي المراحل اللاحقة تم جمع تلك النصوص ودمجها لتكون من أهم المراجع العلمية في الطب والدليل المرجعي للطبيب السومري، كان ذلك السجل يتطور ويتم التعديل عليه بشكل مستمر، في بلاد سومر وقبل الميلاد بثلاثة آلآف عام تمكنوا من وضع قاموس شامل للطب والعلاج وهو الأول تقريبا كونيا، تلك الخبرة الطبية المتراكمة لم تقفل الباب بوجه التطور اللاحق، ولم تقطع ببطلان السحر والرقية وعلاج الشعوذة بل اختارت الطريق لإثبات الحقائق التي تزيل كل ماهو غير شرعي، ومنحت المدن المجاورة تلك العلوم للتجريب والإضافة عليها، لم تحتكر سومر علومها بل كانت تدرك أنها للجميع دون قيود، جعلت من الطبيب هو الخبير أو صاحب المنزلة الأقرب من الآلهة وتلك مواصفات تقديس مهنة الطب، نجد ان شريعة حمورابي ذكرت في إشارة ضمن بنود قوانينها إلى العمليات الجراحية حيث وردت نصوص العقوبات لمن تسبب من الأطباء في مقتل أو عمى مريض مبصر، وتلك البنود أخذها حمورابي من عقوبات وردت في نصوص المسلات والقوانين السومرية..

الديانة في سومر

ثمة علاقة قوية بين الجغرافيا والتاريخ وظهور الأديان في العالم القديم وقد تم تثبيت معلومات كثيرة حول المناطق الأقليمية التي اعتمدت ديانات ظهرت أنذاك وثبت العلماء أن معظم الأديان الرئيسية الموجودة حاليا في العالم الحديث قد أخذت أفكارها وتعاليمها من الديانات القديمة وطوعت تلك الأفكار وفق تطور المجتمعات تجددت من خلال الفتاوى والفرضيات والتعاليم الجديدة، كلها كانت تستند إلى الذات الآلهية، أنتهى في الديانات الحديثة دور تعدد الآلهة

ومهماتها وصار الإعتراف بالآله الواحد في كل الديانات اللاحقة وظلت هناك اختلافات بسيطة تدور حول شكل الطقوس أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير أو بعض النباتات وكذلك في حالات منع التصاهر بين اتباع تلك الديانات، كل حالات التوتر بين تلك الديانات كانت تصل إلى حروب مدمرة تستمر لسنوات وتتجدد كلما وجدت الظرف المناسب، وبينما تذبح البقرة عند اليهود والإسلام والمسيح نجد ان الهندوس يحرمون ذبحها وأكلها، تلك الديانات كانت تحافظ على تعاليم معينة وفق الثقافة القديمة وتشكيل العقل البشري في تلك الأزمنة، في المقارنة مع استمرار شكل الالتزام والمحافظة على تعاليم الديانات القديمة مع الوضع القائم حاليا في الغرب نجد ان الفرق شاسع جدا، حيث ان المجتمعات القديمة في الشرق الأدنى تعتمد على القضاء والقدر في تحديد مصير الإنسان بينما العالم الغربي ابتعد كثيرا عن هذه الظاهرة والافكار المحيطة بها وصار يؤمن بأن الحركة والفعل هما اللذان يحددان مصير الإنسان، شهدت الفترات الديانات تتهرب من الإجابة على أسئلة الإنسان القديم عن شكل " النجوم - القمر - الشمس" السؤال حول تكويناتها، كيف نشأ الكون، ماهي ماهية الآلهة وشكلها ولماذا لا تهبط من السماء، كيف تكون النار والظواهر الطبيعية الأخرى، تلك الأسئلة والكثير غيرها كانت تقع بين منطقة الإيمان والبحث عنه، بعض الأسئلة التي كانت تحير رجال الدين مثل تلك المتعلقة بوجود عوالم أخرى وفلسفة الحياة الأخرى بعد الموت، والإحاطة بالعالم الذي تستمر الحياة فيه، ولماذا رغم وجود تلك الآلهة تحصل الكوارث ولا تتمكن من منعها، انشغلت جميع الأديان بوضع الأفكار والتعاليم التي ترتب حياة وسلوك الإنسان والأبتعاد عن تكرار حادثة " هابيل وقابيل " سحب التكوين الآلهي إلى حالة تجعله يؤثر بشكل واقعي على الحياة والعمل على ضمان استمرار الحياة والوجود، ربطت تلك الديانات الخير

والعقاب بوجـود وتعـدد الآلهـة المخترعـة كـما فرضـت التعـاليم التـي تقـود إلى استمرار ديمومة ذلك التأثير المتمثل في الصلاة والتواجد في المعبد، ربطت استمرار الحصول على الخير والغذاء بالطاعة المستمرة لتلـك الآلهـة، عـدم تطبيـق طاعـة الآلهـة يـؤثر عـلى الـزرع وتكـاثر الحيوانـات وحـبس المطـر، وحـدوث الفيضـان وإنتشار الأوبئة وحصول المجاعات والحرائق وغير ذلك، رجال الدين مـن الكهنـة كانوا يعدلون سرا من تلـك التعـاليم الدينيـة لصـالح الإنسـان ولتثبيـت السـلطة الدينية والابتعاد عن الدخول في تفسير الظـواهر وتعليـل الأسـباب الكامنـة وراء عملية الخلق للعواصف والبحار والأنهار والمستنقعات والجبال والشمس والرياح والنار، جميع تفاصيل تلك الكائنات الحية، ظل الغموض يسيطر على الكثـير مـن وجودها، الأسماك – الطيور – الحيوانات الأخرى وما الصـلة المبـاشرة مـن وجـود الاسماك والطيور في مناطق الأهوار ولمـاذا فقـط هنـاك ينبـت القصـب والـبردي، بعض مناطق بلاد ما بين النهرين القديمة لها تلك الدلالة في وجود الأسئلة المحيرة التي كانـت تحـيّر عقـل الإنسـان القـديم، في أقصى منـاطق الجنـوب في بـلاد مـا بين النهرين تقع مناطق الأهوار والبحيرات الشاسـعة وفيهـا تكمـن أسرار الخلـق والتكوين، ذلك ما شـهدته منطقـة الـديانات القديمـة في مدينـة أريـدو- Eridu وهي تعتبر أقـدم تكـوين بشري في العـالم القـديم، أكـبر وأول مسـتوطنة بشريـة هي تلك التي تشكل فيهـا التفكـير الـديني السـومري القـديم، تكونـت بعـد ان رمى الفرات الطمي والغرين وظهرت أرضها للوجود، ظلت مناطق المياه وحسب قرار الآلهة مغطاة بأعواد القصـب العمـلاق والـبردي والنباتـات الأخـرى، ارتـبط مفهـوم السـومريون بالحيـاة مـن خـلال المـاء الـذي يشـكل وجـود كـل شيء حيّ، نظروا إلى تواجد الخنازير البرية والزواحـف والطيـور والحيوانـات الأخـرى وكيف يمكن تربيتها، ظل يشغل تفكيرهم وجود تلك القوة الغامضة التي تسيطر

على تفاصيل الكون وهـم يـروّن الحيـاة قـد اودعـت سرهـا في الميـاه وهـي المنتجـة إيـنما تقدمت، لا بـدمن ان تكـون لهـم صـداقة قويـة مـع القصـب والـبردي، اسـتمالوا القصـب وحفظوا صـوت خريـر الميـاه، التوسـع في التغيـير الطبيعـي قـاد السـومريون إلى سياسـات عدائية مع الطبيعة على أثر ذلك حصلت الفيضانات التـي أتلفـت الحقـول والمسـتوطنات البشر يـة واسـند ذلـك الفعـل إلى غضـب الآلهـة، ردا عـلى ذلـك انـدفعوا في غمـر الرحمـة للطبيعة من خلال فتح القنوات وشق الأنهار وفـتح نظـام للـري في المنـاطق الجافـة وغـير الصالحة للزراعة ومنحها الحياة والنمو، اعتبروا تلك الأفعال هي بمثابـة اقـتراب مـن الآلهـة والتعبير عن حالة الندم، كما عمدوا الى التعامل المتوازن مع الثروة الحيوانية، في بيئة أهوار أريدو كانت مناسيب المياه مرتفعة بحيث يظهر الماء عندحفر أول متر من الأرض، وهكـذا وجدوا تحت سطح الأرض المياه العذبة وتكون لـديهم مفهـوم الأبسـو – Al-Apsu حيـث ساد لـديهم اعتقـاد بعلاقتـه بالحيـاة كـما مـدوا الحيـاة مـن الابسـو الى حافـات الصـحراء وحولوها من القحط إلى الإنتاج والحياة بفعل ميـاه الابسـو التـي اعطـتهم القـوة الخارقـة التي تصوروا وجودها مثلا في الحليب حتى وصل بهم الأمـر الى اعتبـاره آلهـا – اسـتخدموا القوة الفكرية في التخطيط والتعمير وإقامة البساتين والتوسع في زراعة النباتـات وشـاهدوا الطاقة الكبيرة في نمو الزرع والمحصـول منـه وحـددوا في تجـاربهم الزراعيـة أوقـات الـزراة وطرق زراعة كل نوع من تلك النباتات وطريقة تكاثر الأشجار والنخيل، أنعكس ذاك الثراء على حالتهم الفكرية ونمـت لـديهم حالـة الخيـال ووضـع الأسـاطير المدهشـة عـن الكـون والألهة والمجالات البعيدة، كان الوجود بالنسبة لهم حالـة غريبـة تقـف خلـف ذلـك قـوة مجهولة، قرروا البحث عنها وكشف استارها، استخدموا مضامين الآلهة والحيوان والظـواهر الطبيعية وتعددت لديهم اسـماء الآلهـة ومهماتهـا، اقـترب خيـالهم كثـيرا مـن رسـم صـور

مدهشة لتلك العوالم البعيدة، خلقوا العدو الوهمي على شكل طائر خرافي والحياة على شكل أعماق الابسو حيث القوة الكامنة في أعماق المياه العذبة ورسموا الوعل الخارق الذي يتحرك بين أعواد القصب، مفاهيم عديدة قادتهم الى تحديد الآلهة والخوارق التي ارتبطت بها، استند إلى عاملين هما القداسة والخوف هكذا تطورت الرؤيا في الديانة القديمة، في مرحلة ما قبل التاريخ أي في الألف الثالث قبل الميلاد، حصلت تغييرات كثيرة ومتسارعة في تكوين النظام الاجتماعي في جنوب بلاد مابين النهرين – مملكة سومر – استند ذلك إلى نجاح نظام الري وتأثيره على تطور الزراعة وما انعكس على الزيادة في الإنتاج وتحقيق الرخاء، وتحقق مبدأ الحقوق بين الأفراد والسلطة وساد النهج الديمقراطي الذي يضع لكل جهة قيمتهاودورها وحصل التجانس بين الشعب والسلطة على أساس الاحترام المتبادل والإقرار بالحقوق والمكانة وتبادر أدوار المسئولية رغم وجود هيكل هرمي وعدم المساواة في الثروة، ذلك حتم الانقياد إلى الرجل العظيم الذي يجلس في القمة المثير للإعجاب الذي يشكل مشاعر الصدمة والرعب والقوة ويمثل السلطة الأولى، زعيما للمجموعات السومرية البدائية الأولى بما يشبه السيطرة الحكومية الحالية، حتى تطور ذلك الشكل ليقدم انموذج صاحب الجلالة – الملك – القائد – المحارب – الذي يتماهى مع سلطة مياه الابسو العاصفة الرعدية وفق حالات التشبيه التي وردت في قصائدهم وظلت أفكارهم تتجسد حول الآلهة مع تنامي الكثير من الخرافات في محيطهم التي اشتبكت مع الاسطورة في وضع أعطى الكثير من الدلالات على تطور التفكير والتصور وتعاظم المهمات بين الهدوء والتوتر الذي تخلقه الطبيعة في الفياضانات والحرائق وحالات الأوبئة مما يدفع الإنسان السومري إلى الخوف واللجوء إلى الآلهة الأمر الذي أدى بشكل حتمي إلتطور الديانة وتعدد الآلهة، فرز العالم الى

حالتين عالم يسود فيه الخير وعالم يسود فيه الشر وحتمية الصراع بينهما، كان الاعتقاد عندهم ان المياه المقدسة تنتصر على التلوث من خلال الفيض، تلك حققت التوتر وأعطت الإيمان طابعا جديدا، حيث حلت بين المفاهيم القديمة مفاهيم جديدة وصفت بإنها حدثت المقولة الدينية كما صنفت القوى المعادية وتحدد أيضا مفهوم أن الآلهة نصرت الابسو على ظلام البشر وتبعا لذلك تغيرت الطقوس ونشأ التفكير بالاسطورة التي تحدثت عن الفيضان ورسمت " اتونابشتم " كبطل متفرد، تم تجسيد الآلهة في الفن مثل تجسيد عشتار وإنانا وجلجامش، ووضع علامات لها مدلول في الذاكرة السومرية مثل " الكون – النسر – اللبوة – القطط – الكوبرا – التمساح " أيضا ارتبط الدين وظهرت آلهة متعددة بمرحلة الاستيطان وتطور الإنتاج الزراعي وتنامت المجتمعات الحضرية وتمت كتابة الاناشيد الدينية والابتهالات والأساطير، ونجد ان المستوطنات البشرية المتطورة أصبحت ترتبط بنشوء المراكز الدينية السياسية الهامة التي تجاوز تأثيرها تلك المواقع إلى مدن وممالك تحيط بمملكة سومر، كما اكتسبت الآلهة أهمية وطنية وصارت المدن تعرف بقوة الآلهة الموجودة فيها، في سومر مثلا كانت الأساطير والأناشيد تدور حول الإلهة إنانا – انو – إنليل – وغيرها، توجد عدة مناطق في تكوين البلاد جنوب العراق الحالي – في ذاك العالم القديم قد تتفق مدينتان في عبادة آلهةواحدة، وكل منهما بطريقة مختلفة وقد يمتد تأثير تلك العبادة إلى المدن المجاورة فيحصل التقليد، كانت تلك المدن تمثل القوى الخارقة وقد تعرف تلك الآلهة بإسماء مختلفة وكانت تلك العبادة تأخذ شكل تالمهمات في الحياة اليومية مثل تكوين العائلة الأب – الزوجة – الأبناء، كان تجمع الآلهة في سومر قد توسع وصار يتكون من 3600 من أسماء الآلهة ولكن من بين هذا العدد توجد أسماء معدودة بارزة، من بين أشهرها الآلهة " إنانا " التي تمثل الآلهة المؤنثة المسيطرة

على الحياة وصاحبة التأثير في مصائر سكان المدن القديمة – أور – أريـدو – أوروك – هي ترمز حسب اعتقادهم إلى التأثير في الخصوبة والجنس المقدس، فـيما بعـد ظهـر في الحضارة الاغريقية الآلهة " فينوس " – في اشارة لعبـادة الآلهـة الآكاديـة Anuأو أنليل أو أنكي، كانـت مهمـة تلـك الآلهـة الـتحكم بالميـاه والأرض والسـماء وتحقيـق التفوق والسيطرة وحكم العـالم وبجانـب وجـود آلهـة للخصـوبة والجـنس المقـدس، هناك أيضا إلهة للحرب والطاعون والموت وللحرف والمهن والمهارات والإبداع، الكثـير من الرموز والإشارات وجدت مدونة على التماثيل وعلى واجهات الاختام الاسـطوانية وداخل الكهوف وأيضا تحت أماكن العبادة الكثير من التماثيل كانت تجسـد أشـكال الآلهة المؤنثة وهو دليل علن السبق في منح النساء سلطات خارقة منذ الظهور الأول للتكوين – الآلهة المؤنثة حملـت معنـى رمـز الخصـوبة والإنبـات، حفلـت الأسـاطير بالتمجيد للآلهة المؤنثة، كـما تحـدثت عـن أفعالهـا الجيـدة، الاقتنـاع يلتـزم بـالقوى الخارقة التي تتمكن من تحقيق الحياة المطلوبة للإنسان في عملية مزدوجة للسقوط في وحل الخرافة والخروج منها، كان ذاك الإيمان يتأرجح، ومن علاماتها في بلاد ما بـين النهرين " الدفن في المقابر الملكية " والذي كان يتم بشكل جماعي وهو ويمثـل ذلـك شكلا من أشكال التضحية بحياتهم من أجـل فقيـدهم، ثـم توقفـت تلـك المراسـم أو الطقوس بعد الألف الثا قبل الميلاد، ظلت علامات الخـوف مـن الشـياطين، أضـا يـرد صداها في الكتابات والإنجازات الفنية وكانت تستقر في عقل المجتمـع القـديم حتـى عبرت إلى العصور الحديثة، ولها تـأثير كبـير في معتقـدات النـاس، وجـدنا الكثـير مـن المنحوتات تمثل فعل العفاريت واستعدادها لتدمير الإنسان ومعاقبته على نوع معين من النشاط وردود فعل الإنسان العادي، هياكل وأشكال مختلفة سـجلتها منحوتـات وفنون بلاد ما بين النهرين والأكثر مـن ذلـك حملـت مسـميات كثـيرة حتـى اقتربـت

تفاصيل الديانات فيما بعد من التوحيد وظلت الإشارة إلى الشيطان قائمة، ومع تعدد الآلهة في بلاد ما بين النهرين إلا أن عدو الإنسان ظل واحدا مع اختلاف المسميات، ثم حصلت محاولات الإصلاح الديني مثل التغيير في المعابد وتحديث النصوص وإعادة النظر في كتابة الأساطير والتقليل من المخاوف المسندة إلى قوى الشر والشياطين والعفاريت وتحديد العدو على أنه القوى المسلحة الخارجية وأطماعها، جميع كتابات الحضارات القديمة تزخر بالأفكار الغيبية والخرافات وبعضها تطور إلى أساطير تم توظيفها لغاية معينة أنذاك، كل تلك الأفكار وغيرها كانت تهدف إلى تحقيق الآمان والاستقرار للإنسان، وظل أغلبها يفتقر إلى الإجابات القاطعة، ومع تطور الأضرحة الدينية والمعابد – تطورت المفاهيم الدينية وتخلصت من بعض ضحالتها وعيوبها، تعاليم الآلهة دفعت الإنسان للعمل بذلك تم توفير الطعام وساد الرخاء الكبير، كانت تلك أفكار الاحتفالات الدينية الواسعة في أغلب فترات التاريخ القديم من تلك التي اوجدت تأثيراتها في جميع الثقافات القديمة وتسللت العديد من مفاهيمها إلى الثقافات المعاصرة، القراءة والكتابة كانت من أهم شروط الطقس الديني في بلاد ما بين النهرين، وثبتت تلك المفاهيم الاخلاقية والتعاليم ووضعت بساط التطور وتركيز العقل الإيجابي ضد الفعل الشرير، تطلعت تلك المجتمعات القديمة إلى التكوين النظيف السامي من خلال الطقوس والإسطورة والملاحم والتشريعات وفصول الحكم ومواعظ المجالس، استخدموا كل المحفات وبساط الانتقال من زمن إلى آخر للوصول إلى المعادلة الجديدة المطلوبة، كان النهيان عن فعل الشر نجده في كل كتاباتهم وأفعالهم، كانت خطواتهم تسير نحو بناء النظام الاخلاقي الحضارات القديمة انتجت نصوصا وأنظمة تضع الفعل الملموس بدلا من الاستناد إلى السحر أو الخرافة حيث كان عالم التطور يتوالد مع تقادم الزمن، اسقط التطور

العقلي الفكري كل تعاليم والأفكار المخزية، وظل الإنسان يخشى الغضب الآلهي، احتضنت المقولة الدينية المقولة الأدبية الإبداعية وحاولت الأخيرة العمل على تهذيب الأولى وجعلها تحتفظ بالحياة وتواكبها، وتزرع فيها الحيوية والاستمرار لصنع السلوك المثالي للإنسان روجت تلك التعاليم لمبدأين الأول أن الآلهة تكافيء الإنسان على فعل الفضيلة وتعاقبه على فعل الرذيلة ودفعت الإنسان للبحث عن حلول بمشاركة تعاليم الديانات في تفاصيل الحياة اليومية، لم تكن تلك الدعوة تؤسس للإسطورة فقط بل تقربها من الواقع اليومي، لم يكن ذلك التفكير ضرب من الأساطير بل هو حتمية الحياة وحقيقتها الملموسة، ذاك قاد للحصول على سبل جديدة للتفكير وتوظيف أحدث للمفاهيم في الكتابة والفن من خلال ذلك عبرّ الإنسان إلى فضاء العالم الحديث وهو ينظر إلى الخلف ومن هناك جاء بكل هذه المفردات والرؤى...

كتب صدرت للكاتب

— الأسطورة السومرية " إنانا - إرشيكيكال - ديموزي " دار تموز – دمشق

— الحضارة التي سبقت حضارة الأغريق والرومان – دار دجلة – الاردن

— العواشق " رواية " – دارالراية – الأردن

— شعراء وكتاب معارضون – دار دجلة – الأردن

— ثلاثثة أصوات في الأدب التركي الحديث – دار الشؤون الثقافية – بغداد

— السياسة والمسرح – دار دجلة – الأردن

— إنانا ملكة السماء والأرض – دار خطوات – دمشق

— من مسرح الكاتب يوجين أونيل – دار دجلة – الأردن

— في الأدب والفن – دار علاء الدين – دمشق

— الإعلام البيئي – دار دجلة – الأردن

— الأعمدة والفضاء – دار علاء الدين – دمشق

— تنسي وليامز والمسرح الأمريكي – دار دجلة – الأردن

— إنانا ملكة الأرض والفردوس – دار الشؤون الثقافية – بغداد

— في المسرح العالمي – اتجاهات حديثة – اتحاد الكتاب العرب – دمشق

— سلسلة العلماء العرب – دار الفكر – دمشق

— بغداد – دار دجلة – الأردن

- الإعلام والتوعية – دار علاء الدين – دمشق
- ثلاث مسرحيات مترجمة للكاتب اوجين اونيل – دار رسلان – دمشق
- الدليل الكامل لفن الكتابة في المسرح – دار البداية - الأردن
- أبناء سومر – دار دجلة – الأردن

.

أصبحت الحضارة السومرية موضع الاهتمام لدى العلماء وفرق التنقيب الأركيولوجي الكونية التي وفدت إلى العراق، والمعلومات التي نشرت تكاد تكون شحيحة جداً مقارنة بما نشر عن حضارتي بابل وآشور، ولقد راجعت أغلب الكتب والمنشورات التي وضعت عن تلك الحضارة فوجدتها غير كافية للتعريف بالحضارة السومرية وذاك الشعب المتفرد المتميز في البحث والإنجاز ، محاولتي هذه هي استمرار للبحث في الحضارات القديمة التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين وتضاف إلى الكتب المهمة التي أصدرتها من قبل مثل الأسطورة السومرية وكتاب الحضارة التي سبقت حضارة الإغريق والرومان وغيرها -هذه الدراسة تتكون من عدة أجزاء- الآن تمكنا من نشر الجزء الأول ونترك الخطوات الأخرى للمستقبل القريب إذا توفرت لنا الفرصة...

الكاتب د. شاكر الحاج مخلف/ الولايات المتحدة

دار دجلة ناشرون وموزعون
عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: 96264647550+ خلوي: 962795265767+
ص ب: 712773 عمان 11171 الأردن
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com







محمد خضير